

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية

محاسن العربية في المرآة الغربية

أو

دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية

تأليف

ديفيد جستس

ترجمة

الدكتور حمزة بن قبلان المزيني



كتب مترجمة

ح مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ١٤٢٥هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
جستس، ديفيد
محاسن العربية في المرآة الغربية أو دلالة الشكل في العربية في ضوء اللغات الأوروبية./ ديفيد جستس؛ حمزة بن قبلان المزيني .ـ الرياض
٦٦٣ ص؛ ١٧×٢٤ سم
ردمك: ×-٣٦- ٨٩٠-٩٩٦٠
١ ـ اللغة العربية أ. المزيني، حمزة بن قبلان (مترجم) ب ـ العنوان
ديوي ٤١٠ ١٤٢٥/٥٣٦٨

رقم الإيداع: ١٤٢٥/٥٣٦٨

ردمك: ×-٣٥-٨٩٠-٩٩٦٠

اصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية:
The Semantics of Form In Arabic, In The Mirror
of European Languaged
by: David Justice
John Benjamins Puplishing Company, 1987

مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
ص . ب ٥١٠٤٩ الرياض ١١٥٤٣

مقدمة المترجم

كنت قرأت هذا الكتاب بعد صدوره مباشرة ووجدتُه فريدًا في بابه من حيث معالجته لدلالة "الشكل" في اللغة العربية. لكن ما لفت نظري أكثر من غيره في الكتاب أنه تضمن "ردًّا" لكثير من المقولات المتحيزة ضد اللغة العربية. فقد عرض المؤلف لكثير من المقولات التي سادت في السياق الثقافي الغربي (والعربي) عن اللغة العربية، وأخذ يفندها الواحدة بعد الأخرى؛ ولم يكن ذلك "دفاعًا" عنها بقدر ما كان تجلية لأمر هام هو أن اللغة العربية لغة بشرية طبيعية تتضمن من الظواهر ما تتضمنه اللغات الأخرى (ومن هنا لا غرابة أن يكون اسمه "عدالة"!).

وكان جل تلك المقولات يقوم على جهل باللغة العربية وينطلق كثير منها من المواقف المسبقة عنها لأسباب إيديولوجية في الغالب. وقد بيَّن المؤلف أن من يتفوهون بتلك المقولات يجهلون لغاتهم هم، حقيقة. ذلك أن كثيرًا مما يعيبونه على اللغة العربية موجود في اللغات التي يتكلمون، لكنهم لا ينتبهون إليها.

وقد سعيت بعد أن قرأت الكتاب إلى ترجمته إلى العربية، لكن بعض الظروف أدت إلى الإبطاء في خروج الترجمة العربية. ومنها أن الكتاب صعب من حيث الموضوع، ذلك أن موضوع "الدلالة" يعدُّ من أدق المواضيع التي تتناولها اللسانيات. ثم إن المؤلف مغرم غرامًا شديدًا بالكلمات الغريبة واللهجية وتلك التي تعد من الألغاز وتلك التي تحيل إلى كثير من الظواهر والأحداث والشخوص الثقافية في اللغات الأوروبية. لذلك وجدت صعوبة بالغة في تتبع تلك الظواهر ولم تسعفني المعاجم في التغلب على تلك المشكلات في كثير من الأحيان. كما أنه يَكتب بأسلوب صعب جدًا بسبب تلعُّبه باللغة، وهذا ما أشار إليه بعض الذين راجعوا الكتاب حين نُشر (انظر ما كتبتْه باربارا جونستون، في مراجعة له كلها إطراء:

> "ويعمل [ديفيد جستس] في مؤسسة مريم وبستر [التي تنشر قاموس وبستر للغة الإنجليزية]، لذلك يبدو أنه قد أخذ على عاتقه حَمْل القراء على اللجوء إلى استعمال قواميسهم: فكتابه ملآن بالكلمات الانجليزية المهجورة والغامضة".

(Barbara Johnstone, Language, Vol. 64, No. 4, Dec., 1988, pp. 823-324.)

وسيجد القارئ بعض آثار هذه الصعوبات في الترجمة العربية، لكني حاولت قدر الإمكان تجلية القضايا التي عالجها المؤلف.

ومما أسهم في تأخر ظهور الترجمة أن الناشر الأصلي للكتاب أوضح لي أنه لا يمكن إعطاء حقوق نشره باللغة العربية إلا إلى ناشر معروف. وقد سعيت كثيرًا باحثًا عن ناشر يأخذ على عاتقه القيام بهذه المهمة؛ لكنني لم أجد كثيرًا من الاستجابة. وأخيرًا تفضل مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية بالاتفاق مع الناشر الأصلي، وهذا ما وضع حدًّا لهذا التأخير.

وكان المؤلف كريمًا في تجاوبه مع مشروع هذه الترجمة، وقد عرضتُ عليه ترجمتي لبعض الفصول فتفضل بقراءتها وشجعني على الاستمرار فيها. وهو الذي اقترح العنوان البديل للترجمة: ("محاسن العربية في المرآة الغربية") الذي يتماثل ـ كما يقول ـ مع عناوين الكتب العربية القديمة!

ولما كان الكتاب كبير الحجم فقد رأيت ألا أضاعف هذه المشكلة بتعليقاتي على بعض ما ورد فيه؛ إلا أني علقت في بعض المواضع على ما يحتاج إلى التعليق. وأرجو أن يحاول القارئ الوصول إلى مقصود المؤلف بجهده في محاولة فهم القضايا التي عالجها.

وأود في الختام أن أتوجه بشكري الجزيل للزملاء الذين قرأوا فصولاً من هذه الترجمة، وهم الدكتور جواد الدخيل والدكتور محمود نحلة والدكتور محمد ربيع الغامدي. وقد تفضل الزميل الأستاذ الدكتور فالح العجمي بترجمة النصوص التي أوردها المؤلف باللغة الألمانية، والزميل الدكتور محمد الزليطني بترجمة النصوص الفرنسية، والزميل الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الخانجي بترجمة النصوص باللغة الأسبانية، وقد تركت تلك النصوص بلغاتها الأصلية إلى جانب ترجمتها العربية. وأود كذلك أن أشكر طلاب الدراسات العليا في قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة الملك سعود الذين قرأوا الترجمة أثناء تدريسي إياهم مادة "علم الدلالة"، وكان لملحوظاتهم وتساؤلاتهم دور كبير في تجلية بعض المواضع في الكتاب. ولا شك أن المسؤولية النهائية عن الترجمة تقع عليَّ وحدي، لذلك أرجو من القراء الكرام إمدادي بما يرونه من ملحوظات عليها.

وأخيرًا أود أن أتقدم بالشكر إلى مركز الملك فيصل للدراسات الإسلامية الذي تفضل بالموافقة على نشر هذه الترجمة. وأخص بالشكر الزميل الدكتور يحيى محمود بن جنيد، الأمين العام للمركز والدكتور عوض البادي اللذين كان لتشجيعهما أثر كبير على استمراري في مغالبة الترجمة والإصرار على إنجازها.

ويطيب لي كذلك أن أخص مركز البحوث في كلية الآداب - جامعة الملك سعود ممثلاً بمديره السابق الزميل الدكتور عبد الغفور الروزي، والزملاء أعضاء المركز بالشكر على الدعم الذي قدمه المركز لي أثناء عملي بالترجمة وهو ما مكنني من إنجازها.

الرياض

حمزة بن قبلان المزيني

٥/ ٥/ ١٤٢٤هـ

٥/ ٧/ ٢٠٠٣م

مقدمة المؤلف للترجمة العربية

كان هذا الكتاب حين ألفته موجهًا للقراء الغربيين. وكان هدفي منه أن يقدِّم الغنى الذي تتميز به العربية لكي يتعرفه الغربيون ويقدروه، ولتفنيد بعض التصورات الخاطئة [عن العربية في الثقافة الغربية] كذلك. وهو لا يتطلب معرفة بالعربية، لكنه يتطلب معرفة عميقة باللغات الأوروبية.

ومن هنا، فوجئتُ، وسعدت، بأن ينقل إليّ الدكتور حمزة المزيني، أن متكلمي العربية أنفسهم قرأوا الكتاب وقدروه منذ حين. وأنا سعيد بذلك، لكنني قلِق أيضا، ذلك أن الكتاب (ويجب أن أعترف بهذا) ليس سهلاً حتى في الثقافة الغربية التي تتصف بالتنوع الثقافي: فكم من المثابرة الشُجاعة التي يجب أن يتحلى بها القارئ الشرقي، الذي تُغذي قيمَه الجمالية تقاليدُ مختلفة! [ليتمكن من قراءة للكتاب].

لكن الدكتور حمزة المزيني، الذي ترجم هذا الكتاب الطويل الصعب، أزال هذا القلق الآن. وهو يستحق شكر المؤلف وشكر القراء. أما ما بقي من الغموض أو التعبيرات التي لم تبيَّن، مما يمكن أن يكون سبق إليه قلمي في فترة الشباب وقلة التجربة، فأرجو من دارسي اللغة المثابرين أن يغفروه لي.

ويبدو لي أن اللغة أكثر حكمة من أفراد متكلميها، ذلك أنها تكتنز أحسن ما قيل فيها. وكم نحن بحاجة إلى الحكمة، في هذا الوقت الذي يعج بالمشكلات في العالم كله، وما أحوجنا إلى رؤية واضحة هادئة للتاريخ. والحق أن العالم قد مر في تاريخه بما هو أكثر سوءا، مرات عديدة، لكنه استطاع البقاء، بل أدى به ذلك إلى اكتساب مزيد من القوة.

أسأل الله أن يلهمنا المثابرة لكي ننجز ما يجب علينا عمله، وأن نتحرر من أخطائنا، وأن يشملنا برحمته، ونحن متَّصفون بالتواضع والصدق.

ديفيد جستس

٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٢م

مقدمة المؤلف

ظلت اللغةُ العربيةُ ضحيةً للتنميط والغرائبية نفسيهما اللذين عانت منهما اللغة الصينية، وربما أسهمت العواملُ السياسيةُ في تعاظُم سوء الفهم هذا. ومن شواهد ذلك أنه يمكن العثور على بعض الأحكام المماثِلة للحُكم التالي الذي ظهر في مراجعةٍ لكتاب جوناثان رابان: Arabia: A Journey Through the Labyrinth "الجزيرة العربية: رحلةً عبْر المتاهة"، وهو كتاب حاز ثناءً واسعا:

"تتسم لغةُ الجزيرة العربية على وجه الدقة، كما يقول المؤلف، بأنها متاهة من أشكال الغموض حيث تكاد تخلو من أية معان حرفية، إذ لا يوجد فيها إلا إيماءات رمزية وحسب. فهي لغة تعني فيها كلمةٌ واحدة، وباختلاف تصريفيٍّ ضئيل: "الجِماع" و"الاجتماعية" كليهما. ثم يَتَساءل المؤلف: هل من الغريب، والحال هذه، أن يكون من الصعب علينا فهم العرب؟" (أناتول بروريارد ٢٦ / ٩/ ١٩٧٩، نيويورك تايمز).

وليس بمقدورنا أن نتبين من هذه الفقرة إن كان المؤلف يتكلم عن إحدى اللهجات أم عن *العربية*، وهل يعني "التصريف" زائدةً تصريفية (أو، ربما، اشتقاقية)، أو نغمة صوتية، أو مفارَقة ساخرة. وليس هذا مهمًا، كذلك: ذلك أن كثيرًا من الغوامض في العربية، وفي اللغات الأخرى الغربية من غير شك، تتبخّر حين نسأل السؤالَ البسيط الآتي: هل الإنجليزية (أو الفرنسية، أو أية لغة أخرى نعرفها) تُشبه العربيةَ في ذلك، وهو التشابه الذي يَحْجُبه المظهرُ الأجنبي للكلمات العربية؟[1] لنأخذ الحالة التي بين أيدينا [أي دلالة كلمة واحدة، في العربية، على العملية الجنسية وغيرها]. فمن الملاحظ أنه يمكن أن يكون لكثير من الكلمات، في اللغات التي أعرفها، معان مختلفة في مجال الجِماع، بدءًا من كلمتي: make و do. . .[2]. وإذا لم نُقِرّ بتعدد المعاني في هذا الكلمات فربما يَلزمنا أن نفسِّر هذه الحالات بمفهوم المشترك اللفظي غير المفيد. ثم ماذا ستَظنُّ بلغة يمكن أن تكون فيها الكلمتان scatology "دراسة الرَّوث" و eschatology "دراسة المصير الأخروي" الكلمةَ نفسها؟ [وهي الأسبانية].

والغرضُ من هذا الكتاب أن يكون مرآةً لِسانية متعاطِفة مع العربية. وسوف تستقصي هذه الدراسة الاستراتيجيات والبنى التي تبدو كأنها تميِّز هذه اللغة، وسوف تحاول أن تُجلِّي عنها الغموض بإيراد المشابهات الأساسية لها في اللغات الأوروبية المعروفة. وغرضي هنا ذو شقين: أن أكشف للقارئ الخصائصَ المتحقِّقة في الفضاء اللغوي العربي، وأقصد بذلك الارتباطَ بين الوزن والمعنى الذي يمكن أن تفخر به العربية فخرًا خاصا؛ ثم أكشف، حين يكون ذلك ملائما، الإجراءات الشكلية التي نستعملها نحن في لغاتنا لنؤدي الأغراضَ الدلالية نفسها.

وبهذا يمكن أن يَكْتَشِف ما يُسمى بـ"مجموع المتوسط النموذجي للغات الأوروبية" *والعربيةِ* أن إحداهما صورةٌ منعكِسة للأخرى. وهناك حافز آخر لمحاولة التقريب هذه؛ ذلك أن الصورة النمطية للعربية كثيرًا ما تصل إلى حد بعيد من السوء. وسوف نعالج هذه المسائل مباشرةً في الفصل الثاني.

والاهتمام المُوحَّد لفصول الكتاب اهتمامٌ دلاليٌّ في المقام الأول، وهو: كيف نعبِّر عن ما نعْنيه حين نتكلم، وكيف يتأثر نمطُ تعبيرنا بوجود طريقة جاهزة في متناولنا لِقول ما نقول. وهذا ما سأعالجه هنا بعيدًا عن اللجوء إلى مسلمات نظرية خاصة بالسِّمات المميِّزة أو المحمول الذَّري [أي باستعمال المصطلحات اللسانية الدقيقة]. وسوف تكون المعالجة مقصورة على تناول الارتباط بين الدلالة والتركيب الصرفي.

ولدراسةِ أهمية الشكل يمكن لنا أن نستعمل مصطلح "صرفي ـ دلالي" ["الصرْدَلَة"]. وستثير هذه الدراسة أسئلة مثل: إذا نحَّينا المعاني الخاصة للكلمات المفرَدة جانبا، فما معنى الشكل، أو المعنى الأيقوني [التجسيمي]، لِكَوْن الكلمةِ طويلةً، أو مُؤلَّفَة من عناصر أصغر، أو مضعَّفة، أو أنَّ لها ارتباطات شكلية ببعض الكلمات المعيَّنة الأخرى؟ وكيف تتأثر فاعليتُها، بوصفها وحْدةً من وحدات اللغة، بهذه العوامل، أو بكَوْنها كلمةً يمكن تحليلها صرفيًا إلى مكوِّنات أصغر في مقابل كلمة بسيطة أخرى؟ وهل يمكن، إذا غضضنا النظر عن كيفية تركيب المبني المجهول وتكوين جُمل الصِّلة وما أشبه ذلك، أن نصف تركيبَ لغة معينة بصورة عامة، أو يمكن أن نصف لغة ما، إذا غضضنا النظر عن رصيدها الأساسي من الصوتيات والطرق التي تتألف بها بعضها إلى بعض، بأنها 'موسيقيَّة' أو ما أشبه ذلك؟ وإذا

تجاوزنا معاني الكلمات المفردة في لغة معينة، فما الأهمية التي يمكن أن نُسْبغها على كون معجمها ضخما، أو أنه حافل بالمترادفات doublets، أو أنه مكوَّن في الغالب الأعم من كلمات تصاغ من عدد قليل من الأوزان، أو أنه ينقسم إلى كلمات أصلية وكلمات مقترَضَة، و كلمات أجنبية؟

وأوضح نوع لدلالية الشكل هو تجَسُّمُه، وسوف يرد هذا الموضوع في مواضع كثيرة من هذه الدراسة، كما سيكون موضوعًا للفصل الخامس.

التعليقات

(١) ـ للاطلاع على تجربة فكرية بسيطة Gedankenexperiment مشابهة على لغة مألوفة يُقصَد منها خَلْقُ منظورٍ لِلْتسامح مع غير المألوف، انظر ماكس مولر، ص ٢٥٩ ، الهامش.

[وأود ملاحظة أن المقصود بالعربية حين تُكتب بالخط المائل في ترجمتي لهذا الكتاب هو "اللغة العربية الفصحى" (المترجم)].

(٢) ـ بل إن الضمير المحايد المسكين نفسَه لم يَسْلم من إسباغ دلالةٍ جنسية عليه في الغرب: لاحظ مثلا: the 'it' girl ، و le ça ، وdas Es. .

وليس هناك أي ارتباط معجمي بين اجتماعي والجماع في اللغة العربية النموذجية، ولا في لهجة اللغوي السعودي سعد الصويان الذي اقترح أن المثيل الغربي المعاصر المشهور في الغرب هو الإشاعة عن أصل عبارة "الاشتراكية في النساء". ثم قارن بين: social democracy vs. social disease "الديموقراطية الاجتماعية" في مقابل "المرض الاجتماعي"، في الإنجليزية. (واللغات حافلة بمثل هذه الأنواع الحاذقة من تعدد المعاني، نحو: cunning "الحكمة"؛ و"المعرفة الشهوانية" في اللغة الإنجليزية القديمة).

فإذا لم يكن رابان يعني "الجناس" بل "الترادف الناقص" homoionyms فربما تكون هاتان الكلمتان اشتقاقين مختلفين من الجذر (ج م ع)، وبهذا يشبهان الاستعارة الموجودة في كلمة: copulate "يجامع" في الإنجليزية.

وللاطلاع على تحذير مماثل يقوم على المبدأ المقارن نفسه، مأخوذ من تاريخ اللسانيات الرومانثية، انظر نقاش ملاحظات يوجين ليرخ عن الشخصية القومية الفرنسية كما تبدو في فصل بعنوان: Heischefuturum في كتاب Iordan-Orr، ("مقدمة في اللسانيات الرومانثية"، ١٩٣٧، ص ١٢٩ من طبعة ١٩٧٠ المعدَّلة التي صدرت عن دار نشر جامعة كاليفورنيا) [واللغات الرومانية هي اللغات التي تفرعت عن اللغة اللاتينية. ومن هذه اللغات: الإيطالية والأسبانية والبرتغالية والفرنسية. (المترجم)].

على تحديد الخصائص التي تميِّز الصورة *النموذجية* للعربية: لهذا سوف نستعمل مصطلح "العربية"، في الغالب، في الدلالة على النصوص النثرية التي أنجزت في العصور المتأخرة عن تلك الفترة.

ويمكن أن نلحظ هنا أن ظروفًا عديدة تضافرت على استمرار صلاح انطباق هذا الوصف على الإنتاج الأدبي والرسمي عبر العصور حتى عصرنا الحاضر، ومن هذه الظروف: مركزيةُ القرآن لِدينٍ عظيم، وهو الكتاب الذي لم يُترجم ولم يُعَدَّل؛ والمكانةُ السامِيَة للشعر عند العرب، عبر العصور كلها تقريبًا في بعض الأقطار المهمة في الأقل؛ ومتطلباتُ التوسع الإمبراطوري الذي تلا البعثة المحمدية مباشرة؛ وعدمُ وجود أيِّ مركزٍ لغويٍّ مسيطر دائم في الأزمنة المتأخرة في الأقل وهو الذي كان يمكن أن يَنْتج عنه فرضُ نموذجٍ [لغويٍّ] قريبٍ من الكلام المحلي الذي كان يتطور في ذلك المركز. لذلك فحين أستخدم مصطلح "العربية" ربما أشير به إلى شيء أقدم من قصيدة Beowulf [وهي ملحمة طويلة تنتمي إلى فترة قديمة في الإنجليزية] أو شيء معاصر للصحيفة اليومية التي صدرت بالأمس - وهو وضع غريب من وجهة نظر القارئ الذي درس اللغات الألمانية أو الرومانثية، ومع هذا فهو وضع له ما يسوغه لغويًا من أجل الأهداف العريضة للدراسة الحالية. ولاشك أن هناك اختلافات في المعجم والأسلوب، وهناك اختلافات ليست أساسية في النحو، في فترات مختلفة، لكنها ليست أكبر، من حيث النوع، من الاختلافات التي نجدها بين الأسلوبين المستخدمين في مجلتيْ Nature و Time ، أو الاختلافات بين أسلوبيْ جوته [الشاعر الألماني] القديم والمتأخر. وإذا ما رغبنا تجزئة هذه اللغة النموذجية تاريخيًا بصورة تقريبية يمكن تجزأتها باستخدام مصطلحات مثل "العربية المبكرة" في وصف لغة الشعر الجاهلي ومُقلِّديه، و"*العربية*" للفترة التي بين ظهور الإسلام وأية فترة من فترات الانحطاط والأزمنة الصعبة المتوالية بدءًا من القرن الحادي عشر [الميلادي] تقريبًا، و"العربية النموذجية المعاصرة" لشكل *العربية* المعاصر المستخدَم في الصحف والكتب والمحاضرات والأخبار الإذاعية والتلفازية. كما يمكن أن يطلق على هذه الأطوار كلها مصطلح "اللغة العربية الأدبية"، أو "اللغة العربية" اختصارا.

ولن أستخدم في هذه الدراسة مصطلح "العربية"، من غير تحديد، لوصف أية لهجة قديمة أو حديثة، وإن كان لهذه اللهجات الحق في أن توصف بأنها "عربية" مثلما توصف "الكانتونية" بأنها "صينية". وينبغي ألا يُتوقع أن تنطبق الأحكام التي أطلقُها على "العربية"، لزومًا، على أية واحدة من اللهجات، ذلك أن اللهجات - مع أن أغلبها أقل اختلافًا بعضه عن بعض من اختلاف الفرنسية اليومية عن اللاتينية[٢] - تمثّل لغاتٍ مختلفة كما تمثل بالأخص منظومة من الديناميات اللسانية الاجتماعية المختلفة جدا.

***

ولما كان المسارُ التاريخي الاجتماعي واللغوي للعالَم اللاتيني/ الروماني والمسارُ التاريخي الاجتماعي واللغوي للعالَم المستعمِل للغة العربية يتميزان كلاهما بالغنى الفائق وبعدد لا حدَّ له من التنوعات الخاصة في كلٍّ منهما، فمن الطبيعي أن نجد عددًا كبيرًا من أوجه الاختلاف بينهما؛ ومن غير أن نتحول إلى متخصصين في هذين المجالين الشاسعين، ربما يكون من المفيد، في رأيي، أن نتصور التطورات العربية بالقياس على تجربة اللغات الرومانثية. فقد سُلِّم زمام قيادة التاريخ، في الحالتين كلتيهما، إلى قومٍ قليلي العَدد، ولم يكونوا على درجة كبيرة من التقدم، ثم أصبحوا نواةً لتوسُّعٍ إمبراطوري هائل. وقد طوَّرت الأمّتان كلتاهما أدبًا غنيًا صيغ بلغة مُتَمأْجة (وهي لغة تُمأْجت منذ البداية تقريبًا، نتيجة للتطور الذي شعَّ من مركز محدَّد)، ومتزامنًا مع قَدْرٍ من الدرس النحوي (وتميز هذا الدرس، في العربية، باستقصاءٍ وإتقان، أكثر شبهًا بالدرس الذي أُنجِز في اللغة السنسكريتية منه بما حدث في اللغات الرومانثية، ويعود ذلك، مرة أخرى، إلى مركزية النصوص المقدسة). ورافق توسُّعَ الدولةِ أن أصبحت اللغة، في الحالين كليهما، الوسيلةَ الرئيسة للاتصال بين أقوام كانت تنتسب في الأساس إلى مجموعات لغوية مختلفة، ومع ذلك استطاعت قوةُ المعيار أن تستأصل، في الأشكال اللغوية المكتوبة في الأقل، الاضطرابَ المتخفي في الآثار المتنوعة للغات المحلية. وعلى الرغم من انحلال القوة المركزية (وهو الانحلال الذي زادت من سرعته، في الحالين كليهما، غزواتُ الأقوام المتخلِّفة التي وَقَعتْ فيما بعد تحت التأثير الديني واللغوي للأقوام المهزومة)، ظلت اللغةُ النموذجية اللغةَ الثقافية المشتركة الوحيدة المُمكِنة لأمم تعيش

في مناطق مترامية الأطراف: وهذا ما حدث للاتينية في العصور الوسطى، وللعربية النموذجية في العصور الوسطى وللعربية النموذجية المعاصرة. ويقف التشابه بين اللغتين عند هذا الحدّ، إذ اتخذت اللغتان مسارين مختلفين: فقد تزامن تحول اللهجات الرومانثية ـ لتصبح لغاتٍ نموذجية ـ مع انحسار سيطرة اللغة اللاتينية، وهي التي لم تَعُد الآن في متناول حتى أولئك المتكلمين الذين لم تتحول لهجاتهم إلى لغات نموذجية مكتوبة ـ كاللادين، والدلماتيين ـ أما في العالم المتكلم بالعربية فلم تُرْتقِ أيةُ لهجة إلى مكانة اللغة النموذجية المكتوبة حتى في المنطقة التي تُستخدم فيها تلك اللهجة، لهذا ظل متكلمو اللهجات العربية إلى الآن يستعملون اللغة القديمة المُثقَلة بالتاريخ في الأغراض الأدبية والرسمية.

ومن هنا يلزمنا، في محاولة جعْلِ الغريبِ يبدو مألوفا، أن نلجأ في مناسبات كثيرة في هذه الدراسة إلى مقارنة ما في العربية بما في اللغات الأوروبية الحديثة المعروفة، أما فيما يخص الديناميات اللسانية الاجتماعية للغة العربية في العصور المتأخرة فسوف نلجأ إلى مقارنتها بلاتينية العصور الوسطى بدلاً من ذلك.

***

ولا يقتصر الأمر على صعوبة رسم حدود اللغة [العربية]، إذ تتمثّل هذه الصعوبة أيضًا في رسم الحدود بين المستويات والأنواع الأدبية فيها، وهو ما يوجب قدرًا من الحيطة في هذه الدراسة التي تهتم بالأسلوب والتركيب. وسوف أهتم من حيث المبدأ بشيء يقرب من الوسط ـ ذلك أنني لن أستشهد بجُمل مأخوذة من كلام مُخبرين لغويِّين، ولن آخذها من شعرِ شاعرٍ معين ذي خصوصية معينة، بل سآخذها من النثر السردي المألوف. غير أنه بعد نزول القرآن الذي تناسب الفواصل فيه (وإن كان هذا التناسب لا يصل إلى حد القافية بالمفهوم الشعري الدقيق) ويتصف بالوزن من غير أن يصل إلى أن يكون عروضيًا، صارت الحدودُ بين الشعر والنثر مشوشةً شيئًا ما. إذ انتقل استعمال الأسلوب الإيقاعي المألوف عند الكهان القدماء بعد ذلك إلى الرسائل (الديوانية، في البداية، والشخصية فيما بعد) وإلى أنواع الكتابة الأخرى. ويصف أ. ميز اللغةَ العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين قائلا:

Die Briefe sind heute noch mit Genuss und mit Staunen über die Meisterschaft zu lesen, die selbst geschäftlichen Mitteilungen den

Köstlichen Mantel feinster Diktion umhängt und mit verschwenderischer Leichtigkeit End- und Anfangsreime, Wortspiele und -verschlingungen ausstreut. Und trotzdem erstickt der Sinn der Sätze nicht,

"لا تزال الرسائل إلى اليوم تُقرأ باستمتاع ودهشة عن البطولة التي تُطرِّز أخبارها بشتى الحلى عن الروايات التجارية، وتدبّج بداياتها ونهايتها بالسجع في سلاسة باللغة، كما تمتلئ بالألعاب اللفظية الموزعة في متاهات الشكل المبالغ فيه. ومع ذلك لا يَختنق معنى الجُمل".

وقد اضمحل هذا الظرف الأخير السعيد بعض الشيء في القرون المتأخرة التي اشتهر الأدب فيها بالحلى اللفظية (١٩٢٢، ص٢٣٢).

لذلك لن ينطبق ما سأقوله عن بعض الظواهر كالمغايرة التناظرية (الفصل الرابع) والتراكم (الفصل السادس)، او الحشو (الفصل العاشر) على أنواع "العربية" كلها من غير تقييد، كما أنه ليس بالإمكان القيام بعزل الأسلوب من أجل أن نكشف عن تركيب اللغة "غير الموسوم". لذلك ليس بإمكاننا أن نقول إلا ما قاله نولدكه: "من الممكن نظريًا فصل علم الأسلوب عن دراسة القواعد، لكن ذلك غير ممكن عمليًا".

Stil und Grammatik lassen sich wohl theoretisch, aber nicht praktisch trennen. (1897:7)

التعليقات

(١) ـ وقد كتب تيودور نولدكه، في إشارته إلى وجود مثل هذه الاختلافات (نحو ظهور ضمير الجمع المنصوب (ـين) بدلاً من الضمير المرفوع (ـون):

"نستطيع أن نحكم على نص القرآن، من خلال هذه الصيغ ـ بالذات ـ التي أرهقت المفسِّرين، بأنه لم يخضع للتغيير اللغوي".

"Gerade aus diesen Formen, die den Auslegern Schwere Not machten, kann man aber sehen, dass der Text des Korâns eben nicht einer sprachlichen Aufputzung unterzogen worden ist." (1897:5)

(٢)ـ وربما لا يكون هذا صحيحًا إذا نظرنا إلى اللهجات التي كانت نتيجة للاتصال بين العربية وغيرها من اللغات كاللغة المالطية (وهي التي يمكن مقارنة وضعها بالنسبة للعربية بوضع اللغة الرومانية [نسبة إلى رومانيا]). وعلى أية حال، يصعب قياس مثل هذه الاختلافات اللغوية، وهي اختلافات تشمل بعض الأبعاد البنيوية والمعجمية، والسياسية غير المتكافئة المتداخلة. وأود هنا أن أستشهد بما كتبه أحد المتخصصين عن المسألة نفسها، بغض النظر عن قيمة هذا الاستشهاد، في اللغات الهندية الأوروبية؛ يقول أنطوان ماييه (١٩٢٨، ص٩):

"على الرغم من طابع المرونة والتنوع الذي تتميز به الفصيلة السامية عن الفصيلة التركية إلا أنها بَدَت أقل قدرة من الفصيلة الأوروربية على توليد نوعيات لغوية جديدة. لذلك لا نجد في العالم العربي أي شيء يقارب ذلك التنوع الغني الذي يشهده عالَم اللغات الرومانثية كالإيطالية والأسبانية والرومانية والقشتالية والبروفانسية والفرنسية والرومانية. كما أن بنية العربية المعاصرة ظلت شبيهة جدًّا ببنية لغات سامية يرجع تاريخها إلى ثلاثة آلاف سنة؛ وعلى الرغم من الاختلاف الكبير الذي بينها تبقى اللهجات العربية المعاصرة محتفظة بالبناء النحوي نفسه".

"Bien qu'autrement souple et varié que le turc, le type sémitique s'est montré moins capable de fournir des types nouveaux que l'indo-européen. Et, dans le monde arabe, on ne voit rien de pareil à la riche variété qu'offre le monde roman, avec l'italien, l'spagnol, le portugais et le catalan, le provençal et le français, et enfin le roumain. La structure de l'arabe d'aujourd'hui est encore toute semblable à celle des langues sémitiques d'il y a trois mille ans: si éloignés qu'ils soient les uns des autres, les parlers arabes actuels offrent tous un

même type grammatical."

وتظهر هنا مرة أخرى مشكلةُ سَعَةِ هذا المصطلح: فنحن ربما لا نستطيع إطلاق مصطلح "اللغة العربية اليوم" بشكل غير مختلف عن المصطلح "اللغة العربية المتكلَّمة الفعلية". وعلى أية حال، فما يهمنا هنا هو أن اللغة العربية "النموذجية" لم تتغير بشكل كبير يوجب عند الكلام عنها في هذا الكتاب أن نتحرى عند كل منعطف السَّنة التي كُتبت بها جملة معينة.

الفصل الأول
صعوبة اللغة العربية

اشتهرت *العربية* بأنها "لغة صَعبة". ومن ذلك أن معهد الخدمة الخارجية [وهو معهد لتعليم اللغات الأجنبية يتبع وزارة الخارجية الأمريكية] يصنِّفها في قائمته لـ "أصعب" اللغات، وهي القائمة التي تحوي ـ إضافة إليها ـ الصينية واليابانية والكورية فقط؛ ويُنظر إليها في مقياس هذه الصعوبة على أنها أكثر صعوبة من الأمهرية والعبرية والسنهالية ولغة الخمير[١]. وقد حذّرنا المدرسُ الذي درَّسنا العربية في السنة الأولى من أننا سندرسها عشر سنوات قبل أن نجيدها إجادة كافية (ويجب ألا يُنصح بمثل هذا القول، كإجراء تربويٍّ، حتى إن كان صحيحا).

وحين يريد الناس دراسة لغة أجنبية، أو إسداء نصيحة لصديق بهذا الخصوص، تكون "صعوبةُ" اللغة الأمرَ الأول الذي يشيرون إليه. وتقوم مثل هذه الأحكام، شأنها شأن أغلب الاعتقادات الشعبية عن اللغة، على سبب ما؛ لكنْ يجدر باللساني أن يجعل إحدى أولوياته الكشفَ عن الأسس التي تقوم عليها هذه الاعتقادات. إذ ما الذي يعنيه القول إن المتكلمين للإنجليزية يؤكّدون دائمًا أن الألمانية أصعب من الفرنسية، مع أن الألمانية أقرب إلى الإنجليزية من حيث النَّسَب؟[٢] ومن المتوقع أن تلْفِت مثلُ هذه المسألة انتباهَ اللسانيين. ومع ذلك لن يكون تفسير الاعتقادات اللغوية الشعبية نفسُه، بل يمكن أن نقول التحليل النفسي لها، تفسيرًا أو تحليلاً لسانيًا خالصا.

***

أما أنا فقد وجدتُ اللغةَ العربية أكثر صعوبة من اللغات الهندية الأوروبية الحديثة التي درستُ، لكنني انتهيت إلى أن الجانب البنيوي المحض ـ أي نظامها اللغوي المجرد ـ لا يُسهِم في هذه الصعوبة إلا بقدر ضئيل.

فاللغة /العربية، من حيث البِنْية، لغةٌ مطردة ومصقولة بشكل غير معهود. ويجب أن تُسهِم العوامل التالية في سهولة تعلُّمها:

١ ـ أن الأفعال كلها مطّردة بشكل عام، عدا فِعلَ "الكَوْن"، مع وجود عدد قليل من القواعد الصّواتية الضرورية التي تعمل على الكلمة لتصل بها إلى شكلها المنطوق، وهو ما يمكن مقارنته بالقواعد الصّواتية التي تعمل لاشتقاق صيغة الماضي في الإنجليزية: /w kt/ 'walked' "مشى"، في مقابل: /lægd/ 'laged' "تلكأ"، في مقابل /hîdəd/ . أما بعض الخصائص التي ربما يَصعُب التنبؤ بها (كالحركات القصيرة في الأفعال الثلاثية المجردة) فهي من النوع الذي ينشأ عنه بعض الصعوبات في إنتاج الكلام لا في تأويله ـ ومما يدل على ذلك أن أغلب النصوص لا تكتب فيها الحركات القصيرة بشكل مطلَق. (وهناك وجه آخر لهذه المسألة والمسائل التالية؛ لكنْ سأقتصر في تقديم هذا الأمر على وجه واحد، كما يفعل المحامون).

٢ ـ وتُبنى معظم المعجميات lexemes من ثلاثة أصوات صامتة تدخل في عدد قليل من أنماط الحركات (الأوزان): لهذا لا تشكو اللغة العربية من الكلمات الضامرة، كاللغة الفرنسية [التي توجد فيها كلمات مكوَّنة من مقطع واحد، ويمكن أن تعني كلمات مختلفة]، نحو [كالتي تُنطق جميعها على صورة الحركة الخلفية المتوسطة [o]:

/o/ au, aux, eau, eaux, ô, O, haut, hauts, aulx, os (pl)

أو من الكلمات الطويلة التي تتعدد فيها المقاطع، كما في الكلمات التالية من الألمانية والإنجليزية:

sesquipedalian
lexicopoeia
Brobdignagian
Zusammensetzungen

٣ ـ أما التركيب فَمَطّرد إلى حد بعيد؛ انظر الفصل التاسع.

٤ ـ وليس في العربية إلا المذكر والمؤنث، وباستثناء عدد محدود من الحالات، يَخضَع التذكير والتأنيث لقاعدة دلالية واحدة، إذ يمكن تحديد جنس الكلمة بالنظر إلى صيغتها.

٥ ـ وهناك ثلاث حركات للإعراب فقط، وتظهر كل واحدة منها في مواضع تكاد تكون محدَّدة: إذ نجد الكلمة منصوبةً حين يَعمَل فيها الفعلُ (ويشمل ذلك الظروف)، ومجرورةً حين يعمل فيها اسمٌ [في تركيب الإضافة] أو حرفُ جر، ومرفوعةً حين لا يعمل فيها عامل (أي الفاعل، والمبتدأ والخبر). يضاف إلى ذلك أن هناك بعض الاستعمالات المَثَليّة Idiomatic التي لا تُمثّل أيةَ مشكلة وربما لا تخضع لقواعد التركيب ومن غير الممكن التنبؤ بها بمبدأ عام، نحو: "سُكوتًا" (قارن ذلك بالتعبير: Silly me! "ما أغباني!"، في مقابل: The more fool he! "كم هو غبي!" في الإنجليزية، و: O mich vergesslichen! "ما أكثر ما أنسى!"، في مقابل: "أيها الخبيث!" Du Schalk! في الألمانية)، أو "واللهِ"، في مقابل: "لَعمرُك".

ولا يتغير شكل حركة الإعراب أساسًا في الأسماء كلها (الصفات والأسماء الحقيقية)، إذا استثنينا بعض التفصيلات القليلة في الأسماء المبنيّة أو التي لا تُعرَب إعرابًا كاملا [الممنوعة من الصرف].

٦ ـ ولخضوع العربية لخطة الاشتقاق الوزني تُشتق كثير من الكلمات تبعًا لأوزان معينة من جذر واحد وتوحي بمعناها. ومن أمثلة ذلك: "أكَلَ"، "أكْل"، "أكْلَة"، "أكّال"، "مأكول"، "مُؤاكِل"، "أكّال"، "تأكُّل". وربما يُخفّف هذا عن الذاكرة (لكن انظر ما يأتي). وتُقارن الفرنسيةُ مقارنةً ليست في صالحها (فيما يخص العبء المفروض على الذاكرة) بلغات كالإيطالية أو الألمانية في مسألة الوضوح الاشتقاقي: حيث نجد في الفرنسية:

Cœur "قلب"، في مقابل: crise cardiaque "أزمة قلبية" (وفي الألمانية Herz في مقابل Herzanfall)

Évêque "أسقف"، في مقابل: épiscopal "أسقفي"

(وفي الإيطالية vescovo, vescovile).

أما العربية فتقع على الطرف الأقصى من الاطراد الاشتقاقي.

٧ ـ ويحافِظ نظامُ الكتابة محافظةً كبيرة على تمثيل الصوتية الواحدة بحرفٍ مفرد بشكل يفوق اللاتينية نفسها (إذ لا يميز فيها بين الحركات الطويلة والقصيرة)، والإيطالية (حيث نجد

خمسة حروف لتمثيل سبع حركات). والأسبانية (في النطق المختلف للحروف: v, b; y, ll عند أكثر المتكلمين، ونطق الحروف: s, z , c عند كثير منهم)، واليونانية القديمة التي كثيرًا ما تُمتدح بالاطراد (نحو: طول بعض الحركات؛ وكتابة بعض الحروف التي لا تنطق، مثل: psi و xi ، وغير ذلك)، ولسنا بحاجة إلى الفظائع الموجودة في كتابة الإنجليزية والفرنسية، إذا لم نذكر اللغات التي تُوجد إلى جانب العربية في قائمةِ معهد الخدمة الخارجية، كالصينية واليابانية.

***

وليس في العربية إلا مشكلة واحدة عامة وهي مشكلة بنيوية تحديدا: وهي أنه لا يمكن التنبؤ بجمْع الاسم. فهناك عدد من الاحتمالات النظرية [لجمع الاسم الواحد]، وهي احتمالات تُحكِمها صيغةُ المفرد نوعًا ما. لكن حتى هنا لا يبعد عدد الخصائص التركيبية الخاصة بكل اسم كثيرًا عما في الألمانية، حيث يتلازم تزايدُ غموض صيغة الجمع مع تزايد عدم وضوح جنس الاسم، أو عما في اللاتينية حيث نجد قدرًا من عدم إمكان التنبؤ عبر الحالات الإعرابية المختلفة، نحو:

rêgum ، rêgês، rêgis ،rêx

في مقابل: ، cîvês ، cîvis ، cîcîv-i-um vis

أما أسباب صعوبة العربية فتقع خارج اللغة بوصفها نظامًا مجرَّدا. وهي أسباب تاريخية وأسلوبية واجتماعية.

١ ـ لما كانت *العربية* لا تُستعمَل اليوم إلا في الكتابة والاتصالات الشفهية التي يغلب عليها التكلف والأخطاء، فإن مُتعلِّمَها المعاصرَ لا يتلقى إلا قدرًا ضئيلاً من التعزيز الذي يأتي عن طريق السماع. ويمكن أن تمثِّل هذه المشكلة حجرَ عثرة لا يستهان به، إذ إن كثيرًا من الناس تنطبع الكلمةُ المسموعة في أذهانهم أفضل مما تنطبع الكلمة المكتوبة.

٢ ـ وحين نُطلِق مصطلحَ "العربية" فإننا نعني ـ حتى مع استثناء اللهجات ـ متواصلاً تُدخَل فيه *العربية* (ويشمل ذلك "اللغةَ ما قَبْل *العربية*") وأنواعُ العربية النموذجية المعاصرة: وربما لا يمكن للمتكلِّم، عَمليًا، أن يكون مقصورًا على نوع واحد منها. بل حتى لو تجاهل المرء

الكتابات العربية كلها التي تنتسب إلى الفترات القديمة، كما يفعل الطلاب عادة حين يتعلمون الفرنسية أو الألمانية، فربما لا يمكنه الهروب من الماضي المُثقل بفنون القول والمعجم. ذلك أن العربية تتضمن كلمات استُعملت فيها عبْر القرون وكلمات جُمعت من عدد من القبائل والأماكن (انظر الفصل السادس). وهي لغة ذات تراث أدبي غني لا مثيل له، ولغة دينٍ عالَميّ، كما أنها لغة إمبراطوريات عديدة. ويتمثل دورُها جزئيًا في كونها سِجلاً ثقافيًا حيًا، إذ هي سِجلٌ ناطق: فإذا ما استُخدِمت كلمة في القرآن أو في الشعر القديم فإنها تبقى حيةً ويمكن لها أن تُستخدَم. وتشبه الإنجليزيةُ العربيةَ في كون مفرداتها الهائلة المتنوعة جاءت نتيجة لمحافظة الأدب عليها، في حين خضعت الفرنسية لثورة معجمية مطردة في القرن السابع عشر. ومع هذا لا يمكن للكاتب الإنجليزي الرجوع إلى أبعد من أواخر القرن السادس عشر، في حين يمكن في العربية أن يعود الكاتب العربي إلى القرن السابع [الميلادي]. فإذا كَتب كاتب إنجليزي جملاً كالمثالين التاليين المأخوذين من شكسبير:

make the welkin ring

أو:

leave not a rack behind

فيلزمك أن تفهَم ما يعنيه، أو أن تلجأ إلى معجم؛ أما إنْ كَتب:

wlatsom

أو:

swevenes engendren of replexiouns

(تشوسر)

فإن هذا الكاتب قد تجاوز حدود المألوف في الأدب.

ويصبح هذا الغنى المعجمي [في العربية] مشكلةً للمتعلم الأوروبي لأنه سيُواجَه بواحد من هذه الأمثلة، مثلاً، بل سيواجِهها في وقت مبكر. ويختلف هذا عن حال تعلُّمه الفرنسيةَ الذي يبدأ بقراءة الروائيَّيْن السَّهْلَيْن موباسان وكامو، وتأجيل كوينو Queneau ورابيليه Rabelais حتى فترة متأخرة جدا. وحين يَتعلّم الفرنسيةَ أو الروسيةَ يكون على درجة كبيرة من اليقين مما تعنيه كلمات مثل "ذراع" أو "طاولة"، أو "نافذة" أو ما إلى ذلك، في الفرنسية أو الروسية. ذلك أنك حين تتعلم اللغة تبني منظومة من الإجابات الجاهزة، مثل:

"ذراع": /bras/ brazo/Arm/ /ruká/

"طاولة": mesa /Tisch/ stole

و:

fenêtre /ventana /Fenster / oknó

أما في العربية فستجد عددًا مختلفًا من الألفاظ لها النِّسْبَةُ نفسُها من الشيوع. فلكلمة "ذراع" الألفاظُ المترادفةُ التالية: "ساعد"، و"عضد" و"ذراع"، وبنسبة أقل: "ضَبْع". (وما يقترحه المعجم عن التمييز بين "الذراع الأعلى" و"الذراع الأسفل" في هذه الكلمات لا يظهر دائمًا في السياق). أما ما يُطلَق عليه في الإنجليزية table ، فيسمى في العربية "طاولة"، و"مائدة"، وفي بعض الأحيان "خِوان")[٣]، إلى جانب الكلمات اللهجية مثل "طرابيزة" (وتنطق أحيانًا بتفخيم "الزاء") وهي التي تُستعمَل غالبا. أما window فهي: "نافذة"، و"شباك"، و"طاقة"، وفي بعض الأحيان "كُوَّة". فلا يقتصر الأمر على وجود عدد كبير من الكلمات التي يجب أن تتذكرها في الدلالة على عدد كبير من المفاهيم، بل إنك لن تُواجِه أيًا من هذه الكلمات، غالبًا، إلا مرة واحدة فقط، وهو ما يشبه عدد مرات سَماعِك bras/brazo، وغير ذلك. وبما أننا نتعلم عن طريق التعزيز فقد يأخذ تعلُّم كلمةٍ ما منا ضِعفَيْ ما تأخذه الكلمة الواحدة من الوقت [لتعلُّمها] في العادة.

وبعض هذه المترادفات ليست حقيقية، إذ إنها تنتج عن تفصيل بعض متكلمي العربية لِلكَوْن تفصيلاً مختلفا، لكن أثر هذا الترادف لن يكون مختلفًا في الأطوار الأولى من التعلُّم، وهو ما يُضيف طبقةً أخرى من التعقيد للأطوار التالية منه.

٣ ـ ولا تُكتب الحركات في النصوص غالبا. وهذه المشكلة سببٌ للشكوى المتكررة، لكن يَحسُن بنا أن نُبيِّن موضعَ الصعوبة بدقة في هذا الشأن، فهي لا تختلف كثيرًا عما يمكن أن يَحدُث للفهم لو تعرَّضت الحركات في الإنجليزية أو الفرنسية للحَذْف. فلا ينشأ عن حذف الحركات القصيرة وحده في الكتابة مشكلةٌ كبيرة بعد أن يُجيد المتعلمُ العربيةَ، بل إن هذا الحذف اقتصاديٌّ بشكل يدعو إلى الإعجاب، إذا ما أخذنا بنية اللغة العربية في الحسبان. فليس هناك إلا ثلاث حركات للاختيار من بينها، ولا يوجد إلا عدد قليل من الكلمات التي لا يُميِّز بينها إلا حركةٌ قصيرة[٤]، مقارنة بالفرنسية أو الإنجليزية [التي توجد فيها كلمات كثيرة لا يميز بينها إلا حركات قصيرة]:

‘pon my word ، pun ، pan ، pen ،pin

أما عند المتعلم، من جهة أخرى، فتستفيد الممارسة من المحاكاة الصامتة غير الشعورية أثناء القراءة، وهي إحدى الطرق التي تُستغل في التدرُّب على تثبيت اللغة الجديدة في الدماغ.

بل سيظلُّ الاقتصاد الكتابي يُنغِّص حتى على الطالب الذي وصل إلى طور متقدِّم في دراسته. فمع أن حذف الحركات القصيرة بنفسه لا يمثل أية معضلة، إلا أن القليل الذي يبقى من الكلمة لا يتضمن إلا قدرًا ضئيلاً من الزيادة(٥)، وسيؤدي أيُّ حذفٍ إضافيٍّ أو أيةُ حالات من الشذوذ إلى مضاعفة التشويش بشكل سريع. لهذا يمكن في الإنجليزية أن تُفهَم أغلبُ النصوص حين تُحذَف الحركات القصيرة (بل الحركات كلها) ـ ومن ذلك المثال المشهور: .F y cn rd ths [If you can read this 'إن كنت تستطيع قراءة هذا'] ـ وبمقدور الإنسان كذلك أن يَقرأ نصًا تتداخل فيه الكلمات، نحو: . .Ifyoucanreadthis أو نصًا حُذف منه الحرف الأخير من كل كلمة، نحو: I yo ca rea thi ؛ لكن حين يُجمَع بين نوعين من هذا الحذف لن يَنشأ نصٌ أكثر صعوبة فحسب، بل سيكون هذا النص خليطًا لا يُمكِن فهمُه، نحو: y c r rd th ، و: Fycnrdths . أما في العربية فتحذف من كثير من الكتب والصحف بعضُ العلامات مثل "الشَّدة"، و"الهمزة" إذا كانت مفتوحة، و"همزة الوصل"، وعلامة "المَدّ" على الألف، و"السكون"، و"التنوين" ولا يميز بين الألف المقصورة والياء في نهاية الكلمة. وتُكتَب الكلمات الوظيفية ذات الشكل المقطعي <ص ح> (نحو [حروف الاستفهام، والعطف، والتشبيه، والجر]: "أ "، و"كَ "، و"فَ "، و"لَ"، و "بِ "، إلى آخره) وتُنطَق جزءًا من الكلمة التي تليها، حتى إن كان هناك ثلاث أو أربع منهن. لهذا فحين تكون الكلمةُ الرأسُ ثنائيةَ الجَذر أو كان أحدُ جذورها مضعَّفًا غير مشكول بالشدة أو كانت معتلَّة بحرف علة محذوف فمن المُمكن أن تُخطِئ فتعدَّ الكلمةَ الوظيفية في بداية الكلمة كأنها أحدَ جذورها. وينطبق الشيء نفسه على ضمائر النَّصْب المتصلة. وقد يخطئ كثير من المحققين والمترجمين الأوائل في وضع الحدود بين الكلمات، ومن ذلك أننا نجد في نشرة ماكنوتن لكتاب ألف ليلة وليلة أن الكلمة "أَذابَها"، مكتوبةً: << أذا بها>> وهو ما يوحي بأن العبارة هي: "إذا بها"، كذلك فأية كلمة تبدأ بالصوتين ("ق ـ د") عُرْضَةٌ لأن تتحول إلى الأداة "قد" التي تُعيِّن الزمن الماضي التام. وهنا تقع المشكلة: فأنت مُلْزَم بأن تعرف معرفة

صحيحة جذور الكلمة قبل أن تستطيع العثور عليها في المعجم (أي في أحد المعاجم غير الكاملة أو التي لا يسهل استعمالها من بين المعاجم الكثيرة التي يحتاجها المرء لتعلُّم العربية). أضف إلى ذلك أنه لا يُميِّز بين كثير من الأصوات الصامتة إلا ببعض النقاط الفارقة، وفي عالمنا البعيد عن الكمال تُمحي كثير من النقاط، في الصحف خاصة، أو توجد نتيجة للآثار التي يتركها الذباب عليها، هذا إذا لم نذكر الأخطاء الطباعية وعدم تميز كتابة أسماء الأعلام بالحروف الاستهلالية الكبيرة، وعدم وجود علامات الترقيم في معظم الحالات وعدم الاطراد في استعمالها حين تستعمل. لهذا تُجعَل هذه المشكلاتُ الدروسَ الأولى في تعلم العربية شبيهة بعمل شامبليون [في حله لرموز اللغة الهيروغليفية في قراءته حَجَرَ رشيد].

٤ ـ وكنت أشرت إلى أنّه لا ينتج عن التركيب في العربية تراكيب معقّدة جدًا أو غير سائغة؛ ويعني هذا أنني أتبنّى وجهةَ نظر ذات مستويين تقضي بأن هناك نواة نحوية مطردة، يَسهُل التنبؤ بما تقوم به، وهي التي تُنتُج عنها الجُملُ الأساسية التامة، ويمكن أن يأتي بعد هذه النواة عدد من العمليات الغريبة التي تحذف بعض العناصر من الجمل، وهي العمليات التي يمكن أو لا يمكن إرجاعها للنوع نفسه من الاطراد الذي تخضع له النواة. وتبلغ دراسة هذه الجمل التي تنتج عن الحذف حدًّا بعيدًا من الصعوبة يفوق دراسة الجمل التامة، إذ يُفترض أن نلْجأ في تحليلها إلى الآلية التركيبية التي تُنتج الجملَ التامة. زيادة على ذلك يَتطلب إنتاجُ الجمل المسموح بها، وتُنتج عن الحذف، قدرًا كبيرًا من الشعور الدقيق باللغة، إذ تكاد هذه الجمل تكون عبارات مَثَلِيَّة. ومن غير أن نتظاهر بأننا نفهم الكيفية التي يعمل بها الحذف بالتفصيل، لا يزال من الممكن لنا أن نلحظ أن بعض هذه الجمل مسموح بها في العربية لكنها غير مسموح بها في الإنجليزية واللغات القريبة منها. وتظل مثل هذه البنى تمثل إزعاجًا دائمًا للقارئ الأوروبي للعربية حتى بعد أن يصل طورًا لا تعود تزعجه عنده بعضُ المظاهر النحوية المحض، نحو تركيب الإضافة في مثل: "كِتاب الولد". ولا يعني هذا أن نزعم بشكل مطلق أن الجمل التي تنتج عن الحذف لا توحي بشيء من صعوبة العربية، كما وجدنا في الخصائص التي أوردناها تحت: (١)، و(٢)، و(٣) آنِفا، وهي الخصائص التي ـ وإن لم تكن بنيوية ـ تجعَل العربيةَ صعبة من بعض الوجوه. بل العكس هو الصحيح، ذلك أنه يمكن أن نتوقع، إن كان الحذف لا يعدو أن يكون تنويعًا على

خصائص التركيب الأساسي وحسب، أن يكون نحوُ الحذفِ في الإنجليزية أكثر تعقيدًا منه في العربية. أما إن كان نحوُ الحذفِ في الإنجليزية أقربَ إلى المتوسط اللغوي الأوروبي النموذجي SAE منه إلى نحو الحذف في العربية فربما يساعدنا هذا في تفسير بقاء العربية صعبة على المتعلم الأوروبي. (وللاطلاع على أنماط الحذف في العربية، انظر ريكندورف AS "النحو العربي"، الفصل العشرين؛ والفصل التاسع هنا)[٦].

يضاف إلى ذلك أنه حتى إن كنا لا نتحدث عن الحذف تحديدًا، فإن البساطة الظاهرية للتركيب تأتي في مقابل بعض الأنواع المحددة من عدم الوسم الكامل (كما في التوابع الحالية الوصفية التي لا تُصَدَّر بأداة أو تصدر بأداة غير صريحة وفي جمل الصلة).

٥ ـ وهناك مشكلات تتعلق بأنواع اللَّبْس البنيوي والمعجمي، وإن كان ينبغي الا نبالغ كثيرًا في التأكيد عليها (وذلك مثل: "ما" التي تعني "أداة النفي" و"اسم الاستفهام" كليهما)، وهي مشكلات ترهق القارئ حين يريد التأويل[٧]. فمن الأمور الحَسَنة [في العربية] أنه لا يلزم أن نحفظ صيغ الزمن والكيفية إلى الحد الذي تظهر به في اللاتينية؛ لكن علينا في مقابل ذلك أن نكون مستعدين في أغلب الأحيان لتحديد الزمن وغيره من خلال السياق، كما في المثال التالي: "فإن أباه كان يَخرِبُ ديارنا" (ألف ليلة وليلة، الليلة ج ٣، ص ٥٣٣) التي يمكن ترجمتها بـ:

his father would have devastated our land

لا: was devastating

"إن أباه كان يمكن أن يخرب ديارنا"، بدلاً من: "إن أباه كان يقوم بتخريب ديارنا" (وهو غير ممكن في جواب الشرط في العربية النموذجية) ـ قارن ذلك بالاستعمال المُلبِس للفعل المساعد were في الإنجليزية القديمة[٨].

ولتفصيل أكثر انظر الفصل السابع، وقارن بما يقوله كروبفيش Kropfitsch (١٩٨٠، ص ١٣٥):

"هناك ارتباط شديد ـ بغض النظر عن تعدد دلالات المشترك اللفظي في استخداماته الكتابية ـ بمجرى السياق قبل اي شيء آخر. صحيح أن السياق يقوم بوظائف التحديد؛ لكن الاعتماد على السياق في اللغة العربية الفصحى الحديثة .

. . بكل تأكيد أكبر بمراحل مما في الألمانية أو الإنجليزية أو الفرنسية، وربما، بدرجة كبيرة من اليقين، أعلى مما هو في اللغة العربية القديمة".

Es besteht-- ganz abgesehen von der graphischen Mehrdeutigkeit bei schriftlichem Gebrauch -- eine überaus starke Kontextabhängigkeit. Zwar kommt dem Kontext in jeder natürlichen Sprache eine determinierende, monosemierende und disambiguierende Rolle zu, jedoch ist die Kontextabhängigkeit im Nhar [MSA] . . . mit Sicherheit um vieles grösser als etwa im Deutschen, Englischen oder Französischen, ja mit hoher Wahrscheinlichkeit auch grösser als im Aar [old Arabic].

وعلى وجه الخصوص، كما يرى أ . ف . بيستون (١٩٧٠: ١١٣): "يقرُب استعمالُ الضمائر في العربية أحيانًا مما يمكن وصفه بعدم المسؤولية"، حتى في الوقت الحاضر ـ وهو استمرار للحرية المألوفة في الأنواع المكتوبة في اللغات المختلفة في الفترات المبكرة [من تاريخها]، ويشمل ذلك اللغة الإنجليزية القديمة. "فاستعمال الانجليزية "للنعوت المُنَمَّقَة" لتجنب الوقوع في اللبس في مرجع الضمير (مثل Edward VII. . the King "[إدوار الثامن. . . الملك") غريب على الأسلوب العربي التقليدي، وإن كان أخذ يَتَسرَّب، بسبب التأثير الأوروبي، إلى الكتابات [العربية] المعاصرة". وزاد من مشكلات الضمائر العائدة نمطُ مطابقة الأفعال المسندة إلى المؤنث المفرد والصفات التي تصف جموع الأسماء.

٦ ـ ويمكن للشفافية الصَّواتية في العربية نفسها، أن تكون عائقًا لبعض الطلاب، وهذا من التناقض. ويَعتمِد الأمرُ على الكيفية التي يَشتغل بها عقلُك. إذ أتذكَّر أنه في إحدى مراحل دراستي للأسبانية (وذلك بعد أن وصلت إلى حد الطلاقة فيها، وبقي عليَّ التوسع في المفردات) لم تكن الكلمات متمايزة من حيث التَّفْسَلة الصوتية بما فيه الكفاية: إذ بدت اللغة كلها، فجاة، تشبه، صَواتيًا، الدَّمْدمة ratmada nomolada . أما في الإنجليزية، بالمقابل، فيمكن للمظهر الصوتي الذي ترتديه الكلمات، أن يبدو لبعض الناس كأنه عامل مشجِّع ومُعين على التذكُّر. فهناك شعور مختلف غامض يصاحب كلمات مثل:

azure, akimbo, hippopptamus, squinch, fizzle, thwart, yo-yo, zest, teentsy-weentsy, p.d.q., tsumami, quark,ipso, facto, sangfroid, zillions, tatterdemalion, nindescript, swank,

[حيث يمكن للشكل الصوتي للكلمة أن يوحي بمعناها]

وهو ما يجعل من السهل تذكُّر كل واحدة منها، لا بصفتها كلمة في قائمة مفردات مكتوبة، بل بصفتها خيالاً حيًا. ويَشعر بعضُ الناس بالشعور نفسه حين يُواجهون لغةً جديدة. فربما لا تبدو كلمة من اللغة الهاوائية، عندي شخصيًا، مُوحِيةً أبدا، أما الكلمة التشيكية فتبدو موحية، بطريقتها المغضَّنة التي تشبه عقدة رورشاخت. وينبغي أن نلحظ هنا أن العربية أقرب إلى التشيكية منها إلى الهاوائية، ذلك أنها تتميز برصيد غني من الأصوات الصامتة، التي لا يمكن وصفها بأنها كثيرة وحسب، بل تختلف في ديناميّاتها في داخل النظام. فتُستخدَم أصوات "التاء والنون والميم" صرفيات تصريفية واشتقاقية محايدة، و"الياء والواو" (حرفا العلة) ضعيفين، لا في النطق وحسب بل صرفيًا كذلك؛ أما الأصوات المُطبَقة فتتميز بالنطق المفخم وبأثرها في المماثلة. وهذا رصيد جيد من المواد الخام يمكن أن يقوم عليه معجم يتميز بالارتباطات الرمزية الصوتية التقريبية ـ لكن العربية لم تَستغِلّ، بقَدْر كبير، هذا الرصيد من أجل هذه الغاية. (انظر الفصل الخامس). وبدلاً من ذلك نجد العقلية المحايدة لنظام الجذور والأوزان.

٧ ـ وكانت إحدى الطالبات الواعيات لغويًّا، وكنت أتحدث معها عن بعض الصعوبات التي تعاني منها في تعلم العربية (وكانت تلك المشكلات كبيرة مع أن لغتها الأولى كانت العبرية) تشتكي من أن الاطراد الدلالي (غير الكامل) للاشتقاق الصرفي كان يُمثّل عقبةً أكثر من كونه عاملاً مساعدا، وكانت ترى أن الطريقة التعليمية المُجْدية ينبغي الا تشير إلى هذه الاطرادات في المراحل الأولى من تعلُّم اللغة، بل يمكن أن تُعلَّم كلُّ كلمة بمفردها كأنها كلمة جديدة. ويُذكِّرنا هذا بما تقوله بعض التوجُّهات التربوية عن تعليم الإنجليزية المكتوبة، للأجانب والمتكلمين بها لغةً أولى على السواء، إذ ترى أن من الأفضل أن نعامل الكلمات الإنجليزية لا بوصفها حاصلَ جَمْع الأصوات التي تتكون منها ـ وإن كان القول بأن هذه الأصوات جمعٌ غير ممكن إلا في مقياس منطقٍ معقَّد مُضْجِر- بل أن تُعامَل كلُّ كلمة بوصفها وحدة كُلِّيَّة، أي بوصفها شكلاً هيروغليفيا.

وهذه قضية نفسلية معقَّدة. فهناك من يرى أن الاطرادات التامة تقريبًا، وحدَها، هي ما يَجعَل تعلُّمَ لغةٍ جديدةٍ غريبةٍ أمرًا مُمكنا. ذلك أن هناك عددًا لا يُحصى من اللغات في العالم، وكل واحدة من هذه اللغات تتضمن عددًا كبيرًا من الأسماء التي تطلق على الأشياء في الكون؛ لهذا يبدو النظرُ إلى هذا القدر الكبير من الكلمات على أنه شيء غير محدَّد أمرًا مثيرًا للامتعاض. ولتعليم مثل هذا النوع من المتعلمين، ولْنسمِّه بالنوع الأفلاطوني، يجب أن نبدأ بالمفاهيم الدلالية التي تُمثّلها الأوزان < فَعُلَ، افتَعَلَ، فَعيلٌ، مِفعَلٌ> إلى آخره، ثم ننظر إلى الكيفية التي تَملأ بها اللغةُ هذه الأوزان في الواقع أو تفشَل في ملئها. ومن هنا ربما نجد، مثلاً، أن فِعلاً مثل "ثَبُتَ"؛ يتماشى مع القاعدة (قارن بالفعل: "ثَبِت")، لكن الفعل "جَرُبَ" يُخالِفها (إذ يختلف عن الفعل: "جَرِب")، أما "علُمَ" فيشهد بأنه تُطوِّر بطريقة لافتة للنظر (قارن بـ "عَلِم"). وهناك متعلم من نوع آخر، ولنسمه ثاليسي Thalesian[9]، لا يشعر بالامتعاض من المادية الحَرْفية الفجة، بل يشعر بالدُّوار من القواعد المجرَّدة والقواعد الفرعية والقواعد المُعاكِسة والاستثناءات التي يجب أن يكون مكانُها كُتبَ النحو المطوَّلة لكي يَنشغل بها اللسانيون الخُرْس؛ وربما يَرغب هذا النوع من المتعلمين في أن يَدلُف إلى اللغة بوصفها شيئًا ماديًّا محسوسا. فهو يرى أننا نقوم كلُّنا بمثل ذلك في طفولتنا ـ وأرجو ألا يكون هذا نَيْلاً من صاحبنا الثاليسي، ذلك أن العبقري هو الذي يمكن أن يُحافِظ في فترة الكِبَر الواعية على التوسُّع الاكتشافي اللانهائي غير المتحيِّز عند الأطفال. فكل كلمة عند هذا النوع من المتعلمين إنما هي لعبة جديدة، لذلك يسير تَعَلُّمه المتفائلُ من غير عائق. فإذا تعلَّم كلمتيْ "عَمِلَ" و"عَرَضَ" ثم تعلم كلمةً "جديدة" مثل: "استَعمَلَ" أو "استعرض"، فسوف يَشعُر بقدر من الفخر يُشبه الشعورَ بالإنجاز الذي يشعر به طفل سَبَق له أن تعلم كيف يتهجى كلمة Mississippi (ثم أخذ يكرر تهجيتها من غير توقف)؛ أما متعلِّمُنا الأفلاطوني المُشاكِس، وهو الذي بَذل القَدْر نفسَه من التذكُّر في هذه الحال (ذلك أن معنى الأوزان المشتقَّة لا يمكن التنبؤ به بصورة مطلقة) فيَشعر أنَّ ما أنجزه في هذا الشأن لا يعدو أن يكون إنجازًا متواضعًا، إذ إنه لم يقم بأكثر من إضافة نمط جديد إلى الجذر الذي يَعرِفه من قبل، فما وجه الصعوبة في هذا؟

ويمكن لأي متعلم ان يَجمَع بين هذين التوجهين بطرق مختلفة. ذلك أن بعض الأجزاء من اللغة، عنده، يَحسُن أن تُتعلم بطريقة عقلية، أما بعضها الآخر فبطريقة حسية. فصيغة اسم الفاعل "فاعِل"، مثلاً، لا يَظهَر فيها إلا قدرٌ ضئيل جدًا من عدم الاطراد الدلالي، ويُحتمل أن يَنظر إليها أيُّ متعلّم كأنها نتيجة لعمل قاعدتين عامتين، أي: معنى اسم الفاعل الأساس، مضافًا إليه التوجُّه العام المعروف لاختيار الصيغ التي توحي بمعناها، لهذا يمكن أن يكون لكلمة "كاتِب" ـ حتى من غير محاولة الكشف عنها في المعجم ـ شأنها شأن writer ، في الإنجليزية، معنى مِهْنيٌّ خاص (أي: مؤلِّف، أو: ناسخ، أو: موظف) بدلاً من دلالتها على "الذي يَكْتُب" فقط. أما في الإنجليزية فلا تزيد اللاحقة التي تُستخدم غالبًا لصياغة من قام بالفعل، أي: er- أو or- عن كونها مقياسًا غير كاف للتنبؤ بالاشتقاق الصرفي الدلالي: انظر مثلاً إلى كلمات مثل:

Prisoner, plumber, dead ringer, harbinger, a real looker, grounder, in the slammer, sockdolager, terror, butter.

[حيث لا تدل er دائما على من قام بالفعل]

ويبلغ عدم الاطراد في بعض الحالات، كما في جموع الثلاثي أو معنى وزن "افتَعل"، حدًا عاليًا حتى ليَحسُن بالمتعلم أن يَستمر في التعلم عن طريق الحِفظ فترة معينة.

ولكي نجعل هذا التمييز محسوسًا للقارئ الذي لا يعرف شيئًا كثيرًا عن العربية ربما يحسن أن نقارن ذلك بالاطراد الذي نجده في المفردات الألمانية. فيبدو لي أن من الأفضل أن نعُدّ الأسماء المركّبة (المنحوتة) فيها على أنها جمعٌ لبعض الأجزاء مضافًا إليه بعضُ الخصائص الثانوية الخاصة، لذلك فاكتساب الكلمتين Ladeplatz و Mühlstein أسهل من اكتساب الكلمتين embarcadère و meule . لكنَّ الجُموع التي تتألَّف من الفعل والأداة مؤلفةٌ بطريقة لا يبدو سببُ تأليفها واضحًا، وهو ما يجعل تعلُّمي لها أكثرَ صعوبة من تعلمي للتراكيب الفرنسية الأبسط: ومن هنا تبلغ صعوبةُ حفظِ كلمات مثل: bestatten, erstatten, aussatten في أماكنها حدًا بعيدًا يشبه صعوبة إلزام جيرميا وآرتر بالجلوس في مكانيهما في سفينة الاكتشاف في رواية Das Schloss، في حين أن من السهل حفظ كلمات مثل: enterrer ، و rembourser ، و équipper ، إذا ما تعلمها المرء أول مرة.

ويسهل التعاملُ مع العربية من حيث الصرف والتركيب (ولمناقشة المسألة الثانية انظر الفصل التاسع) على المهتمِّ بالقياس أكثر من سهولتها على المهتم بالشذوذ بقدر يفوق اللغة الإنجليزية واللغات القريبة منها. وكما يقول دي ساسي:

"تُسهِم قابليةُ الجذر الواحد لأن تشتق منه صيغ كثيرة إلى حد كبير في ثراء اللغة؛ ومع أن ذلك يبدو أول وهلة عنصر تعقيد في طريق دراسة اللغة إلا أنه في الواقع عامل من شأنه أن يجعلها أكثر سهولة. ذلك أن العلاقات القائمة بين دلالة الفعل الأصلي ودلالة الأفعال التي اشتقت منه تكون عادة على نحو يساعد كلَّ من يعرف دلالة الفعل الأصلي على معرفة دلالة الأفعال المشتقة منه دون حاجة إلى قاموس".

Cette multitude de formes dérivées dont un seul verbe primitif est susceptible, contribue beaucoup à la richesse de la langue; et quoiqu'elle semble d'abord devoir en rendre l'étude plus difficile, elle la facilite au contraire. Les rapports qui existent entre la signification du verbe primitif et celles des verbes dérivés sont tels d'ordinaire, que celui qui connoît la signification du primitif peut se dispenser de recourir au dictionnaire pour connoître le sens des dérivés. . . (De Sacy, I 129).

ولا تُبين اللغةُ بهذا المعنى، فيما يبدو، عن أيِّ تشاكُل مع الطبيعة العقلية التي نَسَبها هاملتون جب للعرب، حين يقول:

"إن العقل العربي، سواء في علاقته بالعالم الخارجي أو في علاقته بعمليات التفكير، لا يمكن له أن يُلجِم شعورَه الجارف نحو تفتُّت الأحداث المادية وفرديَّتها. . . . فرفضُ التوجهات المنطقية للتفكير والأخلاق الشمولية التي لا يمكن عزلها منها يعود، إذن، إلى جذورها لا فيما يسمى بـ "ظلامية" الفقهاء المسلمين بل إلى خصِّيصَتَي الذرِّيّة والانفصال في الخيال العربي".

(في كتابه: Modern Trends in Islam 1945 نقلاً عن إدوارد سعيد ١٩٧٨، ص ص ١٠٥-١٠٦).

ومن الممكن، من وجه آخر، أن نُطبِّق مصطلح "الذرية والانفصال" على العناصر المتتابعة في الجملة العربية (انظر الفصل التاسع)، مثلما يمكن تطبيقه على كلام رواد الفضاء الأمريكيين، وهم أولئك الرجال المنطقيون الشموليون.

٨ ـ والمنظومة العقلية لما يَقرأه الفردُ، حتى في المختارات من النصوص الموجَّهة للمبتدئين، غالبًا ما تكون غريبة جدا. ومع أنه يُمكن للقارئ أن يَحصل على ترجمة النصوص التي يقرأها، سيظل عاجزًا عن فَهْم ما يقرأ من غير أن يساعده على ذلك بعض الشروحات المصاحبة.

وكان انتفاء الغرابة الثقافية بين اللغات الهندية الأوروبية الحديثة المتكلَّمة في أوروبا هو ما مكَّن وورف من صوغ مصطلح "المتوسط اللغوي الأوروبي النموذجي"، ولم يكن سبب ذلك أنّ هذه اللغات جميعها تتصف بأنها تتبع الترتيب: فاعل ـ فعل ـ مفعول، فقط، أو غير ذلك من الخصائص. أما كون اللغة العربية تتبع الترتيب: فعل ـ فاعل ـ مفعول، أو أن أسماء الاستفهام وأدواته تأتي في بداية الجملة فيها، أو أنها تضع المضاف إليه بعد المضاف، فلا يمثل ذلك كله أية صعوبة للمتعلم المبتدئ بعد قضائه الأسبوع الأول في تعلمها. لكنْ يمكن أن تكمن الصعوبة في مجال الافتراضات المسبَقة التي تتخفّى وراء الأفكار المعبَّر عنها.

وهنا، مرة أخرى، تكمن أغلبُ أسبابِ هذه الصعوبة في الطُّرُق والقرون العديدة التي حُشِرت في السلّة اللغوية للعربية الأدبية. فمتعلم الإنجليزية (أو نوعيتها الأمريكية منذ زمن طويل) ليس ملزمًا بمعرفة مسرحية: The Second Shepherd's Play مثلاً، ذلك أنها قديمة ومكتوبة بالعامية، فهو ليس مضطرًا إذن إلى أن يتعامل مع غرابة أفكارها وتعبيرها.

٩ ـ ولعدم وجود طرق تعليمية عامة معترف بها لتعليم العربية فإن كتب المقدّمات المتوفرة الآن ليست مُرْضية؛ ويمكن أن يزيد من غموضها الشهرةُ العلمية للنحويين ومؤلفي المجموعات [النصوص التي تستخدم في تعليمها]. أما المختصرات التي تقع في أيدي الطلاب فيمكن أن يكون جامعُها هاويًا للأدب وَجَد نفسه مضطرًا للبحث في زوايا الأدب ليَقْتطِف بعض النماذج الأدبية الجميلة؛ كما يبدو أن هناك ما يوحي بمقولة غير معلَنة [بين

مؤلفي هذه الكتب التعليمية] وهي: "لقد عانيتُ أنا [في تعلُّمي للعربية]، والآن جاء دورك لتعاني أنت". لهذا وضع المستشرق البريطاني آرثر آربري، بجِدّ ظاهر، عنوانًا فرعيًا لمجموعة "الشعر العربي" التي جمعها، هو: "مقدمة أولية للطلاب". وربما يُحدِّث هؤلاء المؤلفون أنفسهم قائلين: لا بأس إنها مقطوعات مُجَلجِلة جمعناها بطريقة عشوائية ليَدرُسها الطلاب في السنة الأولى! دعنا نأخذ كتابًا رخيصًا بطريقة عشوائية، على أمل أن يُعجَب به الطلاب المبتدئون! أما أن الأشعار التي يتضمنها هذا الكتاب تبدو مُبهَمة إلى حد الإحباط، ولا تكفي المعاجم المألوفة لفك رموزها، وهل تحتاج الكلمات فيها إلى التشكيل ـ مع أن بعض دواوين الشعر العربية التي حققها العرب ربما تكون مشكولة، وأن تُشرَح الكلمات الصعبة فيها، فلم يهتم الأستاذ آربري بأن يسعفنا بمثل هذه المساعدة. فيَقذِف هذا الكتابُ ضئيلُ الحجم الطلابَ بقصائد أكثر صعوبة من حيث الشكل من شعر [الشاعر] "دُون" أو أسلوب [الفيلسوف] هوبكنز، أما من حيث المحتوى فغالبًا ما تكون أقل مردودًا من أسوأ قصائد وردزورث، ومع ذلك يوحي عنوان هذه المجموعة بأنه: إنْ كنتَ تَظُن أن هذا صَعْب، فانتظر حتى نصل إلى الصعب حقيقة! لهذا يجب ألا نستغرب إن تَرَك بعضُ طلابنا دراسة العربية في الفصل الثاني، وذهبوا لكي يقضوا فترة نقاهة في تعلم الأسبانية.

وليس كتاب سلفستر دي ساسي الرائع بأحسن حالا. فكتابه Chrestomathie arabe مطبوع بشكل جميل، ومزوَّد بترجمة جيلة، ومشروح شرحًا دقيقا؛ ومع ذلك ربما يقرأ المتعلم قسمًا كبيرًا منه قبل أن يكتشف أنه مع أن هذه المجموعة ربما تكون ذات قيمة كبرى للمتخصص في الأدب، إلا أنها تُمثِّل مقدمةً غير متوازنة لأدب العالم العربي وثقافته. فهي لا تتضمن إلا شيئًا يسيرًا عن الإسلام، مع أنها تتضمن فصولاً طويلة عن نصوص طائفة الدروز، التي يَصعُب فهمُها بسبب اتصاف مذهبهم بالغرائب الكثيرة. وهي لا تحوي شيئًا من القصص الشائقة الشبيهة بما نجده في كتابات التنوخي، أو الجاحظ، أو في ألف ليلة وليلة، إذ لا يحوي إلا نُتفًا من تاريخ الأُسَر الحاكمة، والغزوات، وكثرة الإحالات إلى التعليقات. (ومما يَعترِض فَهْمَ هذه النصوص فيه الاستخدامُ الكثيف للضمائر، انظر الفقرة (٥) أعلاه، وريكندورف، AS ، الفقرة ١٣٩، والفقرات الفرعية: ٥، و ٧، و٩ فيها). أما التعليقات فتدعو إلى الإعجاب من حيث التفصيلات التي تتضمنها، لكنها لا تتناسب مع ما تُحيل إليه،

فهو أمر متروك للصدفة إن كان أمر غريب معين أو مدينة مهجورة قد جاء ذكرها عرضًا (في بعض "المقطوعات المختارة") morceau choisi. وهو ما يشبه أن تسأل إنسانًا عن الطريق الذي يؤدي إلى مبنى البلدية في مدينة ما، فيجيبك قائلا: "اسلك شارع Oak ، الذي يعني بالألمانية Eiche، حتى تصل إلى شارع ماك ألستر، الذي سُمي باسم جون د. ماك أليستر (١٨١٨ - ١٨٩٧)، عمدة المدينة السابق. . . ."

يضاف إلى ذلك أن أية مجموعة شعرية، مثل كثير من هذه المجموعات، لا تُكثِر من الاختيارات التي من نوع (المقطوعات) morceaux بقدر إكثارها من الاختيارات من نوع (المختارات) miettes Choisies إنما تَحْرِم القارئ من الاستفادة من عامل التكرار (وهو أمر مهم سيما إذا ما أخذنا في الحسبان تنوُّع المفردات في العربية) ومن بناء السياق الذي يُساعد على الفهم. ونظرًا للصعوبة التاريخية/ الثقافية التي أشرتُ إليها في الفقرة ٧ أعلاه، لا يمكن ان نتوقع أن نعثر على نصٍ من يَغلب عليه "الاستطراد" in medias res ثم نتوقع أننا سنستفيد منه كثيرا. إن قراءة مائة صفحة متوالية من سيرة عنترة أو تغريبة بني هلال أو ألف ليلة وليلة أكثرُ نفعًا من مائة صفحة منتزعة من أربعين مصدرا[١٠]، فأنت لا تستطيع أن تفهَم ما تقرأ وتتمثله حقيقةً إلا إن استطعت أن تعرف معنى النوع الأدبي الذي تقرأه. ومن غير ذلك ستكون استفادتُك مُماثِلةً للمنطق الذي يقول: إن كان اليوم هو الثلاثاء فلا بد أن تكون هذه البلاد بلجيكا، بل إن الأمر أسوأ فيما يخصُّك، إذ إنك [فيما يخص هذه الجملة المنطقية] لابد أنك عرفتَ بلجيكا من قَبْل في الأقل. وتتلخص تجربتي مع كل نص عربي جديد أقرأه تقريبًا في أنني أشعر دائمًا بأن ما أقرأه مُحيِّر جدا، إذ أقول لنفسي: كنت أظن أنني أعرف العربية لكنه يتراءى لي أني لا أعرفها الآن، وهو ما يجعلني أتذكر قصة الباسك والشيطان وأصدِّقها؛ ومع ذلك فبعد أن أقرأ خمسين صفحة، يصبح النص مألوفًا لي.

اقتراح تربوي:

لاحظتُ، خلال تدريسي للطلاب الجامعيين المستوى الأول والثاني من الفرنسية، أنه حتى الطلابُ الأذكياء منهم والناضجون اجتماعيًا، في الفصل الدراسي الناجح، ربما يتراجعون نفسيًا قليلاً تحت ضغط وضعٍ يُعيد الواحدَ منهم حقيقةً إلى مستوى الطفل التمتام. ومن

فوائد هذا الوضع أنه يؤدي شيئًا ما إلى فك الأغلال التي تُكبِّل حبَّ الاستطلاع القوي وإلى تحرير العبقرية اللغوية للأطفال؛ وعند ذلك وحده، يتوقف الطلاب عن البحث غير المنظَّم عن التَّوافِه، ويتابعون التعلم مُستعينين بوسائل الذكاء النقدي عند البالغين. وبهذه الطريقة يَتمكَّن الطلابُ، حتى غير المهتمِّين، من اكتساب الثقة فيما يَدرُسون، وأن يناقشوا خفاياه، ويكتبوا الشعر ربما لأول مرة، ويتذكروا سِيَر الأدباء الذين يدرسونهم، ويشاركوا في الدرس بصورة فاعلة.

ولا بأس من اتِّباع هذه الطريقة إذا كان المدرِّس يُدرِّس لهجةً عربية حيَّة. أما في تدريس العربية الأدبية فيختلف الأمر عند بعض المدرسين بالضرورة شيئًا ما (إذ لا يمكن أن تدرَّس اللاتينية بالطريقة التي تدرس بها الفرنسية)، ومع هذا لا يزال بإمكان المدرس، فيما أظن، أن يحاول جزئيًّا الاستفادة من ذلك المَعين الثَّرّ لمرحلة ما قبل البلوغ، وتلك الطواعية التي تُساعِد على التغلب على الذَّرية المعقَّدَة لقوائم التصريف وقوائم المفردات. أما العامل الحافز، لكثير منا، الذي يَنتشِلنا من وَهْدة الملحوظات الحياتية اليومية والتواصل غير الجدي ويرفعنا إلى ذلك المستوى "المُصطَنَع" ـ لكنه *رائع*، لِلُغة الأدب المصطنعة التي تتصف بأنها أقل حياةً من اللغة اليومية لكنها لا تقل عنها حيوية، وهو ما يشبه كونَ تمثال موسى الذي نحته مايكل أنجلو أقلَّ، لكنه، في الوقت نفسه، أكثرُ حياة من شخص حقيقي يَنتظِر الحافلة أو يُحدِّق في مَلابسِه وهي تتقلَّب في آلة الغسيل ـ أما ذلك الحافز فهو القصص، سواء أكانت قصصًا هادئة تشبه القصص التي تقصُّها الأمهاتُ لأطفالهن قبل النوم، أم بصورة القصص الدرامية العنيفة التي يقصُّها أحد المرشِدين في نزهة خلوية حول النار. وبقدر ما نستطيع، جزئيًّا وبطريقة فنية، إحياءَ السياقات التي تُحدِث فيها هذه القصص، وبقدر ما ننجح في إثارة ذلك المَعين من اليقظة النفسية، فسوف نجد أن الاتصال الأول بالعربية يستحق الحيوية الخلاقة للعقل، بدلاً من كونه تكرارًا حزينا مملا. لذلك لا بأس من تأخير الاطلاع على أبي تمام، ولا بأس من تأخير دراسة الممنوع من الصرف! أما في هذه الفترة المبكرة، فلْيَهَبْ كتابُ ألف ليلة وليلة لإثارة الاهتمام، وربما يكون من الملائم أن تقرأها شهرزاد معاصرة (وهذا ليس أمرًا متعذِّرًا فنحن نستضيف الأساتذة الزائرين، فلماذا لا نستضيف الممثلات لهذا الغرض) ولا بأس من وجود بعض التعبيرات العامية في بعض الأحيان، أو بعض الأخطاء

النحوية، أو بعض المقاطع غير الملائمة لتطعيم السرد. إن اللغة حجابٌ يَشِفُّ عن الفتنة، لا شاشًا مُعقّما.

التعليقات

(١)ـ عُلِّقت قائمةٌ تحوي هذه المعلومات في مكان بارز في مختبر اللغة في جامعة كاليفورنيا في بيركلي سنوات عدة، بوصفها lasciate ogni speranza للطلاب. قارن أيضًا بما قاله ي. شوبي: "يعاني المثقفُ العربي المعاصر من صعوبة التمكّن من معرفة التعقيدات التي لا حصر لها في العربية الأدبية، بل يجب عليه بعد أن يقضي حياته في دراستها أن يبذل دائمًا قدرًا كبيرًا من الانتباه حين يريد استعمالها بصورة صحيحة". (انظر مقال شوبي في كتاب لطفية وتشرشل ١٩٧٠، ص٦٩٠).

(٢) ـ قارن مثلا بـ ((potter (1957:113)): "ومن أوجه التناقض المعروفة أنه مع أن الألمانية أقرب إلى الإنجليزية من الفرنسية، سيجد متكلمُ الإنجليزيةِ الألمانيةَ أكثر صعوبة من الفرنسية".

(٣)ـ يمكن أن توجد كلُّ هذه التنوعات في النثر غالبًا، بوصفها المصطلح الملائم الذي يطلق على الشيء المقصود. وهناك بعض المرادفات الهامشية التي تطلق على "النافذة" في بعض الفترات التاريخية من حياة اللغة، مثل: "مَمْرَق"، و"روزنة"، و"روشن"، و"روسن"، وكذلك، بمعان مختلفة أخرى: "جناح"، و"رفيف"، و"رفراف"، و"سهوة" (عن فرايتاغ).

والأمثلة التي أوردتُ تشبه ما تعانيه الإنجليزية مع كلمات مثل: sofa، و couch، و davenport، و chesterfield.

[وهي أسماء متعددة للأريكة]

(٤) ـ ومن الأمثلة التي يظهر فيها مثل هذه الاختلاف الأدنى في العادة بعض أشكال المبني للمعلوم والمبني للمجهول. ويمكن أن يكون هذا الاختلاف، منطقيًا، كبيرًا وقد ينتج عنه بعض اللبس (مثل ما ورد في القرآن الكريم: "يُقاتِلون/ يُقاتَلون")؛ لكنْ يبدو أن هذا الاختلاف ضئيل من الناحية النفسية بعض الشيء، وذلك ما يوضِّحه استعمالُ العربية والعربية النموذجية المعاصرة غير المبالي للأشكال *نفسها* التي يمكن أن تُؤوَّل إما مبنيةً للمعلوم أو مبنية للمجهول بحسب المناسبة: وذلك مثل: استعمالها في حالة النصب مقابل حالة الإضافة، واستعمال المصادر المبنية للمعلوم أو المجهول، بالإضافة إلى بعض الخصائص المعجمية المحدودة مما يشبه التعبير الإنجليزي: this car drives easy "هذه السيارة تقود بسهولة" ["تقاد بسهولة"]. قارن بـ ريكندورف AS الفقرة ١٧٥ـ ٤، ٥.

لهذا تُعَدُّ عبارةُ بوتر التي تقول "إن العربية حافلة بالجناس الكتابي" (المصدر السابق، ص ٤٧) مُضلِّلة.

(٥) ـ وهذا هو ثمن الكفاءة الهجائية التي ذكرتُها من قبل في معرض الثناء على العربية. ولاشك أن الهجاء الإنجليزي الذي يُوصف بأنه "غير منطقي" ويُبالَغ في ذمّه في كثير من الأحيان قد صَمَد في وجه أنواع النقد كلها بسبب الزيادة المصاحبة له غالبا. وأوضح هذه الحالات التمييزُ بين الكلمات المتجانسة لفظيا؛ ذلك أنها تُساعد القارئ على التعامل مع رصيد المفردات الإنجليزي الضخم أيضًا عن طريق إعطاء الإشارات عن اشتقاق تلك الكلمات أو أقسام الكلام التي تنتمي إليها.

والخلاصة أن الكتابة العربية لا تذكر بخير، كتابةً وشفاها. ومن نماذج هذه الإساءات رأي فييت (Wiet،١٩٦٦، ص ٦٤):

"تشكل رموز الكتابة العربية عقبة كأداء إذ تحتاج لفهمها أن يكون القارئ متمثلاً في ذهنه على الدوام كل القواعد النحوية".

L'écriture arabe est une gêne insurmontable, en ce sens que, pour comprendre, il convient d'avoir toujours présentes a l'esprit toutes les régles grammaticales

(٦)ـ ويمكن أن يسعفنا المقطع القصير التالي من تفسير البيضاوي للقرآن في فهم الأمور. وقد نشير في كتاب دي ساسي: Anthologie grammaticale arabe، ص ١) نصًا متصلاً يخلو من علامات الترقيم:

"ولذلك ذُكر في سياق الماضي والمقيمين الصلاة وفي معرِض الذّم فويلٌ للمصلين والصلاة "فَعلَةٌ" من صلى إذا كالزكاة من زكى كتبتا بالواو. . . "

وترجم دي ساسي هذا المقطع مضيفًا إليه شيئًا من المعنى كالتالي: "إذ نلاحظ أن كلمة الصلاة orantes هذه مستعملة تارة بمعنى الإطراء، كما في الآية ("والمقيمين الصلاة. . .")"

En effet, nous voyons que ce mot *orantes*

ولم يكن في متناول دي ساسي طريقةُ الكتابة بالخط المائل فقط [المساعدته في تأدية المعنى]، بل كان يستعمل اللاتينية بوصفها وسيلة لترجمة الكلمات التي يوردها وبخاصة من القرآن

est employé tantôt comme éloge, ainsi que dans le passage où lit: *et ceux qui s'acquittent de la prière*

"ونجدها تارة أخرى مستعملة بمعنى التأنيب، كما في قوله تعالى ("فويل للمصلين")".

et tantôt comme un reproche; tel est ce passage: *Malheur à ceux qui prient.*

إن كلمة "الصلوة" [التي تنطق "صلاة" على الرغم من وجود الواو] اسم على وزن "فَعَلَة" المشتق من "صلى" بمعنى "دعا". وتشبه في ذلك كلمة "زكوة" من زكا" بمعنى "طَهُرَ". فكلتاهما تكتب بواو".

(٧)ـ ومثل هذا ما نجده عند المتنبي (في مجموعة آربري، ٤٩:١٩٦٧):

يرى أنَّ ما ما بان منك لِضارِبٍ بأقتلَ مما بان منك لعائب

(٨) ـ ويعطي ريكندورف هذه الصعوبة قيمة عالية (SV 52):

"إن أردنا قياس درجات صعوبة القضايا التركيبية، التي يمكن تمثُّل صيغها النحوية، فإن نظرية "نظام الصيغة" Tense تُعدّ الأصعب في النحو السامي. علينا أن ندرك أصل الصيغة الفعلية، التي لا تعبر عن زمن؛ وفي الوقت نفسه نستخدم صيغ التام وغير التام في لغتنا لترجمتها، دون أن نفكر أثناء محاولة فهمها بصيغ التعبير عن الأحداث الماضية".

Wenn man die Schwierigkeit syntaktischer Probleme nach dem Grad der Schwierigkeit, die syntaktischen Formen nachzufühlen, bemessen will, so ist die Tempuslehre das schwierigste Kapitel der semit. Syntax. Wir sollen Verba finita begreifen, die zeitlos sind und zumal unsere Perfekta und Imperfekta zur Übersetzung verwenden, ohne dabei etwas Praeteritales zu denken.

(٩)ـ سُمّي بذلك لكُرهِه المادي للغة بكل أشكالها المنسابة. ويمكن أن نسميه Lucretian إذا ما رغبنا في توكيد النظر إلى الكلمات بصفتها وحدات ذرية لا تقبل التحليل إلى وحدات أصغر في عالم لا مركز له.

قارن أيضًا المصطلح الذي استعمله شيلر Formtrieb في الدلالة على ضرورة الوحدة الخالصة، لـ ""الشكل" في المجرد" ـ وذلك في مقابل المصطلح Stofftrieb الذي يعني "ضرورة التنوع، والحسية الكاملة، للمحتوى المحدد". (نقلا عن كتاب آرثر لفجوي: The Great Chain of Being , 1936 "السُلم العظيم للأحياء"؛ ص ٣٠٢ ، في نشرة الكتاب التي صدرت عن مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٨).

(١٠) ـ ويرى دي ساسي الرأيَ المعاكس في مقدمته لهذه المجموعة، لكنْ كان ينقصه التقليد التربوي الذي يمكن أن يستند إليه. وللاطلاع على نقد أيديولوجي لمنهج المجموعات بدلاً من النقد المعرفي، انظر كتاب إدوارد سعيد "الاستشراق" Orientalism ص ص ١٢٨ ـ ١٢٩.

الفصل الثاني

إطلالة مختصرة على العربية

يتطلب التعقيدُ غير المُتناهي للعالَم فهمًا أكثر شمولاً. ونحن محتاجون إلى القَوْلَبة وأنصاف الحقائق كي نستطيع البقاء فكريًا؛ أما إن لم نَلْجأ إلى القَوْلَبة وأنصاف الحقائق فسنجد أنفسنا مضطرين إلى الغمغمة، أو نجد أنفسنا مُجبَرين على أن نواصل البحث، مستخدمين مصباحًا كمصباح ديوجين، عن حقيقة واحدة ثابتة. وقد شهد الماضي القريب اندحارًا كبيرًا للقولبة العرْقية: ولم يكن ذلك نتيجة لتطبيق بعض الحجج المعرفية تطبيقًا مطَّرداء بل لأسباب عَمَلية، أي لما تُحدِثه من مآس. ومع ذلك ليس غريبًا أن نجد بعض من يَتورعون عن تأييد بعض الأفكار غير الناضجة عن الأعراق لا يزالون يتكلمون بثقة ويفخر أيضًا عن ذكرياتهم الباهتة عن بعض الأمور التي يَظنُّون أنهم سمعوا عنها شيئًا من قبل، كالقانون الثاني للثيرموديناميكيات، أو برهان جودول، أو النِّسبية، أو مبدأ عدم اليقين عند هايزنبيرق، أو نظرية المعلوماتية، أو البنيوية، أو البنية العميقة، أو الأمومة البدائية ـ وأنا أتكلم هنا عن النقاش في المجلات العلمية التي تعدُّ أنفسها جادة، لا عن حديث المجالس بشأن نَقْض الماركسية (وهي النقاشات التي تُعَد من مظاهر الثقافة الاجتماعية)، أو حلقات النقاش في المقاهي عن نظريات فرويد. فإذا كان العلماء البارزون أنفسهم يَقَعون في بعض الأخطاء حين يتكلمون عن مواضيع قريبة من تخصصاتهم ـ أي حين يكتب المتخصص في علم النفس كلامًا سخيفًا عن اللغة، والمتخصص في الإحصاء عن التاريخ، واللساني عن الأدب، والمهندس عن الوراثة، والمتخصص في علم الأحياء عن الاجتماع، والمتخصص في علم الأعصاب عن العقل ـ فهل يمكن أن نتوقع أن يكون بإمكان طبيب أسنان ذكي أن يأتي بوجهات نظر صحيحة، مدروسة، مُعلَّلة مَعرفيًا عن هذه الأشياء؟ لهذا أنظر إلى القولبة بحزن لا بإنكار: فنحن بحاجة إليها، كحاجتنا إلى أطايب الحياة. لكنْ مثلما أننا نستهجن بعض أطايب الحياة ينبغي أن نختار نماذجنا المُقولَبة بشيء من الحذر.

وقد استعمل بعض الممثلين الساخرين وبعض الرّسامين عبقرياتهم في تقليد اللغات، بل ربما صار هذا التقليد أكثر علانية الآن نتيجة لكون الاستهزاء العرقي المباشر لم يَعُد أمرًا

سائغا salonfähig. وسوف يتبين أن بالإمكان الوصول إلى بعض النتائج الإدراكية من خلال التنميطات اللغوية الفجّة المستعجِلة بأجلى صورة عند مناقشة مقال شوبي، فيما يأتي.

وسأناقش فيما يلي التوصيفات التي تهْدِف إلى تصوير العربية تصويرًا مختصَرا. وهذا الهدف مقبول جدا. ذلك أنه سبق أن حاول بعض اللسانين الجادِّين مرات عديدة تحديدَ تلك الخصائص العامة التي تُميِّز اللغات تمييزًا جذريًا، وذلك بالكيفية نفسها التي يُستخدَم بها الجنس والسن مادةً أساسية لتصنيف الناس: فوصف اللغات بأنها: إلصاقيَّة، في مقابل، مُتصرِّفة، إلى آخره؛ وأن الترتيب فيها: فاعل ـ فعل ـ مفعول، في مقابل، فعل ـ فاعل ـ مفعول، إلى آخر ذلك، مفاتيحُ يُنظَر إليها على أنها أساسية للتركيب؛ وتُصنَّف الحركاتُ برسْمِها على هيئة أشكال هندسية متعددة الأضلاع؛ كما تُصنَّف اللغات بماهيَّاتها، مثل: "اللغة الفرنسية"، و"اللغة التجريدية"، ولغات أخرى.

وبما أن هذا الكتاب مُوَجَّه إلى القراء الغربيين، وهَدَفُه أن يكون عِلاجًا مُلائمًا لما يَسُود في الجو العام المعاصر، اخترتُ النماذج المقولبة الغربية عن العربية. أما أفكار العرب القليلة عن العربية فقد ناقشها باختصار تشارلز فيرجسون في مقاله: "أساطير عن العربية":
"Myths about Arabic," (Monograph Series on Languages and Linguistics 12 Georgetown University, Washington, D.C.: 1959, pp, 75-82)

وأفكار العرب عن اللغة العربية متوقَّعة، حين ننظر إلى التاريخ الخارجي لها، ومن تلك الأفكار ـ تفوُّقُ *العربية* على اللغات الأخرى جميعًا وعلى اللهجات العربية، والصِّحَّةُ النِّسْبية لِلَهجة المتكلِّم المعيَّن، وتميُّز *العربية* بالمنطقية ـ وافتقارها إلى حِذْق البذاءات التي توجد في الأشعار الشعبية blasons populaires .

***

١ـ الاشتراك اللفظي: التضاد، والبساطة، والخشونة:

من الأقوال الشائعة المكرورة عن العربية القول التالي: "تعني كلُّ كلمة في العربية شيئًا معينًا، ونقيضَه، وشيئًا فاضحًا، وشيئًا يتصل بالجَمَل".

وتتلبّس المبالغةُ هذا القولَ الشائع، لهذا يَصعُب أن يُخدَع به أحد، ولن أقول شيئًا عنه لهذا السبب. ومع ذلك فلهذا القول ما يُسوِّغه وإن كان لاذعًا عن العربية ـ لكنه لا يتعلق بالعربية كما تُستعمَل في الواقع، كما في النثر المألوف مثلا، بل يَتعلّق بصورتها الغنية بالشكل اللافت للنظر الذي تحويه المعاجم العربية التقليدية. فليست المشكلة أن هناك عددًا كبيرًا من الأضداد في العربية، بل تكمن في أن العلماء العرب قد دَوَّنوا تلك الكلمات وحَفِظوها، لذلك سوف تجدُها حين تفتح أيَّ معجم (ويشمل ذلك تلك المعاجم التي أُلِّفت بعد قرون من انتهاء فترة تدوين اللغة، لأن المعاجم تتغذى على المعاجم). ولمزيد من الاطلاع على هذا الموضوع انظر الفصل السابع.

فتحوي العربية عددًا كبيرًا من المصطلحات التي تتصل بتربية الحيوانات، بقدر ما تحويه الإنجليزية من مصطلحات الهندسة: وتقبع هذه الكلمات في المصادر ويستعملها العلماء العارفون عند الحاجة، كما في جزء القصيدة الجاهلية المتعلق بوصف الرُّحلة، لكنها لا تظهر في الاستعمال اليومي للغة، وهو ما يُسهِم في صعوبة التأويل[1]. أما فيما يخص المصطلحات التي لها معانٍ ثانوية غامضة، فلا تزيد علاقتها بصورة العربية عن كونها حالةً خاصة من المسألة العامة المتعلقة بالسؤال عن إن كانت بعضُ اللغات أكثرَ ملاءمة من غيرها فيما يخص الاستعارة الحية؟ فتُوصف الأسبانية مثلاً بأنها تَستعمِل قدرًا من العبارات المَثَليَّة والأمثال idioms يفوق ما تستعمله الفرنسية، لذلك يَصعُب أن تجد فاكهةً تنبت في البرازيل لا تُستعمَل في الكناية عن مظهر من مظاهر الجنس. أفلا يمكن القول إن العربية تُبرِز مَيْلاً مشابهًا لذلك؟

وحين يناقَش موضوعٌ ما كتابةً يَنشأ عن هذا النقاش قَدرٌ كبير من المفردات التي لا يمكن وصفُها بأنها مؤقتة. فيُعامِل القرآنُ، إذا بدأنا من المَنبَع، الأمورَ المتعلقة بالجنس بطريقة فيها كثير من التسامح[2] والتوازن غير الخجول. إذ يُوصَف نعيمُ الجنة بمصطلحات ليست جانبية؛ فالمرأة العفيفة هي التي لا تَقبَل إلا رجلاً واحدًا فقط في وقت واحد؛ ويمكن للرجل أن يكون له، إلى جانب الزوجات الأربع، عددٌ من الإماء؛ ومريم أم المسيح هي "التي أحصَنَتْ فرجها"، وهي كلمة تعني ما تعنيه كلمة "عذراء" لكنها تعبر عن ذلك المعنى بشكل أكثر صراحة. ومن المؤكد أنه يُعبَّر عن هذا كله باستعمال المفردات اللمّاحة غير المباشرة التي تُميِّز

القرآن بمجمله. وقد تعرّضت التوجهاتُ والصُّوَر جميعها، منذئذ، لتغيرات كثيرة جدًا حتى صار من الصعب أن تُضَع حدودًا آنيّة تحيط بالمفردات التي تتصل بالجنس. وحين ننظر في معجم كازيميرسكي، نجد كلمات مفردة تُطلق على بعض الأشياء التي ليس لها، على حد ما أعلم، أسماء في الإنجليزية (وذلك مثل "مَتكاء" التي تعني "ذات بَظْر طويل جدًا")، غير أن هذه الكلمات ربما تكون مفردات اصطلاحية يمكن مقارنتها ببعض المصطلحات في الإنجليزية، مثل: episioclisia بدلاً من كونها كلمات عادية، نحو: stacked "مُكوَّم"[٣].

وإذا ما وجدنا عددًا كبيرًا من الاستعمالات المَجازيّة في المعاجم توحي بمعان جنسية، فربما يعني ذلك، مرة أخرى، غرامَ جامِعي المعاجم بجمع الغريب أكثر من أي شيء له علاقة بنسبة الاستعمال الفعلي لمثل هذه المصطلحات في معجم أيّ مُستعمِلٍ فِعْليٍّ لِلُغة. ولك أن تنظر إلى كلمة prick "قضيب" أو كلمة monosyllable "أحاديّ المقطع" في معجم Framer - Henley للعامية الإنجليزية (١٨٩٠ـ١٩٠٤، الذي أعيد نشره في ١٩٧٠ ، ونشرته دار Arno Press)، وعندها سوف يبدو لك أن الأنجلوساكسونيين كانوا مجموعة من الشهوانيين أيضا.

ومحصلةُ هذا القول الشائع عن معجم العربية مثيرةٌ للاستياء بالطبع، وما قيل عن الجَمَل ليس أقل من الشهوانية وعدم المنطقية المفترَضتين في النقطتين الأخريين. وقد اعترض إدوارد سعيد اعتراضًا حادًا على تفسير برنارد لويس أصلَ المصطلح السياسي: "ثورة"، الذي يقول: "إن الجذر "ث و ر" في *العربية* يعني أن يَقوُم (لِلْجَمَل، مثلا)، أو أن "يُحرِّك" أو "يُهيِّج"، لذلك، فهي، خاصة في استعمال المغاربة، تعني "أن يثور" [بالمعنى السياسي].

ولمعرفة الأهمية الأيدولوجية لهذا الادعاء (وهو ما يعني الاستخفاف بالسياسية عن طريق الإشارة إلى ما يُنظر إليه في الغرب على أنه حيوان عنيد) قارن بكتاب إدوارد سعيد، الاستشراق (بالإنجليزية) ص ٣١٤، وما يليها. والسؤال الآن هو ما الحقيقة اللغوية وراء مثل هذه الحالات؟

وللإجابة عن ذلك يُمكن، أوّلاً، أن نُلحَظ أنّ تاريخ الكلمات عُرْضةٌ للنسيان دائما، حتى حين يَستمِر المعنى التاريخي حيًا. ولكي لا نذهب بعيدًا فهذه الكلمة الإنجليزية نفسها،

أي revolution ، بالمعنى السياسي لم تعد تعني الفكرة التي لها علاقة بالنجوم، مع أن هذا هو المعنى الاستعاري لها، ومع أن هذه الفكرة لا تزال حية في معنى الثورة بالمعنى الفلكي.

وثانيًا، إن التحوُّل من المعاني الحِسِّية إلى المعاني المجرَّدة أو العكس مألوفٌ في التاريخ الدلالي حتى ليبدو من الصعب أن نعرف أيّها الأصلي. فإذا نظرْتَ إلى أيِّ جذر في معجم [المستشرق الإنجليزي] إدوارد لين للعربية، فستجد في كثير من الأحيان ان لذلك الجذر صلة بالحيوان، لكن هذا لا يعني أن هذا المعنى المتواضع هو السابق. فيَدُل تأثيل الكلمة التي تُطلق على شيء يَبْلغ في بداثيته وحِسِّيته المادِيَّة "القَمَرَ" moon ، كما يقول Kluge وآخرون، على أنه صيغة بدائية شاحبة مُحوَّلة عن الاسم المجرد: "القائس" [الذي يقيس الزمن].

***

٢ ـ الصلة بين المشتقات من الجذر الواحد:

يقول ج. رابان عن العربية: "إنها لغة تتصف باللُّبْس المنطقي المتجذِّر. إذ يوجد وراء كلّ كلمةٍ نستعملها أطيافٌ متدرِّجة لكل الكلمات الأخرى التي تنتسب إلى الجذر الذي جاءت منه. . . فكلُّ كلمة إنما هي تعويذة، تستحضر أشباحَ الكلمات الأخرى ذات الصلة بها، والتي جاءت منها".

J. Raban, Arabia: A Journey through the Labyrinth, New Your: 1979, p.22.

ولا يعدو ما يشير إليه رابان هنا الإشارةَ إلى تلك الارتباطات الثانوية المُمكِنة التي يُمليها الاشتقاقُ الذي يتسم بخصيصة "الجذر والوزن". وربما يكون هناك، في الواقع، بعضُ المقتضيات التركيبية والدلالية المختلفة بعضَ الشيء بين هذا النوع من الاشتقاق والنمطِ النَّحْتي الذي يوجد في الإنجليزية، لكنَّ أهميةَ هذه المقتضيات ستكون ثانوية. فكلمة "طفل" مثلاً لا توحي بشكل مباشر بالفعل "يتطفَّل" الذي يُجانِسها، بأكثر مما تُهدِّد الكلمةُ الإنجليزية horse "حصان" الكلمةَ charleyhorse أو بالكلمة hoarse "أجش الصوت" أو hearse "نعش".

وقد لاحظ ماليس روثفين (١٩٨٤، ص١١١) الخصيصة الاشتقاقية نفسها [في العربية] لكنه انتهى إلى نتيجة أكثر تعاطفا:

"إن الأسماء والصفات غالبًا ما تكون مشتقةً من الأفعال، وغالبًا ما تكون مصادرَ وأسماء أفعال. فيُسمى الموظفُ في مكتب: "كاتِب"، والكِتاب "كتاب". أما الطائرات والطيور فهي أشياء تطير ["طائرة" ـ قارن ـ Flugzeug ـ و"طَيْر"]. أما اللغات الأوروبية التي تحدَّرت من أصول متعددة، فمؤسَّسةٌ على الأسماء: فمعظم الأسماء في الإنجليزية أسماءٌ بأنفسها، وليست أجزاءً من الأفعال، التي تتصف بأنها تعبر عن "عمليات". وبسبب تجنب العربية الدقيق لتصنيف الكلمات إلى أجزاء منفصلة، وجَعْلها الكلماتِ فيها ترتبط، بدلاً من ذلك، بعلاقات منطقية متوازنة مع المفهوم المركزي ـ أي الجذر الفِعلي ـ صارت لغةً ملائمة للتعبير الديني".

ولِمَزيد من الاطلاع على الارتباطات الثانوية، انظر الفصل الخامس. وللاطلاع على تقويم مختلف "للأطياف المُتدرِّجة" وراء الكلمات العربية، انظر الفصل السادس.

٣ ـ ظاهرتا الانتفاخ والعنف:

"قال دليلُ الدراسات الجامعية الأولى في جامعة كولومبيا، سنة ١٩٧٥ عن درس اللغة العربية الذي تُقَدِّمه، إن لأكثر الكلمات في هذه اللغة علاقةً بالعنف، كما أن العقل العربي كما "تُصوِّره" هذه اللغة متعجرف بشكل متأصِّل" (إدوارد سعيد Orientalism, p.287).

وهناك أساس صحيح لهذا الادعاء، لكنه جاء بصورة فضفاضة من المبالغة: إذ ينطبق هذا الوصف، على كل حال، على بعض الفنون الأدبية أكثر من انطباقه على العربية أساسا. ذلك أننا نجد في الأدب العربي المتألق نوعين أدبيين يَبرز فيهما الحديثُ عن المعارك: فالأول هو أيامُ العرب التي تتحدث عن حروب العرب في الجاهلية ـ وهو العصر الذي يماثل عند العرب العصرَ الذي تُصوِّره الإلياذة [عند اليونان]، وهي الفترة التي يصفها العربُ أنفسُهم بعصر الجهل (الجاهلية) ـ والنوع الثاني أدب السيرة فيما بعد الإسلام ـ الذي يشبه أناشيد رولان Chanson de Roland . وهذان النوعان الفَنِّيان ربما لا يبلغان في الدَّمَوية الفَجَّة

المستوى الذي تصل إليه القصيدة الأنجلوساكسونية الشهيرة Beowulf ، لكنهما يَحويان عددًا من المترادفات لألفاظ "السيف" و"البطل" و"الأسد" (وصفًا للبطَل). وينطبق هذا تمامًا على الفنون المماثلة في الإنجليزية القديمة، واللغة النورسية القديمة، وغيرهما. لكن المترادفات العربية لا تتمحور حول أفكار العنف نفسها ـ إذ إن هناك عددًا محدودًا من المترادفات لألفاظ القتل: kill ، مثل، gouge "يقتلع عينه"، decapitate "يقطع الرأس"، eviscerate "ينزع الأحشاء"،defenestrate "يرمي من النافذة" وما يشبهها في الإنجليزية؛ وقد يَجِد المهتمُّ بهذه الأشياء مماثلاً لها في الاستعمالات الخَطابية التي تعبِّر عنها الجملةُ التي شاع استخدامها في حرب فيتنام: waste the gooks [وتعني كلمة gook وصفًا بذيئًا لسكان جنوب آسيا في عامية الجنود الأمريكيين أثناء الحرب الفيتنامية، أما كلمة waste فتعني "تُخلِّص" وتُستخدَم كنايةً عن القتل: فمعنى هذه الجملة: "اقتل هؤلاء الفيتناميين القذرين"]. أما المصطلحات التي تتكرر أو التي لها مرادفات في "السيرة" فيبدو أنها تتركز حول بعض الأفكار المبجَّلة، مثل: جودة "السيوف الهندية"، و"الدروع العاديَّة، نسبة إلى عاد" و"رماح الخَطّ"؛ و"سرعة المهاجِم"، و"كرم المُضيف"، و"ثبات البطل". أما الأفكار التي لها أوصاف محيِّرة كثيرة في العربية بمُجْملها فهي من قبيل: "الظلام" و"المَيْل، والخصائص الشخصية". ولا يبدو أن لهذه الخصائص المعجمية المساعِدة علاقةً بأي شيء عقليّ: ذلك أن الأدب العربي لا يبدو فيه الخوف (الغيبي) من الظلام (وإن وُجد مفهوم الظلام في أحيان كثيرة في الاستعارات الخاصة بالجو)، كما أن تحليل الخصائص الشخصية ليس من بين المواضيع المهمة فيه.

أما فيما يخص التعجرف فيتنوع تنوعًا كبيرًا بحسب الزمن والنوع الأدبي. فهناك نوع من اللغة المَحْفلية الطنانة التي تختلف في التفصيلات عن اللغة البيروقراطية الخاصة عندنا لكنها تخدِم كثيرًا من الوظائف المُماثِلة؛ وهناك استشهادٌ عالٍ بالشِّعر فيما يكون في العادة سَردًا قَصَصيا ـ وهي طريقة لطيفة للتحكُّم في سرعة السرد ـ ولا تبدو متعجرفة إلا لمن لا يحب الشعر؛ كما أن هناك قَدرًا من الفنِّية المتأنِّقة في فنِّ المقامات، وهو شبيه بما لدينا في أعمال الروائيين أمثال: رابليه، وجنجورا، وجويس، ونابوكوف. أما الطريقة الوحيدة التي يبدو فيها التعجرف في العربية غريبًا شيئًا ما فتتمثل في ارتباطها بالعنف ـ كما في الإطلالة المختصرة هنا. لكنها لا تدخل في باب العجرفة بقدر ما هي تفَكُّه وشعرٌ نادر جدًّا يَصدُر عن

عاطفة متفاخرة، يقوله رجالٌ يُبالِغون في تفاخرهم بأنفسهم في حياتهم اليومية. وينبغي أن نلاحظ أيضًا أنه في الحين الذي يشير فيه 'التعجرف' [الكلام المنمق] إلى شيء حقيقي، يمكن تمييزه لغويًا عن النثر العادي، إلا أنه لا يمكن تمييزه عن البلاغة eloquence . فهل يمكن لنا أن نصنِّف خُطب [الزعيم البريطاني] تشرشل الحماسية أثناء الحرب [العالمية الثانية] متعجرفة ـ من نوع خطابه "قاتلوهم على الشواطئ"؟ وهل يمكن عد خطب جوبلز [وزير الدعاية الألماني] كذلك؟ وتقود هذه إلى عبارة موجَزة أخرى، وهي التي أوردها إدوارد سعيد (Orientalism 310): فقد اتُّهم [إدوارد سعيد] مورو بيرجر بـ "افتراض أنه مادام أن اللغة العربية ملائمة بقدر كبير للبلاغة فلا يستطيع العرب تبعًا لذلك أن يُفكِّروا تفكيرًا صادقا". وقد جاءت هذه الملاحظة اللغوية على شكل جملة تحكي عن حقيقة factive ، وهو ما يَسمح لنا بأن نؤول موقفَ إدوارد سعيد كأنه يَقْبل المُسلَّمة التي تقوم عليها (وهو ما أشك فيه) لكنه يَرفض النتيجة. ومهما كانت الحال فلا يُعقل أن نقول إن لغة ما ملائمةً للبلاغة [الخطابة] بأكثر من معقولية القول إنَّ لغة ملائمة للسوناتات sonnets [المقطعات الشعرية المعروفة في الشعر الإنجليزي] أو للكلمات المتقاطعة. ذلك أن من الصعب تخيُّل أنْ توجد لغةٌ تتسم بالفقر حتى يصل الأمر بها إلى عدم إمكان استعمالها بطريقة بلاغية [خطابية]؛ إذ إن التطور المدهش للغات المُولَّدة من بداياتها الهزيلة يوحي بأنه يمكن حتى لما يكون أصلاً متواضعًا أن يَغتني بسرعة. زيادة على ذلك فإن 'الخطابة' مُلبسة بشكل ضار. ومن الواضح أنه لا يمكن أن توصف لغةٌ بهذه الصفة، بمعناها غير اللغوي، أي 'الجعجعة'. أما بمعناها اللغوي فتعني الكلمات الرزينة المجنَّحة ـ وهو أمر ممتاز إذا ما اقترنت بالأفكار الرزينة المهمة. بل إنه لا يعبِّر عن أكثر الأفكار غرابة من بين 'الأفكار الحقيقية" بأسلوب يُشبه أسلوب المتنبي أو أسلوب كارلايل، بل بالمهمهات والكلمات أحادية المقطع التي تفتقر للخطابية، وبالمحادثات العادية الفجة التي يتبادلها الناس في الحانات وأماكن غسل الملابس.

أما العلاقةُ بين العربية و"الأفكار الحقيقية' ـ إذا تركنا مسألة الخطابية جانبا ـ فهي من حيث المبدأ مسألةٌ طريفة، وهي مِثال محيِّر للمسألة العويصة المتعلقة بالعلاقة بين الفكر واللغة بصفة عامة. فمن الصعب، كما أظن، أن يقال شيءٌ محدَّدٌ عنها، وذلك لطبيعة الفكر غير المحدَّدة. فإذا كان المُنتمون إلى جماعة لغوية واحدة ـ ولنقل نعوم تشومسكي و ب . ف .

سكنر - يبدو الواحد منهم كأنه يُنكِر امتلاكَ الآخر فكرًا حقيقيًا، فمن الأوضح أنّ تحديد الفكر المتعدِّد المستويات عند مجموعة لغوية بكاملها، تُعَد بالملايين وتنتمي إلى دول عديدة، سيكون ضحية لبعض الصعوبات المنهجية.

ومع ذلك يُمكِن أن تكون بعض المسائل الفرعية مما يَقبل المناقشة. فمن ذلك مثلاً أن متابعة العلوم توجب مُتابعةَ مصطلحاتها. إذ تَفتقر العربيةُ المعاصرة بشكل حادٍّ للمفردات المُوحّدة في مجال العلوم المعاصرة التي يمكن فهمها بصورة عامة. أما سبب ذلك فاجتماعيٌّ بصفة أساسية، نحو: المعارضة القومية، التي نعرف شبيهًا لها في التاريخ الأوروبي (كالتخلص، في العصر الحاضر، من المصطلحات الألمانية، والروسية، والمجرية). كما أننا نسمع كذلك أن بنية العربية نفسها يمكن أن تُلام على عدم قدرتها على التطور، نحو: ندرة النحت فيها، والجذر الثلاثي غير المطواع[13]، إلى آخره. ولا يمكن إنكار هذه العيوب، لكنها لا تخص العربية وحدها. فالمصطلحات التي نجدها في الإنجليزية مثل: television ، و CRT ، و muon ، و lox (وهو الأكسجين السائل)، و disoephedrine ، و CaCO3 ، لا تصاغ بالمبادئ التي كانت مألوفة في الإنجليزية في فترة الملك ألفرد. إن الحاجة أمُّ الاختراع. لذلك دعنا نأمل للعربية مخاضًا غير مؤلم.

٤ - الإطناب:

يقول جاك بيرك:

"ما الذي نلاحظه في وضع العربية الراهن، أو بالأحرى ما الذي يلفت نظر عالم الاجتماع في هذه اللغة العربية، وليس نظر اللغوي، إذ إنني لست لغويا؟ إنها أولاً حقيقة أولى: وهي الإسهاب، تلك السمة التي تجعل التعبير عن كل شيء تقريبًا في الأسلوب الجديد من خلال عبارات مسكوكة".

Au stade d'arrivée, que remarquons-noun, ou plutôt qu'est-ce qui dans cette langue arabe, frappe, non pas le linguiste que je ne suis pas, mais le sociologue? D'abord, un premier fait: la redondance. Cette redondance qui fait que, presque tout, en nouveau style, s'exprime par clichés.

([المستشرق الفرنسي] جاك بيرك، في الكتاب الذي حرره تشارني:

L'amivalence dans la culture arabe, 17

(وهل اكتشف بيرك كَمْ كان أسلوبه هو مهورًا بالحشو)).

وقد أوردتُ، في الفصل الذي عنونته بـ"الإسهاب"، الطرقَ الخاصة التي تُستغل بها العربيةُ هذه الخصيصة اللغوية الكُلّية. وليست العربية "بنيويًا" في العموم أكثر اتصافًا بالحشو من الفرنسية أو الإنجليزية، على حد ما أعلم. والطريقةُ الوحيدة التي يَظهر فيها الحشو بصورة بارزة في مستوى النحو نجدها حيث يَنْتج عن اقتصاد العربية في الظروف (قلّة الظروف فيها) وفي التعقيد التركيبي، إذ إنها تُضطر في كثير من الأحيان إلى تكرار فكرة ما باستخدام الاسم، ذلك أن الأسماء هي الوحدات الثابتة التي تُعلَّق بها المخصِّصات modifiers ، بل يمكن أن تلجأ إلى تكرار الفعل من أجل أن تُقسم الجملة إلى قسمين طلبًا لتسهيل تحليلها (انظر الفصل التاسع).

ومن الظواهر ذات الصلة بالإسهاب النحوي، وإن أمكن تمييزُها منه، الإطنابُ والتكرار، وهما بكل تأكيد من ظواهر "الأداء" لا من خصائص البنية اللغوية.

أما فرانز روزنتال فقد كتب صراحةً: "تتصف الكتب العربية بالميل إلى الإطناب"[٤]. ومن المرجح أن اختبار هذا الحكم أصعب من اختبار الإسهاب في الجملة الواحدة أو في الفقرات الكثيرة التي يُمكن إحكام ربط بعضها ببعض.

والخصيصة الأخرى التي ذكرها بيرك ـ أي العبارات الجاهزة "الكليشيهات" ـ لا علاقة لها منطقيًا بظاهرة الحشو (الزيادة). يضاف إلى ذلك أن هذه الملاحظة ليست صحيحة بأيِّ معنىً لُغوي. وربما يعود سبب حُكمِه إلى أنه قد وجَد أن أفكار المؤلفين العرب المعاصرين مبتذلة، فليكن ذلك؛ لكنْ يبدو أن *اللغة* (العربية)، بصورتها الكلاسيكية أو النموذجية المعاصرة، تكاد تخلو من العبارات الجاهزة، أي العبارات المَثَليّة، إذا ما قارنّا ذلك في الأقل بغنى الرصيد المعجمي في المفردات. أما الإنجليزية فهي بالمقارنة ملأى بها وتَغُصُّ بها ومحشوة بها حتى أذنيها وتفيض بها [وهذه ترجمة للعبارات الإنجليزية التي استخدَمها جستس، وهي عبارات جاهزة وتدل على الشيء نفسه]. ويَعكس نوعُ المقالات الفكاهية التي تُسمى "خبير الكليشيهات" في أمريكا، استغرابَ متكلمي الانجليزية من النمو الواسع المتزايد باطراد للصيغ اللفظية.

وتقرب الأمثال، التي يتصف بها الأسلوب العربي القديم، من الكليشيهات؛ لكن هذه أقل إرباكا.

***

ويتضمن مقالُ ي. شوبي "تأثير اللغة العربية على نفسية العرب" عددًا من الأحكام اللاذعة المختصرة nutshells التي تتمحور حول فكرة أن العربية قاصرةٌ وتؤدي إلى شَلِّ فِكْر العرب. ونُشر هذا المقال أول مرة في مجلة الشرق الأوسط في سنة ١٩٥١، وبما أنه كان يبدو مؤثرًا، أو مثيرًا في الأقل، فقد أعيد نشره في كتاب يحوي مجموعة من المقالات حرره عبد الله لطفية وتشارلز تشرشل، بعنوان: "قراءات في المجتمعات والثقافات العربية في الشرق الأوسط" (ونحن نغمض أعيننا هنا عن الإطناب العلمي في عنوان الكتاب)، ونشرته دار The Hague في سنة ١٩٧٠[٤].

وقد استنكر إدوارد سعيد هذا المقال استنكارًا شديدًا (الاستشراق، ص ٣٢٠) لكنه لم يدحضه في الحقيقة. أما المقال فيقوم على احتجاج ضعيف بل ربما لا يستحق، في الأحوال العادية، أي نَقْد مُفصَّل، لكنْ بما أنه يمثّل حالةً مدهشة معاصرة للمعالجة التي تنظر إلى اللغة كأنها سِجْن، واتسامه بافتراض بعضِ العلاقات الواضحة بشكل كافٍ مما يجعل من الممكن إقامة الحجة ضدها، وبما أنه ربما ساعَدَ في تعميق انفصام الشخصية المتزايد الذي أُصيبتْ به امريكا مما يَجعلها عرضةً لتصديقها، فسأناقش النقاط الرئيسة فيه. ولَمّا لم يُسجل شوبي أيةَ نقاط انتصار، فإنني لن أسجِّل نقاط انتصار أيضا. وتشير أرقام الصفحات إلى الصفحات في كتاب لطفية وتشرشل.

٥ ـ الازدواجية المعاصرة:

يقول شوبي (ص ٦٨٩، التعليق) إن الازدواجية العربية تمثّل مشكلةً حقيقية. ويبدو أثرُها على غير المتعلِّم تعليمًا جيدًا ـ وهذا تعبير مُقولَب، يَربط الفكرَ بالكلمة ـ شبيهًا من حيث النوع بما نجده في الإنجليزية التي تتصف بنثر "يُتّهم بالتساهل الأسلوبي". أما أثرُها من حيث الكَم فأكثر قسوة لأن العاميات العربية أكثر بُعدًا عن اللغة الأدبية مما عليه الحال

في أمريكا بل هي أكثر بُعْدًا مما نجده في الجزء المتكلّم للألمانية في سويسرا أيضا، كما أن التعليم الطويل الذي يمكن أن يَنشأ عنه تعزيزُ الثقة بالنفس ليس منتشرًا بما فيه الكفاية بعد.

وحتى إن صح هذا الزعم، فيجب أن نتردد في تصيُّد أي قصور عقلي يَوَد المرءُ أن يَنسبه إلى هذا السبب، ذلك أن الشُقة، على العموم، أوسع من ذلك بين الفنلندية أو المنغارية أو اليابانية وبين اللغات الغربية الرئيسة التي يجد المرء نفسه ملزَمًا بالتعبيرِ بها لكي يصل إلى قراء أوسع. ولم أجد أنا أيَّ عَجْز خاص أو ارتباك عند كتّاب مثل نابوكوف أو دوزي [اللذين يؤخذ على لغتيهما الأصليتين ما يؤخذ على العربية]. لذلك يَتطلّب تتبُّع أية علاقة من هذا النوع احتجاجًا أكثر تفصيلا.

٦ ـ اللُّبْس:

ويتحدث شوبي عن "الغموض العام للكلمات والجمل العربية" (ص ٦٩٥) ويرجع ذلك إلى الأسباب التالية:

أ ـ الغموض الأصلي للمعنى الذي لا تزال الكلمات تحافظ عليه،

ب ـ تراكُمُ المعاني عبر قرون من الاستعمال الكتابي،

ج ـ تفاعل الكتاب والبلدان العربية مع التأثير الغربي بصور مختلفة.

أما النقطة الأولى فلا تزيد عن كونها افتراضا، بل لا تزيد عن كونها أمرًا مشكوكًا فيه خاصة حين نلتفت إلى ما نعرفه عن التغيُّر الدلالي (نحو: تضييق الدلالة، وتقسيمها، وغير ذلك). والنقطتان الأخريان صحيحتان وتتسم بهما، حقيقةً، العربيةُ الأدبية المعاصرة. أما التراكم التعاقبي نفسُه فيَنتج عنه بعضُ الدِّقة التي لا تتحول إلى غموض إلا إذا انحلّت الثقافة الأدبية نفسها. فتتضمن الكلمة الإنجليزية nice "لطيف"، على سبيل المثال، علاقات بالغة الدقة من المعاني المتقاربة، لكن المتكلم المتوسط لا يستطيع في الوقت الحاضر أن يلحظ "الفروق الدقيقة" nice distinctions وبدلاً من ذلك يستعمل العبارة بوصفها كلمة واحدة لها معنى واحد. أما النقطة الثالثة، أي التشرذم، فيمكن القول إنها ليست إلا ادعاء مختصرًا عن العربية الأدبية المعاصرة في تقابلها مع *العربية* في عصور الازدهار العربي: إذ كانت اللغة

العربية، على الرغم من امتدادها من البرتغال إلى أواسط آسيا، موحَّدة بشكل يثير الإعجاب.

٧ ـ القصور التركيبي:

أما "صرامة النحو" (ص ٦٩٥) ـ وهي فكرة مختصرة ممتازة إن كانت صحيحة ـ فغير مقنعة بوصفها قيدًا على الفكر. أترى شوبي يُفضّل أن تكون العربية متسيِّبة؟

لكن هناك قضيةً حقيقية وراء التفريع غير المهم إلى "صارم/ متسيب": فحين نقارن العربية بالإنجليزية أو الألمانية وهما اللتان تتميزان بكثرة قواعد التحويل، والدَّمج، والجمل المعترضة، لا تبدو العربية غنية بأنواع الجمل. لكن هذا الأمر، تحديدًا، هو ما يمكن أن يتطور بصورة عارمة، من مؤلِّف إلى مؤلف ومن عِقد إلى عقد آخر. فيمكن أن تصير العربية أكثر كفاءة للتعبير عن الفكر إن استخدَمت علاماتِ الترقيم المعاصرة استخدامًا مطردًا، مثلا. أما النحو الذي يعبِّر عن الأفكار في العادة بوسائل شبه معجمية فيمكن أن يكون أكثر صعوبة: فقد تغلبت الإنجليزية على فقرها الاشتقاقي بتطوير النحت تطويرًا كبيرا، كما تداركت نقصَها في الضمائر التي تعبر عن الشخص المفرد الغائب الحي المحايد من حيث الجنس بوسائل متعددة غير مستساغة، كما أن تطويرها لخصيصة الكيفية aspect لا يزال تقريبيًا ومشوشا. أما العربية فورثت رصيدَها الغنيَّ على مستوى الصرف تحديدا ـ وهو الذي يتميز بالصرامة لكنه مطواع، إن أردنا أن ننقد الفكرة النقيضة الأصلية لفكرة شوبي.

ويبيِّن شوبي أنه يمكنك الإتيان بترجمة غير متعاطفة ("حرفية") لبيت من الشعر مجهول القائل (وهو لم يورد الأصل) خارج سياقه، وألا تكون واثقًا من معناه الدقيق (ص ٦٩٦). لكن هذا لا يكشف شيئًا عن قدرة العربية على الوضوح. وربما كان بإمكانه أن يأتي بحجة أقوى شيئًا ما لو استشهد بمقطوعات من الشعر القديم مما لا يمكن معرفة معناه من غير شرح مرفق (وهو الشرح الذي يمدُّنا به العربُ أنفسهم في الغالب، وهم الذين يعانون أنفسُهم بشكل مماثل من بعض الصعوبات في فهْم القصائد القديمة)؛ وربما أمكنني أن أجيب عن حجته هذه بالإشارة إلى غموض الشعر النورسي القديم واضطرابه اللغوي، في مقابل الوضوح الذي يميز النثر.

ويقول شوبي: ". . . إن الملاحظين المثقفين من الأجانب في الأقطار العربية لا يفهمون السبب الذي يجعل العربي الذي يبدو على مستوى عال من الذكاء في مجال تخصُّصه لا يُبين عن مثل هذا المستوى من الذكاء فيما يخص الحقول الأخرى عموما" (ص ٦٩٦). أما إجابة شوبي فهي: إن غموض اللغة العربية أمر لا يمكن للفرد أن يتغلب عليه إلا بالتدريب المتخصِّص وحده، بل لا يمكن أن ينجلي إلا في ذلك المجال الدقيق الذي تخصص فيه. وهذه المشكلة مألوفة. وتسمى في الغرب Fachidiotei .

٨ ـ التَّلعُّب بالكلمات:

ويتهم شوبي العربَ بالغرام بالتلعُّب بالكلمات على حساب الفكر (ص ٦٩٧). لكن التلعب بالكلمات موجود في أكثر اللغات والآداب إن لم يكن فيها كلها؛ بل يمكن القول بأن بنية اللغة العربية تلائم بصورة خاصة التنكيت والعبارات المسجوعة التي تُستَخدم في التنكيت وغير ذلك، أما السؤال فهو: هل الغرض من استعمال هذه الوسائل التلعبُ بالكلمات في أثناء الحديث من غير هدف، بحيث لا يؤدي إلى تغيير المعنى، أم أنه يخفي وراءه رسالة ما؟ فنحن الذين تعودنا في الغرب على سماع الأكاذيب والنكات تصاغ باستعمال نثر عادي عاطل من أية حِلْية لفظية، نحو: "فيما يتعلق بذلك، أيها السيناتور، دعني أقول ما يلي"، نجد أنفسنا مشدوهين بسماع أنَّ المنكِّتين العرب يُلقون بعضَ النكات لكنهم لا يستطيعون إيجاد صيغة للكلمة التي تدل على مفهوم التَّعدية. أما التلعب بالكلمات، فعلى خلاف التنكيت، فواضح بصورة مباشرة. فكتابةُ بعضِ الناثرين العرب فقرةً بكاملها باستخدام حروف ذات أشكال معينة فقط أمر يؤدي بالتأكيد إلى حجب الرسالة التي يريد أن يوصِلها، لكن هذا نفسه ما يحصل حين نستخدم الشكل الشعري السداسي الذي يسمى sestina. غير أن وسائل التسلية، مثل هذه، لا ينجم عنها الحد من قدرة المتكلم على التفكير إلا إنْ كانت اللعبة التي تسمى لعبة المربعات [البسيطة] checker تؤدي إليها. زيادة على ذلك لا يمكن أن نعد التلعب بالكلمات والتفكير الجاد أمرين لا يمكن الجمع بينهما: ولك أن تقارن بشكسبير أو هوبكنز. ويعد الكاتب الفرنسي رابيليه واحدًا من الكتّاب الذين يؤدي غرامُهم بالجانب غير الناضج من اللغة إلى نوع من ضحالة الفكر أو التحجر:

لكن اللوم هنا يجب الا يوجَّه إلى اللغة الفرنسية، ذلك أن الكاتب يَخلق معجمَه الخاص به. (وإذا كانت سمعة رابليه عالية في فرنسا الآن فلا بد أن ذلك يعود جزئيًا إلى الصرامة والجفاف الذي اتسم به النثر في اللغة الفرنسية بعده).

وأورد شوبي مثالاً على الاهتمام "المبالغ فيه بالشكل اللغوي" القصةَ التي مفادها أن قاضيًا عربيًا فقَدَ وظيفته بسبب غرام الحاكم بالسجع، وهي: "أيها القاضي بقُم قد عزلناك فقم" (ص ٦٩٧). (ويماثل هذا القول: Judge D. Barre, you are hereby debarred! [حيث يسجع اسم القاضي D. Barre تقريبًا مع صيغة الفعل الذي يقضي بتنحيته عن الوظيفة" debarred]). ولدينا [في الإنجليزية] مثل هذه القصص أيضا: قارن بالقصائد الهزلية التي تُسمى limericks . وهل تُظَن أن تلك القصة "حقيقية"، بشكل يماثل الحال التي أمر أحد القضاة الفرنسيين فيها بحرمان عائلة كان لَقَبُها Trognon من هذا اللقب لأنه لقب سخيف؟

ومقارنته التلعبَ بالكلمات بالجمل المفكّكة التي يقولها المصابون بانفصام الشخصية (ص٦٩٨) أمر يضعف حجته، ذلك أن السبب هنا هو أن العقل، في هذه الحال، هو الذي يؤثر على اللغة. فيمكن في مثل هذه الحال أن ينتمي الفرد إلى لغة تتسم بالمنطقية والوضوح، كالإنجليزية، ومع ذلك لا يزال من الممكن له أن يكون عرضة للإصابة بالجنون.

٩ ـ الاتهام بعدم النضج:

يقول شوبي: "من اللافت للنظر أنه حتى العرب الذين لا يجيدون الإنجليزية إجادتهم للعربية يفضّلون أن يقرأوا المواضيع المهمة بالإنجليزية" (ص٧٠١). ومما يلاحَظ أن الذين يتكلمون بعض اللغات الأوروبية من الذين دَرَسوا النحوَ التحويلي أو الهندسة باللغة الإنجليزية ربما يفضّلون القراءةَ عن هذه المواضيع باللغة الإنجليزية. لكن هذا لا يعني أيَّ تفوُّق بنيوي لازم لِلُغة على أخرى، وإن كان يشي بتفوُّقٍ معجمي مؤقت. وهناك بعض الحالات الغريبة كحالة الكاتب المسرحي بيكيت، أو الروائي غابرييل غارسيا ماركيز، الذي يقول إنه يُفضّل أن يقرأ رواياته في ترجمتها الإنجليزية. ويقول [شوبي]: "إن من أسباب

[تفضيل استخدام الإنجليزية على العربية عند هؤلاء] فشل الترجمة العربية في التعبير عن طريق التوكيد والمبالغة لتوصيل ما يؤدى في الإنجليزية بوسائل بسيطة". وهو قول مشكوك فيه، خاصة أن في العربية مصادر غنية لمساعدة المترجم على القيام بذلك على وجه التحديد، إذا ما رغب، وهذه هي النقطة التالية في ادعاءات شوبي: "تفيض اللغة العربية بأشكال التوكيد والمبالغة" (ص٧٠٠). وأستطيع التأكيد بشكل جازم أن هذا الحكم من أقل الأحكام التي سمعتُها في حياتي كلها أهميةً [ويؤكد جستس هذا القول باستعمال عبارات متعددة للتوكيد في اللغة الإنجليزية]. والطريقة الوحيدة التي يمكن أن تختلف بها العربية بنيويًا عن الإنجليزية في هذا الشأن، كما يلاحظ شوبي، أن "إنَّ" و"قَدْ" يمكن أن تظهرا غالبًا في الجُمل بطرق واضحة ومطردة. لكن الأمر، كما نتوقع، أنه، وبصورة مطردة واضحة، كلما كثر استعمالُهما قَلَّ توكيدهما. وربما وقع المرء ضحية لفهم خاطئ إن ترجمتْ "إنَّ" بـ: verily "بلا ريب" دائمًا. (وهي أساسًا نوع من الوسائل التي تستخدم للتعبير عن لفت الانتباه في استعمالها المألوف: إذ يمكن أن تُترجم الجملتان: "خرج زيد"، و"إنَّ زيدًا قد خرج" بـ: Zaid left)".[٥]

صحيح أن التصريحات التي يصوغها متكلمو اللغة العربية في الوقت الحاضر عن القضايا السياسية والاجتماعية تبدو للأسماع التي تُعوِّدت الأسلوبَ الذي يتصف بعدم الجزم وبالتروِّي الحذِر الذي نجده في مجلتي الإيكونومست أو النيويوركر، مثلاً، كأنها تتسم بالمبالغة الغريبة، وهو أمر لا يمكن عده شأنًا لغويًا على وجه الدقة. وليس هذا الأسلوب غريبًا في الإنجليزية ـ انظر ما قاله الرئيس الأمريكي نيكسون عن رحلة أبولو ١١: "إن هذا الأسبوع أعظم أسبوع منذ بدء الخليقة"، كما يحوي عدد مجلة New Republic الصادر في ٣٠/٥/١٩٨١ تحليلاً مفصلاً لحالة من الحالات الأمريكية للأسلوب الطنان المسمى بأسلوب Chautauqua. ولم يُقدِّم لنا شوبي أي مثال محدد للمبالغات بالعربية، ولم يُقدِّم بحثٌ آخر متأثرٌ بالمزاعم التي جاء بها ونُشر في المجلد نفسه (كتبه E .T. Prothro بعنوان: "الاختلافات بين العرب والأمريكيين في الحكم على الرسائل [إيحاءات الكلام]") شيئًا عن حس الأسلوب الذي يتسم بالمبالغة في العربية ـ وبدلاً من ذلك يورد قوائم طويلة صماء من الأرقام التي تلخِّص إجابات الذين سألهم؛ لا تفسيرها، وهي أرقام لاستجابات لم يمثِّل لها،

ولمبررات لم يذكرها. ولإعطاء بعض الأمثلة العلمية أورد هنا ثلاثة أمثلة لأكثر الأحكام المبالغ فيها أسلوبيًا، سمعتُها طوال أشهر، وردتْ في نشرات الأخبار التي تتصف بدرجة عالية من التسييس وتذيعها إذاعتا صوت فلسطين وصوت الجماهير من سان فرانسيسكو. وقد وجدت أنها لم تكن أكثر اتصافًا بالمبالغة من حيث الكم من الأقوال التي نجدها في الإنجليزية في فترة مماثلة من حيث الدوافع الأيديولوجية، ومع ذلك يمكن أن يكون اختيار محور المبالغة أكثر وضوحًا في العربية.

فتقول إذاعة صوت الجماهير حين تولّى صدام حسين السلطة الكاملة في العراق:

". . . أن نقل السلطة من قائد إلى قائد. . . الذي جرى في قُطْرنا، وفي حزبنا وثورتنا، حالةٌ فريدة من نوعها بين تجارب العالم القديمة منها والمعاصرة لأنها مستوحاة من أصالة الأمة العربية. . ."

(والغرض من هذا الادعاء المبالغ القضاءُ على أية فكرة يمكن أن يُفهم منها أن الحاكم السابق، أحمد حسن البكر، قد نُحِّي عن منصبه؛ فقد صُوِّر بدلاً من ذلك كأنه يشكر الشعب بحرارة على أنه قبل استقالته).

أما صوت فلسطين فيقول إن تأييد اسرائيل لسعد حداد:

"يشكل خَرْقًا فاضحًا لكل الأصول والأعراف الدبلوماسية، لم يسبق له مثيل في تاريخ الدول".

ثم يستمر في الكلام عن الصهيونية قائلا:

"وأنها جريمة لم يسبق وقوعها من قبل، وهي فريدة في الجرائم، وستظل جريمة هذا العصر، وكلِّ العصور".

وما تشترك فيه هذه الفقرات أسلوبيًا، يبدو غريبا ـ وربما يكون قديمًا ـ في الإنجليزية، هو الإشارة إلى التاريخ، أي الإشارة إلى عبء قافلة الزمن الثقيلة[٦]. ويظهر هذا الانشغال في اختيار المواضيع كما يبدو في اختيار العبارات: فهناك عودة مستمرة في هذه البرامج لسنة ١٩٦٧، و ١٩٤٨، حتى تَصِل إلى سَدّ مأرب. ومن الصعب ان نتخيل أن يقضي جوني

كارسون [صاحب البرنامج الفكاهي التلفازي الأمريكي المشهور] وقته في شحذ ذاكرتنا عن ذكريات Teapot Dome [قصة فضيحة سياسية حدثت في عهد الرئيس الأمريكي وارن هاردنج (١٨٦٥-١٩٢٣)] أو Tezcatlipoca "أحد الآلهة التي كان يعبدها سكان أمريكا الأصليون" ولا يتمثل العامل الأساس الذي ينشأ عنه هذا الانشغال، من غير شك، في غنى اللغة العربية بالتعبيرات الخاصة بالزمن، بل يتمثل في ذكريات الإمبراطورية حين تُقابَل بالإخفاق المعاصر، كما يعود ذلك أيضًا إلى السلسلة الطويلة من التقاليد الأدبية التي تشهد على أفول المجد العربي كآثار الأوتاد في الرمال.

***

١٠ ـ الأصوات:

تقول إحدى الملحوظات غير المتخصصة عن العربية: "إن العربية لغة حلْقيّة (guttural)".

وهذه مقولة مُقولَبة يمكن لنا في الأقل أن نتفق معها اتفاقًا غير متحفظ. لكن يجب علينا أن نفسِّر ما تعنيه.

وقد تعودنا أن نرى اللسانيين يضعون كلمة 'guttural' بين علامتَي تنصيص مفرَدتين حين يتكلمون عن انطباقها على الألمانية، وهو ما يجعلنا نتشكك في إن كانت صفةً يَجوز أن توصف بها الألمانية أساسا. وتعني هذه الصفة من حيث الأصل "شيئًا له علاقة بالحلْق". والصوتية الوحيدة في الألمانية التي يمكن أن توحي بـ "الحلقية" في أسماع غير المدرَّبين هي /x/ "خ"، وهي التي يمكن أن يكون لها نطق لَهوي أو حَنَكي؛ وكذلك /r/ "الراء" في بعض اللهجات الإقليمية. وبما أن هاتين الصوتيتين تُنطقان من مكان لا يتجاوز في تأخُّره في الحلق المكان الذي تُنطق منه الصوتية الحنكية في الإنجليزية /ŋ/ أو الصوتية /h/، فلا يمكن أن نصِف الألمانية بشكل علمي دقيق بأنها حلقية. أما في العربية، فنجد، حقيقةً، صوتيتين تُنطقان من الحلق وهما /ح/ و /ع/، بالإضافة إلى عدد من الصوتيات التي تتميز بالإطباق ـ مثل /ط/ وغيرها ـ كما أن فيها صوتية "الهمزة" التي تُنطق من أبعدِ مكان يُمكن

أن تُنطق منه الأصوات البشرية. وتتصف العربية كذلك بوجود الأصوات التي تنطق من مَقدِم الفَم بشكل يماثل الأصوات الموجودة في اللغات الأوروبية، لكن هذه الأصوات لا تُميِّز العربية في أسماع الغرباء. فإذا كان من الممكن أن توصف أية لغة بأنها حلقية فتلك هي العربية إذن، وذلك بالمعنى الانطباعي نفسه وإن قام على الحقيقة وهو ما يمكّننا من أن نقول عن الفرنسية إنها لغة "غنّاء" [تنطق الحركات فيها بقدر كبير من الغُنّة].

وتتميز اللغات السامية عمومًا عن غيرها بالأصوات الحلقية والحَنجرية. لذلك يَصعُب على من يَصِفها أن يَتفادى التفسيرات الانطباعية المثيرة بعض الشيء. لهذا نجد [المستشرق الفرنسي] مارسيل كوهين نفسه، وهو باحث جاد يصف صوتَ "العين" (في كتاب ماييه وكوهين، ١٩٥٢: ص٩١) بالكيفية التالية:

"ذلك الصوت المختنِق الذي يَطلب الطبيبُ من مرضاه أن يصدروه لإظهار أقصى الحلق؛ والذي يذكِّر وقعُه في السمع بنقيق الضفادع أو رغاء الجمل".

la voix pressée, qu`on fait émettre aux patients pour montrer leur gorge au médecin; l'effet auditif rapelle le coassement de la grenouiile et le cri du chameau.

وربما يكون هذا التفسير دقيقًا حتى للأذن السَّامِيَّة (وذلك إذا جاء في سياق توضيح الاحتمالات الصوتية التعبيرية)، لكنه لا يقضي بأن اللغات السامية أكثر تميُّزًا بالرمزية الصوتية من أية أسرة لغوية أخرى. ذلك أنه يمكن أن تكون معظم الأصوات مُوحِيَة بمعناها، بل قد يصل الأمر بها أن تُشبِه بأصوات الحيوانات، ومن ذلك صوت /م/، الذي يَصفه الرومان بأنه "الصوت البقري" 'littera mugiens'؛ أو الراء 'الكلْبِيَّة'، أو السين التي تشبه حفيف الثعبان.

وهناك سبب آخر لعلامات االتنصيص المفرَدة التي تصاحب تعريف الكلمة guttural بشكل يماثل مصاحبةَ الوصائف الخفِرات للعرائس: فكثير من المعاجم تأتي لها بمعان مُتخيَّلة، نحو ما نجده في معجم Random House Dictionary, 1967 الذي يصفها بأنها "جافّة، وتخرج من الحلق"، أو كما في معجم Webster's Ninth New Collegiate,1983 حيث يصفها بأنها "تتسم أو تُوسَم بنطق غريب وغير جميل وغير مقبول" (وهو المعجم الذي

تتصف بعض تعريفاته بأنها حَرْفية ومُطبِقة أو حشوية). وهناك انطباع عام لدى المتكلمين بالإنجليزية أن الأصوات الحلقية غير مُحترَمة بشكل ما ـ لذلك نجد في رواية ج . د . كار: The Arabian Nights Murder (1936) ، الفصل العاشر) شخصيةً تقول "يفترض أن "سام" يُحسِن الغرغرةَ بالعربية".

ولا يمكن لِلّساني هنا أن يَحتج. فإذا كان غير العرب لا يحبون أصوات العربية فلا يمكن معارضة الذوق. لكنني أود أن أنبِّه إلى أن تجربتنا مع اللغات الأجنبية الأخرى مقصورة في الغالب على المخاصمات التي تحدث في القطارات الأرضية واللقطات السريعة في الأخبار. والمؤكد أنه لا يمكن لأية لغة أن تكون حلوة على ألسنة الزعماء الغاضبين. ولكي ترى الصورة التي تُنطق بها العربية حقيقةً يَلزَمُك أن تستمع إلى [المُغنِّية اللبنانية] فيروز.

ومن المناسب أن نقارن هذا بالأحكام الجاهزة التي يُطلقها العرب على أصوات العربية: فالعربية "لغة الضاد"، والعرب أنفسهم هم "الناطقون بالضاد". وهذه الميزة طريفة لو وضعها إنسان ضمن مؤهلاته. ولا نعلم بشكل مؤكَّد ما الخاصة الصوتية التي يشير إليها هذا الوصف القديم، ذلك أنه، بالإضافة إلى نطقه المعاصر صوتًا أسنانيًا مُطبَقا، يبدو أنه كان ينطق في القديم نطقًا جانبيًا مزدوجًا غريبا.

ويبرز أحدُ أوجه الارتباط الطريفة بين هاتين الحالتين من الأحكام الجاهزة حين سألتُ أحدَ الأمريكيين المثقفين ثقافةً عالية، ويتكلم عددًا من اللغات لكنه لا يتكلم العربية، عن تصوره عن العربية. وكانت إجابته أنها "حلقية وعدوانية". وكما بدا واضحًا فأساس الاعتقاد بأن العربية "عدوانية" كونُها حلقية؛ فهي تبدو صوتيًا عدوانية. وهذا هو نوع الانطباع عند المحايدين ويَحْميه كونُه انطباعًا ذاتيًا من أن يصير موضوعًا للاعتراض عليه، ويماثل أن يجد بعض الناس الكلمة الفرنسية concombre غريبة وعجيبة بشكل رائع (ومن سوء حظ هؤلاء أنها لا تعني إلا الكلمة الإنجليزية cucumber "الخيار")، أو ظنُّ بعض الأمريكيين غير المثقفين بأن كلمة Placenta "المشيمة" اسم لطيف يمكن أن يطلق على مولودة. أما في العربية فليس هناك أساس دلالي خاص لبعض الأصوات المطبَقة (انظر الفصل الخامس).

وكما أوضحنا شيئًا من عدم الحماس للترحيب ببعض الأحكام الجاهزة، فمن العدل ان نجعل أنفسنا عرضةً لنقد مماثل بإعطائنا بعض الأحكام الجاهزة المختصرة. لذلك وباختصار:

الدلالة:

فالعربية لغة مسكونة بماضيها، فهي تسبح في محيط من الغنى المعجمي الذي لا تدري ماذا تفعل به في كثير من الأحيان.

التركيب:

(انظر الملاحظات عنه في نهاية الفصل التاسع).

الصَّرف:

تُشبه الكلمةُ العربية ذرةَ غاز الهليوم: فهي حافلة بالتفاعل الداخلي، ولا يوجد فيها كثير من الروابط. (وأنا أشير هنا، من جهة، إلى الاشتقاق القائم على الجذر والوزن، ويشمل ذلك الزيادة، وحذف الحروف المعتلّة؛ ومن جهة أخرى، عدم وجود النحت وندرة الصيغ الجاهزة).

الأصوات:

وتشتهر العربية بالأصوات الصامتة المُطبَقة (لا بالضاد وحدها). كما أن في العربية أصواتًا صامتة كثيرة وقليلاً من الحركات، لكنها لا تتميز بأنها "صامتيّة" (كالتشيكية أو حتى الإنجليزية) ذلك أنها لا تسمح بتجاور الأصوات تجاورًا مُعقّدًا.

التعليقات

(١) ـ وكتب روبرت إروين في مراجعته لكتاب ر. ت. ولسون: The Camel "الجمَل" في ملحق جريدة التايمز الصادر في ٧ سبتمبر ١٩٨٤، ص ٩٨٤ قائلا:

"وقد قدَّر جوزف فون هامر ـ برجشتال في كتابه: Das Kamel الصادر في ١٨٥٥ أن هناك ستة آلاف كلمة تتصل بالجمل في اللغة العربية الكلاسيكية. وقد اعتمد فون هامر في تقديره هذا (ومن المؤكد أنه تقدير متحفّظ) على المصادر الكلاسيكية في الأدب العربي، والشعر والرسائل المعجمية، وكُتب علم الحيوان، وكتب وصف الطبيعة بصورة عامة. ويبدو أن النقاش المتوسّع في وصف الجمل ـ كولادته ورعايته وأمراضه ـ قليل في الأدب العربي الكلاسيكي، إذ لا يمكن أن يقارَن بالأدب الخاص ببيطرة الحصان. بل إن الجمل لم تتناوله الكتب العامة الخاصة بعلم الحيوان ووصف الطبيعة تناولاً يفوق اهتمامها بالفيل أو الخفاش أو الذئب. ومع ظهور عدد كبير من الكتب عن الصقور وطيور البحر التي تُعدُّ للبيع في الجزيرة العربية في الآونة الأخيرة، إلا أنه لا يبدو، إلى الآن، أن هناك طلبًا مماثلاً لتوفير الكتب عن الجمل في الشرق الأدنى".

(٢) ـ ومنذ ظهور الخميني والعودة إلى ارتداء النساء للشادور [العباءة الإيرانية] لم يعد الغربيون على استعداد لسماع كلمة الإسلام والتسامح ينطقان بنَفَس واحد. وكل ما أود قوله هنا أن القرآن وكثيرًا من كتب الأدب التي جاءت بعده كانت أكثر ليبرالية وأكثر تسامحًا فيما يخص ما كان يُعرف، حين كنت صغيرًا، بمسألة الزواج والقيَم. قارن بما يقوله رودنسون في كتابه "محمد" (ترجمة كارتر، ص ٢٠٥):

"بَرهنت التقاليدُ التي تتصف بالغيرة عند الشعوب التي اعتنقت الإسلام على أنها كانت أقوى مما كان يريده النبي [ص] وربُّه، فعلى الرغم من النصوص [الواردة] لم يكن هؤلاء يشعرون بالندم على أن تكون تصرفاتهم موافقة لمعاييرهم الجافية [بدل معايير القرآن]".

أما المقولات المقولبة عن العرب بأنهم جنسيون أو شهوانيون، وهي المقولات التي تشير، باستحياء فيما يُكتب عن هذا الموضوع، إلى اللغة العربية فتعود إلى الفترة المبكِّرة من لقاء

الغربيين بالعرب: انظر رودنسون في الكتاب السابق ص ١٥. وقد احتج إدوارد سعيد بتأفف على هذه المقولات المقولبة (انظر كتابه "الاستشراق"، خاصة ص ١٨٨، الهامش)، لكن ذلك التوجه الغربي المقولب في الواقع ينطبق على الشعوب الأخرى في الأغلب الأعم من غير استثناء: فهو ينطبق على الزنوج، واليهود وسكان أمريكا الجنوبية، وسكان حوض البحر المتوسط، والفرنسيين (وهم الذين كان لديهم الشجاعة للرد بالمثل: حيث تقابل المقولةُ الإنجليزية المقولَبة: French letter "الحرف الإنجليزي" بالمقولة الفرنسية capote anglaise)، والروس (بوصفهم بالصفة التي يصف بها الفرنسيون الإنجليزَ بعناد)، والهنود (أرض الزهد، لكن لا تنس [الكتابين الكلاسيكيين في السنسيكريتية] تانتريك يوجا وكاما سوترا)، والكاثوليك (إذ يخرج المُذنب بعد الاعتراف للرهبان بصفحة بيضاء)، والاسكندنافيين، والمهاجرين بغض النظر عن الدول التي جاءوا منها، وكل الشعوب القديمة، والأشخاص الذين لا يَتماهَون مع السائد من الأعراف، والذكور (الذين لا يكون في أذهانهم إلا شيء واحد [وهو الجنس])، والنساء (اللاتي لا يَشبعن [من الجنس])، والجنوبيين، وسكان كاليفورنيا ـ وهؤلاء هم الذين سمعتُ عنهم هذه المقولات المقولبة في الماضي القريب وحسب. فالنُّور دائمًا أكثر احمرارًا على الجانب الآخر من الطريق.

(٣) ـ وربما تكون هذه الكلمة مُصطَلَحا، لكن يبدو أن الفكرة كانت سائدة ولها معنى. انظر قول الشاعر (حيث نجد كلمة "بظر" بدلاً من كلمة "منك" ـ إذ لا يعدم الشيء المشار إليه أوصافًا أخرى):

لَعَن الإلهُ وزوجَها معها   هندَ الهنود طويلةَ البظر

(وأورد نولدكه هذا البيت في كتابه: Zur Grammatik, 93 ؛ وهو البيت الذي يُستشهد به دائما).

(٣) ـ وهنا يتبنى الموقف المضاد كذلك. فيقول مانسفيلد في كتابه (١٩٨٠: ص ٥٥) "ويمكن للغة ما أن تمتد، من صيغ قليلة للجذر، إلى بنية واسعة تتميز بالتنوعات العميقة والمعقدة، وهو ما يجعلها ملائمة بشكل جيد للتعبير عن المفاهيم المجردة والعلمية".

لكنه يورد في الكتاب نفسه حادثة تؤيد الاتجاه العام للُّغة [العربية] باللفظية الفارغة (٥٣٧):

"ولقد لاحظت حُب العرب للبلاغة في مناسبات عديدة. فقد كان صديق لبناني مرة يمتدح بلاغةَ أحد السياسيين العرب المشهورين بقوله: "كنت أستمع إليه أمس وهو يتكلم لساعتين من غير توقُّف ومن غير أن ينظر في أية ملاحظات مكتوبة. لقد كان شيئًا عظيمًا". وعندها سألته ببراءة: "ما الذي كان يتكلم عنه؟" فقال: "لا أذكُر". وكان فيما يبدو مُستغربًا من توجيه هذا السؤال إليه. لذلك يُعَدُّ القبولُ بالتأكيد الذي يتجاوز الحدود والمبالغة أمرًا عاديًا أيضا".

وليس بإمكاني أن أشكِّك في الحكم المفترَض هنا عن البلاغة السياسية المعاصرة في العالم العربي، لكن هذه الحالات تستحق، في المستوى الإدراكي، أن توضع في منظور مناسب؛ إذ إن هناك عبارة مألوفة في الدراسات التاريخية والمذكَّرات الغربية، التي قد يجوز لنا، متَّفقين مع موقف ستيث تومبسون، أن نخصَّها بمكان معين في قائمة المواضيع، ولنقل إنها تحتل المرتبة: ب 9000,001، تقول: "كان يجب أن تكون هناك [وقت حدوث الحدث]". والفكرة العامة هنا أنه في وقت ما في أثينا، أو في لندن في الوقت الذي عاش فيه د. جونسون، أو بلومزبري، أو في الفاتيكان، أو في ديو ماجوتس، كانت المحادثة على مستوى أخَّاذ كنت أيها القارئ المسكين أثناءها تقضي الساعات في مشاهدة المسلسلات التلفازية التافهة؛ ولا يمكنك إلا أن تضرب في الظن والتوقُّع عنها. ويكون مداحو هذه المهرجانات الأولمبية ـ التي ربما تحوي في الجزء الأعظم منها الشتائم والمهاترات المألوفة ـ عرضةً لشيء من عدم الاطمئنان حين يصل الأمر إلى رواية الوقائع كما حدثت بدقة؛ وقبل أن يتلقى القارئ أية رواية، يُنصح بأن هذه الرواية كان قالها قائلُها "بالشكل الفريد" الذي يميِّزه، أو أنها لا يمكن أن تقدَّر حق قدرها إلا في ضوء هذا الأمر أو ذاك. وكمثال جديد على ذلك انظر مذكرات إلياس كانيتي Ellias Canetti في مجلة نيووركر (٧ أبريل ١٩٨٦)، حيث يتذكر مقهى في فيينا تحوَّل فيه الدكتور "سون" من متكلم بارع إلى متحدث على درجة كبيرة من العيِّ. فيصف كانيتي بطريقة مطولة الأسلوبَ الآسر للدكتور سون الذي كانت ملاحظاته وهو يحتسي فناجين القهوة تصل إلى معالجة نهائية لكل شيء تحت الشمس. وقد اعترف كانيتي بأن "هذا الحكم جريء" (ص ٥٦)، و"أنه لا يبدو موثوقًا به حين أضيفُ أنه ولهذا السبب تحديدًا لا أستطيع تكرار أيٍّ من ملاحظاته ـ ذلك أن كل واحدة منها كانت جادة ومسهبة، ومستقصية حتى إنني لا أستطيع أن أتذكر أيَّة واحدة منها بشكل كامل. لهذا السبب أيضًا فرواية أجزاء من كلامه ربما تصل إلى حد التشويه البالغ". وعند نقطة ما (ص

٦٦) استطاع الروائي موزل أن يتفوه بقول مفاجئ. وهو "إنني رأيت وجهه قريبًا جدًا من وجهي وكان ذلك سببًا لاندهاشي اندهشًا عظيمًا جعلني لا أستطيع فهم أي شيء مما قاله".

ويمكن لكل واحد منا أن يروي تجربةً مماثلة للاختلاف بين ما نسمعه وما نرويه، بغض النظر عما إن كان ما نسمعه محادثةً تدخل في باب الملوسة أو آتية من درس من دروس الرياضيات.

٤ ـ من مقدمة كتابه (Humor in Early Islam, Philadelphia: 1956).

وأنا مضطر للُجوء إلى الهامش للتعليق على هذا، ذلك انني لا أريد أن أخلط هذا التعليق بالعالِم المحترَم الذي وضعتُه تحت الضوء في النص الأساس؛ لكن يجب ألا يمر كلامه التعميمي الصارم من غير اعتراض. وقد يصل بي الأمر إلى افتراض صدق كلامه هذا، وذلك بالمعنى نفسه الذي يميل به الروائيون الإنجليز أو العلماء الألمان أو الصحفيون الفرنسيون وغيرهم إلى إيراد مثل هذا القول من غير أن يقصدوا تعزيز الأقوال المقولبة المشكوك فيها. ويجب أن ينظر إلى شهادة روزنتال بتحفظ، ذلك أنه يقصد منها (كما يقول هو، المصدر نفسه) أن تشفع له، إذا ما اثيرت مسألة وجوب تحاشي ذكر مساوئ العرب، لكتابته هذه المقالة القصيرة غير المرحة عن حياة أشعب مُقدِّمًا له بمقدمة طويلة لمجموعة من الطرائف المملة عن حياة هذه الشخصية المدينية [نسبة إلى المدينة المنورة] المعروفة بالظرف، وذلك بدلاً من تأليفه كتابًا موسَّعًا وهو ما يوحي به هذا العنوان. أما الاختيارات الأصلية فتتسم، حقيقة، بالإسهاب في روايتها للنكات وهو ما زاد من صعوبتها، ذلك أنها جاءت بأسلوب علمي أو شبه علمي مقدِّمًا لها بطريقة الإسناد الذي يروى به الحديث (وهي الطريقة التي تخدم غرضًا حقيقيًا، إن كانت صحيحة)، وهي التي امتنع روزنتال بصرامة عن حذفها. وهنا مثال منها (وقد أوردتها هنا كاملة من ص ص ٣٩ ـ ٤٠):

> "حدثني الجوهري قال: حدثنا ابن مهرويه قال: "حدثنا أحمد بن إسماعيل اليزيدي قال: حدثني التوزي القصة التالية رواية عن الأصمعي، أن أشعب قال: نشأنا أنا وأبو الزناد في كَنَف عائشة بنت عثمان. وكان هو يعلو أعلى فأعلى وأنا أنزل أسفل فأسفل، حتى وصلنا إلى ما نحن عليه اليوم."

وهذه نكتة (مفاجأة).

فقد تفوّق هذا المؤلف الغربي على ضحاياه الشرقيين بإلحاق الهوامش الزائدة، وهي التي أسماها توم وولف 'غابة' نفسه" [أي كثرة الإشارة إلى المصادر نفسها] انظر ص ص ٧ ـ ١٤ [في الكتاب نفسه] حيث نجد أسطر قليلة في أعلى كل واحدة من هذه الصفحات مطمورة تحت حمل ثقيل من الإشارات إلى الهوامش تكفي لإغراق سفينة.

(٤أ) ـ قارن هنا أيضًا بمانسفيلد (١٩٨٠، ص ٥٣٧)، الذي يقول إن هذه المواضيع "ناقشَها شوبي بكفاءة منقطعة النظير".

(٥) ـ وقد يكون من الطريف أن نناقش الطرق التي تُستخدِم بها اللغةُ وسائلَ التوكيد، والطرق الأخرى بصفة عامة، لكي تُسجِّل العلاقةَ بين المتكلم ورسالته. والمقولات المستخدمة في هذا الشأن ليست دقيقة: ذلك أن وسائل التوكيد تمتزج بعلامات البرهنة والمقتضيات. ولهذه الوسائل علاقة كبيرة بصورة اللغة التي تبدو بها للغرباء. فالألمانية مثلا، بأدواتها التي تُعيِّن المواقفَ التداولية مثل:

ja , doch, eben, mal, aller, dings

إلى آخر ذلك، وهي التي لا يمكن لمتكلم أجنبي أن يَحذقَها تماما، تُشعِر أنها مؤسَّسة في المجموعة اللغوية التي تتكلمها بكيفية لا تشبهها فيها الفرنسية المكتوبة أو"الإنجليزية التجارية".

وبمناسبة الحديث عن التوكيد، انظر الأمثلة الطريفة التي أوردها ريكندورف (SV ، ص ص ٣٧٤ ـ ٣٧٥) حيث لا يظهر في الجمل العربية أية علامة على أثر تركيبي للتوكيد أو التقابل على الرغم من أن الدلالة، بسبب كونها تقابلية، يمكن أن تقود إلى ان نتوقع وجود ذلك، في حين يمكن أن تُعلِّم الإنجليزية المعاصرة أو الألمانية ذلك بوضوح. (ويأتي مثل هذا التوكيد بوصفه أداةً تُعين على فهْم الجملة أكثر من كونه عاملاً لإنقاذ المتكلم من زيادة الانفعال، ويُعَد عدمُ وجود علامة واضحة للتوكيد علامةً على أحد العوامل في صعوبة قراءة النصوص العربية). ومن ذلك القول: "هل أنت عازم على هدم داري؟" ـ نعم، لقد كتب الخليفة إليَّ بذلك؛ ولو كتب في هدم داري ø لفعلت" [حيث يشير الرمز ø إلى عنصر محذوف]. فليس في العربية هنا إلا ضمير واحد غير منبور [أي "الياء" في: "داري"]، مع أن فيها تركيبًا تقابليًا آخر: "داري أنا"، وهو ما يُشبِه: ma maison à moi في الفرنسية. وكذلك: "ويَرجِع الناسُ بحِجة وعمرة، وأرجع أنا بحِجة [ø]". ففي العربية هنا صيغة تقابلية في واحد من ثلاثة مواضع حيث يمكن أن تضع الألمانيةُ أو الفرنسية أو الإنجليزية (إذا احتسبنا النبر الثقيل) صيغةً واحدة فقط. (وربما كانت الإنجليزية المكتوبة أكثر إشكالاً لولا وجود الكتابة بالخط المائل فيها لتوضيح النبر الثقيل؛ أما العربية فليس فيها كتابة بالخط المائل).

(٦) ـ ويمكن هنا أن نتفق مع مانسفيلد (١٩٨٠، ص ٦٧) حيث كتب أن "العرب [. . .] من أكثر الشعوب شعورًا حيًا بتاريخهم".

الفصل الثالث

الترابط بين الشكل والاستعمال

لكي نبدأ النقاش بطريقة جدلية كلاسيكية دعنا نبدأ بإيراد وجهة نظر لا نتفق معها ابتداء. فقد كتب [اللساني الفرنسي] جورج مونان عن [اللساني الأمريكي بنجامين] وورف:

"إن ذلك التقابل الصرفي الذي يَبهر بين ما هو لَحظي punctual وما هو متقطِّع في الحدث (*ha'ri*: بمعنى يُحدث حَلْقةً و *hari'rita*: بمعنى يُحدِث سلسلةً من الحلقات) لا ينطوي على رؤية للعالَم غير ممكِنة في اللغة الفرنسية أو لا تتوفر أدوات لغوية للتعبير عنها فيها. فنحن نقول ونتصور بالقدر نفسه تمامًا كيف أن الطريق ينعطف tourne وأنه يتعرّج . . . وأن الجدول 'ينساب' sinue [كالحيّة]. وليست اللغة الفرنسية في "رؤيتها للعالَم" بأكثر فقرًا (أو قصورا) حين تقول: "تنساب الموجَة" onde على صفحة البحيرة، و"تتموج" ondule البحيرة؛ أو حين تقول "أكَمَة" un mamelon وسطح ذا "أكَمات" *mamelonné* ؛ أو حين تقول "خصلة شَعر" une *boucle* de cheveux ، أو "شعرًا مُجعَّدًا" cheveux *bouclés*، أو حين تقول "خط الزاوية" une ligne *d'angle* و"خطًا ذا زوايا" une ligne *anguleuse* الخ. فالفرنسية، ببساطة، تعبر من خلال الاختيارات المتاحة فيها عما تعبر عنه لغة الهوبي من خلال ضروراتها".

L'opposition morphologique entre le poncuel et le segmentatif dont le mécanisme l'enchante (*ha'ri*: cela fait une boucle, *hari'rita*: cela fait une suite de boucles) n'implique pas une vision du monde inaccessible en français --- ni même pour laquelle le français soit dépourvu d'outillage linguistique. Nous disons et concevons aussi bien: le sentier *tourne*, le sentier *sinue* . . . et le ruisseau *serpente* . . . La <<vision du monde>> du français n'est pas moins bien équipée quand elle dit: une *onde* parcourt le lac, et le lac *ondule*; . . . *un mamelon* et un terrain *mamelonné*; une *boucle* de cheveux et des cheveux *bouclés*; une ligne *d'angle*, une ligne

anguleuse, etc. Simplement, elle exprime au moyen de ses options ce que le hopi exprime au moyen de ses servitudes.
(Linguistique et philosophie, Paris (P . U. F.): 1975, p. 183)

ومونان مُحِقّ بالطبع في قوله إن المقولات التي تُشفَّر بشكل مطرد في اللغة الهوبية مُتاحَةٌ لمتكلمي الفرنسية، حتى مع عدم اطراد التشفير المُسْبَق لهذه الأفكار [في الفرنسية]؛ وربما كان هذا هو الجواب لمن يتساءل عن السبب الذي جَعَل الأوروبيين يستطيعون اكتشافَ "متواليات فوريه" Fourier series و"ميكانيكات المَوْجَة" مع أن انحاء لغاتهم لا تُوَفِّر لهم المفاهيمَ الضرورية لذلك بل إنه لتَضع بعضَ المعوِّقات في سبيلها، ذلك في حين أن الهوبيين الذين "يُرغِمُهم نحوُ لغتهم، بالفعل، على الانتباه إلى المظاهر التَّذبذبية وملاحظتِها" (وورف ١٩٥٦: ص٥٦) لم يستطيعوا اكتشاف "قوانين فريسنيل" Fresnel's laws. لكنَّ الإنسان، في النشاط العلمي، يَتجاوز لُغتَه، بالطريقة نفسها التي يتجاوز بها انطباعاته الحِسِّية الفِطرية غير المدرَّبة. فإذا كانت لغتُه تُمِدُّه بوسيلة للتمييز بين الموجة والجُسيم particle، فيمكِنه أن يصوغ مصطلحَ "حُزْمَة المَوْجَة" wave-packet. أما إن كانت لغتُه لا تُقدِّم له إلا طريقةً في التعبير تُشبه: "دَخَل الفوتون من الثُّقب 'أ' أو من الثُّقب "ب""، أو: ". . . يمكن أن يكون قد دَخَل [الفوتون] من الثقب "أ""، وهو تعبير يمكن أن يكون عاملاً مضلِّلا، فإنه يَستطيع أن يَتكلم بدلاً من ذلك عن الوظيفة الاحتمالية للفوتون.

أما ما يمكن أن يكون موضعًا للاعتراض فهو المعادلة في النوع بين وسائل التشفير التفصيلية في الفرنسية والهوبية. ذلك أنه يمكن للهوبية أن تعبِّر عن التكرار عن طريق الاشتقاق المألوف في حين تعبر الفرنسية والإنجليزية عنه بصورة اعتباطية. إذ لا يمكن في الإنجليزية بوجه عام مثلاً أن نُكوِّن شكلاً تكراريًا من شكل "منتظِم" [يحدث على فترات منتظمة] (فلا يمكن أن نصوغ من: tear in a fabric "يشُقُّ قماشا"، العبارةَ: teary fabric * "قماش مشقوق"، قارن بـ wrinkly "مُغضَّن") أو أن نصوغ شكلاً "منتظِمًا" من شكل تكراري: (curly hair "شعرٌ مجعَّد" a curl "خصلة مجعدة من الشعر" وإن كان من الممكن الإتيان بـ: ? ⟷ frizzy hair "شعر مموَّج"، والمصدر الذي اشتقت منه ليس

واضحا). ومع أنه يمكن أن تكون صيغة "خط ذي زوايا" Ligne anguleuse مقبولة في الفرنسية فإن صيغة angular "زاوي" في الإنجليزية توحي بزاوية مفرَدة. ويمكن أن تتقصى نزوات الوسائل التي يقوم عليها التشفير في الإنجليزية من خلال النظر في الأمثلة التالية:

مُتكَرِّر		منتظم	
"تعرُّج"	zigzag	"دائرة"	angle
خط مموج	wavy line	نصف دائرة	semi-circle
خط مموج	wavy line	دائري	cycloid
جيب الزاوية	sine wave?	جيب الزاوية	sine wave?
(وليس من الواضح أيهما الأساس)			
خط مكوَّن من نقاط	dotted line	نقطة	dot
(والواقع أنها تعني خطًّا مكوَّنًا من نقاط)			
خط الجُهْد	potenty line	؟	
(وتعني شكلَ حرفِ الصفحة إذا شُقَّت من دفتر مشبوك بسلسلة من المشابك "مشرشَر")			
خط متقطِّع	broken line	شَرْطة	dash

ومن اللطيف أننا نستطيع أن نقول wrinkly "مُغضَّن"، و bumpy "طريق وَعِر"؛ لكنّ لما كنا لا نستطيع أن نقول: teary* "شَقِّي" و holey* "حُفَرِي" (نسبة إلى حُفرة)، فربما نَقنَع بصيغة torn "مشقوق" مستنتجين أن التكرار ليس مُهمًّا إلى حد يجعلنا نلجأ إلى استخدام التعبيرات الطويلة "الإسهاب" circumlocution . وربما لا يعود الأمر إلى أن الهوية تُرغِم متكلمَها على ملاحظة شيء ما، بقدر ما أن الإنجليزية تقوم بحضّه على تجاهله.

ومن هنا فسوف نهتم بالنظر فيما إن كان يمكن أن يُعبَّر عن مقولةٍ دلالية معينة بصورة مطردة أم لا. وهذا هو الأساس الأول للقضية. أما الأساس الثاني فلن يكون في "الرؤى المُمكِنة للكون"، وذلك للأسباب التي ذكرناها (أي: لانهائية اللغة، والتوسع الذاتي

للذكاء الإنساني) من بين أسباب أخرى؛ أما أين يكون هذا الأساس الثاني فهو ما سنتناوله بعد قليل.

ويوجِّه مونان، وهو من المتحمسين للمفارَقات، ضربةً صغيرة للفرنسية في نهاية كلامه حين يلاحظ أن الفرنسية تعبِّر اختيارًا عما يَلزَم أن تُعبِّر عنه الهوبيةُ بوسائل "الإلزام" فيها. أما أن الفرنسية نادرًا ما تعبر عن هذا الاختيار فأمر يقلل من قوة هذه الملاحظة، لكن لا يزال صحيحًا أن وورف ربما كان يَبخس أوجهَ الغنى في لغات الحضارات التقنية في غمرة تعبيره الجارف عن مشروعه لكشف الخصائص العجيبة المجهولة في لغةٍ كالهوبية[1].

والواقع أن هنا خَلْطًا بين تفريعين: أيْ بين الاطراد في مقابل التعبير الناقص، وبين اللزوم مقابل الاختيار. ذلك أنه يمكن حصول هذين التفريعين بالطرق الأربعة الممكنة للجمع بينهما:

أ ـ فصيغة الجَمْع لازمة وتوجد في الإنجليزية بصورة مطردة.

ب ـ وزمن الحَدَث اختياري ويُطبَّق بصورة مطردة في الصينية.

ج ـ والتمييز بين "اللحظي ـ الحادث" مقابل "التعوُّدي ـ الاحتمالي" في الصفات لازم في الإنجليزية ـ في الغالب ـ حين يوجد، كما في التعبيرات التالية:

Brave Hercules was *afraid* of angry god

"كان هيروكليس الشجاع *خائفًا* من الإله الغاضب"

و:

the *cowardly/timorous* Milquetoaste was not fazed
by the advancing rabbit

"لم يكن ميلكويتوست الجبان/ الهياب منزعجًا من الأرنب التي كانت تقترب منه"

و:

ritalin calmed the *excitable* children

"هدّأ الريتالين [اسم دواء] الأطفالَ الميَّالين للهياج"

و:

Suddenly the yogi became *excited*

"صار ممارسُ اليوغا مهتاجًا فجأةً".

لكن هذا التمييز ممكن في عدد محدود من المفاهيم، أو يمكن أن يكون أحد عضوَي التفريعين ضعيفًا حين نُجِدُّ الحاجة إلى استعماله، مثل (offended "مهان" في مقابل thinskinned "خفيف العقل"، و horny "مغتَلِم" في مقابل randy "شهواني"). لهذا فهناك شيء من التداخل، ونُجِده حين يتعذر إيجاد تعبير أكثر دقة، أو حين يكون شكلاً بعيدًا عن الشكل الذي يرد مباشرة إلى ذهن المتكلم (وهو المصطلح الذي سوف أفهَم منه أنه يَشمل "الكاتب" أيضا). وقد وجدتُ التعبيرات التالية محيِّرة حين عثرت عليها:

One evening when he was weary and soft – minded, he saw that
she had been weeping.
(S. Lewis, *Babbitt*, New York: 1922, p. 90).

" حين كان مُرهَقًا ومسترخيًا في إحدى الليالي، رأى أنها كانت تبكي".

وتُستخدَم اللاحقة minded-- في العادة في التعبير عن الاحتمال، فنحن: we are like - minded "نحن متشابهو العقول"، إذا كنا كثيرًا ما نتفق.

و :

If Father is u*nfortunate*, all is over between us.
(*Rise of Silas Lapham*, Signet edn, p. 281)

"إذا كان أبي غير محظوظ، فسيكون ذلك نهاية ما بيننا"

وهو ما يعني: "إذا قابل أبي ذلك بالاعتراض".

د ـ واستعمال اسم موسوم بلاحقة على أنه مؤنث حين لا تكوْن هذه اللاحقة في الوقت نفسه كلمةً مستقلة (بعكس كلمة: woman -، مثلا) بدلاً من استعمال كلمة مستقلة أقصر [تدل على الأنثى] استعمال اختياري في الإنجليزية، في معظم الأحوال. فيمكن أن يشار إلى أميلا إيرهارت بأنها an aviator "ملاّح جوي" أو an aviatrix "ملاَّحة جوية"، كما يمكن أن يشار إلى ريبكا ويست [الروائية] بأنها an author "مؤلِّف" أو an authoress "مؤلِّفة"، وهكذا في كثير من الأمثلة. لكن هذه الاشتقاقات الموسومة بالتأنيث ليست مطردة، ذلك أننا لا نجد كلمات [في الإنجليزية] مثل: athletess* "رياضية" أو pianistess* "عازفة بيانو" إلى آخره.

(لكن هذا المثال ليس صالحًا على إطلاقه ذلك أن استعمال الشكل الذي ينتهي بهذه اللاحقة لازم في كلمات قليلة مثل: waitress "نادلة").

وسوف يكون هناك عدد كبير جدًا من المتغيرات في مناقشتنا بالصورة التي هي عليها الآن؛ وسنقلّل مؤقتًا من أهمية التفريع: لازم/اختياري، ونركّز على درجة الاكتمال well-roundness (أي الدرجة التي يمكن أن تنطبق بها عملية [نحوية أو صرفية ما] بصورة تعميمية، بدلاً من انطباقها على صيغة زمنية معينة، أو حين تكون مشروطةً معجميًا أو صَرفيا).

وتتصف الأمثلة اللغوية في الخلاف الذي أوردناه آنفًا بأنها صرفية ـ تركيبية [صركبية]. وهناك ما يشبه هذا في مستوى المعجم نوعًا ما (حتى بصرف النظر عن الترابط اللازم بين المعجميات عن طريق الاشتقاق). انظر مثلاً إلى النص التالي غير الدقيق:

"من السذاجة الحديث عن "غنى" الإنجليزية أو العربية في المفردات. فبما أنهما لغتان أدبيتان فهما قادرتان على الاستحواذ على الكلمات بالشراهة نفسها التي يستحوذ بها [البنك المركزي الأمريكي لاحتياط الذهب] فورت نوكس على الذهب، لكنْ لا يُعَدُّ هذا غنى إنتاجيًا حقيقيًّا في اللغتين كلتيهما. ذلك أنه حين تُرغب اللغاتُ غير المكتوبة أو لغة أدبية مُتحفِّظة كالفرنسية أن تشير إلى شيء جديد أو إلى شيء قديم بطريقة جديدة فإنها تصوغ ببساطة تعبيرًا مؤلَّفًا من عدد من العناصر".

وفي هذا القول شيء من الصحة، لكن أغلب الظن أن الأشكال المُعجمة البسيطة أكثرُ تأهيلاً للمشاركة في الاقتصاد اللغوي المُنتج من الأشكال المُطْنِبة ـ وهو ما يشبه كون الذهب أسهل في استخدامه وسيطًا للعملة وأقل حجمًا من الورق النقدي المتلوي[٢].

ونود هنا أن ننقذ الاهتمامات الوورفية عن طريق عدم قَصْر الوصف اللساني على الإيراد المُملّ لجداول المعجميات والعمليات الصرفية في الحين الذي نُهمِل فيه التعامل مباشرة مع العقل في ضبابيته فوق ـ اللغوية. وبدلاً من ذلك سوف نتتبع *حياة الكلمات*، أي تمظهراتها النَّصِّية الملحوظة، ومدى ما راكمتْه من الأطياف الدلالية؛ وهذا هو الأساس الثاني

للمسألة. ولهذا الغرض أورد الفرضية التالية التي تستحق الدراسة، وهي فرضية تتصل بفرضية يمكن نسبتُها إلى فيكو وهيردر وهمبولدت وسابير وورف لكنها فرضية تصِل النحوَ بالأداء بدلاً من وصْل الكلمة بالعقل، وسوف أسمي هذه الفرضية، رغبةً مني في عذوبة التسمية، بفرضية ستوكس[٣]:

فرضية ستوكس (الصيغة المُفصَّلة):

إذا كان في لغة معينة فصيلةٌ class شكلية مُهَذَّبة well-profiled ومُكتمِلة well-rounded بقدر ما (سواء أكانت هذه الفصيلة صرفية أم تركيبية) لتشفير فصيلة دلالية ما، فستنحو هذه اللغة إلى تطوير هذه الفصيلة بشكل أغنى وإلى استعمالها بشكل أكثر اطرادًا مما لو لم تكن مهذبة أو مكتملة؛ وسوف يَستعمِل المتكلمُ تعبيرًا ينتمي إلى هذه الفصيلة، حيثما تكون ملائمة، بدلاً من لجوئه إلى استعمال تركيب آخر أقل دقّة أو أقل وضوحًا دلاليًا. وبالمثل، فإذا وُجِدت كلمة مهذبة للتعبير عن شيء معين، فسوف تميل هذه الكلمة إلى أن تزدهر وتتطور أكثر مما يمكن لتعبير آخر مكوَّن عن طريق التأليف. وسيعمل مثل هذا الاستعمال على تعزيز (فصيلة) التعبيرات الأساسية، مما سينتج عنه توسيع استعمالها لتشمل الفصائل الصرفية ـ التركيبية، وسيعمل على إغناء ارتباطاتها الدلالية في حال المعجميات المفرَدة.

استدراك إدراكي:

يمكن أن يتصور المتكلمون بعض المفردات التي تشترك في الوسم الصريح بالعناصر الدلالية المقصودة أنها تُكوِّن بوضوح فصيلةً واحدة، أو يمكن لهم، على مستوى المعجمية المفردة، أن يكونوا أكثرَ استعدادًا لأن يتصوروا أن جزء الحقيقة الذي يسمى بمعجمية مهذبة يُكوِّن وحدة واحدة[٤].

ويعني هذا أنك إن أردت التعبير عن شيء معين، فإنك تبحث عن كلمة معينة. فإذا وجدت تلك الكلمة فستكتسب عادةً محدَّدة، وهي أن تُهجِّم على هذه الكلمة أو هذا النمط من التعبير من غير إبطاء في المقامات الجديدة؛ أما إن لم تجد كلمة جاهزة فستكون مُرغمًا

على التعبير عن المعنى الذي تريده، وذلك بأن تعتصره من اللغة، ويمكن أن تقوم بذلك إما بسهولة أو بصعوبة[٥].

ونجد صورة أقل تفصيلاً لفرضية ستوكس، أو فرضية قريبة الشبه بها، فيما عبّر عنه هـ. جيبر بثقة، في كتابه Bausteine ، ص ٢٥٣:

"يمكن القول دون تردد: إنه كلما كانت شبكة العلاقات بين قواعد اللغة أقوى بناءً وأكثر وضوحًا أمكن التعبيرُ في تلك اللغة عن الفكرة بشكل يميزها عن الأفكار الأخرى ويبين الفكرة على نحو دقيق".

"Folgendes wird man ohne Bedenken sagen dürfen:
Je ausgebauter und profilierter das vorgegebene grammatische Beziehungsnetz einer Sprache ist, desto differenzierter kann ein Gedanke sprachlich ausgeformt und präzisiert werden."

والمشكلة في هذا التنبؤ غير المحدَّد تحديدًا كافيًا أنه يَميل ـ كما يميل تنبؤنا نحن ـ نحو التكرار [الحشو] tautology. (ولتقريب هذا التنبؤ من تنبؤنا يمكن أن نُغيِّر عبارة: . .kann werden. "يمكن أن يكون" إلى wird (normalerweise) ("يصبح (في العادة)")). ومع ذلك فهناك حَسنةٌ لهذا الاختصار، كما يقترح ستوكس نفسه. لهذا، وبالروح نفسها، ولأنه ربما لا يمكن لأحد ان يجني شيئًا كبيرًا من هذا النثر المتحفظ الذي صيغت به الفرضية بصورتها المفصّلة، نقدم صيغة مبدئية مختصرة لها.

فرضية ستوكس (الصورة الأكثر صقلا):

"الاختصار والطّلاوة يجعلان المعجميات أكثر طواعية".

(هذا عن الجانب المعجمي. أما التوسع الذاتي لنجاح الصياغة الاشتقاقية/ التركيبية المتجانسة المُمكِنة جدًا فيمكن أن يسمى بـ"أثر ماكدونالد")[٦].

ويمكن أن يوضِّح الاستدراكُ الإدراكي بالمثال الهوبي/الفرنسي. إذ يمكن للاستدراك أن يَزعم، مع وورف، أن "التناظر الوَجْهي في الهوبية . . . لكونه لازمًا في صيغ الفعل"،

ولكونه، زيادة على ذلك، قادرًا على الاستجابة لهذا الإلزام، ذلك أن علامة الوجه aspect تتمثل بالتضعيف البسيط، "فإنه يُرغِم متكلم الهوبية عمليًا على ملاحظة الظواهر التذبذبية والانتباه لها"، وأن يلحَظَها *على* أنها ظواهر تذبذبية، تشترك في مدلول التكرار بغض النظر عن إن كان التكرار زمانيًا أو مكانيًا ("يرفرف" في مقابل "يتعرَّج")؛ أما الفرنسي الذي لا يتوفر له إلا بعض الصيغ القليلة والشاذة في الغالب، فربما لا يستطيع أن يُجرِّد فكرةَ التكرار. إذ يمكن أن تبدو له عبارة cheveux bouclés "شعر مجعد"، مثلاً، كأنها "شَعْر أجعد" curled hair بدلاً من "شعر مجعَّد" curly hair (أي شعر ملآن بالتجعّد) ـ وهي في الواقع دلالة أكثر نمطية لصيغة اسم المفعول ـ أو ببساطة (وذلك بمعاملة bouclé على أنها صفة أساسية، تشبه futé "داهية") أن يمثّل الشَعْرُ مظهرًا تكراريا، من غير أن نحلّل هذا على أنه تكرار لتجعدات مفرَدة (وذلك مثلما أنه يمكن أن نسمي شيئًا بأنه rough "وَعِر" أو scratchy "مخدَّش" من غير أن نتصور الحُفَر المفرَدة أو الخُدوش المفردة فيه).

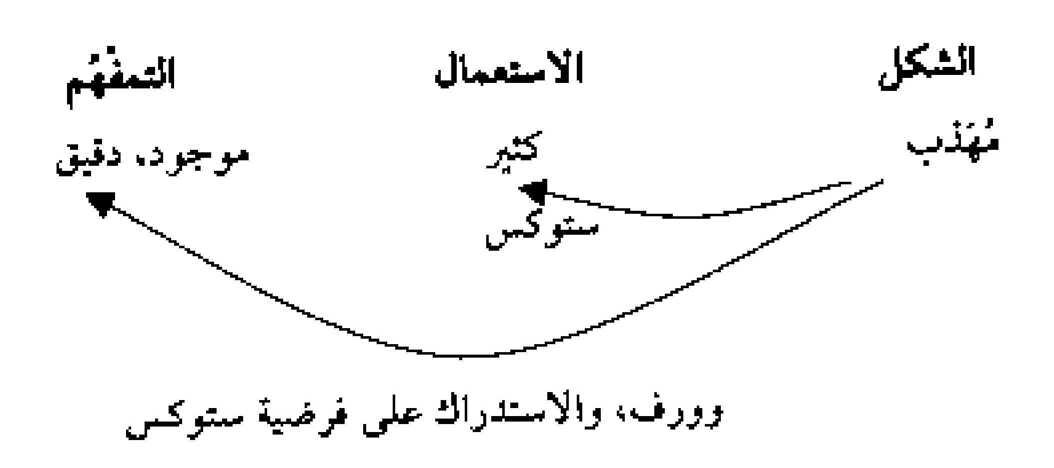
لاحِظ أن هذا الزعم الإدراكي ليس واضحًا ابتداء. إذ يمكن أن نتخيل ببساطة أنه يمكن لنمط اشتقاقي/ صرفي معيَّن يتّصف باللزوم والاطراد أن يتوارى خلف مستوى وعْينا بالطريقة نفسها التي يتوارى بها نمطُ تنفُّسنا [عنّا]، ذلك في حين أن متكلم الفرنسية ربما يلزمه الاستعانة بحد أدنى من الانتباه، كطفل يحاول ربط حذائه.

***

وقد أطَّرْنا حَدْسنا بصورة أحادية الاتجاه على طول منحنى: ذلك أن الأداة الأكثر طواعية تقود إلى استعمالٍ أكثر فعالية، وهو الذي يمكن أن يقود، بدوره، إلى بعض الاستعمالات الجديدة لهذه الأداة (كأن تُستعمل لغةٌ تمثّل طورًا قديمًا للهوبية الإجراءَ نفسَه لكنها كانت تقصره على التكرارات الزمنية، وهو ما قد يؤدي بعد ذلك إلى تصور الفكرة الذكية المتمثلة في رؤية الأنماط المكانية بالمنظور نفسه، بسبب استعمال الإجراء الاشتقاقي الصرفي نفسه من غير تغيير)، أو يكون ذلك، في حالة المعجمية المفردة، بتوسيع عمل الأداة، حيث تُغنى ببعض المزايا لتصبح، مثل نسخةِ كتابٍ أعمَل أحدُ العلماء يدَه فيها بالشرح

والتهميش أكثرَ قيمة بمرور الزمن. وهذا هو المسار الوحيد الذي سوف نناقشه. كما يمكن لهذا المنحنى أن يبدأ على جانب الحاجة، وهو ما ينتج عنه بعض الوسائل المهذّبة للتعبير. وربما احتاج هذا النقاش في هذا الاتجاه إلى منظور تعاقبيٍّ أشمل، أو إلى نوع من الاستقصاء الذي يتجاوز حرفية النصوص. وربما أوجب ذلك أن نبدأ بكيفية ما بتعيين الحاجة إلى (فصيلة من) المعنى (أو المعاني)، وهي التي سينشأ عنها فيما بعد أداةٌ سهلة الاستخدام، إما بالاقتراض أو بتكميل الأسس المزيلة الموجودة أو بتشذيب الأسس الطويلة المفصّلة [أي بتشذيب الكلمات الطويلة، أو صقل الكلمات المترهلة].

وربما ساعد التخطيط التالي في توضيح مجال الوظائف التي نناقشها هنا ومداها:



وقد حاولتُ، إضافة إلى ذلك، صياغةَ الفرضية بهذه الطريقة لكي أؤكد على الحرية والاحتمال بدلاً من الاضطراب والتقييد، وإن كان هذا من أمور التوكيد بدلاً من الإيجاب المنطقي. ففي حين يُصوِّر المشهدُ البدائي الذي يرسمه وورف الناسَ سجناءَ يقبعون في سجن اللغة مُقنِعي رؤوسهم تحت نظرات مفتش التأمين الزائغة [وهو العمل الذي كان يقوم به وورف قبل أن يشتغل بدراسة اللسانيات] فيما تتحول آمالهم إلى لَهَب - "فَهُم "براميل غازولين فارغة" حقا!". أما الأسْطَرة الستوكية فتصوِّر بروميثيوس يَجمع أشعة الشمس الخام لجعلها صالحة للاستعمال الإنساني، وتصور أبناء آدم وهم ينشأون بأشكال جيلة من قطعة دم، وتُصور الحرية كأنها اكتشاف الاطراد.

وأعني بـ"مهذبة" well –profiled أنها مطّردة ضِمن نمط معيَّن، بغض النظر عن الخصائص الصُّواتية والخصائص السطحية الأخرى، وأنها متميزة عن الأنماط الأخرى.

وربما أمكن لهذه الفكرة أن تُوسَّع لتشمل الكلمات المفردة: وهو ما يعني أن تكون كلمةٌ ما 'كلمةً لا لَبس فيها' أي أنها كلمة أساسية، لا كلمة منحوتة ومن بابِ أولى ألا تكون عبارة أو تعبيرًا لا معنى له؛ وألا يكون لها منافس في معناها؛ وألا يكون لها إلا مركز واحد من المعنى. وتوحي هذه الشروط كلها بشيء شبيه بشرط "التطابق ثنائي الاتجاه" Biuniqueness: ويعني هذا ألا يَكون التجانسُ النمطي للتوافق بين خصائص الشكل ونوعِ المعنى من نوع "متعدد إلى مفرد"، many-to-one وأن يعني النمطُ المختلِفُ ألا يكون هذا التوافق من قبيل "مفرد إلى متعدد". لهذا فصيغة الجمع في العربية تتوافق مع المعيار الثاني بشكل كبير ـ ذلك أنا إذا أعطينا صيغة لا نعرفها، مثلاً، فإنا نعرف في العادة أن هذه الصيغة جمعٌ (وذلك اعتمادًا على معرفتنا بشكلها، أما المطابقة من نوع النمط البندركوني schema pindarikon فلن تساعدك في ذلك [وهو تركيب في اليونانية يكون فيه الفاعل لمحًا من اسمين والفعل مفردا])، مع أنك ربما لا تستطيع أن تعرف يقينًا الاسمَ الذي هي جمع له ـ وهو ما يعني عدمَ كفاية المعيار الأول ـ وذلك لوجود أوزان عديدة [للجمع]، وكثيرًا ما تكون هذه الأوزان بدائلَ حُرَّة لجمع معجميةٍ معينة. ويتماشى نمطُ أكثرِ صيغ التَّعْدية استعمالاً في الإنجليزية ـ وهي صيغة الفعل غير المشتقّة ـ مع المعيار الأول لكنها تفشل في التماشي مع المعيار الثاني، ذلك أن الاشتقاق الصِّفْر [وهو ألا يكون هناك فرق ظاهري بين الصيغة المشتقة والصيغة الأصل] يُستعمل في أغراض متعددة في الإنجليزية.

واعني بـ"مكتملة" well – rounded أنه يمكنك أن تُدخِل الكلمةَ الموصوفة بهذه الصفة في المواضع النحوية المألوفة الملائمة لصيغة الكلمات التي تنتمي إليها كلها (كوجوب أن تتصرف الجهة aspect في الأزمنة المألوفة كلها)؛ أو أن يكون شكل الصرفية morpheme ، في المستوى الاشتقاقي، مطردًا صرفيًا بدرجة ما أو أن يكون قويًا شيئًا ما في الأقل. وبالمثل فقد تكون الصرفية الأحاديةُ [التي تتكون من صرفية واحدة] مهذبة well-profiled لكنها لن تكون مكتملة well-rounded إلا إن استطاعتْ أن تقوم بالوظائف نفسها التي تقوم بها الكلمات الأخرى التي تنتمي إلى الفصيلة نفسها ـ كأن تكون صالحة للجمع، وأن تأخذ الحالات الإعرابية المختلفة، إلى آخره، وألا تتصف بالشذوذ في هذه الحالات. لذلك فالكلمة اللاتينية vīs والكلمة العربية "امرأة" (وصيغة المعرفة منها "المرأة"،

وجمعها 'نساء')، وكلمة 'فم' (والصيغة المضافة منها هي: "فو"، إلى آخره) ليست كلمات مكتملة well-rounded تمامًا بطرق مختلفة. وإذا ما أخذنا مثالاً من التركيب في العربية وهو وزن "فعَّل" الذي يدل على التكرار والحَدَث فيمكن أن يتصرف بالشكل الذي يتصرف به الوزن المجرد تماما ـ كقبوله للبناء للمجهول، وأن يصاغ منه اسم الفاعل. أما في الإنجليزية فإن صيغ الوجه modals ، وصيغ شبه المجهول middles ، والـ phrasal continuatives 'عبارات الاستمرار" محدودة بشكل مراوغ.

وفيما يلي بعض الأسباب البديهية التي توحي بإمكان صحة مثل هذا الحدس:

١ـ إذا لم يكن لديك طريقة جاهزة لقول شيء معين فيَلْزمك بذْل الجهد لتأتي بطريقة ما لتشفير ذلك الشيء في كلمة؛ وربما تكون الطريقة التي تبتكرها عرضةً لعدم الفهم لقيامها على أساس ضيق من التأويل القياسي (وهي حالة تركيبية صرفية). وربما لن تلتفت إلى الكلمة الشاذة التي تريدها، أو ربما تكون بحاجة إلى صياغة تعبير طويل مترهل. وهذا ما يجعلك تتوقف في معظم الأحوال عن الاستمرار في هذا الجهد، وتأتي بدلاً عن ذلك بشيء أقل دقة. ويمكن أن نرى ذلك ماثِلاً في حالة شبه المجهول في الإنجليزية، فعبارة: found himself a chair "وجد لنفسه كرسيا" ممكنة، أما عبارة: drew themselves up chairs 'سحبوا لأنفسهم كراسي" فغريبة، لهذا فاستعمالها أقل احتمالا. أو لنأخذ مثالاً من لغات مختلفة. فإذا تدحرج "البوك' puck [وهو نوع من الأزهار] أو الكرَة أو بعض 'الجِلي' [نوع من الحلوى اللزجة] على المنحدر، فيمكننا أن نقول إنه/إنها "تزحلق/تزحلقت أو انزلقـ(ت) أو تدحرجـ(ت)". لكننا ربما ننفر من تشفير طبيعة المحرِّك بهذه الطريقة إذا ما أردنا أيضًا أن نعبِّر عن الآلية التي استُخدمت في تحريكها: فإذا كان المحرِّك هو الريح فإنها تشفَّر بالجملة التالية:

The puck/ball/ jello blew down the ramp

'عصف البُك/ الكرةُ / "الجلي" إلى الأسفل على طول الممر' [طار. . .]

وأقل من ذلك احتمالاً أن نوسِّع الآن هذا إلى: The puck blew sliding "عصَف البكُ متدحرجا"، إلى آخر ذلك. ومن هنا (وإذا أخذنا مثالاً من ليونارد تالمي [أحد اللسانيين المعاصرين])، يمكننا ببساطة إذا كنا نتكلم عن gunk "شيء ما" عَصفتْ به الريح في الماء، أن نقول: '(كان جالسًا على شفا البِركة، ثم إنَّ عاصفة جاءت ثُم) وَقَع [في البركة]'، أما في اللغة التسوجوية، التي تتوفر فيها أدوات قصيرة ملائمة (أي 'مهذبة' well-profiled)، ويمكن دمجها (أي: "مكتملة" well-rounded)، فيمكن أن نقول: šа-s'tag-i'ct "it windly yukked aliquid" (نقلاً عن تالمي)، وهو ما يقرب من: "تزحلقتْ بفعل الريح إلى السائل [الماء]". وليس في الإنجليزية مانع صريح من مثل هذه التراكيب، لكن غرابتها تعود ببساطة إلى بعض الوسائل غير المنتجة في المعجم وإلى خاصية الغرابة في تركيبها. لهذا يمكننا، إذا اقتصرنا على هيئة الحركة، أن نقول:

The paper plate frisbee'd across the lawn

'طار الصحنُ الوَرَقي عبْر الحديقة بطريقة تشبه طيران طبق الفرزبي'

(أي: تحرك ـ في الهواء ـ بحركة تشبه حركة الصحن الدوار [الذي يستعمل في لعبة الفرزبي])

أو:

The acrobat slinkied down the steps

'تشقلب لاعبُ الحركات البهلوانية على طول الدُّرَج' (أي تحرك ـ بقوته الذاتية ـ بطريقة دائرية رأسًا على عقب)، لكن هذا يعني اختراعَ تعبير جديد، لا اختيارَ تعبير موجود. ولا يمكن أن يصل المتكلم إلى درجة الإبداع، من حيث التواصل الذرائعي، إلا إذا استطاع اكتشاف الطريقة التي يُنجَز بها التشفير. فيمكن أن يقال، مثلا: John hurt his *hand* 'جرح جون يده" أو his *foot* "جرَح **قَدَمه**"، مثلاً، لكنْ لا يمكن أن يقال إلا: Fido hurt his *paw* 'جرَح [الكلبُ] "فيدو" **قَدَمَه**'، ولا يمكن أن يقال forepaw 'جرح رجلَه الأمامية' أو hindpaw "رجله الخلفية'. كما يمكن أن يقال: The hammar hit him on the thumb "ضَربَتْه المطرقةُ على الإبهام'، ذلك أن لدينا كلمة مهذَّبة well-profiled ـ وإن

كانت، في هذا الاستعمال، ناقصة التهذيب low-profiled ـ لهذا العضو المتواضع، لكن التحديد المماثل لجرح في side "الجَنْب" ربما يكون صعبا، إذ يتطلب معرفة تشريحية دقيقة.

وفيما يلي مثال آخر، ويبدو مسوَّغًا باهتمامات جمالية بقدر أوضح بدلاً من أن يكون مسوغًا بالإلزام النحوي وحده:

ففي قصيدة لنزار قباني، أعيد نشرها في المجموعة الشعرية التي حررها خوري والجار Anthology of Modern Arabic Poetry ، نجد عبارة "أنتم سنابلُ الآمال" (ص ١٨٨).

والأسلوب البلاغي الذي يتسم بـ "الترابط الكنائي" tropic collocation مألوف في الإنجليزية: إذ نجد فيها عبارات مثل: rock of salvation "صخرة النجاة"، و light of my life "نورُ حياتي". غير أن من سوء الحظ أن التعبير: ear of corn "كوز الذُّرة" لا يتصف بالتضامّ compact الذي تتصف به كلمة rock "صخرة" أو كلمة "سنابل". لذلك ترجم المحرران، اللذان تتميز ترجمتُهما بالمهارة والحساسية في المجموعة كلها، هذا التعبير بـ: you are our hope like ears of corn ، "أنتم آمالنا مثل أكواز الذُّرة"[!]. وهي ترجمة تقريبية لا شك. ولما ظهر هذا التعبير المتضام مرة أخرى (ص ١٩٠) في قوله: "يا سنابل الآمال"، عَمَد المترجمان، نتيجة لوَعْيهما بالمأزق المتمثل في شعورهما باضطرار الإنجليزية لهما أن يضحّيا بالحيوية البنيوية في سبيل الحيوية المعجمية، إلى أن يقوما بتضحية عكسية، وهي أن يترجماها بـ: O saplings of hope "يا شجيرات الأمل".

٢ـ ويصح هذا حتى حين يكون نوع التعبير طيِّعًا من حيث الشكل، فإذا لم تُبِن بنيةُ هذا التعبير بطريقة ما عن استخدامها للمقولة الدلالية المقصودة، وإن كان على هيئة "المعنى الأساس" Grundbedeutung في الأقل، فربما لا يتضح للمتكلم الذي يتأمَّل لُغته الغرضُ الدقيق الذي تُنجزه هذه البنية. لهذا فستكون أقلَّ قدرة على التوسع القياسي. وإليك بعض الأمثلة:

أ ـ تتصف بعض اللواحق مثل ize– وism– [في الإنجليزية] بأنها مستقلة دائما، صواتيًا ودلاليًا، لهذا (أو كما يقول ستوكس، و"من هنا") صارت قادرةً على توسيع انطباقها، من حيث المبدأ، على أيِّ قسم من أقسام الكلام، بل إلى عبارات بأكملها كذلك، مثل:

Vietnamize "يُفَتْنِم" (نسبة إلى فيتنام)، وknow-nothing-ism "نزعة الجهل". وعلى النقيض من ذلك فإن اشتقاق صيغ التعدية باستعمال قاعدة 'المُغايَرة الصوتية" umlaut [في الإنجليزية] لم يكن دقيقًا من حيث الدلالة، على الرغم من أن نتيجة انطباقها رشيقة ورائعة (fell "سقط"، drench "بلّل"، set "جلس") لأنها كانت في أول الأمر عملية صوتية تُحدِّد الشروط على تتابع الأصوات phonotactic ، إذ أصبحت من ثم، على الرغم من تحوُّل الحركات في الإنجليزية رأسًا على عقب [يشير هنا إلى ما يعرف بـ'بتحوُّل الحركات العظيم" في تاريخ اللغة الإنجليزية] مقصورةً على أسلوب التناوب الصوتي القديم في اللغات الهندية الأوروبية. ولم يعد من الممكن رؤية أي ارتباط واضح إلا بصورة ثانوية غير محدَّدة، بين صيغ مثل: drink "يشرب' و drench 'يبلل'؛ و drip "يقطر' و drop "يسقط'، ولعدم وجود أي توجيه دلالي ـ صرفي، فقد اختفى هذا النوع بدلاً من أن يتوسع.

ب ـ ويوجد في الروسية مجموعة متنافرة وإن كانت مهذّبة well-profiled بقدر ما من التقابلات بين أزواج من الأفعال المشتقة الماضية والمضارعة. وستكون العلاقة الدلالية، بالطبع، عُرضَة لقوى التطور، لهذا ربما سيكون 'الماضي' أحيانًا أكثر من كونه الفكرةَ النواة للفعل المضارع في وجهةٍ ماضية perfect aspect ، أو ربما سيكون شيئًا آخر غيرها؛ لكنْ لَمّا كانت اللواحقُ تميِّز بصورة عامة كونَ الأفعال إما ماضية أو مضارعة فيمكن للمرء أن يحدس في الأقل معنىً أساسًا ربما لا يبعد كثيرًا عن المعنى الحقيقي، وذلك عبر طرائق معروفة مألوفة. ((وهو ما يشبه أن الاسم litterae في اللاتينية لا يقتصر على كونه صيغة الجمع للاسم littera ، ولا castra صيغة الجمع لـ castrum : على الرغم من وضوح مسار التطور). لهذا تميل كلمة počitat إلى أن تعني "اقرأه كلَّه" ذلك على النقيض من čitat التي تعني 'اقرأ' فقط، لكن ذلك ما يمكن توقعه دون عناء من المعنى المعجمي للكلمة čitat مضافًا إليها فكرة "المُضِيّ'. زيادة على ذلك، يتوسع التناظر بين الماضي والمضارع ليَشمل الأفعالَ الروسية كلها تقريبا. لهذا ينحو التناظرُ الدلالي بين الصيغ نحو التماسك بالرغم من التقلبات المعجمية وتنوع طرق تكوينها.

وعلى العكس من ذلك، تُعيَّن المفاهيم الوجهية في الإنجليزية احيانًا ببعض الأدوات التي تُلحق بالفعل.

وتستعمل الإجراءات التالية، وإن لم تتطور، إلا بشكل أوّلي، من بين إجراءات أخرى:

it rained on

"استمرت في الإمطار"

it rained and rained

"أمطرت ثم أمطرت"

it kept raining

"ظلت تمطر"

he sang out

"غنّى "رفع عقيرته بالغناء"

he broke out laughing

"انفجر ضاحكا"

he up and left

"نهض فغادر"

وتقوم هذه الأدوات بوظائف أخرى، إضافة إلى ذلك، دون أن تتصف بأي تجانس دلالي واضح يمكن استخلاصُه، كما تُظهَر في عدد من الوظائف التركيبية المختلفة، لهذا تؤدي وظائفها الوجهية بصورة غير واضحة. فهل تعني drink up : "اشربْه كلّه"، وهل تدل: come on in "تعالَ" (في مقابل: come in "ادخل") على "الشُّروع" inchoative ، أم أنها (مثل read on) نوع من أنواع الاستمرار، أم أن النوعين كليهما يدلان على تكرار الفعل، أم أنهما ببساطة صيغتان للتشجيع وإبداء اللطف مثل: come in! "تفضل"، و ‘Fess up! "اعْتَرِف!"

(وقلما تستعمل عبارة: come on in بخاصة إلا بوصفها دعوة، علنيّة أو ضمنية:

If you'll come in into the kitchen I'll fix us some coffee.

"إذا دخلتَ المطبخ فسوف احضرُ لنا قهوة"

في مقابل الصيغة المشكوك في قبولها:

The sunlight came on into the room.

"دخل شعاع الشمس في الغرفة"

وهل العبارة الإنجليزية: read through "تصفّح" مساوية للكلمة [الروسية] počitat "اقرأه

كله"، أم أنها لا تساويها إلا في حالة تأخر الأداة through؟ ـ كما في:

I read the book through

"قرأت الكتاب حتى أنهيته"، في مقابل:

I was reading through Kurylowicz's paper and couldn't make heads nor tails of it.

"كنت أتصفح مقال كوريلويتس لكنني لم أستطع أن أفهم منه شيئا".

حيث تشبه عبارةُ: read through "أقرأه"، عبارةَ: wade through "أتلمّس طريقي عبْرَه"،

وتقترب من أن تكون تكرارا، وتُركّز على خطوات الحَدَث، بقراءته التي يغلب عليها التدرج

غير الواثق: bit by imperfect bit "خطوة تتبعها خطوة غير دقيقة". أو ما الذي يمكن لنا

فهمه من عبارات مثل:

breakup

"تفرقوا!"

break down

"تعطل"

strike out

أو:

"ينطلق"

help out

"ساعد"

psych out

"جُنّ"

sing out

"غَنّ!"

fizzle out

"اغرب!"

pan out

وهل الكلمة apart "متباعد" من الأدوات التي تتلو الفعل (وتشير إلى انتهاء الحالة) في جملة The ships drifted apart "افترقت السُّفن" (وهي هنا أداة للزيادة في الفعل من حيث الدلالة، قارن بـ: together, along the canal "معًا"، "على طول القناة")، أم أنها لا تدل على ذلك إلا إن كان التعبير الذي تظهر فيه تعبيرًا مترابطًا مَثَليًا فقط كما في:

'He/it broke down' => fall apart (He/it fell apart

"تشتت، انفرط" => "فَشِل، تعطَّل"

لا:

'He/it fell')

"سَقَط"

وقد يلوم المتحمسُ لفرضية ستوكس هذا الاضطرابَ الدلالي الصرفي لأنه حالَ دون تعميم هذه التدقيقات الوجهية اللطيفة إلى المعجم الإنجليزي بأكمله، فنحن نجد:

Drink up! "اشرب"

لكننا لا نجد:

*Eat up! "كُلْ" (مع التلازم نفسه، في لهجتي أنا)

كما لا نجد: *Drink the beer up! (بمعنى: "اشرب البيرة إلى آخر قطرة منها" [إلى "الحثالة"])

ولا نجد:

*Mow (the lawn) up!

"قُصَّ عشبَ الحديقة كلَّه"

ولا:

*He ski'd the forest through

"عَبَرَ الحديقةَ تَزَلُّجا"

(في مقابل: the whole day through "طوال اليوم كله")

ونجد: come *on* in! "ادخل"

لكننا لا نجد: !Fire away "ارم" (وهو ما يعني في الفرنسية: Entrez donc! Triez donc!)

ولا: !Enter on* "ادخل".

وقد يسلّم المعارضْ لستوكس بأن تحقق الوجهة Ausbildung في الإنجليزية ليس متجانسًا دائما، فهو ينطبق على مادة لغوية لها عاداتها التركيبية وارتباطاتها الدلالية المسبَقة، لكنه يمكن أن يُشير إلى أنه في سبيله إلى الانتشار معجميًا وتتابعيًا، متجاوزًا الروسية من حيث الدقة بحيث يمكن تكرار الإلصاق والإتباع (وهو حالة من التكميل well-roundedness التتابعي syntagmatic بدلاً من التحديد التبادلي paradigmatic). فاللغة التي يمكنها أن تقول:

come right báck dówn ón óut fròm ùp ìn thère

(وهو الكلام الذي يمكن أن توجهه أمٌ لابنها: ويتكون المثال من نوع المثال الذي أورده تالمي بالإضافة إلى الأداة اللطيفة on التي زدناها نحن [وهي جملة يظهر فيها تكرار التوكيد عن طريق النَّبْر المتتابع]) إنما تدل على أنها تستطيع أن تعبر هنا عن شيء جاد.

وينبغي أن يكون قد اتضح الآن أن فرضية ستوكس ليست موضوعًا للبرهنة أو إثبات الخطأ. ذلك أن الانخراط في التحليل والتقصي وحده هو السبيل الوحيد الذي يمكن بوساطته أن نعثر على تلك الفكرة الدقيقة التي تعيننا بصورة حاسمة في الكشف عن وسائط القضية التي نودّ دراستها تحديدا. وقد صغتُ هذه الفرضية صياغة دقيقة معقولة وإن كانت حدسيّةً أساسا؛ وربما كان يحسن بنا، بطبيعة الحال، أن ننقّح تعريف مصطلحاتنا. ومن تلك المصطلحات مصطلح "مهذّبة" well-profiled، وقد استعرتُه من استعمال [اللساني الأمريكي المعاصر] يعقوب مالكيل له (بالإضافة إلى تنوعاته الأخرى، مثل sharply profiled "مهذّب بشكل حاسم")، وهو المصطلح الذي رأينا هـ. جيبر يستعمله بطريقة صحيحة. ومن الواضح أننا نرغب في أن نتعامل مع كلمات بسيطة تتسم بأنها مهذبة بشكل دقيق neatly profiled من الكلمات المنحوتة، وذلك قياسًا على التهذيب الضعيف poor profile الذي يَسِم عبارةً مرتَجَلة للتعبير عن أمر ما (مثل philtre في مقابل lip – indentation "الفجوة التي تتوسط الشفة العليا"، في مقابل:

that little sort of like gully that runs down the middle of the upper lip.

[وهو وصف مفصّل للانخفاض الموجود في وسط الشفة العليا]). وأقل من ذلك وضوحًا ما يمكننا قوله عن الشكل الصواتي للكلمة. فالنوع النموذجي "النواة" لكلمة ما هو ما يَسمح باستعمالها استعمالاً متوسّعًا لأنها سوف تنحو من حيث المبدأ، نحو قبول إلحاق عدد من الزوائد بها؛ في حين يصعب أن تُحوَّل كلمةٌ مثل spa 'منتجع' إلى فعلٍ لأنك ستكون مضطرًا لأن تصوغها كالتالي: spa–ing "يتنجع"؛ أو حين تكون كلمةُ libertarian "متحرر" مقبولةً، أما ant-disestablishmentarian "مضادّ للسُّلطات" فمثال للفظاعة. ويمكن، من وجه آخر، أن تكون كلمةٌ غريبةٌ شيئًا ما من حيث الشكل الصواتي أقدرَ (عبر المطابقة الرمزية (التجسيم) iconicity أو عبرَ ارتباطاتها الثانوية أو مجرد إيحائها الحَرَكي) على الالتصاق بمعناها، وأن تكون موحية بما تشير إليه، وأن تكون لذلك خالدة وجميلة وجديرة بالاستعمال. ويُقابَل المرء بكلمات جديدة نحو: hent ، ret "يَنْقع"، gat "مسدس"، وقلما يَعرف الأصلَ الذي جاءت منه؛ أما إن كانت تعجبه فلن يكون ذلك لأن مظهرها يوحي بأنها تشبه الكلمات المألوفة وذوات الأشكال التي لا تلفت النظر، بل لأنها تبدو كأنها تنتمي إلى فصيلة الكلمات الساكسونية (بغض النظر عن الأصل الحقيقي الذي جاءت منه) في زمن تكثر فيه المفردات ذات المقاطع المتعددة. لكن حين يقابل كلمةً مثل palimpsest "رقّ" [للكتابة عليه] أو gonzo فسيحاول استعمالها في المستقبل من غير إبطاء.

وهناك مشكلة أخرى تتمثل في أن معيارَي "الطواعية" handiness (خاصة إذا ما قيست بالاختصار) و"الأساسية" basicness (وهي في الصورة النمطية 'الحادية الصرفية' monomorphemic) لتعبيرٍ ما يميلان إلى التعارض مع معيار "الوضوح الدقيق" perspicuity بالصورة التي بيَّناه بها في رقم (٢) أعلاه. ونحن نحاول هنا، عمومًا، أن نربط بين الصيغة والاستعمال، في الوقت الذي تُعمَل فيه قُوى عديدةٌ مختلفة في الجانبين على الدفع في اتجاهات مختلفة. وربما يكفينا أنه اتضحت لنا بدرجة أفضل الطريقةُ التي تعمل بها الكلمات، بغض النظر عن إن كانت الحقائق تعضّد أو تدحض أيًّا من المعادلات التي وصلنا إليها.

***

ولنقارن هذا بمبدأ آخر مماثل تقريبًا اقترحه [اللساني الأمريكي المعاصر] روجر براون (في كتابه 'الكلمات والأشياء" *words and Things*, Glencoe, III, p. 375) وهو:

"ربما يكون مستوى قبول التشفير مقياسًا للتوفُّر الإدراكي"(٧).

ويبدو أن هذا المبدأ يتوافق مع العبارة الأخيرة في فرضيتنا. لكن روجر براون يقصد منظومةً من المعايير مختلفةً اختلافًا يسيرًا لتحديد فكرة "قبول التشفير" عن المعايير التي أراها عن فكرة 'مهذبة' well - profiled :

فهو يقول: 'يمكن أن يقاس 'قبول التشفير' بطرق مختلفة عديدة، مثل:

أ ـ طول اسم ما.

ب ـ عدد عناصر المطابقة في اسم ما.

ج ـ مقدار درجة البطء في إنتاج اسم ما".

(ويمكن أن تُفهَم عبارة 'بطرق مختلفة عديدة' بطريقة موازية لاستعمالها في الجملة التالية:

The money supply can be measured in several different ways

"يمكن أن تقاس موارد النقود بطرق مختلفة عديدة"، أي أن "تُعرَّف" بصور مختلفة حيث يكون كلُّ نوعٍ جزءًا من التصور الحَدْسي العام للنقود، بدلاً من فهمها بمعناها في جملة مثل:

Time can be measured in several different ways

'يمكن أن يقاس الوقت بطرق مختلفة عديدة" ـ أي بالساعة المائية، وبأشكال الساعات القديمة، وبالمقياس الذري، وبأساسيات كانْط Kant (إذا تجاهلنا تهذيب بيرجسون وإينشتاين لها)).

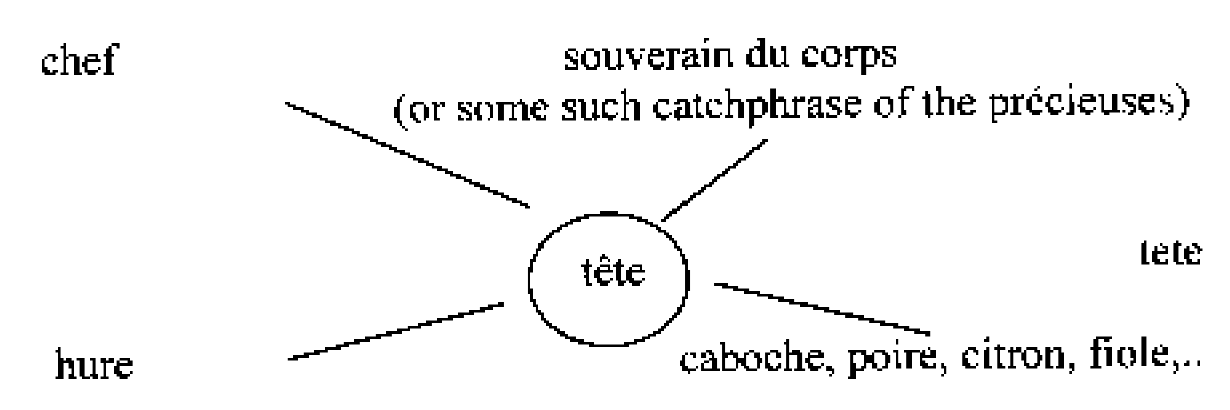
ويجب أن يُفهَم مقياسُ "الطُول' في (أ) لا بقياسه بطريقة نهائية بعدد الصوتيات فيه أو مرات النبر أو متوسط الوقت الذي يَستغرقه النُّطق به، بل بقياسه بمقياس أكثر دقة من حيث درجة التعقيد في تركيب أجزاء الكلمة، مثل:

pois chiche > abricot
broad bean> stringbean > avocado

back of the hand > sacro-iliac > clavicle
teapot > samovar (cf. tea Kettle)

[حيث الكلمات على يمين السهم لا تتكون من أجزاء]

أما (ب) فتقول إن التلاؤم بين الشكل والمعنى واضح injective ؛ أو ان يكون أحد أفراد مجموعة المترادفات أكثر بروزا ، في الأقل:



[ويعني هذا أن كلمة tête "رأس" لها معنى مركزي، ويتفرع إلى عدد من المعاني بحسب التخصيص: souvernain du corp "ملِك الجسم"؛ chef "سيِّد"؛

some such catchphrases of the précieuses

"أو عبارة متحذلقة مثل هذه"؛ tête "رأس"؛ hure "رأس حيوان مذبوح"؛ caboche "رأس ضخم"؛ poire "أبله، ساذج"؛ citron "ليمونة"؛ fiole "رأس (مجازا)"].

أما (ج) فربما وضعناه، من جهة ثانية، في جانب "الكلام" parole من الارتباط الذي اقترحناه مؤقتًا: فنحن نتنبأ بأنه إن لم توجد طريقة سهلة مختصرة للإشارة إلى شيء ما فسوف يستغرق المتكلمُ وقتًا أطول في الإتيان بتعبير مُحيل خاص به. وعلى أية حال، فأنا لا أريد من فرضية ستوكس ألا تزعم زعمًا قويًا أو مركزيًا عن التوفُّر الإدراكي، وإن كان من الواضح أن الاستعمال المكثَّف نوعًا ما أو الاستعمال الضئيل نسبيًا للوسيلة المعجمية أو الوسيلة التركيبية الصرفية سوف يؤثِّر فيها التوفرُ الإدراكي ويتأثر بها. بل ربما يكون ضروريًا منطقيًا لأية صياغة متماسكة؛ لكن ما أحاوله هنا هو أن أصل إلى وضعٍ يَسمح بالتحليل النصي لا أن أقوم بعمليات جراحية للمخ[٨].

***

ولا يمكن أن نقارن مباشرةً درجةَ تضامِّ تعبيرٍ ما عبْر اللغات، وهو لا يمكن بأية طريقة بسيطة، في الأقل. ذلك أن ما يبدو متماثِلاً خارج السياق ربما يختلف حين تتفحص النحوَ بمجموعه. انظر مثلاً ما يمكن أن يُعد أقرب شيء إلى النحت غير الموسوم للأسماء في الإنجليزية والفرنسية والألمانية والعربية؛ فيصاغ هذا النحت في الإنجليزية باسمين منفصلين ويُنبَر بالنبر الذي تأخذه الأسماءُ المنحوتة؛ وفي الفرنسية باسمين مجموعين الواحد إلى الآخر بحرف جر غير مميِّز؛ وفي الألمانية باسمين يُكتبان معًا، ويَنطقان من غير وقف على الأول، ويقومان بوظيفتهما كأنهما كلمة واحدة في الأحوال كلها؛ ويصاغ في العربية بتركيب الإضافة (مثل: "كَلْبُ الماء"). ومن هنا يبدو الأسلوب الألماني أكثرها تضامًا، لكننا حين ننتقل إلى تطبيق قاعدة النحت مرة أخرى على الصيغة المنحوتة، فسيتسبب التعبير الذي يَنتج عن عملية نحتية سابقة في الألمانية في الوقوع في بعض المشكلات بسرعة أكبر مما في الإنجليزية - أي أن هذه المنحوتات تبتعد شيئًا ما عن التصرف بالطريقة التي تتصرف بها الصيغُ البسيطة، وهو ما يعني أنه لا يحتمل أن تكون دَخْلاً غير موسومٍ لقاعدة معينة. أما الإنجليزية فتنْظِم الأسماءَ بعضها إلى بعض دون تحفّظ، نحو:

hamburger – bun

"مقلاة هامبورجر"

sesame - seed

"بذور سمسم"

applicator repair - manual

"كتالوج إصلاح لآلة. . ."

إلى آخر ذلك؛ في حين يبدو أيُّ شيء يتجاوز الصيغةَ المنحوتة:

Strassenbahnhaltestelle

في الألمانية كأنه وَصَل حدَّ عدم القبول. وبالمثل، ستكون السلسلة المؤلفة من ستة أو سبعة أسماء في الفرنسية لا يربطها إلا حرف الجر de أو à ، أو تعدُّد الإضافة في العربية غير مقبولة أسلوبيا. وكثيرًا ما يُلجأ إلى فَصْل هذه السلسلة بحرف جر له معنى في الفرنسية، أو بحرف الجر "لِـ" أو ما يشبهه في العربية، وهو ما ينتج عنه فصلُها إلى تركيب يبدو عليه صبغة الجملة.

وبصرف النظر عن مسألة التضام في التعبيرات التي يبدو بوضوح أنها منحوتة فهناك بعض الأسئلة الإضافية في العربية عن ما الذي يمكن عَدّه تعبيرًا بسيطًا، وعما إن كانت بعض الصيغ البسيطة أقلّ بساطة من غيرها. وأكثر الطرق طبيعية في تصنيف الشكل النمطي [للكلمة] في العربية هو تأسيسها على جذر، يتكون في الغالب من ثلاث صوتيات صامتة، وأن يدخل هذا الجذر في ميزان صرفي. وهذا ما يعني، من جهة، أنه لا يوجد أي شكل ثلاثي بسيط في العربية، ذلك أن هذه الأشكال جميعها يمكن أن تُحلل بصفتها ارتباطًا بين جَذْر ووزن: ومن هنا نجد: "كاتِب" (التي تتكون من الجذر: ك ت ب + صيغة: فاعِل)، أو: "كَتَب"، أو: "كتابة". ولا يبدو أن هذه هي النتيجة التي نَوَد الوصول إليها. فإذا كان يمكننا الشعور بأن كلمة stand "يقف" [في الإنجليزية] أساسية، أي بدلاً من كونها جذرًا لكلمة stood "وقف" مضافًا إليه الصوتُ الأنفي المزيد [n]، وإذا كان الاستعمال اليومي يمكن أن يُعْمينا حتى عن رؤية الأمور الأكثر وضوحًا أحيانا، فمن المؤكد أنه لا بد أن يُنظر إلى بعض الأوزان في العربية على أنها تدخل تحت ما نحسِب أنه عناصر أولية لبناء الوحدات المعجمية المركبة. (ومع هذا فقد يكون هذا مجرد تحيُّز؛ قارن بمشكلة تعريف الكلمة "كلمة" بشكل مستقل عن أية لغة، في عالَم تكثر فيه اللغات متعددة التصريف [وهي التي تقوم على دَمْج الأجزاء المختلفة لتكوين الكلمة فيها]). أما في العربية فيوجد في الأقل "نموذج" ما للصيغ البسيطة حقًا، وهو الذي يتمثل في الكلمات الثنائية مثل "يَد"، وفي بعض الأسماء الثلاثية غير المشتقّة مثل "بَطّ". وربما أمكن القول بأن "ضَرَب" صيغة بسيطة لأنها أقصر تحقُّق للجذر "ض ر ب" يضاف إلى ذلك، أنها الأقل تحديدًا من حيث الدلالة، لأنها يمكن أن تأتي كأنها أساس تُعلَّق به المحدِّدات في التركيبات التي يُؤكَّد فعلُها بالمفعول المطلق مثل :"ضربه ضربا شديدا". ومن هنا ربما تكون صيغة "ضِراب"، وهي مصدر للفعل المشتق على وزن "فِعال"، أقل بساطة شيئًا ما، من الفعل المشتق على وزن "فاعَل"، في الأقل. ومع هذا فصيغة "ضِراب" على الوزن نفسه الذي تأتي عليه صيغة: "كِتاب"، وهو اسم محسوس لا نشعر بأنه مصدر (إذ لا يأتي منه جمعٌ لمشتقٍّ فِعليٍّ deverbal ، مثلا)، كما يبدو أن "ضارَب" ليست شائعة بالمعنى الذي لـ "ضِراب"ـ فلم يوردها هانز فير في معجمه، في الأقل. (وربما يمكن القول بأن

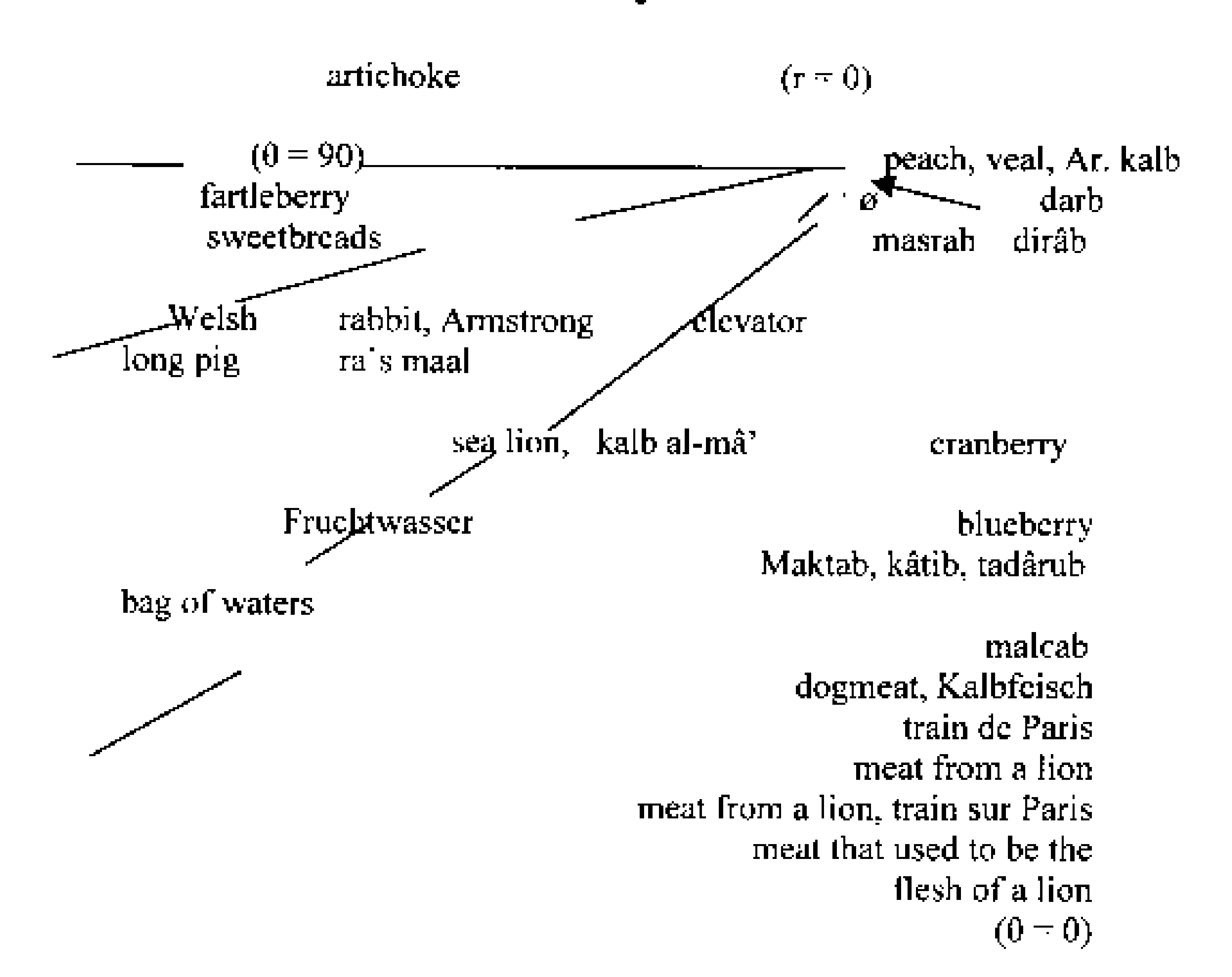
"ضِراب"، لأنها، تزامنيًا، ليست مشتقًا فعليًا، أكثر أساسية، بصفتها كلمة نواة وغير محبوبة، من كلمة "ضَرْب" التي إذا نظرنا إلى معناها فإنها تشبه الكلمة الألمانية das Schreiben في كونها أقل أساسية من الفعل الذي يماثلها من حيث القِصَر؛ لكن شكل الكلمة يوحي بأنها مشتقة عن طريق الاستعارة). وتبدو كلمة "مكتب" أقل تضامًّا بسبب أن ما أضيف إليها [الميم] صوت صامت، لكن هذا الصوت من حيث الوظيفة لا يزيد عن كونه جزءًا من الوزن لا قيمة له يشبه الحركة الطويلة [الياء] في"كَتيبة" أو التحقق الصامتي لهذه الحركة في "كُتيِّب" [الياء في "كتيِّب"]: أما إذا أخذنا "مكتب" على أنها أكثر تأليفًا، فإننا نفعل ذلك منطلقين من النظر إلى الدلالة (وهو تطورٌ يمكن التنبؤ به من المعنى الأساس لـ: "ك ت ب" + مَفْعَل <اسم مكان>). أما "كاتِبُ السِّرّ" فلا جدال أنها أقل تضامًّا من أية صيغة من الصيغ التي ذكرناها، ذلك أنها تحوي جذرين يستقل كل واحد منهما دلاليًا؛ لكن ليس من الواضح إن كانت أقل تضامًّا من "باشكاتب" أم لا، وهي صيغة منحوتة وإن جاءت على هيئة كلمة واحدة. (وهي المشكلة نفسها التي نجدها حين نقارن äpple cake "كعك مصنوع من التفاح" (مع النبر على المقطع الأول في كلمة apple "تفاح") و apple pie "فطيرة مصنوعة من التفاح" (مع النبر على pie في مقابل cruller "قطعة من أحد أنواع الكعك" [التي تتكون من كلمة واحدة بسيطة])).

ويتصل مقدار الانحراف نحو التأليف الدلالي بمقدار الانحراف نحو التَّضام لكنه يختلف عنه، وإن اتَّسمَ التضامُّ بمحاولته أن يكون شكليًا على الرغم من التباسه التباسًا قويًا بالدلالة والوزن النمطي. ويتصل المعياران كلاهما بفكرتنا الحدسية عما يمكن أن يكون عنصرًا معجميًا أساسيا، وهي الفكرة التي تتأسس على الشكل النموذجي prototype للكلمة القصيرة غير القابلة للتحليل وتلتصق بما تشير إليه التصاقًا قويًا. ونحن لا نستطيع هنا أن نوحِّد بين العوامل كلها التي تسهم في هذه الفكرة الحدسية لكي نجعل منها معادلة كميَّة صريحة؛ ويكفي أن نصل إلى قدر من الوضوح بشأن كلِّ واحد من هذه العوامل على حدة.

والتأليف الدلالي متعدد الانحرافات، في الواقع. إذ يبدأ الخط التالي، (ويمثِّله الخطُّ العمودي في الشكل التالي) من الأشكال البسيطة المجردة مارًّا في اتجاهه نحو الأسفل بتعابير

تتسم بتزايد قبول التحليل إلى عناصر أصغر وبالتزايد الدلالي بطريقة دقيقة، مقتربةً من الفكرة الساذجة للتزايد التي اقترحها [اللساني الأمريكي المعاصر] كاتس. وعلى خط ينحرف بزاوية عن التطور الرئيس للكلمات والعبارات التي تبلغ في الحرفية حد التفصيل الصريح، توجد بعضُ العبارات التي تتسم هي الأخرى بقبول التفصيل بشكل متزايد لكنها مضلِّلة من حيث تأليفها. فلا تحيل عبارة Welsh rabbit "أرنب ويلزية" إلى حيوان منسوب إلى [مقاطعة] ويلز [في بريطانيا] كما أنه ليس أرنبا، لكن تأليفها ليس صفرًا أيضا: إذ إن تركيبها يَضع بصورة أولية ما تُحيل إليه ضمن الحيوانات التي يُمكِن أكلُها، ومن ثمّ في ما يمكن أن يكون نوعًا من الطعام. كما أن "كَلْب الماء" ليس كلبًا ولا هو بمخلوق مائي بالمعنى الذي تكون به السمكة مخلوقًا مائيًا (لذلك فهذا الوصف أقل حرفية من seahorse "حصان البحر" في الإنجليزية)، لكن العناصر التي تتألف منها هذه الكلمة تُسهِم بشيء ما: إذ يشبه هذا الحيوان الكلبَ أكثر من شبهه بالعصفور أو الفيل، وهو يقضي أكثر وقته في الماء. بل ستكون الكلمة أكثر قبولاً للتأليف إن استطعنا بشكل ما، بتأثير التركيب، أن نتصور أن كلب الماء في العربية نوع من الكلاب، تقريبًا، وذلك بالطريقة نفسها التي يكون فيها دب الكوالا، لا "السلوث" احتمالا، نوعًا من الدببة، عند الذين لا يعرفون الخصيصة الاستثنائية للحيوانات الجُرابية.

تعدد الانحرافات للتأليف الدلالي:



(وتتفاوت قيمة r بصورة مباشرة مع زيادة البنية الداخلية، كما تتفاوت θ بصورة مباشرة مع تزايد الخصوصية في التأليف الدلالي لأجزاء المكوّن). ولم أرسم هذا التخطيط بحسب مقياس معين.

وعبارة Welsh rabbit مساوية من حيث قبولها للتقطيع إلى مكوّنات لعبارة "كلب الماء" أو sea lion "أسد البحر"، لكن العبارتين الأخيرتين فقط هما اللتان تُمثّلان محاولةً موفّقة للتسمية، ومن هنا صارتا أكثر قبولاً للتأليف الدلالي. (ولك أن تتخيل شبكةً تتكون من < س ، ص > مفروضة على القطبيات الإحداثية التي رسمناها للانحرافات المتعددة

للتأليفية الدلالية. وسينتج عندئذ أن تتفاوت التأليفية بحسب القانون التالي: (ص = المسافة X جيب الزاوية) ـ ولن يؤخذ أيٌّ من هذا على محمل الجد كَمِّيًا، ولا بُعْديًا أيضا، ذلك أننا كنا مضطرين إلى إسقاط عَظَمَة الفضاء الدلالي على قطعة من الورق. ولقد كان إسهام الطريقة المِتْرية [القياس بأجزاء المتر] في علم الدلالة سببًا لِلَّبس بدرجة كبيرة. ولا يزيد عملي هنا عن كونه محاولة لتوضيح بعض الفوضى التي تتصف بها المادة اللغوية الخام حتى إنها يمكن أن تزيغ البَصَر). وعبارة Welsh rabbit نكتةٌ مُمَعْجَمة lexiclized من النوع المألوف، نحو ـ Irish apple 'التفاحة الأيرلندية' (البطاطس)، و: Adam's ale 'مشروب آدم' (الماء)، و: Armstrong elevator 'مصعد آرمسترونج' (الدَّرَج)، و Shank's mares "فرسا شانك" ('الرِّجلان"، بمعنى: le train onze). فـ: Welsh rabbit، مثلها مثل: Bronx cheer 'أصوات تشجيع سكان منطقة برونكس، في نيويورك' (إصدار أصوات ضوضائية عن طريق التمطُّق بالشفتين)، أقرب إلى أن تكون كلمةً من الكلمات الأخرى التي ذكرناها توًّا، ذلك أنها الاسم الرئيس للشيء الذي تُسمّيه؛ أما على الجانب الأبعد فنجد عبارات مثل: Mexican breakfast 'الفطور المكسيكي' أو Irish seven-course meal "الوجبة الأيرلندية المكونة من سبعة أنواع" وهما اللتان لا تُشبهان الكلمات، مع كونهما مُنْمَدَجَتين بالكيفية نفسها. ويمكن أن تُوجَدا في المعاجم، ذلك أنهما لم توجدا لتسمية أي شيء مما يحتاج إلى التسمية، لكن وظيفتهما لا تزيد عن الإيحاء بتعريفيهما الخاصين بهما (وهما تدلان على: 'سيجارة وكوب ماء'، و'ست قوارير من البيرة وبطاطس'، على التوالي. والوجبة الثانية، كما أعلم، سميت بها بولندا كذلك، ولا أدري إن كان ذلك عن طريق تعدد الأصول أو عن طريق الاقتراض الثقافي. ـ ولِخوفي من أن يؤدي هذا إلى استياء أية مجموعة [عِرقية] من هذه البذاءات blasons populaires، أبادر إلى الاعتراف، مثل كثير من دارسي الدلالة المساكين، بأنني شخصيًا في صراعي طوال الليل مع المعجم، وفي أكثر من مناسبة، استهلكت قدرًا كبيرًا من البطاطس). لكننا لا نستطيع لهذا السبب أن نُخرج Mexican breakfast 'الفطور المكسيكي' من الدلالة المعجمية، بل نضمُّه بدلاً من ذلك إلى الألغاز التي يُطلب فيها من السامع أن يذكر تفاصيل شيء ما، مثل

"ما اسم الشيء الذي يتصف بكذا وكذا؟" what's (thus and so)? ذلك أن هناك عددًا من الأشكال البسيطة التي تقوم بالوظيفة نفسها مثل: (blivit "مزعج"، و: mung "غير ضروري").

وليس من الواضح تمامًا إن كانت التأليفية المدفونة تحت التأويل الاستعاري (وتقع، في التخطيط الذي رسمناه، على الخطوط المنحرفة بزاوية) تميل إلى تأكيد نفسها مرة أخرى كما في عبارة Koala bear "دب الكوالا". فنحن لا نأخذ sea lion "أسد البحر" على أنه ينتمي إلى فصيلة الأسود؛ ذلك أن هذه العبارة إن أوحت بشيء فهي توحي بطريقة بسيطة بأنه ينتمي إلى حيوان الفَقْمة. فيتأثر تصوُّرنا لشيء ما من غير شك بالحوافز المادية لاسم ما أساسًا حين لا يكون التصنيف عن طريق الأحاسيس مؤكَّدًا. وهناك أنواع مختلفة من الحيوانات الغريبة التي تمشي على أربع ولها جماجم تميل إلى الطول وتقفز في مشيتها ولها أنياب؛ فإذا سُمِّي أحدها، بـ Borovian wolf "الذئب البوروفي [نسبة إلى بوروفيا]"، مثلًا، فسوف نحسبُه نوعًا من الذئاب؛ وإذا سمي بـ Borovian dog "كلب بوروفي" فسننظر إليه على أنه كلب متوحش من بين أنواع كثيرة من الكلاب (أعني إن لم نكن نعرف هذا المخلوق معرفة حقيقية). والتمييز بين الذئاب والنمور أبسط؛ فإذا كنا نعرف أن thylacine حيوان جُرابي، فإننا لن ننخدع بأيٍّ من اسمَيْه الآخرَيْن المكنَيْن: Tasmanian wolf أو Tasmanian tiger "الذئب التسماني"؛ أو "النمر التسماني"؛ أما إن لم نكن واعين بذلك لكننا نعرف شكلَه فيمكننا أن نصنفه على أنه نوع محلي غريب من الذئاب (يتميز بعلامة)، لا من النمور احتمالًا، لأن الخطوط التي تظهر على جلده خصيصة تبلغ حدًّا من السطحية تجعلها غير صالحة لأن تكون عنصرًا أساسيًّا مهمًّا في التصنيف، إلا إن كنا أطفالًا في بداية اكتسابنا للمعجم، حيث تُضَمُّ النمورُ وحميرُ الوحش معًا بصورة مؤقتة في قائمة واحدة. ـ ويمتزج النوعان Tasmanian wolf و"كلب الماء" بصورة لا تكاد تُلحَظ بنوع الـ Welsh rabbit . وربما سمي الـ prairie dog "كلب الخلاء" بالطريقة نفسها التي سمي بها الـ Tasmanian wolf، أي باستخدام الخصيصتين: < الموطن + كونه يقترب في الشبه من حيوان مألوف > والرابط الرئيس بين الحيوانين هو النباح، لكن الفصيلتين هنا مختلفتان جدًّا

حتى يمكن أن نشعر بأننا في مجال نوع فكاهي يشبه العبارة: Irish apple أو Hotel Weeds "حشائش فندقية" (حيث يمكنك التمتع بالتكييف الطبيعي)، مما لا يُشعِر بوحشة الخلاء إلا قليلا. ويُشبه ذلك العبارةُ العربية "جَمَل اليهود" (الحِرْباء). ـ وفي مقابل ذلك، تتطور الأنواع الغريبة دلاليًا، نحو: Irish apple و Armstrong elevator "مصعد آرمسترونج" باتجاه التأليفية المطردة شيئًا ما حين تُضاف بعض العبارات الأخرى إلى هذه القائمة ويصبح من الممكن التنبؤ بالمعنى، من ثمّ. ولا يَعرف المرء في البداية ما الذي يعنيه تعبير: Armstrong elevator ذلك أنه ليس لكلمة Armstrong (في الإنجليزية النموذجية، أو في لهجتي أنا) معنى مستقل. أما إذا ما اكتسبتها فإن التركيب: < Armstrong N> ، حيث تشير N "الاسم" إلى أداة متقدّمة نوعًا ما أو آلة، فسيعني لك: "ذلك الشيء الأبسط المعروف جدًا الذي يُنجِز المهمة نفسها" (نحو: Armstrong mower = scythe "المِنْجَل"). أو أن تعني: < Irish N > "شيئا رخيصًا أو عنيفًا يشبه N "الاسم" (نحو: Irish confetti "الحلاوة الإيرلندية"، وتعني: "الآجُرّ"، و Irish cherry "جَزَر"، و Irish draperies "بيوت العنكبوت"، و Irish pennants "حثالة"، و Irish toothache "وجع الضرس"، و Irishman's dinner "الكرم الوهمي" [مائدة البرامكة]، و Irish root . . .

. لكنني مرة أخرى وخوفًا من غضب القارئ فسأصوغ تعبيرًا ينطبق على المجموعة التي أنتسب إليها: noble Scotch prospect "هدف سكوتلندي نبيل"، ويعني: "طريق تؤدي إلى أرض مهجورة"، مع الاعتذار للدكتور جونسون [جامع أول معجم إنجليزي]). لكن مهما كانت درجة إمكان التنبؤ بمعاني هذه التعبيرات، فلن أضعها على المحور الرأسي للشكل [السابق]، ليس لأنها هزلية (ذلك أن كلمات: bod, schnozz, a no-no هزلية أيضًا، وإن كانت غير مجازية) بل لأنها ألغاز أصلا، وإن كانت ألغازًا مما تعوَّدنا على حلِّه من ألغاز.

وبما أننا لا نتلعّب عقليًّا بمعاني المكوِّنات التي يتكوَّن منها تعبيرٌ مجازي مُؤلَّفٌ ما (على الرغم من الوعي الصَّرْفيِّ بطبيعته المؤلَّفة، إذ نُعامل المكوِّنات بالطريقة المألوفة من حيث الإعراب والجمع؛ فنحن نقول: "كلبَ الماءِ" في حال النصب، لا: "كلبُ الماءَ"؛ و: cous de pied, chevaux de frise) ، فلا يَقبل هذا التعبيرُ التحليلَ إلى مكوِّنات أصغر

من حيث الدلالة، مع أنه يمكن ألا تتأثر الاعتبارات التضامية، التي تستقل بشكل كبير عن الدلالة. لذلك فإن bag of waters (المشيمة) أقل تأليفًا من حيث الدلالة من train de Paris "قطار باريس" (كما يمكن أن يتضح بالطريقة المألوفة ـ أي بـ "اختبارات عَطف النَّسَق، مثلا")، لكن التعبيرين متساويان من حيث التضام.

ويبلغ وضع الكلمات في العربية حدًّا بعيدًا من عدم الوثوقية في العيِّنة التي جئنا بها لتعدد الانحرافات. ومما يُضاعِف مشكلات الوصول إلى قرار واثق بشأن ماهية التضام في العربية لمقارنته من ثمَّ بالأسلوب الذي يستخدمه المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي لتكوين الكلمة أنواعُ عدم الوثوق الخاصة بالتأليف الدلالي (وهي أقل صرامة).

بعض الملحوظات على الرسم التخطيطي:

"كلب" و"ضَرْب":

يُبيِّن الوزنُ < فَعْل > أقلَّ مما يُبيِّنه الوزنان: < مَفْعَل > و< فاعِل >، حيث يَدُل هذان الوزنان في العادة على اسم المكان واسم الفاعل، على التوالي، فيما يُستخدَم وزن < فَعْل > في أشياء كثيرة، وليس من الضروري أن يكون مُشتقًّا فِعليا.

"مَكتَب":

وتدل على "المكتب، والمدرسة، والوكالة، والطاولة". وربما كان المعنى التاريخي لها هو: "حُجرة النُّسَّاخ". وقد تفرَّعَت من حيث الدلالة بأكثر مما تفرعت به كلمة "مَلعَب" (من: "لَعِب")، ذلك أنها نوعٌ من الأسماء الشمولية hypernym [التي يدخل تحتها أشياء كثيرة]، وهو نوع يعبِّر عن الأشياء المختلفة التي يُدل عليها بشكل أكثر صراحة في الإنجليزية: playground, playing-field, playhouse، "ملعب"، "ملعب كرة القدم"، "بيت اللعب"، على الترتيب؛ يضاف إلى ذلك أنه يصاغ من الجذر "ك ت ب" بعض الكلمات الخاصة، نحو: "مكتبة" التي تدل على ما يعبَّر عنه في الإنجليزية بالكلمات الثلاث: library؛ و bookstore؛ و desk. لذلك وضعناها على درجة أعلى قليلاً في الترتيب. أما "مَسْرَح"

فقد وضعناها على زاوية منحرفة، وهو قرار عشوائي بعض الشيء لكنه يميل إلى الإيحاء بشيء من عدم التوافق قليلاً في العلاقة الدلالية مع الجذر "س ر ح"، بصرف النظر عن إن كانت مأخوذة من الكلمة "سَرَح" التي تدل على "الرَّعْي"؛ أو "شارِد الذّهن"؛ أو "سَرِح"، التي تدل على "أن يَمشي بصورة حرة".

أما عبارة Train de Paris "قطار باريس"، في الفرنسية، فتعني (لبعض المتكلمين) إما: "قطار مِن باريس"، أو "قطار إلى باريس"، من بين معان أخرى أقل احتمالاً أو أقل ورودا. لذلك لا يتصف هذا التعبير في الواقع بأنه أكثر صراحة من حيث التأليف من عبارة: Paris train "قطار باريس، في الإنجليزية"، بما تتسم به من غياب كامل لما يوحي بالعلاقة بين مكوّناتها [أي غياب حرف الجر de أو of]. أما Train sur Paris فتعني "قطار إلى باريس".

وتبدو عبارة Meat from a lion "لحمٌ من أسد" على درجة الوضوح نفسها التي في عبارة train sur Paris (وهي أقل تضامُا منها شيئًا ما)، لكن قارنْها بالعبارتين التاليتين: meat from a butcher "لحم من عند جزّار"، و cake from a bakery "حلوى من مَخْبَز".

وليست عبارة "رأسمال" نوعًا من الرأس، لذلك تقع [في الرسم التخطيطي] على زاوية منحرفة. وهي تتضمن الاستعارة نفسها التي نجدها في العبارة الإنجليزية: capital التي تُرجمت عنها أساسا. وهي لا تَبعد كثيرًا عن عدم التأليفية لأن "مال" تضع العبارة [رأس مال] بمجملها في المجال الدلالي الصحيح.

وربما لا نعرف من حيث التأليف أن عبارة: long pig تعني "لحم الآدمي بوصفه طعاما"، ولكن حالما نعرف معناها، ستبدو تعبيرًا مُسوَّغا، وإن كان ساخرًا ـ وغامضا ـ وهو ما جعلنا نضعها على زاوية غير محددة بشكل واضح، وهو غامض بمعيار التماسك المعجمي المألوف (ذلك أننا نصنِّف أنفسنا بأننا "طِوال (رأسيًا)" لا "طوال (أفقيا)"؛ ثم إن هذه العبارة تبدو كأنها ترجمة حرفية من لغة غريبة).

Fartleberries : وأنا أعتذر عن إيراد هذا المثال، لكني قصدت أن أورد مثالاً منحرفًا دلاليًا ليُقابل المثال الكلاسيكي cranberry "توت بريّ". ومن الرائع جدًا أن يكون هناك اسم لشيء مثل هذا. (ويمكن للقراء الذين لا يعرفون هذه الكلمة ذات السمعة الشائنة أن يجدوها في معجم Partridge للعامية [الإنجليزية]؛ والبديل الأمريكي لها هو dingleberries "البَعْر الذي يَعلق بشَعر الدُّبُر"، وتطلَق على الأشخاص غريبي الأطوار). [وليس في هذه التسمية أية غَرابة، فإذا كان الله قادرًا على أن يَخلق ما تُشير إليه]، فإنني أتوقع أننا نستطيع أن نُسمِّيه.

ولتوضيح الفرق بين إمكان التأليف والتضام compactness أُقدِّم عددًا من الأمثلة. فأية كلمة بسيطة (إذا تجاهلنا المسوِّغات الصوتية الجَمالية) هي بالضرورة غير مؤلَّفة، لكن الكلمات الطويلة أو "الثقيلة" صوتيًا ستكون أقلّ تضامًا شيئًا ما، والأقرب أن تُحلِّلها اللغةُ على أنها مُركَّبة. لهذا فإن كلمتيْ: Eiche "شجرة البلُّوط" و Holunder "بيلسان" غير مؤلفتين، لكن Holunder أقل تضامًا، ذلك أنها تُخالِف تفضيلَ اللغة الألمانية للكلمات البسيطة القصيرة والنبر على المقطع الأول (فكلمة Holunder يمكن تقطيعها على الشكل التالي Ho-lúnder لتتماثل صوتيًا مع ge-Kémmen ، لا مع: Eiche).

<u>التضام:</u>

jellybean = stringbean ≤ líma bean < baked béans

(التي تنطق [وتُكتب بالكتابة الصوتية]: beykbí:nz)

< rôtten béans"

[أي أن كلمة jellybean "نوع من الحلوى" تساوي من حيث التضام كلمة stringbean، والكلمة الأخيرة مساوية أو تقل في التضام عن كلمة lima bean ، والكلمة الأخيرة أقل تضامًا من كلمة baked bean "فاصوليا محمَّرة" التي هي أقل تضامًا من الكلمة الأخيرة].

قبول التأليف:

jellybean < (ذلك أن jellybean ليست في الواقع "فُولاً" إلا بمعنى يماثل أن تكون "حلاوة السيجار" سيجارا) lima bean "فول ليما" < (ذلك أن "سلسلة الفول" تأتي على شكل سلسلة، لكن: lima bean "فول" ليس *lima) stringbean يساوي تقريبًا: backed beans "الفول المُحمَّر" (وهو الذي يسمى "الفول المحمر" حتى إن لم يكن محمَّرا، حين يكون في القنِّينة؛ وتتنحى rôtton beans إلى يسار [يمين] stringbean عند المتكلمين الذين لم يسبق لهم التفكير من قبل أبدًا في إمكان "تحمير" هذا الشيء، بل في "تحميته" في المقلاة، فقط).

***

وبغض النظر عن اللذة في مثل هذا التنقير وقيمته لعلم الدلالة عمومًا، فإن له تطبيقًا مُحتَمَلاً مُحدَّدًا في مسألة شعور الأجنبي باللغة العربية. ذلك أن في *العربية* قدرًا ضخمًا من المفردات التي تحتل درجةً عليا على خطوط الانحراف التي اقترحناها للتأليفية والتضام، ولها معان محدَّدة، وتستقل بأنفسها. أما أولئك الذين لم يُلِموا بالأدب العربي المُتشعِّبَ المناحي إلمامًا كافيا، هذا إن لم نذكر القدر الضخم الذي لم يصل إلينا منه، وأولئك الذين لا يستطيعون ركوب آلة الزمن لتعود بهم إلى بلاط الخليفة المنصور أو هارون الرشيد، أو إلى خيام بني هلال، فسوف يتساءلون عما يعنيه هذا الغنى الظاهري. وليس من السهل لكلمة جديدة بسيطة أن تُسَكَّ لمرة واحدة بالطريقة التي يُسَك بها تعبيرٌ [مؤلَّف] ما، كما أنها لا يمكن أن تُترَكَ معلقةً جانبا، وهو ما سيؤدي إلى نسيانها، في حين يمكن لكلمة منحوتة جديدة أو عبارة أن تَبْقَى على الهامش، منذ سَكِّها. والسؤال هو: هل كان العرب يستعملون هذه الكلمات بشكل حر، ويفهمونها بالمعاني المرتبطة بها؟ ذلك أن كلمةً مثل كلمة funky "جبان" التي تداولَها الناسُ حتى اهترأت يمكن أن تكون أكثرَ دلالة على الثقافة التي أنتجتْها وحافظتْ عليها من تعبير مثل: no better than she should be "ليست أفضل مما يجب أن تكون عليه" الذي لا يزال، بسبب كونه تعبيرًا محافظًا convential، يَحمِل بعضَ الدلالة

لكنه لا يُستعمَل إلا قليلا، ولا يمكن تداولُه بسهولة (فهو تعبير طويل لا يسهل استعماله قبل الأسماء، مثلا)، ومن هنا ينحو إلى الجمود دلاليًا بالإضافة إلى جوده الشكلي، ليصبح غريبًا بعض الشيء، بدلاً من أن يُغنى بالاستعمال، كما هي الحال في التطور الدلالي الكثيف لكلمة funky . وسوف تساعدنا فرضية ستوكس كثيرا، إن كانت صحيحة، في مناقشة المعجم العربي.

وتبدو إحدى الأمثلة الجيدة الموضِّحة للارتباط المزعوم بين الشكل والاستعمال في مقارنة إيرنست ليسي في كتابه Der Wortnhalt بين الكلمة الإنجليزية palm والكلمتين الألمانيتين Handteller/ Handfläche "راحة الكف/ باطن اليد" حيث يقول[9]:

> "لا يوجد في اللغة الألمانية للإشارة إلى هذا الجزء من الجسم كلمة مفردة (يشتكي من ذلك ريلكه وغيره)، بل كلمتان مركَّبتان تعبِّران عن ذلك في لغة الوصف العلمي. . . الذي يتبع الاستخدام اللغوي. أما في الإنجليزية . . . فإن ذلك يلفت النظر أكثر منه في الألمانية. . . ففي عصر الياصابات كان يعبر عن هذا الجزء من الجسم بتعبير يرتبط بمنظومة فلسفية صغرى: "الكف الحارّ والنَّدِيّ" تعبيرا عن الهوى".

Das Deusche besitzt als Bezeichnung für diesen Teil des Körpers kein Simplex (dies beklagte u. a . Rilke), sondern nur zwie Komposita, die eher dem wissenschaftlich beschreibenden. . . Sprachgebrauch angehören. Im Englischen nun. . . wendet sich ihm die Aufmerksamkeit viel mehr als im Deutschen. . . . In der Elisabethanischen Zeit wurde an diesen Teil gar eine kleine Philosophie geknüpft: 'hot and moist palm'galt als Zeichen der Leidenschaft.

ولا يزعم ليسي أن هناك أولويةً للاتجاه: اللغة ←— الفِكر [الاتجاه من اللغة إلى الفكر]؛ وهو مُحِق في ذلك، فكلمة palm "راحة الكَف" كلمة دخيلة [في الإنجليزية]، وهو ما يوحي بالحاجة المسبَقة لهذا الاقتراض. (ومع ذلك حَلَّت مكان كلمةٍ بسيطة مماثِلة في اللغة الإنجليزية القديمة وهي folm . . .). وبغض النظر عن تسلسل الأسباب التي قادت إلى ذلك، فقد تُرِك وجود هذه الكلمة البسيطة غير المنافِسة أثرًا في سائر اللغة، وذلك ما تشهد به

بعض التطورات الرائعة مثل: to palm a thing "أنْ تُليِّن شيئًا ما"، و to palm something off "أن تُليِّن شيئًا" و to grease someone's palm "أن تُدْهِن راحةَ شخص ما (أن ترشوه)". ومن هنا جاء التعبير المُلْغِز palm oil "الرشوة، الارتشاء". ولا يقتصر الأمر على أن أصبحت هذه التعبيرات مُمكِنة بسبب الشكل البسيط لـ palm ، التي يُفضِّلها الاشتقاق، بل إنها حافظت كذلك على إشاعة الحياة في بعض الصور العقلية المحدَّدة الغنية (مثل that of palming a card "أن تُناوِل ورقة اللعب").

ومثل ذلك التعبير roof of the mouth "سقف الفم" الذي لم يتولَّد عنه أي تعبير آخر ولم يكن له ارتباط بأي شيء آخر عدا كونه مكانًا تُعلَق به زبدةُ الفول السوداني [حين نأكلها، وهذه نكتة] (ومع ذلك فهو تعبير مُثْليٌّ لا تعبيرًا مكوَّنًا تكوينًا حرا؛ وكلمة roof لها وضع خاص هنا، قارن ذلك بـ top of the head "قمة الرأس" (حيث لا يمكن في هذا التعبير استعمال كلمة . . .roof*)، والتعبيرين المشكوك فيهما: ??roof of the stomach "سقف المعدة"، و ??roof of a faucet "سقف الصنبور")؛ في حين أن كلمة palate "الحنك الأعلى (النِّطع)" بغضِّ النظر عن أصلها الأجنبي، تَظهَر في عدد من التعبيرات الجديدة، مثل: palatalize "يحنِّك"؛ unpalatalize "ينقض التحنيك"؛ please the palate "يُلِذُّ الحنك"، ويعني التعبير الأخير أن الحنك الأعلى هو المكان الأساس لتذوُّق الطعام، وهو يخالف الحقيقة الأحيائية، وهو ما يَجعَل هذا المثال متوافقًا مع فرضية ستوكس كثيرا (بل يمكن أن يكون متوافقًا مع فرضية وورف، إن أمكن إقناع الناس بأن الحنك أكثر إحساسًا من اللسان): وبما أنه سمي بهذه السهولة فإنه يوحي بأنه مكان حقيقي، وأنه جدير بأن يكون مكانًا لشيء ما، وذلك على العكس من حَوافِّ اللسان حيث يتجمع اللُّعاب وحيث يمكن أن يَحدُث أكثرُ التذوّق حقيقة. أوْ لاحظ مرة أخرى التعبير: ball of the foot "باطن القدَم" (وعبارة: of the foot لا يمكن حذفها، وهو ما يجعل التعبير: she* hurt her balls jogging "أوجَعَتْ باطنَ قدَمِها من الجَري" غيرَ ممكن) حيث تكون كلمة ball "باطن القدم" أكثر أهمية من كلمة heel "كعب" للوقوف والحركة، وهي أكثر غنى من

حيث التركيب الصوتي وأكثر حساسية للجراح والتدليك، ومع ذلك فإن heel هي التي تتمتع بكل الارتباطات والاشتقاقات.

ولا يكفي أن نقول إن ما بين أيدينا هنا لا يعدو أن يكون حالةً من المشترك اللفظي المُجانِس، حيث سَلَكت palate₁ "الحنك بالمعنى₁" و palate₂ "الحنك بالمعنى₂" طريقين مختلفين كما حدث في: flower "وَرْد" و flour "دقيق"، لذلك لا يمكن أن نستخلص أي شيء عن القوة الإيحائية لكلمةpalate . فلم تقطع كلمة palate التي بمعنى "القدرة الذوقية" علاقتها بأمّها التي جاءت منها مثلما فعلت الكلمات: bilious 'مُتشائم، صفراوي'، و phlegamtic "بَلغميّ، بارد"، وmelancholy "مالنخولي" [مُكْتئب] عند كثير من المتكلمين. ذلك أننا نجد مثل الفقرة التالية من رواية للروائية الأمريكية ريبيكا ويست:

One would go down. . . to Kranzler if one lived in Berlin, to Dehmel if one lived in Vienna, to Gerbaud if one lived in Budapest, . . . and would choose exquisite pastries and petits fours, which would not only be delightful when cruched against one's friends' palates, but would also be recognizably from Kranzler, or from Dehmel, or from Gerbreaud." (Rebecca West, Black Lamb and Grey Falcon 622)

"يمكن أن يذهب المرء . . . إلى كرانزيلر إن كان يعيش في برلين، وإلى ديهاميل إن كان يعيش في فيينا، وإلى جيربود إن كان يعيش في بودابست، . . . ويمكن أن يختار أنواع الحلوى والمعجنات اللطيفة التي لا يمكن أن تكون لطيفة المذاق إلا حين تتهشّم في حنك أحد الأصدقاء فحسب، لكنها يمكن أن تكون كذلك أيضًا عند التحقق من أنها جاءت بالفعل من كرانزيلر، أو من ديهاميل، أو من جريبود".

ونجد هنا معنيين متّحدين ومختلفين في الوقت نفسه. فكلمة crushed "مهشمة" تؤكد صورةً حِسّية، لكن من الواضح أن الروائية لا تقصد إلا التذوق، أما الأكل بالصورة الحسية فلم يُذكر بصورة مباشرة، لأنه لم يُنظَر إلى الحنك على أنه المكانُ المألوف للذوق: ذلك أن المرء يمضغ المعجّنات، ويمكن أن يتناولها بلسانه، أو يَقضمها، ويمكن له أن يَلعق الزبدة بلسانه

البنّي، ويمكن أن يتحلّب السُكّر منها في فَمِه وأن يَسعد بوجوده في بودابست، لكنه لا يمكن أن يُعامِل، في العادة، الـ petit four "نوع من البسكويت" كما لو أنه لَوز ويُعامِل نَفْسَه كأنه كسّارة اللوز. إنّ ما تقوم به ريبيكا وست هنا ليس إلا تكرار التضاد الداخلي للدلالة المعجمية بطريقة أسلوبية: فانتفاخ كلمتي $palate_2$ وكرانزبلر هنا يتضاد مع الحقيقة الحسية لكلمة $palate_1$ وحيوانية المضغ.

والقائل بفرضية ستوكس، على الضد من القائل بفرضية براون أو ربما القائل بفرضية وورف، ليس بحاجة إلى الزعم بأن متكلم الألمانية أقلُّ قدرة على تصور وجود عضو من أعضاء البدن يُسمى Handteller/Handflächer من متكلم الإنجليزية على تصور كلمة palm ، فهو لا يَزعُم إلا أن الشكل المؤلَّف المرتجَلَ البديلَ للكلمة يوحي بأن مُسمّاه denotatum أقل أساسية من Hand أو Arm (قارن كلمة red "أحمر" بـ turquoise blue "أزرق فيروزي" وكلمةsofa "أريكة طويلة"، بكلمة love-seat "أريكة لجلوس شخصين")، ولا يُشجِّع على خضوع الشكل لعملية النحت مرة ثانية - ذلك أن الألمانيِّين، بعكس ما تقوله الشائعات عنهم، ليسوا مُغرَمين حقيقةً بصياغة الكلمات الطويلة المعقَّدة - زيادة على ذلك، إضافة إلى عدم الاتفاق على تسمية هذا العضو إما بـ Handteller أو Handfläche (وهما الكلمتان اللتان تؤديان إلى إعاقة الطريق إلى الإشارة المباشرة وتُبقيان على دوام الإيحاء بالوصف الاعتباطي) فإن هذا يعيق اكتشاف الاستعارة في الكلمة والاشتقاق المعجمي لها - وهذا باختصار ما يؤدي إلى تقييد حياتها في اللغة. لكن دعنا نطلب من متكلمي الإنجليزية أن يتأملوا: ألا يمكن أن ينطبق هذا الوصف على شعورنا فيما يخص تلك الأجزاء اللطيفة من أجسامنا التي تُعرَف بأنها: inside (~ bend) of the elbow "باطن المِرْفَق، أو طَيّة المرفق"، وback (~hollow) of the knee "باطن الرُّكْبة أو فراغها" ["الجُنْب"]، وكم كانت ستكون حياة هذين العضوين عظيمة في الأدب الإنجليزي لو كنا نستطيع تسميتهما بسهولة! والحقيقة أن العضو الثاني كان يسمى ببعض الأسماء - وإن كانت توحي برائحة مَرْبط الدواب [أي أنها تستعمل في الدلالة على ما يتعلق بالدواب] - نحو: hock "عرقوب"، و ham "المأبض"، و hough (ومن هنا جاء الفعل to hough

الذي يعني "يقطع وَتَرَي الرُّكْبة")، لكننا نشعر الآن بالعجز عن تسميتها، ولا نستطيع أن نطلق عليها إلا عبارة "باطن الركبة" كأنَّ أهميةَ هذا العضو لا تزيد عن أهمية ظاهر مِفصَلٍ أو أحد جوانب المِرفق، أو أن نلجأ إلى أن نُغَمْغِم باسمه اللاتيني popliteal fossa كما لو أنه فَرْجٌ زائد لا يُمكن تسميته إلا باسم مأخوذ من اللاتينية. وكم سيكون وصفنا لشفاه محبوباتنا بائسًا إن لم يكن بوسعنا إلا أن نسميها بالاسم اللاتيني oral sphincter .

وتنتمي فرضية ستوكس إلى نوع مختلف من التصنيف عن فرضية وورف، لكن يبدو أن فرضية ستوكس، وبقدر ما يُمكِن المقارنة بينهما، أضعف. وبخصوص ما نحن فيه هنا فإن سلوك palm مقابل سلوك Handteller مثالٌ على فرضية ستوكس؛ فهل هو مثال على فرضية وورف أيضا؟ أي هل كون لغتنا التي ارتبطت فيها هذه الكلمة البسيطة بذلك الجزء الذي تحيل إليه من الكون لا يزال يُشكِّل أفكارَنا ويدفعُنا بصورة فَوْرية إلى أن نبدأ بالتفكير عن الشيء الذي تُحيل إليه؟ وليس هناك دليل على هذا فيما أرى. ذلك أنه مهما كانت قوة الجذب النفسية التي شُحِنت بها palm التي تنتمي إلى الجزء اللاتيني من المعجم الإنجليزي، فقد أصبحت راحة الكف palm ضعيفة بعض الشيء الآن cathected. فقد أفَل نجمُ قراءة الكف الآن؛ ولم تعد راحة الكف، على الرغم من حساسيتها، من بين المناطق المتعارَف عليها للإثارة الجنسية في الوقت الحاضر (وإن كان لا يزال هناك نوع من المصافحة الفاحشة، لكن ليس لها اسم فيما أعرف، كما أنها لا تتمتع بالجاذبية السيميائية نفسها التي للشفاه أو الأعين أو الحواجب، أو الخناصر، أو ماعدا ذلك)؛ كما أنها لا تحتل مكانة بارزة في المخيال المعاصر للجسد، وهو الذي يشحذه الاهتمامُ الزائد بتخفيف الوزن والتجاذب أو التنافر مِثليِّ الجنس ـ فلم تعد لراحة الكف أهمية فيما يخص هذه الأمور، كما أنها لم تعد مهمة للتعبير الجسدي الذي كان سائدًا قبل اختراع التلفزيون. وقد ظلت بعض العبارات والأفكار حية (مثل:
I've got him right in the palm of my hand

"وضعتُه في راحة كفي" [سيطرت عليه])

كما ظلت حية بعض التعبيرات التي تتضمن كلمات مهجورة ليس لها أية معان مرتبطة بها بصورة مستقلة (مثل: cockles of the heart "سويداء القلب" liver and lights "الكبد والأنوار")، فيما اتَّجه اهتمامُ الناس إلى بعض الأعضاء الأخرى التي لم تسمُ في الغالب

تسمية موفقة[١١]، نحو: "العَجُز" (الذي ليس له كلمة مفردة غير قبيحة في الاستعمال اليومي)، والفتحة التي على شكل حرف V حول الرقبة التي تتدلى منها الميداليات عند الرجال (وهو المقابل عند الرجل لـ "الكهف" (الذي بين الثديين) عند المرأة، وليس له اسم إلى الآن)، و the armpits (التي معناها "تحت الذراع" ـ قارن ذلك بالكلمة العربية البسيطة "إبط"، وكذلك الفعل المشتق منها "تأبّط"، وهي ليست كلمة نادرة بأية حال)، وهو مكان لعدد كبير من الطلاسم الطبية والقرارات الصعبة فيما يتصل بالحلاقة؛ إضافة إلى عدد كبير من مناطق الجسم التي لم تُسمَّ وتقتصر معرفتها في الوقت الحاضر (مثل بعض الأقطار الصغيرة التي لا تُعرَف إلا بالمشكلات التي تتسبب في إثارتها) على الرواد المعاصرين الذين يقفون اليوم على تخوم الثقافة العضوية، وهواة الجري، وهواة التزحلق، وهواة لعبة السكواتش والديسكو. ومن الغريب أن تكون راحة الكف، وهي مكان العَرَق والخداع، ومكان الـ Kraft "الصنعة" والمهارة اليدوية، ولا تختلف فيها الأنثى عن الذكر، ولا العالِم عن رائد الفضاء، وبهذا صارت رمزًا للبنية العضوية للإنسان homo faber ، ثم لا تكون هدفًا لاستغلال النرجسيين، أو علماء الأعراق، أو الدهريين، وبدلاً عن ذلك أزيحت عن مركز الاهتمام، في الوقت الذي يوجه فيه الأمريكيون الذين يداخلهم الذعر من التحدي البروموثي، اهتمامَهم إلى الأجزاء الأقل أهمية ـ كالوصلة اللحمية المتدلية من الرقبة، وشعر الصدر ـ وتجاعيد أحذيتهم، بدلاً من تجاعيد حواجبهم.

***

وتتميز اللغة العربية بشكل أخاذ بمعجم غني جدًّا من المفردات غير المشتقة لتسمية أعضاء البدن وبتقليد غني من القيم الاستعارية لكثير من هذه الأجزاء أو لها كلها (ويصح هذا أيضًا في الأقسام الأخرى من المعجم العربي، لكننا سنركز هنا على أعضاء البدن من أجل المقارنة). وقد روى لي سعد الصويان أنه يندر أن يوجد أي عضو مهما صغُر من أعضاء البدن التي يمكن أن تسمى إلا ويستعمل هذا الاسم بصورة استعارية في تسمية المظاهر الجغرافية. أما الارتباطات الروحية [لهذه الأسماء] فسوف نتكلم عنها بعد قليل.

وقد تهيأ *للعربية* أفضل ما يمكن من الظروف، إذ طوّرت أدبها في ظل ظروف حضارة وإمبراطورية[66] مع احتفاظها بصورة الحياة البدوية كما تتمثل في الشعر الجاهلي. وليس خافيًا مدى الثراء الشّعري في اللغات التي تنتمي إلى الحضارات العالمة؛ لكنْ ما الذي يمكن لنا أن نتوقعه من غنى في المصطلحات عند شعب متخلف تقنيا؟ ولا شك أن هذا الغنى يعتمد على ما تتصف به تلك الثقافة من خصائص محدّدة. فحين يكون المرء محدودًا بحدود العيش في منطقة ريفية ويقضي أيامه بشكل متكرر في حرث الأرض، ثم يتهالك تعبًا وينام نومًا يخلو من الأحلام ولا يقابل وجوهًا جديدة أو ظروفًا جديدة، فإنه لا يُتوقع منه أن يكون مشغوفًا بالتأنق في صياغة الكلمات. أما إن كان يغيّر من نمط حياته أحيانًا عن طريق الغزو حيث يقطع مسافات طويلة توجب عليه أن يتعرّفها بشكل دقيق لكي يحيا، ويقيم علاقات مع القبائل المجاورة والمجموعات اللهجية الأخرى أو يقطع هذه العلاقات، مُعليًا من قيمة الكَرَم، وما يتصل بها من الخطاب اللفظي، حتى يصل بها إلى مركز الاهتمام، مدخلاً البهجة على رفاقه حول النار بشِعر "الفَخْر"، وهي الكلمة التي تترجم أحيانًا بمصطلح "الاعتداد" بالنفس، لكنه اعتداد مصحوب بالثناء البليغ على الذات، محدثًا تغييرات متجددة على الدوام في المواضيع القليلة الممكنة ـ كالترحال الفردي، وارتحال المحبوبة، ورؤية الأشياء الجميلة القليلة، كالمطر والغزلان، في ذلك الفضاء القاسي ـ : فربما يمكّنه ذلك من اكتشاف الكائنات المحيطة به وماهياتها، ومن ثم تسميتها، وهو ما يماثل الظروف التي قابلها آدم في حينه وأمر بتسميتها. (وهذا كله تخمين بالطبع لكنه مما لا يستغرب أن يقوم به العقل).

ولا يمكن أن تكون الأوصاف التي أطلقها العربُ على المرتفعات والمنخفضات في بدن الإنسان، وهي الأوصاف التي لا تختلف عبر القارات والأجيال، مجرد مجموعة من الطوابع في ألبوم، إن كان حدسُنا صحيحا، بل تقتضي نوعًا من الوعي بالتفاصيل الدقيقة للمكان vector field ، اي أنها تشبه سهمًا ضئيلاً من الفِكْر يَبرُز من كل موضع محدّد له اسم. وتسمية الأماكن بأسماء مثل "المشط" [الخُف] أو "الخِصْية"، أو "المصعص" [عُجْب الذَّنَب] (والاسم الأخير في الواقع عبارة، من حيث الشكل، لكنه يشبه الكلمة البسيطة لأنه ليس تأليفيًا من حيث الدلالة) تشبه تسمية التلال والشعاب الصغيرة التي ربما لا يمكن أن تكون ضمن الأسماء الجغرافية [لولا التسمية]. فإذا لم يُسمَّ مظهرٌ مكانيّ محليّ معيَّن فمؤدى

ذلك أن يعيش الإنسان في جوار مكان مجهول، كما يُحتمَل أن يَمتَد ذلك إلى المظاهر الجغرافية المجاورة له أيضا، وذلك شبيه بأنك إن لم تكن قد سُمِّيتَ فربما لا يكون بإمكانك أن تكون شيئًا موجودا. لكن سمِّ مكانًا ما باسمٍ ما، وليكن: Briarberry Hill "تل برايربيري" [وهو لا معنى له] وعندها ستجد أنه صار مَسكونًا كشجرة مسكونة بالحُوريات، فسوف تتسلق الحشائشُ والأشجار الزاحفة سفحَه بشكل يشبه صعود قمة إفريست لاكتشافها، وستقول إن فئران الحقول التي أتت إلى حديقة منزلك في غير وقتها "لابد أنها جاءت من تل برايربيري"، جالبةً معها تلك الذكريات التي لا تُنسى عن المكان الذي تعيش فيه، ورحلاتها مع حيوان الخُلد والليالي الصاخبة التي قضتْها في قاعة تود Toad Hall . كذلك لا يمكن لنا أن نرى the small of the back "العصعص" الذي يقع في أسفل ظهورنا لكننا نستطيع عن طريق اللغة أن نعرف أن لنا "عصعصا" يتماثل في مَلامسَه وميزِته مع الطحال، وربما أمكننا أن نتأمل منطلقين من "صِفْرِه" حين نحاول أن نتخيل كيف يمكن لنا أن نحشُر هذا الكم الكبير من الأمعاء في داخلنا التي تقول الشائعات إنها طويلة جدا.

أما أمثلة أسماء أعضاء البدن التي تسمى في العربية بطريقة أكثر اختصارًا مما هي في الإنجليزية فهي:

"تَرْقُوة" collar - bone (أما كلمة clavicle فليست حية ولا شائعة)

"مرارة" gall bladder

"ذَلَق" tip of the tongue (وهو ما تفعله العبارة الإنجليزية في أحد التركيبات في إحدى التعبيرات المتلازمة بـ: ... right on the "على طرف لساني")

"أنمُلة" و "بَنان" ويسميان كلاهما fingertip

"قَذال" back of the head ، Hinterhaupt (أما occiput فمصطلح تقني وغير معروف عند أكثر المتكلمين).

"عِرنين" bridge of the nose

"عُذْرة" maidenhead (أما hymen فمصطلح تقني)

"إحليل" urethra (وليس هناك كلمة متعارف عليها إطلاقًا في الإنجليزية، إذا استثنينا المصطلح الطبي).

'خيشوم' cartilage of the nose (في قاموس هانز فير) أو upper part of the interior of the nose (في قاموس لين)[انظر معجم القطيفة]

'ساعِد" forearm

'عَضُد" forearm وتقابل بـ 'ذراع' forearm together with the hand (كما يقول معجم A. Boudot-Lamotte)

"ضَبْع" upper arm

"ناصية" forelock

'عِذار" (down on the) cheeks))

"راعِف" tip of the nose

'دَرَق' thyroid gland

"قُلْفة" foreskin

'دَغيصَة" ((patella) kneecap). (وpatella مصطلح تقني)

"عصعص" coccyx

'رسْغ" (wrist or ankle (thus like limb, vola)

" حَرْقَدَة" Adam's apple

'جَفْن" eyelid

"هُدْب" eyelashes

'ناب" canine tooth (أما "ضِرس" فهو molar tooth ، لكن لا يمكن إذن أن نقول إلا molars "أضراس" وحسب. وقد ذكرتها على أية حال لأنها تستعمل في الاستعارة بشكل أكثر من molar الإنجليزية).

"ناجِذ' [ضرس العقل] wisdom tooth

"يافوخ" crown of the head (أما mould فمهجورة).

"بوع" metatarsal bone

"باه" (semen (was t. t) وهو مصطلح تقني)

"بظر" clitoris (وكانت تستخدم مصطلحًا تقنيًا إلى زمن قريب)

"حنجرة" voice box (larynx : مصطلح تقني) ، لكن "حنجرة" تعني throat كذلك، ومن الممكن أن يكون لدينا هنا أيضًا شيء من عدم الدقة في كلمة throat التي يمكن أن تعني: 'neck; gullet' "رقبة" بدلاً من كونها تسميةً عامة hypernym مثل: paw or limb "طَرَف")

"ثندؤة" male breast

"صماخ" auditory meatus

يضاف إلى ذلك عدد كبير من الأفكار الكيفية المشفَّرة بطريقة مقتصدة للدلالة على هذا التركيب أو ذاك في التركيب العضوي للجسد أو لخصائصه، ومن ذلك:

"أبخق" one-eyed ، وهي في الأسبانية tuerto

"أحور" having eyes with a marked contrast of black and white

"أحول" squint – eyed

"أدلع" (large – toothed (Hava))

"أرح" flat - footed

"أحدب" hunchbacked

"أكتف" broad shouldered

"أكتع" having crippled fingers

"أجبَه" having a broad, fine forehead

"هَدِب" having long eyelashes

"فقاء" large of yoni

"متكاء" 'mutukk' large of

"راجح" callipygean

"كاعِب"، "كَعاب" 'buxom' = having swelling breast)

"آذَن" long - eared

"أياريّ" long – yarded

"زَعِر" thin - haired

"سَبْط" lank - haired

"أجعد" curly - haired (أما ulotrichous, leiotichous, etc فهي مصطلحات تقنية جداً، ويمكن أن تكون صالحة لترجمة هذه الكلمة عند من يعرف هذه المصطلحات).

"قَلَح" yellowness of the teeth

"أقعس" pigeon - breasted

"أعمش"، "أغمص" blear - eyed

"أعيَط" long – necked

"أشقر" ,fair - complected، fair-haired،(blond of hair only)

"أشيب" grey - haired، (hoary) لكن يبدو أن هذه الكلمة، التي هي hoary نفسها، لا تستعمل في الوقت الحاضر بمعناها الحسي ـ أي بأي معنى يماثل سهولة الجذر العربي [ش ي ب] بمشتقاتها المتعددة، في الأقل).

"أنافيّ" 'nâsûtus' في اللاتينية، (الذي له "كَرنيفة" 'a 'large nose (أنف)).

وكذلك الأفعال:

"فَجّ" to part the legs

"قَرفَص" to sit with arms around drawn - up knees

"فَرشَخ" to stand with legs apart

to bow one's head "طأطأ"

to raise one's head proudly "سَمَدَ"

to rubberneked "اشرأب"

to lose one's teeth "دَرِدَ"

to be gap - toothed "ثَرِمَ"

to have bushy eyebrows "وَطِفَ"

"شَطَرَ"، "اقْبَلَّ" 'to be squint-eyed' (= *to squint*) بمعنى هذا الفعل الذي يدل على "العادة".

"ضَلُعَ" to be sturdy (ولها صلة بالكلمة "ضِلْع"، لهذا تبدو كما لو أنها تعني -to be rock ribbed

to snap the fingers "زَنْجَرَ"

"تمخمض" to rinse the mouth (قارن بالكلمة الإنجليزية gargle)

"نفـ"، "مخط" to blow one's nose (وفي الفرنسية كلمة بسيطة لهذا المعنى وهي se moucher).

to break wind noiselessly "فَسا"

to smack one's lips "تمطّق"

ـ هذا إذا لم نذكر أفعالاً كثيرة مشتقة من الأسماء بمعني "ضرب على..." مثل: "تَرَقَ" [ضَرَبه على ترقوته]، "جَبَهَ"، "ضَلَعَ"، إلى آخر ذلك، وأفعالاً كثيرة بمعنى الصفات التي أوردناها أعلاه، مثل: "احدودب" to be hunchbacked ، وهي في الفرنسية porter son paquet

to have long eyelashes "هَدِبَ"

وبعض هذه الكلمات، وإن كانت تتضمن جذرًا واحدًا فقط، لا تزال مؤلَّفة تأليفًا دلاليًا ضعيفًا. فلا تعطي اللغة العربية مثلاً كلمة "أكْتَف" تمييزًا منفصلاً عن كلمة "كَتِف"، ذلك أن صيغة (<أفعل> +عضو البدن) تميل إلى أن تعني "يتصف بـ"؛ بل إن "هدب" أيضا،

في مقياس الوصف العادي غير التوكيدي، ليست "مُعْجَمِيَّة" مستقلة عن "هَذَب"، لأنه لا يَحتمِل أن يريد شخصٌ ما ببساطة أن تعني صفةٌ ما "له هَدَب" (وإن كان هذا محتملا، قارن بـ caudate "له ذنب")، وبخاصة حين يمكن للشيء نفسه أن يوصف باستخدام صفة متضامة جدًا بأنه "ذو هدب". وتبدو بعض الكلمات الأخرى كأنها مشتقة لكنها في الواقع غير ذلك إذ إنها ليست مؤلفة. فالجذران [<ح ول>، و <ح ي ل>] يتصفان بأنهما متعددا المعاني حتى إن من الصعب أن تحدس معنى كلمة "أحول" squint– eyed (أو "أحيَل" crafty)، كما أن الجذر<ق ب ل> الذي يعني "مُقَدَّم" لا يؤدي بسهولة إلى الفعل "اقْبَلّ".

وبغض النظر، ربما، عن الغرائب التي عثَرتُ عليها في مقال كازيمرسكي وهي التي لم تظهَر في قراءاتي البريئة المحدودة، تبدو هذه الكلمات حقيقية في *العربية*. لذلك ليست "التراقي"، تابعًا باهتًا لمجموعة من العِظام التي لا أسماء لها بأية حال، بل هي بوابة النَّفَس حين يُقارب الإنسان أن يلفظ آخر أنفاسه (وفي العربية، بالمناسبة، كلمة بسيطة للدلالة على هذا النفس الأخير وهي "رَمَق")، وقد وردت في القرآن ("كلا إذا بلغت التراقي"، سورة القيامة، الآية ٢٦)، كما وردت في كتاب "الحكايات العجيبة"، تحقيق هانز فير، ص ١٠٦، بلفظ: "وقد بلغت روحُه إلى التراقي" his soul had reached the collar-bones (وهي فكرة مُقولَبَة لكنها ليست عبارة جامدة). وحين تتغلب نزعةُ النكتة تُقيم الإنجليزيةُ بعضَ الارتباطات مع الـ gall bladder "المرارة" لكن هذه الارتباطات اختفت الآن (وقد رأيتُ بعض الأمريكيين من خريجي الجامعات الذين يظنون أن gall bladder ليست إلا كلمة متحذلِقة للدلالة على: bladder ، مما يشبه دلالةَ عبارة: high noon "عِزّ الظهيرة"، على noon "الظهيرة")؛ أما كلمة "مرارة" فكان حظها أحسن. (ومن المؤكد أن العربي المعاصر متوسط الثقافة ليس بأكثر قدرة على معرفة مظاهر الغنى في *العربية* من قدرة الأمريكي المتوسط المعاصر على معرفة ما يحويه معجم أكسفورد للغة الإنجليزية. وأنا هنا أخفف من قبضتي المنهجية الحديدية، ممتنعًا عن إجراء المقارنات من أجل تعديل أي خلل في أي مقياس، ذلك لكي أتمكن من مرافقتك في جولة عامة على هذه المسائل). ونحن نرى ارتباطًا كلاسيكيًا في القول المأثور: "تنفطر مرارته من الخوف" (دي ساسي Chrest. ص ٣٦): he

his gall bladder will burst for :(وتعني حرفيًا) will be paralyzed with fear

fear) لا يزال مستمرًا إلى الوقت الحاضر في العبارة: "انشقت مرارته غيظًا". وهذا هو ما نحتاجه إن كان للكلمة أن تُستعمَل - أي إن كان يجب أن يُعوِّض عن تضائلها الشكليُّ عن طريق الاستعمال. ومن هنا فلا يمكن للحنك أن يظل قابعًا بشكل سلبي أسفلَ الفراغات الأنفية كـ"الصائم في يوم العيد" فيما تتصارع "خلايا الذوق" (وهو اسم ملائم جدًا لها) أسفل منه وتستمتع بمذاق الطعام؛ كما لا يمكن "للمرارة" أن تكتفي بأن تنفطر خفية، مما ينتج عنه أن تنضم "الصفراء" إلى قائمة الأعضاء الثرارة الرخوة عديمة الشكل والاسم تقريبًا ويصعب تمييزها من غيرها، ولو كان الأمر على هذه الحال لاكتفينا بترك التعامل معها للطبيب الشرعي. لكن الأمر على العكس من ذلك إذ إن هذه الأعضاء تريد أن يكون لها منزلة، أي a violon d'Ingres "ألديه هواية"، أو يكون لها شيطان تُحَفّ به أسطورة غريبة.

وفيما يأتي بعض الأمثلة الأخرى على هذا التنامي الدلالي، حيث نرى الأشكال البسيطة تزدهر:

فبغض النظر عن الارتباطات لكلمة "إصبع"، وهي الارتباطات التي لا تقل فيها الإنجليزية عن العربية من حيث الغنى، نجد كلمة "أنامل" لعزف الآلات أو (تحت الاسم البديل "بَنان" في القرآن، سورة الأنفال، الآية ١٢، "واضربوا منهم كل بنان") حيث يُعضّ عليها من الغيظ أو أن يقطعها المؤمنون تنفيذًا لأمر الله - قارن بالعبارة الإنجليزية rap someone's knuckles "اقطع بنانه" حيث knuckles مثل fingertips "بنان" كلمة بسيطة. ويمكن أن تُستعمل كلمة "بنان" في وظيفة استعارية بشكل شبيه بالعبارة الإنجليزية my little finger: "ليس لِحيٍّ فوقهم بَنانه" (أو طول العقدة الأخيرة joint (كما ورد في قاموس لين). أما في الإنجليزية فالشيء الوحيد الذي يمكن أن تعمله fingertips "أطراف الأصابع" هو أن تدع شيئًا ما يكون "في متناولها" 'at' them .

وقد أورد بودو لاموت (١٩٧١) قائمة بالقِيَم الاستعارية لعدد من أعضاء البدن في اللغة العربية مُوحيًا بأن هذه الكلمات البسيطة حية وفاعلة بقدر ما توحي به أشكالها السهلة. ومن ذلك أنه يمكن لكلمة "جَفن"، في المثل القائل "إنه لشديد جفن العين" أن تعبِّر

عن القدرة على السهر الطويل في الليل. (ولا يفيد هذا المثال شيئًا بصورة مباشرة في مسألة تأييد فرضية ستوكس، ذلك أن كلمة "عين" زائدة هنا ـ بصورة غير معهودة، وهي غير ضرورية لأن كلمة "جفن" غير غامضة). ويبدو أن الكلمة الألمانية البسيطة Lid القصيرة جدًّا تعيش حياة ضعيفة بعض الشيء، ولم تصبح هذه الكلمة مهذَّبة well -profiled إلا مؤخرا (فقد كانت في كتاب جريم Wörterbuch لا تزال تُظهَر على شكل Lied أي أنها مشترك لفظي؛ ولم تكتسب إلا مؤخرًا معنى خاصًّا مبتعدةً عن المعنى العام الذي ورثته الكلمةُ الإنجليزية lid ، وهناك صيغ كثيرة منافسة لها في الأشكال المحلية للغة الألمانية، قارن بكتاب Kluge : Etym. Wörterbuch s. v. . أما الكلمتان الإنجليزيتان المنحوتتان eyelid 'جَفن العين' ، و eyelash 'هَدب العين [الرِّمش]' فليس لهما ذلك الطنين، ومن الصعب أن نعثر على سبب لذلك إلا إذا كان السبب هو أن شكليهما يعيقانهما دلاليا. وهما تتحليان بقوة تعبيرية أصيلة، قارنهما بـ hooded gaze "النظرة المُقنَّعَة"، و batting one's lashes "يتلمس جفنه'. لهذا فإذا لم تحصل eyelashes على ما تستحقُّه من مكانة نصِّيَّة كاملة فيمكن أن نظن أن سبب هذا يعود جزئيًا إلى أنها مؤلفة تأليفًا حَذِرا، كما أن كلمة lashes متعددة المعاني بأكثر مما ينبغي (قارن الجملة الصحيحة: She *eyed* him as he *mouthed* fair words "كانت ترمُقُه وهو يتشدق ببعض الكلمات الطيبة' بالجملة غير الصحيحة: *She *lashed* him as he *lidded* her 'كانت ترمقه فيما هو ينظر إليها" [باستخدام كلمتي 'رمق، وجفن']. ويمكن أن يتيح إمكانُ ارتباط lash بـ bat ، بما تتصف به bat من تحديد لمفعولها أن يكون إما nod 'إيماءة'، أو shrug "إعراض"، استعمالَ كلمة lash فقط؛ لذلك أصبح من الممكن لهذا التعبير الذي قُصِّر بهذه الطريقة أن يتوسع دلاليا: without batting an eyelash/ ~ a lash وهو ما يعني 'من غير أن يحرك شعرة واحدة" [من غير أن يُقدِّم له أدنى قدر من المساعدة].

وأكثر ما يلفت النظر في المعجم العربي أن أعضاء البدن لم تُسَمَّ بإسهاب وحسب، كما هو ملائم لِلُغة تفخر بابن سينا، بل تتميز كذلك بتسمية هذه الأعضاء في مستويات

متعددة أحيانًا مستخدمةً كلمات مترادفة أو قريبًا من المترادفة. ومن ذلك ما أورده بودو لامت:

"الأنف في الأساس محل الشرف والاعتزاز "أَنَفَة" وكذلك المفردات الأخرى الدالة على الأنف أو جزء منه أو أية صفة من الصفات التي تتصل به".

Anf. Nez. . . . Essentiellment siège de l'honneur et de la fierté (*anafat*) ainsi que les autres termes désignant le nez, une partie du nez ou une qualité s'y référent

(انظر: "خُرطوم"، "خرنطم"، "خيشوم"، "مَرْثِم" "شَمَم"، "عِرنين".)

ويبدو الوضع للوهلة الأولى شبيهًا بما كنتُ قُلته عن الكلمة tête "رأس" في الفرنسية، ذلك أن من الواضح أن "أنف" هي العضو الرئيس (وإن غطى عليها الجذر <خ ش م> في كثير من اللهجات، حيث يحتل المكانة الأولى، بل المكانة الأبرز كما هي حال الكلمة الفرنسية chef)، لكنْ ليس من بين الكلمات التي أوردتُ كلمةٌ يمكن وصفُها بأنها عامية أو مصطنَعة أو تقنيّة بشكلٍ يشبه حال الكلمة الفرنسية hure ؛ ولم أورد بعدُ (عن قصد) كثيرًا من الأسماء الكنائية المستعمَلة تزامنيًّا في تسمية أعضاء البدن مثل "العارضان"، مما يمكن مقارنته بنوع الكلمات *écluses du cerveau* (nez) ، أو throns de la pudeur (joues) التي حلت محلها كلمة precieuses .

كما يبدو أن الكلمات المختلفة القريبة من الترادف لا تزال تحيا حياة نشيطة لافتة؛ فهي ليست كلمات أدبية مهجورة كالكلمة الإنجليزية orb التي تعني: "عين"، أو welkin التي تعني: "سماء". (وأود أن أؤكد مُجدَّدًا أننا نتكلم هنا عن "حياة نشيطة" *تتجاوز ضرورات الأشياء التي تحيل إليها*، كما هي الحال في كلمتي: palm أو palate. بل إن كلمة Automobile "السيارة"، أو كلمة car أيضًا لا تحييان حياة نشيطة في الإنجليزية، وإن كانت "السيارات" نفسها تعيش حياة نشيطة وهو ما يجعل لهاتين الكلمتين نسبةَ تكرارٍ نصِّية معاصرة كبيرة). ويمكن أن يكون لهذه الحقيقة صلة بالأشكال البسيطة لهذه الكلمات، إن وَثِقْنا بمسألة الارتباط بين الشكل والاستعمال: وإن لم يكن ذلك ممكنًا إلا بالمعنى المساعد لفكرة "الشروط" Bedingungen عند هافيرز، وهو ما يعني "قوى الدفع" Triebkräfte

الذي ينبع من التوجه اللغوي للعربية الذي يتمثل في دخول الكلمات القديمة ضمن المعجم الأدبي التزامني الذي يجعل الكلمات القديمة تحيا حياة نشيطة شيئًا ما (انظر الفصل السادس). خذ مثلاً كملة "خيشوم" التي لم يذكر بودولاموت أية معلومات عنها عدا ترجمتها بـ extrémité du nez "طرف الأنف الأقصى". والمرجع العضوي الدقيق الذي تُحيل إليه هذه الكلمة مُشْكل بعض الشيء. وقد اقترحتُ في الفصل الأول أنه يبدو أن في العربية قدرًا أكبر من المألوف من الترادف، وكلمة "خيشوم" مثال على ذلك. فإذا كانت هذه الكلمة لا تعني إلا "طرف الأنف" حقيقةً فهذا يعني أن مقدار الترادف في "أنف" ليس أكثر من الترادف في كلمتي hand و arm (كما أنني لا أوحي بالطبع بترادفٍ تامٍّ بالمعنى الذي يُوحيه الارتباطُ العضوي، فكل ما أوحي به هو عدم وجود تمايز في المحال إليه ـ وإن كان ينبغي أن نشير إلى أن الأشكال القريبة من الترادف لكلمة "أنف" تبدو *كلها* كما لو أنها تشترك في المعنى الاستعاري: "الشَّرَف"). ويترجم فير هذه الكلمة بـ: nose "أنف"، و gills "منخران" في العربية الأدبية المعاصرة، ويترجمها هافا بـ: cartilage of the nose "الطرف الرقيق من الأنف" في *العربية* (كما يُترجم جمعَها في اللهجة السورية بـ: gills)، ويترجمها لين بـ: upper part of the interior of the nose "الطرف الأعلى لداخل الأنف". وهو ما يبين أن العُمْيَ لم يتفقوا على وصف الفيل، ويبدو أنهم يختلفون حتى على خرطومه. وبمقارنتها مع كلمة palate تستعمل "خيشوم" (في حال الجَمع) مرتبطة "بموضع الشم" كما في كتاب الأيام لطه حسين (ج٢، ص ٣): "دخانًا خفيفًا يداعب خياشيمه". كما أن الإشارة في معجم لين إنما هي لشكل البروز كله في "خياشيم" حيث أشار إلى prominences of mountains "الأطراف البارزة للجبال" [ولا تزال بعض اللهجات المعاصرة تشير إلى الطُّرف البارز من الجبل بـ "خشم". انظر مثلا تسمية طرف الحرة المشرف على وادي العقيق في المدينة المنورة بأنه "خشم القَدَمَة"، و"خشم العان"، في الرياض]. كذلك فالبؤرة الحِسِّية هي الأساس في الفعل "خَشَمَهُ" المشتق من الاسم "الذي يعني "كَسَر أنفه"" (لين)، كما أن الوظيفة هي الأساس في جملة "خَشَمَه الشرابُ" التي تعني "صعدت رائحة الخمر إلى خيشومه"، وهو ما

جعل قواه العقلية "تتخشّم" بمعنى "أنه فقد وعيه نتيجة لصعود رائحة الخمر إلى خياشيمه". وهذا شيء رائع، حقيقة. أما في الإنجليزية فيمكن لكلمة nose ، مثل كلمة "أنف"، أن تُبين عن طبقات عديدة من الدلالة وأن يكون لها عدد من الارتباطات الحاذقة (مثل: Nosy Parker "باركر ذو الأنف الكبير" [الأنافيّ]، و to nose s. o. out "تطرد أحدًا عن طريق الإشارة بالأنف"، و"الأنف الأزرق" bluenose إلى آخره)، لكن لا يمكن للكلمات الفرعية أن تتصرف بمثل هذا (فكلمة nostril "فتحة الأنف" الآن، مثلاً، كلمة بسيطة، أما bridge of the nose "عرنين" فكلمة طويلة ولا يمكن اختصارها، وكذلك المصطلحات مثل sinus "الجيوب الأنفية" و septum "الحاجز بين شقي الأنف" هي الآن جزء من الكلام اليومي العادي لكنها توحي بأنها طبّية متخصصة).

ولْنُلقِ الآن نظرة على مجال آخر من مجال الكلمات، وهو الذي يعطينا صورة مماثلة للتّحيل القريب من المرادف، أي الاستعمالات الاستعارية التي تتلعّب بحُرية وجرأة بالتعبيزات الإحالية بشكل قد يماثل جرأة كلمة $palate_2$ على التلعب بعلم وظائف الأعضاء.

فهناك كلمة مهمة في العربية للدلالة على العين هي كلمة "عين"، وهي تشبه كلمة eye في الإنجليزية من حيث وجودها في استعمالات مجازية كثيرة جدا. لكن يوجد في العربية، على خلاف الإنجليزية، مصطلح آخر هو "مُقْلَة" التي تعني بدقة "بؤبؤ العين" لكنها في الاستعمال اليومي لا تعني في الغالب إلا الـ "عين" أو بعض المعاني القريبة التي يمكن أن يعبَّر عنها بورود كلمة "العين" كما في eyeball "حدقة العين" في الإنجليزية، وكأن الغرض من ذلك أن تُصان كلمةُ "العين" من كثرة الاستعمال، ومن ذلك ما يقوله ابن الرومي:

ذاد عن مقلتي لذيذَ المنام　　　شغلُها عنه بالدموع السِّجام

وتعمل الإنجليزية الشيء نفسه بكلمة to eyeball = to eye "تنظر، تحدق". (واستعمال الإنجليزية هنا لمصطلحٍ أقلّ تضامًا في اشتقاقٍ مثل هذا جدير بالملاحظة، ويمكن أن يفسَّر ذلك، من غير شك، بالقيمة التعبيرية لكلمة ball كما في ball the jack،

و highball ، بالإضافة إلى المعنى الجنسي، بالطبع، الذي يتناغم مع الارتباط الدلالي الذي تعبِّر عنه الكلمة to ogle "يرمق بحب"؛ قارن أيضا بـ .give s. o. the hairy eyeball "أعطِه مقلةَ العين الهَلْباء". لاحظ أيضًا أنه لا يزال يجب على هذه الصيغة المنحوتة أن تكون متضامَّة شيئًا ما لكي تُسمَح بهذا الاشتقاق والتوسع؛ ذلك أن الفرنسية لا تستعمل التعبير globe oculaire "مُقْلَة" استعمالاً موسَّعًا). وبشكل مماثل لا تعني "حَدَقة" إلا "بؤبؤ"، بل لا تعني في الغالب إلا "عين" أو "نظرة" وحسب. وتختلف العربية عن الإنجليزية وقريباتها في وجود كلمة بسيطة شائعة بعض الشيء لتسمية داخل الجفن، وهي كلمة "مُوق". (وهناك بديل لها هو "مَأْق"). ومن هنا يمكن أن تبدأ مقدمات القصص في "ألف ليلة وليلة" بالعبارة: "لي حكاية لو كُتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر". وهنا نرى أثرًا مُحتمَلاً لفرضية ستوكس، وهي المثيل اللساني لقانون ساي Say [في الاقتصاد]: يُساعِد توفُّرُ الكلمات السهلة على زيادة الطلب عليها. ذلك أننا نجد في المثال المذكور آنفًا أن المُحال إليه، وإن كان حسيًا في الظاهر، إلا أنه مجازي في الواقع، بل هو اعتباطي ـ وهو قريب الشبه بمثال palate "الحنك" و petits four "المعجنات". فنحن نحتاج ببساطة إلى مكان للإبرة المتخيَّلة لكي نكتب مضمونَ هذه الرسالة اللطيفة. وفي رواية كافكا Penal Colony تُكتب الرسالة على ظهر المحبوب؛ أما في ألف ليلة وليلة فتُكتب في مكان ضعيف جدًا في الواقع الحسي، لكنه هو الذي يتوجب إرضاؤه معجميا.

بل تُستعمَل الأهداب نفسها كذلك، إذ تُشفَّر بكلمة أحادية الصرفيَّة، كما في قول لويس عوض:

"نرفع أهدابَنا إلى الأمواج في الأفق"

(انظر الخوري والجار ١٩٧٤ : ص ١٤٠)، وقد ترجماه بصورة مُرْضية بـ:

we raise our *eyes* to the waves on the horizon

ومع ذلك لا يزال من الصعب أن نقرر ما إن كانت هذه الحالة تتوافق مع فرضية ستوكس أم لا، وذلك للأسباب التالية:

١ـ هناك عدد كبير من أسماء أعضاء البدن في اللغة [العربية] الأدبية وهو ما يمكن أن يكون سببًا للإرباك، إذ إن فيها عددًا أكثر من اللازم من الأسماء لـ "الذراع" أو "الرَّقَبة" أو "الأنف"، وهو عدد كبير لا يُمكّن من الوفاء بمتطلبات مبدأ "التهذيب" well – profiledness بصورة مُرْضية، وربما يَجعَلها شبيهةً بكلمتي Handfläche ~ Handteller بل هي أسوأ. ويمكن إحياء سمة الصورة المهذَّبة الحاسمة ببساطة حين تُعَد هذه الألفاظ مترادفة تقريبا، وهو ما يعني أن كل واحدة منها تُستَخدم في تسمية مناطق متمايزة وإن كانت على وجه الاحتمال متداخلة (مثل: brachium و lacertum ، و thigh "فخذ"، و leg "ساق"، وفي العبرية: yad و zroʿa)، لكنَّ النصوص التي اطلعتُ عليها لا تُقدِّم أدلةً واضحة تؤيد التمايزات العضوية الدقيقة التي نجدها في المعاجم. ونحن أحرار، بالطبع، في أن نُعدِّل من تعريفنا لمبدأ "مهذبة" well-profiled اعتمادًا على استقصائنا العلمي. فربما كان عدم وجود منافِس في معنى معيَّن معيارًا ثانويًا ـ ذلك أن المثال الألماني Handteller ، في الواقع، لا يعدو أن يكون مثالاً وحيدا ـ وعندها يلزمنا أن نبحث عن معايير أخرى، ولا يستثنى من ذلك العوامل غير اللغوية.

٢ـ وكون الكلمة بسيطة صرفيًا لا يُمثّل إلا البداية وحسب؛ ذلك أنه يمكن أن تكون كلمة ما غير أساسية تمامًا في المعجم. فالكلمات: palm "راحة الكَفّ"، و clavicle "الترقوة"، و glabella "مفرق الحاجبين" كلها كلمات لاتينية مقترَضة في اللغة الإنجليزية، غير أن الكلمة الأولى تتميز بأنها دخلت الإنجليزية وصارت أساسية، أما الثانية فدخلت الإنجليزية لكنها ظلت غير أساسية (إذ لا يزال الناس يفضّلون أن يقولوا: collar-bone "عظم الترقوة")، أما الثالثة فلا يَعرفها إلا المهووسون بالمعاجم، أي أنها لم تدخلها إطلاقا، وذلك بغض النظر عن الطرافة المحتملة لما تُحيل إليه (وهو تلك القطعة من الجِلْد التي تختفي كحوريَّة بين طَرَفَي الحاجبين عند شخص ذي حاجبين مقرونين، وهو ما كان يفضّله المترفون في بغداد العصور الوسطى ـ وهو ما لا يروق لأذواقنا، لكنه يمكن أن يُقارَن بشعبية كلمة muff "الفرو، أو الشَّعر الكثيف" قديمًا بين الأوروبيين بناء على التشاكل بينهما). والخلاصة التي أراها أن تلك المشاركة في التعبيرات المجازية المعهودة، بداهةً، دليل على حياة في الكلام

أغنى من حياة كلمة glabella ، غير أنه لا يزال هناك دائمًا عاملُ "سويداء القلب" cockles of the heart التي لها صلة وثيقة خاصة بالاستعارات الموروثة من القرآن.

ويتمثل النقيض لفرضية ستوكس في فَقد الكلمات البسيطة من لغة معينة أو إهمالها بصورة دائمة. فقد استُسْلِمتْ كلمة Folm للكلمة: palm ، واستسلمت hock "عرقوب"، و vole للإطناب، أما nape "مؤخرة الرقبة" فلم تُستعمَل الاستعمالَ الذي تستحقُه. ولا يقتصر الأمر على أننا قلّما نُحيل إلى هذا الموضِع، ونُحرِمه من الاستعمال المجازي (أي أننا لا نستعمل التعبير: cricknaped "متشنج مؤخرة الرقبة" لوصف الشخص الذي يُمضي حياته وهو: cabizbajo "خانع الرأس")، بل إنه إذا ما أُحيل إليه، بوصفه مَمْسكًا لتثبيت الصغار أيديهم [حين يُحمَلون على المتن] (وهذه مرة أخرى صورة مادية لكنها ليست حرفية على وجه الدقة)، مثلا، فالأقرب أن يسمى بتعبير مَثَليٍّ طويل، مثل: scruff of the neck "مؤخر الرقبة".

فإذا كانت الكلمات البسيطة جميلة إلى هذا الحد، فما السبب الذي يجعل اللغات تستغني عنها، ولماذا لا تُبادر اللغةُ إلى تبسيط التعبيرات الأكثر تعقيدًا وتحوِّلها إلى كلمات أبسط عن طريق "التشذيب" كما هي الحال في كلمتي bus ، و taxi ، أو الدَّمج مثل lord ، و barn، والكلمة العربية "حَبَقَر"، وربما "مال"، أو الكلمات التي لا تُعرف أصولُها نحو elbow "مِرفَق"، و akimbo "خاصرة". وربما تفسِّر النقاطُ التالية ذلك:

١- يبدو ظاهريًا كأن الإنجليزية تخلَّت عن الكلمة الرائعة klaxon لمصلحة التعبير الطويل automobile horn "مُنبِّه السيارة". لكن كلمة horn "قَرْن" وحدها هي التي وَرِثت تلك الكلمة؛ ذلك أن السياق هو الذي سيبين في الأعم ما إن كنتَ تتكلم عن "سيارة" أم عن "وحيد القرن". وربما كان هناك نوع من الاقتصاد النفسي في هذه الحالة. ويَستعمل [اللساني الأمريكي] يوريل فانرايخ استعارةً تتمثل في أنه إذا لم تكن ترغب في "حَشْر" مكتبتك بـ"سُلَّم"، فربما تضع كتابًا تحت قدميك، عند الضرورة، للوصول إلى الأرفف العليا. وإذا كانت هناك حاجة إلى الوصول إلى مكان أعلى في هذه المهمة، وهي التي قلَّما تُحدَث،

فيمكنك أن تلجأ إلى وضع كومة من الكتب، وهو ما يُماثل ارتجالك تعبيرًا طويلاً مثل: car horn أو automobile horn .

٢ـ وقلما يريد المرء أن تتخلى كلمة ما عن "التلازم اللفظي" collocation لتكتسب "التَّضمين" connotation. لذلك نستعمل التعبيرات المؤلفة من أجزاء rebarbative بوصفها مصطلحات تقنية، وذلك رغبة في إبقائها مصطلحاتٍ تقنية. وهناك ألق رَجْعيّ للتعبيرات المعقّدة. فالمثلُ هنا لصاحب البيت الذي لا يَملك سُلَّمًا أن يحتوي بيته مصباحًا كهربيًّا مصنوعًا ليبدو كأنه مصباح غاز، أو جهاز هاتف قديم. فتظهر في بعض الإعلانات المتنفّجة عبارات مثل: bank establishment "مؤسسة بنكية" بدلاً من bank، و wearing apparel بدلاً من clothes "ملابس"، و shirting بدلاً من shirt "قميص". ومرة أخرى يمكن لتصنيفٍ مُستقبَلي للعالَم أن يوجب أن تكون التسمية الصريحة للأجزاء التي تتكون منها الأشياء واضحة: فإذا كانت shelves "الأرفف" تباع الآن بصفتها wall system "نظام جداري"، فإن التنفُّج قد يَلعب دورًا في ذلك، لكن للنظام system دورًا حقيقيًّا يقوم به في تصنيف الأرفف في بيئة متكاملة.

٣ـ ويمكن لكلمة منحوتة، أو لعدد منها، أن تُروج لأسباب تصويرية، في مقابل الكلمات البسيطة، التي ستنخفض نسبةُ تكرارها من ثم، بل يمكن أن تختفي تمامًا في هذا الصراع كما هي العادة ـ وذلك مثلما حدث لكلمة chef "رئيس الطُّهاة" التي استسلَمت لكلمة tête ، وهي كلمة بسيطة أيضًا في هذه الحالة إلا أنه يبدو، في أصولها الاستعارية الخام، كأنها محكوم عليها بالاختفاء نتيجة لشيوع الأذواق المتقلِّبة التي تميل إلى التنكيت، كما حدث في العقد الماضي مما أدى إلى اختفاء كثير من التعابير المَرِحة في الدلالة على girl "بنت" أو أثر "ليلية البارحة" في الدلالة على drunk "سكران".

٤ـ أما استبدالُ تعبير منحوت بكلمة بسيطة فلا يحدث بخطوة واحدة. ذلك أن هناك عددًا من الأسباب التي ينشأ عنها فَقْدُ كلمة بسيطة بصورة مستقلة عن البديل الذي يَحل مكانها ويتصف بقدر مماثل من التضام (فقد صارت الكلمة الفرنسية الشمالية ameur تنصرف إلى نمط الحب بين الحيوانات، لذلك كان من الواجب إحياؤها عن طريق كلمة شبيهة بها من

الجنوب؛ وكذلك الكلمات الإنجليزية المأسوف عليها: ham, hough, hock التي لم تُعد تُستعمل فيما يتصل بحياة الإنسان بسبب استعمالها الآن في الأمور التي تخص الحيوانات؛ وبسبب الجناس الذي تكلم عنه [اللساني الفرنسي] جيليرون؛ بالإضافة إلى عدد كبير من الأسباب الخاصة). وعند ذلك سيُضطر الناسُ إلى التنقيب في معاجمهم ليأتوا ببديل لها؛ ولن يكون البديل بالطبع مجرد كلمة بسيطة قديمة أخلقها الاستعمالُ كثيرا.

٥ـ ويعمل هذا المنطق بطرق خفية. فيمكن أن يكون القِصَرُ معبِّرا (كما في: !pow "المحنْ") لكن الطُّول يمكن أن يكون معبِّرًا كذلك (انظر الفصل الخامس، عن هذه المسألة)، كما لا يمكن أن نحقق الطول من غير أن نجمع بعض الصرفيات إلى بعض أو أن نُدخِل بعضَ العناصر التي يُمكن تجزيئها في الأقل. بل يمكن أن تكون هناك قيمة جمالية للتعابير الحشوية من نوع: "جفن العين" Augenwimper ؛ مثل: rock of stone "صخرةُ حَجَر"، و fire of flame "نار اللهب"، و to eyeball "أن تحدِّق العين".

٦ـ وكما هو الأمر في حالات التغير اللغوي كلِّها هناك عامل يُسمى عاملَ "الله أعلم": (وهو الذي يمكن أن يترجم بصورة تقريبية كالتالي: "من المؤكد أنك لا تتوقع العثور على إجابة عن كل شيء في مقابل الثمن الذي دفعتَه في هذا الكتاب". والسؤال هو: ما السبب الذي يَجعَل اللغاتِ تتخلى عن بعض الصوتيات، أو التمايزات الوجهية aspectual، ولماذا تُضجَر من المثنى؟

ونلتفت الآن إلى منطقة "تركيبية صرفية" لنفحصها في ضوء فرضيتنا.

تقول ريبيكا ويست في كتابها الصادر في ١٩٤١، ص ٤٠٤:

"وفي الوادي التالي وَجَدنا كَهفًا أزرق عاليًا يشيع فيه السكون وشعاع الشمس، ثم جئنا إلى قرية خَرِبة تدعى: Vakuf "وَقْف". و Vakuf كلمةٌ تركية تعني "عَقارًا دينيا"؛ ولم أسمع من قبل أيَّ شيء أكثر تشجيعًا لي على عدم دراسة اللغة التركية من أن يكون جَمْعُ هذه الكلمة هو: Evkaf "أوقاف"".

والكلمتان اللتان أحبطتا ويست إلى هذه الدرجة، وهي التي تتميز فيما عدا ذلك بحبها الشديد للتعلُّم، مقترَضتان من العربية، ولا تُمثّلان، من حيث جذرهما المطواع، ما تتسم به عبقرية اللغة التركية الإلصاقية. فتمثل هاتان الكلمتان المتهوّرتان من حيث الشكل تطرفًا حتى في العربية. لكننا يجب أن نعترف أن العربية لا تتميز بصرف "مهذَّب" فيما يخص الجمع (وهو ما سبق أن اشتكينا منه في الفصل الأول)[١٢].

أما الإنجليزية، بالمقابل، فيظهر تميُّزها بالتهذيب أكثر ما يظهر في صياغة الجمع. ومع أن هناك بعض الجموع الشاذة، مثل oxen "ثيران"، التي تُحافِظ على جمْعِها القديم، وتنتهي بعلامة الجمع القديمة، وأبقي عليها حيةً كإحدى مظاهر الغرابة اللغوية، إلا أن القاعدة العامة للجمع في اللغة الإنجليزية هي إضافة s- إلى الاسم الذي يراد جمعه، كما أن صيغة الاسم المتبوعة بحرف s هي الصيغة الوحيدة التي تعني جمع الاسم[١٣].

ويتوافق الاطراد الصرفي للتمايز بين المفرد والجمع في الإنجليزية مع الاطراد التركيبي لهذا التمايز، إلى حد ما. أما في العربية فنجد تقسيمًا تركيبيًا وصرفيًا يتسم بقواعد للمطابقة معقدةٍ ومتنوعة بل غير منطقية. ولا تشمل فرضية ستوكس بصورتها التي أوردناها هذه الظاهرة بشكل دقيق، بل يمكن أن نصف العلاقة هنا بأنها علاقة بين شكل وشكل آخر بدلاً من كونها علاقة بين الشكل والاستعمال، لكنها تتصف بالتناغم مع فكرة أخرى أكثر تجريدًا تتصف هي نفسها بالتناغم مع فرضية ستوكس وهي الفكرة التي يمكن أن نسميها بفرضية مورتن التي تقول: "إنها لم تُمطِر وحسب وإنما هي تمطر بغزارة". ويعني هذا أن الاضطراب الصرفي سوف ينحو نحو التماشي مع الاضطراب التركيبي، والوضوح مع الوضوح؛ أي أن الإجراء المهذَّب صرفيًا أو تركيبيًا سوف ينحو نحو توسيع مَجالِه حتى يصبح أكثر اكتمالاً well-rounded ؛ أي أن الكلمة "التي تصاغ صياغة حيّة" سوف تنحو إلى أن يكون لها استعمال دقيق (ولا تعني الصياغة الحية ما يعنيه "التضام" تمامًا، ذلك أنها سوف تشتمل على بعض التركيبات التعبيرية كالأشكال التكرارية reduplications والصيغ المضعّفة التي تعبّر عن المعاني الموروثة أو المبالغة مثل "احدودب"، و"اشرأبّ"). ولا تتمتع هذه الفكرة العامة، فيما أظن، إلا بقدر ضئيل من الصحة، لكنها ربما كانت تستحق الذّكر بوصفها، ببساطة، سؤالاً إضافيًا يمكن أن نثيره في هذا المجال المثير الذي يكاد يكون مجهولاً وله علاقة

بالانسجام العام في أية لغة. فإذا كان هناك أي معنى أو انسجام لشكل المعجم في لغة ما، مثلاً، أو للطريقة التي يعمل بها الصرف فيها، فربما يُمكِن الحدسُ بأن هناك منظومة عقلية مماثلة تعبّر عن نفسها بكيفية معينة بوساطة المظاهر الأخرى في تلك اللغة، ولْنَقُل عن طريق الصواتة مثلا. وعلى أية حال، وبغض النظر عن قيمة الأمثلة التي سوف أوردها، فبعض الأمثلة المحتَمَلة الأخرى لمثل هذه الصورة "الطنّانة" لفكرة الترابط tout se tient ربما تكون: التمييزات الحَوْلاء والاندماجات في الضمائر في الإنجليزية (وهي تمثّل الحدّ الأدنى للمدخل المعجمي للكلمة الوظيفية تحت مقولة "اسم") التي تتماشى مع البقايا المتناثرة لتصريف الفعل to be "فعل الكَوْن" (الذي يمثل الحد الأدنى للمدخل المعجمي للكلمة الوظيفية للمقولة "فعل")؛ والخصائص الشاذة غير الواضحة لأدوات النفي في الفرنسية (وهي التي غالبًا ما تأتي على هيئة وحدتين غير متتابعتين)، مثل:

ne. . . pas
ne. . . guère
Personne ne. . .
ne V_1 ni ne V_2
ne. . .ni N_1 ni N_2

والتنوعات المتقلّبة للمكوِّنات الاسمية المنفية:

il a un/des/du livre(s)/ pain
il n'a pas de livre/pain

والكُتَلُ المتراكبة من القواعد الغريبة للإعراب والمطابقة في التعبيرات العددية في العربية؛ واطرادُ النحت المُكوَّن من "اسم + اسم" في الإنجليزية (الذي ليس له علامة) والتكرار غير المحدود لهذه القاعدة فيها؛ والاطراد الأقل نوعًا ما للنحت المكوَّن من "اسم + اسم" في الألمانية Trennung-s-partikel ، إلى آخر ذلك)، والتكرارُ الأقل نوعًا ما.

ولنعد الآن إلى ما كُنّا فيه: فالجمع في الإنجليزية مهذب well-profiled أما في العربية فلا. فما الكيفية التي تُستغل بها اللغتان هذه الموارد؟

ويتمثل نقيض فرضية ستوكس في أن الإنجليزية لا تُعطي التنوعات المطردة للجمع فيها شيئًا مهمًّا تؤديه دلاليًا؛ يضاف إلى ذلك أن الوسْم بالجمع يُوقَف في بعض السياقات،

وهو تُعدُّ على خصيصة التهذيب. (فالاختصاص الدلالي الوحيد للأسماء المبنية للجمع ـ pluralia tantum التي تدل على الأشياء التي تقوم على التأليف المتعدّد اللازم المتوازن، وبخاصة المتوازن في التثنية، مثل: scissors "مقص"، و tweezers "مِلْقَط"، و trousers "بنطلون"، و slacks "نوع من الثياب الفضفاضة للنساء"، و oats "دقيق الذُّرَة" ـ نجدها، على وجه الدقة، حيث لا يكون الجمع مهذبا: إذ إنه لا مفرد لها: a slack*). وأقرب ما نحصل عليه لا يزيد عن بعض العبارات المَثَلِيَّة حيث يكون للمجمع معنى خاصًا أو بعض الظلال، مثل:

down in the dumps

"في القمامة"

it's the pits

"إنها الحُفَر"

الخ.

وكذلك:

brothers / brethern

"أخ" [بجمعها جمعًا مطردًا [وجمعها بالعلامة القديمة]].

إلى آخره.

ويمكن أن تتخلّى الجموع عن الجمع المحدد وتنحو نحو الامتزاج ببعض الأفكار النوعية العامة غير المحدَّدة، على الرغم من عمل أدوات التنكير والتعريف في هذه الوظائف:

The iguana	dotes	
	"تشغف الإغوانا" [وهي دويبة استوائية]	
(?) An iguana	dotes	on insects
	"تشغف الإغوانا بالحشرات"	
Iguanas	dote	
	"تشغف الإغوانات"	
Monkeys do not use	*the instrument (Z. Vendler) ??an instrument	

instrument

'لا تستعمل القردةُ   الآلةَ [مع أداة التعريف]"
آلة [مع أداة التنكير]'
آلة [من غير أداة]"

Birds have   *the four-chambered heart (save in special context)
a four-chambered heart
four-chambered hearts (one each!)

'للطيور   *قلب بأربع حجرات (مع أداة التعريف إلا في بعض السياقات)"
قلب بأربع حجرات(مع أداة التنكير) '
قلوب بأربع حجرات' (لكل طائر على حدة)

ثم المثال التالي مع إمكان الوقوع في اللَّبس:

Snakes have vestigial lungs. (one out of each pair is vestigial)

"للثعابين بقايا [أثريَّة] من الرِّئات' (واحدة من كل زوج من الرئات أثرية).

وتقول فرضيتنا إنه يحتمل أن يُستغنى عن بعض التركيبات الثقيلة أو المختلَطة حين يَنشأ عن وجودها تعقيدٌ شكلي إضافي في تركيب ما، بل إن علامة الجمع، حتى في الجمع [ذي الصيغة] القصيرة، يمكن ألا تظهر في بعض التعابير المَثَليَّة، مثل: (bound him hand and foot 'أوثقوه يدًا ورجْلا"، في مقابل: head over heels "رأسٌ على عقِب' [والعبارة كلها جمع] ـ وهو ما يبين أن الحذف ليس مطردًا بشكل يكفي ليصير علامة تهذيب في التعبيرات المَثليَّة)، وكذلك في الصفات المشتقة (the young 'الشباب" [من غير علامة الجمع] في مقابل: les jeunes [مع علامة الجمع]، في الفرنسية)، وبشكل ضعيف في مفردات التعبيرات القياسية (وهي التي تتسم بدرجة عالية من عدم الاطراد التي لا تجعل لها أهمية دلالية؛ وبالمقابل، يمكن لعلامة الجمع الصِّفر [حيث لا توجد علامة جمع] في بعض

الكلمات مثل fish و game أن تتماسك إلى درجة تجعلنا لا نميل إلى عدِّها حالاتٍ من حذف علامة الجمع، وكذلك في الكلمة الأولى في التركيبات المنحوتة، مثل:

sunspots
motherfucker
Godfearing

(والمحال إليه مفرد في الجزء الأول من هذه العبارات المنحوتة).

can-opener
weed-killer
fire-worshipper

(والمحال إليه نوعي)

toothbrush
eye-glasses
scissorbill
oatmeal

(والمحال إليه جمع أو اسم جمع، مع حذف علامة الجمع المنطقية التي لو أبقي عليها لكانت من قبيل الجمع اللغوي الضروري).

road map (وهي خريطة، ليست لطريق واحد أو للطرق بصورة عامة، بل لجَمْع الطرق) في مقابل: road hog 'الشرطي الموكل بطريق مخصوص'، في مقابل: road worker (المدرَّب على العمل على الطرق بصفة عامة). و Bookmark "علامة في الكتاب" (لأي كتاب، لكنها تقتصر على كتاب واحد في أي وقت معين)، في مقابل: bookcase 'حقيبة كُتب" (لاستعمالها في حَمْل كتب كثيرة في وقت واحد ـ وذلك على العكس من pillowcase "بيت الوسادة" الذي يُستعمل لوسادة واحدة فقط). فتؤدي الفجوة في معيار "التهذيب" إلى التخلي عن وضع التمييزات التي يُمكن أن نضعها، لولا ذلك (ومن ذلك مثلا: horse-carriage "عَرَبةُ حصان' [يقودها حصان]، لكننا لا نستطيع أن نقول: horses-carriage* 'عربةُ أحصنةٍ [يقودها أكثر من حصان]"، وهي التمييزات التي ربما لا يمكن للإنجليزية الاستغناء عنها بمعنى ما، ذلك أن الإنجليزية تفتقر بشكل كامل إلى الوسائل الصرفية لتعيين "العدد"، سواء أكان ذلك في الاسم (إذ لا يوجد فيها مثنى، ولا يوجد فيها

وسيلة عامة لتكوين جموع أسماء النوع) أم في الفعل (إذ لا يوجد فيها وسيلة عامة لتكوين صيغة التكرار). لذلك يجب على المتكلم أن يغامر من أجل الاحتفاظ بالتمييز، مع خطر الوقوع في البربرية، كما في المثال التالي:

Sentences are rewritten by philosophers or language itself is replaced by metalanguage, but the symbols of metalanguage are a sort of words.

"إن الجُمل التي يُعيد الفلاسفة كتابتها أو تُعيد كتابتَها اللغةُ نفسها أُحِلَّ مكانَها ما وراء اللغة [اللغة الفوقية]، لكن رموز ما وراء اللغة ليست إلا أنواعًا معينة من الكلمات". (أي: are words, of a sort "أنها كلمات، من نوع ما") (Entwhistle 1953:227)).

أما العربية فتستفيد من حيث الدلالة بأكبر قدر ممكن من المادة غير المنظَّمة التي يجب عليها التعامل معها:

١ـ يوجد في العربية المبكِّرة تمييز (وهو تمييز غامض ولم يتحدد بشكل واضح) بين جمع القِلّة وجمع الكثرة، او، بدلاً من ذلك، ربما كان تمييزًا بين الجمع التعدادي numerative واسم الجمع (W. Fischer, 1980).

٢ـ ترتبط بعض أوزان الجمع نوعًا ما ببعض العوامل الدلالية، كما في < فِعَلَة > في أسماء الحيوان. وهي حالة نادرة.

٣ـ تتفاعل مفاهيمُ الجمع ومفاهيم أسماءِ الجمع، والأسماء المفرَدة [الزائدة عن جمعها بلاحقة، نحو "تَمْرَة" التي جمعها "تمر"] المشتقة من أسماء الجمع، وجموع المفرد. (فـ "شَجَر" اسم جمع عام للأشجار وجمعها "أشجار"، أما "شجرة"، المفردة، فجمعها "شجرات").

٤ـ وتُميِّز بعضُ صيغ الجموع المختلفة أحيانًا في المعنى بين اسم الفاعل الذي له دلالة فعلية أو اسم الفاعل الاسمي < فاعِل >، الخ، وبين معنى هذه الصيغة حين تدل على معنى الصفة اللازمة/ التي تؤدى بها في العادة، واسم الفاعل: "كاتِب/ كاتبون" (الذي/ الذين يؤدون، في الوقت المعين، الكتابة")، و(كاتِب/ كُتّاب "الذين يمتهنون الكتابة").

٥ـ ويمكن أن تُستعمَل صيغةُ منتهى الجموع أحيانًا من أجل التمييز الدلالي، أو في الأقل، من أجل التعبير عما يُشعر بأنه تعدد للجمع (Wright I 231f، والفصل العاشر هنا).

ويبدو كأن هذا الوضع يُناقض فرضيةَ ستوكس ظاهريا. لكنْ يمكن القول، من ناحية أخرى، إن الاعتبارات الستوكية تنطبق هنا أيضًا لكنها تتصف بقدر من الضَّعْف يَجعلها عاجزةً عن مواجهة التوجهات التَّشَعُّبية للعدد المتكاثِر من الأهداف الدلالية المتنافِسة التي بَدأتْ تُكوِّنها مع الأسف بصورة اعتباطية وهو ما تولَّد عنه اضطرابٌ أوسع بسبب تجاوز بعض هذه التوجهات على بعض مناطق نفوذ التوجهات الأخرى قَبْل أن تُنضج تفاصيلُ بعض الاستراتيجيات الاشتقاقية المهذبة والمكتمِلة. لهذا يقول فيشر (١٩٨٠:٧٤):

"يعود السبب الجوهري في تنوع أبنية الجمع العربية إلى وجود نوعين من الجمع في فترة مبكرة [من تاريخ اللغة العربية]".

Für die Mannigfaltigkeit der arabischen Pluralbildungen ist die ehemalige Existenz zweier Pluralarten die wesentliche Ursache

وكما يبين فيشر نفسه فقد أُضيفت بعض المقولات الدلالية لهذا الخليط كذلك ـ كأسماء الجمع، وصيغ المبالغة كـ ("كُبَار، كُبَّار")، والتوجُّه، وهو توجه لغوي عام في الواقع، لتكوين أسماء معدودة countable nouns جديدة عن طريق ما يسمى بـ "الكناية" مثل "صَحْب". بالإضافة إلى كل أنواع الانتقال من معنى الاسم المحسوس إلى المعنى النوعي actio vs actum)[١٤].

فماذا يعني مفهومُ اللجوء إلى استعمالِ تعبيرٍ قريبِ المُتناوَل إذن إن لم يكن من الممكن التعبير بسهولة عما يَوَد المرء التعبير عنه؟ فإذا كان المرء شاعرًا أو صوفيًا أو فيلسوفًا أو عالمًا فيزيائيًا فسوف يَهجر وسائل التعبير [المستعمَلة] غير المُؤدِّية ويَنحت لنفسه لغةً خاصة به. أما إن كان واحدًا من عباد الله الفانين، يُحاول كتابةَ رسالة أو يُجري محادثة عادية، فسوف يكتسحه تيار الكلام [ويجعله يستعمل التعابير المستخدمة].

ولقد رأينا من قبل بعضَ الحالات التي يبدو أنها من هذا القبيل، فحين تكون الحالة (جـ) فإن المتكلم يستعمل التعبير (ج)، وحين تكون الحالة (حـ) يستعمل التعبير (ح)، أما حين تكون الحالة (جـ + حـ) فلا يمكنه الجمع بسهولة بين (ج + ح) وهو ما يؤدي إلى أن

يعبّر عنهما بصورة غير كاملة. (ولنتذكر هنا مثال: the wind and the jello). ويصعب البرهنة في أغلب الحالات على ما يجري في أذهاننا حين نريد أن نتكلم أو نؤوِّل، ذلك أننا لا نعي تلك الحقيقة الذاتية الممثَّلة بشكل غير واضح في هذه العملية من عمليات الكلام أو تلك ـ وهذه الحقيقة العَرَضية Vorlage هي تلك الحقيقة الذاتية الغنية بشكل أخاذ الجاهزة في لاوعي مَنْ يُريد أن يتكلم لكنه لا يمتلك كلمة للتعبير عنها. ويمكن أن نحدد هذه الحقيقة عن طريق فحص الترجمات، ولا يعني هذا فَحْصَ بعض التصورات المفرَدة لبعض الحقائق الخام وحسب، بل فحص بعض النصوص الفعلية، المترجَمة من لغة إلى لغة. لكنْ يجب أن نلاحظ هنا أن المترجِم غالبًا ما ينحو إلى أن يتفوق على أدائه المألوف في لغته ليُنتج عملاً يتصف بأنه ترجمة. وهناك استراتيجية أخرى، لا يمكن تطبيقها إلا في اللغات الحية، وتتمثل في أن نعرض على عدد من المتكلمين المختلفين واقعةً محدَّدة من وقائع الحياة، نحو فيلم بسيط قصير، كما عمل [الباحث اللغوي الأمريكي المعاصر] والاس تشيف، ثم نُحلل ردودَ أفعالهم. ولا يزال هناك مُنزلَقان يمكن أن يكونا مصدرًا لعدم اليقين في هذا التجريب، وهما: ما الذي يمكن أن يكون قد أدركه الفردُ من هذه الحقيقة المعقَّدة الجامدة التي قُدِّمت إليه، وما الآلية الثقافية، بدلاً من الآلية اللسانية الصِّرفة، التي أسَّس ردَّ فعله عليها.

وهناك طريقة أخرى وهي أن نبحث عن نصٍّ يُمكن أن نظهَر فيه العلاقة بين التفكير والآليات [اللغوية] عند المتكلم. ونُحلِّل هنا العبارات البسيطة غير الصحيحة نحويًا التي يُنتجها المتكلمون الواعون الأذكياء المثقفون ثقافة جيدة؛ وربما دلَّنا هذا التحليلُ على أنَّ أقرب وجهٍ صحيح نحويًا ربما يكون مُتكلَّفًا أو مُعقَّدًا، أو ربما لا توجد هناك في الواقع أيةُ طريقة نحوية ليعبِّر بها المتكلمُ عمّا يريد ـ ونحن في هذه الحال محظوظون لأننا نعرف ما أراد قولَه، ذلك أنه بدلاً من لجوئه إلى التركيب النحوي الذي يَلي هذا التركيب من حيث الصحة النحوية ثم السماح للتركيب الصحيح نحويًا الذي لا يمكن تشفيره أن يَمُر من غير تشفير، نجده يقفز إلى مِرْجَل الخَلْق اللغوي. ومن شواهد هذه الحال ما يلي: فقد سمعت أحد المشاة الذين يتعرضون للسيارات طلبًا للركوب المجاني "هايكر" وهو يُبدي رأيَه في طريق طويل ينحدر إلى مالا نهاية فيما يبدو، قائلا:

I wish it would stop keep going up

"أتمنى لو توقف هذا الطريق عن الاستمرار ["في الصعود"]".

وليس في الإنجليزية طريقة نحوية ناضجة للتعبير عن الاستمرار المَرِن. ذلك أنه يمكن أن نقول إن طريقًا يستمر في الاستمرار، لكننا لا يمكن أن نقول، من غير استعمال بعض الطرق الملتوية، إنَّ الطريق يتوقف عن الاستمرار، ذلك على الرغم من الصحة الشكلية للمعنى (وذلك أن نقول مثلا:

I wish it would leave off this persistent ascension

"كم أتمنى أن يتخلى عن الصعود المتواصل").

وهذه الحال مألوفة في التركيبات الوَجْهية والتوجُّهية modal and aspectual في الإنجليزية. فيمكن لي أن أقول لك:

I go ø see John after every meeting

("أذهبُ لرؤية جون بعد كل اجتماع"، مع حذف الأداة to قبل المصدرsee)، لكنْ لا يمكن أن أقول:

Mary goes ø see(s) him

(مع حذف الأداة to)

أو: I have discontinued the practice

"قطعت الممارسة" [توقفت عن ممارسة شيء ما].

أو:

NOT (MAY) ⟶ may not

و : NOT (MUST) ⟶ needn't

وهذا المثال مناقض لفرضية ستوكس لأن المتكلم يعبِّر عن المعنى الأمْثل (س) الذي يريد أن يعبِّر عنه على الرغم من عدم وجود تعبير سهلِ المتناول بل وعدم وجود تعبير نحوي (قريب بنيويًا) لتشفير المعنى (س)، بدلاً من لجوئه إلى تركيب أقل تحديدًا لكنه سهل المتناول (نحو:

I wish it would stop going up

"كم أود أن يتوقف عن الاستمرار في الصعود"

وهو التركيب الذي يمكن أن يُستعمَل منطقيًا للتعبير عن صاروخ انطلق لتوه من منصة إطلاقه، أو :

I wish it wouldn't keep going up

"كم أود ألا يستمر في الصعود"[١٥].

كما يبدو، في الوقت نفسه، أن هذا المثال لا يتلاءم (إلا قليلا) مع فرضية ستوكس لأن المتكلم استعمل خُطاطةً متضامّةً للعلاقة بين الشكل والمعنى، وإن لم تكن مهذبة، تتمثل في التركيب: keep X- ing 'استمر في فعل (س) [حيث تُلحق الفعلَ هنا علامةُ الاستمرار، أي ing مما يدل على استمرار الفعل]' (وهذه الصيغة أكثر تضامًّا من continue to X 'استمر في فعل (س) [حيث يكون الفعل في صيغة المصدر]'، مثلاً، وهي الخطاطة التي يمكن أن يَنتج عنها تعبير طويل لكنه نحوي مثل:

I wish it would stop continuing to go up

'أود لو استمر في أن يتابع صعوده" من غير تكرارٍ لِلاّحقة ing-)

وحاوَل أن يُكملها ليُدخِلها في سياق التركيب: stop +VP [الفعل stop متبوعًا بالمركّب الفعلي] مع المخاطرة بالوقوع في اللّحْن. ويصعب القول إنْ كان هذا يُؤيِّد الفرضيةَ حقًّا أم لا، ذلك أن الفرضية تقترب اقترابًا شديدًا من كونها تكرارًا في نطاق "الاكتمال"، لكن الفكرة هنا أنه إنْ لم يكن لاعتبارات العلاقة بين الشكل والاستعمال أيةُ أهمية، فربما يَفترض نموذجُنا الذي يُمثِّل المتكلمَ أن المتكلم ربما يُحاول الإتيان بالجملة الصحيحة نحويًّا لتشفير المعنى الذي يريده بأقرب صورة، إما عن طريق الإطناب أو باستعمال طريق ملتوٍ لنوع مختلف من التركيب، إن كان ذلك ضروريًّا، مثل:

I whish it would stop going úp and úp and úp

[أي بوضع النبر للتوكيد على الظرف up وتكرار هذا الظرف]. وهذه صورة للمتكلم على هيئة حاسوب صبور، وهي ليست محاولة تقريبية سيئة لتمثيل كاتِب محافِظ مُتأنٍّ، أما كلامُنا نحن المتكلمين الآخرين فيميل نحو السرعة والاختصار.

***

رأينا فيما تقدم أدلة تؤيد فرضية ستوكس وأدلة تناقضها في بعض الأنواع المحدَّدة من تأثير الشكل على الاستعمال، وسوف نرى تفصيلاً أوسع لهذين النوعين من الأدلة في الفصول التالية، خاصة في الفصلين الثامن والثاني عشر. وقد حاولنا أن نضع بعض الأسس

لنتيجةٍ مؤداها أن هذه الفرضية توفّر في الأقل خيطًا رفيعًا ضمن أنشوطةِ العوامل الفاعلة في التطورات الصرفية التركيبية، ووسيلةً صالحة للاقتراب من ذلك الحيوان الضخم الذي يبدو بصورته العامة لا شكل له وإن بدا معقّدًا بصورته المحلية، وأعني به الصورة التي تمثّل معجمَ اللغة الإنجليزية أو اللغة العربية. وربما انتهينا إلى أن هذا الخيط الرفيع يكمن في أحد العوامل كمبدأ الجُهْدِ الأقل أو اطرادِ التغير الصوتي، وهي التي يبدو أن هناك عددًا كبيرًا من الاستثناءات لها كما أنها تلك التي ربما تُصعِّب البرهنة على أنها كانت المؤثِّرات الفاصلة حتى في بعض الحالات التي تتماشى معها، ومع ذلك كله، فلا بد أنها قد أحدثت بعضَ الآثار هنا وهناك، في أثناء عملها بصمت مثل حيوان الخُلْد المعجوز.

التعليقات

(١) ـ وربما يكون لدى متكلمي الإنجليزية الذين يهتمون بالثلج عددًا مساويًا من الكلمات في معاجمهم للتعبير عن أنواع H_2O "التركيب الكيميائي للماء" في حالته الجامدة لما عند متكلمي اللغة الإسكيمية، ومن ذلك:

icicle, icepack, iceberg, floe, glacier, brash, snowdrift, hummock, tjale, silverthaw, powder, popcorn, firn, slush, frost, permafrost, hoar, rime, névé, graupel, lolly, cranreuch, pogonip, sleet, hail, hydrometeor. . .

بالإضافة إلى الأشكال اللهجية مثل:

shad 'light snofall'(Newfoundland), *slob* 'soft snow or ice'(Canadian maritimes), *skift* 'a light fall of snow'(Virginia), *posh* 'slush'(England), and *snirt*(US Midwest).

[قارن بما يقوله ستيفن بنكر"الغريزة اللغوية"، ترجمة حمزة المزيني، الرياض: دار المريخ، الفصل الثالث، ٢٠٠٠م]

(٢)ـ قارن بما يقوله لوجان بيرسول سميث في كتابه: The English Language, : 1912، طبعة جامعة أكسفورد ١٩٥٢، ص ٥٢:

"تنحو الكلمات المنحوتة . . . إلى الموت بسرعة أكبر من الكلمات الأخرى؛ ذلك أن عبقرية اللغة تفضّل الكلمةَ البسيطة للتعبير عن المعنى البسيط؛ كما أن الكلمة التي تتكون من كلمتين أخريين، كل منهما تقترح فكرةً منفردة لابد أن تبدو لنا كأنها غريبة إلا إن استطعنا أن ننسى معنيي الكلمتين الأصليين. فينتمي تأليف الكلمة إلى طور أقدم من اللغة، حيث كان الغرض من الكلام التوجُّه إلى الخيال والشعور بدلاً من العقل؛ كما نجد أن أكثر الكلمات المنحوتة اتصافًا بالوضوح والانتماء إلى طائفة الكلمات المحفوظة في الإنجليزية هي تلك الكلمات التي تتصل بالعنف والغضب مثل: lickspittle "المتزلِّف"، skinflint "البخيل"، swillpot "برميل النفايات"، spitfire "سريع الغضب".

ولمزيد من الاطلاع على مسألة التفوق الوظيفي للتسميات المتضامة انظر ب. هنتر سميثون:

Lexical Expansion due to Technical Change, Bloomington (Indiana University Press): 1973, p. 132, note 233.

["التوسع المعجمي بسبب التغير التقني"، وهو كتاب يتتبع فيه مؤلفه التجديد المعجمي في لهجة المنطقة الشرقية في المملكة العربية السعودية]

(٣)ـ كنت آمل أن يَدفع تعظيمُ زملائي لفكرة "اعتباطية العلامة" هؤلاء إلى أن يقبلوا هذه التسمية بالاتزان نفسه الذي تقبل به كلمات مثل: sandwich أو runcible spoon ، لكن ردود فعل الذين قرأوا مسودةَ هذا الفصل تتطلب مني بعض التفسير. فهذه التسمية "تجسُّمية" iconic لأنها تتماشى هي نفسها مع فرضية ستوكس: فهي قصيرة وتتطابق في الشكل مع رفيقتها 'فرضية وورف'، ويمكن ببساطة أن يؤتى منها بصفة (وهو أمر لا يمكن مع تعبيرات مثل: Leisi conjecture 'فرضية ليسي' أو justice conjecture 'فرضية جستس")، وغير غامضة لأنها كُوِّنت بطريقة اعتباطية (قارن بـ[الفيلسوف الأمريكي المعاصر]: تشارلز ساندر بيرس C. S. Peirce عن الحكمة في هذا المنحى من التناول، في مقابل محاولة تحويل اسم عام إلى مصطلح علمي)؛ يضاف إلى ذلك أنها تتماشى مع الموجة الحديثة لسك الكلمات في المجالات الافتراضية الأخرى، وهي التي كثيرًا ما تشبه المعالجة الدلالية، كأفلام العنف الغامضة (نحو: The Ipcress File, The Anderson Tapes, etc) حيث يشير الاسم العلَم الذي لا يحيل إلى شخص بعينه إلى الطبيعة الغنية غير المتناهية لأي منحى من مناحي التَّقصِّي، أي ذلك الجوهر الذي لا يمكن تجزئته في نهاية الرد السريع الذي يمثل غموض هوية الشخصية. ويأتي اسم ستوكس بدقة من برهان ستوكس Stokes Theorem، وهو جوهرة حساب التفاضل والتكامل المتقدِّم، الذي تفوق أهميتُه بكل المقاييس شهرةَ ستوكس نفسه، إن كان مثل هذا الشخص قد وُجد فعلا. (كذلك فالطريق الذي يقود إلى برهان ستوكس يشبه، في كونه نتيجة للتراكم، الطريقَ الذي يقود من فيكو عبْر همبولت وانتهاء إلى وورف). لذلك أعدُّ ستوكس، مثل بورباكي Bourbaki وأوسكار وايلد، وهيرمس تريسميجيتوس Hermes Trismegistus، نوعًا من الظل المتحوِّل الذي يمكن أن يُنسب إليه تفتُّح الأفكار الروحية بكل استحقاق. لهذا فهو يقطع بصورة دقيقة أيضًا السلسلةَ غير الجذابة للأولويات التي تطورت حول فرضية وورف وزملائه (بل إني لا أعطي هنا تفصيلاً كاملاً لأصولها [أي فرضية وورف]: وقد رأى لونزبري أن [اللساني الأمريكي المعاصر] بواز Boas هو مؤسِّسها، كما أضاف ماكس بلاك Max Black أرسطو، وليتشنبرق Lichenberg وكاسيرير، ويسميها سميتون في كتابه السابق ذكره "فرضية سابير وكورزيبرسكي وورف")، ولما كان ستوكس لا يتعالى على الزمن فلا يمكن أن يَسبق هؤلاء أو يتلوهم ولا يمكن أن نُتَّهم بأننا قد أفسدنا أفكاره.

ويمكن أن يضاف عالم الرياضيات زيف إلى مؤسسي هذه الفكرة، G. Zipf 1935 ؛ لافتراضه أن قِصَر الكلمات يتلازم مع تكرار الاستعمال.

وكذلك ماكس مولر F. Max Müller لافتراضه أن الأسطورة نتيجة لازمة لاضمحلال اللغة.

(٤)ـ ونحدد الحدس بعبارة لن نناقشها بصورة مباشرة لكنها تتماثل معه من حيث الروح:

في الكلمة التي يمكن تحليلها تحليلاً تزامنيًا، نجد الطريقة الدقيقة التي سيتأثر بها تطورها الدلالي تكمن في أن الأجزاء المكوِّنة لها تُمارس ضغطًا دلاليًا محافظًا أو مؤديًا للاستقرار.

لهذا يُعدُّ تطور الكلمة hussy "امرأة فاجرة" بأبعد مما تطورت به كلمة housewife "ربة منزل" لا سيما في بُعدها التأثيري، متوافقًا مع التنبؤ الذي أوردناه هنا. أما لو فشلت housewife في المحافظة على التماشي مع تطور كلمة wife "امرأة" --> spouse "زوجة" ["أي تطور مفهوم "امرأة" إلى مفهوم "زوجة"] وامكن لها أن تُحيل من غير صعوبة إلى ربة بيت غير متزوجة "عزباء" تشتغل بنشاطات منزلية، فإنها، إلى هذا الحد، تكون قد خالفت التنبؤ.

وقد انكر نيروب Nyrop بصراحة هذه العبارة من فرضيتنا (Grammaire Historique de la Langue Françise IV 74f) غير أن الأمثلة التي استشهد بها ضد [اللساني الفرنسي] مايبه الذي يؤيد هذه الفرضية يمكن أن يكون لها معان أدق. وإذا ما اقتصرنا على المثال الذي أوردناه: فإن بعض المتكلمين من العيِّنة التي استشرتُها بطريقة تقريبية لم يكونوا في الحقيقة مرتاحين لاستعمال housewife للأمهات اللاتي يعشن على الإعانات الحكومية والعوانس اللاتي يعشن على ما وَرِثْنه، لكن تفسير هذه الحقيقة يمكن بقدر مماثل أن يكون عن طريق طبيعة الصورة النموذجية للدلالة المعجمية (كما يقول [اللسانيون المعاصرون]: تشارلز فيلمور C. Fillmore، وروش E. Rosch ، و بول كاي P. Kay من بين آخرين) بقدر إمكان تفسيرها بأي نوع من أنواع الخضوع الحقيقي لافتراضاتنا. وبعكس ذلك، لا يُعد الغياب التام لأي معنى لـ "زوجة" spouse في الكلمة fishwife بالضرورة مناقضًا لهذا الافتراض، وذلك لما يأتي:

أ ـ أن هذه الكلمة قديمة جدا، لذلك يَعرف المتكلمون أن لا حاجة لأن يكون لمكوِّناتها معانيها الحديثة، مثلما أنه لا يلزم أن يكون لأحد المكوِّنات التي تؤلف "نحتًا عباريًا" phrase compound قديمًا قيمةً حديثة بأية حال.

ب ـ وبسبب هذه الكلمة نفسها أي fishwife بالإضافة إلى goodwife "الزوجة الطيبة" و oldwives' tale "خرافات الزوجات القديمات"، يمكن أن يكون المتكلمون المعاصرون الذين يعرفون الكلمة أساسًا واعين بذلك المعنى الأقدم لكلمة wife الذي لا تزال بقاياه موجودة في الكلمة الألمانية Weib: فلدى مثل هؤلاء المتكلمين نوع من المشترك اللفظي لكلمة wife وهو ما يَحُدُّ من إمكان انطباق الفرضية، وما يؤدي إلى تحجيمه نتيجة لذلك. وبالكيفية نفسها تحتفظ كلمتا fishmonger "السَّماك"، و ironmonger "تاجر الحديد" بالكلمة المهجورة monger "تاجر" التي تعيش في الاستعمال اليومي كأنها لاحقة ميتة وغير قابلة للتحليل أساسًا في كلمة مثل warmonger "مُغرم بالحروب".

وقد افترض ماكس مولر (١٨٩٠) هذا المبدأ لتحليل حالة لا يتعلق فيها إمكان التحليل بعدم التضام (أي على إمكان تعيين الصرفيات المكوِّنة) بل على الجناس في الكلمات البسيطة:

"وبما أن كلمة dyu "إله" لا تزال تدل في السنسيكريتية على "سماء"، وإن كان ذلك في صيغتها التي تدل على المؤنث فقط، فقد كان من الصعب على الكلمة نفسها، حتى في صيغة المذكر، أن تصبح الأساس لأية عملية من عمليات الأسطَرة (من أسطورة) المهمة"، وهو ما حدث للكلمتين اليونانيتين: Zeus و Ju-piter وهما الكلمتان اللتان لم تعودا تحويان، فيما عدا ذلك، صرفيات يمكن تحديدها. "لذلك يجب أن تموت اللغة قبل أن تدخل طورًا جديدًا من أطوار الحياة الأسطورية" (II 469).

"فإذا لم تتطور كلمة dyu في الهند إلى مستوى يماثل Zeus في اليونان فسبب ذلك ببساطة أن كلمة dyu حافظت دائمًا على كثير من قوتها الكنائية" (II ٤٧٥) (وقد استبدل بـ Dyu ابنه Indra).

(٥)ـ وأورد ليرش Learch (١٩٣٣: ١٧٨) مثالاً آخر يحوي السابقة الألمانية -ver التي تعني هنا -mis "لا":

"ما يقابل في الألمانية sich verschreiben (أخطأ في الكتابة) أو sich versingen (غنّى نشازا) هما العبارتان الفرنسيتان se tromper en parlant "أخطاء في الكلام"، و: se tromper en chalant لكنْ بما أن هاتين العبارتين معقّدتا التركيب، يكتفي الفرنسي غالبا بمجرد: se tromper "أخطأ" (أو: fair un faute) ["ارتكب خطأ"]".

"Dem deutschen *sich verschreiben* , *sich versingen*, würde im französischen entsprechen *se tromper en parlant*, *se tromper en chantant*-- aber da diese Ausdrüche zu umständlich wären, wird der Franzose sich zumeist mit dem bloßen *se tromper* (oder *faire un faute*) begnügen."

(٦) ـ ويبدو كان [اللساني الأمريكي المعاصر] يوريل فانرايخ يناقض روح فرضية ستوكس حين كتب [في الفصل الذي عنوانه]: ("عن البنية الدلالية للغة" في كتابه On Semantics، دار نشر جامعة بنسيلفانيا، ١٩٨٠، ص ٨٢) قائلا:

"يُخفِق مفهوم "الاختزال" العصبي neurological reduction عند بلومفيلد. . . في الانتباه إلى العملية التي تُبنى بها الأنظمةُ الدلالية اللسانية "المستقلة" التي يصنعها الإنسان. . . ؛ ذلك أن "الإطناب" circumlocution ليس كما يظن بلومفيلد "آلية مؤقتة" لتبيين المعنى، بل هو *الآلية الشرعية الوحيدة*".

وربما يزول الخلاف حين نتوقف لنتأمل المسألة بكاملها. فـ "الإطناب"، أي الصياغة المؤقتة [أي التعبير عن المفهوم بكلمات متعددة جديدة في غياب كلمة موجودة في الدلالة عليه]، هو بالطبع الطريقة المألوفة لقول أي شيء جديد، وهو أساسي للاهتمامات المعاصرة في اللسانيات التي تؤكد توكيدًا خاصًا مفهوم "التكرارية" recursiveness وبعض الأنواع المعيَّنة للإبداع التركيبي. ونتيجةُ هذه العمليات، إذن، عادةً ما تكون مرتجلة بمعنى جماليّ ما، ذلك أنها أقل تجريدًا hypostatized، وليست موسومة بأية درجة من الانحراف عن الصياغات المألوفة بطريقة تجعلها توسَم بالخصوصية أو يُبقى عليها بصياغتها تلك، كما يمكن أن تكون طويلة بمقدار يجعل من غير الممكن لها معه أن تنسجم مع غيرها عن طريق تكرارية القاعدة التي ولَّدتها. لذلك ستلحق العبارةُ المرتجَلة، إذا ما استُعملت، برصيد العبارات الممكنة؛ إذ ستتشبث العبارةُ الجديدة الشبيهة بالبسيطة أو بالنحت المتضام، إذا ما ولِّدت، بالبقاء.

(٧) ـ قارن أيضًا بما يقوله [فيلسوف العلم المعاصر] توماس كون في مقاله المنشور في الكتاب الذي حرره لاكاتوس ومسجريف (١٩٧٠، ص٢٧٠):

"أما الأشياء التي لا يمكن قولها في اللغة *بسهولة* فتلك الأشياء التي لا يتوقع المتكلمون حدوثَ ما يوجب قولها. وإذا ما نسينا هذه الفكرة أو قللنا من أهميتها فربما يكون

سبب ذلك أنّ عكسها غير ممكن. فنحن نستطيع أن نصف أشياء كثيرة، مثل (وحيد القرن، مثلا)، مما لا نتوقع أن نراه".

والواقع أن العكس ربما يكون ممكنًا بأكثر مما يقترحه المثال الذي جاء به توماس كون. ذلك أننا كثيرًا ما نرى أفرادًا من وحيدات القرن بالمعنى نفسه الذي نرى فيه في أحيان كثيرة الديناصورات والأطباق الطائرة وكوكب المشتري، أي أننا نراها بصورها الممثّلة لها.

(٨) ـ قارن بما يقوله ديفيد كوبر في كتابه: Philosophy and the Nature of Language لندن: (لونجمان) ١٩٧٣، ص ١١٦:

"ويجب أن نعترف، كما أظن، أنه لا يوجد أي طريق نحدد بها التصورات التي يعتنقها إنسان ما إلا انطلاقًا من اللغة التي يستعملها. ذلك أن القدرة التصورية إنما هي القدرة اللغوية أساسا".

(٩) ـ الطبعة الثانية (١٩٦١)، ص ٣٤.

والمثال الذي أتى به ليسي لا يمثل الحد الأدنى في الحقيقة؛ وإن كان أقرب ما يكون إلى ما نرغبه عند المقارنة بين اللغات: ذلك مع أن أسماء أعضاء البدن في الألمانية غالبًا ما تكون كلمات بسيطة حين تكون بسيطة في الإنجليزية، إلا أن في الألمانية عددًا أكبر من الكلمات المنحوتة الألمانية الأصل التي يمكن تجزئتها، لهذا تتسم Handteller بمظهر أقل اتصافًا بالتحليل باعتبار الكلمتين الألمانيتين Durchmesser و Kalbfleisch من الكلمة الإنجليزية collarbone باعتبار كلمتي: diameter "قُطرْ الدائرة" و veal "عجْل"، مثلا.

(١٠)ـ بل يمكن أن يشذّب هذا التطورُ palm بالطريقة نفسها التي شُذّبت بها folm من قبْل: ذلك أنه فيما عدا الاشتقاقات والارتباطات التي تستقطع الكلمات الطويلة، كثيرا ما نقول: palm of the hand "راحة اليد" بالكيفية نفسها التي نقول بها sole of the foot "أخمص القَدم"، أو college professor "أستاذ جامعي"، وكان هناك خوفًا من الوقوع في اللبس. والواقع أن palm أقل عرضة للبس في السياق (الجسدي لا النباتي) من throat (الحلق الداخلي، كما في sore throat "التهاب الحنجرة" في مقابل الحلق الخارجي، كما في grab by the throat "يمسك بحلقه "بتلابيبه"")، أو knuckle "البُرجم"، مفصل الأصابع" (ويمكن أن نتساءل عن ما الذي يمكن أن يَصلُح أن يسمى بـ knuckles "براجم" من بين النتوءات التي توجد على مفاصل الأصابع والإبهامات وأصابع الرِّجلين؟ ثم ماذا يعني التعبير pig's knuckles

"براجم الخنزير"؟، أو eye (التي يمكن أن تكون إما: I "أنا"، أو aye ، أو الحرف: 'I').
لكن palm تحتاج إلى عناية خاصة لأن استعمالها أصبح محدودا. ويمكن بالمثل أن يسمي الفرنسيون المعجبون بالفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو بـ Jean-Jacques (أي باسمه الأول فقط)، أما الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن فيمكن أن يطلق عليه Lincoln فقط، كما أن الاسم Elvis (اسم المغني الأمريكي الشهير) ينبغي أن يختفي من قائمة الأسماء التي يسمى بها الأطفال الذين يسمّون بأسماء مركّبة، نحو Willie Mays ، أما إن لم تكن مشهورًا فيلزمك أن تعطي اسمك كاملاً وأن تتهجاه بوضوح. وبهذا فمصير palm مصير العبارات التالية:

scruff of the neck
crown of the head
ball of the foot
small of the back
bridge of the nose

(١١)- ويجب ألا يُقلّل من تعقيد هذه الحضارة أولئك الذين نُشّئوا، مثلي، ليتصوروا أن الإمبراطورية الإسلامية إنما تتمثّل بصورة رئيسة بالنار والسيف وتقع في مكان بعيد عنا. (قارن بما جاء في كتاب: Hittie, History of the Arabs(5th ed,. P. 315):

"وفي الوقت الذي كان فيه هارون الرشيد والمأمون يتأملان في الفلسفة اليونانية والفارسية كان معاصروهم من الغربيين يحاولون تهجئة أسمائهم".

(١٢)- ومن اللافت للنظر حقًا أن تقترض لغةٌ ما أقلّ الخصائص جمالاً من لغة أخرى، وهو ما يشبه استعارة اللغة الفرنسية خصائص اللغة الإنجليزية كما ينطقها الممثل الهزلي جيري لويس، أو استعارة اليابانيين لربطات العنق. وأنا لا تزيد معرفتي باللغة التركية عما يعرفه الناس العاديون، لكن إن صح أن هذه اللغة في صورتها الأصلية تتسم باطراد صرفي هائل، فيمكن القول إن متكلميها كانوا يرغبون في بعض التنوع فقط، عند استعارتهم لهذه الخصيصة، وقد اسهمت العربية بهذه الخصيصة في خضم هذا التنوع. وبالمثل فقد عادت الفرنسية اليومية التي دأبت منذ قرون على تبسيط الأصوات الصامتة المضعفة في صورتها المعاصرة لتستعير من اللاتينية بعض الكلمات التي يظهر فيها هذا التضعيف مثل: schbeb "جميل المحيا"، وschproume "يثرثر"، و schtouille "التصفيق".

(١٣) ـ وهذا هو المعيار التوزيعي الذي يجب استعماله لإزالة التجانس بين علامة جمع الأسماء في الإنجليزية وعلامة المطابقة في الأفعال (أي s-/-s -)، لا المقولة المتمثلة في <S_{pl}> "علامة جمع الأسماء"، و < S_{sg} > "علامة المطابقة في الأفعال". بل من المستبعد أن يَحدث التجانس المعجمي لولا المصادفة الماثلة المتمثلة في شكل "الجذوع" stems ، وهي المصادفة التي قادت وورف إلى اكتشاف توجُّه في الإنجليزية يبتعد بها عن أقسام الكلام المحدَّدة تحديدًا دقيقًا باتجاه بعض التصنيفات "القالبية" modulars التي تشبه ما نجده في العربية (الجذر: ك ت ب > كَتَب، كاتِب، الخ). لهذا لا يمكن أن يُفرِّق بين علامة الاستمرار ing- واللاحقة: ing- علامة المصدر المُذيَّل (gerund) تفريقًا عشوائيًا كما لو أنهما تنطبقان على الأسماء المشتقة أو الأفعال بصورة متمايزة، وفي هذه الحال فالحقائق التوزيعية لا تزيل أنواع اللبس كلها.

(١٤) ـ وهذا التطور الذي بيّنه W. Fischer بصورة رائعة كان مسبوقًا بمحاولة G. v. d. Gabelentz في كتابه Sprachwissenschaft ، ص ٢٥٤:

"في أسماء الجمع: مكان، كلمة، رجل، بلد، شريط، إلى جانب جمع التكسير: أمكنة، كلمات، رجال، بلدان، أشرطة، توجد. . . بذور جافة لتوسع إضافي في القواعد. . . . أما في لغات أخرى فكان يمكن أن تمثِّل مثلُ هذه الثنائيات الاعتباطية مجالاً خصبا".

Mit den Collectivpluralen *Orte*, *Worte*, *Mannen*, *Lande*, *Bande* neben den individualisirenden Pl. *Örter*, *Wörter*, *Männer*, *Länder*, *Bänder*. . . liegen. . . vertrocknete Keime zu einer weitergehenden Bereicherung der Grammatik vor. . . . In anderen Sprachen mögen solche zufällige Doubletten sehr fruchtbar geworden sein.

ويتوافق مثل هذا التطور مع مصطلح répartition "التوزيع" الذي اقترحه بريل Bréal، وهو قوة تتصف بالشيوع في تطور اللغة.

(١٥) ـ وهناك إمكان آخر هو stop keeping going "توقَّف عن الاستمرار في الاستمرار"، ويمكن ألا تكون صحيحة نحويًا لكنْ يقابلها عدد من العقبات وأغلبها من طبيعة جمالية وسطحية:

أ ـ فإلى الحد الذي يمكن أن يكون فيه التركيب: keep + V "موجِّه أو جهة"، فإن keep ستفضِّل، شأنها شأن need ، أن تكون متصرِّفة تصرفًا أدنى:

He wants/needs to go

"يرغب/ يلزمه أن يذهب"

He need not go

في مقابل:

"لا يلزمه أن يذهب"

و:

I am forever having *to* let out the cat

"دائبٌ على أن أفرج عن القطة"

في مقابل:

? I am seldom needing take such things into account

"قلما كان يلزمني أن ألتفت إلى هذا"

(التي تعني: (I am seldom obliged to take such things into account

"قلما أجد نفسي مرغمًا على أن أهتم بمثل هذه الأمور"

ب ـ وإلى الحد الذي يكون فيه التركيب: keep + V تعبيرًا مثليًا بمعنى ما، فربما نميل إلى تصريفه تصريفًا أدنى. قارن:

After he'd cooked/?cooking Hanslick's goose, Wagner went to work on Levi

"وبعد أن انتهى من طبخ أوزة هانسليك، ذهب واجنر إلى العمل على ليفي"

ج ـ والتابع المكوّن من: ing ing- ليس مقبولاً بشكل واسع في الإنجليزية؛ وغالبًا ما يكون حذف أحدهما الوسيلة اللازمة لتفادي هذا التابع. وهناك أبحاث كثيرة حول هذا الموضوع، انظر بخاصة:

Dwight Bolinger, "The Jingle Theory of Double - ing"

في كتاب:

Function and Context in Linguistic Analysis, in D. J. Allerton et al, (eds.; 1979, Cambridge: CUP.

وهو مثال جيد للتحليل الجمالي. وقد أورد "مراوغة" مختلفة في عبارة غير متصرفة هي:

I wouldn't mind to be breathing some of your Colorado air.

"لا يضيرني بشيء أن أتنفس بعضا من هوائكم في كولورادو" (ص ٥٣)

الفصل الرابع
نحو التثنية
وتثنية النحو

ونحن، مثل سابير، نهتمُ بالخصائص التي تُميِّز اللغةَ بمجملها، أو بأقصى ما يمكن من التعميم. افترض الآن أنه قيل لك إن في اللغة الفلانية صَرْفَةً خاصة للدلالة على مفهوم "التسبيع"، بالطريقة نفسها التي تتضمن فيها بعضُ اللغات صيغةً للمثنى أو لمفهوم الثلاثة. وسيكون شعورك عندئذ الدهشة، لكنك ربما لا تعرف ما الذي يمكن أن تعنيه هذه الحقيقة بمعزل عن غيرها. *فلماذا* تختار لغةٌ ما أنْ تعقِّد صرفَها بمثل هذه الخصيصة؟ أيعني هذا أن هناك معنى ثقافيًا خاصًا لرقم "سبعة" عند متكلمي هذه اللغة؟ وهل تتصرف اللغة بشكل مختلف لتدل على "التَسْديس"، أو "التثمين"، وما العدد الأقصى الذي يمكن أن تُميِّزه هذه اللغةُ بمثل هذا التصريف؟[1]

وتوجد في العربية مقولة صرفية مهذبة well-profiled ومكتملة well- rounded للمثنى. فهي مهذبة لأنه لا يوجد إلا نهايتان فقط للمثنى، وهما: "ـان" في حال الرفع، و"ـيْنِ" في النصب والجر. ويتقابل هذا مع التنوعات المختلفة من صيغ الجمع فيها. لاحظ الأمثلة التالية:

كتابٌ جديدٌ

كتابانِ جديدانِ

كتبٌ جديدةٌ

شيخٌ كبيرٌ

شيخان كبيران

شيوخٌ كبارٌ

وتظهر نهاية المثنى على شكل فتحة طويلة في الضمائر[الألف]:

هُم ، هما

أنتم، أنتما

ومن اللافت أن النهايات نفسها تظهر مع الأفعال:

يكتبُ، يكتبان

كتبَ، كتبا

لذلك فهناك قَدْر من الطنين الذي يساعد على إبراز الوعي بالمثنى؛ وهو ما لا يحدث في الجموع التي تتسم بكثرة صيَغها وتنوعِ أشكال المطابقة فيها[٢].

ومقولة المثنى مكتملة well-rounded لأنها تنطبق في أغلب الأحوال بصورة مطردة: ذلك أنه قلّما توجد أسماء معينة أو أفعال محددة تنفرد بعدمِ قبولها للتثنية. صحيح أنه لا يوجد ضمير مثنى للمتكلم، لكنه صحيح أيضًا أن العربية لا تميز في المثنى بين المذكر والمؤنث كذلك.

ولعدم وجود مقولة للمثنى في اللغات الأوروبية الحديثة، مع أنها كانت موجودة في الأطوار القديمة منها، كما أنها موجودة في بعض لغات الشعوب المعاصرة التي تعيش في ظِل الحضارة التقنية المعاصرة، ربما قلَّل بعضُ الكتّاب المهتمين باللغة من شأن هذه المقولة. وربما كان رد فعلك الأول إذا ما فَقدَتْ لغةٌ ما إحدى المقولات التصريفية أن تُستنتج أنها فقدت شيئًا ما وحسب، أما هؤلاء الكتاب فربما يستخلصون أن فقْد اللغةِ لهذه المقولة دليلٌ على أن هذه اللغة تسير في طريق النضج. ومن المؤكد أن الإنسان ليس بحاجة إلى المثنى من أجل بعض الأغراض الإحالية، ذلك أن باستطاعته دائمًا أن يَستعمل العدد "اثنين" مقرونًا بالاسم. لكن هذا ليس أمرًا لازما، وذلك للسببين التاليين:

أ ـ أن الشيء نفسه يمكن أن يقال كذلك في حال الجمع، أو الجنس، أو الزمن، الخ. ذلك أنه يمكن أن تُرسَّس أيةُ مقولة تأليفية بصورة تحليلية؛

ب ـ وقد رأينا في الفصل السابق بعض الأدلة على أنه يمكن أن يكون لوجود صياغة نموذجية متضامة مردود فعّال. فوجود مقولة مهذبة well-profield ومكتملة well-

rounded للمثنى أكثرُ إيحاءً وقوة من مجرد التتابع المُكوّن من العدد "اثنين" + الاسم، وهو التتابع الذي يتسم بالطول ولا يمكن تمييزه بنيويًا عن التتابع المكوّن من العدد "ثمانية" + الاسم.

فهل مقولة المثنى في العربية، إذن، شيءٌ زائدٌ لا قيمة له، أي أنها تنتمي إلى ذلك النوع الذي تخلّص منه المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي؟ وبعبارة أخرى، أهُو مجردُ حقيقةٍ نحوية من النوع الذي يكفي في تحليله إيراد النمط الشكلي formal paradigm الذي ينتمي إليه؟

والفرضية التخمينية لهذا الفصل أن المثنى في *العربية* ليس مجرد حقيقة شكلية، بل هو، بدلاً عن ذلك، لَحْنٌ إيقاعيٌ في المعزوفة العَذْبة لخصيصةِ الثنائيّة التي تميز *العربية*. ولا يزيد حكمي هذا في نهاية الأمر عن كونه حُكْمًا حَدسيًّا أو اختياريًا؛ ذلك أنه لا يمكن لإنسان أن يُبرهن عليه بأكثر مما يمكن له أن يبرهن على أن هناك نوعًا من المعلومات المهمة في كتابات [المؤرخ] جيبون أغنى من المقتضيات التي يمكن أن نستخلِصها من دليل الهاتف. لهذا يجب عليك أن تنظر إلى هذا الفصل على أنه في أسوأ أحواله جولة لتقصّي القضايا الموضوعية عبْر اللغة العربية بدلاً من النظر إليه على أنه استدلال على نظرية.

وبشكل أعم، ولا يزال أكثر تخمينا، يَحسُن بنا أن نقول إنّ *إيحاء* هذا الفصل، بدلاً من القول: "إنّ فرضيةَ هذا الفصل"، هو أن الحقائق النحوية تُبِينُ في أغلب الأحوال (أو، وبألفاظ دينامية، إنّ هذه الحقائق يُمكن لها دائمًا أن تُبين) أنّ لها "وجهًا" ثانيًا لا يتصف بأنه شكليٌّ تمامًا، ويمكن أن نسميه وجهًا دلاليًا، أو وجهًا أسلوبيًا، أو تحقّقًا لمضمون الشكل. وهذه هي فرضية أيقونيّة النحو "تَجَسُّم النحو"، التي درسها [اللسانيان الأمريكيان المعاصران] دوايت بولنجر وجون هايمن، من بين علماء آخرين، درسًا مستفيضًا في السنوات الأخيرة.

وفيما يخص هذا الموضوع، حيث ننظر إلى *اللغة* (النظام اللغوي) langue من حيث علاقتها الوثيقة بما يُسمّيه معظمُ اللسانيين الأسلوبَ (وإن كان يُنظر إليه بالمفهوم الذي يَعنيه في مجال *اللغة* langue ، بدلاً من النظر إليه بصفته مُميِّزًا لمؤلفين مخصوصين)، فمن المهم أن نُجدِّد التحذيرَ الذي ذكرناه في الفصل الأول. أي أن ما يقال عن خصائص العربية هنا لا ينطبق، إلا بصورة عارضة، على اللهجات المعاصرة، كما أننا لن نَعرِض في هذا الفصل

للعربية النموذجية المعاصرة أيضا، باستثناء الحالات التي سيشار إليها صراحة. وقد تغيّرت العربية في المستويات الدلالية والتركيبية والبلاغية بصورة طبيعية باتجاه المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي الحديث نتيجة لانجذاب العرب إلى المجال الأوروبي؛ بل لقد أدى أثر اللغات الأوروبية حتى في المستوى الصرفي إلى الحد من استعمال المثنى في العربية النموذجية المعاصرة، بل وصل هذا التأثير إلى الحالة النموذجية التي تتمثل في كلمة "عَيْنَيْن" حيث بَقي (ما يشبه) المثنى حتى في اللهجات (Stetkevych 1970: 111).

وربما جاز لنا القول، متّفقين مع المُنظّرين الأوائل لكنْ من غير أن نُشارَكهم في مقاصدهم المؤذية، إن هذا التطور الذي يتمثل في الابتعاد عن المثنى والصياغات التي تُستعمله عمومًا تطورٌ محكوم بعوامل اجتماعية مُنضبطة، ذلك أنه استُبدل بتصوُّر conception مفهوم التثنية "الكَيْفي" بصفته تناظُرًا مقبولاً فكرةُ شموليّة العَدّ الخَطّي غير المُتناهي، الذي لا يُحابي أحدا، وبمبادئ مُخرَجات الحاسوب الرائعة وفي حسابات الغرفة التجارية في شيكاغو [أي نتيجة للتطورات الحديثة القائمة على العمليات الحسابية المعقدة].

***

ويبدو مفهوم "التثنية" كأنه نوع لازم من عبقرية *العربية* بشكل يُشبه تقريبًا أصالة "قاعدة الثلاثة" التي كانت تميز أسلوب النثر الأوروبي في العصور الوسطى. ومدار الحديث هنا وبشكل أدق هو ذلك الزوج المتكافئ شكليًا، ومن أمثلته في الإنجليزية: Another day, another dollar "يوم آخر، دولار آخر"، أو الإحالة إلى زوج يختلف عضواه من طرق كثيرة نحو الإشارة إلى [الشخصيتين الهزليتين]: Batman و Robin بـ: the Dynamic Duo "الزوج المكوَّن من اثنين متلازمين [الزوج الثنائي]". ونحن لا نتحدث هنا عن الأجزاء غير المتجانسة التي تَنتُج من التقطيع التحليلي النظري مثل: John/ hit Bill [أي تجزئة هذه الجملة إلى مكوِّنين: الأول هو: "الفاعل"، والثاني هو: المكوّن الفعلي الذي يتضمن الفعل والمفعول. ويشير جستس هنا إلى تحليل الجمل في النحو التحوليدي]، وهو التحليل الذي سمح [لِلّساني] تشارلز بالي مثلاً أن يُصرِّح بأن: "كلّ تتابعٍ ثنائي"

"tout syntagme est binaire"
Linguistque generale et linguistique française, p. 103

وهي الفكرة التي حدَتْ ببعضِ دارسي التركيب المعاصرين إلى الزعم بأن أنواعَ تفريعِ البنية المركّبة كلّها ثنائية. ونقول هذا للأسباب التالية:

١ـ أنه لا يوجد إجراء يمكّننا من الوصول في كل حالة إلى قرار بشأن الحدود بين الكلمات المتوالية في التتابع الظاهر، كما في التتابع: red, white and blue ، خصوصًا في لغة يكون فيها ترتيب المكوّنات: فعل ـ فاعل ـ مفعول، كما في *العربية*: "ضرب محمدٌ زيدا".

٢ـ بل حتى إن استطعنا، انطلاقًا من بعض الأسس النظرية الغامضة، أن نُعيِّن مستوى لا تزيد البنيةُ المركبة فيه عن كونها مجردَ دمْجٍ للثنائيات فسوف تظل بعض المعضلات مثل:

أ ـ كون "الجزأين" ينتميان عمومًا إلى نمطين مقوليّيْن مختلفين،

ب ـ أن العوامل الإيقاعية، المهمة جدًا لنَشْر التوازن الثنائي، لا تؤدي دورًا مهمًّا إلا في المستوى الظاهري للجملة تحديدا، كما أنها حسّاسة جدًا لأنواع المُكوّنات التفريعية، التي لا يكون انتسابُها إلى النوع نفسه من المقولة التركيبية إلا شرطًا ضروريًا مفرَدا (انظر القسم الذي نناقش فيه توازن الضمائر، فيما يأتي).

فنحن مهتمُّون، إذن، بضَمّ الأشياء المتشابهة بعضها إلى بعض، وهو ما يتبين بصورة لازمة في مستويات متعددة: فهو يتبين في مستوى الصرف، أي في معاملة الوحدات المتخالفة تخالفًا جذريًا لكنْ يُعبَّر عنها بمعجميةٍ مفردة تتصرَّف للمثنى؛ وفي مستوى الدلالة المعجمية، حيث تُجمَع المعاني المتضادّة في معجمية واحدة؛ وفي التركيب، حيث نجدها في التراكيب المثليّة التي تتكون من جزأين؛ وفي البلاغة، حيث تستغل الخُطاطات المتشابهة شكليًا لإحداث التوازن.

فإذا كنا مُحقِّين في مقارنتنا بين مِثل هذه التراكيب المتخالفة تخالفًا جذريًا من حيث الشكل لكونها تشترك في الأهمية الإدراكية غير المحايدة فإننا نكون بذلك في نقطة الاهتمام المركزية لهذه الدراسة، وهي الحدود بين الأسلوب والنحو (وإن كان يجب أن يُفهم "الأسلوب" على أنه ما "يميز" *اللغة*، لا ما يميز *الأداء* في كلام شخص ما). ولا بد من تقديم بعض التسويغ للجمع بين هذه الأشياء بهذه الطريقة ـ ذلك أنّا نتوقع بعض الاحتجاجات

التي ترى أنَّ هذه المعالجة التي تحاول الجمع بين البنية التي تتسم بالوضوح من جهة وبين الدلالة المتلبِّسة بالأسلوب وتتصف بالغموض من جهة أخرى ربما تؤدي إلى إضفاء الغموض عليهما بدلاً من جعلهما متواصلاً منسجما.

ولكي نحتج بأن مقولة متواضعة كمقولة المثنى، مثلا، تستحق أن تُدرَس على قدم المساواة مع بعض الإجراءات البلاغية كـ"التضمين" merism (انظر النقطة ٥ فيما يلي) أو "التضاد" antithesis ، بصفتها وسيلةً جماليَّة من وسائل اللغة، يلزمُنا أن نُبيِّن أن المثنى يُستخدَم في استعمال مَثليٍّ خاصٍّ، ربما للوفاء ببعض الوظائف نفسها التي تؤديها العباراتُ المَثليَّة المتوازنة الطويلة التي لا تعتمد على تصريف المثنى. وتبيينُ ذلك فيما يخص المثنى في العربية سهلٌ جدا.

وسنبدأ، إذن، بأوضح الصُّور الصرفية للتثنية، ثم نستمر بالتدريج حتى نصل إلى بعض الاستعمالات التي يبدو واضحًا أنها أسلوبية.

١ـ المثنى:

تتصرَّف الأفعالُ والأسماءُ والصفات للمثنى في العربية الفصحى، ويَشمَل ذلك أسماءَ التفضيل، والاسمَ الموصول وضمائرَ المخاطَبين والغائبين. ولا تقتضي هذه الظاهرة بنفسها بالضرورة القولَ بأن مفهوم "التثنية" كان مُهمًّا للنحو أو الفِكْر العربيين، لكنَّ عدم خضوعها للإعراب الكامل، مثلاً، والندرة النِّسْبية للمثنى في مقابل الجمع في لغات العالم، ينبغي أن يقودا إلى التَّوقُّع المسوَّغ بأن هذه المقولة ليست، أو لم تكن في الأساس، حقيقةً لا أهمية لها من حقائق النحو، بل ربما يكون لها، أو أنه كان لها، جوهرٌ نفْسي/ إحساسي. ويُؤيد التاريخُ القديم والحديث للعربية كلاهما هذه الفكرة. إذ إنها لا تُفصِّل التصريف للمثنى تفصيلاً شاملا: فهو أساسي في الأسماء، كما يقول فيشر وجاسترو (١٩٨٠، ص ٤٦) في حين: "كانت تثنية الفعل والضمير مجرد حلية لفظية في اللغة الشعرية العربية القديمة".

"der Dual bei Verbum und Pronomen wohl nur eine Kunstform der altarabischen Dichtersprach war"
(Fischer/Jastrow 1980: 46)

أما في اللهجات المعاصرة فأكثر ما يوجد المثنى في الأسماء، في حين اختفى من الصفات. ويتّفق هذا مع الواقع الإحساسي: إذ إن زوجًا من الثّيران مُتأصِّلٌ دلاليًا بطريقة لا يتأصَّل بها زوجٌ من "الحُمُرَة". زيادة على ذلك فالأشياء التي يأتي منها زوجٌ بصورة طبيعية كالعينين هي التي يَغلِب أن تُثنى دائما: وإذا علّلنا الأمرَ بصورة تناسقية فربما نشأت المثنيات أصلاً من هذا الأساس، أي من التجربة الحسية.

لنفترض الآن أنه حين تُوسِّع تصريفُ التثنية ليَشمل الأفعال، لا بمعنى: "افْعلْه مَرّتين"، مثلاً، بل ببساطة كأمرٍ من أمور المطابَقة، ربما أخذ يبتعد أكثر فأكثر عن أساسه التجريبي الأصلي الذي كان يتضمن الانفعال الذي يَشعر به الإنسانُ نحو التناسق الطبيعي. ومع ذلك فالمثنى مصدرٌ جَمالي ـ أي أنه جمالي بالمعنى نفسه الذي ربما يُستعمل، لا بالكيفية الإحالية، فقط، كقولك: "قِطّة" حين يكون هناك قطة، و"قِطتان" حين يكون هناك قطتان، بل حين تُستعمله، بطريقة أسلوبية ما، حتى حين لا يكون هناك قطتان في الواقع، وهذا ما يجعل المثنى يُؤوَّل بكيفيّات اصطلاحية محدَّدة، أو بكيفيات مُبتكَرة تقُوم على الاصطلاح وتتأسس عليه. فهناك، على سبيل المثال، بعضُ أنواع المثنى الاصطلاحية المَثَليّة التي تُدعى "المثنى للتغليب" a potiori [٣] حيث يَنوب أحدُ الاسمين عن الآخر، نحو: "الأبَوان" (الأب والأم)، المأخوذ من تثنية الأب، قارن ذلك بـ los padres "الأبوان" في الأسبانية؛ "المَشرقان" (المشرق والمغرب)؛ "القَمَران" (القمر والشمس)؛ "الفُراتان" (دجلة والفرات)؛ "العُمَران" (أبو بكر وعمر)[٤]. (وللاطلاع على أمثلة أخرى انظر: Reck. AS 190-191; Wright I 190). وتوجد الظاهرة نفسها في اللغة السنسكريتية[٥]، أما في الإنجليزية فيبدو هذا التركيب غريبًا جدًا ـ وذلك ما يُشبه قولَنا: the Lone Rangers "*الحارسان الدوحديان [وهو اسم يطلق على حراس الحدود الأمريكية، خاصة في الجنوب]" لنعني: Lone Rangerو tonto؛ وأقرب شبيه ممكن هو قولُنا: the Bob Joneses لنعني: بوب جونز وزوجته. وربما لا تُزيد القيمةُ الأسلوبية لهذا التركيب في العربية، في الأقل، عن كونها نوعًا من الأناقة؛ وسوف نقترح قيمةً أخرى بعد أن نرى نوعًا آخر من الاستعمال[٦].

والمثنى مقولةٌ موسومة في *العربية*، بالمعنى البنيوي لهذا المصطلح وبمعنى "الرجل المميَّز"، كلاهما. وهو مؤهل لزوال التمييز التصريفي بين المذكر والمؤنث syncretism (إذ لا يُميَّز بين المذكر والمؤنث في ضمير المثنى)، وليس له صيغ مكتملة تمامًا fully rounded (فليس هناك صيغة للمثنى المتكلِّم، وقلَّما يُستخدَم مع ضمائر الاستفهام وغير ذلك)، كما أنه يكاد يختفي من اللهجات[٧]. لكن لمّا كان موجودًا في اللغة فهي تتلعّب به ليؤدي وظيفةً مهمة فيها. فانطلاقًا من استعمالات المثنى التغليبي، الذي يتطلب تأويلُه قدرًا من المَجاز، يُمكن أن تكون بعضُ المُثنّيات، خصوصًا في صيغ التفضيل، قد طوَّرت معانيَ خاصة قريبة الشَّبه بالكنايات kenning ، مع أن العربية بصفة عامة تفتقر إلى الكثير من النُّكت البلاغية المُعجمية - فهي لا توجد في الجموع في الأقل. ومن الأمثلة على ذلك: "الأحْمران" (اللحم والنبيذ)؛ "الجديدان" أو "الأجَدّان" (الليل والنهار) (De Goeje, in Wright I 190).

ويَتبيَّن استخدامُ العربية للمثنى من أجل التلذُّذِ الأسلوبي الحسيِّ المِطواع، بدلاً من استخدامها للتَّواصُل الوَصْفي المتسم بالإيجاز، من استغلالها المتوسِّع له من حيث الشكل التركيبي، فيُوصف الماء، مثلاً، بـ "السواد" حينًا: "الأسْوَدان" (التمر والماء)، وأحيانًا بالبياض: "الأبْيَضان" (اللبن والماء)، تبعًا لِلَّذة التي يَجدها المتكلِّم[٨]؛ ومن تعدُّد الأوصاف، إذ يُطلَق على الليل والنهار مثلا، أسماء نحو: "البَرْدان"، و"المَلَوان"، و"العَصْران"، و"الرِّدْفان"[٩]؛ ومن غموض الألقاب التي تُصاغ من أجل رنينها بدلاً من إحالتها: فتعني كلمة "الأمَرّان" في معجم هافا: "الشيخوخة والفقر"، و"الصَّبِر والخَرْدل"، و"نبات الأفسنتين (المُرّ) والحنظل"[١٠]. وتكاد تكون في أحيان كثيرة لغزًا أو تَوْرية يُقصَد بها التَّفكُّه؛ كأن يُسأل: "ما الرَّقيقان". وقد يكون الجواب: "الخِصْيتان"، أو"طرفا الأنف". وإذا سُئل: "ما الأطْيَبان؟" فيكون الجواب: "الأكل والجِماع"، مع الغَمْز بالعين [كناية عن المعنى المقصود]. وهذه الطريقة في الكلام أكثرُ ظرفًا من القول ببساطة "إن الجماع نوع من التسلية". إن الحقائق الدائمة للحياة قليلة، لكننا لا نتوقف عن السعي في اكتشاف طرق جديدة في الإشارة إليها، أي اكتشاف وصفات جديدة للكلام عنها.

***

وليس بمقدورنا أن نكتشف باطمئنان السببَ الذي دعا بدوَ الصحراء إلى استخدام المثنى، أو القبائلَ التي كانت تسكن الغابات في أوروبا إلى اختراع النحت compounds والأفعال التي تتصرف عن طريق قاعدة "المُغايَرة" [بتغيير بعض الحركات في داخلها] ablauting Verbs ، لكنْ ربما جاز لي القول بأن أسباب هذه الاختراعات تعود إلى الصياغة الشعرية للغة والتلعُّب بها، من جهة، بقدر ما تعود إلى الأسباب الباردة المتجهمة التي توردها كتب النحو، من جهة أخرى[11]. ونحن نستطيع ملاحظة المبادئ الجمالية نفسها وهي تعمل العملَ نفسه في زمننا هذا. ويتسم المثنى التغليبي والمثنى الكنائي بطعْم خاص، فهما متقعِّران ومُتلعِّبان في آن معًا، وهو ما يذكِّرنا بالصياغات العَدَدية التي تبدو غامضةً للأجانب ومحبوبةً عند الصينيين، نحو: "الحَداثات الأربع"، و"الشروط الخمسة"، و"الأشياء الثلاثة المطلوب فعلها، والثلاثة التي يجب عدم فعلها"، و"الكلاب الأربعة" (أي: عصابة الأربعة)، و"الفوارغ الثلاثة" (وهذه نكتة موجهة نحو الكلاب الأربعة الذين اتُّهموا بـ "إفراغ الدكاكين التي تبيع الخمر" [أي انهم مدمنون على الخمر]، و"الألعاب النارية الفارغة"، و"المستشفيات الفارغة". جريدة نيويورك تايمز ٣٠ أغسطس ١٩٧٧)، و"شُرْبة السعادات الأربع (أو الخمس، أو ما إليها)"؛ قارن ذلك بالشعار المشهور لمناصري الجبهة الشعبية الفيتنامية في الولايات المتحدة: "أيِّدوا النقاط السبع!"، وهو الشعار الذي لم يكتسب رواجا، فيما يبدو. ولا تحبِّذ الإنجليزية استعمال مثنى التغليب؛ وهو ما يوجب عليها ألا تهزأ بشيء ينقصها، ذلك أن منطق المثنى التغليبي، وإن كان ذوقًا مكتسبا، يتفوق على مثل التعبير التالي:

"... the calculus invented by... Fermat, Leibintz, and the two Issacs, Barrow and Newton."
(G. Sarton, History of Science, vol., I, p. 502)

"... اختَرع حساب التفاضل والتكامل... فيرمات، ولايبنز، والإسحاقان، بارو ونيوتن".

ذلك أن تعبيرات مثل:

the two James's

"الجيمْسان"

the two Bernoulli's

"البرنوليان"

يمكن أن تكون مقبولة؛ أما: the two Issacs "الإسحاقان" فاسمُ جمعٍ زائف. كما أن وصف اللحم والنبيذ بأنهما "الأحمران" ليس مجازًا مقنعا، لكنه مماثل على أية حال في إيحائه للتعبير:

the three R's (readin', writin', and 'rithmetic)

"الراءات الثلاثة: القراءة والكتابة والحساب" [ويلاحظ أن writing لا تبدأ بالراء كتابةً، لكنها تبدأ بها صوتيا؛ كما أن كلمة "الحساب" في الانجليزية لا تبدأ بالراء بل بحركة A)، أو هجوم مجلة الإيكونومسيت البريطانية الساخر (٢٨ مارس ١٩٨١، ص ١٢):

"Power has to be backed by predictability and persuasion, the two other p's of leadership. . . . Mr. Reagan has to prove that he knows the cues for his ps."

"يجب دَعْم القوة بالوضوح والحضّ؛ وهما حرفا الـ p الآخران الضروريان للقيادة. . فيجب على السيد ريجان أن يبرهن على أنه يعرف المفاتيح الأخرى لحروف الـ p الضرورية [الكلمات الأخرى التي تبدأ بهذا الحرف، وهي من ضروريات القيادة]".

لكن صياغة هذه الكلمات التي تشبه صياغات سوزان ب. أنتوني في اختراع الكلمات لن يكتب لها الشيوع. ذلك أن الـ p في كلمة leadership "قيادة" ليست ملائمًا تقريبيًّا للـ p في كلمة predictability "وضوح، متوقع". ومع ذلك يجتهد الجنّي المُعجَمي في محاولة إظهار التناسب من أجل التلذذ فقط، ومن غير أي التفات لما سوف يحدث فيما بعد: وقد جاءت المجلة نفسها بتعبير آخر هو[١٢]:

Two i's are causing a near revolution in the saving behavior of Americans. The first is interest rates, . . . The second is inflation.

"هناك كلمتان تبدآن بالحرف i وتتسببان في إحداث ما يشبه الثورة في سلوك التوفير عند الأمريكيين. فالأولى هي نِسَب العمولة interest rates، . . والثانية التضخم inflation".

ثم إن من السهل أن تتخيل الاستعمالات الجنسية التي سوف يُستعمل فيها المثنى في الإنجليزية لو كانت هذه المقولة موجودة فيها، ذلك أنه حتى التعبير ذي التهذيب الضعيف المكوَّن من العدد اثنين + الاسم N + *two* يُستغل في بعض الأحيان في التعبير عن مدح غموض الأجزاء الزوجية من أعضاء البدن، كما في التعبير: woman's *chest* أو woman's *bosom* 'صدر المرأة'، أو أي لفظ لطيف مفرد آخر يوصف بأنه: two of her best points 'الشيئان اللذان يمثلان أفضل موضعين فيها'.

وليس هناك، فيما أعرف، جموعًا تغليبية في العربية؛ ومن المؤكد أنها ليست فصيلة مطردة كالمثنى التغليبي. (وهذه ملحوظة ضرورية، ذلك أنه لو قلنا إن دلالة التغليب خصيصة من خصائص العربية، فيجب ألا يُنظر إلى هذه الحقيقة على أنها مصدر جمالي خاص بالمثنى). ومع هذا فهناك بعض الجموع التي يمكن أن نطلق عليها الاسم granfalloon، وهو المصطلح الذي صاغه K. Vonnegut (في روايته Cat's Cradle "سرير القطة") لنعني بذلك التوسُّع الذي يبدو كأنه تحقيق لقصد طبيعيٍّ إلا أنه في الواقع بعيد جدًا عن ذلك (ونحن نُوسع فكرةَ التغليب شيئًا قليلاً لكي تنطبق على تلك التجميعات التي يُمكن أن تتصف بشيء من الانسجام الطبيعي من زاوية معينة، وإن كانت لا تنسجم تحت أي قصد ممكن للمصطلح الذي حُدِّدت به). لهذا نجد بعض الإشارات إلى "كافات الشتاء" في المقامة الخامسة والعشرين عند الحريري: أي تلك الأشياء السبعة الضرورية للشتاء التي يبدأ اسم كل واحد منها بحرف الكاف. لكن الحريري معروف بأنه أحد المغرمين بالإلغاز والتورية، لذلك قدَّم هذه الفصيلة على أنها لغز.

ومع ذلك ففي الحالة الأخيرة التي تتصف بمظهر جنسي، في الواقع، تشابُهٌ بين نمط الجمع المتمثل في "كافات الشتاء" ونمط المثنى في "الكَهْفَيْن" أو "الأطيَبَيْن": إذ يَستغِل الكتّاب الغموضَ هنا استغلالاً واسعا. قارن مثلاً التغيُّرَ الذي حدث لفكرة "الراءات الثلاث" النموذجية فيما كتبه الصحفي جاي رايت في عدد جريدة سان فرانسيسكو إيجزامنر الصادر في ٧/ ٣/ ١٩٨٢:

With Congress distracted by the Three R's – recession, rearmament and reelection –he wasn't expected to get much of a hearing for a fourth R, the realignment of federal-state responsibility.

"مع انشغال مجلس النواب بالراءات الثلاث ـ وهي الركود recession و rearmament "إعادة التسلح"، وreelection "إعادة الانتخاب" ـ فلا يُتوقع أنْ يُعيره أحدٌ اهتمامًا فيما يخص الراء الرابعة the realignment "المواءمة" بين المسؤولية الاتحادية ومسؤولية الولاية"

ويقع كل ذلك تحت ما أسماه [اللساني الأمريكي] تشارلز فيلمور بدلالة Little Jack Horner "جاك هورنر الصغير": وهو أن القارئ يستخلص المعنى من تحت القشرة المعجمية الغامضة ثم يهنّئ نفسه ـ وإن كان الكاتب في حالات كثيرة هو الذي يستخلص المعنى لهذا القارئ في الواقع.

٢ـ دلالة جنس الأسماء:

تقول القاعدة العامة، في الأشياء التي ليست مذكّرة أو مؤنثة تذكيرًا أو تأنيثًا حقيقيّين، إن الأسماء التي تنتهي بالنهايات المؤنثة (تاء التأنيث والألف المقصورة والألف الممدودة) مؤنثة، أما الأسماء التي تخلو منها فمذكّرة. وأحد الأنواع القليلة التي تُعَد استثناءً مطردًا لهذه القاعدة محدد تحديدًا دلاليا: ويتمثل في الأسماء التي تطلق على الأشياء التي تظهر بصورة زوجية، مثل: "يَد"، و"رِجل"، و"كتف"، و"نعل"، فبعضها يجب أن يَظهر منتهيًا بعلامة التأنيث، وبعضها الآخر يمكن أن ينتهي بها.

٣ـ الأضداد: Enantiosemantic words

وسوف نعالج هذه المسألة في الفصل السابع. والواقع أنها أقل ثنائية مما تبدو في التأويل الميلودرامي لأبيل Abel، وفرويد، وبعض المشاركين في كتاب L'Ambivalence dans la culture arabe "الغموض في الثقافة العربية" حيث تُبين الكلماتُ ذات المعاني المتضادة Wörter mit Gegensinn عن وحدة الأضداد، أو التفكير التضادي البدائي. ويمكن أن يَتمثّل تركيبُ التقابُل، إن كان ذلك ممكنًا، بأحسن طريقة في الأزواج المتضادة

المألوفة التي يكون أحدُها غير موسوم لذلك يمكن أن يقوم بتمثيل البُعْد (مثل: 'كبير'، 'صغير'؛ 'ما مقدار كبره؟'، 'يعتمد على مقدار كبره')، وهذا مما لا يميز العربية.

يضاف إلى ذلك أنه لكي تصبح مقارنةُ المعنيين المتضادين في مثل هذه الكلمة بالإجراءات الثنائية الأخرى في قائمتنا، وهي التي تتميز جميعها بأنها تتابعية syntagmatic، ربما يكون من الواجب أن يكونا حاضرين في الوقت نفسه (بغض النظر عن إن كانت الكلمة تُستعمل أحيانًا بالمعنى الأول وأحيانًا أخرى بالمعنى الآخر في الجملة نفسها أو في الحادثة نفسها، أو أنها تستعمل مرة واحدة فقط استعمالاً واضحا). وربما يُمثّل هذا تورية. والعربية مُغرَمة بالتورية، لكنها ليست مغرمة بشكل خاص بالتورية التي تقوم على المعاني المتناظرة في التضاد.

(أما السنسكريتية، من جهة أخرى، فتُوحِّد التضادات التبادلية paradigmatic بالصفة التتابعية للمثنى: < يَوْمان > Ahanî 'اليوم والليلة').

٤ـ التضعيف:

ومن الطرق التي يؤثر بها على فكرة الأيقونية "التجسُّم" في العربية المعتدلة فيما عدا هذا الأمر (قارن بالفصل الخامس) تلك التي تتمثل في الأفعال المضعَّفة التي تتصرف بالطريقة نفسها التي تتصرف بها الأفعال الرباعية العادية (وهو الذي لا ينتج عنه الاختيار بين التضعيف بمفهومه الدقيق والتضعيف الذي يَنتج عن المغايرة الصوتية في الحركات ablaut). لهذا نجد أفعالاً نحو: 'رَفْرَفَ'، "لألأ"، "خرخر"، 'هبهب'، "تزعزع"، "هأهأ"، 'تلجلج'، 'تعتع'، "تدحدح"، 'زكزك'، 'ترجرج'، "تهزهز"، وكثير غيرها.

٥ـ الإجمال [التضمين]: merism

وكما يمكن للواحد في المثنى التغليبي أن ينوب عن اثنين، يمكن للاثنين أن ينوبا عن الكُلّ: فكما تعني 'المشرقان' (المشرق والمغرب)، تعني 'الشرق والغرب' أي: (العالم كله).

وهذا هو المبدأ الأسلوبي للتثنية إذا زُوِّج بالكناية من نوع "نيابة الواحد عن الجميع". وهذا النوع معروف في الإنجليزية واللغات الأخرى المألوفة، ومن أمثلته:

Bombs were falling right and left

"تسقط القنابل يمينا وشمالا " (في كل مكان)

a movie for young and old

"فيلم للكبار والصغار" (وهو ما يعني أنه لا يستثني متوسطي العمر)

Berg und Tall

"التل والوادي" (أي في كل مكان)

durch Dick und Dünn

"عبر الغليظ والنحيف" (دائما، في أي ظرف)

peu ou prou

"مهما كان المبلَغ"

وللاطلاع على امثلة من الأسبانية انظر ما أورده [اللساني الأمريكي المعاصر] يعقوب مالكيل Y. Malkiel في: "دراسات في ثنائيات التسمية التي لا يمكن عكسها"، رقم ١٧ في مالكيل (١٩٦٨). وقد جمع ريكندورف في كتابه: AS p. 32 f ، ومن بَعْده أوجست فيشر بطريقة دقيقة، عددًا من الأمثلة العربية، مثل: "ما طاروا وما وَقَعوا" (لم يعملوا شيئًا البتة)؛ "الأنجاد والأغوار" (كل مكان)؛ وبعضها بمصاحبة السجع والتوازن الإيقاعي وهو ما يجعل البنية الثنائية تصل حدها الأقصى من الإمكان التعبيري: "من جلَّ وقلّ" (الكبير والصغير)، و"عسر ويسر"، و"قَبْلة ودِبْلَة" (جيئة وذهابا)، و"الحلو والحامض". وكما رأينا في المثنى، تفتح هذه التركيبات الشكلية/المتلاعبة (الفنية) البابَ على مصراعيه للحماس الاستعاري، وكما يقول فيشر:

"فكل واحد من المفهومين الجزئيين مداريّ ومرتبط بالكناية، مما يؤدي بالدرجة الأولى في بعض الحالات إلى الغموض المشار إليه سابقا المكتَنَف بالتعميم".

Die beidn Teilbergriffe sind gern tropisch oder metonmisch, was in erster Linie die schon hervorgehobene gelegentliche Dunkelheit unsrer Merismen verursacht
(Fischer, p. 47).

لهذا تعني "الأحمر والأسود" إما "العرب وغير العرب" أو "الجن والإنس" وتعني في الحالتين "المخلوقات جميعا". (لاحظ أن التعبير المماثل في الفرنسية Le Rouge et le noir "الأبيض والأسود" يوضّح الكناية بالمثل - أي "الجيش والكنيسة" - لكنْ لا يَعني الإجمال: فهو لا يعني "كل النشاطات الإنسانية الممكِنة"، وإن كان هناك معنى إجمالي أساسي في رواية ستندال في قوله: all careers suitable for a man of ambition

"كل الوظائف الملائمة لرجل طموح".

وبقدر ما يظهَر جزءا التعبير على شكل عبارتين مستقلتين الواحدة عن الأخرى بدلاً من ظهورهما على هيئة مركّبيْن اسميَّين معطوفين يكون ذلك اقترابًا أكبر لهذا النوع من التضاد الذي سنناقشه في رقم (٧): "يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرض وما يَخْرُجُ منها وما يَنْزِلُ من السماء وما يَعْرُج فيها" (القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية ٢). (أي أنه يعلم كل شيء).

والإجمال تمييز تفصيلي داخل المقولات: أي أنه حَيِّز من الوجود أو الفعل يُمثَّل باثنين من أطرافه القصوى أو الأوضح. ولا يوجد التمييز التفصيلي عبْر المقولات في العربية حيث نجد الفكرةَ المعقَّدة التي يُعبَّر عنها بصورة أكثر طبيعية بتتابع يتكون من "مُحَدِّد - محدَّد" يُعبَّر عنها بتقسيم هذا التتابع إلى أسماء معطوفة متوازنة، كما في: to look with eyes and envy التي تعني: to look with envious eyes "أن تنظر بعيون حاسدة". ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: "الذين كفروا في عزة وشقاق" (سورة ص، الآية٢). وكذلك قول ابن قزمان:" ترى اليومَ وشطَاطْ". ويكاد المثال الأخير يدخل في التركيب المكوَّن من اسمين (المبتدأ والخبر) binomial nexus الذي سنناقشه في القسم رقم ٨.

قارن أيضا بهافرز (1931:46) Havers تحت اسم hendyiadyoin. وتشبه بعض الأمثلة التي أوردها الأمثلة التي جمعها ريكندورف تحت عنوان "النعت الشارح (المبيِّن [التفصيلي])" erläutendes Attribut (من مثل قوله تعالى: "يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه")، لكن لا يبدو أن هذه الأمثلة من قبيل التثنية المتوازنة توازنًا جماليًا واعيا، بل هي جزء من نحْو الاستدراك [البَدل] أو أنها من الملحَقات التي تُدخَل في المُلحقات المعطوفة المؤخَّرة، التي سنناقشها في الفصل الحادي عشر.

٦ـ الإتباع:[١٣]

وهذا هو الإجراء الذي يُصاغ به تابعٌ يتألف من كلمة متبوعة بكلمة أخرى (ولا يربط بينهما رابط في العربية) تتكوَّن من أصواتٍ مُقاربة لأصوات الكلمة الأولى، وقد تكون هذه الكلمة موجودة في اللغة أو تُرتجل لهذه المناسبة، ثم يكون معنى هذا المجموع إما المبالغة أو التأكيد.

أ ـ ويمكن أن تُعزِّز الكلمتان المستقلتان إحداهما الأخرى. لهذا يمكن لكلمة "قَضّ" وكلمة "بَضّ" أن تتتابعا لتؤديا صفةً حسية واحدة تعني "جميل" (انظر بيللا، ١٩٥٧). ونجد هنا أن المعنيين الأصليين امتزجا ليكوِّنا معنى واحدا. ومن ذلك أيضًا: "رقيقٌ دقيق".

ب ـ ويمكن أن تفرض كلمةٌ مستقلةٌ معناها على التتابع كلِّه، في حين يُتجاهل معنى الكلمة الأخرى؛ أو ألا يتكون معنى التتابع كله من مجموع معاني أجزائه.

فكلمة "مَرْج" بنفسها تعني "رَوضة"، أما إذا لحقت بكلمة "هَرْج" فنحصل على "هرج ومرج". ويلاحظ هنا أن الكلمة الثانية معطوفة على الأولى بحرف عطف، لكنَّ الواضح أن هذا المثال مصوغ من القالب النفسي نفسه الذي يسميه تشارلز بيللا "الإتباع" (ص١٣٤)، وهو الذي يجب ألا يظهر فيه حرف عطف، كما يجب أن يتألف من كلمة حقيقية وعنصر آخر يُمثِّل كلمةً مستقلة ليس لها معنى معجميًا. وينبغي أن نقارن هنا أيضًا بالتعبير: "أهلا وسهلا".

أما اشتراط شارل بيللا أنه يجب ألا يَكون العنصرُ الثاني كلمةً، أو ألا يكون كلمة لها معنى قريب من الكلمة الأولى، فشرط يَصعب تحقيقُه عند التطبيق، ذلك أنه لا بد أن يَنشأ عن الإتباع تَلَوُّنُ العنصرِ الثاني بمعنى الكلمة الأولى، يضاف إلى ذلك أنه ليس لدينا مادة كافية تصلُح دليلاً على هذا الشرط من زاوية تعاقبية في المعجم العربي. وأحد الأمثلة التي أتى بها بيللا نفسه للإتباع، الذي سماه: à peu près sur "ما يأتي زيادة على" (ص١٣٦) هو "تَعْدٌ مَعْدٌ"، حيث: "توحي كلمة "معد" بمعنى "السُّمْك" الذي لا صلة له بـ"تعد"". وتأتي

المعاجم بكلمة "رقيق" tender معنىً لـ 'مَعْد' نفسها، وهو المعنى الوحيد الذي أورده معجم هافا لكلمة "مُتَمَعِّد". ولا بد أن نفترض أن مثل هذا المعنى لا بد أن يكون ثانويًا، ومُشتقًا من التابع.

ج ـ ويمكن أن يُشتق العنصرُ الثاني الذي لا وجود له في غير هذا المكان من العنصر الأول، كما في (آكِد بالِد) ليعني: "دائم" (قياسًا على: 'خالِد". وبشكل مماثل التابعُ: 'كثير بَثير'، و'بَثير بَذير" الخ (كما يمكن أن تكون كلمة 'بثير" نفسها أساسًا تصاغ منه كلمة أخرى، كما هي الحال هنا).

ويأتي النوعُ الأول في الإنجليزية دائمًا للتأكيد كما في: high and mighty 'عالٍ وقوي"، و brave and bold 'شجاع وجريء'.

والنوع الثاني الذي يختلف فيه معنيا الكلمتين اختلافًا كبيرًا مما يجعل من الصعب إعطاءهما معنى واحدًا بطريقة بسيطة قليلٌ في الإنجليزية وفي اللغات الأخرى التي 'لا تهتم به اهتمامًا خاصا"، ذلك أنه يتطلب تأويلاً خلاّقاً في كل حالة. ومع ذلك نجد في الإنجليزية بعض الحالات القليلة منه مثل: full of piss and vinegar "ملآن بالبَول والخَل" وهي لا تعني أنه ملآن بأحدهما، بل هي عبارة للمدح، أما full of piss "ملآن بالبول' فربما لا تكون للمدح؛ وكذلك التعبير الألماني fix und fertig التي تعني 'جاهز" (وقد صيغت مع شيء من التلعُّب، في Schweinfurt "حظيرة الخنازير' في الأقل، لتدخل فيما يشبه النمط (ج)، وذلك كما في fix und foxi 'من عبارات التلاعب بالألفاظ بين اللفظين المتجانسين، والأول منهما يعني: ثابت" اتباعًا لإحدى الشخصيات في الأفلام الكرتونية)؛ وكذلك [في الإنجليزية]: hazy lazy crazy days of summer "أيامُ الصيف السُّرَابِيَّة الكَسولَة الحمقاء" حيث تُخفِّف الكلماتُ السابقة من وقع الكلمةِ crazy 'حمقاء' (كما في الأغنية الشائعة بهذا الاسم) وتجعلها تتخلص من بعض الارتباطات المألوفة لطاقتها المجنونة وهو ما يجعلها تتراجع، مثل مدير يقضي إجازته على ظهر زورق مطاطي، لتَنظَمَّ إلى القطيع وتصبح كأنها مرادف غامض لكلمتَيْ hazy و lazy ، وربما كان ذلك مصحوبًا ببقايا من الإيحاءات

بماضٍ متهور لا يزال ماثلاً في الذاكرة وإن كان الآن جزءًا من الماضي الذي لا يمكن استرجاعه.

والمثيل المطَّرِد الحي للنمط الثالث في الإنجليزية، وهو نمط: taxes shmaxes ، لا يُستعمَل لِيُقوِّي، بل لِينفي: أي إنه يُشبِه الموجات، التي يُلغي بعضُها بعضا [ويزاد الحرفان sh في الإنجليزية لأول الكلمة من أجل السخرية منها].

ولمقارنة النوع (ج)، انظرالمثال الأسباني التالي المعزول الذي أورده سبيتزار Spitzer (1948:81):

'إن الكلمة donas في التعبير: . ni dones ni donas . . . صياغة رائعة جدا. . .(ذلك أن الصيغة المؤنثة لـ don هي إما: doña أو dueña): ويمكن أن تفسَّر بأنها اشتقاق من don(es) ثم تصير عَرَضيَّةً للاستعمال عن طريق ارتباطها بهذه الكلمة فقط ـ وذلك بالطريقة نفسها التي تكون بها ínsulos ممكنة فقط حين ترد في العبارة: ni ínsulas ni ínsulos. ويقصد بمثل هذه الصياغات أن تُبعِد عن الاعتبار التنوعات المحتمَلة كلها للأصناف التي يعبِّر عنها جذرُ الكلمة ـ وهو الميل الذي نجده في كثير من اللغات، قارن بالمثال التالي من التركية مثلا: šapka yok mapka yok "ليس لدي قبعة أو أي شيء آخر' (حيث تكون mapka كلمة لا معنى لها مبنية على نمط šapka). . .'.

وللاطلاع على قائمة من الأمثلة الألمانية من الكلمات الثنائية المتشابهة صوتيًا من مختلف الأصناف، مع مثائلها في اللغة الهولندية، انظر Nyrop (1903: 183-185)

ويحلل شارل بيللا في مقاله الرائع هذه العملية كأنها نوع من الاستعارة البلاغية الثنائية، 'مزاوجة أو ازدواج' L'<<accouplement>> connu sous le nom de ثم يقترح: 'أن هذا يستجيب لنزعات قديمة إلى استخدام أزواج [من الكلمات المتلازمة] على ما يظهر، بشكل آخر، في المتلازمات الاعتباطية من قبيل: 'يأجوج ومأجوج' و'جالوت وطالوت" التي لا تزال مستعملة في اللهجات'.

il répond à une vieille tendance à l'accouplement qui se révèle, sous une autre forme, dans les couples arbitraires
bien vivant dans les dialectes

ومن المؤكد أن هناك نوعًا ثلاثيًا من 'الإتباع'، إذ يمكن أن يزاد على التابع الثنائي: 'حَسَن بَسَن' كلمة أخرى هي "قَسَن'، حيث يعني التابعان كلاهما: 'جميل جدا' (قارن: pretty-pretty, joli-joli)؛ غير أن هذه الأمثلة التي يمكن أن تُعدّ أصداءً للأصداء، ليست إلا انحرافًا عن الإجراء الثنائي أساسا. (ويتضح هذا في حالة 'كثير بثير بذير'، حيث لا يمكن لـ "بذير' التي تختلف عن الكلمة الأساسية في التتابع في صوتين صامتين، أن تكون مولَّدة مباشرةً بالطريقة المألوفة. انظر الفصل الخامس للاطلاع على أمثلةٍ من الارتباط الثانوي الذي يَعمَل على صوتية مفردة بشكل متدرج). وبالطريقة نفسها نجد الإنجليزية واللغات الشبيهة بها تعمل العمل نفسه عن طريق تكرار السجع الاستهلالي alliteration أو المغايرة ablaut :

toil and moil
gang und gäbe
bel et bien

التي يمكن زيادتها بطريقة استثنائية إلى ثلاثة:

spirit soul and spark plugs
fish, flesh, or fowl
morning, noon, and night

وقارن بـ:

day and night,
rub-a-dub-dub

وفي الفرنسية والروسية:(pif paf (pouf ؛ وقارن مرة أخرى بمالكيل في المرجع السابق، أو تصاغ بصفتها ثلاثية أساسا:

bell, book, and candle
free, white, and 21

ويبدو أن النمط المكون من كلمتين هو الأقرب إلى الأصل التعبيري، كما يمكن ملاحظته في الإنتاج الفوري عند الأطفال، ومن شيوع المعاني الساذجة أو الغامضة حتى في الثنائيات المُعجمة في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي، وذلك في مقابل التعابير الطنانة مثل:

fire, flood, and famine

والتعابير الخاصة بالكبار مثل:

wine, women, and song;
rum, Romanism, and rebellion

أو التعابير الثلاثية الممزوجة بالمفارَقة:

bibles rum and rifles

- وهي وصف ساخر للهدايا التي يقدمها المستعمِرون للمستعمَرات؛ وكذلك:

banshees, goblins, and things that go 'hoo' in the night

وللعبارة الفرنسية: tout se tient "كل شيء يشد بعضه بعضا" تأويل بنيوي متزامن يقرب من كونه: rigor mortis ؛ وقد يصل إلى tout se touche "كل شيء يتلامس" وهي التي تعطي دفعًا لما يجاورها. وإذا ما صيغ الإتباع صار موضوعًا لإعادة البناء عن طريق ضغط "الإجمال".

""فجائع نائع" مثال نموذجي للإتباع، وتعني تقريبا: "يموت جوعا" (يتضور جوعا)؛ لكن مفهوم الجوع يقترن بالضرورة بمفهوم العطش؛ لذلك، وبحكم المنطق العربي [أي منطق المغايرة] القائم على الجمع بين المتقابلات، جيء بـ"نائع" لتشكل العنصر الثاني من العبارة الاصطلاحية. وانتقلنا بذلك من "يموت جوعا" إلى "يموت جوعا وعطشا"، مما أتاح لنائع أن تكتسب قدرًا من الاستقلالية".

فجائع نائع:

cst un pur Itbâc don't le sens est à peu près "mourant. . . de faim"; mais à la notion de faim s'allie nécessairment celle de soif et, la logique arabe [viz. That of polarity] intervenant, nâ'ic a été pris pour le second terme de la "paire" habituelle, de sorte que de "mourant de faim" l'on est passé à "mourant de faim et de soif", ce qui a permis à nâi'c d'acquérir une certaine indépendance" (135)

(ومن الأنواع الشائعة، في اللغات الأوروبية المعاصرة في الأقل، التطور المضاد لما كان في الأساس كلمات متناظرة لتظهر سوية وتتحول من ثم لتكون مترادفات، مثل: Kith and kin).

قارن بـ "من هَبَّ ودَبَّ" وهو تعبير إجمالي في المعنى لكنه يشبه الإتباع من حيث التركيب، لأن أجزاءه لا تبدو صالحةً بشكل منفرد لأن تُعنى الإنسانية بكاملها. والإجمال نفسه مُغرَم، بالطبع، بالسجع الاستهلالي والمغايرة، بغض النظر عن أية مساعدة من الإتباع: move heaven and hell "تخطّى كل العقبات"، peu ni prou ni "بغض النظر عن المَبْلَغ"، وكذلك التعبير في اللغة النورسية القديمة: (Hrafnkels sage) akr né eng "لا ميدان ولا أحدود"، sitja ok stand (في الإشارة إلى الاستراتيجيات والنشاطات المختلفة قبل المعركة).

٧ـ المقابلة: Antithesis

وقد رأينا إلى الآن تزاوجًا بين الكلمات التي تتشابه في الأصوات المكوِّنة لها لغرض المبالغة (نحو: تراكم الكلمات التي تقرُب من الترادف) والأثر الإجمالي (جمع الأضداد في وحدة شاملة). كما أن الشعر العربي مغرم باستخدام التناقض الخالص ووسائل التوازن المماثلة الأخرى:

والصبحُ قد أهدى لنا كافورَه   لَمّا استردَّ الليلُ منا العنبرا

(ابن عمار، في منرو ص ١٨٨).

وتوجد قائمة مختصَرَة، في المقدمة التي كتبها آربري لكتابه Arabic Poetry لأنواع "التجنيس" (وهو الذي نجده في الكلمات التي تتماثل في الجذور)، و"التضاد" (antithesis كما في المثال أعلاه)، و"التكافؤ" (وهو الذي لم يُميِّزه آربري بوضوح؛ وربما كان هو المقارنة: synerisis في الجمل المتوازية، وربما كانت أكثر شبهًا بـ "كافور" <-> "العنبر" من شبهها بـ "الليل" مقابل "النهار")، و"المقابلة" (مع التوازن التركيبي؛ انظر رقم (٨))، بالإضافة إلى الإجراءات الشعرية الثنائية الأخرى، لهذا لن نورد مزيدًا من الأمثلة هنا، بل سنكتفي بالإشارة إلى أن الطباق ليس أمرًا من أمور الأسلوب فقط، بل هو جزء من مكونات اللغة الأساسية، وهو يستطيع أن يُحدِث بعضَ التغييرات الصرفية والدلالية عن طريق نوعٍ من

أنواع الضَّغط الصَّرفي paradigm pressure[١٤]. ومن الأنواع التي يَحسُن ذكرُها لتلاؤمها الخاص مع عبقرية العربية النوع الذي يسمى: "التجنيس المقلوب" anagrammatic pairing - وهو نوع من التقاطع المعجمي بدلاً من كونه تقاطعًا تركيبيا:

وَبِلَذْعِ عَذْلِي لو أطَعتُك صائري

(آربري ص ٢٣)

ويشير شارل بيللا (١٩٥٧، ص١٣١) إلى غرام المؤلفين العرب بمثل هذا التلاعب اللفظي في عناوين مؤلفاتهم، مثل: "كتاب أعمال الأعلام"، و"لب الألباب في عِلْم الإعراب"، وهو ما يبدو غريبًا جدًّا على عناوين الكتب الأوروبية المتجهِّمة مثل: Towards a Prolegomena to a Theory of. ويقول:

"لم يكن يُقصد بظاهرة "الإبدال" هذه أن تثير الضحك مطلقا. هل قلت: "إبدال؟" إن في الكلمة ذاتها شيئا يبعث على الضحك".

Cette contrepetterie n'était nullement destinée à provoquer le rire. – Contrepetterie! Le mot lui-même a quelque chose de comique.

والواقع أنه لم يكن يُقصَد بهذه العناوين أن تكون ساذجة بمثل سذاجة الظاهرة اللغوية التي تسمى بالسبونرزم [وهي الخطأ في نطق الأصوات، حيث تنطق بعض الأصوات بدلاً من نطق بعض الأصوات الأخرى المقصودة]؛ بل إنني سأدهش إن لم تكن قد نُبعت من نوع من التلعُّب الحكيم le gai savoir[١٥].

ومن هذا الصنف أيضًا تلك الأزواج المسجوعة التي يحدث أن يكون لها تأويل إجمالي أو تكون نتيجةً للمغايرة في الأصل، لكنها طِباقيَّة بكل بساطة، نحو: "فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا" (سورة الشرح، الأيتان:٥ و٦)، و"عذرا أو نذرا" (سورة المرسلات: الآية ٦).

٨ ـ الرابط بين الاسمين[١٦]: Binomial nexus

تفتقر العربية، شأنَ الروسية، إلى رابط فعلي copula في الجمل الاسمية الرئيسة إذا كانت في الزمن الحاضر [إذا كانت مكونة من مبتدأ وخبر]. ويُمكن أن تُسِم هذه الخصيصةُ، بالإضافة إلى تماثل الاسمين في الإعراب، الجملَ التكافؤية equational بمظهر تناظري ثنائي الأجزاء:

محمدٌ طالبٌ

هندٌ جميلةٌ

وكما قلنا في بداية هذا الفصل لا يقع هذا النوع، بنفسه، ضِمْن صِنْف الثنائية المتوازنة الذي اقترحناه، أو لا يقع ضمنه من غير تعليل إضافي، في الأقل. ذلك لأسباب منها، أولاً: انه بالرغم من أن المبتدأ والخبر الاسميين كليهما مرفوعان كما في الجمل التي أوردناها هنا، إلا أنهما ربما يختلفان في علامة الإعراب أحيانا:

الطالبُ فقيرٌ

ثانيا: أن الرابط الذي لا يَظهَر في هذه الجمل التي تُحيل إلى الزمن الحاضر أو التي لا يَظهَر فيها عنصرٌ للزمن ربما يَظهَر على هيئة فِعلٍ في صيغة الماضي أو المضارع الاحتمالي، الخ، ويَعمَل في الخبر كأنه مفعول مباشر له:

كان محمد طالبا

يضاف إلى ذلك، انه ربما يظهر الرابطُ، حتى في الجُمل التي زمنُها الحاضرُ، على هيئة ضمير يقع بين الاسمين:

هذا هو الولدُ

كما أن الموضعين ليسا متساويين من حيث قبولهما لظهور الأنواع المختلفة من الأسماء. ومن ذلك أنه يُفترَض أن يكون الاسمُ الذي يَحتل المكانَ الأولَ في الجملة معرفةً، فإذا لم يكن معرفة فلا بد أن يُؤخَّر إلى المواضع المتأخرة في الجملة في كثير من الحالات:

*رجلٌ في الدار

في الدار رجل

لهذا لا نجد في السلسلة الاسمية في العربية بصورة عامة تناظرًا ثنائيًا لافتًا للنظر. ومع ذلك يمكن أن نفترض أن الأنواع غير المتناظرة لا تزيد بمعنى من المعاني عن كونها تطويرًا وصقلاً للجمل الأساسية الأصلية المتناظرة من نوع: "محمدٌ طالبٌ". قارن ذلك بالأداة que في الفرنسية التي تكون وظيفتُها في العادة تعيينَ أنَّ ما يأتي بعدها تابعٌ لما قَبْلَها، حين توضع بين الخبر والمبتدأ في مثل: Drôle d'homme que ton frère (وما سيأتي بعدها لا يكون تحليلاً بقدر ما هو تبيين).

لهذا قد يكون الإسناد في الجمل الاسمية الأساسية نوعًا من الثنائية المتوازنة مما يُمكِن مقارنتُه بالجمل التقديمية presentatives التي لها مقتضيات إسنادية، نحو(١٧):

"Red sky at morning, sailor's warning; red sky at night, sailor's delight,"

"احمرار السماء في الصباح، تحذيرٌ للبحّار؛ احمرار السماء في الليل فَرَحٌ للبحار"

"Träume, Schäume"

"أحلام، فقاعات"

وتكاد هذه العملية تكون إجراءً تجسيميًا، وهي شبيهة بأن يقوم وكيل نيابة ما district attorney ، بحركة مسرحية، بإمساك صورة مجرم منشورة في صحيفة بيَدٍ والإمساك بيده الأخرى بصورةٍ للمتهَم مأخوذةٍ من سجل الشرطة: وهو لا يقول شيئًا في هذه الحال، لكنْ يبدو كأنه يقول: "انظروا! يمكنكم أن تتحققوا أنهما صورتان للرجل نفسه". أو احتمال استعمال محامي الدفاع الحركةَ نفسها ليُظهِر للناس أنهما ليستا متشابهتين. ويمكن لمثل هذا الزعم الثنائي أن يوحي أيضًا بإسنادٍ غير تكافؤي (وربما يكون منفيًا)، وهو شبيه بما يَحدُث حين يَنفُض ساحرٌ قبعته الفارغة ثم يشير إلى إناء يحوي سمكة ذهبية: وهو لم يعط أيَّ إسناد، لكننا نفهم "أن شيئًا مهمًا سوف يحدث بين هذين الشيئين". والأنواع الثلاثة كلها موجودة في العربية، حيث تصاغ في تراكيب سلسلية مَثَليَّة يُعيِّن فيها التوازنُ عن طريق رَبط الاسمين (أو الضميرين) "أ" و "ب" بحرف العطف "و"، أو أحيانًا بحرف "أم"، أو بحرف العطف "أو". فإذا لم تُعطَ أيةُ معلومات إضافية زيادةً على الكلمتين المكوِّنتين للجملة، فسيكون المعنى "إن هذين

الشيئين يَنتمي الواحدُ منهما إلى الآخر"، أو "إن هذين الشيئين يتعارضان". أما إذا أُعطيتَ معلوماتٍ إضافية عن طريقِ عبارةٍ أخرى فسوف تَحصُل على علاقة دلالية ما بغضِّ النظر عن درجة تعقيدها، لكن هذه العلاقة تُحلَّل إلى ثنائية متوازنة أساسية مصحوبةٍ بعبارةٍ تابعةٍ مؤخَّرة: وسوف نجد استعمالاً أكثر اطرادًا من هذا النوع من التركيب، إلا أنه سيظهر في مثل هذه الحال في جملة عادية بصفته بؤرة core كما في تركيب التمييز (انظر الفصل الحادي عشر).

لاحظ مثلاً الحالات الآتية:

أ ـ حين يكون المُقتضى أنَّ "أ" تنتمي لـ "ب" ـ وهي سلسلةٌ إقراريَّة أو للحضِّ (للاطلاع على أمثلة من لغات سامية أخرى، قارن بيروكلمان ٢ ص، ٧ تعليق).

أنت وذاك (AS 325)

كلُّ شيءٍ وثمنُهُ

كلُّ إنسانٍ وهَمُّهُ (رايت ٢، ص ٨٤)[١٨].

وقد مال التوازنُ في المثالين الأخيرين قليلا: إذ تختلف حالتا "أ" و "ب". (وتسمى "الواو" مع هذا التعديل والمعنى ـ "*واو اللزوم*"). لكن هذا لا يُلغي بأي حال الظنَّ بأن مثل هذه السلسلة تولَّدت أصلاً عن نوع من التوازن. ويقول نولدكه في Zur Grammatik No. 36:

"لا نجد كثيرًا المفعولَ بعد الواو بمعنى "مع"...

"Der Accusativ nach *wa* in der Bedeutung 'mit'. . . ist nicht häufig zu constatieren"

ثم يورد مثالاً مرفوعا. ومعنى "مَعَ" الذي للواو، وهو الذي يُحقِّق استقلالاً تامًّا في البنى غير المتوازنة (المكونة من مركَّب فعلي + مركب اسمي) نحو: "سرتُ والنيلَ"، تطورٌ، لا شك، من تركيب عَطْفيٍّ متوازنٍ لم يكن فيه المتعاطفان يتماثلان في الفاعلية أو الأهمية الموضوعية thematic prominance . كما يَحتمل بالمثل أن يكون أيُّ وَسْم يؤدي إلى التخالُف ثانويًا، أيْ أنه محاولةٌ لجعل الكلمة التي كانت قبل ذلك رَديفَةً تظهر على أنها تابعة.

وهذه هي الحال، إن اقتنعنا بفكرة بروكلمان (ج٢، ص ٨) وآخرين، التي ترى أن هذا "النَّصْب"، الذي يَبْعُد كثيرًا عن كونه "معمولاً" لعطف النَّسَق coordinating conjunction في الأصل، إنما هو ببساطة نتيجةُ لِجُعْل حركةِ الفتحة الطويلة التي تدُل أحيانًا على الفُجاءة تأخذ هذا النصب خصيصةً نحويةً لها من غير أن تكون نتيجة لعمل عامل grammaticalized .

قارن أيضًا ببعض الحالات الأخرى التي ينتهي فيها العنصران في إسناد ثنائي غير صريح إلى أن يكونا منصوبين، مع أن أيًا منهما ليس معمولاً لأي شيء في الواقع:

"[ف.] قال[لهم رسولُ الله] ناقةَ الله وسُقياها"
(سورة الشمس، الآية ١٣)

وبعض الحالات التي يكون فيها التتابع من كلمتين تختلفان من حيث صيغة الكلمة ولا يربط بينهما رابط (لهذا فهي ليست من النوع الثنائي المتوازن المعهود، بل هي مقارَنةٌ يقصد منها التهوين من أهمية "المنصوب"). نحو:

"رُويدًا عَلِيًّا" (بروكلمان، ج٢، ص ١٦)

ومثل هذه البنى طبيعية جدًا، خاصة أنها ليست إلا نوعًا من عطف النسق لسلسلة مربوطة ربْطًا غير عَلَني وتنتمي إلى النوع الإسنادي المألوف:

"لِباسُهم Ø حريرٌ"
"إحداهماØ دمٌ"
"الدهرُ Ø الوانٌ"

[حيث تعني Ø غياب الرابط]

بالإضافة إلى أنواع كثيرة أخرى من العلاقة الدلالية المحدَّدة، وهي التي تُشتَق كلُّها ذرائعيًا من استراتيجية أساسية هي (ألحِقْ "أ" بـ "ب").

وعلى الرغم من كون العطفِ المتوازن الذي يتّسم بمقتضى شِبه تكافؤيٍّ تركيبٌ طبيعي إلا أنه تركيب غريب أساسًا في الإنجليزية؛ يضاف إلى ذلك أن الإسناد غير النَّسَقي (أي التكافؤي المألوف) نفسه لا يُستعمل بشكل واسع من أجل الأغراض المتعددة التي يُستعمَل لها في العربية. فنحن نقول: Everything in its season "كلُّ شيء في حينِه"، مُستعمِلين أداةً رابطة بدلاً من التوازن (Everything and its season* "كلُّ شيء وحينُه")، ومثلُه: each To his own "لكل واحد ما يَملِك" بدلاً من: (Each and his* own "كلُّ واحد وما يملِك"). وأقرب مثيل له الإجابةُ غير المهذّبة للسؤال: ?Got a match "هل لديك ثِقاب؟": Yeh, my a** and your face "نعم، [كلمة نابية] ووجهك"، حيث جاء ما يُشعِر بالعلاقة الدلالية في البداية. أو: A man, a plan, and canal; Panama "رَجُل، خِطَّة، وقَناة؛ بنما" حيث يُقرَأ التركيبُ بطريقة عكسية. أما في الإسناد فنقول: John is my friend "جون صديقي" - وهي عبارة تحمل قدرًا من التهكم، تبعًا للمنظور الكورزيبسكي - لكننا لا نقول في العادة: John is two hundred centimeters/pounds "جون مِتتا سنتيمتر/ رطل" [يبلغ طول جون مائتي سنتيمتر/ يزن جون مائتي رطل] (أما ما نقوله فهو: Tall .is 200 cm، و .weighs 200 lbs) "جون مئتا رطلٍ وَزنًا/ مئتا سنتيمتر طُولاً" - ذلك مع أننا لا نفضِّل مثلَ التركيب المجرَّد التالي: A and B ("أ" و "ب") قارن ذلك بـ:

A place for everything and everything in its place

"مكانٌ لكلِّ شيء وكل شيء في مكانِه"

وهي من نوع التناظر العكسي للإرداف.

ب - وبالمقتضى الذي يقول إن "أ" لا تنتمي إلى "ب" - أيْ حين تكون سلسلةً نافيةً أو تهديدية أو تحذيرية (وقد أخذتُ المصطلحَ الأخير من جسبرسن، انظر ١٩٢٤، ص ١٣٠) فنجد أمثلة نحو:

"إنَّ مَحَلاً وإنَّ مُرتَحَلاً"

وكما هي الحال مع بعض الأمثلة للسلاسل من النوع "٦"، نلحظ ملاءمةَ هذا الأسلوب، الذي لا يتضمن فِعلاً، للأسلوب العالي المأثور.

وهناك مثال مشابه يظهر فيه عطفٌ نسقيٌّ متوازن لسلسلة تتكون من عناصر متنافرة ذات وظيفة إسنادية في الإجابة عن ثنائية تناظرية خالية من الرابط الفعلي تُصنَّف على أنها نوع من الإسناد الحقيقي بدلاً من مجرد عدِّها تتابعًا تجاوريًا ذا وظيفة إسنادية، ذلك ببساطة أن هذا النوع الخالي من الرابط الفعلي نوع إسنادي مألوف في العربية. ويستطيع السامع في كلتا الحالتين أن يَستخلِص مضمونَ العلاقة بين العناصر التي يُجمِّع بعضها إلى بعض من أجل الاستقصاء:

"الزبابةُ ø الفأرةُ؟"

"إنَّ الزبابةَ وإنَّ الفأرةَ"[١٩].

وهذا النوع نادر وهو غير صريح بدرجة كافية. أما النوع الأكثر شيوعًا فهو:

"رأسَكَ والحائطَ"

ولا يزال هذا النوع غيرَ صريح، ومع ذلك فكثيرًا ما نجد بعض الأسماء التي لا يوجد لها عامل ينصبها ولها وظيفة تحذيرية، نحو: "الأسدَ!" (التي تعني: احذر الأسد). ونلحظ هنا أن المنصوب غير مهذب well profield ، لأنه يُستعمَل في مواضع متنوعة كثيرة. لكنَّ العامل الذي ينصب الضميرَ المنفصل أقلُّ ورودا، وبما أنَّ المعهودَ أن يَلصق الضميرُ المفعول اللاصق بالفعل، فقد استُعملت الأداةُ "إيّا" لمجرد مَنْع تتابع الضمائر المتعددة غير المرغوب فيه وحسب. أما في البنية التي لا يظهر فيها الفعل وهي التي نناقشها هنا فليس هناك مكان يوصل به الضمير اللاصق، لهذا نضع الضمائر في حالة النصب مع "إيا":

"إيايَ والشرَّ" (تجنب الشر) (رايت ٢ ص ٧٦)

"إياك وإياها" (احذرها)

وبما ان لدينا الآن أداةً عالية التهذيب high profile تُظهَر في ثنائيةٍ متوازنة لها أهمية إسنادية معيَّنة، تكتسب الأداةُ بعضَ الدلالة ويُمكنها لذلك أن تُستعمَل في سياقات تركيبية جديدة لتجعل تأويلَ البِنية ("أ" و"ب") أكثرَ صراحة:

"إذا بَلَغ الرجلُ الستينَ، فإياه وإيّا الشَّوابّ"

ويمكن أن تكون "ب" في ("أ" و "ب") جملةً تامة مُصَدَّرة بالحرف الناصب "أن"؛ ولأنها تقترن الآن بضمير حُرٍّ فإنها بهذا قد ابتعدت عما كان في الأصل توازنًا إيقاعيًا؛ لذلك لدينا هنا عَطف نسقيٌ لا تناظر:

"إياك وأن (تفعل كذا وكذا) "

وبهذا تخلَّصنا من عطف النسق التوازُنيِّ نهائيًا، من أجل الحصول على عطفٍ من النوع المألوف، مثل: "إياك أن "جملة".

وإذا عدنا إلى الأزواج المتوازنة، التي تُظهَر في هذه الحالة بدلالةٍ أكثرَ صراحة قليلا، هناك بعض الأنواع التي تُصحَب فيها أداةُ استفهامٍ أو أداة نفي أو ما يشبهها التركيبَ ("أ" + "ب")، وهو ما يؤدي إلى الإشعار باحتمال أنَّ التابع التَّجاوُري يتصف بالتنافر :

"لا أنا ولا زوجي" (بروكلمان ٢ ص ٨).

ومثله التراكيب المكونة من:

"ما "ضمير" و"ضمير"، ما "ضمير" و"مركب اسمي"، الخ. (التي تعني: "ما علاقة "أ" بـ "ب"؟)

والعنصر الثاني هنا منصوب في العادة (كما لو كان معمولاً للواو)؛ لكننا نجد تنوعات أخرى لهذا التركيب لا يكون فيها العنصر الثاني منصوبا:

"ما أنتَ والذِّكْرُ" (نولدكه، ١٨٩٧: رقم ٣٦)[٢٠]

"ما أنت أم ما ذِكرُها" (Reck. As 311).

وتسمى الواو التي يَتبعُها المنصوبُ من هذا النوع (عادةً) 'واو المعية'. وهي مَحطة وسطى بين العطف المتوازن وبين الربط الأداتي hypotaxis. والخطوة التالية أن يُستعاض عن الواو بـ "من"، وهي الأداة التي تستعمل حرف جر في الاستعمال المكاني):

'ما أنا من ""مركب اسمي""؟ [التي تعني: "ما علاقتي بكذا"].

***

وكما رأينا في مسألة الإتباع، نجد أحيانا توسُّعًا يتجاوز الأساس [التركيب الأصل] الثنائي:

'ما أنت والتدبير للمُلْك ونظْم السياسة وتدبير الجيوش' (Reck. SV 451).

***

وللسلسلة التي تعبِّر عن التَّنقُّص شبيهٌ قريب في الإنجليزية واللغات القريبة منها:

He a gentleman?
Him a sailor?

(لاحظ النصب في الضمير him)

Der und Landvogt?

(مع الرفع)

A sailor and afraid of the weather!

"أبَحّارٌ وخائفٌ من الجو! "

Vous favori! Vous grand! (La Fontaine. Fables X.9)

قارن بـ:

Three years in the Klondike and nothing to show for it

"ثلاثُ سنواتٍ في كلوندايك ولم تحصل على نتيجة"

وهي أكثر طبيعية من الجملة التي من النوع "أ":

Three years in the Klondike and $2,000,000

"ثلاث سنوات في كلوندايك ومليونا دولار"

***

وحين نصل إلى الصنف التالي نجد حالات مثل:

"شتان أخوك وأبوك" (بروكلمان ج٢، ص١١)

حيث لا تنتمي عبارة "شتان . . . " هنا إلى فصيلة الأفعال، وهي لا تنتمي إلى أي قسم محدد من أقسام الكلام في هذا القول المَثَليّ كذلك، إنما تُستعمَل لتبيين أنَّ المشار إليهما اللذين يتبعانها يختلفان اختلافًا واضحا. لذلك يُعد هذا القول فرعًا من حيث التركيب لكنه مُستخدَم بكثرة وصريح، وهو لا يختلف عن نوع التركيب (ما "أ" و "ب") الخ، إلا في أنَّ "ما" أكثر عمومية، لذلك فوقوعُ عبء التأويل على السامع أوضحُ في حالة "ما" وغيرها.
ومثل ذلك أيضا:

"شتانَ ما بيني وبينك"

"شتانَ ما بينهما"

وأقرب شبيه لهذه التركيبات في الإنجليزية يمكن أن يكون تعبيرات مثل:

Carter and Reagan - it's like night and day

" [الرئيسان الأمريكيان] كارتر وريجان - إنهما كالليل والنهار" [يشبه أحدُهما الآخرَ شَبَه الليل بالنهار[أي أنهما مختلفان جدا]].

ج - وإذا ما أُضيفَت عبارةٌ أخرى للتركيب الأساس (أ + ب) فالمحتمل أن تأتي معها بأنواع متعددة من الدلالة. وقد رأينا توًا مثالاً من هذا النوع مع "شتان"، حيث لا تزيد الدلالة المُضافة في الغالب عن كونها تلك الدلالة التي نفهمُها في أحيان كثيرة من الثنائية غير الصريحة. ونجد في هذا الصنف الثالث أن المركَّبين الاسميين التوأمين يرتبطان بشكل يشبه الإلحاق، إما عبْر الاستعارة المُوَارِبَة، مثل:

Reagan and Carter – it's like Beirut

"ريجان وكارتر ـ إن حالهما مثلُ بيروت"

(تلك المدينة المقسَّمة بشكل واضح)، أو بربطهما على شكل تَناسبيٍّ صريح كما في: ("أ" لـ "ب" مثل "ج" لـ "د")

"مَثَلُ الجليس الصالح والجليس السُّوء كـمَثَلِ صاحب المِسْك وكِير الحدّاد"
(Reck. SV 453)

(وفي هذه الحال لا تُفسَّر العلاقة بين "أ" و"ب" في الحقيقة عن طريق الإلحاق، ذلك أن التناسُب "أ" : "ب" هنا أوضحُ من التناسب: "ج" : "د"، وتمثّل "أ" و "ب" هنا بديلاً للتركيب الأكثر ألفًا: ("ج" و "د")).

ومن الأمثلة التي تَظهر فيها العلاقة غير صريحة وغامضة:

"إنَّ هذا وإيايَ كما الحسينُ. . . " (Reck. SV 326).

"إني وإياكم كذي غلامٍ أرْهَنَتْ له ماءَ عينيها" (Reck. SV 452، وأمثلة أخرى مذكورة هناك).

***

وفي كلٍّ واحد من الأصناف الثلاثة التي ذكرناها آنفًا هناك بعضُ الأمثلة التي تُبين عن بعض التطور مبتعدةً عما أحسِب أنه البنيةُ الثنائية التناظرية، إن لم تكن هذه البنية هي أصلُها تعاقُبيًا، أو أنها الحالة المثالية لهذه البنية في الأقل، حيث يُؤوِّل فيها السامعُ القيمةَ الإسنادية المحدَّدة عبر بعضِ الطُّرق المألوفة عموما. وهذا أمر لا مفرَّ منه، ذلك أن هناك عدم تناظُرٍ مُتأصِّلٍ في التمثيل اللغوي للزّعم المزدَوج: وسببُ ذلك أن اللغة تُنتِج بصورة خَطِّيَّة، لهذا لا بد أن يُذكَر أحد العنصرين قبل الآخر، حتى إن لم يكن المقدَّم أكثر أهمية منطقيًا. وهذا يكفي فيما يخص الجملة الأساسية الشكليَّة التي يُمكن أن تنضج لتُصبح إسنادا، ذلك أنَّ المتكلم في العادة لا يريد ببساطة أن يُشير إلى شيئين ثم يتوقف عند ذلك. لكن هذا التجاوزَ

يُمكِن ان يتطور في اتجاهات اخرى كذلك، كأنْ يَتطور على شكل مُقتَضيات من مختلف الأنواع:

Once bitten, twice shy.

"من لُدغ مرة، خاف مرتين"

Nothing ventured, nothing gained.

"من لم يبحث عن شيء، لم يفز بشيء"

Another day another dollar.

"يوم آخر، دولار آخر"

Write today and get a free booklet.

"اكتب اليوم واحصل على كتيب من غير مقابل"

You touch that chopper and I break both your ankles.

"المس ذلك الساطور وسأكسر لك كاحليك"

(ثم قارن بـ: "عِشْ قانِعًا، تَكُنْ مَلِكا". وهي ليست متوازنة تماما، ذلك أن الفعل الأول أمر، والثاني جواب الشرط).

وليس هناك حدٌّ صارمٌ بين الاقتِضاء والإسناد، فحين تكون ("أ" و "ب") صِنفين لا ينتميان إلى قسم معين من أقسام الكلام، فإن "أ 'نكرة' هي "ب" "نكرة"" تأتي على شكل مجموعةِ تناسُبٍ على الشكل التالي:

أ ≤ ب، أي : س ∋ أ ⟵ س ∋ ب

[س ينتمي إلى أ، وس ينتمي إلى ب]

وبما أن الاسمَ المفرد يمكن أن يمثّل صِنفًا فإن الانتماء إلى المجموعة Set- inclusion لا يكون له ميزةٌ خاصة: traduttore, traditore 'الترجمة خيانة / المترجم خائن' (وهو ما يعني: أيُّ ترجمة هي خيانة، وأي مترجم هو خائن). ومن الواضح أن تعميم المعنى موجود في النوع المختلَط الذي تمثّله نُكَت من نوع:

show me a. . . and I'll show you. . .

"أرني . . . وسوف أريك . . . "

التي لها شكلٌ إرداقيٌّ شَرْطيٌّ يَصِل بين حَدَثَيْن مُفرَدين، ولها مضمونٌ إسناديٌ كلّيٌ، أي: (كلُّ "أ" هيَ "ب")؛ وكذلك في الجمل التي لها فاعل عام نكرة، حيث تختار الإنجليزية شكلاً من الإسناد:

Whoever does that is a fool

"من يفعل ذلك فهو غبي"

في حين تَستعمِل العربية ما يبدو كأنه تركيب شَرطي (تتابع من الأزمنة):

"مَنْ فعل ذلك فهو بهلول".

٩- النثر الإيقاعي المسجوع:

تَظهر الجُملُ التي تتماثل نهاياتها صَوتيًا، من النوع الذي نُسميه سجعًا في العادة، على شكل زوجين من العبارات. وليس هذا الإجراء ثنائيًا بشكل كبير؛ فليس هناك حدٌّ لعدد العناصر التي يتكوَّن منها، كما أن الشعر العربي من جهته ليس مُؤسَّسًا بصورة دقيقة على الثنائيات المكوَّنة من بيتين ينتهيان بقافية واحدة. (وهذه الحقيقة الأخيرة مهمة. فقد رأينا أن العربية تحب التلعُّب بخاصيَّة الثنائية، بل إنها قد تتلعب بها أكثر من تلعبِ الفرنسية في أية فترة من تاريخها، لكنها لا تَستعمِل هذا المبدأ الجَمالي إلى حدوده القصوى). وحين تتكون العبارات المسجوعة من عنصرين ويَكونان (كما هي الحال في الغالب) متوازنَيْن عروضيًا، تكون النتيجة سجعًا مُوشوشًا، أو متألّقًا. ولما كان المتخصصون في العربية لا يحتاجون أيةَ أمثلة منه، وغير المتخصصين لن يفهموا شيئًا منه، فأحسن ما يمكنني فعله أن أورد مثالاً من ترجمة ليتمان الممتازة لألف ليلة وليلة:

Schwarz war ihr Haar, zierlich der Lippen Paar;
zusammengewachsen die Brauen, alles an ihr war wunderbar
anzuschauen

وتستحيل ترجمة هذا الإجراء الأسلوبي الذي يتصف بالأناقة على الرغم من استعماله في الحكايات الشعبية إلى الإنجليزية مع المحافظة على نغمته، ذلك أن الإنجليزية تفتقر إلى هذا

التقليد، إلا ما يظهر منه في التلعب اللغوي المسمى jive في لهجة السود والتعبيرات المرحة مثل:

Miller`s the name, insurance is my game

"ميلر اسمي، والتأمين لُعبتي" [اسمي ميلر، وأنا أجيد بيع وثائق التأمين" [حيث تسجع كلمة name مع كلمة game]].

أما استعمال زوجين من العبارات المتوازنة تركيبيًا لكنها غير مسجوعة فيسمى "الملاءمة"، انظر آربري ص ٢٤.

وإذا ما اعتُرِض بأنّه لا ينبغي ذكر مثل هذه الإجراءات الأسلوبية المتعددة في قائمة واحدة مع الأنواع من (١) إلى (٨)، وهي الأنواع التي تُعَد مع ذلك "نحوية" - وإن كان يمكن وصفُها بأنها إجراءات أسلوبية حاذقة - لأنها تقوم بتشفير فكرةٍ مُفرَدة، فسأحتج بأن شارل بيللا عامَل "الإتباع" على أنه شكل من أشكال "المُزاوَجة". وإذا حدَث أن اكتشفنا لغةً تصاغ فيها الأفعالُ الماضية بإعمال قاعدةِ التضعيف لكنها تفتقر إلى ظاهرة ثنائية أخرى فيما عدا مَيْل كتّابها إلى تأليف كُتب من جزأين، فإننا في هذه الحالات سنتردد في الربط بين هاتين الظاهرتين؛ أما الظواهر التي أوردتُ فتبدو، وإن كانت متنوعة جدًا، كأنها تمثل متواصلاً واحدا، ولكل واحد منها جانب جمالي واضح، إن لم يكن جانبًا جماليًا خالصًا بالفعل.

***

وأحد الأشياء التي قلّما تُجيز العربيةُ للتعبيرات الثنائية القيام به هو أن يكون لهذه التعبيرات تركيبٌ خاص بها، بشكل يُشبه ما نجده في الفرنسية والألمانية والإنجليزية[٢١]. قارن:

a movie for young and old (*for young)

"فيلم للصغير والكبير" (*للصغير)

They believe heart and soul (*believe heart)

"يعتقدون قلبا وروحا" (*يعتقدون قلبا)

يعني:

with all their heart

"من كلّ قلبهم"

بالإضافة إلى عدد كبير من الظروف الزوجية مثل:

tooth and nail, hammer and tongs

"سِنٌّ ومسمار، مطرقة وسندان"

Faint heart never won fair maid

"القلب الضعيف لا يظفر أبدًا بالبنت الجميلة"

(حيث يعمل السجعُ الاستهلالي والعبارتان اللتان تتكونان من "الصفة + الاسم" على إحداث توازٍ يكفي للتغلب على ضعف التوازن أو ضعف تلاحم الثنائية الذي يأتي عن طريق السماح بتدخلِ أكثر من عنصر واحد من عناصر عطف النسق بين العبارتين: قارن ذلك بـ:

*None but ø *brave* deserve ø fair

"لا أحد إلا الشجاع يستحق الجميل"

mit Kind und Kegel
elle impose ø ordre et ø structure aux relations

الخ).

ويبدو أن هذه العبارات، شأنَ المثنى والإجمال في العربية، بدأت بشكل دَلاليّ، مع الأسماء التي يَظهر بعضها مع بعض:

bind him hand and foot

"أوثقوه يدًا ورجلا"

في مقابل:

*bind him hands

"أوثقوه يَديْن"

(التي يمكن من حيث المبدأ تأويلها بشكل مماثل، أي أنّ معناها قد يكون:

bind his hands

"أوثقوا يديه")

وكذلك الجملة المشكوك فيها:

?bind him ankle and thumb

"أوثقوه كاحلا وإبهاما"

(أما: hand and foot "يدا وقدما"، فعبارة مقولَبة، قارن بـ : --wait on him "اخدموه يدا وقدما" ["على قدم وساق"، أي وأنتم على درجة عالية من الاستعداد]).

وإذا ما صيغت هذه التعبيرات فيمكنها أن تكتسب قوة بنيوية تسمح للأزواج غير المقولبة أن تظهر من غير الأداة:

"Von Sprache und Mensch"
(v. Wartburg)

"يوجد لمفهوم الديموقراطية وواقعها في ألمانيا. . . حكم مزدوج المعايير".

". . . haben ø Begriff und Wirklichkeit der Demokratie in Deustchland. . . eine zweispältige Beurteilung gefunden"
(K. D. Bracher)

". . . don ø historiens et géographes nous entertiennent"
(A. Miquel)

قارن أيضا بـ [٢٢]:

Beides *ist* richtig, Zweierlei *steht* bombenfest

"كلاهما صحيح، الطريقتان راسختان بثبات"

أما في العربية فيَرجَح الاطرادُ البنيوي بلذّةِ التوازنَ المُبرَز. ذلك انه يَحدُث أحيانًا أن تكون الدلالةُ خاصةً (كما في الأنواع ١، ٥، ٦، ٨، ومعظم الأمثلة في ٤) لكنَّ الشكلَ مماثلٌ للحالات المألوفة. وهناك عدد من الأزواج من الكلمات العارية من التعريف والتنوين (Reck. SV 444)، نحو: "بيتَ بيتَ"، لكننا نجد هذه الظاهرة كذلك في بعض الكلمات المفرَدة، أي في تلك الأسماء القديمة التي جمُدتْ وأصبحت حروفَ جرٍّ (نحو: "فوقَ"، "شِمالَ"). وأكثر ما يوجد هذا في أزواج مثل: ("صباحَ مساءً"، في مقابل: "صباحًا")[٢٣]. كما يمكن لمَثلٍ كالذي تُظهِر فيه كلمة "شتان" أن يُتبع بكلمة واحدة (ومن المؤكد أنه سيُحيل إلى شيء غير مفرد).

ولا ينطبق هذا انطباقًا تامًا على ظاهرتين سنناقشهما فيما يلي. والظاهرة الأولى هي الفصل التركيبي tmesis ، نحو: (بأبي أنت وأمي) والثانية هي التوازن الضميري، نحو: (بَعَثني أنا وأنت). ولا تُدخل هاتان الحالتان ضِمن الحالات التي تُعامَل فيها بعضُ العناصر المتجانسة المتتابعةِ معاملةً خاصة بسبب هذا التتابع والانسجام نفسيهما. فنجد في حال الفصل أنه يُفصَل بين العناصر المتتابعة ظاهريًا أو في المستوى التركيبي 'الأعمق'، وهو ما يَنشأ عنه تحطيم التوازن المحلّي البسيط من أجل شيءٍ أكثر عُمقًا؛ كما نجد في حالة التوازن الضّميري أن ما يمكن أن يكون بنيةً غيرَ متوازنة قد يُرجَّح بشكل ما[٢٤]. لهذا لم أوردهما في قائمة الثنائيات المتوازنة الأساسية.

الفصل:

تتصل 'أ' و 'ب' بـ'ج' بالطريقة نفسها، وقد تتصلان كأنهما زوجان تقليديان، ومع هذا يُفصل بينهما "في الظاهر":

'بأبي أنت وأمي'

سَلوا *صَهوات الخيلِ* يومَ الوغى عنّا إذا جُهِلتْ آياتُنا *والقَنا اللُّدنا*

(ابن عُنَين، في آربري١٢٢).

ففي هاتين الحالتين، اللتين تتصفان بقدر من الغموض، يجب أن نستخلص المعنى المقصود من غير استعانة بالإعراب، وذلك بالاستعانة بالتطابق syncretis ؛ أما في الحالات المألوفة فيبين الإعرابُ الفصلَ، كما في المثالين التاليين:

"إن اللهَ بريءٌ من المشركين ورسولُه" (التوبة، الآية ٣)[٢٥]

"إن الخزيَ اليوم والسوءَ على الكافرين" (النحل، الآية٢٧).

وكذلك في بيت المتنبي المشهور (في آربري١٩٦٧):

"فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم"

وهذا النوع مألوف في أساليب الإنجليزية:

brave men and bold

"رجال شجعان وجريؤون"

وفي لغات أخرى كثيرة. وتوجد بعض الأمثلة منه في معجم هافرز (Havers, 1931: 44-45). ويتعارض تفسير هافرز النفسي لأسلوب الفصل تعارضًا بيّنًا مع ما اقترحناه بشأن الأنواع المتتابعة، وهو سبب آخر للتمييز بين هذين النوعين. وفي رأي هافرز فإن بِنًى مثل:

er ein Schaf tötete und eine Ziege, tria milia militum et trecenti

"حتى إن شاةً قتلها وعنزا"

تمثل طريقة التفكير المتوالي die sukzessive Denkweise أي أنها تتضمن استدراكا. لكن الأمر بعكس ذلك بكل تأكيد في أنواع التتابع كلها من (١) إلى (٩) فهي تدل على الاستدراك، بل تدل عليه بأسلوب موازن. وإذا نظرنا إلى هذا الأمر من الوجهة التاريخية التعاقبية فليس هناك تعارض في وجود هذه الأساليب من الثنائية في لغة ما وجودًا متزامنا. وكما يحق لابن المزارع أن يطمح لأن يكون رئيسًا لأمريكا يمكن للفصل أن يطمح، على الرغم من تواضعِ أصله، إلى أن تختاره اللغةُ الأدبية ليكون من وسائلها المتعددة: ذلك أن الإيقاع الفصلي يمكن أن يتطور باطراد ليصير وسيلةً من هذه الوسائل إذا ما أصبح مألوفا. فإذا قلت: stout men and true "رجال جريؤون وصادقون" فهذا التعبير إنما هو صدى للتعبير: brave men and bold "رجال شجعان وجريؤون"، فهو لا يعني أنني وَقَعتُ للَحظة في الخطأ بسبب وضعي true في غير موضعها. فهذه البنية مُتماسكة، وتُشبه: "بأبي انت وأمي". أما بيت ابن عنين فيُشارف نهايةَ الجملة قبل أن يورد العبارةَ المفقودة، غير أن هذا نفسه يمكن أن يكون إجراءً مقصودا، فهو يشبه:

Brave men they were, aye, and bold

"لقد كانوا رجالا شجعانا، نعم، وجريئين"

ولا يزال هذا النوع أمرًا من أمور التوازن، لكنه نوع أكثر عمقًا من النوع التدرُّجي، كما أنه النوع الذي يجب أن نكتشف خصائصَه أو نُطوِّر بشكل مصاحب لتطوُّرِ الوعي باللغة نفسها. قارن بالأبيات الأولى في "الفردوس المفقود" Paradise Lost:

Of man's first disobedience, and the fruit
Of that forbidden tree whose mortal taste
Brought death into the world, and all our woe,
With loss of Eden, and regain the blissful seat,
Sing, Heavenly Muse. . . .

فللبيتين الأول والثالث الإيقاعُ النفسي نفسه. ولا يمكن أن نكتشف، إلا بالفحص الدقيق، أن البيت الأول ليس من أمثلة الفصل (ذلك مع أنني أوردتُ هذه المقطوعة في موضوع الفصل لأجل البيت الأول؛ أما غياب الأداة of من الموضع الذي يسبق the fruit فهو السبب في وجود الإيقاع الموسيقي) في حين يتضمن البيت الثالث الفصل (في مقابل:

brought death and all our woe into the world

وهي التي لا تزال تتحلى بالإيقاع).

وليس الفصل خيارًا أسلوبيًا بل إجراءً نحويًا مألوفًا في حالات مثل: "شَرِبَ زيدٌ وأكَلَ" (قارن بالجملة المشكوك فيها ؟؟"شرب وأكل زيد"). وتُستعمَل هذه البنية حتى في الحالات التي يكون فيها الفعل الأول فعلاً مساعدًا من حيث الدلالة والوجهة: " قام زيد وقال".[٢٦]

توازُن الضمائر [توكيد الضمائر]:

وأعني بهذا تكرارَ الضمير اللاصق بصيغة ضمير متصل في حالةٍ يَحتمِل فيها، لولا ذلك، أن يُحيل ذلك الضمير المتصل على شخص آخر. فبدلاً من النوع المتماسك منطقيًا وإن كان غير مُتجانِس:

"فجعلناها وابنها آيتين" (سورة الأنبياء، ٩١)

نحصُل على مثالٍ ضعيفِ الترابط لكنّه متوازن إيقاعا:

"ذِكْر خروجِه هو وأخوه"

the report of his and his brother's departure

لاحِظ أن الترجمة الإنجليزية غير المتوازِنة تبدو مُتعاضِلة حتى في الإنجليزية؛ فيعني المثال العربي حَرْفيًا:

the report of his departure, he and his brother(nom)

"ذِكْر خروجِه، هو وأخوه"

وهذا الإجراء مألوف في الفرنسية، إذ بالإضافة إلى تكرار الضمير:

Nous l'avons vu
lui et son frère

نجد اختصارًا للضمائر :

Paul et moi
nous sommes allés au cinéma

وقد أخذتُ الأمثلة العربية من مقال أريل بلوخ: A Principle of Balancing in Arabic Syntax "مبدأ التوازن في تركيب العربية"، وهو مصطلح ملائم جدًا لمبدأ جَمالي، وهو المبدأ الذي يَرْجَحُ هنا بالدِّقة المنطقية للتسوير quantification والإحالة: ذلك أن في الضمير المتّصل في: "خروجه هو وأخوه" نوعًا من الإحالة الضِّمنية (المتوارية)، ويمكن مقارنته (وإن كان ذلك بإشارة عكسية) بالحالة التي نجدها في المثال التالي من الفرنسية Nous sommes venus avec Paul "جاء بول وأنا"، والمثال التالي المأخوذ من الإنجليزية القديمة: wit Scilling "سيلينج وأنا"، و ich selb*fünfe* "أنا *وأربعة* آخرون"، حيث نجدُ الضميرَ أو أداة التسوير يقولان شيئًا أكثر بدلاً من قولهما شيئًا أقلّ تبعًا للمنظور السائد في الوقت الحاضر.

ولا تتعارض حالات التكرار من أجل العطف مع ما قلناه وهو الحكم الذي يقضي بعدم السماح بوجود نوع خاص من التركيب من أجل الثنائية، ذلك أن التكرار يولِّد بنيةً ظاهرة مماثِلةً في حالات لا تتسم بأنها من حالات العطف، نحو: "نبايِعك أنت". أما الفرق ففي الدلالة. ذلك أن التكرار، في الحالات التي ليست عطفا، وسيلة للتوكيد (بلوخ، المرجع نفسه، ص ٢١١)، أما في حالات العطف فيمتنع التأويل بالتوكيد، ويُمكِن أن يُفسَّر الضميرُ المكرَّر بأنه وسيلةٌ لخدمة الإيقاع بدلاً من كونه وسيلة لخدمة التوكيد.

ويمكن أن نضيف إلى الحالات التي أوردها بلوخ حالات أخرى يُتوصَّل فيها إلى التوازن لا بتكرار ضميرٍ متّصل على هيئة صيغةٍ ضمير منفصل بل عن طريق تكرار ما يُلحق به الضمير:

"أيّيَ وأيُّك"

"بيني وبينك"

قارن ذلك بالمثال القرآني: "وإنّا أو إياكم لَعَلى هدى" (القرآن، سورة سبأ، ٢٤). وقلّما يَستعمِل القرآنُ بصفة عامة التكرارَ لغرض التوازن، ويَستعمل بدلاً عنه أنواعًا أخرى يمثلها قوله تعالى: "نجّيناه ولُوطا" (سورة الأنبياء، ٧١).

***

كنت أشرتُ، في معرض الحديث عن التطور المتنوِّع للثنائية المتوازنة في العربية، إلى وجود "مبدأ جمالي". وأعني بذلك ببساطة أنه بقَدْر ما يمكن لِمَصْدرٍ من الطّاقة أن يغذّي الفروع الأخرى، يمكن أن نسمّي تلك الطاقة بأنها "جمالية" وتماثِل هذه الصفةُ أيةَ صفة تخطر في البال مثل: "فلسفية" أو "إدراكية". وذلك للأسباب التالية:

أ - يُوحِي التطورُ المُتحوِّل والمطواع والمُنمَّق أحيانًا لظواهر مثل الإجمال والمثنيات الكنائية والعبارات المسجوعة والمُغايَرة، بوجود قَدر من التلعُّب بدلاً من أن يكون ذلك نتيجة لتأثير التأمُّل أو تأثير اللاشعور.

ب - ومع أننا نجد هذه الظاهرة في عدد من المستويات وبأشكال مختلفة إلا أنها لا تشيع في اللغة العربية بالطريقة الشُّمولية التي تأتي عليها الإجراءاتُ اللغوية الفلسفية الإدراكية المَحْض، وهو ما يُشبه جَمْع الماء والنبيذ وحرائق العالم كلّها في حاويات صغيرة هي أقسام الكلام (وليس في العربية منها، على النقيض من الإنجليزية، إلا عدد من أقسام الكلام المشكوك فيها)، أو يأتي عليها أسلوبُ التقطيع السليماني للحقائق الحسية إلى مسند ومسند

إليه (وهو التقطيع الذي يصل حدودًا أبعد من حدود الإجراءات التي وصفناها؛ وهو نوع آخر من الثنائية إذا أحببتَ، وإن لم يكن من النوع العام من التوازن) [٢٧].

وهناك أنواع متعددة من الطرق التي يمكن أن تكون استُغلت ظاهرةُ الثنائية بها، وهي الطرق التي لا تُستعملها العربية (عموما). ومن اللافت للنظر أنه في الحالات التي تُستعمل فيها الإنجليزيةُ المثنى نجد أن العربية لا تستعمله:

If *either* of them come. . .

"إنْ جاء **أيٌّ** منهما"

both Zaid and Amr

"**كلٌّ** من زيدٍ وعمروٍ"

neither long nor short

"**لا** طويلَ **ولا** قصيرَ"

وليس هناك مُقابل في العربية للكلمة الإنجليزية المعاصرة whether (التي تعني which "أيٌّ" حين تدل على المثنى) أو الأداة wit في الإنجليزية القديمة التي تعني "المتكلم المثنى")، أو each other في الأسلوب الإنجليزي الذي يَقصُر استعمالَها على المثنى التبادُلي (التفاعلي: من صيغة "فاعَل") في مقابل one another. وتوجد صيغةٌ خاصة للتعبير عن both حينما تُستعمَل مع مركّبٍ اسمي واحد (مثنى)، وهو "كِلا +اسم/ ضمير" ["كلا الرَّجُلين"، "كلاهما"]، لكنَّ الأكثر شيوعًا في العصر الحاضر هو "كلٌّ منهما". كما أن في العربية استعمالاً نادرًا للتقابل العكسي[٢٨] (قارن المثال الذي أورده آربري ص ٢٤ من نوع "رَدّ العَجُز على الصَّدْر" ـ أي التكرار من غير عكس) وكذلك التضعيف الصَّرْفي من أجل الأغراض النحوية العامة، كما في تضعيف صيغ الماضي في اللغات الهندية الأوروبية أو تكرار الجموع في بعض اللغات.

ج ـ وتجدر الإشارة إلى أن الدين الإسلامي، بتأكيده على التوحيد الخالص، وكذلك الأدب العربي وربما الفلسفة العربية، لا تتصف بالثنائية بشكل عام، إلا في الحالات التي خَضعتْ فيها للتأثيرات الهيلينية والزرادشتية. وربما كان هناك بعض الكلمات المتضادة دلاليًّا متخفية

في خبايا القواميس مما استعمله شاعرٌ أو اثنان في الإلغاز، وبُعِثتْ فيها الحياةُ باستعمالها في الشروحات المطوّلة، وناقشها المصابون برهاب العربية والمنافحون عنها، لكن الكتّاب العرب لم يَجعلوا التناقض التضاديَّ خصيصةً لإنتاجهم الأدبي بالطريقة التي تُروى عن الصينيين مثلا:

"شانج تونج - صن يقترح تسمية شكل المنطق الصيني بـ "المنطق المتعالِق" أو "منطق النوع التعالُقي". ففيها [طريقة منطق الصينيين] يكون الميل للعلاقة بين الأقطاب المتضادة: شيء ولا شيء، أعلى وأسفل. . . إلخ. ولديهم ولع بالألفاظ المتضادة من أجل إكمال صنع دائرة الفكرة: 'الموت من غير أن يموت؛ صوت عظيم لكن لا يكاد يُسمع؛ عدم النظام يعني النظام'.

Chang Tung-sun schlägt vor, die chinesische Form der Logik "correlation logic oder logic of correlative duality" zunennen. In ihr wird mit Voliebe au die Beziehung zwischen polaren Gegensätzen: etwas und nichts, oben und unten usw. Hingewiesen. . . . Mit Vorliebe werden Antonyme zu Abrundung eines Gedankes zusammengestellt: "death without passing away; a great sound but scarcely audible; disorder means order" usw. (Gipper 1963: 241).

قارن بـ A. Ryaloff :

"في الصينية ميزة لافتة للنظر، وفريدة في الوقت نفسه، وهي ميلها الطبيعي إلى استخدام أسلوب المزاوجة". (انظر شارني: مفهوم المزاوجة في اللغة الصينية. ١٩٦٧ ، ص ٣٣٧ وما بعدها).

Le chinois a ceci de remarquable, et de précieux pour la discipline linguistique, qu'il manifeste une prédilection habituelle pour le procédé de l'accouplement. ("La Notion du couple en chinois", in Charnay 1967: 337f.)

وقد نُشِر كتاب مفرَد يحوي مجموعةً من المقالات التي تزعم أن الثنائية في العربية تذهَب إلى أبعد مما تُؤيِّده المادة اللغوية التي أوردناها فيما سبق؛ وللاطلاع على هذه القضية انظر الملحق الجدلي.

وبالمناسبة فالأسلوب الهيجلي المتلعِّب بالكلمات في عنوان هذا الفَصْل لا يزيد عن كونه نكتة؛ إذ إنه لا يُبيِّن بعض أوجه الوحدة العميقة بين الموضوعين [النحو والثنائية]. فيمكن أن نجد الوجهَ المُعقَّد للنحو في مواضع أخرى أيضا (انظر الملحق التأملي). ولقد قدمنا الخَيْط الذي يَنتظِم الدلالةَ والصرف النحوي بصفته وجهةَ نظرٍ جمالية عن المادة، لا أنه مادة للغرائبية العددية.

***

والسؤال هنا أين تقع العلاقة بين الشكل والاستعمال في كلِّ هذا؟ والإجابة عن هذا أن المُثنَّيات، أولا، مهذبة بشكل صارم sharply profiled. ذلك أنه في حين يُمكِن أن تَظهَر الكلمات المفرَدة والجموعُ في أعداد كثيرة من الأنماط (التي يمكن أن تتداخل في بعض الأحيان)، فإن نهايات المثنى موحَّدة، فإذا ما حُدِّد قِسمُ الكلام الذي يُصنَّف تحته الاسمُ الذي تَلحقه وحُدِّد موضعُه التركيبي، فإن هذه النهايات، مع استثناءات هامشية جدًّا؛ لا تُستعمَل إلا مع المثنى:

"ـانِ": تلحق الاسم (اسمًا كان أم صفة) أو الاسم الموصول في حال الرفع؛ والفعل المضارع.

"ـينِ": في حالات الجر والنصب.

"ـا": في الضمائر؛ والأفعال الماضية؛ والمضاف المرفوع.

"ـي": في المضاف المنصوب والمجرور.

لذلك تَظهَر في نهايات الكلمات فيما يُمكِن أن يكوِّن طَنينًا غريبًا يشبه صوت نهايات الكلمات في اللاتينية: ‎- ibus –ibus, -orum -orum.‎ . ومن أمثلة ذلك:

"الطالبانِ اللذانِ كانا يَدرسانِ كتابيهما الجديدين".

ولما كانت المثنيات كلماتٍ مفردة وليست مؤلفة من معجميات lexemes مستقلة فإنها مُتضامَّة كذلك. لهذا يتناغم تطور المثنيات التغليبية بوصفها مصدرًا تعبيريًّا مع فرضية ستوكس. زيادة على ذلك فمن الواضح أن المثنى يُستعمَل في العربية في بعض الحالات التي قد لا تُستعمل فيها الإنجليزيةُ الكلمةَ two ، ذلك أن المشار إليه في الواقع ليس معرفة بل

صيغَ على هيئة المثنى من أجل شكله المناسب فقط. أما الإنجليزية، وبتوجيهٍ قليل من النحو، فقد اختارت "الثلاثية":

three little pigs

'ثلاثة خنازير صغيرة'

called for his fiddlers three

'نادى عازفي القيثار ثلاث مرات'

three wishes

"الرغبات الثلاث"

وكذلك، في الإنجليزية القديمة:

cleft in three (with a single blow of the sword!)

حيث استقرت فيما بعد على cleft in twain (مع صيغتها الخاصة المتألّقة). ومن الأمثلة في العربية:

خليليَّ ما حُبُّ البنين ببدعة فهل أنتما فيه مقيمان من عُذرِ

(ابن الزقاق، مونرو، ص٢٤٢).

كما أصبحت صيغة النداء 'خليليّ" طريقة تقليدية لافتتاح القصيدة.

وتأخذ الألقاب صيغة "هو ذو الشيئين. . . "، بداية من "ذو القرنين" (الذي يمكن أن يكون الإسكندرَ الأعظم) حيث يمكن أن يكون المثنى ملائمًا دلاليًا، وعبْر "ذو الوزارتين" و'جَبَل الفَتْحَيْن' (جبل طارق)، إلى 'ذو المَجْدَيْن'. وهذا ما يذكّر مرة أخرى بالألقاب العددية المحيِّرة في الصينية.

وفي الختام فمما يساعِد الإجمال merism بنيةُ الكلمة المطردة تقريبًا في العربية وهو ما يَسمح بالإيقاع المتوازن إيقاعيًا. كما يتوفر في الإنجليزية قَدْرٌ لا بأس به من الأوزان اللافتة للمنظر، لكن عَروض هذه الكلمات تتنوع، لذلك من المحتمل أن يُستعمل السجع الاستهلالي من أجل الإجمال:

feast of famine

'عيد الجوع"

Hide nor hair

"لا جلد ولا شَعْر"

sink or swim

"اغْرقْ أو عُمْ"

ويماثل هذا في لفت النظر الحقيقةُ المضادة لفرضية ستوكس حيث نجد المغايَرة متوفِّرة بكثرة في الإنجليزية والعربية، ومع هذا لا تُستغل بشكل حَصْريٍّ أو حتى بشكل رئيس الرصيدَ الهائلَ من الكلمات في اللغتين، لكنها تفضِّل أن تُوسع هذا الرصيد بكل جراة. ولا ينقض هذا أنّ في الإنجليزية كلمات كثيرة على شكل: dilly وdally ، أو super ، وduper وهو ما جعلها تنتظم في أزواج. بل لا يمكن عد هذه الحقيقة نقيضًا لفرضيتنا إن نحن افترضنا، متابعة للـ [اللساني الأمريكي المعاصر] جون روبرت روس (في محاضرة له في جامعة بيركلي سنة ١٩٨١)، أن التضعيف والمغايرة يُختَزنان في مكان من الدماغ مختلف عن المكان الذي تُختَزن فيه اللغة العادية، وبهذا المعنى فهذه الأشكال موجودةٌ تُنتظر لكنها موجودة على شكل كِنايات بدلاً من كونها على شكل معجميات.

الملحق الجدَليّ

خطَرتْ على جاك بيرك وجي. تشارني فكرةٌ طريفة تتمثل في تحرير كتاب يتضمَّن مجموعةً من الدراسات التي تتناول بعض أكثر المظاهر تنوُّعًا في الثقافة الإسلامية، وهي الظاهرة التي تتركز حول الأضداد (وهي الموضوع الذي سنناقشه بتفصيل أوسع في الفصل السابع). ولا يملك اللسانيون، الذين اعتادوا الانتظار على الهامش في الوقت الذي يسعى فيه رؤساء الحكومات للاجتماع بالاقتصاديين والمحامين، إلا أن يَشعروا بالزهو حين يرون أنَّ أمرًا من أمور اللغة أصبح محورَ اهتمامٍ لعدد من الاختصاصات، وهو ما يشبه أن يكون عنوانُ الخطاب الافتتاحي في مؤتمر عن "الروح الأمريكية للاقتصاد الحر" مُتعلِّقًا بالاشتقاق الصُفري أو النحت الاسمي.

وربما أمكن الاحتجاج بأن مثل هذا الجهد [أي عمل بيرك وتشارني] بغض النظر عن نجاحه أو فشله لا يمكن عده من حيث المبدأ عملاً متزيِّدًا أو ثانويًا، بل يمكن النظر إليه على أنه بمثابة تصريح بما يأتي بشكل ضمني في الجهود الواعية التي يقوم بها العلماء والتقنيون. ذلك أن من المستبعَد أن يتبرع رجال راشدون بقضاء أعمارهم في تحليل الصوتيات في لغةٍ مَا، أو في تصنيف الأنواع الأحيائية العليا، أو في رصد النجوم، إن لم يكونوا يُضمِرون بشكل غير واعٍ بعضَ الشكوك بأن مردود هذه الجهود عليهم سيتمثل في اكتشافهم بعض أسرار علم النفس (وهو مصطلح موارب للدلالة على "الروح" أو "العقل")، وبعض أسرار الطبيعة، أو عملية التطور الأحيائي (وهذه مصطلحات تدل على خطة الرب لخلق الكون)، ذلك أننا نشأنا، جميعًا، على جهل الأسباب العميقة التي تجعلنا نقوم بما نقوم به. بل حتى الاهتمام المفرط بسجل الأهداف في لعبة كرة السلة، وهو اهتمام يحتل بكل تأكيد أحطَّ درجة في سلَّم الاهتمامات التافهة، لا بد أنه يمثِّل اهتمامًا حقيقيًا أكبر منه، ويتمثل ذلك في أن يقول من يَشغله هذا الاهتمام: صحيح أن الكون لم يعد مسرحًا للخلْق، بل لم يعد يمثِّل تلك الدقة التي كان يُزعم أنه يتصف بها، إذ انحدر إلى مماثلة لعبة "الكرة والدبابيس"، وصحيح أن الشهرة لم تعد تعيش لأكثر من يوم واحد، في عصر لم يعد يهتم أحد فيه بالسحر، وصحيح أن أعمارنا تبدو كأنها مجموعة من الأحداث التبادلية التي يبتلعها العدم حتى وإن

تحولنا إلى تراب، لكن مع ذلك كله لا ترقى هذه الاهتمامات إلى أهمية سجل الأهداف في لعبة كرة السلة في سلم اهتماماتي. أتريد برهانًا على ذلك، انظر: لَمّا سجَّل اللاعبُ المشهور ميرفي ذلك الهدفَ بمهارة في أصيل أحد الأيام الصيفية الحارة سنة ١٩٢٢، دخل ذلك الهدف سجلَّ الأهداف الخالدة، ذلك أنه يمكن للأجيال اللاحقة أن تنطلق من هذه الحادثة البسيطة إلى أن تتخيل ذلك الفخرَ الذي غمر فريق "أ"، وتتخيل ذلك البكاء المرَّ وصريف الأسنان اللذين غلبا على فريق "ب"، وأن تعيد تلك الأجيال المتلاحقة تمثُّل ذلك الهدف في أثناء تشجيعها لأبطال فريقها المسمى little league "الفريق الصغير". ونحن نقيم التماثيل ونسميها بأسماء بعض مواطنينا وهو العمل الذي يجعلنا نشعر جميعًا بالفخر. ونحن نكتشف الخطة الخفية للغة، ثم توجهنا هذه العملية العقلية العظيمة حتى حين نتكلم بهدوء يقرب من الغمغمة في أوقات الاسترخاء، أو حين نرفع أصواتنا بلَعْن الحكَم.

هذا إذن كل ما يتعلق بالمبدأ. أما تنفيذ هذا المبدأ فشيء آخر. فيتضمن الكتاب الذي يحوي تلك الدراسات، أي كتاب: L' Ambivalence dans la culture arabe (Charnay, 1967) "الازدواجية [الغموض] في الثقافة العربية"، عددًا من المقالات اللسانية المفيدة، لكن التأملات التاريخية والفلسفية لم تقنعني بأننا إنما نتعامل مع:

"موقف نفسي واجتماعي تشكِّل الأضداد فيه موقفًا نفسيًا واجتماعيًا يمثِّل النحاةُ علامةً من علاماته المصنَّفة بأكثر ما يمكن من المراعاة والمجاملة".

attitude psychique et sociale dont les grammairiens ne sont que l'indice le plus complaisemment catalogué (Berque, L'Ambivalence 115)

وأنها مما يُميِّز العربَ على وجه التحديد أو مستعملي العربية، بدلاً من كونها مجموعةً من الإجراءات الأسلوبية المفضَّلة، وهو ما نجده في الغالب في اللغات الأخرى كذلك، كما أنها مما يمكن أن ينتشر أو ينحسر بشكل أسهل من انتشار التوجهات النفسية الإثنية أو انحسارها، هذا من وجه، ومن وجه آخر، فيمكن أن يكون بعضها من الأنواع الثنائية المبالَغ فيها في مختلف النشاطات الأخرى. فيرى بيرك (ص ٢٣٧) مثلاً، أن وجود الآراء الفقهية المتعارضة عن مسألة مّا إنما هي: "نظير لما تمثِّله الأضداد في اللغة"، ثم يؤيد هذا الافتراض باستشهاده برأي أحد الفقهاء الذي يقول إن رأيًا معينًا ضدٌّ لرأي معين آخر. لكن "ضد" هنا ليست إلا

كلمة عامة للتعبير عن الرأي "المقابل"، أما أن مفهوم "ضد" هو: "كلمة تبيِّن تعدُّد المعاني المتضادة" فاستعمالٌ نحويٌّ خاص. زيادة على ذلك لم يكن ما أغرى المتحمسين المشاركين في هذا الكتاب إلا فكرة أنَّ الأضداد ليست حالات خاصة من تعدد المعاني وحسب بل كونها تمثل نوعًا من التحليل الجدلي للمعاني المتعارضة (أو تعطيل معنى التعارض، من وجهة النظر الفرويدية)؛ لكن هذا على وجه الدقة لا يمثل موقف العرب من الآراء المتقابلة، وهو ما يتضح من استشهاد بيرك من قول الفقيه نفسه: "إن تأكيد ضدين في الوقت نفسه في مقام (أو ظرف) واحد يُعد أقبح شكل من أشكال العبث (أو اللامعقول)".

Affirmer simultanément deux contraires dans une situation, c'est la plus laide des absurdités

ومن المؤكد أن المنظِّرين والقائلين بالتوسط ربما يتغاضون عن هذا التعارض أو يُفسِّرونه بأنه هامشي في أي مجتمع، لكن هذا الصنيع لا يُبين عن وجود تفكير تضادي. ويورد شحاتة Ch. Chehata (Ambivalence 265) أن فقيهًا حَنَفيًّا عاش في القرن السادس الهجري حاول مثل هذا التوفيق العملي: "دون اكتراث بالتناقض الناجم عن الاجتماع (أو الاقتران). .. فمن الواضح إذن أننا أمام موقف فكري (أو عقلي) لا يمكن إلا أن يصدم رجل القانون الذي تتلمذ على (أساليب) مدرسة القانون الروماني أو القانون الغربي".

sans se soucier de la *contradictio in adjecto*. . . Il est donc manifeste que nous sommes devant une attitude de l'esprit qui choque le juriste formé à l'école du droit romain ou du droit occidental. . .

ولا أريد أن أفسِد على هؤلاء ما يرون، لكن الطرافة تضمحل على أية حال حين يَنتج عن هذه التأملات بعضُ المقتضيات الإثنية المُهينة وغير الصحيحة؛ لذلك دعني أقترح أنه يمكن أن يكون المرء شديد الإعجاب بآراء المحكمة العليا الأمريكية كلها لكنه يَظل مع ذلك يعترف بأن القضاة في هذه المحكمة نجحوا في استنباط أكثر التعليمات الفخمة المفصَّلة من نص الدستور الأمريكي المقتضب. بل يمكن لنا أن نحتج بأن الإسلام في الواقع أكثر حساسيةً للتعارضات من النظام القضائي الأمريكي أو الكنيسة الكاثوليكية المبكِّرة التي شملت كل المؤمنين بالمسيحية، ذلك أن الإسلام يُشعِر الإنسان باحتمال وجود الاختلافات باستمراره في الاحتفاظ بالمذاهب الفقهية السنية الأربعة.

والمقابلة (القسم (٧) في هذا الفصل) مصطلح من مصطلحات البلاغة والشّعْرية.
وقد حاول جارديه L. Gardet في مقال له في هذه المجموعة بعنوان Influence hellénique et sagesse arabe "التأثير اليوناني على الفكر العربي" أن يستخدم هذه الفكرة ليفسِّر الفلسفةَ الصوفية. ويُحتمل أنني لم أفهم الحجج التي استند إليها، لذلك لن أحاول تلخيصها هنا؛ لكن يمكن أن نعثر فيها على أحكام تشبه الحكم التالي:

"من الواجب دوما ترجمة مصطلح "المقابَل" بعبارة تناسبه تحمل معنى اقتران الضدين (أو الاقتران التضادي). غير أن هذا مستحيل تقريبًا في نظام دلالي يبدو فيه كلُّ مفهوم من المفاهيم المجردة قائمًا بذاته. ما من شك في أننا نستطيع أن نترجم المتقابلين "غيبة/ شهود" إلى الفرنسية فنقول absence و présence testimoniale (أي غيبة الشاهد وحضوره). إلا أن لفظة "الغَيبة" لا تحتفظ بأي إيحاء يشعرنا بالحضور، والعكس صحيح أيضا. فمستوى التحليل هنا يختلف تمامًا في الانتقال من العربية إلى الفرنسية (ص١٢٥).

"ذلك أن المنطق الأرسطي محكوم في جوهره بمنهج تفكير يقوم على عناصر ثلاثة. . . في حين ينتظم العقل "الجدلي"، اللازم بشكل طبيعي للعبقرية العربية/ العقل العربي وفق أساليب تفكير تقوم على عنصرين يتقابل من خلالهما المفرد بمفرد. ومن المؤكد أن بإمكاننا، حين تُفضي أساليبُ التفكير إلى نتائج متماثلة، أن "نترجم" منهج تفكيرٍ يقوم على عنصرين إلى قياسٍ ذي ثلاثة عناصر (مثلما هو الشأن إلى حد ما حين ننقل مثلاً نظريةً من مجال الهندسة ذات البُعدين أو المتعددة الأبعاد إلى نظرية من مجال الهندسة الإقليدية، مع اعتبار فارق التخصص في هذا التشبيه بطبيعة الحال)".

Un *muqâbal* devrait toujours être traduit par un "corrélatif d'opposition" équivalent. Or cela est à peu près impossible dans une sémantique où les notions abstraites sont dégagés chacune pour elle-même. Sans doute pouvons-nous rendre *ghayba - chuhûd* par "absence" et "présence testimoniale". Mais "absence" ne garde point une *aura* de présence, ni l'inverse. Ici, de l'arabe au français, le plan d'analyse est autre".(125)

"La logique aristotélicienne est essentiellement commandée par un raisonnement à trois termes. . . . La logique "dialectique", connaturelle au génie arabe, s'organise selon des modes de raisonnement à deux termes qui procèdent du singulier au singulier. . . . Sans doute, quand ils aboutissent à des conclusions similaires, on peut "traduire" en syllogisme à trois termes un raisonnement à deux termes (un peu, toute proportion gardée, comme on peut traduire en géométrie euclidienne un théorème de géométrie à deux ou à n dimensions)."

وبما أن الاعتراض المجرَّد وحده ليس أكثر نفعًا في جلاء الأمور من الادعاء المجازف يحسن بي أن أناقش ما قاله نقطة فنقطة، لكن ادعاءه يشبه تسوير منزل بالضباب [أي أنه متهافت]. لنفترض، بداية، صحة الملاحظة التالية وكفايتها: وهي أنه ليس هناك من سبب يدعو للافتراض أن أزواج مصطلحات مثل: "غيب" و "شهود" أو "عدم" و "وجود" (ص ١٢٥) يمكن أن تضيء الواحدة منهما الأخرى بقدر معين بأكثر مما يحدث في المصطلحات المتقابلة في الفرنسية أو الإنجليزية؛ ولم يورد جارديه أية أسباب علمية مُقنعة تُلزم بالنتيجة التي وصل إليها، لا سيَّما أنه ركز اهتمامه على النصوص الفلسفية التي تحمل فيها الكلمات حِمْلاً دلاليًا خاصًا في أية لغة ـ وهو ما يعني أنه لا يمكن من هذه الحالة أن نستخلص أي شيء خاص عن العربية. فعندما نقول short "قصير" فربما يكون المقابل المفترَض لها إما long "طويل أفقيًا"، أو tall "طويل رأسيًا"، أو lengthy "مُتطاول"، فليس هناك أي افتراض جَدَليّ خاص في هذا. أما مسألة أساليب الجَدَل فلا أعرف الكثير بهذا الخصوص. لكن يبدو لي بصورة أولية أن الخيارات الواسعة في الأساليب التي وُجدتْ في اللغات الأوروبية، وكذلك في التبادل العلمي الهيليني الإسلامي ربما توجب الشك في وجود أي تناظر بين الثنائية والثلاثية، وذلك في الأقل، بقدر ما تُحدِّده عبقريةُ أية واحدة من هذه اللغات (كما أن المقارنة الرياضية لا تبعث على الثقة. فَبُعْدا الفضاء اللذان تصِفُهما الهندسةُ، بغض النظر عن إن كانت إقليدية أوريمانية أو إحداثية أو غير ذلك، شيئان مختلفان من حيث الأبعاد التصنيفية؛ كما أن من غير الممكن في الأغلب ترجمة النتائج في هندسة معينة إلى هندسة من نوع آخر.

وربما كنتُ قد وقعت هنا فيما أحذّر منه، ذلك أنني أتهم الوصفيّين الحَرفيّين بتجاهل بعض خصائص لغةٍ ما أو عدم فهمها ثم أبرهن أنا نفسي على صممي عن سماع الموسيقى العالية التي أوقعتْ مؤلّفي هذا الكتاب L'Ambivalence في شِراكها. فإذا لم يكن الأمر كذلك فإنها ليست المرّة الأولى التي وقفت فيها اللسانياتُ الصارمة مندهشةً أمامَ صورتها المنعكِسة في مرآة التخصصات الأخرى. ومن المؤكد أن البنيوية الفرنسية (في النقد الأدبي وعلم النفس، الخ) قد أتت بكثير من الهذر الضار. لذلك ربما يحسن باللسانيات، أن تشترط، مثلها مثل الطب، مبدأ أدنى هو Non nocere "عدم الإضرار".

الملحق التأمُّلي

يتحدى أوتو بيهاجل Otto Behagel في مقدمة المجلد الرابع من كتابه: Deutsche Syntax (p. viii) "نحو اللغة الألمانية" أولئك الذين يَرون رُوحًا في البِنْية:

> "لا يستطيع أحد معارضة المقولة التي تزعم أن الأعمال التاريخية المحددة في فترة زمنية تنعكس آثارها في اللغة. . . لكن توجد حالات فردية كثيرة جدًّا يَفشل التفسير الفكري فيها تمامًا. . . فأي أعمال فكرية تاريخية أثَّرت في عبارة genug stark "كفاية قوي" القديمة؛ لتتحول إلى stark genug "قوي بما فيه الكفاية" التي حلت بدلاً منها؟"

Dass zeitlich gestimmte geistesgeschicjliche Vorgänge sich in der Sprache widerspiegeln können, ist nicht zu bestreiten. . . . Aber es gibt ungemein zahlreiche Einzelerscheinungen, bei denen die geistesgeschichtliche Erklärung völlig versagt. . . . Welche geistesgeschischichtlichen Vorgänge haben es bewirkt, das älteres *genug stark* abgelöst wird durch *stark genug*. . . .?

وربما يود المرء أن يتفق مع هذا الحكم المعتدل؛ ومع ذلك فمن الغريب أن يكون المثالُ الأول الذي أُورِدَه بصفته تحديًا للتفسير الذي يرى مركزيةَ الإنسان يُذكِّر بالمبدأ الجمالي الذي قدَّمه بيهاجل نفسُه قبل سنوات (المجلد الثاني، ص viii):

> "يتميز الاستخدام الحي للغة بالعزوف عن ربط حالات الارتقاء باللغة بعضها ببعض. ويتضح ذلك جليًّا في العبارة الألمانية الحديثة: en gauden kirl ، مقابل: en gaud kirl التي شاعت في الاستخدام، أو ما يوجد في تركيب المصدر بعد الأفعال المساعدة können, mögen وغيرهما؛ وفي المقابل لا وجود لها في شمال ألمانيا، لأنها تُسقط الصائت e من المقطع السابق [مثلا: [gechert]. وبالتالي لا يمكن أن تكون لها دلالة إيقاعية".

Die lebendige Rede hat eine Abneigung,Hebung und Hebung unmittelbar aneinander anzuschliessen. So wird es sich erklären, dass im Nd. *en gauden kirl* für *en gaud k.* zur Herrschaft gelangt ist, oder dass in heutigen md. Mudarten das Präfix *ge-* beim Infinitiv nach *können*, *mögen*

usw. Regel wurde; im Oberdeutschen fehlt es, weil hier das *e* der Vorsilbe ausfällt [e.g. *gechert]* und dieser somit keine rythmische Bedeutung zukommen kann.

والقول بأن للشكل مضمونًا لازمًا (أي أنه نوعٌ للشكل، في مقابل معنى وزن معين:

وهو ما يعني أن مضمون الوزن < فَعْفَع> هو < التكرار>، وأن معنى "زَلْزَلَ" هو "الاهتزاز") قولٌ افترضَه كلُّ الذين يُقارنون بين بعض التركيبات في اللغات المختلفة باستخدام معايير تسعى إلى اكتشاف أيُها أكثر معقولية أو ما أشبه ذلك. فتتميز اللغةُ "أ"، من وجهة النظر هذه، بنوع من التركيب الثابت يتكوَّن من (صفة + اسم)، وتتميز اللغة "ب" بتركيب يتكون من (اسم + صفة) بالوظيفة الأساسية نفسها؛ ومع ذلك يمكن أن يُحكَم على احد التركيبين بأنه أوضح أو أكثر رُجولة أو ما أشبه ذلك: وذلك بالطريقة نفسها التي يُمكِن لُمجْتَمَعيْن أن يختلف الواحد منهما عن الآخر بوجود طريقة واحدة غير متغيِّرة لمعالجة مرض معين، لكن طريقةً واحدة فقط هي التي تنجح أما الأخرى فلا؛ أو مثل وسيلتين للنَّقْل متماثلتين وتؤديان الغرض نفسه، لكن الاختلاف بينهما هو أن واحدة منهما فقط أسرع أو يَنْتج عنها حوادثُ أكثر على الطرق. أما من وجهة النظر المعاكسة تمامًا فليس لتركيب لازم معيَّن أيةُ مقتضيات أخرى بصفته معجمية: ذلك أنه يمكن أن تُضَع قطعةً نقدية في الآلة التي تُنتِج اللغةَ الفرنسية في الثُّقْب الذي يُخصَّص لكلمة "قُبَعة"، فتَخرُج كلمة chapeau ؛ وإذا وَضعتَ قطعةً نقدية في الثُّقب الذي يُعلَّم بـ "قبعة بيضاء"، فستحصل على كلمة chapeau blanc. (ويمكن أن نتجاهل وجود احتمال آخر في اللغة الأدبية). فليس هناك أية مقتضيات جديدة لأن البنى تأتي من الطريقة الآلية التي تعمل بها اللغة وأن اللغة لا تُفكِّر. فإذا قرَّر أحدُ متكلميها أنَّ التعبير: chapeau blanc طريقةٌ مُبتذلَة لتسمية هذا الشيء فسيكون شعوره مماثلاً لشعوره بأن كلمة chapeau ليست كلمة ملائمة للمعنى "قبعة".

ويَميل اللسانيون في التقاليد الأمريكية إلى الانتماء إلى المعسكر الأخير، سواء أكان ذلك بصورة لا شعورية أم بصفته أمرًا مبدئيًا. أما على الطرف الآخر فهناك نشاط كثيف من الدراسات التأويلية، التي لا أعرف شيئًا كثيرًا عنها، وذلك بسبب بعض الظروف المحلِّية، هذا من جهة، أو لأنَّ فَهْم كتابات التأويليين يبدو صعبًا على المُتصفِّح، من جهة أخرى. ومن

الدراسات التي يبدو فهمُها ممكنًا نوعًا ما تلك الدراسة التي أنجزها جورج شتاينر Goerge Steiner في كتابه (Oxford; 1975) *After Babel* "بَعْدَ بابل"، وستكون الإشارات إلى طبعته الأمريكية، ١٩٧٧، ص ٣٠٣ وما يليها) التي ناقش فيها بعض الأمثلة من اللغات المعاصرة. فقد ناقش في البداية الجملة الإنجليزية: I want to go swimming "أرغب أن أذهب لأسبح" في مقابل الجملة الفرنسية: Je veux aller à la piscine [بالمعنى نفسه]، وما أشبهها، لكنه خلَط خلطًا عجيبًا مع الأسف بين الاعتبارات التزامنية والاعتبارات التعاقبية ولم يَنتَهِ إلى أية نتائج معقولة. ثم قابَل، بعد ذلك، الجملةَ الإنجليزيـة: It looks like rain "يبدو كأنها تُمطر"، بالجملة الفرنسـية: Le temps est à la pluie ، ملاحِظًا (ص ٣٠٤): "أن هناك حجة متضامّة جدًا في التابع اللازم في est à ، وهو ما يكاد يعني قولنا: "إن عقارب الساعة عند. . . [الساعة كذا] ". ثم يُخطئ في تحليله التعاقبي، مرة أخرى، حين يقول: "لا تعني كلمة pluie "مطر" فقط، أو حتى بصورة أساسية، لكنها تعني pluvia . ذلك أن الكلمة اللاتينية تحمل معنى استعاريًا". غير أن العكس هو الصحيح، إذ إن الكلمة pluie تعني أساسًا "مطر"، ثم إنه ليس مهمًا إن كان لـ pluivia معنى استعاريًا، لذلك إن كان لكلمة pluie معنى استعاري فسيكون لكلمة rain معنى استعاري كذلك (لاحظ المثالين التاليين في الإنجليزية:

"Into each life some rain must fall"
"The quality of mercy. . .",
Somerset Maugham, etc.

"في كل حياة لابد لبعض المطر أن يسقط"

"نوعية الرحمة. . . "

ثم تأتي مناقشته الرائعة، التي أظنُّها صحيحة، للمثال التالي من الألمانية:

Das Kind ist unter die Räder gekommen (305)

فيقول:

"إن المثال الإنجليزي:

The child has been run over

"دُعس الولد"

الذي توردُه كتبُ تعليم اللغة الإنجليزية بصفته المثالَ الموازي للمثال الألماني، لا يوحي بالتحذير غير المتحفِّظ المفهوم من المثال الألماني. ذلك أن المثال الألماني يشير إلى أن عجلات السيارة لها الحق الصريح في الطريق. . . أما المثال الفرنسي:
L'enfant s'est fait écrasser

فأقوى في إسناد اللّوم الضّمني".

ويوضِّح المثال الأخير الذي سنورده نهايةَ السُّلم الذي يتسم بكثير من التجريد عند شتاينر:

". . . فتتضمن العبارة الفرنسية: Que la lumiére soit "قيمة فكرية" لا توجد على الإطلاق في صيغة الأمر المباشرة التي في: Fait lux أو في الطلب المبطَّن في: Let there be light "ليكن هناك نُور" (أما العبارة الفرنسية: Que lumière soit، من جهة أخرى، فربما لا تزيد عن كونها سخرية شريرة من كلوديل Claudel)" (ص ٣٠٧).

والمبدأ الذي يقول إنه حتى البنية اللازمة (أي أنها لازمة نحويًّا أو أنها لازمة في نوع معين من أنواع التلعُّب باللغة) يمكن أن يكون لها بعض المقتضيات النفسية بل والسياسية، مبدأ عامٌ جدًا، ذلك أن هذه الصلة تُفهَم عبْر التجسُّم iconicity إذا ما فُهِم بطريقة عامة، يضاف إلى ذلك أن انواع الأشياء كلها يمكن ان تكون تجسُّمية iconic. ومن الأمثلة على ذلك، إذا ما أخذنا مثالاً من الخطاب بدلاً من التركيب، أن إدوارد سعيد يهتمُّ بإيضاح الكيفية التي استأنس بها المستشرقون الشرقَ من أجل استهلاك الغرب له، لذلك نجده يكتب ما يلي عن المَدخل "محمد" في كتاب Bibliothèque oriental من تأليف هيربيلوت d' Herbelot:

"والغرضُ الأهم إنما هو وضع محمد في الـ Bibliothèque. إذ إن خطَر الضُّلال الجارف قد أُزيح حين حُوِّل هذا الخطر إلى شيء محدَّد أيديولوجيًا على هيئة مدخلٍ يَخضع للترتيب الأبجدي. فلم يعد محمد يجول ويصول في الشرق مُمثِّلاً مَصدرًا للخطر والفِسْق غير الأخلاقي؛ إذ هو يَجلس الآن بهدوء في المكان

المخصَّص له في المسرح الاستشراقي (وإن كان يجب الاعتراف بأن هذا المكان بارز). فقد أعطي نَسَبًا، وتفسيرًا، بل وتطورًا كذلك، وقد اختُصر ذلك كلُّه في بعض الأحكام البسيطة التي تمنعه من الانتقال إلى مكان آخر " (Orientalism .(66

وربما احتجَّ المرءُ بأن هيربيلوت قد اتُّهم بتهمة باطلة هنا، ذلك أنك إذا أردت تأليف دائرة معارف فلابد أن تُنَظَّم الأشياء فيها على هيئة مداخل، بغض النظر عن إن كنت تكتب عن محمد أو موسى أو الرياح أو المطر. وربما تكون الإجابة عن ذلك أن دوائر المعارف بطبيعتها تميل إلى تجسيم الأشياء حين تُصنِّفها، وهو ما يعني أنه لم يكن بمقدور هيربيلوت أن يخالف هذه الطبيعة إذا ما بدأ في وضع الأشياء على هيئة دائرة معارف، ومع ذلك فهناك نوع من التجسيم بين المدخل الأبجدي وزنزانة السجن المرقَّمة، وهو ما نميل عادة إلى تجاهُله في اندفاعنا العملي نحو الحصول على المعلومات، وهو ما يمكن أن يُستغَل لأغراض أيديولوجية؛ أما كَوْنُ هيربيلوت أو غيره مُذْنِب بهذا الذنب فمسألةٌ أخرى يجب أن يُبرهَن عليها بأنواع أخرى من الأدلة. وعلى كلٍّ فاختيار النوع الأدبي ليس أمرًا مُحايدًا؛ ذلك أننا مسؤولون عن المُقتضيات التي تنجُم عنه. فيُمكن لِمَنْ يُخاطَب بالبيتين التاليين:

How do I love thee?
Let me count the ways

"كيف أحبُّك؟ "

"دعيني أعدد الطرق [التي يمكن لي بها أن أحبك] "

أنْ يَشعُر بأنه لم يُتغزَّل به بطريقة كافية إن اختار الشاعرُ بدلاً من القطعة الشعرية أنْ يُعَدِّد تلك الطرق بشكل يشبه قائمة المحاسبين.

ولا شك أن بعض القراء يشعرون بجدٍّ أنهم لم يَقتنِعوا بالمحاولات التأويلية المحدَّدة التي قدمتُها إلى هذا الحَدّ، وبشكل مماثل لن يقتنعوا بسهولة إذا ما حاولتُ طريقًا في التأويل غير مألوف. ولا يبرهن هذا على عدم وجود أيِّ مضمونٍ فِكْري للارتباط بين الشكل والنوع.

ذلك أنه يمكن أن تُماثِل صعوبةُ العثور على الشَّذَرَة الدلالية صعوبةَ العثور على الكوارك quark [في الفيزياء] وتحديده.

وحين يعي المرء، أو يظن أنه وعى، بالمقتضيات الوجودية للبنى النحوية، فإن لغته التي كانت لا تَلفِت نظرَه لأُلفته إياها، تُصبح غريبة. ويُعبِّر عن ذلك شكوى سارتر التالية:

"لقد أرغمتنا هذه الضرورات التي اقتضاها التَّركيب الحديث حتى الآن على "الوعي غير المتموقع بالذات ". إلا أنه لم يعد بالإمكان أن نستمر في استعمال هذه العبارة التي يظل فيها قولنا "بالذات " يستدعي فكرةَ المعرفة (لذلك سنضع من هنا فصاعدًا حرف الجر "بـ " de بين قوسين للدلالة على أن حضوره ليس إلا استجابة لضرورة نحوية " (كتاب: "الوجود والقَدَر ")، ص ٢٠).

Ces nécessités de la syntaxe nous ont obligé jusqu'ici à parler de la "conscience non positionelle *de* soi". Mais nous ne pouvons user plus longtemps cette expression où le "de soi" éveille encore l'idée de connaissance. (Nous mettrons désormais le "de" entre parenthèses, pour indiquer qu'il ne répond qu'à une contrainte grammaticale.)" L'Etre et le néant, NRF, p. 20.

وتمتلئ الفلسفةُ الحديثة بمثل هذا التذمُّر من اللغة.

ويَلحظ تشومسكي، الذي يَسبق ظِلَّه بخطوة دائمًا، أن الشعور بأن "الاختيار " وحدَه هو الذي يُسهِم في المعنى قد جَعل التحويليين يَفترضون أن البنية الظاهرية، لأنها محدَّدة بالبنية العميقة، يُمكن ألا تكون ضرورية للتأويل الدلالي؛ ويرفض تشومسكي هذا الاستنتاج.

"Deep structure, Surface Structure, and Semantic Interpretation", in 1972: pp.115-116

ويسعى لانجيكر R. Langacker والباحثون الذين ينتمون إلى نظرية "نحو الحَيِّز " space grammar إلى الكَشف عن بعض المقتضيات الوظيفية/ الدلالية للشكل المُنجَز، وهو ما كان يُحاوله فقهاءُ اللغة القدماء، قبل اللسانيات، وهم الذين كانوا يَشعرون بالدونية تجاه العلوم الدقيقة، وهو ما جَعَلهم يَستُرون المعنى بورقة توت.

ومع هذا فالفكرة القائلة بأن هناك جوهرًا أساسيًا للُغة يَتصف بأنه غير تجسيمي، وحُرٌ من الارتباط بالأسلوب وشفافٌ أيديولوجيًا لا تزال مسيطرة. فقد اكتسب ما كان يُعَدُّ في البنيوية المبكِّرة مبدأً فحسب عُمقًا وأهميةً في التطورات المختلِفة للنحو التوليدي، وهو الذي يَفترض أنَّ تكوُّنَ الجملةِ يَحدُث في بعض المستويات المتوسطة، حيث يكون هيكلُ المقولات قد وُضِع بصورة مُسبَقة، ثم تقوم مخلوقاتٌ قَزَمية برسم العلاقات بين العُقَد، ثم تُدخَل المعجمياتُ في الأماكن الملائمة لها من العُقَد وتُنقَل من تلك المواضع إلى مواضع أخرى، وفي الختام تُعطي لذلك التركيب صورته الصرفية الصواتية الأساسَ قبل إنهاء تلك العملية:

[flayiŋ pleynz kæn bi deynĵə̂rə̂s]
"flying planes can be dangerous"

[وقد كُتبت بحروف الأبجدية الصوتية العالمية]

أما الصورة التي يُصوِّر بها الأسلوبَ فهي أنه لا يزيد عن كونه نتيجة لعملِ عدد قليل من التحويلات الاختيارية التي تَلفِت نظرَ المستهلِك لكنها لا تُغيِّر الخطةَ الأساسية، فهي تشبه الأنواع المتعددة لمقاعد السيارات.

***

ولغرض التجريب طبَّقتُ منظورَ العطف على الإنتاجية leistungsbezogen على عدد قليل من البنى التي تبدو عادية. ويتمثل هذا الإجراء في اختيار أكثر أجزاء النحو جَلْبًا لِلملَل في كتب النحو التي يمكن لي أن أتخيلها، ثم أنظر فيما إن كان هناك احتمالٌ لوجود أدنى قدرٍ من المقتضيات النَّفْسية مما يمكن أن يكون مختبئًا وراء هذه الأمثلة كاختباء النار تحت الرماد.

ولا بد لنا هنا أن نلتزم بالمسلَّمة المنهجية التي التزمنا بها في دراستنا للرمزية الصوتية. ذلك أن القول بوجود بعض القيم النفسية اللازمة في بنية نحوية معينة أو في سلسلة صوتية لا يعني أبدًا القولَ بأن هذه القيمة حاضرة بشكل نَشِط بأية درجة في الاستعمال العادي غير المُوجَّه، إنما يعني ذلك وحسب أنه إذا ما أُبرز ذلك التعبير ودُعِّم واعتُصِر من أجل استخراج

مُسلَّمته القيمية، فسوف تتضح قيمتُه عند تلك النقطة فقط. ويُشْبِه هذا القيمَ التاريخية لأصول الكلمات عند متكلمي اللغة المثقفين ثقافة فلسفية. فأنت حين تُستعمِل كلمات مثل: sympathtic, extravagant, entdechen, urteilen لا تُفكِّرُ أبدًا في أصولها التاريخية؛ أما إذا ما استعملها [الفيلسوف الألماني] هايدجر الذي يَفْصِل بين مكوِّناتها، في أسلوبه الذي يَتميز بالفخامة والتعالي، فسوف تقفز أصولُها التاريخية حين ذاك إلى مجال انتباهك.

إضافة إلى ذلك لا أقول أبدًا إنه لا يُمكِن لأحدٍ أن يكتشف القيمة النفسية لشكلٍ ما من ذلك الشكل نفسه بصورة مباشرة من غير أن يعرف اللغة: قارن الملاحظات المتشككة لـ von der Gabelentz و Entwhistle في الفصل التاسع. فإذا بدا أنني أقوم بذلك في الأمثلة التالية فليس هذا الانطباع صحيحا. أما ما يبدو لي، من النظر في العطف المتعدِّد في الإنجليزية، فانطباعٌ يَنطلق مما لا أستطيع معرفته من الأماد العميقة في لغتي الأم، وهي التي اختبرتُها في مقابل عَمَل هذه اللغة فعلا.

فإذا وصل القارئ إلى قناعة مؤداها أن فرضية الثنائية النحوية تبلغ حدًّا بعيدًا من الوضوح لا يجعلها بحاجة إلى أي دفاع عنها، أو أنها تبلغ حدًّا بعيدًا من السخف أو أنها غير مقبولة منهجيًا بوصفها دليلا، فإنه يستطيع أن يُهمِل قراءة ما بقي من هذا الملحق، ذلك أنه لا يمكن عَدُّه برهانا، وإن كان مُوحيا للمتشكِّك المتعاطف، كما أرجو.

أ ـ العطف بأداة العطف وبغير أداة العطف:

كانت قائمة طعام جون تتكون [أي في اللغة الإنجليزية] من: تفاح، برتقال، برقوق.

لذلك يجب عليه أن يقول:

I ate an apple, an orange, and a plum

"أكلتُ تفاحًا، برتقالاً، وبرقوقا".

كما يجب على جين وهانز [أي في الفرنسية والألمانية] أن يقولا الشيء نفسه. فلا يُمكِن لمتكلم الإنجليزية أن يَحذف أداة العطف and قبل الاسم المعطوف الأخير، كما سيشبه كلامُه كلامَ الأطفال إنْ وضع أداة العطف هذه قبل أي اسم معطوف. ويمكن أن يقول اللساني البنيوي: "إذا لم يكن هناك اختيار فليس هناك معنى، فهذه هي الطريقة الوحيدة التي

يمكن أن تعبر بها عن هذا المعنى في الإنجليزية ". أما يحيى [أي متكلم العربية] من جهة أخرى، فربما يَلزَمه أن يضع حرف العطف "و" قبل أي اسم معطوف فيما عدا الاسم الأول، لذلك فهو قد يقول: "أكلت تفاحًا وبرتقالاً وبرقوقا ". ومرة أخرى ليس هناك اختيار [بين أن نضع حرف العطف أو لا نضعه]، لذلك لابد أن تكون البنى متكافئة أسلوبيًا في المطعم الآلي للغة.

والكشّاف [في الإنجليزية يتصف بأنه] مُخلِص، مساعِد، مِقدام، لطيف، مطيع، بشوش، مقتصِد، شجاع، نظيف، ومؤدب. أما في العربية فيتصف بهذه الصفات جميعها أيضًا من غير أن تكون معطوفة بعضها على بعض (في تركيب الصفات، في *العربية*، في الأقل). ومرة أخرى يجب ألا نتوقع مفاجآت خلف الحجاب.

ومن أجل المقارنة، فالقَرنيّات عند المخلوقات الخرافية الليليبوتية [في مغامرات جوليفر] كلها مُلوّنةٌ باللون الزّهري، أما قرنيات المخلوقات البليفوسكية فملونة باللون الأزرق. فإذا لم يكن للأشياء اللازمة غير المتضادة معنى فيجب أن يرى أفرادُ هذين النوعين من المخلوقات الكونَ بطريقة واحدة. إلا أنَّ فرضيةَ الثنائية تفترض أنهم لا يَرون الكون بطريقة واحدة، لكنهم يمكن أن يَعوا بهذه الحقيقة، ذلك على الرغم من أنه ليس لهذه الاختلافات أية عقابيل في ظروف الحياة اليومية العادية.

فهل هناك معنى لازم لـ: < "أ"، "ب"، و"ج" >

في مقابل: < "أ"، "ب"، "ج" >

و: < "أ" و "ب" و "ج" >؟

ويبدو التركيب: < "أ"، "ب"، و"ج" > كأنه مُقيَّد وغير طبيعي أو أنه مناسب لكنه متكَلِّف جدًا. والسبب البنيوي لذلك أن كلمة and لا تُبين عن أية درجة خاصة للتقارب بين المعطوفيْن "ب" و "ج" في مقابل "أ" و "ب"، فهي لا تزيد عن كونها مجردَ عازل يُمكِن تحديدُه حسابيًا (فأنت تقرر أوّلاً متى تكون على مشارف إنهاء قائمتك، ثم تُدخِل أداةَ العطف and قبل الكلمة الأخيرة في هذه القائمة). فتشبه هذه الـ and كلمة please "من

فضلك "التي يُحذَّر الطفل من عدم استعمالها؛ كما تشبه التسمية قبل الأكل، وتشبه السؤال المتلطف May I? "أيمكنني؟ " عند تبادل الأدوار في الألعاب. وهي مقابلٌ للصرامة التي تبدو في بعض التعابير، نحو التعبير اللاتيني: Veni vidi vici ، والتعبير الإنجليزي: Bread, land, peace! "الخبْز، الأرضُ، السلام! ". وهي من الأشياء التي يُمكن أن تُعجب [المحافظين]: Batton, Barton, Durstein, and Osborn [أسماء بعض القادة العظام؛ لاحظ عدم استعمال أداة العطف إلا قبل الكلمة الأخيرة] ـ ووكالات الإعلان، لكنها تبدو كما لو كانت مأخوذةً من نصٍّ قانوني، أو كأنها صوتُ قعقعة في بيت مهجور: لذلك فما أشد اختلافها عن لُطف العبارات التي تخلو منها، مثل:

go-ø – get-'em Texans of Ling-Temco-Vought

"انطلقوا ø اقبضوا عليهم أيها التكساسيون من . . . . " (وهي التي يُكتفى باختصارها إلى: L-T-V).

وحين يريد المرء أن يَبحث عن بنية لها مضمون دلالي يَخطُر على باله السجعُ والتكرار والكلمات المتضخِّمة galumphonyms (انظر الفصل الخامس) وهي التي توحي بتأثيرها. فإذا أوحت البنية: < "أ"، "ب"، و "ج" > بوجودها في التحقُّق المقابل، فمَرَدُّ ذلك امتناعُها العنيد من الخضوع لأثر عدم وجود أداة العطف، أو الحرية التي تجعلها قادرة على نظْم قائمة ما متى أرادتْ ("أ" و "ب" و "ج" و "د" . . . و "هـ" . . .)، من غير أن يُلزِم ذلك بالانتهاءِ بتلك الـ and [٢٩]. لكن الامتناع نفسه ليس محايدا.

بل لا يبدو، حتى في العربية، أن "للواو" التي توضع بين مكوِّنين يتتابعان في العادة، في بعض التراكيب القليلة، أيَّ أثر للتردُّد أو لمعنى دقيق غامض ـ وأنا لست متأكدًا من المدى الحقيقي للقيم، لكن الوظيفة، على أية حال، ليست إشارية كما أنها ليست بنيوية خالصة، إذ تبدو مماثلة، تقريبًا، لبعض الأدوات التي تعيِّن وجهةَ النظر في اللغة الألمانية كما يبدو من ترجمة ريكندورف للمثال التالي:

"أوَ فَعَلتُ؟ "

<Q and- I- did>
"Und habe ich es *denn* getan" (SV 447)

ومع هذا فإن: red, white, and blue "أحمر، أبيض، وأزرق" يمكن أن تُساوي في إثارتها التركيبَ التالي: on land or sea or foam "على اليابسة أو البحر أو الزَّبَد". وليس لهذا التركيب بنفسه أية مقتضيات ضرورية، ذلك أن قيمته المفترَضة لا تزيد عن كونها قيمة ضمنية، لكنه يمكن، انطلاقًا من بعض الأمثلة المشابهة، أن نرغب في صقل تحديدنا لهذه القيمة: ذلك أن الأداة and النهائية التي تُوقِف السلسلةَ الهادرة غير المترابطة من المعطوفات التي تشي بمجموعها بضبط النَّفْس، يُمكن أن تعني الانضباطَ الرِّواقي stoic بالإضافة إلى الإذعان الطفولي. والواقع أن: red, white and blue "أحمر، أبيض، وأزرق" لا توحي بالتفاخر بالانتصار الذي في: veni, vidi, vici أو بالتركيب الأنجلوساكسوني الأكثر تواضعًا وغير المربوط بالعاطف: Sighted sub, sank same "غواصة مكتشفة، اغرقوها"، وإنما توحي فقط بأخذ الأُهْبة. فهي تمثِّل التوقُّف الوقور، أي لحظة الدعاء قبل الهجوم الكاسح the carpet bombing. وكذلك: blood, toil, tears, and sweat "الدم، الكَدْح، الدموع والعَرَق" فقد كانت، حين استخدم تشرتشل هذه العبارة، عبارةً دفاعية متعالية. ويَعرِف الذي يَعتنق الشِّعار: Scherz, List, und Rache كيف يَقضي وقته قبْل الانتقام؛ وتوحي عبارة: Scherz List Rache بإعصار شديد مدمِّر [أي بهجوم عشوائي شديد].

ولا يزيد كلُّ ما قدمتُه بالطبع عن كونه مجرد انطباعات خالصة. ذلك أن ما أكتبُه هنا ليس إلا ملحَقا، فالفصل قد انتهى، ونحن إنما نتمتع بممارسة بعض الحرية بعد الانتهاء من العمل.

وتخالِف البنيةُ < "أ"، "ب"، و "ج" > التعبيرَ المباشر عن المضامين النفسية المتعثِّرة المتشتتة مرَّتين، ذلك أنها غير متوازنة بشكل غير تجسيمي، كذلك، وإن كان هذا بدرجة أقل، لوجود أداة العطف أساسا. فأداة العطف and إنما هي خاطِبة، ويمكن أن تُحدِث بعضَ العلاقات القَرابية المصطنعة. قارن بما يقوله ريكندورف:

> "يعبِّر عن المفاهيم المعزولة [في *العربية*] بأسلوب يحوي رابطًا لفظيًا؛ أما المفاهيم التي تتضمن صفات لِمعانٍ مشتركة، فيعبر عنها بأسلوب يخلو من ذلك الرابط.

بمعنى أن المفاهيم غير المترابطة بشكل طبيعي تحتاج إلى رابط لفظي مصطنع، أما المفاهيم المترابطة طبيعيًا فليست بحاجة إلى أن يؤتى لها برابط من خارج منطقها الطبيعي ".

"Getrennte Begriffe werden [in CA] syndetisch gegeben, dagegen Begriffe, die als Eigenschaften an einem gemeinsamen Begriffe halten, asyndetisch. Also werden die natürlich unverbundenen Begriffe dafür *künstlich*, ausdrücklich verbunden, während die bereits natürlich verbundenen Begriffe nicht ausdrücklich verbundenen werden müssen"
(والتشديد من جستس، SV 444 ، حيث توجد الأمثلة).

وهذا معيار قوي، أي هذا هو العاطف! وهو مثل الأشياء الأخرى كلها، إذ يمكن أن يساء استعماله. ويبدو أحيانًا أنّ عاطفًا مغرورًا لا وجود له يقلِّد العطف، بصورة دقيقة وإن كانت غير ملائمة في المكان، وهو ما يُشبه الهيبيين الذين يَلبَسون ربطات عنق على القمصان غير الرسمية T-shirt . ومن أمثلة ذلك: so much Latin, drubbing, and geography "لقد شبعنا من اللغة اللاتينية والهزائم [ربما: "الخراء"] والجغرافيا " (التي استشهد بها فرويد في كتابه: Wit and its Relation to the Unconscious, Modern Library edition, 672 "الفكاهة وعلاقتها بالوعي"، مع أمثلة أخرى)، و bâtons, chiffres, et lettres (Queneau). (وتزيد هذه من طرافة العاطف zeugma المصاحب لشكل الخلطة غير المهضومة، < "أ "، "ب "، و "ج ">: إذ ليس لها الأثر نفسه الذي يصاحب < "أ" و "ب " و "ج ">. ومن أمثلتها في الإنجليزية:

With that advice and two bits I can ride the bus

"مع مثل تلك النصيحة وأمرين آخرين أستطيع ركوب الحافلة "

وفي الألمانية:

Verrückt und drei macht sieben. . . . . Du hast Läuse im Schädel
(Im Westen nichts Neues)

ولا يُستعمَل مثلُ هذا العطف المفروض كلّه من أجل التهكم. بل يمكن أن يُستعمل في بعض التركيبات الجديدة غير المألوفة التي يزيد معناها عن معنى مجموع المكوِّنات التي

تُصاغ منها؛ إذ تبدو هذه بصورة مطردة كما لو أنها من النوع: < "أ"، "ب"، و "ج" >
بدلاً من كونها من النوع < "أ" و "ب" و "ج" > التي ربما تكون مُمكِنة من حيث المبدأ.
لهذا نجد بعض الأمثلة نحو:

high, wide, and handsome

"عالٍ، عريض، وجميل"

sh**, grit, and mother-wit

(وهي تشبه المثال الذي أوردتُه سابقا: hazy lazy crazy في أنَّ كلمةً واحدة، وهي الأولى هنا، تأخذ أغلبَ معناها عمومًا من الكلمتين الأخريين).

ولا يتطلب التركيب < "أ"، "ب"، "ج" >، ولا التركيب < "أ" و "ب" و "ج" > أيَّ نوع من التأمُّل. ذلك أنه إن كانت < "أ"، "ب"، و "ج" > متحفِّظة، فإن التراكيب الأخرى تُشبه التعرِّي، فمَع أنه المظهر الطبيعي الذي يكون عليه الإنسانُ في أول أمره إلا أنه غير مقبول في المجتمع المهذَّب. ويتسم النوعُ الذي تتكرر فيه أداة العطف بأنه أكثر تفصيلاً وهو مُكافِئ لبعض التغطية الشمولية، ويَدخُل مع الاستعمالات الأخرى لأداة العطف and في النحو. ويقول هافرز (Havers (1931:45:

"لا تكاد توجد ظاهرة لغوية اتفق الجميع على كونها إحدى خصائص اللغة الشعبية وكلام المتحدثين على سجيتهم مثل ظاهرة "العطف". ومما تجدر الإشارة إليه الطبيعةُ التحليلية للغة الشعبية، وميل المتحدثين بها إلى استخدام العبارات السائبة، وصَفِّ العبارات المتجاورة؛ بدلاً من الربط الدقيق والمنطقي المستخدم في اللغة الأدبية. ويمكننا في هذا السياق أن نتحدث عن أسلوب "... و..." أو أسلوب الإلحاق باستخدام العطف".

Es gibt kaum eine sprachliche Erscheinung, die mit solcher Einstimmigkeit als Charakteristikum aller volkstümlichen und primitiven Redeweise hingestellt wird wie die *Parataxis*. Man betont den analytischen Charakter der Volkssprache, ihre Vorliebe für lose und lockere Aneinanderreihung an Stelle der straffen und logischen

Satzfügung in der Literaturspache, man spricht von λεζς επομένη, vom *und-und*-Stil, vom parataktischen Nachtragstil.

ويَستعمِل الأطفال في الغالب أسلوبًا تتعد فيه أدوات العطف، مثل:

"We went to the zoo and saw animals and zebras and ate popcorn and soda pop and rid on the rides and plus Bobby got sick and we saw all the animals."

ـ كما يفعل ذلك إرنست همنجواي الذي يمثّل العالَم كأنه خليطٌ من الانطباعات الحسية:

"When we came back to Paris it was clear and cold and lovely"
(A Moveable Feat, Bantam reprint p. 11)

"حين ذهبنا إلى باريس كانت صافية وباردة ورائعة "

وهذا وصف حِسِّي؛ أما التركيب < "أ"، "ب"، و "ج" > فسيكون أقلَّ حميمية، وموضوعيّ، ويَقرُب من تقرير النشرة الجوية.

وهناك عدد كبير من العلاقات المنطقية والنفسية الممكنة بين المعطوفات في الغالب. وليس في الأسلوب الخالي من أدوات العطف أية وسيلة لتوضيح هذه العلاقات. أما إيراد أدوات العطف فيَسمَح بعدد أكبر من الاحتمالات، إما عن طريق تنويع المواضع التي توضع فيها أدوات العطف ـ تبعًا لدلالتها، وليس نتيجة للتقليد الأعمى ـ أو عن طريق وجود أكثر من أداة عطف للاختيار من بينها (كما في الروسية التي توجد فيها الأداة i ، وأحيانًا a ، والعربية التي فيها "الواو"، وأحيانًا "الفاء").

ويمكن في بعض الأحيان أن يُجمع بين المتقابلات، ومن هنا نجد أن للأداة and أحيانًا معنىً استدراكيًا، وهو المعنى الذي يتحقق في العربية بـ "الواو" (مثل الأداة الروسية a) التي يجب في كثير من الأحيان أن تترجم بـ but ، كما تُترجم "وهو" الخ بـ although، وكذلك في النوع (٢) من السلسلة الاسمية المعطوفة (القسم ٨). ويبدو عدم إيراد أداة العطف، في التعداد الذي يزيد عن اثنين، وهو الذي يَغلِب عليه عدمُ الاستدراك، غير ملائم، انظر المثال التالي:

?young, old, black, and white

بدلاً عن: young and old, black and white

لذلك يمكن بصورة استثنائية عند إيراد قائمة بمجموعة لا يتماثل أعضاؤها، إما في الشكل أو الأهمية، أن توضع ands "واوات العطف" بين أعضاء هذه المجموعة كلّها، حيث يُشار من طرف خفيٍّ إلى دلالة التّعداد عن طريق "التّجسّم الثانوي" (كما يقول [اللساني الأمريكي] Bolinger) للأسلوب غير المألوف للعطف بالأداة. وكما ورد عند همنجواي:

I thought of Miss Stein and Sherwood Anderson and egotism and mental laziness versus discipline and I thought who is calling who a lost generation?
(Hemingway op. Cit. P. 30).

يضاف إلى ذلك أن هناك تجسُّمًا أوّليًا للربط بالأداة، ذلك أنّه يفرّق، حرفيًا، بين المعطوفات. لهذا لا يُدهشنا أن الأسماء في العربية، وهي التي تُسمّي الأشياءَ المادية بامتياز وهذا لا تحتل الحيِّز نفسه، يُربط بينها بأدوات الربط، في حين تُربط الصفات وهي التي تُسمّي الكيفيات بامتياز، ولا تتابع، من غير أدوات الربط.

وإذا ما حُذِف فعلُ الكَوْن صَحِب ذلك الحذفَ في العادة نوعٌ من السُّعار [مما يعني السرعة في تتابع الأشياء من غير حرف عطف]، وهو ما يُشبه ما يَصدُر عن البحّارة عند وصولهم إلى الميناء:

Wham, Bam, Thank you ma'm

التي تعني: find'em, **** 'em, forget 'em

و:

They just went bang bang bang through every item on the budget

التي تعني:

*bang, bang, and bang

ومع العطف المتكرر: Take that and that and that!

التي تعني: *that, that, and that

و: boulot métro dodo

(التي تمثّل تجسّمًا للسُّرعة والتّشابه وعدم التشابه للعَدْو البطيء).

و: Etwa Bammelmänner? Gakkos Schrate Barstucken?

و: "Stücklen Labbern Nuckeln Durst. Lust wer wem?

(وكلا المثالين من كتاب G. Grass, Hundejahre، حيث تُمثّلان التيار الجارف من الانطباعات عند طفل [وهذا المثال والمثال السابق كلمات مصفوفة لا معنى لها وترتبط بخيالات الأطفال ومص الأصابع]).

و:

tanggrünhaarig, schuppenglitzleiberig, störschwanzflozzig, /
schwimmtauchblinkend, schwimmfauchflinkend / schwimmpustpfasend /
wi / rasend, / Drommetenschenschneckenhörner blasend, / tausend. . . .
Tritonen!

([وهي كذلك عبارات تمثل لعبًا بالألفاظ ولا تؤدي أي معنى]، وأمثلة أخرى كثيرة من Arno Holz).

ويجعلنا الوصفُ التالي الذي وصف به هوبكنز G.M. Hopkins الصَّقر:

daylight's dauphin, dapple-dawn drawn Falcon

نستشعر التحليقَ في العطف المعبِّر من غير أداة في قوله:

Brute beauty and valour and act, oh, air, pride, plume here/Buckle!

ويعني ذلك: ("أ " و "ب" و "ج" ـ ولكي تستمر مع هذه المعطوفات ـ "د " و "هـ"، و"و "!!!).

قارن ما يقوله سبتزار (Spitzer (1948:160، مستشهدًا بديدرو Dederot:

'Ill resta immobil, supide, ètonnè

ـ وهي ثلاث صفات تتجاور من غير أن تكون معطوفة بعاطف، وهو ما يُحافِظ على روح الغَباء ".

وللاطلاع على أمثلة أخرى لما يسميه هافرز بـ das malende Asyndeton، انظر هافرز (١٩٣١، ص١٥٣).

***

أما من حيث التجسُّم، فهناك قدر أكبر من الوحدة في التتابع: < "أ "، "ب "، "ج " > مما يوجد في البنيتين الأخريين وربما يكون لهذا بعض النتائج النحوية:

"بدءًا من الأشياء الفطرية إلى أقصى النواحي العقلية نتعرف على ما يمثل محرِّكًا للمدخل العام للعالم واستنتاج جوانب الكون ومفتاحه، كما يقوم بتوسيع مدى العالم وتقليصه في مساهمة حيوية وعاطفية ووجودية. ولا يمكن أن تتوفر هذه المعرفة إطلاقًا دون العلم بذلك ومعايشته. . . ".

Vom Biologischen bis ins höchst Geistige erkennen wir so einen Motor des Welteingangs, Welterschliessens, Welteröffnens, Weltweiterns und Vernichtigens in einer vitalen, emotionalen und existentialen Anteilnahme, ohne welche Wissen, Erlebnisinhaltehaben, ø Kennen überhaupt nicht zustandekommt. . .

(كما يقول روثاكر E. Rothacker ، نقلاً عن جيبر Gipper 1969: 420).

والأداة und الأولى ليست في الواقع من النوع < "أ"، "ب "، و "ج " >، وإن كانت تتخفى بهذه الصورة - أي كأنها الخطوة المبدئية نحو العطف من غير أداة. ذلك أن لدينا في الواقع:

Welt-erwiterns und --vernichtigens

وقد جرؤ المؤلفُ فيما بعد فأورد ثلاثةَ أسماء من غير عاطف بينها - ثم جعل هذه السلسة تنتهي بلاحقة مطابقة للمفرد.

***

وليست هذه المجموعة الصغيرة من الأدلة برهانًا على فرضيتنا؛ فهي لا تعدو أن تكون عيِّنة مما ستكتشفه إذا أزحت الغطاء الشفاف. وهناك عدد من العوامل التي تؤدي أدوارًا مختلفة حين تنحرف اللغةُ عن طريقها المعهود. فالتعبير: Kinder Kücke Kirche مهذَّب لكنه يخلو من أدوات العطف؛ ولتصنيف مثل هذا المثال ربما يَلزَمنا أن نخترع مفهومًا نوعيًا جديدا (ولنُسمِّه: "شِعار "، مثلا) ومفهومًا جديدًا للوزن (ولنسمه، مثلا: lapidary troches "الوزن التُّروكي الدقيق ")، نحو:

Glory, gold and gospel;

"المجد، الذّهب والدِّين"

Bell , book and candle;

"بيل، كتاب وشمعة"

Tom, Dick, and Harry;

"توم، دِكّ، وهاري"

Bread and Puppet theatre.

"خبز ومسرح عرائس"

فإذا كان القارئ لا يزال في رَيْبٍ من وجود أيِّ مضمون أو قيمة أسلوبية لبنية تبلغ حدًا من الانتظام مثل < "أ"، "ب"، و "ج" >، بغض النظر عن الأدلة التي يمكن أن نكتشفها، فما عليه إلا أن يَرجِع إلى الاستعمال الحاذق عند إمبسون Empson للبنية < "أ" و "ب" لـ "ج" > (١٩٣٠، ص ٩٠ وما بعدها).

ب ـ البنية الصرفية للماضي والمستقبل:

ولتكوين صيغة الزمن الماضي للفعل، تُضيف الإنجليزية والألمانية (وفي العربية كذلك، عند إسناد الفعل لأغلب الضمائر) لاحقةً تتمثل بصوت صامت (أسنانيّ) (ويختلف شكلُه بحسب الأشخاص في الألمانية والعربية). ولتكوين صيغة المستقبَل للفعل تُستَعمِل اللغاتُ الثلاث جميعُها صرفيةً مستقلة تسبق الفعل، وهي التي لا تختلف صيغتها في الإنجليزية والعربية.

ويبدو هذا الأمر أليفًا جدًا. ولا يبدو أنه يتصف بأي تجسُّم ـ إذ إن ما يدل على الماضي يأتي بعد الفعل، ويأتي ما يدل على المستقبل قبله. كما أنني لم أستطع اكتشاف أي مبدأ جمالي يختبئ في الصرف. ومع هذا هناك بعض المقتضيات فيما يخص مبدأ الاقتصاد اللغوي[٣٠] في البنى، وهي التي تشبه رَصْفَ الآجرّ أكثر من شبهها بالآجر نفسه: وهو ما يعني أنها ليست جامدة، بل تتسم بأن بعضها مرآةٌ لبعض؛ أي أن النظام يتضمن أسسَ تحويله.

١- لا يستطيع المتكلِّم تنويعَ اللاحقة. فالكلمات التالية:

*lookek,*callg,*kissk

لا يَحتَمل أن تُخترع إلى جانب الكلمات المألوفة:

looked, called, kissed (lukt, k ld, kist)

وعلى العكس من ذلك يمكن أن تتراجع الصرفية المستقلة أمام بعض الصرفيات الجديدة:

I will go
I shall go
I am going to go
(I'm gonna go, I'm- a go)

ويبدو أن شِبْه القواعد الطائشة التي تحكم التبادل بين shall /well تعيش في كتب النحو لمجرد الحِفاظ على المكانة. كذلك توجد مثل هذه التنوعات في العربية، نحو ما نجده في *العربية*: "سوف أذهبُ"، "سأذهب" (ابن قزمان: "سا ثروا"، وفي اللهجة المصرية: "حـ . . ."، "راح"، "رايح")، حيث يمكن لما يُشبه السوابق أن تظل كأنها صرفيات مستقلة، وذلك عن طريق القياس الموضعي، كما في حالة السابقة "سا"، أو عن طريق نَبْرها نبرًا مستقلا.

٢- وتَسمح الأزمنةُ التي تصاغ عن طريق الأفعال المساعدة (أو السوابق) بتوكيد دقةِ الإسناد في مقابل التوكيد التقابلي، وذلك عن طريق نبر الفعل المساعِد:

I will fire him.
I will fire him (not fine him)

أما لواحقُ الفعل الماضي فلا تُنبر بمثل هذا النبر، لذلك ربما كان يلزمنا أن نُضيف كلمةً أخرى، أثناء ذلك، لنتجنب تركيبًا يَلزَم فيه الإلحاق: He did do it، و "قد فَعَل".

وبشكل مماثل لا تُجِد لغةٌ مثل الألمانية، وهي لغة تُحب أن تُجمِّع مختلفَ الكلمات بعضها إلى بعض، غضاضةً في مثل هذا الصنيع. لذلك يمكن أن تُسهم كلمةٌ مثل: Schachtelsucht في اختفاء صيغة الماضي التي تلحقها لاحقةٌ وتفضيل صيغةٍ مؤلَّفةٍ للماضي بمعنى تلك الصيغة:

Ich habe (ihn seit gestern ja gar nicht)gesehen

ومثل هذا الأمر مُتاحٌ في صيغة المستقبل الذي تدخل فيه كلمة will [في الإنجليزية]، بل يمكن حتى للعربية أن تستثمر أحيانًا الفراغ بين الفعل المساعد والفعل: "سوف لا أضربه"، و "سوف إخال أدري " (SV 514).

وتماثل العربيةُ الإنجليزيةَ في أن نفي الماضي لا يستعمل صيغةً زمنية ملحوقة: He didn't see it ، "لم يَرَ" (إلى جانب: "ما رآه ").

ومن اللافت للنظر، في ضوء ما تقدَّم، أن إحدى الطرق المألوفة في التعبير عن تأكيد تحقُّق الإسناد في المستقبل، في العربية، تتمثل في حذف الأداة المساعدة (وهي التي تُترَك في مكانها أداةً غير منبورة) ثم إضافة لاحقة توكيدية منبورة خاصة: "إنّي لأضربنَّه". ولا يمكن أن تضاف هذه اللاحقة إلى صيغة الماضي التي تلحقها دائمًا لاحقة.

***

وربما جاز لنا أن نطبِّق وجهةَ النظر التي تقوم على دلالة الشكل على هذه المجموعة من الثنائيات التي تمثِّل الموضوع الرئيس لهذا الفصل. فلا نَربط بينها، بوصفها مجموعة، إلا قيمةً شكلية ونفسية واهية جدًا، وهي الفكرة العامة "للتثنية "، وهي الفكرة التي يُمكن بكل بساطة أن تُستغل بشكل كبير. كما يبدو أن هناك كثيرًا من الارتباطات السياقية والخاصة بين الشكل والمعنى في بعض الأنواع التسعة التي ناقشناها ـ وإن لم يكن فيها كلها، ذلك أن النوع (٢) والنوع (٣) (أي الجنس والتضاد) ليسا من مسائل الشكل التتابعي، كما أن (٧) و(٩) متنوعان جدًا لأنهما يَصعبان على التلخيص.

أما النوع الأول من المثنيات، أي نوع المثنيات، فيُستعمَل في استعمالات خاصة ومعانٍ خاصة. ويتلاءم هذا مع الحقيقة الشكلية التي مفادها أن المثنى هو النهاية الاسمية الوحيدة "الخاصة "، المهذبة well - profiled. ولا يمكن لأيٍّ منها أن يُطوِّر معنى "اسمَ جَمْع "، مثلاً، في العربية، ذلك أن الجموع غير المهذبة تهذيبًا واضحًا يُمكن أن يُعاد تأويلُها على أنها صيغٌ مفردة (مثل: Druze أو magazine في الإنجليزية، التي جاءت من صيغ جموعٍ في العربية).

أما النوع الرابع وهو النوع التكراري: فمثال واضح للتجسُّم.

والنوع الخامس، هو "الإجمال " merism ، وهو الأساس الزائد على النظام اللغوي extra-langue للتوجُّه الذي يَكْمُن في حالات تستغرق فيها الكلمتان الزوجان المتقابلتان المدى كلّه فعلاً (أو يمكن أن يظن بها ذلك)، كما في "ذكر وأنثى ": tertium non datur . ولسنا بحاجة إلا إلى خطوة قصيرة لنصل إلى نوع hot and cold الذي يتسم بأنه غير تام منطقيًا وإنْ كان تامًا لغويًا أو إحساسيًا؛ ذلك أننا لا نشعر بالتجربة المعتدلة التي تشبه هذه، إذ لا يوجد حَدٌّ للإحساس بحدّها النهائي؛ وحتى في العامية، لا يوجد في الإنجليزية كلمة عامية مكتملة well-rounded للتعبير عنه.

والنوع السادس هو الإتباع. وإلى الحد الذي يتسم به من التكرارية يمكن أن يوصف بأنه يتسم بالنوع نفسه من التجسُّم الذي يتسم به النوع الرابع: بل إننا نجد أحيانًا كثيرًا من التكرارات المعجمية الخالصة التي تتسم بقوة التأكيد، نحو: "جدًا جدًا ". وربما كان له أهمية أكبر. ذلك أن من الأسهل أن تُكرِّر وحسْب؛ فلماذا تلجأ إلى تنويع الصوت الصامت الأول، وهو ما ينتج عنه تحويل معجميةٍ عادية إلى شكل غير مُعَجَم (بدءا)؟ وكما أحسب فليس هذا العمل التجسُّمي إلا ثورة على محدودية القاموس، أي أنه ثورة في وجه الفكرة التي تقول إن الكلمات الجاهزة قادرةٌ حقيقةً على التعبير عما أشعُر به الآن. فلا يَكْمن الحلُّ في التكلُّم بشكل غامض، وهو ما قد يؤدي إلى فقْد القدرة على الاتصال، لكن كثيرًا ما يستهوينا الإقدام على التلعُّب أحيانًا بالكلمات المألوفة، إذ إننا نقوم بليِّها قليلاً. وقد عبَّر الممثل الأمريكي وودي ألِن تعبيرًا دقيقًا عن هذه الحال في أحد أفلامه حين يقول:

I don't just 'love' you, I. . . I *lerve* you, I *loave* you. . .

. وهناك نوع من التهور في هذا الصنيع يمكن أن يؤدي إلى الشعور بتحريم مثل هذه التحويلات، وهو ما يشبه الشعور بأننا نقوم بالعبث باللغة التي وهبنا الله إيّاها. ومن ذلك ما يقوله توم روبنز في روايته:

(Even Cowgirls Get the Blues, 319)

". . . Matisse, Cézanne, Monet, Manet, Minet, Menet, Munet, and others."

ومرة أخرى أقول إني أشعر بالحرية التي يُمكّنني الـ "ملحق التأملي " فيها من التأمل: فالمذبحة الضّمنية التي تتعرض لها الكلمات هنا صارت أكثر علانية لأن النتيجة تؤدي إلى نوع غامض من الكائنات (أي تلك الكائنات التي جاءت نتيجة لتسميتها) التي لم تُنفَخ فيها الروحُ من قِبَل الخالق. وقد أوحى بهذا الصنيع للعقل المعاصر تلك الأشياء المزعجة التي نقرأ عنها في علم الوراثة، حيث نقرأ عن الناس بوصفهم نتيجة للتأليف بين مجموعات من المورِّثات. (فإذا تزوَّج Monet بـ manet، فبماذا يمكن أن يسمى مولودُهما . . . ؟ ـ وستكون العوامل المؤثِّرة هي الحركات التي تجمل الحركات الأخرى تُدغَم فيها والمورثات السائدة). أما النتيجة المعيَّنة فستكون نتيجة لتجسُّم التاريخ الثقافي وسذاجته وهو الذي يمكن أن يكون روبنز قد افترضَه في غالبية قرائه. (ومن ذلك ما يقوله بارثيلمي Barthelme في مقاله بعنوان "Visitors", 14 XII 81 New Yorker 41 ، "الزوار "، الذي نُشر في مجلة نيويوركر:

Then you get *Mo*-net and *Ma*-net, that's a little tricky, *Mo*-net was the one did all the water liles and sh**, his colors were blues and green, *Ma*-net was the did Barcass on the Grass and sh**, his colors were browns and greens. Then you get Bonnard, he did all the interiors and sh**, amazing light, and you get van Guk, he's the one with the ear and sh**. . . .")

ويتضمن الفصلُ رقم ١٠٠ من كتاب روبنز نقاشًا صريحًا للشعور المتغطرس والمقرف للمؤلف بصفته إلها.

أما النوع الثامن وهو السلسلة الاسمية، فقد سبق أن عالجنا التطور التجسُّمي باختصار في التعليق الذي ناقشنا فيه التركيب المنعزل troglodyte syntax.

التعليقات

(١)ـ وسوف ننحي جانبًا "الواو " العجيبة المسلِّية التي تسمى "واو الثمانية " ورواها الحريري في (درة الغواص، ونقلها دي ساسي في كتابه .Anth. Gram الفقرة ٣٢، ص ص ٧٢ـ٧٣) وهي التي لا توجد إلا قبل العنصر الثامن في قائمة لا يربط بين العناصر فيها رابطٌ إلا في هذا الموضع، وذلك كما في سورة التوبة، الآية ١١٢، أو قبل عنصر مذكور بعد مجموعة مكوَّنة من سبعة عناصر، كما في سورة الكهف، الآية ٢١.

(٢)ـ وربما كان الجمعُ الأقلَّ تهذيبًا least well-profiled في العربية. ذلك أنك إذا أعطيت مفردًا فمن غير الممكن عمومًا أن تتنبأ بصيغة جمعه، وربما لا يُمكن عمومًا استخلاصُ صيغةِ المفرد من صيغة الجمع؛ فقد يكون لمفردٍ معيَّن أكثرُ من صيغةِ جمع، وتختلف هذه الصيغ في المعنى أحيانًا، لكن الغالب أنها لا تختلف من حيث المعنى؛ وهناك عدد قليل من الأنماط التي يمكن أن تكون مفردًا أو جمعًا؛ كما أن هناك عددًا قليلاً من الجموع الشاذة (لكن ليس هناك أية صيغة مثنى شاذة)؛ وهناك بقايا محفوظة بطريقة غير مطردة للصيغ القديمة لجموع القِلَّة مقابل جموع الكثرة؛ وربما أمكن لعملية الجمع أن تنطبق انطباقًا ثانيًا أحيانًا على بعض الصيغ التي خضَعت لعملية الجمع من قبْل ـ انظر الفصل الذي يناقش "الإطناب" ـ فيما لا يَحدُث هذا مع المثنى أبدًا، حيث لا يمكن، مثلاً، أن ينتج معنى مثل "زوجين من الأحذية ".

(٣)ـ يسمي جسبرسن في كتابه MEG II 85 الجموعَ التغليبية (التي لها معنى المثنى) كالصيغة اللاتينية patres أو the John Smiths "جموعَ التقريب" plural of approximation.

انظر كذلك MEG II 83 عن لفظ the sixties "الستينيات" - . . . '60, 61,62.

(٤)ـ ويبدو أن اختيار الأقل، أي عُمَر والقَمر، لتغليبه على الأكثر، أي أبو بكر والشمس، يعود بالمناسبة إلى بعض العوامل الستوكية Stokesian ـ أي لبعض اعتبارات السهولة الصواتية والصرفية (Steingass 1898: 253).

(٥) ـ يقول مولر (Müller (1890: II 532 : "إن المعبد الفيدي [الهندي القديم] بخاصة ملآن بالآلهة التي تقدَّم دائمًا بأسماء مثناة، ويمكن أن نلتمس تعليلها جميعها في الطبيعة الثنائية المحسوسة للطبيعة، نحو: "الليل والنهار "، و "الفجر والغسق "، و"الصبح والمساء "، . . . و "السماء والأرض ". "

(٦)ـ كما يمكن أن يكون للمثنى الاصطلاحي عادة، إذا ما سُمح بذلك تداوليًا، تأويلٌ غير تغليبي؛ قارن بالمثال الذي أورده ريكندورف في AS 191 من قول الفرزدق: "الفراتين"، وهو ما يمكن أن يعني "فراتين اثنين" بدلاً من المعنى القالَبي: "دجلة والفرات". ولما كان النهران يجتمعان في نهاية الأمر، فهذا التعبير غير محدَّد من حيث المبدأ، بغض النظر عن إن كنا نريد أن نتحدث عن نهر واحد يتفرع إلى فرعين أو عن نهرين مختلفين لكل واحد منهما شخصياته وتمُّوزاته، التي سوف تتزاوج في نهاية الأمر. وبالطريقة نفسها، يمكن للمثنيات التغليبية الأخرى أن تؤخذ أو أنها قد أُخذت من قِبل بشكل حرفي بأكثر مما يمكن أن نتخيله من الاستعمال المُعجَم. قارن، في الإنجليزية، بالقمر موصوفًا بأنه "النجم النَّدِّي"؛ والشرق على أنه المكان الذي تصل إليه إذا ما اتجهت بعيدًا إلى الغرب؛ وأن الزوجة هي "النصف الأفضل" للزوج.

(٧)ـ وقد اختفى مثنى التغليب خاصة من أغلب اللهجات العربية المعاصرة، مع استثناء الصيغة الوحيدة لـ "الوالدين" (أو بعض الصيغ الأخرى المرادفة لها) ومن أجل الصيغة "ولْدين" في اللهجة القاهرية، انظر حاييم بلانك H. Blanc في دورية جمعية اللسانيات الأمريكية Language 46, p .42f. وتوجد بعض الأمثلة اللهجية في بروكلمان Brockelmann .II 57

(٨) ـ ولا تقول مثل هذه المثنيات بدقة إن الماء "أسود" مقابل "أبيض"، إلا بقدر ما "تكون" الشمس "قمرا"، ومع ذلك فهذا ما توحي به هذه الصيغة من غير شك، وذلك مثلما أن الجملة الإنجليزية:

Everyone should check his coat

"ينبغي على كل واحد أن يتأكد من وجود معطفه"

التي، مع أنها يمكن أن تشمل "النساء"، تعني بصورة مباشرة الرجل. ومن المؤكد أن مثل هذه الكنايات أصبحت مُعجَمة، كما أنه ليس ضروريًا أن يرى المرء الأمَّ في العبارة الأسبانية los padres "الأبوان" تُظهَر بنوع من اللّحية المستعارة. ولا يعني هذا أيضًا أن هذه التعبيرات أصبحت جامدة لا يمكن تأويلها، وبالأخص حين تكون "أب" و "ان" لا تزالان حيتين. فهي لا تشبه الأصل الميت، مثل التعبير الإنجليزي: What-is-sat-down-on "ما يُجلس عليه" في تعريف العُشّ nest . وللاستعارات الميتة طرقٌ تعود بها إلى الحياة إن كان بالإمكان معرفةُ الأصول التي جاءت منها، من حيث المبدأ، بالنظر إلى صيغتها. لهذا ليس هناك شيء يُشبه، في

ابتذاله أو سهولة نسيانه عادةً الصورةَ المحسوسة في كلمة grasp التي تعني "يفهم"، لكن هذه الصورة لا تزال متاحة بطريقة مختلفة عن الحالة التي نجدها في كلمة مثل com-prehend "يفهم"، لذلك تقفز هذه الصورة إلى ذهنك فجأة إذا ما جاء عدد من الكنايات القديمة بعضها بصحبة بعض في الجملة نفسها:

I tried to grasp the thread of his argument, but it was over my head

"حاولت أن أمسك بالخيط في حجته، لكنني لم أستطع"

أما في حالة "الأبيضان"، وهي أكثر المثنيات التغليبية مَعْجَمَةً، فأكثر الاحتمال أن المعنى الحرفي الذي يؤديه الشكل < "أب" ـ "مثنى" > كان موجودًا في فترة قديمة بمعنى مّا ـ قارن ذلك بالنكتة التي تقول إن اشتقاق كلمة woman في الإنجليزية من wo-man أي أنها جاءت من "الرجل"، وأن اشتقاق išša من iš، يعود إلى سِفْر التكوين. وهي نفسها الاستعارة التي يعبَّر عنها بضِلع آدم. بل إن "التغليب"، حتى في الأزمنة المتأخرة، وهو أكثر أنواع التغليب شيوعًا، يَعكس تجسيمًا الواقعَ الاجتماعي.

ويزعم ماكس مولر Max Müller (1890:541) أن هناك درجة عالية من الحقيقة النفسية لمخاطبة الآلهة بالمثنى، مثل إندرا وآجني [في الديانة الهندية]. فهو يقول: "وعندما يخاطَبان بصيغة واحدة [وهو ما يعني توجيه الكلام إليهما في الوقت نفسه] يُصبحان قوتين متلازمتين ويُنظَر إليهما على أنهما إله واحد متوحِّد".

(٩)ـ والأمثلة من كوهين (١٩٦٨) ورايت. وتقدم السنسكريتية أيضًا اختيارات متعددة للوصف بالتغليب لأي زوج. لهذا يمكن أن يشار إلى إندرا وآجني إما بـ Indrâ "أندرتان"، أو Agnî "الأجنتان". وبالمثل يمكن أن يشار إما بـ Indrâ أو Varuṇâ إلى Indrâ and Varuṇâ. (مولر: ج٢: ١٨٩٠، ص ٥٤١).

وأورد الزجاجي (تحقيق ابن شنب، ص ص ٢٩٦ـ٢٩٧) بعض الاستعمالات الاصطلاحية للمثنى بهذه الصورة، نحو: "هذاذيك"، و "لبيك"، و "دواليك"، و("لبيك" و) "سعديك"؛ وكلها صيغ جامدة تعني التكرار. لكن هذه الصيغ ليست مثنيات دقيقة تزامنيا.

(١٠)ـ وانظر تشينيري Chenery (١٨٦٧، ص٤٦٠) من أجل الاطلاع على المثال: "الأجوفان" (الغاران)، أي "الفم والبطن".

وبعض المثنيات التغليبية في السنسكريتية متعددة المعاني أيضا: Indrā التي تعني: "إندرا وفارونا "؛ و "إندرا وآجني ".

(١١)ـ والوصف الذي نجده في كتب النحو ليس وصفًا دقيقًا وتمثيلاً موضوعيًا "للغة " (للنظام اللغوي) langue بقدر ما هو محاولة لتثبيت اللغة، يشبه محاولة إلزامِ طفلٍ كثيرِ الحركة والنشاط بالهدوء. لذلك لا يعدو النحوُ نفسُه أن يكون إنتاجًا فنيًا، وإن كان إنتاجًا يشبه في جموده جمود أسلوب النظام التصويري المصري القديم [الذي يصور الشخصيات في حالة من الجمود].

(١٢) ـ ويمكن أن تكون هذه المثنيات، كما في العربية والسنسكريتية، غامضة أو غير محددة فيما يتصل بملاءمة الكلمة للعنصر المعدود في كل مرة من مرات إيرادها. انظر مرة أخرى ما أوردته مجلة الإيكونومست في عددها الصادر في ٢٣ نوفمبر ١٩٨٥:

His goal upon his appointment was to promote the three Cs of education: content (or curriculum), character, and choice.

"كان هدفه بعد أن عيِّن أن يعلي من شأن ثلاثة أشياء تتعلق بالتعليم وتبدأ أسماؤها بالحرف C، وهي: المنهج، والشخصية، والاختيار ".

(١٣) ـ وأنا أستعمل هذا المصطلح من غير تمييز للأصوات: فهناك مغايرة في الأصوات الصامتة مثلما هناك مغايرة في الحركات.

وقد استُعمل مصطلحُ "إتباع "، لسوء الحظ، ليَعني الحركة المُقحَمَة epenthesis أيضا. لكننا لن نستعمل هذا المصطلح هنا بهذا المعنى.

وقد اعترض أحد الذين قرأوا مسودة هذا الفصل على استعمالي مصطلحًا نحويًا جيدًا مثل "المغايرة " في الكلام عن بعض الصيغ النادرة والعفوية والغامضة نوعًا ما كالإتباع، وهو ما ينتج عنه إدخال "الإتباع " في "التيار الرئيس " للنحو، مع أن المغايرة الحقيقية تُستعمل عادة في "التناوب المطرد الذي يتسم بتقابل دلالي محدَّد جدا ". والواقع أن إحدى الفرضيات الرئيسة هذه الدراسة أن النحو المألوف ليس في الواقع إلا تيارًا غير محدَّد وغير متحكَّم فيه، في الأساس، أما إذا رأينا شيئًا من التحديد والوضوح فهذا دليل على عمل النحويين فيه. فحالات التناوب المطرد التي تتصف بتقابلات دلالية محددة جدًا لم تُخلق على هذه الصفة. بل إن قصة الخلق نفسها في سفر التكوين، التي سرَّعت من تطور الإنسان قليلا، تركتْ لآدم أن يختار الأسماء.

ونحن نفضّل أن ننظر إلى النظام المتجانس كأنه النهاية القارّة لعملية ديناميكية، لا على أنه شيء مختلف من حيث النوع عن كونه نتيجة للتدخل الواعي، أي كأنه العملية المراوغة التي نتج عنها النظام.

وتبدو وجهة النظر هذه، في حالة المغايرة، ملائمة جدًا، ذلك أن استعمال المغايرة في اللغات الهندية الأوروبية *الحقيقية* في مقابل التفسيرات التي تُحاول إغفال التعقيدات التي تتصف بها اللغة أو الترسيمات النظرية بعيد جدًا عن الاطراد المحكَم. فاستعمال الأسماء متنوعٌ صياغيًا ودلاليًا، كما أنه لم يخضع لعملية اطراد مُحْكَمة. فنجد في اللغات الجرمانية تقابلاً دلاليًا واضحًا في الـ Ablautreihen الفعلي، إذا ما تجاهلنا بعض الحالات القليلة من حالات الماضي، لكن هذه المقولة من حيث الصيغة متنوِّعة، إذ إنها تحوي ست صيغ أو سبعًا من غير أن يكون بينها أي تمييز دلالي، ثم إنها تختلط بعضها ببعض بفعل التغير الصوتي، وهي مستمرة في فَقْد بعض أعضائها التي تدخل في التصريفات الضعيفة وتختطِف بعضَ الأفعال الضعيفة في بعض الأحيان لتضمها إلى قائمتها. كما لا يتسم الإتباع، من وجه آخر، بالاعتباطية الخالصة. ذلك أن الصوت الصامت الأول هو الذي يخضع للتغير دائما، وذلك يعني أن هذه الفصيلة أكثر انسجامًا من التكرار الجزئي في الإنجليزية.

super-duper
creepy-crawly
touchy-feely
shilly-shally
ding-a-ling
Sneaky Pete, etc.

وهناك قواعد عامة لاستبدال الصوت الصامت في عملية الإتباع. إنّ في حالة الإتباع الدقيق أو الإتباع التفريعي، حيث يُختار العضوُ الثاني بطريقة حرة كما أنه لا يكوِّن كلمة مستقلة (شارل بيللا ١٩٥٧، ص ١٣٤). وأكثر الأصوات الشائعة هي الأصوات الصامتة الشفوية: " dans une très forte proportion" ؛ كما يبدو أن "الراء " وهي الصوت الصامت المفضل في توسيع الكلمة حيث يقع في نهاية الجذر أو قريبًا من نهايته، لم يُستخدم في هذه المهمة في بداية الجذر. والتنبؤات هنا ضعيفة لكنها قد لا تكون أضعف بكثير من التنبؤات عن المغايرة بين الحركات في الإنجليزية أو الألمانية، التي تقوم على حركة صيغة الزمن الحاضر.

وأهم من ذلك، أنه إن استطاع أحد أن يُميِّز البنيةَ القديمة الفخمة على الرغم من تداعيها للمغايرة التبادلية paradigmatic ablaut من الإتباع البسيط، وإن كان ينبض بالحياة، فلن يكون بعمله ذاك باحثًا عن المقارنات، وسوف يفشل في ملاحظة أن القوى نفسها يمكن أن تكون قد أسهمت في خلق عملٍ كلٍّ واحد منهما.

فما تلك القوى التي تقود "التراكم الرئيس" في المحصول الصرفي الدلالي في حالة المغايرة التبادلية، إذن؟ وربما يكون من الممكن أن تكون تلك القوى هي تلك التي يمثلها المبدأ القائل: "أنا أولاً" الذي يقود التسلسلَ الاسمي التتابعي syntagmatic binominals. (وأخذتُ هذا المصطلح من مقال [اللسانيين الأمريكيين المعاصرين] كوبر وروس ١٩٧٥، ومن الصُدف أنه يلائم ملاءمة دقيقة الاستعارة الاقتصادية). فالماضي أكثر بعدًا مني هنا والآن من الحاضر، والماضي البعيد pluperfect لا يزال أكثر بُعدا: كما أن الحركات تصير أكثر انغلاقًا حين تصير خلفية، وذلك كما في التتابع :

pif-paf-pouf

وإذا لم يُرضِ مصطلحُ ablaut echo "الصدى التغايري" ترجمةً للمصطلح العربي "الإتباع"، فهناك الترجمة الفرنسية: répétition avec mètaplasme "التكرار مع الاشتقاق" (Monteil 281). وهناك دراسة جيدة جدًّا للإتباع مع كثير من الأمثلة أنجزها شارل بيللا في مقاله: " Un Fait d'expressivité en arabe" في مجلة .Arabica IV,131ff . وتوجد منه أمثلة لهجية في بروكلمان Brokelmann II 462. وتوجد أمثلة مأخوذة من الأمثال المصرية المعاصرة في كتاب بوركهارت Burckhardt، الأمثال ذات الأرقام: ١٤٦، ٣١٩، ٤٢٨.

قارن أيضًا بمصطلح جرامونت M. Grammont : apophonie onomatopéiqu في كتابه: Traité de phonetique, Paris; 1933, 9th ed. 1971, p. 398 في معالجته لمجموعات مثل: knirren, knarren, knurren في الألمانية.

ويمكن أن يُسمى افتراضُ الرابط العام بين مختلف الأنواع من "المغايرة"، اتِّباعًا لرواية جيمس جويس Finnegans Wake :

drink a sip, drankasup hypothesis

(وربما لا تكون كذلك).

(١٤)ـ قارن بالكلمة siniestro في الأسبانية القديمة، التي تطورت بشكل غير مطرد من: SINISTRU تحت تأثير انجذابها للكلمة النظيرة لها: DEXTRU > diestro، وتأثير الكلمة الفرنسية prendre على الكلمة rendre (> REDDERE)؛ والكلمة blastemare (blasphemare X aestimare) في لغة Vlat ؛ والكلمة hens <INTUS قياسًا على الكلمة المضادة: horo > FORAS ، في لغة Gascon؛ وفي الإنجليزية: male, female; starboard, larboard < ladeboard ـ وهو الانجذاب الذي أصبح خطيرا، وبسبب التهديد الناشئ عن الفوضى الآن، فقد أوجب ذلك الاستغناء عن larboard لصالح port "ميناء ".

(١٥)ـ قارن بكوستلر A. Koestler (1967) في كتابه The Ghost in the Machine "الشبح في الآلة "، الفصل الثالث عشر:

the 'ha-ha' strand in the 'aha' experience

(١٦)ـ وقد استعرتُ هذا المصطلح الثقيل من جسبرسن. وللاطلاع على السلاسل غير الفعلية، التي تتراوح بين "العبارة الاسمية " و "heureux qui comme Ulysse" و the more fool "I" "ما أغباني "، انظر جسبرسن (١٩٢٤، ص ١٢٠ وما بعدها).

وفيما يخص "الرابط " غير الفعلي الذي ذكرتُه أدناه، انظر ما يقوله فضل شهادة (شحادة؟) في الكتاب الذي حرره Verhaar (١٩٦٩، ص ١٢٠):

"يُسمي النحويون الضميرَ "هو " بهذه الوظيفة (ضمير الفصْل)، لكن هذا لا يمنع وظيفتَه المنطقية ليكون "ضميرًا رابطا [ضمير الكَون] ". فيمكن لهذا الضمير أن يَمنع علاقةَ الإضافة وإنشاء علاقة الصِّفَة في الوقت نفسه. فهو يَفصل الكلمات نفسها ويَربطها، لكنه يفصل بين هذه الكلمات تحت تصنيفٍ نحوي معين ويربط بينها تحت تصنيف معين آخر ".

(١٧)ـ للاطلاع على تحليل تعبيرات مثل:

first come, first served

"من يأتي أولا، يُخدم أولا "

safe bind, safe find

"إذا أحكمتَ الوثاق، ضمنتَ ما أوثقت "

like master, like man

"يشبه السيدُ الرجلَ"

انظر بول Paul (1920:125).

ويرى بوتر Potter في كتابه Our Language (1950:98) "لغتنا" أن العبارات من نوع "More haste, less speed" "في العجلة الندامة" أو "Least said, soonest mended" "أجمل في القول وستحقق ما تريد":

"ربما كانت تمثل نوعًا بدائيًا في الأسرة اللغوية الهندية الأوروبية".

وبما أن هذا التطور المفترَض قد لا يكون واضحا، فسوف ألخصه بشكل مختصر، مع أنه ليس في الحجة التي سأوردها فيما يلي ما يمكن أن يتوقف على تاريخية هذا التأمل.

فلا يحتاج المرء ليُصدر كلامًا تامًّا إلا إلى كلمة مفردة:

Mastodon! = "دقق النظر، هناك واحد من حيوانات الماستودون[حيوان خرافي]".

There! = "هناك شيء مهم جدًا يحدث هناك".

فيمكن أن يؤدي تجاوُرُ مثل هذين التعبيرين إلى الإسناد بسهولة، مع قَدْرٍ من عدم الوثوق التأويلي، في المواقف الحية، أكثر قليلاً من التركيب الذي يتميز بتفصيل نحوي:

"There is a mastodon" = Matodon! There!

"هناك ما ستودون"

"Will you marry me?"= Woman! Mine!

"هل تتزوجينني؟"

أو: "Kindly keep your club off my wife"

"ارفع من فضلك عصاك عن زوجتي"

وستكون مثل هذه الإسنادات المتوزانة، بطبيعة الحال، أقل تحديدًا أو أنها في الأقل ليست أكثر قدرًا في عدم التحديد من الكلام الذي يتكون من كلمة مفردة. ويمكن أن نسمي مثل هذه بـ "التركيب المنعزل" troglodyte syntax، ذلك على الرغم من وجوده في اللغات المعاصرة في أوروبا كلها كما أنه ربما يكون موجودًا في لغات أخرى، وفي أساليبَ متعددة، من الكلام العادي إلى الأمثال وانتهاء باللغة الشعرية.

ومن المؤكد إلى حد بعيد أنه سينشأ عن ذلك دائمًا شيء من عدم التناظر الدلالي، وهذا هو البذرة التي تتطور منها الزخرفة النحوية. وهي نوع من القياس التركيبي على "التغليب". ذلك أنه في حين يُصبح الإسناد أكثرَ تعقيدًا، تُصبح المعاملة غير المتساوية أساسية وهو ما ينشأ عنها "التبعية" subordination .

بل حتى بعد أن تُجمِّع اللغةُ رصيدًا كبيرًا من الوسائل النحوية الدقيقة يمكنها أن تستمر في استعمال العبارات الاسمية التي تخلو من الأفعال من أجل الإخبار، والتوكيد أو نفي الوجود، الخ، نحو:

"لا أظن أنّ عالمًا غَيْرَه" (Brockelmann II 37)

حيث قُدِّم المركبُ الاسمي الذي يعني توكيد الوجود ونُصب بأداة النصب. ويمكن أن تعاود القوةُ الرئيسة لِتَجاور العناصرَ التي يمكن أن تكون مختلفة في "التركيب المنعزل"، حتى بعد تأصيل العطف المقصود به عطف الشبيه على الشبيه ـ مثل "عطف الجملة على الجملة، والمركَّب الاسمي على المركب الاسمي" ـ وذلك كما في الأسبانية:

Santiago y cierra, España!

وفي الإنجليزية:

One false move and you're a dead man

"حركة خاطئة منك وستكون مقتولا"

وهناك أمثلة كثيرة من اللغات السامية في بروكلمان Brockelmann II 37f, 99f.

ويمكن، من وجهة النظر هذه، ألا نتوقع أن مثل هذا التركيب المتقشِّف سوف يكون قابلاً بالضرورة للتحليل كأنه نتيجة للحذف. فإذا اكتشفنا أنه يمكن أن نجمع العناصر بعضها إلى بعض لننتهي بجملة كاملة، مثل: (Would you like some) wine? ، فلا يمكن أن يُبين هذا الاكتشاف بشكل مماثل عن الطريقة التي تُبني بها اللغةُ الأشياءَ بقدرِ ما يُبين عن الكيفية التي يفترض أنها تجردها. وفي بعض الأحيان لا يكون التعويض ممكنا:

"نَذْري" (بروكلمان، ٢، ٣٨)

وإذا ما وضعنا فعلاً أو أي شيء آخر أكثر وضوحًا فقد يلزمنا أن نأتي بتركيب مختلف، مثل:

"عندي نذرٌ"

وتوجد بعض الأمثلة من اللغات الأوروبية والمراجع عنها في كتاب هافرز (١٩٣١، ص٥٢).

(١٨)ـ ويمكن أن نرى تقاربًا مماثلاً بين العطف وبعض البنى التي لا تتسم بالتحديد الصارم ويُنظر إليها على أنها إسنادية في أمثلة نحو: "سمعًا وطاعة " التي تظهر في حكايات ألف ليلة وليلة كثيرًا وتترجم دائمًا بـ: I hear and obey "أسمعُ وأُطيع "، أي أن الطاعة تتبع من السماع. وتأتي في الأسلوب الإسنادي على هيئة: Your wish is my command "رَغْبَتُكَ أَمْرٌ " وهي من حيث الشكل تكافؤٌ خالص [جملة من مبتدأ وخبر] لكن لما كانت اللغة تتبع نظامًا خطيًّا، حيث لا بد أن يَسبق عنصرٌ عنصرًا آخر، فإننا نستطيع مرة أخرى أن نشتق تجسُّميًا مسارَ الإسناد من مجرَّد المادةِ اللغوية المُعطاة، ومن غير أية مواضعة خاصة تتعلق بالرابط [فعل الكون]. ومن المؤكد أننا نتوقع أحيانًا أن يَسير الإسنادُ بهذه الطريقة، فيما لا يكون لهذا التوقع أي ارتباط عامّ ببنى العطف، لذلك يمكن أن نقول: The boys and girls came in "الأولادُ والبناتُ جاءوا "، مع أنه يمكن أن تكون البناتُ قد دخلن أولا. وتتبين حقيقة أن مثل هذه المواضعة ليست شيئًا لازمًا في أسلوب الإسناد التواضعي أكثر من لزومها في الأسلوب العطفي من أمثلة نحو:

"إذنها صُماتُها "

حيث يمكن التأويل "العكسي " أي: "صماتُها يقتضي رضاها ". وللاطلاع على بعض الأمثلة الموجزة في بعض الأمثال المصرية المعاصرة المختصَرة انظر كتاب بوركهارت، الأمثال ذات الأرقام: ٣٩، ٤٠، ٦٠،٢٣٠، ٥٥٨، الخ، نحو: "أعمى وبيشَالِق " (أي: أعمى وعلى الرغم من عماه يتلصص على النساء).

(١٩)ـ وقد نقلتُ هذا المثال والذي سبقه عن اريل بلوخ (اتصال شخصي).

(٢٠)ـ وفي اللاتينية مثال يكاد يكون مماثلا:

Quid Hinieldus cum Christo?

"ماذا يَخُص (البطل الشمالي) إنجلد بالمسيح؟ "

(٢١) ـ استثناء: يُسمح بوجود أداة النفي "لا" في النفي المزدوَج قبل صيغة الماضي أو مع الأداة "بـ": انظر ريكندورف SV 502.

ويوجد في الإنجليزية وأخواتها أدوات خاصة لنفي الكلمات المتعددة، نحو:

neither. . . nor
weder. . . noch,
ni. . . ni

وإلى الحد الذي تظهر فيه هذه الأدوات نمطيًا في النفي المكوَّن من جزأين (كما يوحي بذلك الأصل الذي جاءت منه أداة النفي في الإنجليزية والألمانية)، فهذه اللغات هنا أكثر تماشيًا للمثنى من العربية، وهي اللغة التي تستعمل التركيب "لا . . . و. . . لا ". لكن لمّا كان يمكن للتلازم أن يُستعمل مع أكثر من عنصرين منفيين، لا تزيد هذه الحالة عن كونها حالة من مقابلة المفرد بالجمع، من غير إشارة خاصة إلى "التثنية ".

وللاطلاع على مثال من لغة سامِيّة لنحو فرعي خاص للتعبيرات الثنائية، انظر (رابين ١٩٦٥، ص ٥٥٤): حيث نجد في الأكادية بعض الأشكال التي لا تنتهي بالميم تظهر في عبارات ثنائية نحو: sekher rabi "صغير وكبير"، zikar sinnish "ذكر وانثى"، mûshi u urri "الليل والنهار". وتبدو هذه الأمثلة كأنها مماثلة للأمثلة الإنجليزية التي تحذف منها الأداة في هذه المواضع، ومن أجل الاطلاع عليها انظر جسبرسن Jespersen MEG II 272-273. وللاطلاع على الصيغ الثنائية في الألمانية، انظر بيهاجيل Behagel 1923 I,II,15 ، ومقال لامبرخت:

Knud Lambrecht 1984, "Formulaicity, Frame Semantics, and Pragmatics in German Binomial Expressions," Language: 60: 753-796.

(٢٢) ـ وتختلف الأحكام في مسألة تحليل الأسماء التي تأتي كأنها أزواج. فيقول توماس بيفر (في كتاب G. Harman, ed., On Noam Chomsky, p. 151) بإطلاق إن جملاً مثل:

أـ White man speak with forked tongue

ب ـ In English, article precedes nouns

"بكل بساطة 'ليست جملاً إنجليزية نحوية' ".

ومثل هذا الحكم مبالغ فيه بكل تأكيد. فالجملة (ب) ليست "بكل بساطة" غير إنجليزية، إذ إن هذا الحكم ليس على درجة من الوثوقية تشبه:

"as ø night follows ø day or boy gets girl"

"مثلما يَتبَع الليلُ النهارَ أو يَظفر الفتى بفتاة".

وإذا ما وَجَد أحدٌ أن (ب) ليست مقبولة، كما أرى أنا، فذلك يعود إلى أسباب أخرى غير تلك الأسباب المتعلقة بمقبولية الجملة (أ). فمع أن الجملة (ب) ليست ثنائية متوازنة على وجه دقيق، ذلك أن أحد الاسمين فاعل والآخر مفعول مباشر، فإنها يمكن أن تستفيد مباشرة من مشابهتها بالأزواج المتوازنة التي يشيع فيها حذف الأداة قبل الاسم المفرد المعدود. ولنر كيف يحدث ذلك.

فتكون الثنائيات أكثر تلاحمًا حين تظهر في موضع تركيبي واحد، كما في:

keep body and soul together

قارن بـ: keep the family together

او كما في الأمثلة العربية التي أوردناها للأنواع (١) ـ (٦). ثم إنها تبدو على درجة تلاحم أقل حين تظهر في مواضع مختلفة من النوع التركيبي نفسه، كما في الأمثلة العربية من الأنواع (٧) ـ (٩). ثم تأتي على أقل درجة من التلاحم في مثل الجملة التالية، التي أوردها بيفر، لأن ظاهرة القصور الذاتي الثنائية للجسم والروح تمنعها من الظهور بصورة متلاحمة:

"In this story ø body is consistently bruised to pleasure ø soul. .."

(R. Sale 1978 Fairy Tales and After (Harvard) 35).

كما وردت في الكتاب نفسه (ص ٥٠) الجملة التالية أيضا:

They were told to young as well as old.

وهي التي استفادت من كون العبارة التالية موجودة من قبل:

(for) young and old

وأكثر من ذلك لفتًا للنظر الجملةُ التالية التي وردت في جريدة سان فرانسيسكو إجزامنر، في عددها الصادر في ٢٢ يونيو ١٩٨١، حيث جعل الاستعمالُ المألوف لكلمة man ، من غير أن تكون مسبوقة بأداة، استعمَالها في تركيب ثنائي غير مألوف أكثرَ قبولا، ثم نشَرت هذه الثنائية تأثيرَها إلى العبارة التالية من أجل السماح بما يمكن أن يكون، وحده، جملة مختلطة:

Man and helicopter failed, but dog succeeded

"رَجُلٌ وطائرة مروحية فشِلا، وكلبٌ نجَح " (في القبض على أحد المجرمين الفارِّين).

(٢٣) ـ لهذا فالاختلاف بين الإنجليزية والعربية هنا اختلافٌ في الدرجة وحسب. فمع أن الإنجليزية تسمح دائمًا بحذف الأداة قبل الأسماء التي تُفهَم على أنها معطوفة بصورة طبيعية، فهناك أيضًا بقايا من الأسماء المفردة، مثل:

lay violent hand on
(R. H. Barrow, The Romans, 1949).

(٢٤) ـ وينظر أريل بلوخ (اتصال شخصي) إلى الفصل التركيبي tmesis على أنه يعمل على إحداث التوازن. وليس هناك أي اختلاف أساسي في وجهة النظر بينه وبيني في هذا الشأن، إذ لا يزيد الأمر عن أن مصطلح "التوازن " يتسم بقدر كبير من عدم التحديد العصيِّ على المعالجة، ذلك بالرغم من قيمته الكبرى التي تمنع من التخلي عنه. ومن المؤكد أن الفصل التركيبي يقضي على التوازن المحلي. ذلك أن توأم "أ " يزاح من مكانه إلى موضع بعيد ناحية اليمين، كما يبيِّن ذلك بيتُ ابن عنين الذي سنورده أدناه. انظر التعليق (١٤) عن التوازن والجوار. يضاف إلى ذلك أن مثل هذا التوازن كما يصاغ في بعض البنى التي تتميز بالتضام الشديد، نحو: "بأبي أنت وأمي "، ينتمي إلى نوع مختلف عما كنا نعالجه. فيمكن أن يُشتق الفصلُ من الشكلِ < (س) "أ " "أ " (ص) >، حيث تكون "أ " و "أ " متماثلتين أو متشابهتين، و (س) و (ص) عشوائيتين، الشكلَ: < (س) "أ " "ع " "أ " (ط)> . فإذا كانت "ع " قصيرة جدًا يمكن القول إنها سوف تُستعمَل نقطةَ "ارتكاز " للتوازن؛ بل سبق لنا في الواقع النظر في مثل هذه الـ "ع ". أي "الواو " في النوع (٨)؛ وهو أن "الواو " تقوم بعطف العناصر المتشابهة، فيما لا تقوم "أنت " بذلك.

(٢٥) ـ وبما أن حركات الإعراب كانت عرضة للخطر لزمن طويل فمثل هذه البنى تُعدُّ دقيقة جدا. وتقول الروايات إن الفصل في بدء الدراسة النحوية العربية يعود إلى الرعب الشديد الذي انتاب أبا الأسود الدؤلي حين سمع آية لا تروى بالفصل التركيبي بل بالترتيب المألوف، وذلك في قوله تعالى: ["إن الله برئ من المشركين ورسولُه "إذ نُصبت كلمة "ورسولَه "
.(Nicholson, Literary History, 342)

ومع هذا استمر هذا التركيب، في الشعر العامي الأندلسي، مثلاً، بالرغم من اختفاء حركات الإعراب:

"للنصارى مُروا، احلوه، واليهود"

(ابن قزمان ٢١، البيت الثاني).

(٢٦)ـ وقد أشار تشارلز فيلمور إلى أنه ليس من الواضح من هذه الحالة، على الوجه الذي هي عليه هنا، ان شكل جملة "شرب زيدٌ وأكل" إنما هو بسبب توجُّهٍ إيقاعي، وهو ما يعني أنه يعود إلى سبب جمالي، أو إلى المنع النحوي لعطف المركبات الفعلية، وهو ما يعني خضوعه للطغيان النحوي الأعمى. وهذا صحيح: إذ لا يمكن أن نستخلص القيم الأسلوبية من الأمثلة المعزولة في لغة ما. ويمكن أن نورد، في الدفاع عن التأويل بأسباب نحوية، سلوكَ العربية حين يكون العنصر المشترك بين عبارتين فعليتين هو المفعول المباشر بدلاً من الفاعل: "رأى الرجلَ وقَتَلَه" أو "رأى الرجل وقتل ∅" (مع حذف المفعول)، لا: "رأى وقتل الرجل". ومع هذا فالأسباب التي جعلتني أورد "شرب زيدٌ وأكل" تحت التصنيف نفسه الذي أوردت فيه "بأبي أنت وأمي"، هي:

أ ـ أنه حتى إن كانت البنية أمرًا من أمور التحويل التلقائي أساسًا يمكن أن نسأل عن سبب هذا التحديد. ذلك أن اللغات لا تحصل على التحويلات فيها عن طريق الصدفة أو ما أشبهها. إذ يمكن أن تُستعمَل فكرةٌ مَا تتصل بالهدف المفضَّل للتركيب المنجَز الذي ينتسب إلى نوع عام بعض الشيء. وللتمثيل على ذلك بمثال متطرف من الإنجليزية الأمريكية، هناك تفضيل عام، كما ذكرنا في التعليق رقم (٢) للإيجاز الصارم في العبارات المتضادة؛ وأن أكثرها تفضيلاً التفعيلةُ التي تتكون من مقطعين منبورين (spondee). هذا نحصل بالإضافة إلى السلسلة التي تتكون من العبارات التالية:

Who cares
so what
big deal
no sweat

العبارات الموجَزة التالية:

big diff
same diff

بالإضافة إلى عبارة same difference الخ، لكننا لا نجد إلى الآن عبارات مثل: *It makes no diff to me . وأنا هنا أقترح أنه إن كانت العربية تمنع نحويًا جملة مثل: "شرب وأكل زيد" فإنها لا تجيزها عن طريق المصادفة، بل تجيزها بوصفها جزءًا من توجُّه عام، سَمِّه توجهًا إيقاعيًا إن شئت. فلا تحبذ العربية بصورة عامة تراكمَ العبارات في أول البنية: لهذا يمكن للعنصر الثاني لا الأول في تركيب الإضافة أن يكون معطوفًا عليه (*اسم¹ واسم² مضافًا للاسم الثالث) [*كتاب وقلم زيد]؛ كما يمكن أن يَتبَع حرفَ جرٍّ باسمين أحيانًا لكن لا يمكن أن يُسبق اسمٌ بحرفَيْ جر. ويتماشى كل هذا مع عدم ميل العربية لمبدأ الإشارة لكلمة لَمّا تأتِ في الجملة "الإلماع" (cataphor) ـ وليس هذا مبدأ إيقاعيًا إلا إن كنا نقول بوجود شيء يُشبه "إيقاع الاهتمام"، لكن هذا المبدأ ليس قاعدة صارمة.

(٢٧) ـ زيادة على ذلك انظر وورف عن:

"our linguistic binominalism of form plus. . . substance,"
(1965: 152).

(٢٨) ـ أيْ نوع:

"Old King Cole was a merry old soul and a merry old soul was he."

وقد رأينا مثالاً من الإنجليزية في (٨) (أ)، بصفته نوعًا من السلسلة التوكيدية، بل إن عبارة King Cole نفسها ليست مجرد تكرار بسيط، لكنها تبدو نوعًا من التوكيد أو ما يشبهه، وذلك ما يشبه أن تقول: "إن الحصان حصان سواء نظرت إليه من الأمام أم من الخلف":

bonnet blank
blank bonnet

(٢٩) ـ وتوحي الأداة and التي تظهر قبل الاسم المعطوف الأخير بالنهاية؛ أما غيابها فيوحي بالاستمرار. فعندما يكتب جورج شتاينر:

"These notions, eloquent in Herder, Michelet, Humboldt, seem to match common sense."

فالإيحاء هو أن هؤلاء ليسوا إلا أمثلة، فهم ليسوا كل الكتّاب الذين يمكن أن يوردهم.

(٣٠) ـ وأنا أعني: Sprachwirtschaft؛ ويعني مصطلح "الاقتصاد اللغوي" أحيانًا: Sparsmkeit in de Ausdruck.

الفصل الخامس

عشوائية العلامة

"لم تعد عبارةُ (la lune) تعجبني إلى هذا الحد إلا منذ عرفت أن lune تسمى في العربية 'قَمَر'". (ريمون كينو: 'الوقت يَمُرّ'، ضمن كتاب: 'البرهة القاتلة' باريس، ١٩٤٨م)

أولاً ـ التجسيم:

أ ـ المظهر العام المجرد:

تبدو *العربية* للأجنبي لغةً مطردة بتقشُّف، وهو ما يجعل مفهوم عشوائية العلامة واضحًا جدًا: ويبدو ذلك كما لو أن حاسوبًا فكَّر بأن رصيدًا يتكون من ٢٨ صوتًا صامتًا يُمكن أن يُمَعْجَم على صورة جذور ثلاثة تُملأ بأيٍّ من الحركات الثلاث الطويلة أو الحركات الثلاث القصيرة ثم تُدخل في رصيد من الأشكال الصرفية المحدَّدة تحديدًا صارمًا، وذلك لتكوين الأعداد المرغوب فيها من المعاني[1].

ويتميز معجمُ العين المشهور الذي ألَّفه الخليلُ بن أحمد في القرن الثاني الهجري بهذه الخصيصة الحوْسَبية. فتُورَد الجذور فيه مصحوبةً بتقليباتها ثُمَّ تُصنَّف هذه الصِّيَغ إلى مُستعمَلة أو مهملة[2]. ولا يمكن أن تُرد مثل هذه العملية على الذهن في المعجم الإنجليزي الذي تُرد فيه الألفاظ بأشكالها الصرفية المستعمَلة فقط (ولو كان ذلك ممكنًا في المعاجم الإنجليزية لكان مُشابهًا للقول بأن الكلمة: aardvarl مهملة، والكلمة: aardvarm مهملة. . . إلخ)[3].

ب ـ إسهام نظام الكتابة:

وتُعزِّز الطريقةُ المُتَّبعة في كتابة العربية هذا الشعور بالتجريد، وذلك بعدم كتابة رموز الحركات القصيرة (إذ تُكتب الكلمة التي تُنطق [قَمَر] على صورة ثلاثة حروف صامتة

[قمر] ـ كما لا يأبه نظام الكتابة بتبيين حركة الإعراب في الكلمة، فالكلمة المرفوعة [قمرٌ] تُكتب من غير أن يظهر عليها تنوين الرفع).

وتتّسم الرموزُ التصويرية مثل علامة الدولار $ بأنها تجريدية من حيث المبدأ إلا إذا كانت تُماثِل ماديًّا ما تُشير إليه؛ لكنها، وبسبب العلاقة الكُلّية المباشرة فيها، تُصبح موضوعًا للتركيز النفسي بطريقة لا تتوفّر في الصيغ الهجائية. لهذا إذا أراد أحَد تمثيل الجشَع فربما يَرسم علامات الدولار في عيون شخصيّات الرسوم الهزلية؛ ولتبيين أن قنينةً تحوي خمرًا لا يَلجأ رسام الرسوم الهزلية إلى كتابة كلمة "خمر" عليها، بل يرسم علامات XXX بدلاً عن ذلك. أما الشّعار الانتخابي المتعصب لمدينة نيويورك: I love New York "أحِب نيويورك" فقد استُبدل به الشعارُ I ♥ NY ليُرسَم على أزرار صغيرة، رغبةً في الابتعاد عن الشعارات اللفظية والحفاظ في الوقت نفسه على الأثر الذي يتركه الوجهُ المبتسم على الناس.

وفي الطَّرَف الأقصى المُقابل يَضَع نظام الهجاء الذي تُرسَم فيه الحركاتُ بالتفصيل مما يَجعله يُصوِّر تصويرًا دقيقًا الشكلَ الصَّوْتي لِلُغة القارئ في ما يُمكن أن يَكون علاقةً مباشرة مع الكلمة في صورتها المُنطوقة، وهي التي لا تُشارِك تجريبيًّا في خصيصة التجريد لكَونها نتاجًا غريزيًّا.

لكنّ نظام الهجاء الذي لا تُرسَم فيه الحركات كالنظام العربي يَعترض بصورة عنيدة بين العين والفكرة، وبين النّص واللسان. فلكي تَفهَم كلمةً ما فإنك تقوم بتَفهُّمِ الكلمةِ بطريقة تدريجية، كما هي الحال مع الهجاء الذي تُرسم فيه الحركات؛ لكنَّ هذا لا يعطيك كلمةً محددة، بل مجموعةً صغيرة من الكلمات المُحتمِلة؛ وعليك أن تَصل إلى الكلمة المقصودة مستعينًا بالسِّياق، أما إذا لم يكن السياق واضحًا بصورة كافية في تلك اللحظة فيتوجب عليك أن تحتفظ بمجموعة الكلمات المحتملة كلّها وأن تعود إليها فيما بعد [لتصل إلى الكلمة المقصودة] (وهو ما يَحصل مع الصور الرمزية في الإنجليزية، أو حين تُقرأ العناوين المختَزلَة).

وعدم التأثير الصوتي هذا هو ما أشار إليها كوينو ساخرًا في بيت الشّعر الذي أوردتُه في بداية هذا الفصل. فالتتابع [ق م ر] "قمر" يبدو عاجزًا عن التعبير عن "قَمَر"، وهو ما يُشبه

التعبير عن كلمة beauty بكلمة fnorkpuss في لغة ما (أما بقية هذه القصيدة فمفككة دلاليًا بشكل يشبه تفكُك [ق م ر] صوتيًا).

ج - الرمزية الصوتية:

ومع ذلك فهناك توجُه عند بعض العرب لافتراض أسباب صوتية رئيسة وراء الكلمات العربية. ومن ذلك قول المدرِّس اللبناني الذي درَّسني العربية في السنة الأولى لطلابه بثقة إنه يُمكن التنبؤ بمعنى أية كلمة في العربية من خلال معاني صوتياتها.

وقد فأخفقتُ في اكتشاف أي أساس موضوعي لهذا الادعاء. إذ يمكن أن تكون أية محاولة لربط أيِّ حرف بمعنى معيَّن أو ظِلٍّ دلالي، مثل: "حارٌ" أو "مبلول" إما هواية مضلِّلة تتماثل مع قول الشاعر الفرنسي آرثر رمباود: ... A noir, E blanc. (الحرفُ "أ" أسود، والحرفُ "ب" أبيض)، أو لا تزيد عن كونها طريقة صوفيّة تشبه الاعتقاد القَبالي ["الصوفي" عند اليهود] - وينبغي أن نتذكّر هنا الفكرة التي تقول إن معنى القرآن كلّه مُتضمَّن في أحد حُروفه، وهو "حَرْف الحروف" point of all points الذي يُسمِّيه بورجيس "الألِف".

ويُمكِن للعربية، ببساطة، بما فيها من العدد الهائل من الأصوات الصامتة المختلفة جدًا أن تتصف بالرمزية الصوتية إنْ أرادت. ومع ذلك وعلى حدّ ما أعلم فلا توجد الأصوات الصامتة التي يُسميها العربُ أنفسُهم بالأصوات الصامتة "المفخَّمة" في الكلمات التي تُؤدي معنى التوكيد، غالبًا؛ أما الأصوات المائعة وبالأخص "الراء" فتعمل أحيانًا بصورة زئبقية شيئًا ما لاشتقاق الكلمات الرباعية من الثلاثية أو الثلاثية من الجذور الثنائية أو التي يكون أحدُ جذورها حرفَ عِلّة أو المضعَّفة. لكنَّ هذا الاشتقاق، إن كان مجسَّمًا، فهو مجسم في مستوى الصَرف، لا في مستوى الدلالة المعجمية، ذلك أن الكلمات التي تُشتَق بهذه الطريقة لا تُبين عن أيِّ معنى يَختصُّ بالسوائل أو أية خصائص محدَّدة. ومن الواضح أن الحروف الضعيفة صواتيًا (كالهاء والواو والياء والهمزة) تعمَل صرفيًا بطريقة ضعيفة شيئًا ما - إذ تُزاد الهاءُ أو الياء في المواضع الصواتية الخالية، كما تُحذف الواو والياء والهمزة أحيانًا من بعض السياقات الصوتية المحدَّدة؛ لكنْ لا يبدو أن الجذور التي تتضمن بعض حروف العلة التي تسمى "حروف اللِّين" أيضًا تعني، مرة أخرى، أيَّ شيء ليِّن أو ضعيف.

وقد حاولتُ أن أختبر هذا الحُكْم الأخير. وينبغي علينا، بادئ ذي بدء، ألا نتوقع ظهور أيِّ نوع من الارتباط حين تتألف الكلمة من حرف ضعيف واحد. ذلك أن الرمزية الصوتية ليست إلا نوعًا واحدًا من العمليات العشوائية التي تُسهم غالبًا في صوغ الكلمات وهو ما لا يُمكِّنها من الظهور بصورة واضحة، عمومًا، دون أن يقوِّيها شيءٌ آخر: إما عن طريق ارتباطٍ ثانوي أو عن طريق مضاعَفَة الأصوات الرمزية. فلا تُبيِّن كلمتا sing "يغني" و say "يقول"، اللتان لا تحوي أيٌّ منهما إلا صوتَ s واحد، في الإنجليزية طبيعةَ الأصوات الاستمرارية، أما susurrus "حفيف"، التي تحوي صوتَيْ s فتُبيِّنُها (وكذلك كلمة sizzle "نَشَّ") - أو أنها تُبيِّنُها بصورة تقريبية؛ صحيح أن المشار إليه في هاتين الكلمتين صَفير أو حَفيف، لكنَّ الكلمتين جاءتا من اللاتينية وهي لغة ليس فيها إلا صوتٌ صفيريٌّ واحد، وهو ما حَدَّ من إمكان استغلاله استغلالاً تصويريًا: وهذا ما جعلني أقولُ إن العربية ملائمةٌ جدًّا من حيث المبدأ، ذلك أنَّ فيها من الأصوات الاستمرارية: السينَ الصفيرية، والشينَ الموشوشة، والزاء المصوِّتة، والضاد أو الظاء المُغَمْغِمتين.

ومن هنا فأفضلُ اختبار أن ننظر في الجذور التي تحوي صوتين أو أكثر من صَوْتَي العلة (الياء والواو) أو من الصوتين الشبيهين بصوتي العلة (أي: الهمزة والهاء). (والهاء صوت ضعيف من حيث النطق[4]، لكنه قويٌّ صَرْفيًّا فيما عدا استعماله أحيانًا لملء الفراغ في بعض السياقات الصوتية، مثل "أمّ"، وجمعُها "أمهات"). وفي مثل هذه الحالات لا نجد تعدُّدًا للعناصر التي يُمكِن أن تكون تجسُّمية، بل نجد طائفةً أخرى يُمكِن أن تلائم الارتباطَ الثانوي، ويعود ذلك لتنوُّع التصريف وللتغيُّرات التي تحدُث في نهاية الكلمة sandhi . ولا تتماشى الجذورُ التي يكون أحدُ مُكوِّناتها صوتَ علةٍ بصورة دقيقة مع الصورة النموذجية للتلازم بين الجذر والوزن في النظام الاشتقاقي والصرفي للعربية؛ ذلك أن الجذور التي يَدخُل في تكوينها صوتان من أصوات العلة أكثر مَيْلاً إلى الاتصاف بالانحراف عن الوزن المعهود، حيث يَقِلُّ ظهورُها بصورة تماثِل ندرةَ بعض التصريفات الطويلة نحو "اشرأب"، و"اضمحل". وقد كان بعضُها عرضةً لأن يُستبدَل بها غيرها أو لأنْ يُزاد عليها، إمّا تاريخيًا (كما في "هاتِ" من "آتِ"؛ و "تعال" بدلاً من "ايتِ"، و"تِ") أو عبْر اللهجات (كما في "شوف" بدلاً من "رَ"،

و"جاب" بدلاً من "جاه بي"). لهذا تبلغ الجذور التي تتضمن صوتين من أصوات العلة في العربية حدًا كافيًا من التهذيب profiled يَجعَل من الممكن لها ان تُكوِّن فصيلة صرفيّة لها ارتباط ثانوي مُحتمل وأن تكتسب ظِلاً دلاليًا، وذلك عكس ما نجده في الكلمات التي تتكون من مقطع متوسط مُغلَق (ص ح ص) وأمثاله في الإنجليزية.

وقد جمعتُ بصورة عشوائية عددًا من الجذور التي تحوي عددًا من أصوات العلة من "معجم العربية المعاصرة" لهانز فير، ثم صنّفتُها بحسب المعنى تقريبا. ولا تُعيقُ الطريقةُ غير المنضبطة منهجيًا التي جمعتُ بها هذه الجذور إيجاءاتِ النتائج التي وَصلتُ إليها إعاقةً كبيرة. ويَتبين من هذه الأمثلة أنه ليس هناك إلا جذران فقط يشيران إلى شيء ضعيف أو ليِّن، وهما: "وَهَى" و "وَنَى" (ويمكن أن يُضاف إليهما من معجم بلاشير، الجَذْران: "أ ي ن" و "ن و ء")، بالإضافة إلى "آهٔ" التي ربما كان يجب عدها كلمةً للتعبير عن الانفعال مما يماثل أصوات الطبيعة بدلاً من كونها كلمة رمزية صوتية أو رمزية صرفية مؤلَّفة.

وعدد منها محايد [دلاليًا]، نحو:

"آح"، "آل"، "آب"، "حَيّ"، "أَنَى"، "آنَ"، "أوْمَأ"، "أسِيَ" (لكن: "أسِيَ" (حزِن))، "أوِدَ" (و"آدَ")، "أنّى" (يَان)، "آنَ"، "شوَى"، "نَأَى"، و "وَلِيَ".

وهناك عدد كبير منها يدل على شيء قويٍّ أو قاسٍ أو عنيف:

"قَوِيَ"، "وَرِيَ"، "لَوَى"، "آقَ"، "آمَ"، "هَرَأ"، "آفَةَ"، "ساءَ"، "آبَ"، "وَطِئ"، "وَأَرَ"، "يئِس"، "نَاءَ"، "أوَام"، "أوَجَ".

أما الكلمات التي تكون من ثلاثة من أصوات العلة فمنها:

"آيَة"، "هاءَ"، "هَوَى"، "وَأَى"، "أوَى"، "أوَّى".

وتحقق هذه النتائج كما هو واضح في تأييد افتراض وجود استعمالٍ صوتي رمزيٍّ أو صرفي رمزي لحروف العلة، وذلك في الأقل بمقتضى البُعد الدلالي الذي تخيَّلناه بصورة قَبْلية. لكن هذه الأصوات لا تنفي هذا الاستعمال بصورة حاسمة أيضا[٥]. ويُمثِّل هذا

الاختبارُ ببساطة أسرعَ اختبارٍ يُمكِن أن يَخطُر بذهني وأَوْضَحَه، لكنه ربما يقود إلى نتائج خاطئة في حال صوت "الراء" في اللغة الإنجليزية، وهو الذي يؤدي في بعض الأحيان قيمةً دلالية، كما أظن (أي أنه يوحي بشيء 'يَهِرّ'، أو 'يَحُكّ'، أو بشيء خشن)، لكن هذه القيمة ربما لا تتبين في أمثلة مماثلة، وهي التي قد تُنتِج كلمةَ roar 'يَزأر'، فقط، في الجانب الموجب، مقابل الألفاظ المحايدة مثل: rare "نادر"، و rear "خَلْف"، والكلمة الدقيقة rarify "يُخَلْخِل"، بالإضافة إلى توسيع الإحصاء ليَشمَل كلماتٍ تَظهَر فيها "الراءُ" بوصفها الصوتَ الصامت الوحيد، نحو الألفاظ المحايدة:

e'er, o'er. or, oar, air, heir, ear, row, ray, rye; era, aria, are err, Oreo,، area

ومن الصُّدف أن صوت "الراء" في الإنجليزية لا يقوم بوظيفته المُمكِنة إلا إذا كَوَّن مع غيره من الأصوات تواليًا صوتيًّا مُتعدِّد الصوتيات (نحو -gr-, (s)cr). أما الأصوات الصامتة الصفيرية التي تؤدي وظيفةَ الأجزاء العشوائية في النظام الصوتي في الإنجليزية، وهو ما أسميته في مكان آخر بـ "الأثَر" signiture في مقابل المادة الحِسِّيَّة (نحو: ,-sn-, sl-, scr ‎-sp)، فيجب أن تُحقِّق مُمكِناتها الصوتية الرمزية بطريقة أكثر استقلالا، وهنا نجد أن "اختبار الجُرْعَة المُضاعَفة" يُنتِج لنا نتائج أفضل:

shush, swish, susurration

في مقابل:

Cease, syce, sash, Sôsh, sis, suss; seesaw, so-so

وإذا ما وسَّعنا، مرة أخرى، الإحصاءَ ليَشمَل الحالات، التي وإن لم يكن فيها للعنصر التجسيمي ما يُقوِّيه، ليس له في الأقل ما يُنافِسه:

sigh, hiss, hush

في مقابل:

say, soy, shy, she. so. shoe, ash, ass, hash.

لكنَّ المتكلمين الذين يَستعملون sashay بمعناها القاموسي المُحبَّب في القائمة الأخيرة سوف يضعونها في القائمة الأخيرة؛ أما أولئك المتكلمون الذين يَسمعون في هذه الكلمة حفيفَ الملابس، وأنا منهم، فسوف يَضعونها مع الكلمات الأولى.

***

أما أشهر أنواع الرمزية الصوتية، أيْ رمزية الكَسْرة الطويلة، فلم تستغلّها العربيةُ إطلاقا. ذلك أن استراتيجية الجَذْر والوزن لا تترك للكلمات قَدْرًا كبيرًا من الحرية لكي تختار هذه الكلماتُ الحركاتِ التي تَظهَر فيها. ومن الدلائل على ذلك أن وزن التصغير المألوف في العربية "فُعَيل" تَظهَر فيه حركةٌ قصيرة عالية خَلْفية، أي الضمة، وحركةٌ مزدوَجة تبدأ بالفتحة تليها الياء[٦].

وقد زعم إبراهيم أنيس (١٩٥٨، ص ٦٦)، الذي تأثر تأثرًا كبيرًا بالكتابات الغربية عن الرمزية الصوتية، أن الياء هي علامة التصغير، وأن الكسرة علامة التأنيث. غير أن الادعاء الأول صحيح في مستوى الكتابة فقط، أما من حيث النطق فهي صوت مزدوج يبدأ بالفتحة وينتهي بالياء [ـَيْ] ، كما أن الكسرةَ القصيرة ليست بارزةً صوائيًا بوصفها علامة للمؤنث ("درستِ"، في مقابل "درستَ")، ذلك أنها غير منبورة. أمّا ما ينبغي أن نَبحث عنه فهو بعضُ الأزواج من الكلمات التي تُبين فيها الفروقُ الصوتية الضئيلة عن شيء من الاختلاف في المعنى الذي يبين دلالة الكسرة على الصغر، مثل: mikos/makros في اليونانية، أو sip/sop, squeek/squawk "يرشف'/ 'يمتص"، 'يصر"/ 'يصرخ"، في الإنجليزية. لكننا نجد في العربية كلمتيْ 'عروس' و'عريس' حيث الأولى للمؤنث والثانية للمذكر وهو ما يتعارَض مع الروابط المُقترحة بين الكسرة والأنوثة.

ولا يعني هذا أنَّ ما اقترحه جسبرسن عن الكسرة لا يَقبَل التطبيقَ على متكلمي العربية. بل العكس هو الصحيح: فقد أجرى إبراهيم أنيس تجربةً عَرَض فيها على بعض متكلمي العربية دميتين إحداهما كبيرة والأخرى صغيرة، وسألهم عن إنْ كان من المُمكن أن نُسمّيهما 'زَليع" و"زَلوع" (وهما كلمتان لا توجدان في العربية)، أو العكس، وقد حصل على الارتباط المتوقَّع بين الكسرة الطويلة (الياء) وصِغَر الحَجْم. ولا يزيد ما أقوله هنا عن أن اللغة العربية لم تستغِل هذا الشعور الذي ربما يكون كُلّيًا، بل ربما تُعاني كثيرًا إذا ما أرادتْ استغلالَه بسبب العدد القليل من الحركات فيها وبسبب القيود الصرفية. وقد وجد إبراهيم أنيس كذلك ارتباطًا بين كِبَر الحجم والأصوات المفخّمة في اختيار تسميةِ الأشياء عن طريق

الاختيار بين الأسماء المُعطاة (وهو ارتباط غير مفاجئ حتى في الإنجليزية English Lautgefuhl) (ص ص ٨٣_٨٤). والعربيةُ من حيث بنيتها أكثرُ حريةً في استغلال الأصوات الصامتة المفخّمة من استغلال الكسرة، وهي تقوم بذلك في أغلب الظن؛ لكنّه أمر يَصعُب على الأجنبي اكتشافُه. غير أنّ اختبارات الاختيارات الإلزامية لا تُبيِّن الكثيرَ عن العربية بالصورة التي تطوَّرت بها في المستوى الفصيح، ذلك أنه يُمكِن لنا أن نَصِل إلى النتائج نفسها عن طريق الاختيارات الإلزامية. ومما يُضعِف من مقولةِ إبراهيم أنيس أيضًا بوصفها حُكمًا عن العربية لا عن النفسية الكلّية، الارتباطُ الذي ذكَره بين 'الكاف' والذُّكورة في مقابل التاء. فهو يقول: "نرى أن "الكاف" حرفُ تفخيم"، وهو قول يُخالِف الواقع، بنيويًّا، في العربية.

(وربما كان في الصرف ما يوحي بوجود هذا الارتباط. ذلك أن 'التاء' كما في "التاء المربوطة" لاحقةُ تأنيث اشتقاقية مألوفة؛ كما تُناظِر 'التاءُ' "الياءَ" في المضارع المسند إلى المفرد بشكل يتماشى مع التّناظر بين المذكر والمؤنث؛ ونجد في بعض اللهجات أن 'الكاف' إذا كانت لاحقةً للمفعول المذكر: "ـكْ" والإضافةِ قد تكون أكثرَ إيحاءً بقيمة الحرف الصوتية من اللاحقة المؤنثة "ـكْ" [حيث يُنطق الكاف في ضمير المؤنثة للمخاطبة وفي حال المفعول المؤنث المفرد في هذه اللهجات [مثل لهجة صنعاء] من مكان متقدم من الحنك؛ في حين ينطق ضمير المذكر المفرد المخاطب وضمير المفرد المذكر المفعول من مكان متأخر]).

د ـ: الرمزية الصرفية:

وإذا كانت العربية لا تَستعمِل الرمزيةَ الصوتية بالطريقة المألوفة في الإنجليزية فإنها تَستعمِل الرمزية الصرفية إلى حدٍّ ما. وأعني بالرمزية الصرفية، مُتابِعةً [للساني الأمريكي] مالكيل، الكلماتِ التي تتصف بأنها مجسِّمية من حيث الشكل لكنها ليست بالضرورة كذلك من حيث المادة الصوتية التي تتركّب منها[٧].
وأوضح الحالات التي تخضَع لهذا المعيار هي الحالات التالية فقط:

١ ـ الكلمات الثنائية التي يُكرَّر فيها الجذران للتعبير عن الفعل الرباعي المضعف. ولا توجد هذه إلا في الأفعال؛ إذ يَغلِب أن تكون الأسماءُ ذات الجذور المكرَّرة أسماءَ حيوانات (نحو "بُلبُل"، و"هُدْهُد"). وتُعبِّر هذه الأفعال مُضعفةُ الجذورِ عن معنى القفْزِ إلى الأعلى ثم الأسفل، مثلاً، نحو "نطنط"، "رفرف"؛ وقد رأينا عددًا منها في الفصل السابق.

وأكثر ما توجد الرمزيةُ الصرفية في هذه الفصيلة من الأفعال، بل هي حالات من ظاهرة تقليد الأصوات الطبيعية (الأصوات التصويرية). ومنها الفعل "قَهْقَه"، قارنه بالفعل carcajada في الأسبانية. وربما كانت مُشابَهةُ تقليدِ النُّطقِ في هذه الفصيلة متأثرةً باستعمال هذه الفصيلة في إحدى الوظائف التي يبدو أنها مقصورةٌ على العربية، وتلك هي "التعبير عن الأصوات"، كـ "بَأْبَأ"، و"هَمْهَم".

وهناك عدد قليل آخر من الحالات المشكوك فيها للرمزية الصوتية.

٢ـ وترتبط جذورُ الأفعال المضعفة بالتعبير عن المبالغة. ولا تنطبق هذه الحالة على الفعل الثلاثي الصحيح المضعَّف مثل "عَدّ"، حيث يكون التضعيف أمرًا من أمور الجذر لا الاشتقاقِ الصرفي. فيقتصر هذا الارتباط بين التضعيف والمبالغة على الأفعال المَزيدَة، بل لا ينطبق إلا على بعض منها. فصحيح أن صيغة "تفعّل" تدل على شيء من المبالغة (وليم رايت، الجزء الأول ص ٣٧)؛ لكنَّ هذه المبالغة قد لا تكون رئيسة، إذ ربما كانت موروثةً من صيغة "فَعّل"، التي تُعَد صيغة "تَفَعَّل" غالبًا صيغةَ مُطاوَعة لها. ويَنظُر رايت إلى صيغة "فَعّل" على أنها تجسُّمية لأن "معناها يتفق مع شكلها في كونها (للمبالغة) أو (للتكثير)". وهو هنا يتّبع تفسيرًا تقليديًا: وللاطلاع على مراجعةٍ لهذه المسألة، انظر ليمهويز (Leemhuis (1977:3f. أما دلالةُ صيغةِ "فاعَل" فأكثرُ تعقيدا؛ وسوف نناقش هذه المسألة بتوسع في الفصل الثاني عشر.

ومن أكثر الصيغ صلاحًا لفكرة الاقتران بين الشكل الصرفي وصِنْف المعنى الصيغُ الفِعليّة المحدودة الاستعمال التي تتصف عمومًا بأنها أكثرُ محدودية من حيث الأهمية. ومِنْ أهمّ هذه الصِّيَغ صيغةُ "افْعَلّ"، وصيغةُ "افعالّ" اللتان تُستعمَلان للتعبير عن اللَّوْن أو العِلَل، نحو "اصْفرّ"، و"اضْجَامّ". ومن الصعب القولُ مَبدئيًا إنْ كانت المعاني المختلفة في هاتين

الصيغتين للمبالَغة أم لا. ويمكن أن يكون الوصفُ الأقربُ هو "التَّوَرُّث"؛ قارن ذلك بوضع الصفات التي تدل على اللَّون في الإنجليزية في مكان أقربَ إلى الاسم الرأسِ إذا تُعدِّدت النُّعوت.

والصيغ الأخرى ذات الجذور المضعَّفة هي: "افْعَوعَل" (اخشَوشَن)، المشتقة من "خَشُنَ"، و"افْعَوَّل" (اعلوَّط)، المشتقة من "عَلِطَ"، و"افْعَنْلَل" (اخلَنْكَكَ) المشتقة من "حَلِكَ"، إضافةً إلى الأوزان الرباعية المضعفة مثل: "افْعَلَلَّ" (اذلَهَمَّ). وهذه الأوزان كلُّها نادرة. ويَدُل الوزنُ الأخير كما يقول رايت "على درجة عالية من المبالغة أو التكثير لِلْحدث غير المُتَعَدي، أو الحالة، أو النوع" (ج١، ص٤٩)[٨]. وتوجد معاني المبالغة كذلك في الأوزان الثلاثية المَزيدَة (ومنها الفعلُ المُشتَق من الاسم: "اعشَوشَبَ" (افعوعل))، لكنَّ هذه الأوزان ليست كثيرة. كما أنها لا تؤيد بالضرورة الفرضيةَ التي ترى أثرًا للرمزية الصرفية فيها. أما التتابع الصوتي -S n في الإنجليزية فرمز لـ "التَّثْنين/ والعَجْرَفة" (وهي مَقولةٌ دلاليةٌ مجازيَّة موجودة في العربية كذلك)، وهي مُستعمَلة إلى الوقت الحاضر، إلا أنَّ عددًا محدودًا وحسب من الكلمات التي تبدأ بالتتابع الصوتي -sn يوحي بذلك المعنى الجَمْعي للصوتين.

ومهما كان الأمر فلا يُعَد الصوت الصامت المضعَّف الآن العنصرَ الرمزي الصرفي الأوحدَ في صيغة "افعوعل" وغيرها؛ وعند هذا الحد نجد أنفسَنا نَدخُل في مجال النقطة الثالثة.

٣ ـ الكلمات الطويلة غير المشتقَّة:

يوجد في الإنجليزية كلماتٌ كثيرة تتسم بالطُّول لأنها يَجب أن تكون كذلك: أيْ لأنها نتيجةٌ للتأليف من عناصر مُستقلة متعدِّدة، إمّا تاريخيًّا أو تزامنيًّا، كما أنَّ هناك حاجةً لإبقاء الأجزاء التي تتألف منها حية. لهذا نجد كلمات مثل: ,propositionalization refrigerator, semi-trailer, (كما وردت عند [اللساني البريطاني] جون ليونز)، أو pneumopleuroparietopexy . وهناك كلمات طويلة من أجل التَّلذُّذ بِكَونها طويلةً وحسب. وهي التي يُمكن أن نُشبه القبعات الطويلة أو السلاسل التي تعلَّق بها الساعات. وربما أسميناها بـ: megalonyms "الكلمات المتضخمة" (أو تجسُّميًّا بـgalumphonyms).

وبعض هذه الكلمات للمبالغة، نحو: rumbustious, sockdolager, scrumptious, humongous ، وبعضُها لا يزيد عن كونه ثلعُبًا، نحو:
shenanigans, daffadowndilly, flibbertigibbet

ويبدو أن في العربية ما يشبه هذه الظاهرة، لكنَّ سببَ وجودها يعود إلى طبيعة الصرف فيها، وهو الذي لا يُمكِن مقارنته مباشرة بما في الإنجليزية، لذلك يجب علينا ممارسةُ أكبر قَدْرٍ من الدِّقة عند تعيينها. فيُمكننا وبكُل بساطة مثلاً أن نشتق من الفعل اللازم "خَشُنَ" الفعلَ الحَدَثِيّ factitive "خَشَّنَ"، والفعلَ المتعدي إلى المفعول الإنسان "خاشَنَ"، والفعل الذي يَدل على التقويم "اسْتَخْشَنَ" (شَعَرَ أنَّ شخصًا أو شيئًا "خَشِنٌ"). وهذه الكلمات مؤلَّفة أساسًا، وإذا ما صارت طويلة لهذا السبب فليس لطولها أهمية دلالية مباشرة. لكن انظر الآن إلى كلمة مثل "اخْشَوشَنَ" وهي مثال من العربية المعاصرة (معجم هانز فير). وهي فعل لازم آخر. ولم تكتسب تحديدًا دلاليًا أو انحرافًا عن المعنى الذي تُؤدِّيه صيغةُ IV "افْعَوعَلَ"، ذلك أن صيغة "افعوعل" لا تؤدي معنى جمعيًا group-meaning (وقد حدد رايت معنى هذه الصيغة بـ: "صار خَشِنا جدًا"). لهذا فهي ليست، بشكل ما، إلا الفعل "خَشُنَ" مع شيء من الجَلْجلَة، وذلك ليُمكِن للمتكلم أن يُعطيها معنىً محدَّدًا أوْ لا بحسب ما يريد.

ويَتَمثَّل الإطار العام للعربية، كما هو معروف، في دخول الجذور الثلاثية في مجموعة من الأوزان. أما الأوزان الرباعية والأوزان النادرة الأخرى ـ وبعضُها تجديدٌ قام به العربُ وكثيرٌ منها مُقترض من الفارسية واللغات الأخرى ـ فهو ما أدى إلى دخولِ قَدْرٍ من التشويش على فكرة الأوزان الأصلية. وهناك فيما أحسب شيءٌ من التوجه لتفضيلِ الأوزان الرباعية والخماسية، بالإضافة إلى الأفعال الثلاثية المزيدة، للتعبير عن بعض القِيَم الدلالية من النوع الذي توحي به الرمزية الصرفية لطول الجذع وكَماله، إذا ما غضضنا النظر عن المشتقات الاسمية والكلمات المقترضة. ولا تُماثِل هذه الحالَ ذلك التوافقَ المألوف والمحَدَّدَ جدًا بين الوزن والمعنى كما في <فُعال> <المرض> ("صُداع"، "وُراك" [مرضُ الوَرِك]) أو الطُّول في الوزن غير المصحوب بضخامة المعنى مثل <فاعِلاءَ> الذي يقول لنا Wolfditrich Fischer (Gram. 45) إنَّ معناه يدل على الجُحُور مِثْل "قاصِعاء" (جحر اليربوع) و"عانِقاء". وهذه كلمات اصطلاحية وغير تجسُّمية. أمّا ما أعْنيه فمجموعةٌ من

الكلمات، نحو: "غَطْرَسَةٌ"، "عَجْرَفَةٌ"، "عَنْجَهِيَّةٌ"، "جَلْخَمَ"، "تَزَيَّرَ"، "تَعَجْرَفَ"، "عَرَمْرَمٌ"، "جَحْفَلٌ"، "جَمْهَرَةٌ"، "عَسْكَرٌ"، "فَيْلَقٌ". ويبدو أن لأنماط المعنى في هذه الكلمات بعضَ الارتباط الذي يَجمعُها؛ وهو الارتباط الذي نجده في الكلمة الفرنسية superbe 'أي التضخيم'.

ومعظم الكلمات الرباعية مُحايدة فيما يَخُص هذا الارتباط، بل يمكن أن يكون هناك، في بعض الأحيان، بعضُ الحالات المعاكِسة، مثل: "شِرْذِمَةٌ". وقد قلل مثلَ هذا الاختلافِ الارتباطُ الضئيل هنا بدلاً من أن يَنفيه: انظر مثلاً إلى دلالة حركة ī [حركة الكسرة الطويلة] في الإنجليزية حيث تُفرض أحيانًا قيمةَ التصغير، كما تُبيِّنه على وجه الخصوص كثرةُ الكلمات التي تظهَر فيها، مثل: leetle التي جاءت منlittle "قليل" (قارن بالكلمة lītel في الإنجليزية الوسيطة)، ذلك على الرغم من وجود كلمات مثل: unwieldy "صعب المأخذ لضخامته" أو deep "عميق" (اللتان لا تدُل الحركةُ الأمامية العالية فيهما على معنى التصغير).

بل يمكن أن نُميِّز بصورة أولية بين الآماد الدلالية المفضَّلَة للكلمات المضخَّمة في العربية والإنجليزية. فهناك كلمات إنجليزية كثيرة تُستعمَل في التلعُّب اللفظي، ليس بمعنى أنه صاغَها عشاقُ الكلمات الفضائحية وحسب، بل بوصفها نتاجًا للإضحاك المحتشِم، مثل: (discombobulated, rapscallion, tarnation, skedaddle)، وحتى ما يَكون معناهُ الحرفيُّ منها تأليفيًا لا يُوجِب أن تؤخذ على محمل الجِد، مثل: (humongous, rootin tootin, caboodle). وهذا ليس المألوفَ في العربية حيث تتسم الكلمات غير الثلاثية التي تتصف بالتلعُّب أو التحبُّب بكونها نتيجةً لتضعيف الجذور الثنائية. والذي يميِّز العربيةَ أكثر من غيره أنَّ الكلمات الطويلة فيها تُؤدِّي معنى الثِّقَل، وهو ما لا يوجد في الإنجليزية التي تُفضِّل في هذه الحال استعمالَ الكلمات القصيرة التي تتضمن حركاتٍ خَلْفية ويَحسُن أن تكون الأصوات الصامتة فيها مجهورة[9]:

doom, gloom, loom
Forlorn! The very word is like a beel
to toll me back from thee to my sole self

(من كلام الشاعر الإنجليزي Keats)

أو أن "يكون الشيء مُظلمًا جدًا" هو المعنى المألوفَ للأوزان الطويلة في العربية[١٠]. ويمكن أن يتبين من الشاهدين التاليين أنَّ الشعراء يُحبُّون أن يُراكِموا الظلامَ فوق الظلام:

فيقول ابن عبد ربِّه (أوردها مونرو، ص ٧٧):

ونحن في عشواء مدلهمَّة وظُلْمةٍ ما مثلها من ظلمة

ويقول ابن الرومي عن ثورة الزنج، أوردها آربري ص ٦٥):

دَخلوها كأنهم قِطَعُ اللــيـلِ إذ راح مدلهمُّ الظلام

***

وعلى العكس من ذلك تُدَعِّم المظاهرُ الأخرى للغزارة الاشتقاقية حِسُّ العشوائية السيميائية. إذ أدى فَقْدُ التمايزات القديمة، وإدخال الصيغ اللهجية القديمة، والاحتفاظ بالتنوعات اللغوية إلى أن تمتلك العربية عددًا من أزواج الكلمات التي لا تتمايز دلاليا. ووجود مثل هذه التنوعات بعضها إلى جانب بعض في طور معيَّن من أطوار اللغة أكثرُ تأثيرًا من حيث الإيحاء بحسِّ الاصطلاح المحض من مجرد الوعي بوجود اللغات الأخرى، ذلك أن الفوارق المميِّزة في هذه الحالة الأخيرة لا تعدو أن تكون مجرد خصائص إثنية، كما يرى توم يومان Tom Yeoman في قوله:

"We call it a horse, and the Frenchman call it a cheval, but It's a horse a' the same"

"إننا نسميه "حصانًا" horse ، ويسميه الفرنسيون cheval، لكن ذلك لن يغير من الأمر شيئًا، فسوف يظل "حصانًا" horse".

أما وجوب تسمية الحمار بـ "حمار" فأمر واضح؛ لكنْ ما السبب الذي يجعلنا نطلق على جمع الحمار "حَمير" أحيانا، وأحيانا أخرى "حُمُر"، وثالثة "أحْمِرَة"، دون أن يكون لذلك سببٌ أو نتيجة لسجع؟ وقد اكتشفتُ حين كنت طفلاً ولأول مرة حقيقةَ أن اللغة ليست مجرد تلفُّظ شفهي يُماثِل في طبيعيَّته القيامَ بأداء الأعمال البسيطة، حين قابلْتُ أسرةً عادية

فيما عدا استعمالاتها اللغوية فوجدتُ أفرادها يَستعملون، بدلاً من العبارة frénch fries ("البطاطس المقْليّة"، بوضع النبر على الكلمة الأولى كما ينطقها أفراد أسرتي) العبارةَ french fries (بوضع النبر على الكلمة الثانية).

ثانيًا ـ الترابط الثانوي:

أ ـ ملحوظات عامة:

تُستغل اللغةُ ظاهرةَ الرمزية الصوتية عبْر الترابط الثانوي بغض النظر عن أي شيء آخر: فتُعبِّر الإنجليزية، مثلاً، بخاصية التَّغنين عبْر التتابع الصوتي: -sn، بدلاً من: -n ؛ كما تُعبِّر عن الرّقة عبْر التتابع الصوتي [ĭk]، بصورة أوضح من التعبير عنها بـ [ĭ]، ذلك أن هذه التتابعات الصوتية الطويلة تُؤسِّس أنماطًا ارتباطية أدق؛ أما الاضطرابات النفسية فيُعبر عنها بالحركة العالية القصيرة [ɪ] باستعمال التفعيلة التروكية أساسا، وتكون هذه الحركة الضئيلة السريعة مسبوقةً وملحوقةً في الأغلب بالأصوات الصامتة المهموسة وربما مع حركة قصيرة أخرى (والاستثناء الوحيد هو: giggle "يدغدغ"، وربما: bicker "يتخاصم"، أيضا)؛ أما جُرأةُ الحركةِ القصيرة المحايدة التي يُرمز لها في الكتابة الصوتية بـ: [ə] فتتمثل أساسًا في ارتباطها بالأصوات الصامتة المجهورة (ومع ذلك يمكن أن يُنظر إلى هذين المثالين الأخيرين على أنهما تُقوية متبادَلةً عن طريق تجسُّمين ضعيفين؛ لكن ذلك يقود إلى النتيجة نفسها تقريبا). وتميل الرمزية الصوتية دائمًا إلى شقّ طريقها نحو الرمزية الصَّرفية، ويكون الارتباط الثانوي هو القوة التي تُقودها إلى ذلك. لنأخذ مثالاً على ذلك التعبيرَ النمطي التالي في الإنجليزية: Taxes, shmaxes . ويمكن أن تكون هذه العملية تجسُّمية يُقصد بها تشويهُ الكلمة التي يراد الهزء بها، وغالبًا ما يكون ذلك، كما في السِّحر، حيث يشوِّه المرءُ صورةَ إنسان ما أو اسمه؛ بل ربما كانت نابعة من فكرة تلويث السمعة بشيء قذر. وإليك الدليل:

١ـ المعنى الفاضحُ أو المسيء لكثير من الكلمات في الإنجليزية التي تبدأ بالسابقة sh + C المأخوذة من اللغة اليديشية، نحو: shlemiel schmuck, shtupp,.

٢ـ والتتابعُ الصوتي المكوَّن من sh + C ليس جزءًا من الصواتة المعهودة في الإنجليزية، لذلك يبدو كأن علاقة هذه الكلمات بالإنجليزية لا تعدو أن تكون علاقةً تتمثل في استبدال مادة أخرى ذاتِ تفريعٍ صوتي غير مرتَّب بمادة مرتَّبة: قارن بكلمة: fnorkling (وهي النكتة التي اخترعها في الستينيات الميلادية أعضاء مجموعة Mensa المتخلفون عقليا).

٣ـ ويَشي القصدُ بمحادَثةٍ ضمنية على شكل: "You say taxes? I say shmaxes! تقول ضرائب؟ أقول [خرائب]! "، لذلك فهي تُشبه الاستراتيجيةَ المتمثِّلة في رفْض الحُكم الذي أتى به المحادِث عن طريق إعادة جزء من هذا الحكم وإضافةِ كلمة قبيحة أو كلمة بديلة مكان إحدى الكلمات فيه، نحو: Just looking' my a**/foot! . لهذا فالتجسُّمية نفسها ترابطية! [١١]

زيادة على ذلك، يُغني الارتباطُ الثانوي نفسه اللغةَ بغض النظر عن أي مُكوِّن تجسُّمي. ونتيجة لذلك لا تُعود الكلمات وحداتٍ ذرّية حتى إنْ كانت كلمات بسيطة غير مركَّبة. فكل الكلمات التي تُسهم في الحقول الارتباطية مثل:

flicker, skittish, jittery, tickle, twinkle, titter, flit, linger, long for pitter-pat

الخ (هذا إذا ما افترضنا أن هذا الحقل ثانوي وحسب بدلاً من افتراض كونه مؤسَّسًا على أية حقيقة تجسُّمية موروثة للحركة القصيرة [I] بوصفها ضئيلة وسريعة) يمكن النظر إليها على أنها الأغنى لكونها شاركتْ في هذا الارتباط. وإذا ما استطاعتْ هذه الكلمات مقاومةَ الميلِ نحو تشتيت أعضائها لتصبح مجرد مترادفات وشبه مترادفات (كما حدث للزوج النافع willy-nilly "طوعا أو كرها" تحت تأثير higgldy-piggledy ، وكلمات أخرى كثيرة، حتى صارت تعني لمعظم المتكلمين: harum scarum 'غير مسؤول'، وهي الفكرة التي يُعبَّر عنها بطرق شتى، بدلاً من تعبيرها عن nolens volens "راغب"، وهو المعنى الذي كانت تعنيه تاريخيا)، فإن هذه الشبكات الارتباطية تكون أكبر من مجموع الأجزاء المكونة لها.

ويتطلب اكتشافُ أهمية العلاقة التبادلية بين التجسُّمية والارتباط، أو حتى أهمية الارتباط بمفرده، ترفُّقًا خاصًا جدًّا في تناول أية لغة، وهو التناول الذي لا أستطيع الزعم به

عن العربية. وقد لفت أوريون جنسلر نظري إلى الزوج: pig/hog "خنزير" في الإنجليزية، مشيرًا إلى أنه لو حدث أن لسانيًا لا يتكلم الإنجليزية لغةً أولى، لكنه يَعرف شيئًا عن فكرة الرمزية المُسوَّغة للحركات في اللغات الأخرى أو في مواضع أخرى في الإنجليزية، نظر إلى هاتين الكلمتين ربما لا يستطيع اكتشاف إنْ كان ما بين يديه ليس إلا أمرًا عارضًا، أو أنه بدلاً من ذلك تقابُلٌ تجسُّمي واضح مقصور عن طريق الصُّدفة على هذا الزوج من الكلمات. وهذا أمر مُحيِّر في الواقع: وربما أمكن لي الظن أن هناك علاقة (يمكن إلغاؤها) بـ "صغير" متخفية في كلمة: pig ، و"كبير" في: hog ، وأن تكون هذه العلاقة المتوارية مسوَّغة حركيًا، لكن على الرغم من التعارض الواضح يمكن ألا تكون قوة التناظر بينهما ناشئة عن الارتباط المتبادل، وذلك على النقيض مما نجده في نمط mikros/makros . وحين تُترك كلمةُ hog ما كانت تُشير إليه في الأصل وتأخذ مهمةَ التعبير عن مفهوم "الكِبَر"، أي حين تعبِّر عن أحد أنواع الدراجات النارية الكبيرة، يمكن أن تُكتب على صورة hawg ، وهو ما يضخِّم الحركةَ فيها؛ أما pig فلا تدخل في مثل ذلك. ذلك أن كلمة pig في عالَم الأطفال هي الكلمة المعهودة لمعنى الصِّغَر، كما يبلغ في تبين الحركة في كلمة piggies التي تعني "الأقدام"، وفي piggy-wiggy (التي تُنطق في معظم الأحيان بحركة متوتِّرة تُقرِّب من الحركة في: teeny-weeny) وفي بعض أمثلة التكرار البسيطة نحو: pigs-an' pigs-an'-pigs "خنازير وخنازير وخنازير" التي يمكن أن نسمع الأطفال الصغار يُنشدونها: لكن كلمة hog لا تُستعمَل بالطريقة نفسها. وإذا ما اشتركَتْ pig ، و hog في مساحة معينة من الحيِّز الدلالي فإنهما لا تحتلان مكانين متناظرين فيما يتعلق بالأبعاد، كما في: to pig out "يأكل نفسه"، و to hog "يستغِل".

ب ـ الخصائص التي تتسم بها العربية:

يَسمح عدمُ وجود حدودٍ صرفية قصوى للإنجليزية بتكوين جذور جديدة من جذور قديمة عن طريق تغيير المعنى في الكلمة أو عن طريق النحت، أو بإحداث ارتباط بين الكلمات الموجودة. فإذا جَمعْنا بين معنى الكلمة shrink ومعنى الكلمة المهجورة rivel

فستنشأ الكلمةُ shrivel "يَذبُل" دون أن يكون ذلك نتيجةً لصِلة نَسَبيَّة تاريخية بين الكلمتين (والذي يوحي بأنها نتيجة للمزيج أنها آخر الكلمات الثلاث حُدوثا).

وإذا تأملنا الاشتقاقَ المحكوم بالجذر والوزن يمكننا أن نقول إن العربية تتسم بوفرة لا حدّ لها من الارتباطات بين الكلمات (كَتَب، كاتِب، مكتب،. . . الخ). وهذه حقيقة مهمة عن هذه اللغة، غير أن هذه الارتباطات ليست ارتباطات ثانوية حقيقةً، ذلك أن متكلمي العربية يشعرون بأن هذه الكلمات مشتقة من الجذر نفسه، تزامنيًّا أيضا، كما يتضح ذلك من الإنتاجية المستمرة للاستراتيجية الاشتقاقية. فكلمتا "كاتِب" و"مكتب" تشبهان كلمتيْ mouse "فأر" و mousey "فأري" أكثر من شبههما بكلمات: inchoate, incoherent, chaos "ينقص"، "غير متناغم"، "فوضى"، حيث الارتباطُ بينها ثانويٌ بصورة كاملة، ومع ذلك يُبرهِن وجودُها على التحول الدلالي في الكلمة الأولى تحت تأثير الكلمة التالية لها.

فهل يوجد في العربية ارتباط ثانوي بين الجذور المختلفة بالكيفية نفسها؟

والعربية نظريًا أكثر محدودية من الإنجليزية التي يمكن أن تصاغ فيها كلمة جديدة بالطريقة التي تصاغ بها كلمة shrivel ، ذلك أنه إن كان لديك جذر ثلاثي مألوف فليس بمقدورك أن تُضيف شيئًا إليه إلا بالتضحية بالطواعية التصريفية الاشتقاقية للجذْع. لكنّ عددًا كبيرًا من الجذور السامية كما تقول إحدى النظريات كانت ثنائية أصلا، لذلك يمكن توسيعُها بطرق مختلفة، مع احتفاظ نتائج هذه التوسعيات بالجوهر المشترك لها[١٢].

وأوضح الأمثلة لهذه العملية حين يضاف صوت صامت زائد إلى كلمةٍ من أجْل التصريف، وذلك كي تُظهَر الأشكالُ المتنوعة للجذر في قائمة واحدة، ومن ذلك: "فَم"، وجمعُها "أفواه"، وفي الإضافة "فو" (فوك)؛ "حِرٌ" وجمعها "أحراح" (من بين جموع أخرى ممكنة)؛ و"شَفَة" وجمعها "أشفاه"، وفي النسب إليها "شَفَوي" أو "شفهي". ويغلب أن يكون الصوت الصامت المزيد ضعيفًا صوتيًا، كما قلنا في القسم السابق (قارن: "اذْلَهَمّ" ـ "اذْلأَمّ"). والأمر الآخر الأكثر تطرُّفًا، وهو الذي يُمكن أن يَقطَع الصِّلات الارتباطية أو أن ينشأ عنه ما يمكن أن يكون ارتباطًا ثانويًا، إذا نظرنا إليه تزامنيًّا، هو توسيع الجذر الثنائي بإضافة صوت صامت غير ضعيف ليكوِّن جذرًا جديدا. ومن أمثلة هذه العملية ما نراه في الأسرة اللغوية الألمانية، كما في اللغة النورسية القديمة، حيث:

"تدل أغلب الكلمات المبدوءة بالسابقة -sk على ما يرتبط بالعمل في الغابة، وتظهر تلك الدلالات في أبنية لغوية مختلفة. من أجل ذلك يمكن أن يَتبع جزء كبير منها فصيلةَ الكلمة الاشتقاقية، وتشكِّل داخل الفصيلة الجرمانية مركَّباتٍ اعتباطية جديدة. وهناك كلمات تدل على الغابة، مثل: skagi ،skógr ، وفي المقابل يطلق على الشجرة المقطوعة skati . أما العمل في الغابة منه القطف (skúfa) أو نفض الأوراق (skaka أو skeika). . . '.

(Jan De Vries, Altnordisches Etymologiches Wörterbuch, 1962,s.v.sax.)

. . . "die Mehrzahl der mit *sk*- anlautenden Wörter sich auf den Waldbetrieb beziehen und dabei die verschiedenartigsten Bildungen zu tage treten. Deshalb können sie grösstenteils zur selben Wortsippe gehören und innerhalb des Germ. spontane Neubuildungen sein. Wörter für den Wald sind: *skagi*, *skógr* der abgeästete Baum heisst *skati*. Die Tätigkeit im Walde ist das Zupfen (vgl. skúfa) oder schütteln der Blätter (vgl. *skaka* und skeika). . .'

ويُمكن الإتيانُ ببعض الظواهر المماثِلة لهذه من اللغة ما قبل الهندية الأوروبية المُرسَّـة، التي تتسم بجذورها القصيرة والتشعبات Erweiterungen المختلفة فيها.

وفي العربية ما يُشبه هذا[١٢] كما يتبين من المجموعة التالية من الكلمات، وتبدأ كلُّها بجذر ثنائي تقريبًا (أو شبه ثنائي)، حيث يُملأ الجذرُ الثالث بشكل يكاد يكون اعتباطيًا:

جذَم، جذَل، جذَع، جُذْمُور، جذَر، جذَي (جذية)

وقارن ذلك بـ"جِذوة" (جَذوة، جُذوة).

وهذه الكلمات مألوفة كلها، وقد أخذتُها ومعانيها من معجم الجيب للعربية النموذجية المعاصرة الذي جَمعَه (مان مدينة). ولا توجد هذه الكلمات جميعها في رصيد كلِّ متكلِّم يَستعمِل العربية النموذجية المعاصرة، أو يُحاول استعمالها، وذلك بسبب التفضيلات القُطْرية والمستويات التعليمية المختلفة، ومع ذلك هناك ما يكفي للقول بوجود حقل ارتباطي.

وتُذكّر هذه المجموعة من الكلمات بالمجموعة التي تبدأ بالتتابع الصوتي: -sk في اللغة الآيسلندية، لكنها تختلف عنها فيما يبدو اختلافًا مُحيِّرا: ذلك أن تلك الكلمات كلها عدا الأخيرة تعني أساسًا الشيء نفسه؛ لذلك يبدو أنها 'تراوح في مكانها'، وهو ما يشبه أن تكون العَجَلةُ قد اكتُشفتْ لكنها لم تُستعمَل إلا في لعبة رمي القُرْص dartboard.

ويبدأ الحقلُ في الاقتراب من الوضع في الأسرة اللغوية الألمانية عند توسيع نظرتنا لتشمل الجذور الثنائية 'المجاورَة' نحو: [ج د] و [ج ز]: وهي مجاورة من حيث النُّطق بمعنى أن 'الدال' و'الزاء' كلتيهما قريبتان في النطق من 'الذال'، وبمعنى مقارِن يتمثل في أن تَغيُّر 'الذال' إلى 'زاء' وتغير 'الذال' إلى 'دال' تطوُّران مألوفان في كثير من اللهجات العربية (وهو ما ينتج عنه بعض الارتباطات التاريخية والتزامنية). لذلك نجد أمثلة كالتالي: 'جَذَعَ' و'جَذَفَ' (انظر معجميْ لين وهافا)، و'جزّ'، و'جزَم'، و'اجْزَر'، و 'جَزَعَ'، و'جَزَل'. وبما أن الجِذْع stump هو الذي يبقى بعد أن يُقطَع شيءٌ ما فذلك ما يُوفِّر لنا حقلاً مُعجميًا ارتباطيًا غنيًا، وإن ظل كلُّ واحد من مَركزَي المادةِ [الجذر والصوت المُلحَق] متماسكًا بشكل مضطرب.

ولا يمكن لنا هنا أن نستنتج اعتمادًا على المعاني التي يُمدُّنا بها المعجم، شيئًا كثيرًا يتجاوز حقائقَ الإحالة الأصلية. ذلك أنه سيكون هناك اختلافات إيحائية وتلازمية، كما يمكن أن يُخصِّص المتكلمون المختلفون معانيَ هذه الكلمات بأشكال مختلفة. انظر، مثلاً، الكلمتين الإنجليزيتين: hit 'يضرب' و strike 'يخبط'. فلا نجد في استعمالهما الأكثر أساسية، كما في جملة مثل:

She struck him/hit him (with a ruler)

"خبطته/ ضربته بـ "مسطرة""

اختلافًا مهمًا، أما فيما وراء جوهر المعنى فهناك اختلافات كثيرة في ظلال المعاني – نحو: 'الضَّرب' و'التَّقسيم':

The clock struck/*hit one

'أشارت/ *ضربت 'الساعة' الواحدة"

مقابل:

Pepsi Cola *strikes/hits the spot

"*خبطت/ وصلت [ضربت] البيسي كولا الهدف"

و:

It strikes me/??hits me as being unlikely

"بدا لي الأمر ممكنا"

في مقابل:

How does that strike (colloq.)hit you?

"كيف يبدو لك ذلك"

وللوصول إلى معنى للاستعمال الحَيِّ فقد سألتُ متكلمًا للهجة سعودية، تُميز بين "الذال" و"الدال" و"الزاء"، أن يُبدي رأيه في كلمات تتماثل مع تلك الكلمات التي أوردناها، وقد وَجَد، كما هو المتوقَّع، بعضَ الاختلافات. ومن ذلك أنه يُمكن أن تُفهَم الكلمتان: "جِزْلِة" و"جِذْوَة" [وهذا المتكلم يتكلم لهجة القصيم التي تُميل الفتحة نحو الكسرة قبل تاء التأنيث] كلتاهما بصورة غير مُتعاطِفة، بمعنى: "حَطَبٌ جيِّد"، لكن "جزلة" تعني بصورة أدق "حطب جيد الاحتراق"، أما "جذوة" فتحيل إلى الاحتراق الفعلي، التفاتًا لحيويتها القوية، واحتمال إضاءتها لشيء آخر. أو يمكن أن تقول مرة أخرى، باختلافٍ إحاليٍّ بدلاً من كونه اختلافًا إيحائيًا، إنك إذا رأيت نخلة فالساق هي "الجذع"، أما إذا جرِّدت الخُوص عن جَرِيدها فما يبقى منها فهو "جذمور".

***

وقد لخَّص نولدكه عمليةَ ملء الجذور الثنائية القديمة في العربية اعتمادًا على أدلة من المقارنة باللغات السامية في فصل عنوانه: "الأسماء الثنائية" Zweiradikale Substantive (في كتابه Beitrage Neue). ويجب أن يُضاف إلى هذا الإجراء أنواعُ اشتقاق الرباعي من الثلاثي[١٤] (وهي التي يمكن أن توصف بأنها تُخرِج الجذورَ من الأوزان المألوفة بدلاً من إدخالها فيها، وذلك ما يُوجِب وجود تسويغات تقسيمية أو تجسُّمية أقوى)، واقتراضُ البدائل، وربما بعضُ التغيُّرات النادرة والتنوعات اللهجية القديمة التي احتفظت بها اللغة

النموذجية ـ وهذا ما يمكن أن يخطر في البال حين تختلف التنوعات، ليس بالطريقة التي يختلف بها الجذران [ج ذ ع] و [ج ذ م]، لكن كالاختلاف الذي يوجد بين الجذور [ج د ع] و[ج ذ م] و [ج ز م] (أو كـ "جَذَّف" و"جَدَف"، اللتين تُعنيان كلتاهما المعنى نفسه.

ولكي نفهَم الوجه الذي تتجلى به الملامح الخارجية لِلُغة، كما تظهَر لُستعمِليها في أية فترة من فتراتها المختلِفة، يجب علينا بالطبع ان نتجاهل الأصول التي جاءت منها المشترَكات اللفظية Paronyms الناتِجَةُ وأن نُوَجِّه أنظارَنا إلى جزءٍ تزامنيٍّ من المُعجم. كذلك يجب أن نُقتصر على تناول الكلمات المألوفة بِقَدْرِ ما إنْ أردنا أن نكتشف التأثير الثنائي. ذلك أنه يمكن أن تتلون كلمةٌ نادرة بكلمة أخرى مألوفة (وذلك مثل تلوُّن: inchoate "ينقص" بـ chaos "فوضى"، و: incoherent "غير متناغم"، و desultory "متقطع" بـ desolate "مهجور"، و sultry "متقِد") لكن العكس ربما لا يحدث. لهذا فقد بَحثْتُ مرةً أخرى في مُعجمَيْ هانز فير ومدينة ووجدتُ الأمثلة التالية:

شَجَب، شَجَن، شَجْو

نَقَبَ، نَقَر، نَخَرَ، نَخَزَ، نَخْرَب

بَتَر، بَتَل، قارن بـ: خَذِر، خَذِل

بَثْر، بَثَق

بَشَّ، بَشَرَ

بَحثَر، بَعثَر، بَعزَق

تُفّ، أفّ

تُرفَ، تُرة

طَبَق، تُتن، تُنبك، تُنباك، تُمباك

بَنْدَ، جِنْد

بِنصِر، خِنْصِر

وَحْشيّ، حُوشيّ

مَزْمَز، مَصْمَص

بَلسان، بَلْسَم

ثبت، ثبر؛ ثبر، ثبر

حقد، حقد؛ حقر

خطم؛ خشم؛ خيشوم؛ خرطوم، برطوم

ثعلب، ثعال

تسرر، تسرى [س ر ي]

جاس؛ جاسوس

قبر، قنبر

زبت، زبر

زئبق، زاووق، زيبق

دجن، دجي

درزن، دردار

رضخ، رضح، رضرض

سحج، سحل

سجل، سجم

سهد، سهر

ربص، ربض

رأب، رأم؛ رم

حذق؛ حذلق

تنخع، تنخم

طلوع؛ طليع

شراس، سيرار، سيراس

نادى، ناتي

نزوة، غزوة

هزع، هرول

سقلب؛ شقلب

خِضرِم

خِضَمّ

لَفّ، لَفْلَف، لَفَع

كَفّ، كَفْكَف

بَقَاق، بَقْباق

قَلِق، قلقلة

وتُبيِّن المجموعات الأربع الأخيرة أنواعاً مختلفةً من توسيع الجذر الثنائي من غير إضافة صوتٍ مختلف. ويتبين الارتباطُ الوثيق فيما بين الجذور التي حصلنا عليها من الحالات التي تُظهِر فيها بعضُ التوسيعات الدلالية الإضافية على أشكال متوازية، وذلك مثل:

"تَكّ" و"تكتك"

زَهَف (إلى الموت)؛ زَهَق

زَلّ؛ زَلَج، زَلِق؛ زَلَم

اسْت، سَـتْ [سَه؟] (جذر ثنائي قديم له أشكال متنوعة)

شِفَاف، شفاه، شَفَوات

شَمَخ؛ مُشْمَخِر

شَعْبَذ، شَعْوَذ

قَمَص، قَمَط

أعمش، أغمص

فنجال، فنجان. قارن بـ: وَزَل، وَزَن

لَزَب، لَزِم، لَزَج، لَزِق، لَصِق

وتُذكِّر هذه القائمة الأخيرة من الكلمات بتلك اللُّعب المحيِّرة التي يُفترَض فيها أن يقوم اللاعب بتغيير حرف واحد في كل خطوة في بداية كل كلمة ليصل إلى كلمة مختلفة جدا:

لَمَس؛ مَسّ؛ مَسَح؛ مَسَك

و: لَطَس، لَطش، لَطَع؛ لَطَم؛ لَكَم؛ لَكَز، وَكَز

وللاطلاع على مجموعةٍ مماثِلة من المشترَكات المستعمَلة في اللغة العربية قديمًا، انظر ابن السِّكيت في رسالته القصيرة: كتاب القلب والإبدال، الذي نشره المستشرق هفنر ١٩٠٥[١٥].

ويُمكن عدّ الكلمات التي درسناها هنا كلّها تاريخيًّا، بغضّ النظر عن إن كانت تنوُّعات لَهَجية، أو تنوعات لمصطلحات أجنبية مُقترَضة، توسيعاتٍ مختلفة لجذرٍ ثنائي أو ثلاثي. لكنّ أصولَها التاريخية نُسيت، ويمكن بالمِثْل أن تقوم الجذورُ المجانِسة بإحداث بعض الارتباطات في أذهان مستعملي اللغة. ويمكن أن تبقى نتائج هذه العمليات بمثابة تلعُّبٍ أدبيٍّ بالكلمات فقط، ويمكن أن تترقى لتُصبح في عِداد الغوامض عَمليًا، كما أوضح ذلك تشينيري (١٨٩٨، ص ٥٣٢):

"كثيرًا ما يعتمد التَّطيُّر والكهانة على التجنيس أو الاشتراك اللفظي، فكلمةُ "غُراب" لها الجذر نفسه الذي في "غُرْبة"، مثلا. لهذا فإن "بانة" [نوع من الشَّجر] كانت نذيرًا مشؤومًا بقَطْع العلاقة وذلك لاتصالها بكلمة "بَيْن" [فراق]".

التعليقات

(١)ـ قارن بيرك (Charnay 1967:17):

"وهناك سمة ثانية تلفت النظر [أما السمة الأولى فهي "الزيادة" التي ناقشناها في الفصل الثاني [جستس]] هي تلك النزعة المتطرفة إلى التعليل التي تتسم بها هذه اللغة العربية. أو كما كنت سأقول: وضوحها المثير. في حين يغلب على لغات أخرى ما كان يسميه دي سوسور "عشوائية العلامة" اللغوية، فلا وجود في العربية تقريبًا لسمة "العشوائية" هذه، نظرًا لوضوح اشتقاقاتها، وما يقتضيه منطقها النحوي الصارم".

un second aspect qui me frappe [the first, redundancy, we have discussed in chapter 2], c'est l'extrême motivation de ce langage arabe, j'allais dire son agressive clarté. Alors que d'autres langues sont empreintes de ce que Saussure appelait l'"arbitraire du signe", au contraire, en arabe, presque rien n'est "arbitraire", du fait de la limpidité des dérivations, du fait des exigences d'une logique grammaticale imperturbable.

ونحن نلاحظ الحقيقة البنيوية نفسها، لكن بيرك يصل إلى نتيجة عكسية لأنه يخلط بين "عشوائية العلامة" arbitraire du signe و associatifs rappotrs (Saussure 1965:170f "العلاقات الارتباطية" ["الاعتباطية النسبية" (محمد القرمادي وآخران: دروس في الألسنية العامة، ص ١٩٧)]. وربما لا تكون اللغة العربية أغنى من اللغة الألمانية في الارتباطات الثانوية. أما ما تختلف فيه فهو في المؤامرة التي يقوم بها الصَّرف لإضعاف ظاهرة تقليد أصوات الطبيعة onomatopeia. فكلمة squeak "صرير" في الإنجليزية تُحمل صدى ما تُدلُّ عليه بدقَّة، لكنها ربما تفقد صلاحيتها إن كان لدينا، إلى جانب I squeak ، صيغ مثل: you squoke، و: the mouse squawk و: we usaqueko . أما في الكلمة العربية المألوفة فالحركات أمرٌ من أمور التنميط النحوي، وهي ليست متاحة للترميز الصوتي. والأصوات الصامتة، مقيَّدة تقييدًا صارمًا كذلك. فغالبًا ما تُحصِّل الكلماتُ الإنجليزية التي تخضع للرمزية الصوتية للأصوات الصامتة على تلك الرمزية عن طريق تراكم الأصوات الصامتة في تتابع صوتيٍّ لا يمكن تغييره، مثل: -fl-, scr-, sn. أما العربية فلا يُمكنها أن تقوم بذلك. ذلك أنه يمكن في العربية للأصوات الصامتة التي يُحتمَل أن تتجاور تجاورًا حميمًا في صيغة معجمية

معينة أن يُفرّق بينها في مكان آخر من الصرف، وذلك مثلما يفترق حبيبان ينتميان إلى قبيلتين مختلفتين بعد انتهاء فصل الصيف.

وقد لوحظ مرارًا في اللغة التركية كذلك نوعٌ معماري مجرد. قارن مثلاً بما قاله ماكس مولر (١٨٩٠، ص٣٥٤): "لقد لاحظ مستشرق مرموق 'أنه يمكننا أن نتخيل أن تكون التركية نتاجًا لتخطيط صادرٍ عن مَجمَع مرموق من العلماء'؛ لكنه لا يمكن لأي مجمع مثل هذا أن يخطط لهذه اللغة التي أنتجتها عقول البشر، وهي التي تُركت تعمل بنفسها في سهول التتار موجَّهةً بقوانينها الداخلية الطبيعية وحدَها، أو بقوةٍ غريزية تبلغ في درجة العظمة مستوى أيِّ شيء آخر في الطبيعة".

وفي حين تتصف التركية بأنها إلصاقية خطيًّا، يمكن في العربية (التي يمكن أن تكون إلصاقية أيضًا، إذا نظرنا إليها من زاوية تجريدية، كما لاحظ [اللساني البريطاني المعاصر] سي. إي. بازِل) أن تتداخل الصرفيات، كما في الجذر [ك ت ب] " < "فاعِل" > = "كاتِب". فالنتيجة إذن لا تخرُج عن كونها تحليلية جَبْريَّة [نسبة إلى الجبر الرياضي]، لكنها أقلُّ وضوحا، وأقل طبيعية إدراكيًا، بالنسبة للمتعلم الجديد للغة، لهذا تبدو كما لو كانت مصطنَعة.

(٢)- ويتوافق التجنيس التصحيفي 'جناس القَلْب' anagrammatic بشكل دقيق مع واحد من مظاهر الدلالة المعجمية العربية، التي زعم الكثيرُ عنها لكنها تستحق الالتفات إليها. وقد قال شحنة Chejne (١٩٦٩، ص٤٩) عن هذا القلب الذي يُغيِّر المعنى:

"يمكن أن يُعرَّف القلبُ بأنه تكوين كلمات عن طريق تغيير الترتيب الأساسي للجذور. وكان ابن جني (ت ١٠٠٢م) من أول القائلين به. والافتراضُ الذي يقوم عليه هذا المبدأ أنَّ هناك علاقةً وثيقة بالمعنى، بغض النظر عن المكان الذي يحتلُّه الجذر. ومن ذلك أن [ج ب ر] تؤدي في صيغتها الأساسية مفهوم 'القوّة' أو 'الشّدة'".

ثم يضيف شحنة بعد ذلك في تعليق على قول ابن جني (ص ١٨٨) ما يمكن أن يكون رأيه هو:

"لهذا فإن الجذر [ج ب ر] الذي يعني "القوة" أو "الإلزام" يحمل معه هذا الارتباط في كلمة "بُرْج"، وكلمة 'أَبْجَر'، وكلمة "رَجَب"".

اما كون كلمة "بُرْج" مقترَضةً من اليونانية فلا يُمثّل عقبةً كاداء، ذلك أن الكلمات المقترَضة من اللغات الأخرى تتلوّن أحيانًا عن طريق الارتباط مع الكلمات الأصلية في اللغة المقترِضة.

ويقول ستيتكيفيتش (Stetkeyvych, 1970: 46) عن كلمات مثل "لَطَمَ" و"لَمَطَ"، اللتين تُعنيان كليهما "ضَرَبَ" أن هذا "يَعكِس، قبلَ أي شيء، الأطوارَ القديمة البدائية للُّغة، لكن هذه الظاهرة موجودة نسبيًا في العربية الوسيطة وفي اللهجات كذلك".

(٣)ـ ويوجد في الإنجليزية شيءٌ من هذه الحرية الطائشة في رصيدها من الجذور أحادية المَقطَع. ومن ذلك تلعُّب جيمس جويس بهذه الطواعية في رواية يوليسيس:

He rests. He has travelled. With?
Sinbad the Sailor and Tinbad the Tailor and Jinbad the Jailer and Whinband the Whaler. . .

وينتج عن مثل هذا الانغماس في العشوائية مسلوبة الدلالة بعضُ ما يؤدي إلى الدُّوار:

and Vinbad the Quailer and Linbad the Yailer and Xinband the . . . Phthailer".

ويوحي المثالُ الأخير أنَّ معجم الإنجليزية يتسم بوجود كلمات مقترَضة لم تنسجم مع نظامها (وهو يفوق ما نجده في العربية).

(٤)ـ وتتصف "الهاء"، إلى جانب لَطافتها عند مقارنتها بـ "الحاء"، بأنها (في بعض الفترات من تاريخها) كانت ضعيفة صوتيًا كذلك لأنها كانت لا تمنع الإمالة حين تقع بين "الياء" و"الألف"، كما يقول أحد النحويين الذي أورد رأيه دي ساسي في كتابه Anthologie grammaticale . 346

(٥)ـ وقد لفتَ يعقوب مالكيل نظري إلى أنه يمكن، مع بعض التغييرات الدلالية المختلفة، أن نحصل على شيء من الارتباط الممكن. إذ يمكن أن نحصل على مَفْهَم sememe يَدُل على الذمّ في كلمة "وَهَى" وغيرها، وعلى "مَفْهَمات" أكثر في طائفة من الكلمات "القوية"، نحو كلمة "هزأ". بل يمكن أن نترجم مصطلح "حروف العلة" في الإنجليزية بـ "الحروف الضعيفة" أو "الحروف المريضة".

ويَخضَع الجَمْعُ الدلالي للنظرة الذاتية ويجب على وجه الخصوص أن تُراعى القيمُ العربية في الوقت الذي كانت تُستعمَل فيه هذه الكلمات. وربما كان من الأوفق أن تُترَك المادةُ

اللغوية على الصورة التي هي عليها وأن يُترك للقارئ استخلاص النتائج التي تتراءى له. وعلى أية حال فالأمر الأساسي هو أن الرمزية هنا رمزية صرفية أكثر من كونها رمزية صوتية، ذلك أن واحدًا أو أكثر من حروف العلة لن يكون موجودًا في تصريفات كثيرة ليقوم بعملية الترميز. وسوف نُشتق التجسُّمية مما يَعرِض لنظام الجذور الثلاثة حين تتصرف الجذور "المعتلة"- أي كيف "تأوَّد" و "تلوى" و"تهرأ" وكيف يمكن لها أن "تنوء" و"تيأس" نتيجة لذلك؛ إنها لـ"أوَّة".

(٦)- لهذا كان C. Hegège مُضلِّلاً حين أورد كلمتي "صَغير" و"كَبير" (المعاصيرتين) على انهما تقدِّمان "تأكيدًا وتعضيدًا للقيمة الرمزية الصوتية المفترَضة للكسرة". (La Structure des langues, Paris (PUF) 1982:25). فهاتان الكلمتان مثالان للنمط < فَعيل >: "اسم/ صفة"، وهو نمط محايد دلاليًا هنا.

(٧)- انظر:

Y. Malkiel, "From Phonosymbolism to Morphosymbolism" in Forum (LACIS), IV (1977), 511-529

وقارن بالمقال الذي عقَّبْتُ به على مقاله:

"Iconicity and Association in Phonology, Morphology, and Syntax," Romance Philology 33, no. 4 (May 1980).

(٨) - وربما داخلنا بعضُ الانزعاج، فيما يخص الكلمات النادرة التي نجدها في كتب النحو والمعاجم، من أن إعطاء معنى الكثرة أو المبالغة ربما كان مما أضافه جامعو المعاجم تحت تأثير الصيغة. لكن هذا ليس من الخطورة بالصورة التي يبدو بها. ذلك أنه إن أمكن لصيغةٍ أن توحي لجامعي المعاجم بشيء من الارتباط فإنها ربما توحي بهذا الارتباط للمتكلمين العاديين، وهو ما يَجعلها تُستعمَل من حين إلى آخر بهذه الطريقة. ويمكن أن تنحو المعاجمُ في بعض الأحيان إلى التقليل من الإيحاءات التجسُّمية؛ قارن هذا بمناقشتنا لكلمة sashay .

(٩)- وربما لا تكون العربية والإنجليزية مختلفتين جدًا من حيث الأصل، ذلك أنهما ذهبتا مذهبين مختلفين في التنمية الإيحائية نحو النمط الصرفي الدلالي. فمعظم الكلمات الإنجليزية الطويلة ليست ثقيلة أو طنَّانة تمامًا إنما تُستعمَل للهزء بالطنطنة اللفظية: فيمكن إذن أن نُسميها صيغًا "متضخِّمة" galumphonyms . فهي لذلك galuptious, rumbustious . وللاطلاع على عملية تطويل الصيغة القصيرة، لاحِظ تطويلَ جذرِ < [ظ ل م] > [ع ظ ل م] الذي يمكن

أن ينتهي به الأمر ليكون كلمة مستقلة مع ما يتبع ذلك من مشكلات في معرفة أصلها، قارن ذلك بـ:

boistous-> boisteous-> boisterous->

أو:

affodil-> daffodil- >daffadowndilly (Spencer).

وقد يكون للعمليات الصرفية التي لا تنتسب إلى "النمط الصرفي الأصلي للغة المعيَّنة" قيمةٌ دلالية/ أسلوبية مماثلة، بغض النظر عن طول المعجمية lexeme . وسيكون هذا في العربية، في أغلب الأحوال، أمرًا من أمور النَّمط (الوزن)؛ أما في الإنجليزية فأمرٌ من أمور العناصر المَزيدة affixes. ومن ذلك ما رَوتْه إحدى المقالات في مجلة American Speech أن بعض الأمريكيين الطائشين من الشاذين جنسيًا صاغ من الاسم waitress "نادِلة" جمعًا يتلعَّب بالجمع اللاتيني، وهو: waitri ؛ كما أن الكلمة: catawampous التي لا يُعرَف كيف اشتُقت تاريخيًا كانت ضحيةً لمثل هذا التلعُّب (وربما جاز لي الظنُّ بأنها كانت نتيجة للجمع بين اليونانية + اللغة الأمريكية الهندية "الجونكوان" Algonquian + اللاتينية).

ويمكن الإتيان بأمثلة عديدة من الفرنسية.

وتفعل الألمانية الشيء نفسه، كتلعُّبها باللاتينية في كلمة:

Schwulibus

"up Sh. Creek without a paddle, suffering from Schwulität"

و:

buckelor(i)um "أحدب"

كما أنَّ فيها بعضَ الصفات التي يتبين معناها من شكلها (التجسُّمية صرفيًا) لمثل هذه الصياغات، نحو: burschikos .

ومن الكلمات الجديدة على هذا النحو في الإنجليزية stewardi "مُضيف" التي ظَهرت في مجلة New Republic, 25 VII 81.

(١٠) ـ لهذا هناك كلمات مثل: اكفهرَّ؛ احلَولَكَ؛ اذلامَّ؛ إلى جانب: اذلَهَمَّ، و: ادْجَوْجى.

ومن الصيغ الاسمية والوصفية ما يلي:

"عِظْلِم" (قارن بـ [ظ ل م]).

'طُخاطِخ'، "مُتَطَخطِخ" ((عَبْد) من فريتاغ)

ومنها، ربما:

'حِنْدِس'؛ حَفَنْلَس' (جارية)؛ 'مُسْخَنْكِك"

وربما يوجد عدد من التنوعات، مثل: "حَلَكَلِك"، 'مُحْلَنْكِك'، "مُحلَولِك" (التي تعني جميعًا "بالغ السواد").

ومن الأمثلة الأكثر طُولاً، لتعضيد النصوص التي أوردناها في المتن، نصٌ يُنسب إلى الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص (لايل ١٩١٣):

سحابٍ ذات أسحمَ مكفهرٍ تُوَحّي الأرض قطرًا ذا افتحاصِ
كليلٍ مظلِمِ الحجراتِ داجٍ بـهيم أو كبحرٍ ذي بَوَاصِ

(١١) ـ وإذا بدا الاقتراحُ الدينامي للرَّفض عبْر استبدال عنصرٍ متوقع بعنصر مُشوَّه (أي بعنصر من خارج النظام إما صواتيًا أو معجميًا) فيمكن أن ننظر إلى المثال التالي الذي ورد في جريدة مانشستر جارديان (٢/ ٩/ ١٩٨٠):

Does anyone in the real, evil world Burgess tries to bring to fictional life employ such words as 'hogo' and 'bemerded'?. . . on such occasions. . . he bemerds credibility.

"هل يمكن لأحد في الحياة الواقعية الشيطانية التي يحاول بيرجيس أن يأتي بها إلى الحياة المُتخيَّلة أن يستعمل كلمات مثل hogo و bemerded ؟ إن من يفعل ذلك سيـ bemerds بالثقة'.

(١٢) ـ بالإضافة إلى فكرة الرمزية الصوتية، لا في المعجم العربي على وجه العموم، بل في هذا المجال الجوهري فقط، فقد أمدَّت هذه الفرضيةُ الباحثين بما يشبه التتبُّع اللغوي النُّشوئي. لذلك يقول تشينيري (Chenery (1898:311 إن "تنوع الجذر الثالث شائع جدًا في العربية، وبخاصة في الكلمات التي تعبر عن بعض الأفكار اليومية جدًا، لهذا فهي أكثر استعمالاً عند المتكلمين"، مثل: [ل م ض] ~ [ل م ك] ~ [ل م ج] (التي تدل تذوق الطعام)؛ ثم يستشهد برينان Renan: Histoire de langues sémitique, 96 على أن: "كل هذه الجذور الثنائية تشكلت على سبيل المحاكاة الصوتية'

presque tous ces radicaux bilitères sont formés paronomatopée

ثم استُعملت بصفتها الهيكلَ الذي نشأتْ عنه الجذور الثلاثية.

ووجد ماكوردي (McCurdy (1881, 95) في الثنائية الرمزية مُضافًا إليها فرضيةُ التوسيع إجابةً عمّا يمكن وصفُه، بسطحية، بثلاثية الجذر في الساميات:

"لذلك يمكن بسهولة تفسير إنتاج الصيغ الطويلة hometymous في أية نظرية للرمزية الصواتية والصرفية، أكثر من إمكان ذلك عند افتراض أن الصيغ الأطول كانت هي الصيغ الأقدم. والواقع أن الافتراض الأخير يمكن أن يتوافق فقط مع النظرة التي ترى أن اللغة ما قبل السامية لم تكن نتيجة للنمو بإطلاق، بل كانت مؤسَّسة وُجدت نتيجة لتخطيط صارم مقصود. وتبعًا لهذا الرأي يلزمنا أن نفترض أن الساميين البدائيين عقدوا اجتماعًا رسميًا وانتهوا إلى توصية تقضي بأنه لا ينبغي لأحد أن يُكوِّن كلمة أو ينطقها إذا كانت تتكون من أقل أو أكثر من ثلاثة الجذور المسموح بها".

أما عمليًا فهناك عدد من المصادر التي أسهمت في إشاعة النمط الثلاثي المتقشف، ومن ذلك، الارتباطات الثانوية عبر المشابهة الجزئية للجذر كما ناقشنا ذلك هنا، والرمزية الصرفية، والاقتراضات التي لا تخضع للأوزان العربية (مثل: ناعورة، زنجبيل)، وهي التي سَمح بعضُها فيما بعد بنشوء بعض الكلمات التي تقوم على جذور عربية (مثل: وزن "فاعولا" الأرامي). ونحن نتفق مع جاك بيرك في قوله (المرجع نفسه، ص ١٨):

"بدون ذلك الغريب الذي يلجأ إليه الشعراء، وبدون تلك السمات اللهجية. . . وذلك الرصيد المتدفق من الكلمات الدخيلة، كانت *العربية* سترزح تحت ثقل كل ما هو رياضي وواضح فيها. إذ كانت ستتحول إلى لغة تقوم على رصيد المشتقات".

Sans le *ghariib* auquel recourent les poètes, sans le dialecte, . . . sans la *lugha* aurait péché par l'excès du . . l'influx de termes étrangers,. mathématique et de l'intelligible. Elle serait devenue une langue de paradigmes.

(١٣)- قارن بـ (von der Gabelentz (1901:251:

"يوجد لدينا في اللغات الهندية الأوروبية بعض المجموعات المتشابهة الجذور دلاليًا أو صوتيا/ كما يوجد فضلاً عن ذلك مثل هذه المجموعات في الجذور السامية المغايرة لها من حيث الحجم"

Wir haben in den indogermanischen Sprachen manche Gruppen sinn- und lautähnlicher Wurzeln, und noch viel mehr solcher Gruppn finden sich in dem ungleich grösseren , semitischen Wuzelschatze.

(١٤)ـ قارن بالأمثلة في وليم رايت ج١، ص ٤٧.

(١٥)ـ لا يناقش الكتابُ جناسَ القَلْب مع أن عنوانه "القلب والإبدال"، فهو يقتصر على التنوعات التي تَعْرِض لصوت واحد فقط، نحو: الباء ~ الميم (بَخر~ مَخر)؛ الميم ~ النون (غَيْم ~ غَيْن)؛ النون ~ اللام ([ك ت ن]، [هـ ت ن]، [هـ ت ل]؛ العين ~ الهمزة (آديتُ ~ عاديت ~ أعديتُ)؛ العين ~ الحاء ([ض ب ح]، [ض ب ع]؛ الهاء والهمزة (مَدَه ~ مَدَح)؛ الجيم ~ الياء ـ والواقع أنه التناوب بين الجيم المضعفة والياء المضعفة في اللهجات (ياء النِّسْبَة ~ ج ج؛ يّ ~ جّ؛ "بجّال" بدلاً من "بيّال")؛ إضافة إلى ذلك: الجيم ~الخاء؛ الجيم ~الحاء؛ الخاء~الحاء؛ الجيم القاهرية (وهي في الواقع ياء) ~ الغين؛ الهاء~الحاء؛ الجيم القاهرية~ العين؛ الفاء ~ الثاء؛ القاف ~ الكاف؛ الكاف~ الجيم؛السين~الثاء؛ الثاء ~الذال؛ السين~الشين (سُوس؛ سُوس؛ حفيسع، حفيتم)؛ الطاء~ الدال؛ الصاد~الطاء؛ الصاد~ الضاد؛ السين~الصاد؛ السين ~الزاء؛ الزاء ~الصاد؛ التاء~ الطاء؛ اللام~الدال؛ اللام ~ الراء؛ الدال~التاء؛ الدال~الذال؛ الزاء~الذال؛ الواو~ الهمزة؛ الياء~الهمزة. ولم يعط أية إحصاءات بالطبع، كما أن بعض التنوعات مشكوك فيها وبعضها عارض، مثل: الفاء~ الكاف: حسيفة، حسيكة، حسافل، حساكل.

وحين توجد هذه التنوعات بوصفها اختيارات متبادلة في المعجم فإن ما نحصل عليه هو ارتباط تبادلي paradimatic ، إن حصلنا على شيء البتة. أما حين تظهر معًا بصفة تابعية syntagmatic فما نحصل عليه شيء قريب من الإتباع (انظر الفصل الرابع). ويبدو أن ابن السكيت يورد عددًا قليلاً من هذه الأمثلة في "باب إبدال من حروف مختلفة"، مثل: "نزعنا المريد والمديد".

ويعطي في باب آخر بعنوان "إضافة الميم في آخر الكلمة" وصفةً لتطويل الكلمات. فأنت تقول "رجلٌ فُسحُمٌ" للرجل الذي يوصف بالانفساح (الضخامة)، وتدعوه بـ "زُرقُمٌ" إذا كان أزرق العين، و"سُتْهُمٌ" إذا كان عظيم الاست (حيث أصبح الجذر الثنائي رباعيًا الآن)؛ و"شَدْقَمٌ" إذا كان واسع الشدق.

كما يورد توسيعًا للجذر بإلحاق النون: "رَعْشَنٌ" الذي يرتعش.

***

ونختم ببعض الأمثلة المتفرقة للجناس الناقص الذي لفت نظر بعض المؤلفين الآخرين. فقد كتب رتشارد بيرتون ملاحظة في تحقيقه لكتاب ألف ليلة وليلة بقول:

"فكلمة "نسخ" تعبر عن التغير من الأسفل إلى الأعلى، كالتحول من الوحش إلى الإنسان؛ أما "مسخ" فعلى العكس منها؛ و"رسخ" من الكائن الحي إلى الكائن غير الحي (من الإنسان إلى الحجر) وتعبر "فسخ" عن الخلل الخالص الناتج عن الفساد".

ويورد تشينيري (١٨٩٨:٥١٥) كلمة "نفح" للَسْعة الهواء البارد، و"لفح" لسعة الهواء الحار.

ويقول البيضاوي، كما ورد في كتاب دي ماسي (anath. Gramm. 21):

"إن الفعلين "أنفق" و"أنفذ" مترادفان. ولو أردنا استعراض كل الأفعال التي تبدأ بحرفي النون والفاء فسترى أنها تشترك جميعها في الدلالة على معنى "الذهاب" و"الخروج"".

Les deux verbs *anafqa* 'dépenser' et *anfaða* 'consommer' sont synonymes; et si vous voulez passer en revue tous les verbes qui commencent comme ces deux-ci par les lettres *n* et *f*، vous verrez que la signification de 's'en aller' et de 'sortir' leur est commune à tous.

ويقول في الكتاب نفسه (ص ٢٦):

"تدل الكلمة "مُفلح" سواء كتبناها بـ "حاء" أو بـ "جيم" على من يحصل على مبتغاه. وتشبه هاتان الكلمتان، وكذلك الكلمات التي تشترك معهما في الحرفين الأولين مثل "فلق" و"فلذ"، و"فلي" في الدلالة على معنى "القطيعة" والانفتاح"".

Les mot *muflih* ،soit qu'on l'ecrive par un *hâ* ou par un *jîm* ،signifie 'celui qui obtient l'object de ses désires'. . . Ces deux mots et tous seux qui leur ressemblent par la première et la seconde radicale, comme *flq*, *flð*،et *fly*، indiquent l'idée de 'rupture' et d'ouverture.

الفصل السادس

التراكم

سنستعرض في هذا الفصل قضيةَ ضخامة المعجم العربي، ثم نتفحّص الأثرَ الذي يمكن أن تتركه هذه الضخامة على الدلالة المعجمية وبنية الجُمل.

وكان الإحساس بغنى المعجم العربي إحدى النتائج العَرَضية لإطلالتنا على مفردات أعضاء البَدَن في الفصل الثالث. أما المدى الذي يصل إليه هذا الغنى فأمر يصعب تقديره. وربما كان الأجنبي على وجه الخصوص عرضةً للخطأ لاحتمال أن يُدهش بالمفردات الخاصة بالجَمَل من غير أن يخطر بباله أن هذه المصطلحات الكثيرة ربما تكون شبيهةً تقنيًا بالمصطلحات التقنية في الحضارة الغربية المعاصرة، أو يُشْده بالمترادفات التي تطلق على "الأسد" من غير أن يسمح باحتمال أن يكون سبب وجود هذه الكلمات كونها مفردات شِعْرية وربما نتيجة للغموض، وهو ما يُذكّر بما نجده في بعض الآداب الغربية[1].

ويختلف الباحثون في تقديرهم لهذا الغنى. فيتحدث شحنة (١٩٦٩: ص ٣٨)، مثلاً، عن "التطورات في هذه اللغة التي تتسم بقَدْر من البدائية والفقر"، مشيرًا إلى الفترات المبكرة من تاريخها. أما بيستون فيكتب، مركّزًا على اللغة العربية النموذجية المعاصرة:

> يُزعم أن العربية غنية بشكل غير معهود بالمترادفات، لكن من المشكوك فيه أن تكون استثناءً في هذا الوجه. ذلك أن أغلب ما يُزعم بأنه مترادفات هو مترادفات جزئية في أحسن الأحوال"، وهو ما يشبه حال الكلمتين الإنجليزيتين القديمتين: orb وeye[2].

ويمثّل هاملتون جِبْ أكثرَ المواقف النَّمَطية حين يتحدث عن: "تطور اللغة الغني جدًا في مجال الحياة المادية" عند البدو القدماء (١٩٦٣، ص ٤). "فلا يقتصر الأمر على وفرة المترادفات، بل يتعداه إلى أن أيَّ تنوعٍ من المظاهر الطبيعية، مهما صَغُر، وأيَّ نشاط منفرد، مهما كانت درجة تعقيده، يُعبَّر عنه بمصطلح ملائم خاص به". ولا أعتقد أنه يعني بالقول الأخير أن هذا المصطلح "غير غامض" فحسب (انظر التعليق رقم واحد على هذا الفصل)،

بل إنه "يصاغ من جذر مفرَد" أيضًا بدلاً من أن يأتي على شكل عبارة أو وَصف؛ وبهذا فهو "مهذب" well-profield. ثم يستمر قائلا:

> ويمكن ملاحظة هذه الظاهرة أيضًا، في لغات بعض الشعوب الأخرى التي تُشبه في طريقة حياتها البدوية وفي مستواها الثقافي حياةَ البدو في الجزيرة العربية ومستواهم الثقافي؛ لكن اللغة العربية فريدة في كونها نقلَت معجمَها الغني جدًا ليؤدي دورًا مُهمًّا في أدب أمة متطوِّرة جدا.

ولم يُدهِش هذا الغنى الغربيين وحدهم. فقد كتب هايوود J. Haywood (١٩٦٠) أن جُمّاع المعاجم العرب "كانوا مهووسين بسَعة هذه اللغة. . . . وَهُم بهذا يختلفون عن جُمّاع المعاجم الأوائل في الأمم الأخرى الذين قصروا جهودهم على تفسير الكلمات. . . النادرة".

وظل هذا الغنى المعجمي، من نَواحٍ عدَّة، خصيصةً واضحة في اللغة العربية النموذجية المعاصرة: "فكثرة المترادفات ظاهرة تلفت النظر في كل المواضع وكل الفترات"، كما يقول مونتيه ١٩٦٠، ص ٢٠٥).

"Partout et toujours on est frappé par l'abondance des synonymes."
(Monteil 1960:205)

وهناك بعض العوامل الاجتماعية والتاريخية التي أسهمت في هذا الغنى المعجمي. فقد كان الشِّعرُ ديوانَ العرب على مر العصور، وكان فقه اللغة علمَهم الرئيس. كما أن الصنعة الشعرية، التي تعشق الإغراق في البحث عن الانحرافات اللغوية الجديدة واعتمادها المبالغ فيه في بعض الأحيان على الكلمات النادرة من أجل الوفاء بمتطلبات الوزن، دخلت النثرَ أيضا، منذ الصدر الأول للإسلام إلى فترات المنظومات التعليمية والكتب الفقهية التي ازدهرت في أواخر العصور الوسطى. ويمكن أن يصحَب هذا بعضُ الحَذَرِ السِّحري الناشئ عن سِحْر الكلمة. فيروي آدم متز (Adam Mez (1922:240)) ردَّ فعْل أحد الرحالة في القرن الحادي عشر نحو أبي العلاء المعري، إذ:

يُطري هذا الرحالة بشكل خاص كتابَ أبي العلاء المعري الذي يصفه بأنه فصيح، وقد صاغ عباراته بشكل رائع جدا، لدرجة أننا لا نفهم إلا القليل منه، ونحتاج كي نفهمه إلى أن نقرأ شَرحه. وهذا ما كان يطلق عليه آنذاك النثر الراقي المثالي.

Besonders rühmt der Reisende eine Schrift des Abuleala al-Maearri, 'in die er so beredte (fasîh) und wunderbare Ausdrücke niedergelegt hat, dass man nur einen Teil davon verstehen kann und dabei ihm selber die Erklärung hören muss'. Das was damals das Ideal eleganter Prosa.

وربما تحسُن المقارنةُ هنا بالطُّرفة التي رواها الغزالي وأوردها شحنة (١٩٦٩، ص١٢):

قال الإمام أحمد بن حنبل (توفي سنة ٨٥٥م): "رأيت الله في المنام فسألته، يارب: ما أفضل طريقة للتقرُّب منك؟ فقال: يا أحمد: كلمتي، فقلت: مع فهمها أو مع عدم فهمها؟ فقال: مع فهمها أو عدم فهمها.

كما يجب أن نورد الوصف المؤذي التالي مع عدم إقرارنا له بالضرورة. فقد كتب بلاشير (Blachère (1952/1964:367 مشيرًا إلى رينان:

إن كثرة المترادفات سمة استرعت انتباه الناس جميعا. فليست هذه المفردات في أصلها مصادر بل نعوتًا تدل على خاصية بارزة في الشخص أو الشيء المتحدَّث عنه؛ ويمكننا في هذه المرحلة أن نقول بشأن اللغة العربية المشتركة ما قيل عن اللغة البربرية: "فالمفردات الدالة على أشياء محسوسة كثيرة جدا لأن المتكلمين، لكونهم غير قادرين على التعميم، لا يستخدمون كلمة واحدة للدلالة على شيء واحد، بل لديهم في الغالب عدد من الكلمات يختلف باختلاف الهيئات التي يمكن لذلك الشيء أن يتخذها". كما أن الأمر في الغالب، خصوصا في الأفعال ومشتقاتها، يتعلق ببدائل تعود إلى أصول لهجية أو اختلافات نطقية. وإن دراسةً للحقول الدلالية من شأنها أن تساعد على وضع قائمة بالمفردات "الغالبة"؛ فالبدوي قبل

كل شيء يعمل بذاكرة بَصَرية والشاعر صورة طبق الأصل منه: لذلك تكثر في العربية المشتركة تلك المفردات الدالة على طبيعة . . . .

Le pullulement des synonymes est un trait qui a frappé tout le monde. Ces vocables ne sont pas à l'origine de substantifs mais des épithètes désignant une particularité prégnante de l'être ou de l'objet évoqué; à ce stade, on peut dire de la koïnè arabe ce que l'on a écrit pour le berbère: "Les mots concrets sont innombrables justement parce que le peuple qui parle, étant très inhabile à généraliser, possède souvent pour chaque objet, non pas un mot mais autant de mots que cet objet peut prendre d'aspects différents." Bien souvent aussi, notamment dans les verbes et leurs dérivés, il s'agit de "doublets" d'origine dialectale ou articulatoire. Une étude sémantique des zones conceptuelles permettrait de dresser une liste des "dominantes"; le bédouin est avant tout un visuel et le poète est à son image; d'où l'abondance de termes qui, dans la koïnè, précisent la nature. . .

وربما كانت العوامل التاريخية أهمَّ المؤثرات في مفردات العربية، وهو ما أدى إلى: "غزارة معجمٍ تتراكم فيه المفردات الخاصة الدالة على الأماكن والأزمنة".

"la surabondance d'une lexique où se cumulent les vocabulaires particuliers des lieux et des époques" (M. Cohen, in Meillet/Cohen 1952: 132).

ذلك أن المفردات التي نجدها في الأدب ليست ببساطة أثرًا لبعض اللهجات المحلية البدائية، التي تمثّل شريحةً معاصرة حقيقية من تطور اللغة. كما أنها ليست ناتجًا لتوسُّع مقصود في فترة معينة، كما نجد ذلك عند الكاتب الفرنسي Rabelais ، أو في المفردات العلمية في الإنجليزية المعاصرة (وهي التي، وإن كانت نتيجة للتوسع التراكمي، تنفُر من الترادف، وتَعمل على توكيد تزامنيَّتها عن طريق إزاحتها الفعلية للكلمات القديمة المترادفة معها من اللغة، نحو: muriatic acid أو fluxions). أما المفردات في العربية، بدلاً عن ذلك، فنتيجة للتراكم الذي جاء من أزمنة وأمكنة مختلفة. وليس هذا غريبًا في لغة أدبية؛ لكنه ليس أمرًا لازمًا أيضا ـ وذلك أن تلاحظ مثلاً تخلُّص الفرنسية في القرن السابع عشر من كثير من

الكلمات القديمة، بعد الصحوة التي تلت عصر النهضة. فإذا وُصف المعجمُ العربيُّ بأنه فيل فلأنه لا يَنسى أبدا[٣].

ويقول المستشرق اليهودي المعاصر جاشوا بلاو مستشهدًا بابن حاييم عن الوضع المشابه في العبرية المعاصرة (١٩٨١، ص٢٨):

> إن أكثر ما يميز العبرية المعاصرة ليس ما صاغته الأجيالُ المتعاقبة بل هو أن أية كلمة تصاغ لا يمكن أن تكون عرضةً للاختفاء (وأنا لا أزعم أن هذه ميزة لها). وبما أنه لا شيء يمكن أن يصير مهمَلاً فيها . . . تحوي العبرية عددًا كبيرًا من الطبقات في المفردات والتركيب، . . . بل في الصرف أيضا. . . . " ويمكن القول بأن أغلب ما يزعمه ابن حاييم عن العبرية يصحُّ عن العربية النموذجية المعاصرة كذلك.

بل إن العربية أكثر تطرفًا من حيث الكَمّ، كما توضِّح ذلك المادةُ اللغوية التي أوردها بلاو. ويلاحظ بلاو (ص٩٥) أيضًا، في نقاشه الكيفية التي تعبِّر بها العربيةُ المعاصرة عن "تعويم العُمْلة" وما شابه ذلك "أن العربية الغنية بالمترادفات تستعمل ثلاث كلمات مختلفة للتعبير عن [العملة] وهي: (الدينار، والنقد، والعملة)، في حين تكتفي العبرية بكلمة واحدة هي matêac"[٤].

وسوف يُبيِّن مثالٌ واحد معنى النسيج المعجمي. ففي الإنجليزية، وهي لغة غنية بالمفردات أيضا، تمثِّل كلماتُ: hotel, hostel, hospital ثلاثَ فترات زمنية للجذر نفسه عبر تطوره، وقد استطاعت هذه الكلمات الثلاث أن تحافظ على استعمالها المعاصر عن طريق التمييز بينها من حيث الصوت والدلالة؛ وهذا ما جعل اللغة أغنى وأكثر تماسكا. في مقابل ذلك ليس لكلمة lazaret مكانٌ في اللغة المعاصرة، سواء أكان ذلك بوصفها مرادِفًا لـ hospital أو بمعناها الخاص الذي يعني مكانًا "للمرضى المصابين بالجذام". أما كونُها كلمةً من كلمات الإنجليزية كما تُنطَق وتكتب الآن فيَعتمِد على من تكون أنت. فالمتكلم الأمريكي الذي تنقُصه الخبرة اللغوية يمكن أن يُنكِر أنها كلمةٌ إنجليزية، وهو ما يشبه أنْ قبعةً

من نوع خاص تسمى byrnie ليست جزءًا من اللباس الإنجليزي المعاصر. ومن المحتمل أنك لن تقول [في الإنجليزية]:

"Betsy broke her finger and I had to take her to the lazaret"

"كسرتْ بيتسي أصبعها وهو ما أوجب علي أن آخذها إلى المارستان"

لكن يمكنك إن كنت تتمتع بذكاء خاص أن تقول: "نعم إن هذه الكلمة ليست مستعملة في الإنجليزية؛ وربما كانت كلمة مهجورة، لكنها تشبه كون كلمة flophouse 'فندق رخيص' مبتذلة وكلمة rotor 'الدُّوار' تقنيّة، ومع ذلك لا يمنع هذا من انتسابها إلى الإنجليزية.

والكلمة المستعملة في العربية النموذجية المعاصرة للمستشفى هي 'مستشفى'، وقد صيغت من جذر عربي يعني "الشِّفاء". ويبدو أن هذه الصيغة ليست قديمة؛ فلم يورد إدوارد لين في هذا المعنى من هذا الجذر إلا كلمة 'دار الشفاء'. ويمكن أن تكون الكلمتان 'مارستان/ بيمارستان" المشتقّتان من الفارسية أساسًا بمعنى lazaret، على حد علمي، لكنهما من وجهة نظر العربية لا تزالان كلمتين عربيتين. إذ كان لهما دورهما في القديم لكنهما الآن تتمتعان بنوع من التقاعد.

لهذا يُعَد انتساب كلمة ما إلى اللغة مسألةً اجتماعية بقدر ما هو مسألة نَصِّية. فالكلمة في الفرنسية لا تعود إلى الحياة إذا أماتها المجمع اللغوي الفرنسي. أما في العربية فالكلمة التي لم تُستعمل منذ أن كان أجداد المجمعيين الفرنسيين يتلفعون بجلود الدببة لا تزال حية بين دفتي المعجم، فهي مثل كامبلوس يمكن أن تُستدعى من القبر[٥].

وفي انتظار مثل هذا البحث سيكون الاعتماد على الظروف التي يمكن أن يُشعَر فيها بأن كلمة ما إما كنزٌ مدفون أو جيفة ميتة ـ ولقد قرأنا توًا تذمُّرَ ابن حاييم فيما يخص العبرية. أما الذي لا يرى أن كلمة lazaret غريبة عليه لأنه يمكن أن يسمع فيها صدى Lazearus (وربما مدينة الناصرة Nazarth) فسيَنظُر إليها على أنها كلمة عميقة ملأى بشذا الاستعارات (انظر الاستشهادات الواردة في معجم أكسفورد للغة الإنجليزية OED). أما الذي يعثُر عليها ضمن قائمةٍ من المفردات وهو يستعد لامتحان القبول في الجامعة فسينظُر إليها على أنها كلمة ميتة "وبديل لا حاجة إليه").

كذلك لا يحتاج الإنسان لأن يكون طالبًا منهكًا ليستنكر مقولة أن الأكبر هو الأفضل فيما يخص المعجم. فقد كتب تشارلز بالي[٦]:

> إن في اللغة الألمانية عددًا من المفردات يزيد كثيرًا عن حاجتها. والأخطر من ذلك أنها تزخر بالقوالب النحوية المتنافسة؛ ومن هنا جاءت تلك الحرية الكبرى التي يحظى بها الفرد في استخدامه للغة. وإذا كان كثيرون يرون في ذلك ميزة (يهنئون أنفسهم عليها)، فهي تمثل عقبة في الواقع؛ إذ إن تعدد الإمكانات اللغوية المسموح بها لا يساعد مطلقًا على سرعة التواصل؛ فكل تنوع يفترض اختيارا، والقيام بجهد غير ضروري. . . تبعًا لذلك.

L'allemand a beaucoup plus de mots qu'il ne lui en faut, et, chose plus grave, il regorge de formes grammaticales concurrentes; de là une grande liberté dans l'usage individiuel de la langue. Beaucoup s'en félicitent; en réalité c'est une entrave; les tolérances linguistiques ne favoirsent nullement la rapidité des échanges; toute diversité suppose un choix à faire, c'est à dire un effort inutile. . .

بل حتى الذي يستمتع باستقرار الدلالة التاريخية يمكن أن يثور على التلوث الذي ينشأ عن صَبّ المفردات المحلية بشكل متزامن في البِرْكة العامة للعربية. ويتحسر ستيتكيفيتش على هذا التراكم قائلا:

> تعاني العربية المعاصرة من الكثرة المُفرطة في الكلمات المترادفة بشكل يماثل معاناتها من النقص في الكلمات الجديدة. ويمكن أن ينشأ عن الجهود التي تفتقر للتنسيق عند الأفراد والمجامع اللغوية تراكمُ كثيرٍ من المترادفات التي ربما يصبح من الصعب التحكم بها بعد ذلك، بمجموعها، هذا إذا لم تكن عديمة الفائدة أصلاً في اللغة التي تقصد إلى الدقة في المصطلحات. وأحسن مثال على هذا تعدُّدُ المترادفات التي تُطلق على المصطلح التقني brake 'كابح'. وقد عدَّ مصطفى الشهابي إحدى عشرة كلمة في الأقل مما اقترح لتسمية هذه القطعة. . .[٧]

ويتجاوز الشعور بالضَّجر مداه حين تبقى فيه كثير من الأشياء من غير تسمية[٨]. ويقول مونتيه في هذا الصدد:

إن كثرة المترادفات أبعد ما تكون عن الثراء الحقيقي. . . فما ينقص هذا المعجم المصاب بالاستسقاء، للدلالة على الأشياء المستحدثة، هو تلك الآلاف من الكلمات التي أدخلتها الضرورةُ شيئًا فشيئًا إلى اللهجات العربية؛ وهو ما جعل هذه اللهجات أكثر ثراء في الواقع، أو أيسر في الاستعمال من اللغة الأصل التي هي متفرعة عنها، بالإضافة إلى أنها غير مثقلة في الوقت نفسه بذلك الكم الهائل من المترادفات التي لا حاجة لها بها.

L'abondance des synonymes classiques est loin d'être une vraie richesse. . . Il manque, à ce vocabulaire hydropique, pour designer les choses modernes, des milliers de mots que la nésessité a introduits peu à peu dans les dialectes arabes; ces derniers sont donc, en réalité, plus riches et plus utilisables que leur langue-mère, tout en étant allégés de ce bagage énorme de synonymes don't ils n'ont que faire. (Monteil 1960:73).

***

ومع التسليم بأن *العربية* كانت تمتلك في عصورها الذهبية رصيدًا غنيًا من المفردات، فإن السؤال هو ما السند الدلالي الذي تقوم عليه هذه الثروة؟

وينبغي أولاً ملاحظةُ أنّ بعض هذه الثروة كانت ذهبًا مزيّفًا منذ البداية. فقد كتب فيرنر J. Verner ما يلي عن مدرستي البصرة والكوفة المتنافستين:

لقد بنى المدَّعيان ما توصلا إليه من ملاحظات على دراسة اللغة التي يستخدمها البدو. وفي سبيل ذلك أجريا عمليات المسح التي استغرقت فترات طويلة في هجير الصحراء. لكن قيمة هذه البحوث تتلاشى؛ إذ يرى بعض الباحثين ضرورة تعويض كل كلمة جديدة، أسوة بأعمال النحت.

Ambas pretendian basar sus obsrvaciónes en el estudio de la lengua hablada por los beduinos y para ello novacilaban en pasar largas temporadas realizando encuestas en pleno desierto. El valor de éstas nos escapa, ya que algunos investigadores ofrecían pagar un tanto alzado por cada neuva palabra que se les facilitara, con lo cual cabe suponer que la

inventiva de los sujetos poco escrupulosos debía de correr paralela con la recompensa.(1968:96)

وإذا طرَحْنا هذه المادة فسيظل هناك رصيد معجميّ كبير، يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالنشاط الشعري الواسع الكثيف في العربية. وقد أشار هيرمان بول Hermann Paul إلى وضع مشابه لهذا في الألمانية:

> يمكن الإثبات بسهولة، عن طريق اللغة الشعرية لدى أي شعب أو فترة زمنية معينة كلا على حدة، كيف أن رفاهية ذلك الشعب (أو رفاهية تلك الفترة) ترتبط ارتباطًا قويًا بالتقنيات الشعرية السائدة. وتزداد سهولة ذلك الإثبات في اللغة الجرمانية القديمة التي يكرِّر الصوت الواحد في بدايات الكلمات في نظامها الشعري، مما ينتج عنه غنى متميز في المترادفات الدالة على المفاهيم السائدة، كالرجل والمرأة والطفل والسيد والمرؤوس والصراع والحصان.

Es lässt sich leicht an der poetischen Sprache eines jeden Volkes und Zeitalters im einzelnen der Nachweis führen, wie ihr Luxus im engsten Zusammenhange mit der geltenden poetischen Technik steht, am leichtesten vielleicht an der Sprache der altgermanischen alliterierenden Dichtungen, die sich durch einen besonderen Reichtum an Synonymen für die geläufigsten Begriffe auszeichnet, z.B. für Mann, Weib, Kind, Herr, Untergebener, Kampf, Pferd, Schwert. (1920: 252).

ويجب علينا الآن أن نوضِّح بعضَ الفروق بين العلاقات التي يَشملها مصطلحُ "الترادف" غير الواهي. فمن الواضح للعارفين أن الكلمات الفرعية مثل barrow, gilt, shoat "خنزير مخصي"، "خنزيرة صغيرة"، "خنزير في سنته الأولى" المتعلقة بتربية الخنازير، أو regular space, normal space "الفضاء المطرد"، "الفضاء المألوف" في علم المساحة، تتمايز بنيويًا بقدر تمايز fox "ثعلب" عن wolf "ذئب"، مع أنها يمكن عمومًا أن تنصَهر كلُّها في نوع واحد غامض من الترادف. ويبدو أن هذا على وجه العموم ما تتصف به المصطلحات التي تتصل بالجَمَل كما يَستعملها البدو. بل إن النعوت الشعرية نفسها يفضَّل أن تكون متمايزة، مثلما تعيِّن كلماتُ: Dobbin, Bossy, Fido "برذون"، "عِجْل"، "كلب"، ما تُشير إليه كلُّ

واحدة منها مُستخدِمةً المظاهرَ التي تتسم بها في حياتها المُستأنسة، أو كما تعيِّن كلمتا Phosphorou, Hesperus "كوكبَ الزهرة" في المكانين المختلفين اللذين تظهَر فيهما في السماء بحسب الوقت. ومن الخصائص التي تمتازُ بها العربية القديمة أنها تحتفظ بهذه الكلمات التي يختلف بعضها عن بعض جزئيًا من حيث النحو و/أو الدلالة مثلما أن الفرنسية المتأخرة تلفظُها بعيدا - إذ إنها بعد أن أدخلتْ كلمةَ Reynard "ثعلب" في الأدب تخلصت من الكلمة العامة القديمة goupil.

لكن يحتمل أن توجد المترادفات في رصيدٍ غير مترابط من الكلمات، حيث تكون إسهاماتُها التمييزية ماديةً وحسب. ويبدو أن هذه هي الحال فيما يتعلق بالمترادفات المزعجة لكلمة "أسد" في العربية. فلقد اختفى الأسد من جزيرة العرب في العصور التي قيلت فيها القصائد التي رويت لنا، لذلك يمكن أن يكون حديثُ الشعراء عن الأسد شبيهًا بالأساطير التي تتعلق بوحيد القرن الخرافي. يضاف إلى ذلك أن الإشارات إلى أسد مخصوص كانت نادرة جدًّا إن وُجدت أصلا. وتقتصر الحالات التي يُذكَر فيها الأسد عادة على تشبيه الشجاع به.

وقد أشارت باربرا سترانج Barbara Strang (1970:240) إلى هشاشة مثل هذه المترادفات أو الشبيهة بالمترادفات في الشعر الإنجليزي القديم:

> "إن هذا الاستعمال التفصيلي للكلمات، إن صح لنا قول ذلك، وغير النافع، والذي لم يكن يُستعمَل في الكلام اليومي، لا يمكن أن يبقى حيًّا إلا في مجتمع مترابط، ويتسم بتقاليد مستمرة تتميز بحب الشعر الذي يَستعمِل كلمات خاصة.

ويمثِّل الخروجُ عن هذا الاستمرار والنشاط ما يكاد يكون مذبحة للقداسة الدلالية. ويتذكر نورمان بليك مثل هذه الندرة في "التناص" في أوروبا، فيكتب:

> إن غياب التقليد الأدبي كما نفهمه يمثِّل أهميةً كبرى في فهم معنى الكلمات واستعمالها في العصور الوسطى. فقد كان كلُّ عمل أدبي يُنتَج معزولاً عن غيره وهو ما يجعل الكلمات تأتي خلوًا من تلك الارتباطات الدلالية التي تكتسبها الكلمةُ عبر استعمالها في النصوص الأقدم [٩].

ويجب أن نلحظ أن الوضع في النشاط الأدبي العربي عبر العصور المتطاولة مختلف تماما: فقد تميز هذا الأدب بالتفاعل والمحافظة المعجمية، حتى بعد مرور فترات طويلة على خروجه من موطنه الأصلي في الجزيرة العربية[١٠]. فقد دأب العلماء، باستمرار، على استشهاد بعضهم ببعض، وسرقة بعضهم بعضا، والرد على بعضهم بعضا أو تخطئة بعضهم بعضا، وكانوا يعترضون في خلال ذلك على استعمال هذه الكلمة أو تلك الاستعارة. ولم يكن الشاعر هامشيًا في المجتمع او معزولاً في ركن قصيّ. فقد كان يمكنه أداء دور فاعل في الحرب، أو يكون هجّاءً طاغية. ومن المحتمل جدًا أن يَرتجل الشاعرُ المتسلط نفسُه، من بغداد إلى قرطبة، قصيدةً عن شميم العَرار، في الوقت الذي يُساقي جلساءه الخمرَ في جماجم الأعداء الذين قُتلوا في صباح ذلك اليوم نفسه. وسوف يُطلِق أنصافُ الشعراء اليوم الذين يُلقون قصائدَهم القصيرة التي تشبه قصاصات إعلان الانتحار، تنهُّداتهم العميقة ويسفحون الدمع حين يعرفون شيئًا عن القوة والمقام الرفيع اللذين كان يتمتع بهما الشعراء في تلك الفترة.

***

وإذا عدنا الآن إلى نسيج الجملة فأهم ما يَلفِت النظرَ هنا الطريقةُ التي يمكن للغزارة التبادلية paradigmatic abundance - أي الوفرة في المفردات - أن تَفضُل بها الغزارةَ التتابعية syntagmatic abundance - أي التكرار الترادفي والوسيلة البلاغية التي تسمى "المتجانسات" congeries.

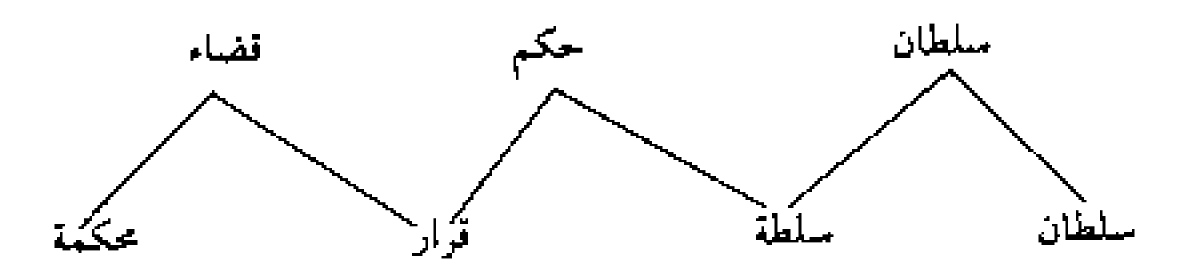
ويذكر بيستون ما يوصف في بعض الأحيان بأنه الجانب الآخر للغزارة المعجمية المفرطة، أي عدم الدقة الدلالية (١٩٧٠، ص ١١٢):

> يمكن للمَوْشور الدلالي لكثير من العناصر المعجمية في العربية على امتداد تاريخها أن يبدو للأوروبيين كأنه مشتّت من غير داع. وهذا الشعور خاطئ عمومًا وقد تولّد عن صعوبة نظر الإنسان بموضوعية إلى لغته هو، وعن كون المقولات

التصوُّرية في العربية تختلف اختلافًا واسعًا عن التصورات المألوفة عند الأوروبيين.

ثم يقارن بين التعدد الهائل لمعاني الكلمة الإنجليزية high 'عالٍ'. ويقوم بعد ذلك برسم الصلة التبادلية / التتابعية:

أما الأمر غير المعهود في العربية فهو المدى الذي يمكن أن تصل إليه معارضةُ هذه الظاهرة عن طريق الوسيلة البلاغية المسماة بـ hendiadis "التفريق التفصيلي": وهي التي تعني استعمالَ كلمتين بموشورين دلاليين مختلفين لكنهما متداخلان من أجل تعيين منطقة التداخل. وكمثال على ذلك في مستوى بسيط:



فمن أجل التعبير عن مفهوم "السُّلطة" authority يمكن لكاتب عربي في الغالب أن يَستعمِل "حكم وسلطان"، ومن أجل التعبير عن "قرار" decision يمكن أن يستعمل 'حكم وقضاء" (المرجع نفسه). ويورد مونتيه عددًا من الأمثلة لهذه (١٩٦٠، ص ٢٨٥)، نحو: "القضاء والقدر"، وهو بهذا يوسِّع عَرَضًا السلسلةَ التي يراها بيستون.

وتعاني مصطلحات بيستون هنا شيئًا من العِلل التي تُنسَب إلى العربية، ذلك أن مصطلح hendiadis (والأشكال الأخرى لهذه الكلمة) يشير أيضًا، بل في الأغلب، إلى الإجراءات التي لا صلة لها بالترادف (وهي التي لا تدخل في الخصائص التي تتسم بها العربية: انظر الفصل الرابع). وربما أمكن للمرء أن يَستعمِل الإجراءَ نفسه، ولنسمِّه 'التفريق التفصيلي والحشو' hendiadys and pleonasm ، لكنْ هناك مصطلحًا أكثر تحديدًا يُطلَق على هذا الإجراء، هو "التراكم" accumulatio (انظر: R. Lanham, Handlist of Rhetorical Terms, Berkely 1968). لهذا فعنوان هذا الفصل ليس إلا نوعًا من

التلعُّب، لكنه يتميز بالانضباط، إذ لا يبدو أن الصلة بين التراكم التبادلي والتتابعي عشوائية).

وذلك ما يُشبه أن تُعيِّن الإنجليزية، لو لم يكن فيها كلمةٌ تعني difficult "صعب"، صراحةً، هذا المعنى بعبارة hard and rough 'قاسٍ وخَشِن'، أو تلْجأ، حين لا توجد فيها كلمة bizarre "غريب"، إلى التعبير عن معناها بعبارة singular and odd 'مُفرَد وغريب'. لكن هذا المظهر لا يَتحدَّد دائمًا تحديدًا صارمًا، ذلك أن عبارة hard and rough يمكن أن تعني حَجَر الجرانيت، لا مشكلةً محيِّرة، كما يمكن لعبارة singular and odd أن تعبِّر عن الرقم واحد[11].

والواقع أن هناك غموضًا يكتنف السببَ الذي يجعل الثروة من 'المترادفات الدقيقة' (أي الكلمات الشبيهة بالمترادفات التي تتضمن ظلالاً دقيقة من المعنى) تؤدي إلى التراكم accumulatio . إذ يمكن ببساطة أن نتوقع العكس: أي أن اللغة التي تتوفر فيها 'عبارات صحيحة" mots justes ليست بحاجة إلى تُراكِم النُّعوت؛ فكلمةٌ واحدة تكفي. وإذا كان هذا الرُّكام من الكلمات من فائدة فهي إيحاؤه بأن الفوارق الدقيقة لم تصبح نموذجية بَعْد، وأنَّ أشباه المترادفات التي يُميَّز بينها تميزًا لطيفًا إنما تُستعمل من أجل الإبقاء عليها مستعمَلةً حتى لا تَبلى، وذلك بانتظار أن يأتي في المستقبل بعضُ المتكلمين الذين تتوفر لهم سياقاتٌ اغنى واحداثٌ أبرز حيث يمكن لهم أن يختاروا هذه الكلمة أو تلك ليستعملوها في استعمال خاص أكثرَ براعة. لهذا فكلمة mortify 'يُميت' في الإنجليزية ليست الآن مرادفًا (عديم الفائدة) لكلمة kill "يقتُل"، بل هي كلمة خاصة دقيقة تستثير مَشهدًا بأكمَلِه من العاطفة المكبوتة، وتعني schadenfreude 'شماتة' embarrass mortally "تورط تورطًا مميتًا"، حيث يمكن أن تجعل المرء يشعر بأن الموت أكثر حلاوة من هذه الورطة embarrassment ؛ بل إن صيغة المبني للمفعول منها توحي بأن المتكلم قد تذوق شيئًا من تلك الحلاوة، حتى كأنه في خَدَر.

وليست هذه الفرضية، وإن كانت لا تزيد عن كونها تخمينية، إلا الجانب المتوقَّع للظاهرة التي يتَّصف مظهرُها الاسترداديُّ بأنه أكثر أُلفَة: ويتمثل هذا المظهر في الحنين (خصوصًا في العربية حيث تتصل كثير من الذكريات بالاستعمال القرآني، وكذلك في

الإنجليزية مع إنجيل الملك جيمس) أو المحافظةِ المخلصة على إبقاء هذه الكلمات متداوَلة بسبب ماضيها المجيد أو لِما لها من خصائص راسخة يُتلذَّذ بتذكرها. ولا يقتصر الأمر في هذه الحال على إمكان خروج كلمات معينة وحسب من الاستعمال السائد، بل يمكن أيضًا أن تكون العادات السائدة بأكملها عرضةً للاختفاء تدريجيًا من الاستعمال: فنجد في أمريكا القرن العشرين، مثلاً، وبسبب التفاخر بقيمة التغيُّر والتنوع الاجتماعي والرفض المسبَق للماضي الوثني والتباعد عن المسيحية البسيطة، أنه لم يعد هناك إلا أسباب محدودة للدعوة إلى الحفاظ على بعض الكلمات الهامشية مثل: fane, rood, bede, Yule 'عيد الميلاد، صليب، مذبح'؛ ولقد تطلَّب الأمرُ ظهورَ موجة المناداة بالعودة إلى عبادة الطبيعة عند جماعة Kibbo Kift فيما بين الحربين لإعادة الحياة إلى بعض الكلمات النمَطية الجديدة مثل folkmoot 'مجلس الشعب'. وربما يعود الإبقاء على مثل هذه الكلمات المهجورة حيةً أحيانًا إلى بعض الأسباب الخاصة. فتُستعمل كلمة Palimpsest 'الرَّقّ' أحيانًا بما يزيد مائة مرة عن نسبة حاجتنا إلى معناها الكثيف (بل أكثر من استعمال كلمة anopisthograph "الكتابة على جانب واحد من الورقة' التي نُواجهُها كثيرًا في الوقت الحاضر): وأعني أنها تُستعمَل عند المتلعِّبين باللغة لا عند المهتمين بالمخطوطات. وسبب ذلك أن كثيرًا من المتكلمين سيُدهَشون لمجرد وجود كلمة للتعبير عن هذا الشيء (قارن بموضة pentimento 'أثر اللون السابق في لوحة حين يغطيه لون آخر ويمكن أن يظهر ذلك الأثر على الرغم من اللون الذي أضيف فيما بعد')، وتوحي صيغتُها زيادة على ذلك بأنها كلمة مأخوذة من أعمال الروائي لويس كارول [مؤلف مغامرات أليس، المشهور بنحت الكلمات الجديدة التي ليس لها معنى]، بالإضافة إلى أن غموض ما تعنيه سيَضمن أنه سيُنظَر إليها على أنها كلمة ثمينة جدًا وسببٌ للإعجاب بمَن يَستعملها في الحفلات العامة، حتى إن كان كثير من الناس يعرفونها (وإن بصورة غامضة) لأنهم قرأوها في مجلة تايم، في حين أن كلمة fane "هيكل' التي يعرفها عدد أقل من الناس، فيما أظن، ستكون سببًا في انقطاع المحادثة بين من يستعملها والآخرين. أما في العربية فقد صارت لعبة الكلمات الثمينة مُقنَّنة: ذلك أنه يبدو أن قصائد كثيرة صيغت لمجرد استعمال الكلمات النادرة، وهو ما يمثل الاستعمال الوحيد لها أو استعمالها لغرض إيرادها فقط. (وقد وصم بلاشير في كتابه Histoire de literature

arabe كثيرًا من القصائد، بل عددًا من الدواوين، بأنها "[عبارة او لفظة] توحي بشكل قاطع بطابعها المعجمي" d'inspiration nettement lexicologique). ومن أكثر القصص دلالةً تلك القصةُ التي تروى عن خدعة ابن سيناء لأبي منصور الأزهري (Gohlman 1974:70f) بقصيدة مصنوعة. ومن الجدير بالملاحظة أن الضحية الذي كان أكثر شهرةً في الدراسة اللغوية من ابن سيناء لم يفطن إلى أن هذه القصائد العظيمة كانت منتحلة.

وقد اقترح [الكاتب الأمريكي] إمبسون Empson شيئًا شبيهًا عن قول شكسبير:

the book and volume of my brain. the heat and flame of thy distemper, the flash and outbreak of a fiery mind, the pales and forts of reason. the natural gates and alleys of the body.

الخ (١٩٣٠، ص٩٤). إذ قال:

> في هذه الحالات العشوائية يمكن أن تؤدي أيٌ من الكلمتين المعنى بمفردها. ويُبين هذا عن تفاخرٍ بامتلاك اللغة يُشبه ذلك التفاخرَ الذي يُبديه الناسُ حين يتحدثون إلى متخصص في موضوع لا يعرفون عنه إلا قليلا؛ إذ تراهم يسارعون إلى استعمال كل المصطلحات المتخصصة التي يستطيعون تذكرها.

و:

> والدافع لمثل هذا ليس إلا ذلك الشكل من الرُضا الزائف، ويعود ذلك جزئيًا إلى كونه يُرضي اهتمامَ المعجم بالكلمات التي كانت تُستعمَل بكثرة في عصر الياصابات.

ومع انه يمكن للتراكم أن ينشأ من توفُر الكلمات الشبيهة بالمترادفات التي تتسم بالتحديد اللطيف لمعانيها أو من الرغبة في تضييق ما تشير إليه عن طريق إلغاء بعض المعاني غير الأساسية لها، إلا أن *النتيجة* ربما تؤدي إلى إزالة تلك التمايزات الدقيقة التي لم تستقر بعدُ في عقل القارئ. ومن هنا صارت كلمة kith مرادفًا عديم الفائدة لكلمة kin 'قريب من حيث النَّسَب' عن طريق التلازم اللفظي.

والكيفية التي صرنا نُعرف بها أو نظُن أننا صرنا نعرف بها التمايزات اللطيفة بين الكلمات مسألةٌ محيِّرة ومهمة. وقد كنت أسجل الشواهد من العربية في دائرة المعنى العام

im Sinnbezirk des Verstandes حين أمرُّ بها، وهذه منطقة دلالية قيل عنها الكثير، لكنني كنت أقع ضحية للإحباط نتيجة لسياقات مثل السياق التالي. فَقَد وضعَ الملكُ في قصة ألف ليلة وليلة (McNaughten I 43) خطةً ما، ثم دعا وزيرَه للمثول بين يديه: "ثم دعا بالوزير، وكان وزيرًا خبيرًا عالمًا لبيبًا عالمًا بالأمور". ومن الواضح أن الوزير في هذا النص لم يَضَع الخِطة، كما أنه لا يبدو من القصة أنه عمل شيئًا كبيرًا فيما بعد، لذلك لا يزيد ما بقي بين أيدينا عن كونه كومة من الكلمات التي توحي بالتكرار.

وحتى المحاولات التي يُقصَد بها التمييزُ بوضوح بين معاني الكلمات سوف تكون عرضةً للخطأ إذ كانت مجرد افتراضات غير مدعومة بسياق دقيق. فتُصوِّر مقدمةُ علي بن الشاه الفارسي لكتاب كليلة ودمنة (Bombay ed., p. 24) بيدبا يقول للملك إن أربعةَ أمورٍ هي ما يُميِّز بني الإنسان عن المخلوقات الأخرى، أما الصفات الأخرى فليست إلا أشكالاً لهذه الصفات الأربع، وتلك الصفات: ". . . هي الحكمة والعفة والعقل والعدل".

ويبدو هذا التقسيم كأنه هِبَة نظرية حقيقية، إذ قَسَّم مجالَ العقل كلَّه بشكل جميل إلى متقابلات أساسية يضاف إليها الاسم الجامع الذي تُصنَّف تحته hyponyms ، لكنه يَصعُب في الواقع معرفةَ ما الذي يُمكن أن نستنتجه من هذا الوصف التصنيفي. فيقال لنا إن "الحكمة" تتألف من "العلم والأدب والرُّوِيَّة"، في حين يَنقَسم "العقل" إلى "الحلم، والصبر، والوقار" ـ وهذه صفات جليلة لكنها ليست أولَ ما يَخطُر بالبال من المعاني إذا تكلمنا عن الـ intelligence "الذكاء".

وقد أسدى بيستون خدمةً جليلة في اقتراحه أنَّ كثرةَ أشباه المترادفات غير المستقرَّة ليست خاصة بالعربية؛ وأودُّ أن أذهب إلى أبعد من ذلك فأتساءل عن: (أ) إن كان التراكم accumulatio نفسُه مما يُميِّز العربيةَ على وجه الخصوص من بين اللغات الأخرى، أم (ب) أن الوظيفة الرئيسة للتراكم في العربية أو في غيرها ليست إلا إزالة الغموض وحسب.

١ـ ولقد رأينا توًّا النُّزوعَ نحو التراكم في بعض المصادر الإنجليزية: وهو كما في العربية أمر من أمور الموضة والاختيار عند المؤلفين. وتشتهر الصينية بالاستعمال الواسع جدًّا للسلاسل الاسمية المترادفة ـ وتشيع هذه الظاهرة بشكل رئيس في العصور الحديثة في حين تَنْدُر في العصور القديمة (انظر Entwhistle, 1953:13, Gipper 1963: 276f).

ويقارن ريجلوف في كتاب "الازدواجية [الغموض] في الثقافة العربية" L'Ambivalence dans la culture arabe 328f بشكل واضح هذه الحالة في الصينية بما عليه الحال في العربية، قائلا:

> للغة الصينية ميزة لافتة للنظر. . . وهي ميلها الطبيعي إلى استخدام أسلوب المزاوجة. إلا أن لجوءها إلى هذا الأسلوب إنما هو استجابة صريحة لضرورات الإبلاغ: أي الإبلاغ الذي يحافظ على المعنى نفسه بمختلف أشكاله.

> Le chinois a ceci de remarquable. . . qu'il manifeste une prédilection habituelle pour le procédé de l'accouplement. Or ce procédé sert explicitement les besoins de la communication:
> j'entends d'une communication univoque,

وهذا هو التفسير نفسُه الذي جاء به بيستون.

٢ـ وهناك جانب مضحك بعضَ الشيء للمزاوجة التتابعية syntagmatic coupling، في العربية والصينية كليهما، كما رأينا في الفصل الرابع. وهذا متوقَّع على وجه الخصوص، ذلك أن التراكم، كما رأينا، يمكن أن يؤدي إلى غموض التحديد بالبساطة نفسها التي يُزيل بها ذلك الغموض. يضاف إلى ذلك أنه لا يبدو على استعمال معظم الذين يُسهمون في إنتاج التراكم في العربية تلك العلاقة السلسلية للاشتراك اللفظي التي اختارها بيستون بمهارة. فكلمتا 'مبتهجًا' و'فرحًا' تُعنيان كلاهما الشيء نفسه، ومع ذلك يَكتب طه حسين في 'الأيام' (ج١، ص ٧٥): "وكم كان الشيخ مبتهجًا فرحا"، ويكتب في الفقرة التالية: 'فرحًا مبتهجا" (قارن بالأمثلة التي جاء بها مونتيه Monteil). ويأتي هذا من غزارة عددِ البدائل أو الرغبةِ فيها، وليس طَلبًا للدقة. بل نجد الشيء نفسه بأوضح صُوَره حين تَظهَر الكلماتُ مفصولةً بعضها عن بعض في شكلٍ متوازِن، بدلاً من مجيئها متداخلةً لتحديد شيء مَا، ومثالُ ذلك ما نجده عند طه حسين مرة أخرى: "ويلٌ للأزهريين من خبز الأزهر! إن كانوا لَيجدون فيه ***ضروبا*** من القش، ***وألوانا*** من الحصى، ***وفنونا*** من الحشرات"[١٢].

وتمثّل هذه الأمثلة تنوّعًا تلعُبيًا أو تنوعًا معجميًا ترادفيًا من النوع الذي أورد منه جسبرسن (١٩٠٥، ص١٢٧) مثالاً طويلاً مُدهِشا، أو من النوع الذي يمكن أن يمثّل له بما كتبه بلاشير نفسه (His. Litt. Arabe 68):

"ومع ذلك، ورغم أشكال الوضع التي نجدها فيها، ورغم التحريفات الكثيرة. . . التي لحقتها، . . . وأخيرًا رغم الحالة المؤسفة [التي وصلتنا بها]. . . فإن هذه الأشعار الجاهلية إذا تأملنا فيها بشكل عام، تحمل آثار تقاليد أدبية تهيمن عليها وتشكلها".

"Cependant EN DEPIT DES apocryphes qu'on y relève, MALGRÉ les altérations multiples. . . . qu'elles on subies. . . , NONOBSTANT enfin les conditions déplorables. . . , ces poésies "préislamiques", à les considérer de haut et dans leur ensemble, portent la marque d'une tradition littéraire qui les domine et les façonne."

وتمثّل هذه الفقرة التي لا أوَدُّ إيرادها بكاملها تمثيلاً دقيقًا استعمالَ المترادفات من أجل الاستعمال وحسب، لا لتجنُّب الغموض أو للابتعاد عن الرتابة فقط. ذلك أنه لا ضرورة لورود ثلاث كلمات تعبّر كلُّها عن 'على الرغم من'، مع أداة العطف نفسها أو أداة عطف مختلفة: إذ يمكن إخضاع الشروط الثلاثة للترابط التسلسلي بموجب قانون التوزيع:

"en dépit des apocryphes. . . des altérations, et des conditions. . ."

ويبدو أن بلاشير قد شَعَر بلذة في ذلك، إذ استمر في إيراد المزيد (لذلك أورد كلمات: enfin; dans leur ensemble التي لا تضيف شيئًا مهمًا لـ: de haut).

وهذه الحوافز واضحة في التنوع الترادفي للتركيب المتوازي، لكن يمكن أن توجد أيضًا في التراكم المألوف، وذلك حين تمنَع الكثرةُ المفرطةُ الحافزَ البسيطَ لمنع بعض الأنواع من الاشتراك اللفظي المزعج. وقد كتب أولمان S. Ullmann : 'إن مثل هذا التلازم نوعٌ من التكلُّف في أسلوب تشارلز بجوي Charles Péguy :

'إني أشعر بالكاتب وهو يتثنى ويتلوى. . . ويتقوس ويُطرق وينقبض وينحني فوق مكتبه'.

"Je sens déjà l'incurvation, l'incurvaison générale. . . le courbement, la courbure, la courbature, l'inclinaison de l'écrivain sur sa tabl de travail."

(ويظهر في هذا المثال بدقة ما يُشبه تَلذُّذ عصرِ النهضة بالمعلومات والمعجم، قبل أن تصير الوفرةُ فائضًا، هذا من جهة، كما يشي، من جهة ثانية، بالتمركز الذاتي وتيار الوعي الحداثيَّين اللذين يقدِّمان لنا صورةَ الكاتب في حال تَصيُّدِه للمعاني).

***

وقد رأينا من قبل كيف يُغذِّي التراكمُ التبادليُّ التراكمَ التتابعيَّ؛ وهو الذي يُغذي من ثمَّ التراكمَ التبادلي. وقد كتب جابلنتس G.v.d. Gabelentz :

> يَعمل الحشوُ كذلك فيما يبدو بشكل جلي، بقول الشيء نفسه مرتين بكلمات مختلفة: مضيء ومنير، تدفُّق وترقرق، أومض وأضاء، همٌّ وغمٌّ. . . إلخ. فهي في المقام الأول من الوسائل البلاغية الخالصة، لكن تاريخ تطور اللغات يبين أن مثل هذا الربط بين المترادفات يؤدي مع الزمن إلى استيطانها في رصيد تلك اللغات بوصفها وحدات لفظية مركبة تستطيع أن تحل مكان الوحدات البسيطة وتبعدها عن الاستخدام. وهذا هو ما حدث ببساطة في الصينية الحديثة؛ حيث تحولت من لغة أحادية المقطع إلى أخرى ثنائية المقاطع.

Anschaulich und eindringlich wirkt auch der Pleonasmus, der zweimal dasselbe mit verschiedenen Worten sagt: hell und klar, spritzen und sprudeln, blinken und funkeln, Kummer und Sorgen, u. s. w. Es ist zunächst ein freies rhetorisches Mittel: die Geschichte lehrt aber, dass solche Synonymverbindungen mit der Zeit in den gewöhnlichen Hausrath der Sprachen übergehen, die eifachen Ausdrücke geradezu verdrängen können. So ist es vielfach im Neuchinesischen geschehen, das schonbeinahe das schon beinahe aus einer einsylbigen Sprache zu einer zweisylbigen geworden ist.

ويلاحظ أولمان (المرجع نفسه، ص١٥٣) أنه كان في إنجليزية العصور الوسطى أنواعٌ من التلازم في المترادفات حيث تُضَم بعض الكلمات الإنجليزية عن طريق الإضافة البيانية إلى

بعض الكلمات من أصول فرنسية، من نمط: freedom and liberty "الحرية". وقد صار بعضُها قوليبًا، كما في: lord and master "السيد"؛ بل صار بعضها كلمة واحدة، مثل: courtyard[١٣] "فناء".

ولا يعني استعمالُ كلمة ما عادةً أنه ردُّ فعلٍ متعجِّل على مدلول غيرِ غامض، بل يعني استعمالَها عبْر وساطةِ مفهومٍ معيَّن. فيمكن لنا أن نتعلم كلمةَ widow "أرملة" عن طريق معرفتنا بأرملة معينة، ثم نوسِّع هذه الكلمةَ عن طريق بعض الأفكار التي لم تتحدَّد في أدمغتنا، وهي أفكار تُشكِّلها الوقائعُ الاجتماعية، والخصائصُ الخاصة بنا، وتصوُّرُ الجماعة المعينة لنفسها، وسوف نُطلِق هذه الكلمة أو نمنعها حين نصادف امرأة تزوجتْ ثلاث مرات، والعرائسَ العذارى البائسات اللاتي يتزوجهن بعضُ المهاجرين من أجل أن يكُنَّ وسيلةً لإقامتهم في أمريكا، وكليتيمنسترا (التي قتلت زوجها في الأساطير اليونانية). لهذا يَضع إحصاءُ المفردات حدًّا متدنيًا على عدد القُدرات التصورية. فمما يَفجأ المرءَ أن توجد في لغة ما كلمةٌ بسيطة للتعبير عن: the sadness one feels after love-making "الحزن الذي يشعر به المرء بعد الجماع"، وليس ذلك بسبب أن الفكرة مثيرة فحسب، وهي التي استطعنا التعبير عنها بالإنجليزية توًّا بطريقة مُسْهَبة، بل بسبب أن القدرة على ترميز هذه الفكرة بكلمة غير بسيطة تجعل تلك اللغة تحملنا على الظن بأن متكلميها يَقبَلون هذه الفكرة على أنها مُسلَّمة، حتى إن لم يعتقدوا هم أنفسهم بصحة ذلك. (وذلك مثل كلمة: unicorn "وحيد القرن" مقابل: a creature half man, half milkshake "مخلوق نصفه رجل ونصفه نوع من العصير الممزوج باللَّبَن". ونحن نعرف، في الإنجليزية، أن الفكرة ليست غريبة وإن لم يكن لدينا كلمة بسيطة للتعبير عنها، وذلك لوجود عبارات مثل: post-coital remorse "الندم الذي يعقب الجِماع". ويمكن أن توحي تجربتنا بأن هذا الشعور ليس مألوفًا بين المخلوقات التي ننتمي إليها بقدر ما نألف عبارات مثل: post-impotence depression "الكآبة التي تعقب العجز الجنسي" و dateless-Saturday despondency "الكآبة التي تصيب المرء ليلةَ سبتٍ يُمضيها من غير صديقة" (كآبةُ ليلةِ سبتٍ لا صديقة فيه)، و pre-losing-one's-cherry exasperation ، إلى حد يَجعلنا نتساءل عن إن كانت هذه العبارة خطأ في الترجمة أو هي تصحيف لعبارة post-coital rejoicing "الفرح الذي يعقب الجماع"، لكن هذه

العبارة بغض النظر عن أي أمر آخر معنى خاص كما هي ولا يُتوقع أن تكون جزءًا من معجمنا في المستقبل المنظور. لهذا نَقْبل حقيقةَ الفِكرة ونتخيل أنها ربما تعيش، كالجني الخبيث الخرافي في آيرلندا.

وإذا ما سَعَينا إلى أن نستنتج من اللغة شيئًا عن حياة متكلميها فمن السهل أن نقع في الخطأ. غير أن الافتراض الستوكي، وإن كان لا يمكن الاعتماد عليه كلّية، يُوفّر لنا درجةً من الحَذر تُمنعُنا من افتراض بعض الحقائق الوجودية عند الجماعات اللغوية الأخرى (وهذا القيد أكثر ملاءمة فيما يخص الجماعات الأخرى التي لها تقاليد أدبية). فيمكن لنا أن نحتفظ بثقتنا فيما يخص الكلمات البسيطة الأكثر أساسية. لكن يجب أن نحذر من الكلمات التي لا تتصف بأنها كلمات معجمية خالصة، وإن كانت في أحيان قليلة غير مشتقة أو أنها مشتقة صِفْريًا. وللتمثيل على ذلك لنأخذ الاسم Jellybean "الحلوى الهُلامية"، التي يمكن أن نعدُّها كلمةً بسيطة لغرض هذه المناقشة. فيمكننا ببساطة أن نشتق منها فعلاً، كما في:

Reagan jellybeaned his way through the Presidency

التي تعني "كان سلوك الرئيس ريجان أثناء رئاسته، كما يَرمز له هذا المُربّى، وكما ارتسم في أذهان الناس، لطيفًا، وناصعًا، وفارغا". فقد كان مَوقفُه من الفقراء يتمثل في: let them eat jellybeans "دعهم يأكلوا هذا النوع من الحلوى"، وهو شعار لا بأس به؛ فإذا ما استخدمته مجلةُ تايم فسيكتسب هذا الفعلُ jellybeaned بعضَ الاحترام وسوف يُستخدَم، من ثَمّ، بكثرة لسنوات عدة. دعنا هنا نتخيل أنَّ الشاطئ الشرقي والشاطئ الغربي لأمريكا تعرَّضا للزوال، وسوف يحاول علماء الآثار الاجتماعيون في المستقبل استنتاجَ الدور الذي أداه هذا النوع من الحلوى إبّان ازدهار الحضارة الأمريكية. وأظن أنهم سيكتشفون أن هذا الفعل لم يكن يتمتع بالمكانة نفسها التي كانت لـ: nickling and diming to death "الاعتقال والضرب حتى الموت" بالرغم من أن هذا التعبير الأخير لم يُستعمل طويلا. إذ ربما سيكون قليلَ الاستخدام ولن يُنظر إليه باحترام، أي أنه سيشبه الجريدة التي تكون اليوم مهمةً جدًا لكنها ستُستعمل في اليوم الثاني ليُلفُّ السمكُ فيها.

ويَستغرب دارسو الأسبانية من العدد الكبير فيها للكلمات التي تعني "أن تُضرب (على جزء معين من الجسم)". فهل يدل هذا على أن الأسبان قساة؟ أما الإنجليزية

النموذجية فليس فيها إلا فعل واحد مألوف من هذا النوع من الأفعال وهو spank "يضرب على المؤخّرة" (إضافة إلى عدد قليل من الأفعال غير المألوفة مثل to shine "يرفس مقدمةَ الساق")، وفي الإنجليزية العامية أفعالٌ قليلة أخرى مثل to bean, to brain "يضرب على الرأس"، "يضرب على الدماغ". لكن العربية أغنى من الأسبانية، إذ يمكن فيها أن نشتق بحرّية أفعالاً من الأسماء التي تعني "أن يضرب على . . . ". لكنْ أيمكن أن يُنبئ هذا عن بعض الأفكار الخاصة؟ ـ فهل كان لدى العرب في القرون الوسطى فكرةٌ خاصة عن "الضرب على الترقوة" (كالضرب اللطيف على الكتف "التربيت"، ربما) ـ أم أن الأمر لا يتجاوز كون الأفعال نتاجًا رياضيًا كسولاً للأسماء مضافًا إليها العادات الاشتقاقية؟[١٤] قِسْ هذا مثلاً على شبيهٍ كيميائي. فمن الممكن لأي عنصرين ذريين أن يتحدا إذا توفَّرتْ بعضُ الشروط لبعض الوقت، لكنْ عناصرَ قليلة فقط هي التي يمكن أن تُنتج اتحادًا كيميائيًا يَنتُج عنه ما نعرفه بالملح والماء.

التعليقات

(١) - يقول إدوارد لين عن كلمة "أسد" (وهي الكلمة الأساسية في الدلالة على هذا الحيوان): "ذكر ابنُ خالويه وغيره أكثر من خمسمائة اسم للأسد؛ ويقال إن له ألف اسم (في العربية؛ لكن هذه، مع استثناءات قليلة، ليست إلا نعوتًا استُعملت كأسماء").

ويمكن أن يكون للمصطلح "نعت" الذي يُشعِر بعدم الأهمية عدد كبير من الحالات التي تتراوح بين الكلمات الأساسية في المعجم والكلمات الغريبة التي تُظهَر في الاستعمال. فنجد على الجانب الأبعد في الحالة الأولى كلمة مثل Bruin "دب" والكلمة الروسية medv'ed اللتين كانتا تعنيان تاريخيًا "أسمر" و"آكِل العَسل"، على التوالي، لكنهما تعنيان من غير لبس "الدب". وعلى الطرف الثاني، نجد شطرَ بيت يُنسب إلى الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص (وهو مثال نموذجي): "وخرقٍ قد ذعرتُ الجَوْن فيه" (ص ٤٥ في الديوان، تحقيق لايل). وقد ترجمه لايل كما يلي:

And many the desert where I have scared the wild kine

"وكم من صحراء أجفلتُ فيها بقر الوحش"، لكنه أضاف تعليقًا يقول فيه: "أو، واعتمادًا على كتاب المختارات، "النعام"؛ والمعنى الأخير أكثر احتمالا، ذلك أن كلمة "الجون" تعني في كثير من الأحيان "أسود"، وهو لون النعام، أكثر من "أبيض"، وهو بقر الوحش". وتورد الشروح اللغوية العربية معنى "الجون" على أنه "بقر الوحش أو الغزال". ولم تُذكَر أيةُ واحدة من هذه الاحتمالات في قاموس لين، لكنه يقول إن هذا النعت يُستخدَم بصورة عامة في وصف لون "القطا"، أو في لون الخيل أحيانا، وأحيانًا (في صيغته المشتقة) لون الناقة.

ونحن نحاول في هذا الفصل أن نكتشف معنى طبيعةِ الوفرة المعجمية وأثرها، وهي التي ربما يمكن القول بأنها محلية فقط بالنسبة إلى هذا المجال الدلالي أو ذاك. وهذا هو الجانب النوعي لا لا يمكن قياس مقداره أساسا. فربما كان من غير المفيد المقارنة بين عدد الكلمات في معجم OED في الإنجليزية وقاموس لسان العرب - ذلك أن عوامل كثيرة تدخل في مسائل مثل: ما الذي يجعل كلمةً ما كلمةً معجمية؛ وفي مسألة المشترك اللفظي، ومسألةِ الشمول التاريخي، ومسألةِ المكانة الخاصة للمفردات التقنية (إذ يمكن أن تُدخل ملايين المصطلحات الكيميائية أو تُخرج بجرة قلم)، والمسائلِ الخاصة بالمنهج الذي يتبعه جامع المعجم حتى فيما يخص الكلمات

غير المهجورة وغير التقنيَّة. ويمكنني من المكان الذي أشغله الآن في شركة كبرى تختص بصناعة المعاجم أن أؤكد أنه حتى المعاجم غير المختصَرة تترك، بصورة مقصودة، كمًّا من الكلمات المستعمَلة في الوقت الحاضر يتساوى مع الكلمات التي تحويها. ويَنشغِل الناس بصورة مستمرة بالكتابة إلينا بكلمات صاغوها هم أنفسهم، وأحيانًا بخروج جرئ على الكليات الدلالية والمبادئ التي تحكم التركيب الصوتي للإنجليزية، ويطلب هؤلاء أحيانًا مقابلاً ماديًّا لذلك، متأثرين بالشعور بأننا في حاجة ماسة للكلمات. (وانظر كذلك القولَ الذي أوردناه من كلام فيرنيه، فيما يلي).

ومع ذلك ظل الأسلوب الذي يماثل أسلوبَ كتاب جينيس للأرقام القياسية هو السائد عند غير المتخصصين في التعامل مع المفردات. ومن ذلك ما كتبه فيليب هاورد في كتابه: *A Word in Your Ear*, New York (Oxford),1983, P. 66 :

> تحوي الإنجليزية عددًا ضخمًا من المفردات يفوق ما تحويه أية لغة منذ بدأ الشباب في بناء بُرج لكي يصلوا إلى السماء في أحد سهول أرض شينار [أسطورة بابل]. ونحن قد لا نستعمل هذا الرصيد بالغزارة التي ينبغي لنا انتهاجها. وأتوقع أنه يمكن أن يكون في الإنجليزية عدد من المفردات في الاستعمال الحقيقي يقل عما يُستعمل فعلاً في الفرنسية أو الألمانية. ومن المعايير الصالحة في قياس ذلك أن تقارن بين جريدة التايمز وجريدة الفيجارو الفرنسية. أما ما تتفوق به الإنجليزية على غيرها من اللغات فهو تلك الكلمات التي تتوفر في القاموس، وتلك العبارات المثليَّة.

(٢) ـ انظر بيستون ١٩٧٠، ص ١١٢. وللاطلاع على وجهات نظره فيما يخص "النوادر" (أي الغريب)، انظر كتابه ١٩٧٧، ص٢.

(٣) ـ وربما تحسن المقارنة بتشارني:

"لا يمكن اعتبار أي من أنظمة القانون الإسلامي في حكم المنسوخ حتى لو لم يعد ذلك النظام مطبقًا".

J. P. Charnay, L'Ambivalence dans la culture arabe, p. 389: "Aucune institution du droit musulman ne peut. . . être considérée comme abrogée, même si elle est tombée en désuétude."

(٤) ـ زيادة على ذلك، قارن بقول إريل بلوخ، في كتابه: Chrestomathy, P. X.

والعربية الأدبية المعاصرة استمرارٌ مباشر *للعربية*. . . إذ تظهر أكثر الخصائص الصرفية والتركيبية لتلك اللغة فيها، كما أن أية واحدة من هذه الخصائص يمكن أن تظهر في العربية المعاصرة، *فالعربية* لا تزال تمثل أعظم مصدر ممكن للمؤلفين المعاصرين.

وربما كان من المهم أن نفحص اللغات الأخرى فيما يتعلق بهذا البُعد. فقد أخبرني [اللساني الأمريكي] يعقوب مالكيل Yakov Malkiel أن اللغة البرتغالية يمكن أن تُقابل بالأسبانية في مسألة تردُّد البرتغالية في التخلي عن الكلمات القديمة. ففي حين تحوي الأسبانية كلمة tibio "تعوزه الحماسة" وحسب، تحوي اللغة البرتغالية (القديمة) ثلاث كلمات، هي: tibo، tibio ، والكلمة المتعلّمة tepido (في الاستعمال المجازي فقط)، بالإضافة إلى الكلمة المقترَضة من القوطية morno بالمعنى نفسه.

وهناك شهادات كثيرة عن ركام المترادفات وأشباه المترادفات في اللغات الأخرى، مع أنه يجب أن يَعرف الباحث تلك اللغات المعينة معرفة أكيدة حتى يستطيع أن يتفحص هذه الشهادات. فيقول ماكس مولر Max Müller (1890: I, 437): "نجد في المعاجم السنسكريتية العامة خمس كلمات لليد، وثلاثًا وثلاثين للذبح، وسبعًا وثلاثين للشمس"، ثم يتحدث عن "الوفرة الهائلة للمترادفات في اللهجات القديمة؛ ومن ثمَّ عن كفاح هذه الكلمات المستميت من أجل البقاء". ويكتب كذلك (في ج٢، ص ٣٩١):

> ويمكن لشيء واحد أن يُسمى بعدد من الأسماء، أو يمكن أن يصبح متعدد الأسماء polynomous، كما يقول الستوكيون Stoics . . . حيث يكون له أسماء متعددة مستعارة aliases. وكثيرًا ما يقال إن من خصائص اللغات القديمة احتواؤها على كلمات كثيرة تطلق على الشيء نفسه. . . كما تتسم الكلمات فيها دائمًا بأن لها معاني متعددة.

ويُذكرنا هذه الخاصية الأخيرة بالكلمة "جون" التي ناقشناها في التعليق رقم (١) مما يوحي بأنها من حالات التطبيقات المجازية سريعة التحول بدلاً من كونها نقاطًا ثابتة في المعجم؛ لكنه يلاحظ الملحوظات نفسها فيما يخص الحالة غير الأدبية وغير التاريخية:

> يكاد يكون من المستحيل أن نكوّن أية فكرة عن المصادر الغنية غير المحدودة في اللهجات. ذلك أنه إذا ما اكتفَت اللغة الأدبية بكلمة معينة عامة، فسيكون في لهجات

هذه اللغة (في كل واحدة منها، احتمالاً) خمسون، لكن سيكون لكل واحدة من هذه الكلمات ظلال خاصة من المعنى.

ولست أرغب هنا أن أبالغ في توكيد الحدّ الذي يصل إليه التراكم في تمييز العربية. ذلك أن أية لغة مكتوبة ستكون عرضة للتراكم، وإذا ما كان فعل هذا التراكم محدودًا في بعض اللغات، كالفرنسية والأيسلندية، فسبب ذلك يعود جزئيًا إلى استطاعة هذه اللغات تنظيم دخول المعجميات أو خروجها من اللغة عن طريق القرارات المركزية، في حين أدى الاتساع الكبير للبلاد العربية وتقسيم الحدود الوطنية المتغيّرة لها إلى إحباط جهود المجامع اللغوية الوطنية المختلفة.

ويقدم ميقيل A. Miquel (1981:44) إحدى الحالات العربية للتشذيب المعجمي:

"إن أكثر ما يميز الشاعر الحجازي وينبئ بالتطورات التي سيشهدها الشعر مستقبلاً في العراق هو رفضه للكلمة الغريبة، وعزوفه عن استخدام الألفاظ المتكلفة، بالإضافة إلى ابتكاراته على مستوى الإيقاع (الشعري)".

"plus que tout décidément, c'et son refus du terme rare. son mépris de la recherche lexicologique qui caractérisent, avec les nouveautés rythmiques, le poète du Hedjaz et préparent. . . les lendemains irakiens."

(٥) ـ "ويمكن أن يشبّه القاموسُ بالمقبرة. . . إذ تقبع أجساد الكلمات هناك بشكل منظّم مُعلَمة ببعض الإشارات، في انتظار البعث على ألسنة المتكلمين."

Simeon Potter, Modern Linguistics, London (Deutsch): 1957,p. 147)

(٦)ـ Le Langage et la vie, p.47

وبصفته مؤلف كتاب Linguistque générale et linguistque française "اللسانيات العامة واللسانية الفرنسية" فإن بالي مؤهّلٌ جدًا كأي شخص آخر للحديث عن البنية المقارَنة للغة الألمانية، ومن المؤكد أن فَهمه أكثر غنى من مواقف أولئك الذين يتفاخرون بإقناعنا في المدارس الابتدائية والثانوية بتفوق اللغة الإنجليزية انطلاقًا من معيار عدد المداخل في "القاموس" (ويتسم هؤلاء الوطنيون بأنهم وطنيًا لا يتكلمون في العادة إلا الإنجليزية)، وهو ما يشبه تعدادهم عدد الرؤوس النووية في مخزون دولتهم من السلاح).

وننهي مناقشتنا لهذه المسألة المختَلَف فيها ببعض المقتطفات الأخرى من الأقوال الموثقة.

فيقول جولدزيهر (Goldzihr 1967: I 195):

وحين يسعى العرب لإثبات الغنى الذي تتفرد به العربية فإنهم يفخرون دائمًا بالتنوع الذي لا مثيل له من المترادفات في لغتهم. . . لكن هذا الغنى في الترادف كان مصدرًا لازدراء العربية عند بعض المؤلفين المعادين للعرب. لهذا يجب أن تُفهم في هذا السياق الملاحظة التي تتسم بالمفارقة وتنسب إلى حمزة: "إن أسماء "الدواهي" هي أنفسها دواه". وتعرف مرادفات "الدواهي" بكثرتها وقد جمع حمزة الأصفهاني نفسه أربعمائة مرادف منها.

ويستمر جولدزيهر في القول:

وبسبب هذا الغنى كان ممكنًا للعربية، [كما يقول المدافعون عنها (جستس)] أن تحقق دقةً في التعبير لا يساويها فيها أية واحدة من اللغات الأخرى" (المصدر نفسه، ١٩٧)، ثم يورد قول السيوطي: "إن الأسد في الفارسية يجب أن يقتنع باسم واحد فقط، أما نحن فنعطيه مائة وخمسين اسما.

أما جابلينتس G.v.d. Gabelentz بالمقابل، فيلوي وجهه استياء قائلا:

الكلمات المترادفة مثل: ward و wurd (= أصبح) أو frug وfragte (= سأل) تُقبل بوصفها متماثلة، أو تُستخدم دون تمييز بينها. وفي النهاية لا نعلم مطلقًا أيها نشأ من مفردات أخرى في اللغة، وأيها من خارج معجمها، فنستخدم الكلمات الأجنبية منها بشكل متداخل مع الكلمات المحلية دون تمييز. وينشأ بذلك عبث الثنائيات المتساوية التي تكوّن فوضى لغوية قد تؤدي بالباحثين إلى اليأس؛ وفي هذا الشأن تعطينا العربية المصرية الدارجة حسب شواهد سبيتا باي أمثلة جيدة توضح هذه الظاهرة. يجب أن يتوفر وقت للراحة، وإلا فإن لغة كلاسيكية ستنشأ حين لا يُقضى على أصل هذا الفساد. والميل لإزالة الصيغ الثنائية الزائدة يبقى موجودا دائما؛ لكنه طالما الضيوف يدلفون إلى الصالة ويخرجون منها لا يمكن تنظيف الممرات.

"Synonymformen wie 'ward' und 'wurde', 'frug' und 'fragte' werden gleichgültig hingenommen, bald unterschiedslos gebraucht; am Ende wissen wir gar nicht mehr, was bodenwüchsig ist, und was eingeschleppt, und wenden Fremdes und Einheimisches unterschiedslos

durcheinander an. So entsteht der Unfug gleichwerthiger Doubletten, eine sprachliche Anarchie, die den Forscher zur Verzweiflung bringen kann; - das ägyptische Vulgärarabisch soll nach Spitta Bey's Zeugnisse ein geradezu tolles Beispiel heirfür abgeben. Es muss eine Zeit der Ruhe kommen, oder es muss bereits eine classische Sprache vorhanden sein, wenn solche Zuchtlosigkeit nicht gar verderblich werden soll. Die Neigung, überflüssige Doppelformen zu beseitigen, wird immer bestehen; aber während noch die Gäste im Saale einund ausgehen, fegt man nicht die Dielen." (1901: 276).

أما على أقصى الطرف المقابل، فانظر Ch. Guerlin de Guer في الفصل المعنون بـ: "معجم القرن الثامن عشر" في كتاب: الفرنسية الحديثة، المجلد الثاني (١٩٣٤، ص ٦) Le lexeique du XVIII[e] siècle، في كتاب: Français moderne II (1934:6) :

ليست الكلمات، عند الفلاسفة، مجرد تمثيل للأفكار، بل إنها بنحو أو بآخر أدوات لإبداع الأشياء؛ وهذا ما يفسر الجهد المبذول لتنمية رصيدنا المعجمي؛ إذ إن "نطاق الفكر يمتد بقدر امتداد المعجم الذي نصنعه".

Pour les philosophes, non seulement les mots représentent les idées, mais ils créent en quelque manière; et c'est ce qui explique ce zèle à développer le vocabulaire; car "la pensée s'étend à proportion du vocabulaire qui se crée".

ويمكن أن نسمي هذا نظرية بـ "القفزة العظيمة إلى الأمام" the Great Leap Forward theory لإنتاج الأفكار.

(٧) ـ في كتاب The Modern Arabic Literary Language, 28.

وبالطريقة نفسها يقول شحنة في مقاله "The Role of Arabic in Present-Day Arab Society"، ص ١٨، في كتاب العاني:

ومع أن هناك طبقة من المثقفين تتزايد باستمرار. . لا يكوّن هؤلاء كيانًا واحدًا متجانسًا، فهم يختلفون دائمًا في اختياراتهم من الكلمات. ونتيجة لذلك ظلّت اللغة تفتقر إلى الوحدة في التعبير.

(٨) ـ ويتماثل الموقف الغامض فيما يخص الوضع في العربية بكل دقة مع الموقف من الفرنسية الذي تعبر عنه الفقرة التالية من كتاب تشارلز برونو Charles Bruneau, *Petite Histoire de*

la language française (Paris: 1st ed.: 1955, 3rd ed. 1962, vol. I.p124)
عن الفرنسية قبل *Vaugelas et cie* :

إن الفرنسي العادي الذي يتصفح المعجم الفرنسي في القرن السادس عشر الذي ألفه "هوجي" ليَقف مبهورا أمام ثراء ذلك المعجم: ففي مقابل اسم المفعول المؤنث *frisée* بمعنى "مجعدة الشعر" سيجد: *crespe* و *crespelette* و *crespelue* و *crespillée* و *crespillonnée* و *crespine* و *crespue* ، وهذا الثراء المعجمي المزيَّف يحجب عنا في الواقع فقرا أساسيا. فالكتاب الذين لم يدرسوا الفرنسية في الجامعة يفتقرون إلى نماذج كلاسيكية [ينحون نحوها]؛ ولا يمكنهم الرجوع إلى القاموس: ولعدم توفر كلمة قديمة يستعملونها، فإنهم يصنعون لأنفسهم كلمة كيفما اتفق تفتقر إلى المعنى الدقيق.

—Le Français moyen qui ouvre le *Dictionnaire du XVIe* siècle de Huguet est émerveillé de la richesse du vocabulaire: à notre participe féminin *frisée* correspondent *crespe, crespelette, crespelue, crespillée, crespillonnée, crespine et crespue.* Cette fausse richesse dissimule une pauvreté foncière. Les écrivains, qui n'ont pas étudié le français à l'Universite: n'ont pas de modèles classiques, ne peuvent consulter un dictionanaire: ils ne possèdent pas de mot traditionnel et créent au petit bonheur un terme dépourvu de sens précis.

(٩) ـ The English Language in Medieval Literature, London (J.M. Dent), 1977, p. 27

(١٠) ـ انظر الفصلين الثاني والثالث في كتاب بيدرسون J.. Pedersen, The Arabic Book ، الذي اعتمد اعتمادًا يكاد يكون كليًا على [معجم الأدباء لـ] ياقوت والفهرست [لابن النديم]؛ أو كتاب نيكلسون: Literary History

(١١) ـ للاطلاع على مثال معجمي فِعْليّ انظر المعنى الذي أورده The Oxford Dictionary of English Etymology للتجنيس الكتابي homograph المتمثل في كلمة reach التي تعني spit, hawk (والكلمة reach نظيرة cognate للكلمة الفرنسية retch).

ومثل هذه التلازمات اللفظية collocations التي تتسم بتضييق الكلمات المتساوية في كثرتها ليست غريبة في الإنجليزية؛ وللاطلاع على مثال معاصر انظر سارتون G. Sarton (His. Sci. I 89): "ولم يكن الغرضُ من استعمال الألواح الدراسة فقط بل كان التلخيصَ

والتذكُّر أيضا، شأنها شأن المَعالِف والأحصنة". وأكثر من ذلك استعمالاً إيراد كلمتين يُنظر إليهما ـ أو كان يُنظر إليهما ـ على أن إحداهما مألوفة والأخرى غير مألوفة، أو إيراد كلمة إنجليزية مع كلمة غير إنجليزية (وهو ما يشبه الحالة الأولى في الغالب). فيقول لويس جراي Louis Gray عن "الكلمات المقترَضة التي جعلت الإنجليزية، بوجودها جنبًا إلى جنب مع الكلمات الإنجليزية الأصلية، غنيةً جدًّا بمترادفاتها الدقيقة. ويبدو هذا الغنى بأظهر صورة في كتاب the Book of Common Prayer ، ومن أمثلة ذلك ما نجده في فقرة "الحث على الاعتراف". . . ،حيث تعلَّم الكلمات المأخوذة من اللغات الرومانثية بالخط المائل:

to "acknowledge and *confess*," "not *dissemble* nor cloke",
"*assemble* and meet together", "*pray* and beseech" .

وقارن كذلك بـ:

"*mortify* and kill", "*perceive* and know", "*power* and might"

حيث لا تتضمن الصلوات المماثلة في الـ Roman Missal إلا "morifica", "videant", "virtutum" ، على التوالي. (Foundations of Language, New York: 1938, p. 138).

ويمكن الإتيان ببساطة بأضعاف هذه الأمثلة من التقاليد الأوروبية. قارن مثلاً ما يقوله إلكوك W. D. Elcock (The Romance Languages, London: 1960, p. 250) عن الشعراء الفرنسيين:

> وكان أحد الوسائل المفضَّلة عندهم ربط النعوت المترادفة إلى حد بعيد، ولم يكن من المستغرَب أن يكون أحدُها لاتينيَّ الأصل والآخر جرماني. ويمكن أن نجد أحد الأمثلة لهذا في أغاني رولان. . .Chanson de Ronald التي يوصف فيها شارلمان بأنه balz e liez ، وهما الكلمتان اللتان تنبِّهان المترجم إلى ثروة مماثلة من الترادف في الإنجليزية.

أو ما يقوله روبرت سپاولدنج Robrt Spaulding (How Spanish Grew, Berkely: 1943, p. 145) عن الأسبانية المبكِّرة: "ومن المعروف جدًّا استعمال seriatim للكلمات المترادفة"

en mal punto y en hora menguada, del corje y brío que encinde y anima, a los valiente pechos (Don Qixote). . ."

(١٢) ـ ونورد هنا أمثلة أخرى، وهذه المرة من كتب غير روائية:

"قد اتخذت لها اللغات ألفاظًا متباينة مختلفة لا يكاد يمتّ بعضها إلى بعض بصلة معقولة مفهومة".

(إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ ص ١٥).

"كانت *سائدة شائعة* في العصر الجاهلي". (ص ١٢٨).

كما نجد عند المؤلف نفسه (الفصل الرابع) تعبيرات متوازية مسجوعة:

"أما المحدثون من علماء اللغة في أوروبا، فقد *صالوا وجالوا* في هذا الشأن، ووجدوا *لذة ومتعة* في هذا البحث. . ." (ص١٦).

"حتى *يذيع ويشيع*" (ص١٢٧).

(١٣) ـ قارن بباخ

A.Bach, Geschichte der deutschen Sprache (Heidelberg, [8]1965) p. :94

"في حالات فردية يكون الانتقال من الوصف الصوري الأصيل من اللغة الشعرية إلى لغة الحياة اليومية. ومما يتبع هذا الانتقال في لغتنا الألمانية الحديثة كلمة leichnam (=جثة)".

Vereinzelt sind ursprüngliche Kenningar aus der Sprache der Dichtung in die des Alltags übernommen worden. Unser nhd. Leichnam gehört hierher."

(< هيكل ـ جسد > ⟵ "جثة").

(١٤) ـ وهنا بعض الأمثلة من معجم لين: "رَكَبَهُ" (ضَرَبه على ركبته) (قارن بالمثال الذي صيغ مؤخرًا في الإنجليزية to kneecap)، وكذلك "ضربه بركبته". ولا يبدو أن هذه الكلمة مصنوعة، ذلك أن لين يورد خبرًا يتعلق بقبيلة الأزد، التي يبدو أن أفرادها كانوا مشهورين بأنهم يستعملون رُكَبَهم في الضرب، وهم الذي سَمَّوا الرُّكْبَة بـ "أم كيسان" (أي أم الغدر).

"ذَقَنَه" (ضربه على ذقنه) أو (ضربه على قفاه) وهي التي يعبَّر عنها بتعبير مرادف هو "قَفَدَه").

ولم يورد لين فِعلَ "*جَبَنَه" (أي ضربه على الجبين)، وربما كان سبب عدم وروده لاحتمال أن يتنافس الفعل المشتق من "الجبين" مع كلمات مثل "جُبْن" (من اللَّبن) و"جُبْن" (ضد الشجاعة) اللتين تأتيان من الجذر نفسه وتعنيان شيئين مختلفين؛ لكن الاسم "جبهة" الأكثر تحديدًا يأتي منه الفعلُ "جَبَهَه" بهذا المعنى.

وكذلك "سَنَّهُ" (ضربه على سِنِّه، أو كسر سنه) ـ غير أن المدى الدلالي للفعل "ضَرَسَ" من الاسم "ضِرْس" غنيٌّ جدًا، لكنه لا يتضمن الضرب، وربما يعود ذلك إلى بُعْد الضرس عن متناول الضرب. ومع هذا نجد "كَبَدَه" (ضربه على كبده) و"شَغَفَه" (ضرب محيط قلبه (الشُّغاف)).

و"صَبَعَه" (ضربه على إصبعه). ولم يرد "*بَهَمَه" (ضربه على إبهامه) وربما كان سبب ذلك، مرة أخرى، الغموض الذي سينشأ عن هذا الفعل المشتق، ذلك أن الأوزان الأخرى لهذا الجذر تعني "حَجَر، و"وحش"، و"اسود"، الخ. ومن جهة أخرى فإن الجذر الشائع جدا (ع ق ب) يُشتق منه الفعل "عَقَبَه" (ضربه على عقبه).

و"أسَكَّها" (ضرب أسكتيها)؛ و"شَفَهَه" (ضرب شفته).

الفصل السابع
دلالة التضاد

يمكن القول إنه لم تظفر خصيصةٌ في العربية، منذ العلماء المسلمين القدماء حتى الدارسين الغربيين المعاصرين، بقَدْر ما ظفر به القول بوجود عدد كبير من الكلمات التي تعني الشيءَ ونقيضَه، نحو "رَهْوَة" (التي تعني: "المكان العالي" و"المكان المنخفض"، و"هَجَد" (التي تعني: "نام" و"استيقظ")، و"تَرِب" (التي تعني: "اغتنى" و"افتقر"). والعدد الأكبر من هذه الكلمات لم يَعُد مستعملا، وإن كان لا يزال من الممكن العثورُ على بعض المداخل المعجمية مثل "زَرَف" (التي تعني: "أبطأ" و"أسرع") (قاموس: مدينة). وقد سمّيَتْ مثل هذه الكلمات بالأضداد enantiosemic وvoces mediae . أما المصطلح العربي فهو "الأضداد".

وقد قلَّل بعضُ العلماء المسلمين القدماء من شأن هذه الظاهرة، وفسَّروا ما يُوصف بالتضاد بأنه كان نتيجةً لجَمْع الكلمات من لهجات مختلفة، وللاستعمالات الخاصة (كالمفارَقة والموازَنة)، والتصحيف، وغير ذلك؛ في حين اهتم بعضٌ منهم بها اهتمامًا كبيرًا واتخذ من عدم المنطقية الواضح في هذا القسم من المعجم وسيلة للتشنيع على العرب ولنقض ادعائهم التفوقَ العِرْقي في مجتمع يتصف بتزايد التعدد الإثني وتعدُّد الحواضر[1]. أما التوجه السائد بين العلماء الموثوقين المعاصرين في الغرب فهو اطراحُ أكبرِ عدد من الأمثلة المزعومة للتضاد بقدر الإمكان، بطريق مُقنِعة في الغالب، وذلك في ضوء ما يُعرف الآن عن استعمال التسمية في التنْفير (كالمفارقة والسخرية)، والإجمال البنيوي، والتناظر السياقي للفوارق غير الموسومة في المعجمية، وعن بعض العلاقات الشبيهة بالتضاد الدقيق من نوع (غني: فقير)، وإن كانت متميِّزة عنه.

وعلى الرغم من هذه الجهود فقد أدى وجود الأضداد إلى كثير من أنواع التخرصات الغامضة حتى في عصرنا الحالي. وقصة اعتماد فرويد على الكتاب المضلِّل لـ K. Abel "Über den Gegensinn der Urworte" (1884) مثالٌ مشهور. كما يقول جاك بيرك، الذي شارَك في تحرير كتاب يحوي مجموعةً من المقالات اللسانية والاجتماعية والفقهية الجادة التي تنطلق كلها من موضوع الأضداد، في مقدمة هذا الكتاب (ص٢٠):

ألم نضع أيدينا، من خلال الأضداد أو نظرية الأضداد في العربية، على حالة متميزة من التراكم والتكدُّس لِمُجمل خصائص لغة معينة ومجتمع معين؟ ألَسْنا نرى هنا، في ازدواجية الدلالة التي تحملها الكلمة نفسها، ذلك النزاع المحتدم بين المدنَّس والمقدَّس، أو في الأقل ذلك الالتباس المعنوي، والموازنة المتبادَلة بين ما هو شفاف وما هو معتم، وقد بلغت مداها أو تحققت في شكلها المثالي؟

Ne saississions-nous pas dans addâd, ou dans la théorie arabe des addad, un cas privilégié de cumul, ou paroxysme, des caractères d'une langue et d'un société? La lutte du profane et du sacré, ou tout au moins l'équivocité morale, la compensation réciproque du transparent et de l'opaque, ne parviennent-elles pas ici, dans la dualité de sens du même mot, à leur comble ou à leur modèle?

وينبغي أن نلحظ أن هذا ليس صحيحا (إذ لا يوجد شيء يمكن أن يوصف بأنه 'la' théorie arabe of enantiosemy "النظرية العربية للأضداد"؛ ذلك أن ابن درستويه كان يماثل نولدكه في شكّه بوجودها). ومع أنه ربما يكون صحيحًا، كما يقول ليكومت G. Lecomte (id, 428) أن:

> مشكلة الاشتراك اللفظي الظاهر أو الحقيقي الذي يحمله قسم لا بأس به من مفردات اللغة العربية، إذا تأملناها بعمق، لها الطبيعة نفسها التي نجدها في الالتباس الحاصل بين الثقافة والدين في ذهن أولئك الذين كتبوا باللغة العربية منذ البدء.

Le problème de la polysémie apparente ou réele d'une fraction non négligeable du vocabulaire arabe, est au fond des choses de même nature qui celui de la confusion de la culture et de la religion dans l'esprit des gens qui ont écrit en arabe depuis l'origine.

إلا أنه ينبغي ألا يزعم أحد هذا الزعم، كما فعل ليكومت، من غير أن يحلّل مثالاً حقيقيًّا واحدا، إلا إذا أضعفنا المعيارَ اللساني وحوّل من التضاد إلى المشترك اللفظي.

وهناك اقتراح جريء آخر لكنه حقيقيٌ، في الأقل، وسوف نعالجه فيما بعد، وهو الذي يتعلق بكلمة 'وراء'.

***

أ ـ المعجم

وليس هناك من داعٍ لأن أصف التضاد المعجمي في العربية بالتفصيل، ذلك أن هذه المسألة وُصِفت وصفًا مُستقصيًا في مقالات مكتوبة باللغات الأوروبية يسهُل الرجوع إليها، ومنها ما كتبه نولدكه ("Wörter mit Gegensinn") في كتابه -Neue Beiträge, 67" 105)، وديفد كوهين، و ر. كمال (وقد أعيد نشر هذين المقالين الأخيرين في كتاب Ambivalence)، وآخرون ـ بل إن ما كُتب عنه يفوق ما كُتب عن التضاد في اللغات الأوروبية. يضاف إلى ذلك أنه ليس من هدفي دَعْمُ المقولات المُقَولَبة التي تزعُم أن العربية لغةٌ صعبة بشكل متطرِّف وغير منطقية، ومن هنا فغرضي أن أكشف عن هذه الخصائص في اللغة عموما. وأسهل الطرق لذلك أن نصف ما نعرفه في لغاتنا على طريقة "الجاسوس التركي' l'espion turc. لهذا سأورد فيما يلي وصفًا مختصرًا للتضاد (التضاد المعجمي بالإضافة إلى ما يتعلق بالتركيب) في اللغات الأوروبية المعروفة جدًا، وذلك من أجل:

١ ـ إزالة الغرابة عن العربية.

٢ ـ أن نمسك بشمعة للإطلالة على معجم اللغات الأوروبية المعاصرة من زاوية مألوفة في العربية لكنها مجهولة في اللغات الأوروبية المعاصرة.

٣ـ دعم الترسيمات الدلالية النظرية التي اقترحها نولدكه وآخرون لحالات التضاد في العربية.

فمع أن من الملائم أن نتخيل وجود عنصر ثالث مشابه tertium comparationis أو مَلْفِظٍ مُشتَرَك يمكن أن نلحَظ خصائصَه موزَّعةً على أخلافِه، إلا أنه لا يزال من الممكن إثارة السؤال التالي: هل هذا طريق مألوف في الحيِّز الدلالي، أم أنه نظريٌ وحسب؟ وبما أن الوضع التاريخي في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي معروف بما فيه الكفاية فيمكن أن نكون، في الغالب، في وضع يسمح لنا بالإجابة بصورة موجبة.

وقد أسهم جريماس وبوريه A.J. Greimas and J. Poirier إسهامًا ممتازًا فيما يتفق مع هذه النظرة في كتاب Ambivalence. ولن أكرر الأمثلة التي جاءا بها، واحيل القارئ إلى مقاليهما، وإلى كتاب Gamillscheg, Französische Bedeutungslehre الغني بالأمثلة، في القسم المعنون بـ: Ausbildung von Gegensinn, p. 165ff.

***

هذا، ومن أجل زيادة إمكان المقارنة بين الظواهر الموجودة في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي والعربية، سوف أقصر اهتمامي في البداية على الأمثلة التي تتعلق بالحالات البارزة للأضداد في العربية. فينتمي التضاد، كما سيلحظ القارئ، إلى عدد من الأنماط المختلفة التي لن أحاول التمييز بينها بصورة مطردة؛ ذلك أنه سبق توضيحها في أماكن أخرى؛ قارن مثلاً بالفصل المعنون بـ"الغموض" في كتاب أولمان:

S. Ullmann: Semantics: an Introduction to the Science of Meaning. Oxford (Blackwell), 1962.

"الدلالة: مقدمة لعلم المعنى". تأليف س. أولمان، ١٩٦٢.

١- هناك فصيلة كاملة من الأمثلة في العربية، تُصنَّف تقليديًا بأنها من الأضداد، حيث تختلف المعاني فيها على صورتين: (الكَوْنُ في حالةِ 'أ'؛ والتَّسبُّبُ في حدوث 'أ')، ومنها: "خائف" التي تعني: "هو خائف"، و "مُخيف"، و "فَجُوع" التي تعني: "حزين" و "مُسبِّبٌ للحزن" (نولدكه ١٩١٠، ص ص ٧٠- ٧١). وهذه الثنائية القطبية نتيجة حتمية للإجمال النحوي grammatical syncretism في الحالات التي تكون فيها الصفةُ اسمَ فاعلٍ مُشتقٌ من فعل يمكن أن يكون تكافؤه valence إما حاليّ essive أو جَعْليّ causative (ويمثل هذا النوعَ في العربية الفئةُ (ب - ١- أ) في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب). وهذه الأفعال "التوافقية" ergative مألوفة في اللغات الأوروبية؛ وقد ذكر Kronasser (1952:90) منها، في الألمانية: kocken, siden, brennen, treiben؛ وفي اللاتينية: augêre, minuere, vertere؛ وفي اليونانية: orgaíno "أن تكون غاضبا"؛ "أن تُغضب"؛ θêsθai "أرضع"؛ وفي الحيثية Hittite: akuwanzi 'sie trinken/ tränken'.

. ولم يورد تولدكه مثل هذه الحالات قائلاً: "لا تستخدم عبارة "ليلة ضاربة في النعيم" إلا على سبيل المزاح".

"eine wohlschlagende Nacht" wird nur scherzhaft gebraucht"(71)

لكن هذا النوع شائعٌ جدًا في التنوعات اللغوية registers كلّها، لا حِينَ يُمكِن أن يُستعمَل الفعلُ الأساسُ في أيٍّ من الحالتين وحسب. قارن بما قاله: H.. Paul 1920: 157 عن النوع: swinedelnde Höhe (= الذي يماثِل التعبيرَ الإنجليزي dizzy heights "المرتفعات المصابة بالدوار" [التي تصيب بالدوار]، الذي لم يبلغ حتى أن يكون مشتقًا فعليًا). ويماثِل اسمُ الفاعل "خائف" في العربية الكلمةَ fearful في الإنجليزية مماثلة تامة؛ قارن بـ "shivery uncertainties in Washington right now" "عدم اليقين المرتعش في واشنطن الآن" (مجلة New Republic في عددها الصادر بتاريخ ١٣/٦/١٩٨١). ويُقابِل كلمةَ "فَجُوع" التعبيرُ الإنجليزي: a weepy person (one who weeps) "بكّاء"، أما في العامية الإنجليزية المستعمَلة في السينما فنجِد التعبيرَ: a weepy (weepie) "بكاء". ومع أن هذا النوع شائعٌ إلا أنه خاصٌ معجميًا idiosyncratic : فمع أن لدينا fearful (التي تعني: "يعاني من الخوف"/"يُسبِّب الخوف")، نجِد: dreadful, frightful (بمعنى "يتسبب" في ذلك، فقط)؛ وكذلك:

The determination of the Iranian people to resist the Shah is staggering/stumbling.

"إن تصميم الإيرانيين على مقاومة الشاه مُذهِل/ مُتعثِّر " [يصيب بالذهول].

و: his warmest (?hottest) over coat

"جُبّته الأدفأ (؟الأكثر جلبا للحرارة) ".

في مقابل: son plus chaud pardessus

"أثقل المعاطف التي لديه [أكثر معاطفه دفئا] "

قارن أيضا:

thirsty weather; doubtful

"الطقس العطشان"؛ "مشكوك فيه" [شكاك]

و: I am dubious

"أنا مُتشكك"

مقابل:

dubious stew

"مَرَق مشكوك فيه"

curious

"فضوليّ"

invidious

"حسود"

nauseous

"مُقرف"

واللاتينية: salax "يشعر، أو يتسبب في الرغبة الجنسية"

وتطور الإحساس في :scrûpulôsus

ومن الواضح أن هذا الغموض لا يُمثّل صدفةً معجمية سواء في العربية أم في اللغات الأخرى، لكنه يعود إلى تَوَجُّهٍ معرفيٍّ عميق. ويتبين هذا بأوضح ما يكون في الحالات التي لا نشعر فيها بالغموض حتى تُلفَت أنظارُنا إليه. فعبارة: blind faith يمكن أن تعني إما "الإيمان الأعمى" (مثل: blind rage "الغضب المُعمي") أو "الثقة غير العلنية التي يتخيل المرء اتصافها بخصائص تماثل خصائصَ الشخص الأعمى حين يُقاد (إذا افترضنا أنه يشعر بأية ثقة إطلاقا)". قارن كذلك بتجربتنا مع heart-rending الخ، في الفصل الثاني عشر.

٢ـ "باع" التي تعني حينًا "باع" وحينًا آخرى "اشترى" (نولدكه ١٩١٠، ص ٧٦). ويريد نولدكه أن يشتَقَّ هذه الكلمة من معنى أصلي هو: "ضرب باليد" بوصفها عبارة تدل على إتمام صفقة، وهو إجراء يناسب الطرفين.

"<<in die Hand schlagen>>; als Ausdruck des Abschlusses eines Handels passt das für beide Teile."

غير أن هناك أمثلة كثيرة جدًا من هذه المتعاكسات المتشابهة صوتيا homophonous conversives (وقد استعرتُ هذا المصطلح من [اللساني الأمريكي] يوجين نايده، في كتابه: "محاولات E. Nida, Exploring Semantic Structures, Munich (Fink) 1975) لاستكشاف البنى الدلالية" ١٩٧٥م)، تمنع هذا التفسيرَ من أن يكون كافيًا بصورة عامة ـ أو

حتى ضروريًا. فبما أن هذا التشابه نفسه موجود في اللغات الأخرى فهذا ما يؤكد أنَّ ما بين أيدينا، مرة أخرى، خصيصةٌ إدراكية إنسانية. لهذا فالكلمتيْ "أجَرَ" و "كَرِيَ" مثلاً في الكلمة الإنجليزية rent "أجَّر؛ استأجر" (فالجملة: I rented a room today "استأجرتُ غرفة اليوم، أو: أجَّرت..."، يمكن أن يقولها المؤجِّر والمستأجِر) كذلك فيما يخص الكلمة louer "شكر" في الفرنسية، والكلمة alquilar في الأسبانية. أما الألمانية فتميز بين mieten "استأجر"، و vermieten "أجَّر"، وبين kaufen "اشترى" و verkaufen "باع"، لكنْ الصرف يوحي بأن هذه الكلمات تُفهَم على أنها مظاهر مختلفة للحدث نفسه (قارن (ver) brennn) "أحْرق").

٣ـ "رَبيع": انظر نولدكه (١٩١٠، ص٨١). ولا تحتفظ العربية الأدبية المعاصرة، باقتصادها المألوف، لهذه الكلمة إلا بمعنى "(فَصْل) الربيع". وقد اقترح نولدكه معنى أصليًا محايدًا لها هو reichlicher Regenguss "هطول مطر غزير"؛ ونحن نوافقه، من زاوية مقارنة، على أن هذا يمثل نوعًا ممكنًا من التطور الدلالي. قارن بالكلمة الفرنسية pluviôse (شهر من شهور الشتاء) مقابل April showers "مطر شهر أبريل"، في الإنجليزية. ويمكن من زاوية تداولية أن يُميِّز المطرُ أيَّ واحدٍ من الفصلين؛ ولا يزيد الأمر عن كونه صدفة أن يكون المطر في أحدهما دون الآخر. ويمكن مقارنة هذه الحال بكلمة "الصريم" التي تعني "الفجْر"، وتعني أحيانًا "غروب الشمس" (Cohen, "Addad et ambiguïté" "الأضداد والغموض"، ص ١٩ في مقاله الأصلي الذي نشر في مجلة Arabica). ذلك أن أحوال الضياء ودرجة الحرارة نفسها تميز الوقتين كليهما؛ قارن بالكلمة الإنجليزية twilight "الشَّفَق"، والكلمة الألمانية Dämmerung "الشفق" والمثنى: "البَرْدان" (أي "الصبح" و "المساء")[٢].

٤ ـ "مَنَعَ" التي تعني: "يمنع" و "يدافع" (نولدكه ١٩١٠، ص٨٣). ويمكن لهاتين الكلمتين أن تعنيا في بعض السياقات معنيَيْن متضادين تماما (نحو: "دافعتُ عن حقِّه في المنازَلة"، و "منعتُه من المنازلة" في الإنجليزية). ويظهر الغموض نفسه في الكلمة الفرنسية: défense، والإنجليزية: sanction(s), enjoin "يمنع/ يأمر"، "يمنع/ يوافق". وربما لن يكون

من العدل أن نورد هنا الكلمة الإنجليزية let التي تعني "يسمح"، و"يمنع"، ذلك أننا نجد في هذه الحالات الجناسَ homonym بالمعنى التاريخي الضيق، بدلاً من كونه أيَّ شيء محدَّد آخر.

ويأتي الغموضُ من أن "الدفاع" عن الشيء إنما هو "منْعٌ" أعدائه من أن يَضرُّوا به. فيحتمل عمومًا أن تؤدي أيةُ كلمة، مثل prohibit "يمنع"، التي لها معنى سلبيٌّ ضمنيٌّ إلى نشوء بعض التراكيب غير المحدَّدة. قارن أيضًا بـ Nyrop (1903:72) ، فيما يخص الكلمة اللاتينية obviare، والكلمة uviar في الأسبانية القديمة.

٥- "شطٌّ" التي تعني: 'Ufer, Fluss' (نولدكه ١٩١٠، ص ٨٣). وهي كناية شائعة. قارن في الفرنسية القديمة: rivière التي تعني "شاطئ النهر؛ والنهر"، والكلمة البروفنسالية ribiera.

٦- أما الأفعال التي ربما تكون لازمة أو متعدية، نحو: 'اختفى' التي تعني "أن يَختفي"؛ و'أن يُخفي' شيئا) فلن تُفاجئنا، ذلك أنها مثال للنوع الذي ناقشناه في القسم (١) أعلاه. أما الفعلان 'اختفى' و"أسرَّ" اللذان يَعنيان أحيانًا: "يخفي" وأحيانًا: "يُظهر" فهما أكثر إثارة. كما يُبيِّن الفعلُ الإنجليزي: secrete "يُفرز، يخفي" الاشتراكَ اللفظي نفسه.

وهذا النوع، كما أظن، أقل شيوعًا من الأنواع الأخرى التي رأيناها إلى الآن، وهو يعود إلى المحاولة العقلية الملتوية الجريئة التي يتطلبها الانتقال من معنى إلى معنى آخر. ولم يقدم نولدكه أيةَ فرضية عن التطور الدلالي لمثل هذه الأفعال. وأفضلُ طريقة لاكتشاف العملية العقلية التي ينشأ عنها هذا الانتقال أن نجد حالةً لا يُشعَر فيها بأن الجناس يتضمن أيَّ تُعارُض (وكلمة secrete ليست من هذا النوع، ذلك أن معنى bring out "يُفرز" فيها مقصور على الإفرازات الداخلية). لهذا يمكن للشيء الذي يبقى مدة طويلة خفيًّا وعصيًّا على التفسير أن يسمى mystery "لغزا"؛ لكن حتى حين يتضح أمر هذا اللغز ويصير متاحًا للتفحُّص، كما في الرواية، يمكن أن نسمي هذا الأمر بمجموعه

mystery "لغزا". ذلك أن الشيء الذي لا يمكن توضيحه إلا بمشقة يميل، حين يُخرج من الخفاء، إلى الاحتفاظ بخاصيته "اللُّغزية".

ويوحي مثالُ "اللُّغز" أن الانتقال بين المعاني انتقالٌ مباشر، لكن يمكن أن نحاول أيضًا العملَ بالاستراتيجية التي فضَّلها نولدكه وكوهين وتتمثل في البحث عن الشكل الأول archisme الذي ربما تفرعت الكلمات منه ثم صارت متقابلةً وأمكن لها من بعد أن تتخصص سياقيًا. فالفكرة الأصلُ لكلا المعنيين لكلمة secrete هي "separâte" "يَعزِل". فإذا ما أخفيتَ شيئًا فأنت تَعزِلُه عن العالم الخارجي؛ وإذا ما أظهرته فأنت تَعزِله عن سِترِه.

٧ـ ويوجد في اللغات السامية عدد من الكلمات التي يمكن أن تشير إلى طَرَفَي انفعالٍ ما كليهما، كـ"مدح" أو "ذم"، او "قلِق" أو "الكَوْن في حالة الهيجان الفَرِح" (نولدكه، ١٩١٠: ص ص٨٥ ـ٨٦). بل إن عددًا قليلاً من هذه الكلمات أفعالٌ شائعة في العربية، وتُستعمَل استعمالاً مطردًا بالمعنيين كليهما، نحو: "طَرِب" التي تأتي بمعنى "الفَرَح والحزن"؛ و"تَهانَف" بمعنى البكاء والضحك، (والمعنى الأخير خاص بالأطفال) (نولدكه ١٩١٠، ص ٨٦). وقد اقترح نولدكه أن الحالة الثانية تحدَّرت من كلمةٍ سَلَفٍ معناها الأساسي يساوي تقريبا "اندفع".

"Grundbedeutung etwa “losstürzen”?

وقد أساء النحويون العرب أحيانًا استعمالَ مبدأ التقابُلِ بين المعاني المحايدة من أجل التقليل من عدد الأضداد (Cohen 1968:18). لكن يمكن أن يسيء المرء هذه العملية في الاتجاه المعاكس، وذلك باختيار الخاصية العامة للتضاد antonym ثم الافتراض بأن تلك الخاصية هي المعنى الأصلي القديم. ويساعد المصطلحُ voces mediae نفسُه على هذه الإساءة، وهي الإساءة نفسها التي تأتي من المصطلح mots indifférents الذي اقترحه نيروب (١٩١٣: ج٤، ص ١٤٦). وفي نهاية الأمر، فتفسير "الكلمة المتضادة" التي كانت تعني "كبير" و"صغير" بالافتراض أنه كان يعني في زمن ما "ذا حجم معين" ثم تخصَّص بعد ذلك

بطريقتين مختلفتين حين يتكلم الناس عن القَمْل والأفيال، قد لا يكون مقنِعا. وهذا التطور ممكنٌ حدوثُه، قارن بـ: femme d'une certain âge التي تعني "مُعَمِّرة" في الفرنسية؛ فمن الممكن للتخصيص أن يذهب في الاتجاه الآخر في مجتمع أقل قلقًا بشأن السِّن من قلقه من مسألة السماح بدخول الحانات [في الفرنسية، إذ إن الصغار يوَدُّون أن يُنظَر إليهم على أنهم كبار حتى يتاح لهم ذلك]. لكن الاحتمال الأكبر في مثل هذه الحال أن يكون التخصيص نتيجة للانتقال المباشر بين الحواس عن طريق المفارقة وقَلْب المعنى antiphrais، كما في العبارة الإنجليزية Big deal "أمر خطير! " (التي تعني "أمر تافه") ، أو fine day 'يوم جميل' (يوم سيىء) ، في مقابل:

"A fine time you chose to. . ."

'لقد اخترت يوما جميلا لـ. . . (والمقصود هو العكس) "

و: "fine kettle of fish"

'مجموعة ممتازة من السمك kettle (فوضى) '

وهذه العملية هي ما يمكن لي أن أفترضُه فيما يخص بعض الصيغ التي أوردها كوهين على أنها "الأشكال والصيغ العَصِيَّة" "formes résistantes" (ص ٢٤). ومنها 'نَبَل' التي تدل على "العامة'وعلى "أعيان القبيلة' petites gens, menu peuple; notables d'une tribu. وربما كان تفسير هذا التضاد أن البدو القدماء الذين يَنفِرون بطبيعتهم من القيادة العشوائية والوراثية (انظر جِبِّي ١٩٥١، ص ٢٨) كانوا يُصوِّرون زعماءهم على صورة رجال صِغار يقفون على أعواد كأنها أرجل لهم (استهزاء بهم). أو 'جَلَل' (التي تعني 'الأمر الخطير" و"الهيِّن'). وربما كان سبب ذلك أن فرسان الصحراء قد يَعترفون، مِثلُهم مثل الشخصية الكرتونية "ستانلي' حين يعثر بشخصية "ليفنجستون" في الغابة، بأنهم يواجهون 'شيئًا مزعجًا" في طريقهم.

لهذا ربما يَوَد المرءُ أن يجد أسبابًا حقيقية للاعتقاد بأن السبب هو "التقابُل' بدلاً من "قَلْب المعنى". ففي حالة الكلمة الإنجليزية ecstasy "النشوة الغامرة' يشير أصلها التاريخي

إلى معنى أصلي محايدٍ بين اللذة والألم. وتعني هذه الكلمة في الإنجليزية المألوفة في الوقت الحاضر "الشعور السعيد"، أما في الاستعمال الأقدم فنجد عبارات مثل:

in an ecstasy of irritation/disappointment

'بنشوة من القلق / خيبة الأمل'.

ويمكن لصيغة من صيغ المبالغة أن تكتسب توجُّهًا عُرْفيًا يبدأ من التلازم المألوف أو من العلاقة التي تربط بين النَّمطِ ـ والاستعمال ثم تُستعمَل بعد ذلك استعمالاً مستقلا. ومن ذلك أن الكلمة الإنجليزية cordial 'من القلب؛ أو قلبيًا'، تحولتْ من الاستعمال في السياقات المحبَّبة لتعني "بودّ" بمفردها. لذلك من المستغرب أن تكتشف للمرة الأولى وجود استعمالات قديمة نحو: dislike cordially 'يَكْرَه بودّ" [يكره كرهًا قلبيا].

ومن العبارات التي لا تزال تتأرجح بين الحالتين العبارةُ العامية الإنجليزية: hell-a-mile 'نَعَم بكل تأكيد'؛ و"لا، بكل تأكيد".

Wentworth / Flexner, Dictionary of American Slang, New York (Crowell): [2]1967

وربما كان هذا هو حال الأصل الذي جاءت منه كلمة 'تهانف'، لكنَّ الإشارة إلى الرُّضَّع في تعريفها ربما تحملنا على الظن بأن هذا الانتقال كان مشروطًا تداوليًا. ذلك أن التعبيرات الانفعالية عند الأطفال تتسم بعدم الاستقرار. قارن ذلك بالتعبير الإنجليزي between tears and laughter "بين الدموع والضحك' [بين الضحك والبكاء]. ولا يعني هذا التعبيرُ أنَّ المرء محايدٌ فيما يخص الظاهرتين، أي أنه ليس indifférent "غير مَعْنِيّ بالأمر'؛ بل يعني أن قلوبنا تحوي تناقضًا ما ثم تُعبِّر اللغةُ عن هذه الحقيقة. لذلك نجد تعبيرات في الإنجليزية مثل:

I laughed so hard I cried

'ضحكت بشدة حتى إنني بكيت'

و:

I didn't know whether to laugh or cry

'لم أعرف هل يجب عليَّ أن أضحك أم أبكي"

أما "طَرَب" فلا تخضع لمثل هذا التحليل بسهولة، لكنها لمّا كانت تشير إلى انفعال متطرّف جدًا فمن المحتمل جدًّا أن تتحول فكرةُ الأشياء إلى ضدها حين تصل إلى حدها الأقصى. فالكلمات الدافئة warm words تُستعمَل دائمًا بصورة ودود، في حين تُستعمَل الكلمات المُحمّاة heated words عند الغضب. (وقد تعني "دافئ" أحيانًا "حار"؛ انظر مثلا: شيرر، مفكرة برلين، المدخل الخاص Shirer, *Berlin Diary*, entry for 4 Sept 1939 بيوم ٤ سبتمبر ١٩٣٩"). كما نجد كذلك النوع التقابلي؛ قارن بـ beside oneself "بجانب نفسه" [التقابل عن طريق النَّبر]. وهناك أمثلة أخرى من التقابل مثل:

joie ◄—► douleur

"ألم" ◄—► "فرح/ سعادة"

انظر نيروب: Nyrop 1913: IV 152-3 ، و 1903: 73.

٨ ـ "ضِدّ"، "نِدّ"، "قِتْل" (وبهذا تكون كلمة "ضد" من أمثلة التضاد، وهذا طريف). ويفسر كوهين (١٩٦٨، ص١٦) هذا التضاد بصورة معقولة عبْر "إمكانهم أن يقيسوا بعضهم ببعض":

"la possibilité qu'ils ont de se *mesurer* l'un à l'autre"

وللاطلاع على تفسير مختلف شيئًا ما لحالةٍ تشبه هذه الحالة في الكلمة اللاتينية hostis ، انظر نيروب ١٩١٣، ج٤، ص ١٥٥.

٩ـ ويتحدث نولدكه (١٩١٠، ص ص ٨٣ ـ٨٤) وكوهين (١٩٦٨، ص ص١٦ـ١٧) عن كلمات تعني "الجَبَل"، و"الوادي"، و"يصعد" و"يهبط"، ويشيران إلى الضد النموذجي altus في اللاتينية. ويمكن أن نلحظ هذا التقابلَ الذي يَسبق التَّعجيمَ lexicalization في الكلمة الإنجليزية slope "منحَدَر". ففي عبارة steep slope "منحدر حادّ" يمكن للمرء تخيُّل الصعود؛ وفي slipperly slope "منحدر زَلِق"، يمكن أن يتصور الانحدار؛ وذلك لأسباب واضحة تتعلق بفيزيائية الجسم الإنساني. (أما عبارة Sheer cliff "جُرْف خالص" فصالحة لأن تكون للاتجاهين. أما للذين يُصابون بالدوار فتشير احتمالاً إلى

السقوط المحض؛ في حين يمكن ان تشير عند متسلقي الجبال إلى الصعود). وإذا ما اعترض احدٌ على أن وجهتي النظر يمكن أن تُمَعْجَما lexicalized بشكل منفرد أو بشكل غير متناظر، ذلك أن المنحدر ينتج عنه كلا الأمرين دائما، فيمكنني الاستشهاد بالكلمات التالية: acclivity, declivity, elevator, ascenseur "الصعود"، "الانحدار"، "المَصعَد" (بالإنجليزية)، "المصعد" (بالفرنسية).

ومن انواع الاشتراك اللفظي polysemy المحيرة جدا، وهو النوع الذي يتضمن التضاد، ذلك الذي تتضمنه عبارات مثل: cause to rise, preserve; abrogate "أقام، حافظ على، أبطل" التي نجدها في المصطلح aufheben الذي يغرم به الديالكتيكيون، وهو الذي يُترجَم أحيانًا إلى الإنجليزية في السياقات الفلسفية بـ sublate "يُلغي". فالمعنى الحرفي لعبارة: cause to go up "أصْعَدَ" معنىً أوَّلي. ويوجد في العربية والعربية النموذجية المعاصرة كذلك كلمةُ "إيقاف" التي تعني "الوقوف" [في مقابل الجلوس]، و"القعود"، و"الانتصاب"، و"التوقُّف" (قارن بـ "وَقَفَ"، التي تعني "أن يَقِفَ"، وأن يتوقف").

ويُوجَد معنى "الاحتفاظ بـ" في التعبير put up (احتفظ بالفاكهة). أما Raise "يقيم" فتتضمن معنى "الإيجاد" (بناء عمارة، أو جمع ٥٠٠ دولار) أو "الزيادة" (زيادة الضرائب)؛ ونجد في عبارة raise vegetables "يُنبت الفاكهة"، و: "يزيد الفاكهة" المعنيين كليهما. أما lift "يَرفَع" فتعني في الغالب remove, abrogate "يُلغي، يُزيل"، وتعني suspend "يمتنع عن دفع . . .(المبلغ)"، وهو ما تعنيه الكلمة الفرنسية enlever دائما. كما أنها [أي lift] تُستعمَل كاستعمال raise ، كما في: Interest Rates Lifted in Germany "رُفِعت نسبة الفائدة في ألمانيا" (وهو عنوان صحفي في القسم الاقتصادي في جريدة نيويورك تايمز بتاريخ ١ نوفمبر ١٩٧٩؛ ويعني:

The West German central bank increased. . .

"زاد البنك المركزي في ألمانيا الغربية [نسبةَ سعر الفائدة] "

و:

Government spending, lifted sharply after the oil shock, brought the economy slowly out of a shallow recession (id., 3 Feb 1980).

'زاد الإنفاق الحكومي بجدة بعد هزة أزمة النفط، وهو ما أدى إلى خروج الاقتصاد ببطء من ركود ضحل'.

كما أن الحركة المعاكسة قابلةٌ للاستعمالات المجازية المقابلة، وإن كانت الأبهة هنا ليست غنية بالمِثْل. ويعني "أن تُسقِط" شيئًا drop في العادة أن تُسمح له بأن ينتهي؛ قارن بما ورد في مجلة نيوزويك في عددها الصادر في ١٤/ ١/ ١٩٨٠

He scrubbed new cultural exchanges

'محا "شطَب" التبادلات الثقافية الجديدة'

[ويمكن أن يقول المرء 'dropped' them ، "أسقَطَها"، لو كانت هذه الأمور في طريقها إلى التنفيذ (المؤلف)]

... and dropped a barely veiled threat that US might boycott the 1980 Summer Olympics"

". . . ثم أسقط تهديدًا مُوارِبًا بأن الولايات المتحدة قد تقاطع دورة الألعاب الأولومبية الصيفية لعام ١٩٨٠'

ويَصدُق الشيءُ نفسه على المفاجأة المتمثلة في الإعلان عن إسقاط مقاطعة القمح dropped ، لكن المقاطعة نفسها 'أسقِطت" dropped فيما بعد.

١٠- 'قريبا' (التي تعني "قبْل قليل'، و"بعد قليل"). قارن بالكلمة الألمانية dereinst، التي يقول عنها قاموس Wildhagen ، وربما بسبب انزعاجه من التضاد: nur v der Zukunft ، وذلك بفورة معيارية غير معهودة فيه. كما تُستعمَل للماضي؛ قارن بقاموس جريم الذي يقارنها بالكلمة اللاتينية olim. ويمكن أن نذكُر أيضًا الكلمةَ اللاتينية porro "منذ زمن بعيد'؛ و"في المستقبل'.

ويمكن لأية لغة أن تعبِّر عما تريد التعبير عنه من غير أن تكون فيها هذه الأنواع المعيَّنة من الأضداد، لكن هناك غموضًا أساسيًّا لا يمكن التخلص منه للعناصر الإشارية deixis التي تستطيع دائمًا أن تُطِل برؤوسها من خلال بعض أنواع التلازم أو السياق، وهو

ما يُزعِج محي الاطراد. قارن en tête "قَبْل أي شيء"، و da capo al fine ، في مقابل العبارة: al chief de piece في الفرنسية القديمة "عند نهاية العالم"؛ و in capo all'anno ، وفي الأسبانية al cabo de un año؛ والفرنسية achever "أنْ يَصل إلى النهاية او الخاتمة" .(Rohlfs)

وتعني الكلمةُ العربية "وراء"، في الأساس: "خلْف" و"بَعْد". وعلى الرغم من تشكيك نولدكه في الأدلة التي ترى أن من معانيها "أمام" فقد استمر كتّاب L' Ambivalence يترجمونها بالكلمتين الفرنسيتين: derrière; devant . والواقع أننا نستطيع الظن من حيث المبدأ بأن هذا التفريع يمكن أن يكون قد حدث بصورة عارضة في الأقل.

ويرجّح شابيرو جبُور هذا الأمر بتفسير نفسيّ (L' Ambivalence, 302):

"ما الأسباب التي تدعو إلى اعتبار الكلمة 'وراء' من الأضداد؟ بالإمكان أن نلحظ أن المفردات التالية "دُبُر"، "قُبُل"،، و"ادبر"، "أقبل" التي تدل على الاتجاه مشتقة من كلمات لها علاقة بالمناطق الجنسية".

"Pour quelles raisons le mot *warā'a* est-il un ḍidd? On peut observer que les termes suivants: *duburun*, *qubulun*, et *adbara*, *aqbala* désignant la direction, sont forgés à partir de mots relatifs aux zones érogènes."

ويشير بعد ذلك إلى ورود كلمة "أوْلَج" في بعض الآيات القرآنية، مما لا يتفق مع وجهة نظره. ثم يستمر قائلا:

"إن نفسية العربي تحكمها ازدواجية قوية ومسحة متفاوتة من الإثارة الجنسية السادية الشَّرَجية، وكلتاهما تفسّر إلى حد بعيد تناقضاته التي لا تحصى وتقلباته السريعة، وذلك التلازم داخل ذاته، حتى وهو في حال اليقظة، بين الانفعالات الأكثر تنافرا".

Le psychisme arabe est sous-tendu par une forte ambivalence et un érotisme sadique- anal plus ou moins prononcé qui expliquent bien ses innombrables contradictions, ses rapides volte – face et la coexistence, en lui, même à l'état de veille, des affects les plus opposés."

وهذه ادعاءات قوية! ذلك أن اللسانيين لا يجدون أنهم ملزمون كل يوم بالانشغال بمعالجة مادة لغوية مثل هذه. وسوف يستغرب اللسانيون الذين ينتمون إلى التقاليد اللسانية الأمريكية الخالصة من مجرد إيرادي لمثل هذه الادعاءات، أما المتخصصون في التحليل النفسي فسيجدون في هذه الادعاءات دليلاً آخر على محاولة شخص غير متخصص تفسيرَ مثل هذه الحقائق. أما نحن فسنتخذ موقفًا وسطًا، إذ نشعر أن واجبنا تعريفُ الناس بنتائج العلم الذي تخصصنا فيه إذا ما جرأت التخصصاتُ الأخرى القريبة من اللسانيات على استعمال الأدلة اللغوية. وقد خلَّص اللسانيُّ بنفينست E. Benveniste العالَمَ من أسطورة K. Abel التي أخذها فرويد على وجهها الظاهر[٣]. وسوف نقترح بالمثل أنَّ غموضًا كالذي يمكن أن يوجد في كلمة "وراء" لا ينبع من بعض الخصائص الخاصة بالنفسية العربية كما أنه لا يشير إليها. وذلك للأسباب التالية:

أ ـ كما رأينا في مسألة التعبيرات عن الوقت، هناك غموض لازم في المصطلحات الإشارية النِّسْبية. ذلك أنه حتى المؤلفون الحريصون يمكن أن يقعوا في الفخ. ومن ذلك أنَّ ج. سارتون يحاول بِصَبْر، في مقدمته لكتابه "تاريخ العِلم" History of Science ، أن يُفسِّر المختصرات والوسائل التي سيستعملها في كتابه، حيث يقول مثلاً إنَّ III-1 تعني أن إنسانًا عاش في النصف الأول من القرن الثالث بعد الميلاد. لكنه يَستعمل أيضًا أشياءَ مثل III-1 لتواريخ قبل الميلاد. فهل يعني بهذا النصف الأول ملتفتًا إلى الوراء بادئًا من السنة: (صِفْر)، وهو ما يعني أنه صورة عكسية لتاريخ ما بعد الميلاد، بالصورة التي تأتي عليها القرون والسنين، أم أنه النصف الأول وهو يسير من الماضي المستقبل؟

ويتفاقم عدمُ التحديد من حيث المكان، حيث توضع الأشياء نسبةً إلى الأشياء الأخرى مع "مُقدِّماتها اللازمة" التي يمكن أن تتصادم في سياق نصِّيٍّ أوسع. وهو ما يماثل أن يقف جون، والجاسوس، وماري في صفٍّ بهذا الترتيب. وحين يتحدث "الجاسوس" إلى ماري يوجه وجهه إلى الوراء. ويقول جون بعد ذلك: "لقد كنتُ أمامه، لهذا وصلتُ إلى النافذة قبله". أما ماري فتقول: "طبعًا، لقد رأيته بوضوح، فقد كنت أقف وجهي إلى وجهه تمامًا". فارن بنولدكه (١٩١٠، ص٨٢).

ب ـ حتى إن كان الثراء في الأضداد صحيحًا بصفة عامة، فهو لا يميز إلا العربية القديمة، وهو ما يعني أنه لم يكن مرآة مباشرة لنفسيَّات أفرادِ العرب، فهو لا يعدو أن يكون تلخيصًا للجهود التي قام بها متكلمو اللغة الذين كانوا ينتمون إلى أزمان ولهجات مختلفة. ومع هذا يقابل جبُّور هذه الحقيقة بما يسميه "التجربة اليومية" expérience quotidienne في الوقت الحاضر.

ج ـ ويمكن أن يَكُون الارتباكُ الإنساني فيما يخص المناطق الجنسية حقيقية، لكن الارتباك في التعبير اللغوي عنها ليس مقصورًا على العربية. فالنوع الذي يشبه نمط 'قُبُل/ دُبُر' يَبلُغ حدًّا بعيدًا من التفاهة حتى إنه لا يَستحِق الذِّكْر؛ قارن بما في الإنجليزية: rear "خَلف" (اسم) و go to the rear "اذهب إلى الخلف"، و front "أمام" التي يستعملها الأطفال كنايةً عن الأعضاء الجنسية؛ و backasswards "إلى الخلف [مع إدخال كلمة 'الدُّبُر' وسط الكلمة]، وفي الفرنسية "يتراجع" reculer. ومن الأمثلة التي تلفت النظر بصورة أكبر حالات مثل gigi 'الفَرْج، الدُّبر'؛ و **piece of tail/a 'شيء من الذَّنَب/ الدُّبُر'، في الإشارة إلى المتعة الجنسية. ولا يقتصر الأمر على المساواة بين الأمام والخلف في العامية الإنجليزية، بل هناك كذلك المساواة بين: Top-Bottom "الأعلى والأسفل" ('الفتحة السفلى'، 'استفرغ/ قاء'، 'شفة'، labia, dégorger, bouche inférieure)، وكذلك الأعضاء الذَّكَرية والأنثوية (كما في كلمة cock التي تُستعمَل في جنوب الولايات المتحدة اسمًا للفَرْج [في حين تستعمل في أغلب اللهجات الأخرى اسمًا للذَّكَر]). وإذا ما كانت العربية تخلُط عمدًا بواسطة كلمة 'الرقيقان' فيها (قارن الفصل الرابع) بين الأسفل والأعلى، او المذكر والمؤنث في 'الأنثيان' (أي الصيغة المؤنثة: الخصيتان)، فليست إلا الوجه المقابل للنُّكت والتعابير العامية الموجودة في الإنجليزية عن long nose with a beard "الأنف الطويل ذو اللحية" (كناية عن الذَّكَر)، و little man in the boat "الرجل الضئيل في القارب" [كناية عن الفَرْج]![4]

***

وأختم القسم الخاص بالمعجم بأمثلة متفرقة من الأضداد الأوروبية، التي اخترتُها من غير اهتمام بوجود حالات مماثلة لها في العربية.

Ravel

قارن بـ aufbinden "اربط؛ حِلّ".

The Cold War is getting warmer/heating up

"الحرب الباردة آخذة في الدفء/ الغليان".

(فهل يعني هذا التعبير "أنها في سبيلها إلى الذوبان"؟ أم هو إشارة دبلوماسية مبطّنة للتهدئة؟ أم دلالة على الاقتراب من بدء الحرب الفعلية؟) .

careful

"متأنٍّ"

cautious

"حَذِر"

وتكادان تكونان مترادفتين، لكنني عثرت على تعبيرات مثل:

Horace was cautious to obtrude a new word on his readers.

"كان هوراس حذرًا من إقحام كلمة جديدة على قرّائه".

أي أنه كان حذرًا من إحداث كلمات جديدة إن كان ذلك بمقدوره.

والغالب أنك حين تقول:

He has (a lot of) heart/guts/nerve/balls/. . .

"يتمتع (بقدر كبير من) القلب/ الجرأة/ الأعصاب/ بؤبؤ العين. . . "

فأنت تعني أنه قوي في القدرات المتخيَّلة في هذه الأعضاء، أي أن هذه الأجزاء قوية بصورة خاصة. لكن الجمع nerves "أعصاب" تذهب في اتجاه آخر؛ انظر مثلا:

a case of nerves

"حالة أعصاب"، و:

what was wanted in the East, especially after Prittwitz's panic, was a man of no nerves." (G. Tuchman, *Guns of August*).

"إن ما كان مرغوبًا فيه في الشرق، وبخاصة بعد الهلع الذي ضَرَبَ بريتويتز، هو رجل ليس له أعصاب [قوي لا يخاف] " (من رواية توتشمان "مدافع أغسطس").

"Habib takes a diplomacy break"

" [فيليب حبيب، الدبلوماسي الأمريكي الذي كان يسعى في المحادثات بين العرب وإسرائيل في أثناء ولاية ريجان] يأخذ راحة دبلوماسية".

(وهو عنوان في جريدة سان فرانسيسكو إيجزامنر، الصادر في ٢٦/٦/١٩٨١). وقد فُسِّر هذا التعبير بأنه "فترة راحة من دبلوماسيته المكُّوكية". قابل هذا بالتعبيرين التاليين:

lunch break

cigarette break

"راحة للغداء"

"راحة للتدخين"

وفي العربية "مُقتَوٍ" ("سيِّد"، و"خادم") (كوهين ١٩٦٨:١٦)، و"مُعَبَّد" ("منزَّل في منزلة العبودية"، و"مخدوم بصورة ممتازة") (كوهين، ص٢٧) فواحد مشتقٌ اسميٌ؛ والآخر مشتق فعلي؛ وهما مدمجان بنيويًا؛ و"مولى" ("سيد" و"عبد" (نولدكه، ١٩١٠، ص ٧٣، وأمثلة أخرى وردت في ذلك الموضع). قارن ذلك بالكلمة comat "أمْر" في الفرنسية القديمة، لكن قارن أيضا بـ: commander; commandee. "قائد"، و"مَقود". وفي الفرنسية: hôte ("ضيف"، و"مُضيف").

وفي الأسبانية:

"ما أجملك، يا من عدت خلال نصف ساعة بأوزار نوفسينتو إلى الأصفار المرتفعة إلى القمة".

"Te apucsto. . . que regreso dentro de media hora con los noveciento pesos. – Se to subieron los ceros a lacabeza."

(García Márquez, El Coronel no tiene quién le escriba, Mexico: 1961, p.80)

والتعبير الإنجليزي:

Those zeros have gone to your head

"دخلَتْ تلك الأصفار في رأسك".

أي الأصفار في رقم ٩٠٠. لهذا "فللأصفار"، وهي شاغلةٌ مكانٍ في أرقام العقود الكبيرة، معنى مصطنَع يعني "كمية كبيرة".

ب ـ التركيب:

كما يوجد في العربية الأدبية، وربما بقدر أكثر مما في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي، تركيب تضاديٌّ سطحيّ. وينبع هذا أساسًا من طريقة بناء الجملة غير المستساغ معرفيًا. ذلك أنّ العربية ليست غنيةً بالمُسَوّرات quantifiers ، والأدوات المعرفية، والروابط المنطقية. فيمكن أن تُسْنِد الجملةُ، مثلاً، أوصافًا متعارضة، ثم يُترك للقارئ أن يُعمل فكرَه ليقرر كيف يُقسّم الأوصاف ـ فيمكن أن تتعلق هذه الأوصاف بتفريعات مختلفة لفاعلٍ جمعٍ، أو بفاعل واحد عن طريق فواصل زمنية معينة، أو بأي شيء آخر. (وأجد أحيانًا أن الإنجليزية تُعاق بالكيفية نفسها نتيجة لعدم توفُّر وسائل ملائمة تماثل ما في الفرنسية: éventuel, jeweils 'يحتمل').

لهذا نجد في العربية أن الله خلق الإنسان:

"من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلَّقة وغير مخلقة" (سورة الحج، الآية ٥).

ويجب أولاً أن نفهم أنّ "ثم" لا تشير إلى نشاطات مختلفة من الخلق من العَدَم ـ مما يعني إما أنه خلقَ بعضَ الناس بطريقة معينة وخلق أناس آخرين بطريقة معينة أخرى، أو كما في مدرسة لويس أجاسيز Louis Agassiz، التي تقوم إما على التخلص من النماذج أو على المحاولات غير المتقَنة ـ لكنها تشير إلى المراحل المختلفة لأية طريقة من طرق الخلق الجنينيّة؛ وإذا ما فُهمت الآية على هذا النحو، يصبح الوصف أبعد ما يكون عن الاضطراب، وهو تفسير شعري دقيق للتطور الجنيني. وأخيرًا فيعني التَّناظر "مضغة مخلَّقة وغير مخلقة" من غير شك "نصف مُكوَّن": فقد استُعملت العبارة المتعارضة ظاهريًا لأنه ليس في العربية، مثلها مثل اللغات القديمة الأخرى، آليّة تركيبية مطواعة للتعامل مع الكسور [أقسام الشيء الواحد].

ومثل ذلك: "وما الناس إلا جاهلٌ وحليمٌ" (Reck SV 716, 725). حيث تجد أنه بدلاً من استعمال "أو" استُعملت "الواو"، ومعناها الأصلي العطف، لكنها قد تُستعمَل بمعنى الاستدراك.

ويوجد مثل هذا في الإنجليزية على نطاق ضيق، لكنه موجود. قارن:

Eat some spinach AND I'll give you a nice desert.

"كُلْ شيئًا من السبانخ وسوف أعطيك حلوى ممتازة" [بمعنى "أو"]

في مقابل:

Eat any of my cake AND I'll deck you.

"كلْ شيئا من كَعَكيْ ثم إني سوف أضربك" [سوف أضربك إذا أكلت شيئا من كعكي].

***

وتعني "مع" الاشتراك. فـ ("أ" مع "ب") يمكن أن تعني أن "ب" جاء بصحبة "أ" ويؤكِّد مجيئه، أو يمكن أن تعني "على الرغم من" (رايت، ج٢، ص ١٦٤).

ويوجد مثل هذا في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي أيضا:

With all his money, he should be happy/able to afford this painting.

"مع الثروة التي يملكها، يمكن له أن يكون سعيدًا / قادرًا على شراء هذه اللوحة".

With all his money, he is unhappy/unable to afford this painting.

"مع الثروة التي يملكها، فهو غير سعيد / غير قادر على شراء هذه اللوحة"

و:

fight with (against? Alongside?)

"قاتِلْ مع" (ضدّ؟ إلى جانب؟)

قارن بـ:

Avec tout, Bei all + NP.

والتضاد عامٌ وإدراكي cognitive، وهو في الأصل غير معجمي. (والشبيه المعجمي لهذا هو "بَدَ"، و "قَتَل" اللتان ناقشناهما فيما مضى). ذلك أننا نجد الأمر نفسه تقريبًا مع كل كلمة تصلح أن توضع بجوار كلمة أخرى. ومن ذلك:

Mary looks beautiful next to that bed of roses.

"تبدو ماري جميلةً بجوار ذلك الحوض من الورود"

Next to Midge, Mary looks beautiful.

"إلى جانب . . .، تبدو ماري جميلة"

Given all these problems, it is not surprising that Hanoi is in despair.

"مع كل تلك المشكلات، لن يصير من المفاجئ أن تصاب هانوي باليأس"

في مقابل:

Given all these problems, Hanoi's leaders remain firmly entrenched in power and seem serene and optimistic about the future.

"مع كل تلك المشكلات، ظل قادة هانوي متمسكين بالسلطة ويبدو أنهم مطمئنون ومتفائلون بالمستقبل"

(والمثال الأخير من الاستعمال غير المعهود لكلمة given مأخوذ من أحد أعداد جريدة نيويورك تايمز، ١٩٨٠).

***

ج ـ التناقض mentation

وأكثر تطور ملتوٍ عن الأضداد هو التناقض enantionoetics الذي يشار إليه أيضًا بالتفكير المزدوَج. ولا مراء أن الظواهر الإنسانية تتألف من تيارات يمكن أن يكون لها أهداف متعارضة، لكن هذا التعارض مختلف عن أن يبلغ حدَّ الاعتقاد بأن "الحرب" هي "السلام"، أو أن "الضعف" هو "القوة": ذلك أن مثل هذا التعارض الأخير ليس من قبيل الجدَليّات، بل هو حقيقة، من قبيل الكلام المُبَطَّن الذي يَصدر عن وزارة التضليل Ministry of Disinformation.

وقد ناقش عدد من الكتاب الذين شاركوا في كتاب L' Ambivalence بعض الخصائص الفلسفية والأدبية التي قدّموها على أنها عمومًا إما ثنائية أو متناقضة. ومن ذلك "التعاكس" allopathy (contraria, contrariis curantur)، والنُّكات الأربع، وعلى الأخص "الاختلاف"، بين الآراء الفقهية. وينقل تشارني، وهو أحد محرري الكتاب (ص ١٩٩)، من رسالة الشافعي قوله:

> "قلت: إلى اتباع قولِ واحدٍ، إذا لم أجد كتابًا ولا سنة ولا إجماعًا ولا شيئًا في معناه يحكم له بحكمه، أو وُجد معه قياس. وقَلَّ ما يوجد من قول الواحد منهم لا يخالفه غيره من هذا" (الرسالة (شاكر) باب "أقاويل الصحابة"، ص ٥٩٨).

بل نجد، في عدد كبير من الأحاديث صحيحها وضعيفها، وفي الآراء الفقهية لمختلف المذاهب، عددًا أكبر من الاختلافات. لذلك نجد جاك بيرك (L'Ambivalince 238) يقول:

> "توجد فيها أنواع محيِّرة، تتمثل الحالة القصوى منها في نوع الأضداد المعنوية: أي مجموعة من الأقوال المتعارضة بالشيء نفسه".

Celles-ci offrent une variété bien embarrasante, dont le cas-limite consiste dans une sorte d'*addad* moraux: l'existence de dires opposés sur la même espèce.

لكن النصوص المضطربة والأحاديث المتعارضة لا تُبين إلا قليلاً عن اللغة التي يستخدمها المتكلمون أو الأسلوب الذي به يفكرون[٥]. لهذا لا تعد من قبيل الأضداد المنفلتة. وأسرع طريقة لتفريغ توصيف بيرك وتشارني للتفكير الإسلامي من محتواه أن نتفحص عددًا قليلاً من الجواهر في التقاليد اليهودية المسيحية. ولسنا بحاجة إلى الحفر المتعمق في الزوايا البعيدة في مجموع الآراء التي كان مسلَّمًا بها في القديم، أو أن نتمعن في كتاب the Antikeimenôn الذي ألفه جوليان صاحب توليدو (قارن بصفحة ٢٧٦ من المقال اللافت للنظر الذي كتبه جولفيت في كتاب L' Ambivalence) لكي نعثر على النصائح المتعارضة والمتضادة. ويكفي هنا أن أورد من ذاكرتي بعض الأمثال المشهورة للبرهنة على ما أقول:

The Double Bind
الالتزام الزوجي

Opposites attract.

"الأضداد تتآلف"

Birds of a feather flock together

"الطيور على أشباهها تقع"

Haste makes waste.

"من يتردد يَخسر"

He who hesitates is lost.

"في العجلة الندامة"

Time and tide wait for no man.

"الوقت والريح [في البحر] لا تنتظر أحداً"

Look before you leap.

"تأنَّ قبل أن تقفز"

Beat into swords. (Joel 3:10)

"ليشهروا سيوفهم"

They shall beat their swords into plowshares. (Isaiah 2:4)

"ليحوّلوا سيوفَهم إلى مناجل"

Answer a fool according to his folly, lest he be wise in his conceit..(id. 26:5)

Answer not a fool according to own folly, lest he be wise in his own conceit..(Proverbs 26:4)

The crooked shall be made straight. be made straight (Is.40:4)

"المعوج يمكن أن يقوّم"

That which is crooked cannot be straight(Eccles.1:15).

"المعوج لا يمكن أن يقوَّم"

As the twig is bent, so tree.

You can lead a horse to water but you can't make him drink.

"تستطيع أن تحضر الفرس إلى الماء لكن لا يمكن أن تجعله يشرب"

"كما يمكنك أن تحني الورقة، تستطيع أن تحني الشجرة"

Where there's smoke, there's fire.

"لا دخان من غير نار"

All that glitters is not gold.

"ما كل صفراء ذهبا"

Out of sight, out of mind.

Absence makes the heart grow fonder.

"من غاب عن العين، غاب عن القلب"
Familiarity breeds contempt.
"الألفة تورث العداء"

"الغياب يجعل القلب أكثر حبا"
To know him is to love him.
"المعرفة تزيد المحبة"

فالعبارات الزوجية التي تبدو *أكثر* تضادًا، في هذه القائمة، وهي التي تعطي النصيحة المضادة صراحةً لا تلميحا، هي أيضًا الأزواجُ الأقل إبانةً عن الاضطراب الحقيقي، أو عن عدم القرار، أو الانفصام العقلي. فلا يزيد الأمر عن أن مؤلف كتاب *الأمثال* كان يستمتع بصوغ هذه الأمثال فقط.

د ـ بعض المقتضيات عن الشكل في المعجم:

وإذا ما عددنا الأضداد حالةً خاصة من المشترك اللفظي بَدَل عدِّها حالةً خاصة من الجدليات أو الثَّنَوِيَّة المانوية فيمكننا بذلك أن نُزيح من مجال النظر مسألةً ميتافيزيقية لكن ذلك يتركنا في مواجهة مسألة لغوية. فالسؤال هو: هل تختلف اللغاتُ بعضها عن بعض من حيث نسيج بنيتها، لاختلافها في القبول بوجود المشترك اللفظي؟ وإذا كانت اللغات تختلف في مقادير ما فيها منه، فهل تعود كثرة المشترك اللفظي في عدد محدود منها إلى سرعة التغير الصوتي الذي يقضي على الجناس بصورة عمياء، أم أن الكلمات المشتركة لفظيًّا تخضع بصورة أعمّ لكثير من العمليات الخاصة التي لا تقبل بأحادية المعنى، وذلك كما في الطريقة التي تحولت بها كلمة: carrom إلى: cannon أو تحول الكلمة اللاتينية: fimus إلى: femus ، نتيجةً للجذب أو الاحتواء، أو حين تكتسب كلمةٌ ما استعمالاً محدَّدًا عن طريق قَلْب المعنى antiphrasis أو الاستعارة، مما لم يعد ارتباطه الأصلي محسوسا؟ وتوحي بعض اللغات المفكَّكة كالفرنسية والصينية بإجابةٍ موجبة للسؤال الأول، وبتفسير يُرجِع ذلك إلى التغير الصوتي؛ لكن تأتي قوة هذا الإيحاء من معيار خاصٍّ باللغة المعينة مما تكشف عنه أية واحدة من اللغتين، أي المواجَهة المستمرة بين الأشكال المحكية الغامضة والأشكال المكتوبة الواضحة التي تُحتفِظ، في الفرنسية، عادةً بطور أقدم لِلُّغة. ويمكن لمثل ازدواجية التمثيل هذه أن تُضلِّلنا على نطاق واسع، لأنها لا توجد إلا على نطاق ضيِّق، فيما يخص الطبيعة الحقيقة

للجناس، وهو ما يشبه ما يمكن أن يتأمله متكلم الإنجليزية، أي أننا لو كنا أكثر حرصًا على نطق الحركات بشكل أوضح قليلا لما نشأ في الإنجليزية، بعض المتجانسات، مثل: flour "دقيق"، و flower "وَرْدة"، و: metal "طَبْع"، وmettle "مزاج"، وcurb "رصيف" [يَحُدُّ]، و kerb "رصيف". (وكانت هذه الكلمات كلها أزواجا، في القديم).

ويُنظر الآن بصورة عامة إلى العربية على أنها *أقل* اللغات السامية تغيُّرًا من حيث الأصوات. أما في اللغات الهندية الأوروبية فتبلغ السنسكريتية في محافظتها درجةً تماثل محافظةَ أيِّ لغة أخرى من حيث الأصوات الصامتة (وبما أن المغايرة بين الحركات apophony لا تزال حيّةً في اللغات الهندية الأوروبية كما في اللغات السامية، فأغلب القيمة التمييزية ينحصر في الأصوات الصامتة)، ومع هذا نقرأ قولاً كالتالي:

"إن كثرة حالات الاشتراك اللفظي ملمح من ملامح معجم اللغة السنسكريتية".

C'est une des particularités du lexique sanskrit, que les polysémies y sont fréquentes. (P. Meile, in L' Ambivalence, 335)

وتفسير مابيه لحقائق السنسكريتية قريب جدًّا مما يَعمَل في العربية، كما نعتقد، وهو ما يجعلنا نورد استشهادًا طويلاً مما قاله (المرجع نفسه):

> يَستثمر الكاتبُ مختلفَ المعطيات التي تضعها كتب النحو والمعاجم بين يديه بدرجة من الانتظام تسمح لنا بأن نقرر في آخر المطاف أن كثرة المفردات ذات المعاني المتعددة هي أقرب إلى أن تكون بتأثير من الأساليب الفريدة من نوعها إلى حد ما التي تعتمدها المؤلفات المعجمية الهندية منها إلى كونها ظاهرة طبيعية في اللغة [السنسكريتية]. فكلما برز للفظة الواحدة ملمح دلالي معين في نصٍّ ما، أو سُجِّل ملمحها الدلالي ذاك مباشرة في المعجم، إذا به يَثبت لها فيصير بالإمكان استخدامها على ذلك النحو بشكل منتظم دون حاجة إلى الظرف أو السياقات التي ظهر فيها ذلك الملمح الدلالي. وينهل الشعراء، من جهتهم، من المعجم، فيعاملون الفروق الدلالية الدقيقة التي سُجِّلت للفظ الواحد فيما يبدو كأنها متكافئة. . . ولا ينطبق الازدواج الدلالي المقصود على الألفاظ فقط إذا كانت منفردة، لكن أيضًا على مجموعات الألفاظ وحتى الجملة كاملة. ففي النوع الأدبي

[السنسكريتي] المعروف بـ . . . *kâvya* . . . وهو نوع من الشعر يتميز بدرجة خاصة من التنميق، يمثل الازدواج الدلالي ملمحًا أسلوبيًا منتظمًا يبذل الشعراء الهنود لتحقيقه قدرًا خارقًا من البراعة.

L'écrivain exploite systématiquement les données fournies par les traités grammaticaux et lexicographiques, si bien qu'on peut dire qu'en dernière analyse cette abondance des polysémies est moins un phénomène spontané de langue qu'un effet des méthodes assez singulières de la lexicographie indienne. En effet, chaque fois qu'une nuance de sens a été mise en évidence dans un texte, ou même directement enregistrée dans un lexique, elle se fixe, et peut être utilisée systématiquement, sans référence aux circonstances ou aux contextes dans lesquels cette nuance est apparue. Les poètes puisent dans le lexique et semblent considérer comme équivalentes toutes les valeurs du mot qui ont été enregistrée. . . . Il y a ambiguïté volontaire non seulement sur des mots isolés, mais aussi bien sur un groupe de mots ou même toute une phrase. Dans le genre littéraire. . . *kâvya*, . . . une poésie particulièrement raffinée, l'équivoque est un procédé constant, et les Indiens y déploient une ingéniosité inouïe.

وسوف يَقرَع هذا النصُّ مجموعة من الأجراس لدارسي الأدب العربي، من بدايته إلى نهايته. وسوف نتناول الدَّور الذي تؤدِّيه المُعْجَمَةُ في الفصل الأخير. أما "تحويل" الكلمات والعبارات القديمة في السياقات الجديدة détournement فأحد النتائج المحتملة لـ "التلميح" و"التضمين" (آربري، ص ٢٥). ويبدو أن جمالية الـ *kâvya* تتماثل مع التسلية السائدة في العربية التي وصلتْ ذروتها في مقامات الحريري.

ويؤكد مايبه بالمِثْل الوجهَ الجنسي للاشتراك اللفظي في لغة التامل. أما في الإنجليزية فأقرب شيء لذلك ما يتمثّل في أنواع الكلمات غير الملائمة والمبتذلة التي يأتي بها المتلعِّبون بالكلمات: ويتبيَّن منها أنَّ ما يتوافق مع عبقريتنا الجمالية ليس الجناس بل هو الجناس الناقص، نحو:

writhe, lithe, slithy, slithery, slippery, sloppy, slimy, mimsy, flimsy, filmy, silky, milky,. . .

ويُفسِّر الرنينُ الدلالي للارتباطات الثانوية الطبقاتِ الغنيّة للمجموعة التي تبدأ بالتتابع الصوتي: . . .sn ، والانشغال النَّشِط الذي توحي به اللاحقة o- (في مثل:

neato, keeno, boffo, right-ó. weirdo, wacko, loco, psycho, gonzo, bizarro, "I went bonzo"

قارن بالكلمة الفرنسية dingo "مجنون").

لكنَّ هذا لا يَنطبق على التلعُّب الشديد الذي تنتجه سوابق ولواحق مثل:

post, meet (v., adj.), -meat-mete, to-two-too,

التي تبدو لي، بوصفي متكلمًا للإنجليزية، كلمات مثيرة للحنَق وحسب.

ويَشهَد هذا، فيما أحسب، على نوعيةِ جانبٍ كبير من المشترك اللفظي في العربية. وليس من الممكن إحصاء كِمّيّته بسهولة، إضافة إلى الصعوبة الدلالية في مسألة إحصاء المعاني التي توجد في اللغات كلها: وهي الصعوبة التي تأتي من مسألة ما الذي يُمكن عدُّه معجمية. (ويمكن أن يكون هذا السؤال مُضْجِرا، وهو سؤال أثار نقاشًا طويلا، لكنني، وأرجو أن تتحمل ذلك معي، لستُ مَعْنيًّا بالتعريفات والشكليات السطحية، بل سأسارع إلى مناقشة المردود الدلالي). فإذا ما قصَرنا النظرَ على الجذر المُكوَّن من الأصوات الصامتة وحدَها فإن كمية المشترك اللفظي ستُصبح هائلة. وانطلاقًا من هذه الخطة يمكنني عَدُّ الجذر [ك ت ب] غير غامض فيما يخص "كِتاب"، و"مكتب"، و"مكتبة"، و"كاتِب"، و"مكتوب"، ذلك أنه يمكن التنبؤ بالفروق بين معانيها إلى حدٍّ كبير عن طريق الوزن[٦] أما ما يتجاوز ذلك فسيظل غير بعيد عن "كَتَب"، فيما تُمثّل "كتيبة" فصيلةً دلالية مختلفة في نطاق الجذر. ويمكن للخطة التي تسعى إلى اكتشاف العناصر الذرية للكلمة أن تفسِّر الجذر [ك ت ب] على أنه أُحادي المعنى في التصريفات التي يَظهر فيها كلِّها، ذلك أنه لن تكون هناك أيةُ صيغة مفرَدة غامضة، وهو خلاف ما نجده في جذر مثل [ج د ر] الذي يأتي منه "جَدْرَ" والصيغتان المختلفتان صوتيًا: "جُدِرَ" و"جَدَّرَ" (أصيب بالجدري). ويَتمثَّل الاعتراضُ على الطريقة الثانية في أننا نتوقع أن تكون صيغةُ المبني للمجهول "جُدِرَ" والفعلُ المزيد "جَدَّرَ" صيغتين للمبني للمجهول والفعل المزيد للفعل المجرد، على الترتيب، بالإضافة إلى تطور دلالي ضئيل يُمكن التنبؤ به من ذلك المعنى. وتشبه هذه إلى حد ما المشكلةَ التي نجدها في الإنجليزية وتتمثل في التردد بين عَدِّ الجناس في كلمة (.v) bellow "يخار" والصيغة (.bellows (n. pl. tant

"منفاخ". (بغضّ النظر عن الصدفة الصوتية المتمثلة في مشابهة الصيغة الأخيرة مع الفعل المسند إلى المفرد الغائب).

أما صلة كلّ ما قلته هنا بالتضاد فكما يلي. فقد صنّف كوهين (١٩٦٨، ص٨) عددًا من الجذور التي أوردها العلماء العرب القائلون بالتضاد على أنها "أضداد غير حقيقية" ذلك أن الجذر وحده، لا الوزن، هو الذي يشارك في زوجي المعنى المتضادين، نحو: "تَرِبَ"، "أتْرَبَ". ويمكن أن نعترض بصورة أولية على هذا التصنيف بأنه لما كانت لا توجد أية دلالة متفق عليها للوزن "أفْعَلَ" تُجعَل من الممكن أن يُشتق معناه من الفعل المجرد، فإن هذا الزوج غريب بعض الشيء، في الأقل، بل حتى إن لم يكن "ضدًا" خالصًا فهو يدعو إلى أن نقترح وجودَ فكرة ثالثة يمكن أن نشتق منها الزوجين كليهما ـ لكن هذه الطريقة ليست إلا واحدة من الطرق المعروفة لتفسير الأضداد، وهو ما يعني أننا نمارس النوع نفسه من التحليل الدلالي. زيادة على ذلك يُمكِن الظنُّ بأن الصرامة الاشتقاقية العربية قوية بما فيه الكفاية، وهو ما يعني أنه حتى إن افترقت المعاني المتنازعة في صيغتي الفعل المجرد والصيغة "أفعل" فسوف يلتقي هذان الزوجان فجأة، سواء أكان ذلك في صيغة "فعّل"، أو صيغة "استفعل"، أو في صفةٍ للمبالغة، أو أي شيء آخر، من الصيغ المتماثلة صوتيًا مما تنتجه الآلية الصرفية. فلا بد للكلمة في العربية من أن تكون قريبة من الكلمات المجاورة لها.

وهناك ما يَدُل على صحة هذا الظن بأوضح صورة في الحالة التي بين أيدينا. فقد أورد إدوارد لين مَركزَي المعنى التاليين، أي: "افتقر حتى التصق بالتراب بسبب الفقر" (قارن بـ "تراب"، وهي التي يبدو أنها الكلمة الأساسية هنا)، و"صار غنيًا، كأنه قد امتلك ثروةً تُماثِل التراب في العَدد" وذلك للأوزان الثلاثة: "فَعَلَ" و"فعّل" و"أفعَلَ". وهو ما يدل على وجود مجازٍ عامٍّ يَعمل هنا. وقد أورد لين الجملة: "تَرِب بعد ما أتْرَبَ" (افتَقَرَ بَعْد غِنى) وربما كان هذا هو سبب جزم كوهين بأن "صيغة الفعل المجرد تعني: "فقير"، وتعني "صيغة أفعل": "غني"" (وإن لم يَعنِ ذلك صيغتيْ "يَكُون" في مقابل "يُصبِح"، اللتين لا بد من عكسهما هنا [كان غنيًا فافْتَقَرَ])، لكنَّ هذا لا يُبرهِن على أن "تَرِبَ" و"أتْرَبَ" فعلان مختلفان في الحقيقة على هذا النحو. وهناك توجُّه علماني للتمييز بين المترادفات، وأحيانًا عن طريق القوة إن

كان هناك حاجة لها، وهي الطريقة التي أسماها بْريل بـ "التقسيم": répartition ، في كتابه "مقال في الدلالة": Bréal (Essai de Sémantique). وهو توجُّهٌ من أعظم التوجهات التي تعمل على تغيُّر اللغة والإغناء اللغوي. ويكون هذا التوجه قويًا بصورة خاصة حين تكون الكلمات التي سيُميَّز بينها متقاربةً في الشكل أيضا، ذلك أن التمييز في هذه الحالة، وهو الذي يُجعَل بيّنًا أو ضمنيًّا بإظهاره على شكل صيغة متضامّة، سيصبح في منزلة القول المأثور. قارن بالعناوين الصحفية التالية:

Much Motion, Little Movement

"كثير من الحركة، قليل من التحرُّك" (جريدة نيويورك تايمز، العدد الصادر في ٣٠ نوفمبر ١٩٨٠، في تقريرها عن التحركات الدبلوماسية غير المثمرة فيما يخص العلاقات مع إيران)

He is a graceful loser, but is not a good loser

"يتحلى بالكرامة في خسارته، لكنه ليس خاسرًا جيدا" (من أقوال جودي باول [المتحدث باسم الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر]، التي أوردتها مجلة نيوزويك، ٧/ ٤/ ١٩٨٠)

All the psychoanalytic readings of the play treating the incest theme. . . agree that it is a matter of father-daugher incest. . . . The fairy-tale evidence would suggest that it is 'daughter-father' incest rather than 'father-daughter' incest!

"تجمع كل قراءات التحليل النفسي للمسرحية التي تعالج موضوع سفاح الأقارب . . . على أن سفاح الأقارب هنا هو "سفاح أب بابنته". . .

ويوحي الدليل المأخوذ من هذه الأسطورة بأن هذا السِّفاح "سفاح بنت بأبيها" بدلا من أن يكون سفاح أب وابنته! ".

(من كتاب: A. Dundes, *Interpreting Folklore*, Bloomington (Indiana) 1980:216

عن مسرحية شكسبير "لير". وعلامة التعجب التي جاءت في موضعها الملائم في النص موجودة في النص الأساسي)

وقد جمعتُ كمًّا كبيرًا من مثل هذه الأمثلة؛ قارن أيضًا بـ: Gamillscheg 1951:169 ، فيما يخص كلمات: conter, compter ؛ و: H. J. Rose, *Handbook of Greek Mythology*, New York: 1959, p. 173، عن كلمة dryad في مقابل hamadryad.

ونفضّل، إذن، أن نعدّ الأوزان المختلفة للجذر نفسه منضوية تحت الافتراض بأنها تنتمي إلى المجال الدلالي نفسه، وأنها تعد أضدادًا إن كانت معانيها متضادة، بعد أن نطرح منها ما يُسهم به الاشتقاقُ فيها. انظر، مثلاً كلمة 'طَرَدَ' في مقابل 'طارَدَ'. فيُعد وزن "فاعَلَ" في الأكثر صيغةَ المُغالبة conative للفعل المجرد، ومع ذلك يعني هنا "يسعى ليمسك بـ" لا: "يسعى ليَرُدّه". أما في منهج كوهين فهاتان الكلمتان مجرد كلمتين مختلفتين بمعنيين مختلفين، وهذا لا يلفت النظر. ومع هذا يساورنا القلق إن كانت جملة:

John hit Bill

"ضرب جون بيل"

تعني:

John hit Bill

في حين تعني جملة:

Bill was hit by John

"ضُرِب بيل من قبل جون"

أن:

Bill was given a dollar by John

"أعطي بيل دولارا من قبل جون"

على الرغم من انتفاء الغموض. فإذا ما قبلنا كون "طرد ـ طارد" نوعين حقيقيين من الأضداد، وإن كانا نوعين خاصين، فسوف يوجه هذا أنظارنا إلى احتمال وجود تفسير دلالي ديناميٌ ينتمي إلى نوع التفسير الذي تكلمنا عنه في القسم "أ". ومن الممكن أن يَخيب أملُنا، ذلك أنه يمكن أن يتضح أن هذا النوع لا يعدو أن يكون جناسًا لا يلفت النظر أو أنه إجمال بنيوي structural syncretism ليس له مقتضيات دلالية خاصة. وهناك ما هو أكثر من ذلك فيما يخص الحالة التي بين أيدينا. ومن غير استقصاء للتفصيلات سأشير ببساطة إلى الكلمة الفرنسية chasser "يطرد، يتتبّع، يقتنص"؛ والكلمة æhtære في الألمانية الوسيطة العليا، التي تعني Verfolger; Verfolgter "المطارِد"، "المطارَد" وكون الكلمتين اللاتينيتين vênor, vênari "أن يقتنص" شاهدتين على ذلك.

وبهذا المنظور الواسع ربما أمكننا أن نصنف تحت مظلة دلالة الأضداد أزواجًا مثل: upset "يُفسِد" في مقابل set up "يَنْصِب" (في مقابل المترادفات overturn, turn over "يَقلِب")؛ shameful and shameless 'مملوء بالخزي وقليل الحياء' (في مقابل mirthful, mirthless "مَرِح"، 'قليل المرح")، قارن بالكلمة اللاتينية: verecundus التي كانت تعني: 'schamhaft', schüchtern'، "حيِيّ، خجول" ثم صارت تعني فيما بعد: 'schamlos' 'فاحِش".

***

ولكي نضع أيدينا على الخيوط المكوِّنة لنسيج المعجم ربما يحسن أن نكتشف الكيفية الوصفية المجرَّدة التي يَعمَل بها التضادُّ أو المشترك اللفظي 'المُعجميَّان' في السياق. فيحتمل أن تكون الكلمة اللاتينية altus ، مثلاً، واضحة دائمًا في السياق (إذ يمكن أن تشير إلى 'سحابة'، أو بئر، . . .) من غير أية تحفظات خاصة. يضاف إلى ذلك، أنه:

ربما لا نرغب أنْ نعُد كلمة spouse ('زوج'، في العربية) تضادية، ذلك على الرغم من احتمال وجود بعض السياقات التي تكون فيها غامضة بين الزوج والزوجة (وهذا النوع من الغموض هو الذي يمكن أن نُسمِّيه بالغموض المُقدَّر [المعروف مقداره])، وعلى الرغم، كذلك، من أن الزوج/ الزوجة متضادان تضادًا حقيقيًا، بخلاف الأنواع الغامضة الفرعية المتعددة التي يطلق عليها كلمات مثل uncle 'عَمّ'، 'خال"، و brother-in-law 'زوج الأخت'. ومن ذلك في الإنجليزية the teacher's spouse 'زوج المدرِّس (ـة) '. ذلك أن السبب لا يعود فقط إلى أن لـ spouse مجالاً واسعًا غير محظوظ من التأويل، بقدر ما يعود إلى كون فعاليتها، مثل كلمة parent 'والِديْن'، تنبع من تجاهل أحد التمييزات التي ربما نرغب تجاهلها (وهذا واضح في الكلمات المصطنعة مثل sibling "قريب من حيث النَّسَب'، أو grue التي تعني: green ، و blue):

All members of the club should bring their spouses to the annual banquet.

"ينبغي على كل أعضاء النادي إحضار أزواجهم للحفل السنوي". دعنا نسمي مثل هذه الكلمة bivalent "ثنائية التّكافؤ".

ومما يؤسف له ان هذا المعيار لا يتسم بحدود صارمة. افترض، مثلاً، أن لدينا كلمة مثل haltus* التي يمكن أن تعني "طويل جدًا" أو "قصير جدًا" وتستعمل لوصف الأشخاص. فيمكن أن تنشأ مثل هذه الكلمة من قلْب المعنى antiphrasis: ومثال ذلك أن يوصف شخص قصير جدًا بأنه Stretch "ممطوط". ويمكن عند ذلك أن نتخيل وجود بعض الاستعمالات لهذه الكلمة بشكل مماثل لكلمة spouse، نحو:

The police force will not consider applications from haltus candidates.

"لن تنظر الشرطةُ في الطّلبات التي يقدمها المرشحون المطوطون".

We specialize in clothing for the haltus customer.

"نحن متخصصون في الملابس التي تصلح للزبائن المطوطين".

(ومن الممكن لبعض المتاجر أن تستعمل مثل هذه التعبيرات. ذلك أننا نشاهد بعض الإعلانات الموجهة للرجال "الضخام والطوال" big and tall ، وهو ما يبدو غريبًا إلى أن نعرف أن المقصود هو الرجال الـ tall or fat "الطوال والسُّمان"). أما الشعور بأنها كلمة إما تضادية أو أنها كلمة ثنائية التكافؤ فربما لا يَعتمد على التعريف الحَرْفيّ لها بل على العوامل الاجتماعية. أما نتيجة قلب المعنى antiphrasis فستبدو تضادية بشكل غير مريح، وسوف يُكتَب النجاح في نهاية الأمر لأحد معنييها. قارن على نقاط مختلفة في الطريق حتى الانتهاء إلى التعبيرات الجامدة التي تُوسَم بكراهة التعبير dysphemisms :

a real winner

"فائز حقيقي"

a fine time

"وقت ملائم"

(وكذلك التعبيرات المستكْرَهة التي تتولد عن صيغ الماضي لـ: choose "يختار"، و pick "التقط"، و come at "تعال إلى"، لكنه لا ينطبق على have إلا إذا قُدِّمت)، و:

a likely story

"قصة محتَمَلة"

a fine kettle of fish

"فوضى ممتازة".

وإذا ما تطورت الظروف الاجتماعية إلى حدٍّ يصبح عنده هذا *الاستعمال* ثنائيُّ التكافؤ ملائمًا في الغالب (وقد يكون ذلك نتيجة لحركات المطالبة بحقوق العرجان والممطوطين والغمْي)، فربما يُشعَر بأن هذه الكلمة ثنائية التكافؤ تلقائيًا، وإن لم ينتج عن ذلك haltus تغيُّرٌ في تعريفها المعجمي.

***

ويتقاطع شيوعُ التضاد بصورة طبيعية مع مشكلة فاعلية vitality الكلمات التي نجدها في القاموس، وفي الاستعمال العَرَضي كذلك. فهل كلمة "أترب" (التي تعني غني/ فقير) مُعْجَمَةٌ حقيقية حيةٌ تتسم بغموضٍ لازمٍ يُشبه الكلمةَ الإنجليزية want "يَرْغَب" (كما في الجملة: James wants breeding "يرغَب جيمس في التوالد") أم أنها نوع من الاستعارة المضغوطة المتصلة بـ"تراب" التي يمكن أن تكون عرضةً للتكرار من مؤلف إلى مؤلف لكن يظل معناها غير محدّد دائما؟ ويمكن أن تكون في الحالة الثانية بمثابة أن يحاول المرء المقارنة: His riches are like dust "مظاهر غِناه تُشبه التراب"، وهي التي يمكن أن تعني أن هذه المظاهر كثيرة، أو أنها تُنزَّل إلى منزلة العَدَم (ومن المحتمل أننا سنستعمل:

sand: beach vs. hourglass

"الرمل: الشاطئ في مقابل: الساعة الرملية")

ويمكن لهذه المقارنة المصطنعة أن تُصبح عُرْفيّة، بل يمكن أن تعيش بالمعنيين المتضادين كليهما، وذلك كما حدث فعلاً مع:

A rolling stone gathers no moss

"لا تجمَع حصاةٌ متدحرِجة أيةَ طحالب"

(حين يستعملها بعض الناس في مخاطبة وكيل شركة سفريات، وقد يستعملها آخرون لتعني الحَذَر، انطلاقًا من الاختلاف في فَهْم كلمة moss : وهي كلمة "ضِدّية" حقيقيةٌ للتضام الذي يبدو في عبارة Double Bind (من مجموعات: "التلازم الزوجي"؛ ومع هذا ربما لا يمكن أن

نقول إن الإنجليزية نفسها، من حيث البنية، تُبين عن وجود التضاد هنا. يضاف إلى ذلك أنه ليس لأيٍّ من dust "تراب" أو moss معنيان متضادان بوصفهما كلمتين مفردتين، بل كان ذلك لأن الاستعارات بل وأنواع الإسناد العُرْفيّة قلما تكون واضحة. والخلاصة أن الأسباب لا حصر لها. لذلك فالفرق بين الإنجليزية والعربية في هذه الحالة ربما لا يعود إلا إلى أن العربية، بسبب قوتها الاشتقاقية، يمكن أن تضغط الاستعارات في ما يشبه أن يكون *كلمة مفردة*.

التعليقات

(١) ـ للاطلاع على خلفية هذا، انظر مقال إجناس جولدزيهر:

"I.. Goldziher, "The Shucûbiyya and its manifestation"

"الشعوبية ومظاهرها" في كتاب Muslim Studies 'دراسات إسلامية' وبخاصة ص ص ١٩٧ ـ ١٩٨، وبحث بلاشير:

R. Blachère, "Origine de la théorie des addad"

في كتاب: L' Ambivalence dans la culture arabe، خصوصًا، ص ٤٠٠.

ومن الواضح أن بعض العلماء العرب القدماء قرروا أن الهجوم الجيد أحسنُ وسيلة للدفاع: 'وكَرَدٍّ فعلٍ أورد النحويون العرب الأضدادَ بوصفها أمثلة على العمق الباهر للغة العربية التي تشهد على طواعية عظيمة حين يريد المرء أن يعبّر عن أفكاره'. (C. H. M. Versteegh، في الكتاب الذي حرره فريستيغ وآخرون، ص ١٧٧)

(٢) ـ وقد نظر إمبسون Empson (١٩٣٠، ص ١٩٥) إلى الأضداد كما يلي:

> والعربيةُ مثالٌ صارخ على الحنكة العقلية اللازمة لاستعمال كلمة ما تتسم بأنها تغطي نقيضَها هي، فعلى الرغم من وجود عدد كبير من هذه الكلمات فيها تعود هذه الكلمات إلى أصول أحدث، ثم طُوِّرت بوصفها أسلوبًا أدبيًّا رشيقا. والدليل على ذلك أن الأمثلة الكثيرة التي نجدها في الإنجليزية من هذا النوع (نحو: a 'restive' horse، التي تعني حصانًا ضَجِرًا لأنه كان مرتاحًا لمدة طويلة) غالبًا ما تكون تطورات تالية بالطريقة نفسها.

ويتضح من الأمثلة التي أوردناها في (١) و(٢) أن هذا الأمر أعمق من ذلك بكثير؛ لكن نمط 'البَرْدان' يبيّن، إضافةً إلى ذلك، أنه بحاجة إلى استقصاء أكثر (انظر الفصل الرابع، القسم (١)).

ومن الأمور المهمة جدًّا، بسبب مخالفتها لآراء فرويد والمتقصين للعربية، تلك النتائج التي انتهى إليها إمبسون من توصيفه:

> لذلك أعتقد، وإن كان هذا لا يعدو أن يكون تحيُّزًا مفيدًا يمكن عن طريقه مقاربة هذا الموضوع، أنه على الرغم من أن هذه الكلمات تتلاءم مع العادات الأساسية للعقل

الإنساني وهي نتيجة لعدم المنطقية، إلا أنها مما يمكن توقُّعه من الحالة المعقَّدة جدًا للُّغة والشعور.

وكتاب إمبسون بأكمله مهم جدًا في موضوع الدلالة. قارن على وجه الخصوص الفصل السابع فيه بما يتصل بهذا الفصل، وقارن فصلَه السادس فيما يتصل بمعالجة التكرار والتعارض في الفصل العاشر في هذا الكتاب.

(٣)_ "Remarques sur la fonction du langage dans la découverte freudienne," La Psychanalyse I, pp. 3-16.

(٤)_ ولا بد لي بكل دقة أن أذكر "حَرَمَ الجُحْرانَ" (إدوارد لين، في مادة: "ج ح ر")، أيْ أنَّ: the pudendum et podex mulieris [القُبُل والدُّبر] مُحرَّمان في أيام الحيض. لكن مثل هذه المثنيات التي رأيناها من قبل، ليست إلا توريات أدبية غالبًا.

قارن أيضا بـ"قُرْط"

'membrum genitale pueri' 'mamma, uber';

(فريتاغ، عن القاموس).

(٥) ـ ويمكن أن تأتي أكثر الحالات إقناعًا من الحالات التي يؤكِّدها المؤلفون بصورة علنية على أنها نوع من التعادل بين المتناظرات ـ لكن هذا النوع كذلك يمكن أن يعد في الغالب نوعًا من التوريات الأدبية. ومن هذا قول ابن حزم في طوق الحمامة ([دار الهلال، ١٩٩٢، ص ص ٤٦-٤٧]: "الأضداد أنداد"، ويعطي أمثلة من الإحساسات الخارقة التي تنتج عن برودة الثلج، والفرَح المفرِط الذي يَقْتُل، كالغم الشديد، والدموع التي تسيل نتيجة الضحك الشديد.

(٦) ـ وتتمثل المقاربة الأكثر تحررًا من هذه المقاربة في الكلام عن الغموض الذي يمكن أن ينتج عن الهيكل الصوامتي حين يمكن أن يعني شيئًا معينًا إن كانت الحركات فيه من نوع، ويعني شيئًا آخر إن كانت من نوع مختلف، كالاختلاف بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول. ومن الواضح أن هذا خطأ وما كنت لأذكُره أبدًا لولا أن جاك بيرك المشهورَ استعمله بشكل جادّ في الكتاب الذي حرره هو وتشارني L' Ambivalence 349 بخصوص الكلمة التي وردت في سورة الروم "غَلَبت/ غُلِبَت" (والقراءات مختلفة فيها). مستعملين تحليلاً لسانيًا خاطئًا ليبنيا عليه بعض التخرصات الاجتماعية المشكوك فيها. وقد قاده تهويلُه من "الصيغة المختلفة الناتجة عن مجرد تغيير في الحركة" "simple jeu d'une nuance vocalique" (ويذكِّرنا هذا بالاستعمال

العامي لكلمة inflection "التصريف" في كلام الناقد الذي ورد في جريدة نيويورك تايمز وافتتحنا به هذا الكتاب: إذ إنها ليست أقل "دقة" من أي اختلاف مميز مفرَد آخر) إلى أنْ يكتب كلامًا ساذجًا عن "لَبس" و"التباس": وقد تجاهل أن يذكر "لَبِس" بمعنى "اختلط عليه الأمر".
وفي التقاليد العربية، حيث كان هناك تاريخيًا قَدْرٌ من الحشو في بعض الأمثلة في الغالب (قارن بالفصل السابق) نجد أن النحوي قطرب (توفي فيما بين القرنين الثامن والتاسع الميلاديين) يُضمِّن كتابه "الأضداد" كلمات من أوزان مختلفة، نحو "خذم"/"أخذم" و"ترب"/"اترب"، ولم يتابعه أحدٌ من النحويين الذين جاءوا بعده في ذلك عموما. (قارن فريستيغ، المرجع نفسه، ص ١٧٥).

الفصل الثامن

أسماء النوع

من الأوزان الصرفية المتنوعة التي يجمعها معنى مشترك واحد في العربية صيغة "فِعْلَة" التي تؤدي معنى "الطريقة التي يُنفَّذ بها الفعل": مثل "جِلْسة"، و"قِعْدَة"، اللتين جاءتا من الفعلين: "جَلَس" و"قَعَد"، على الترتيب؛ و"عِمَّة" (الطريقة التي تُلبَس بها العمامة)، أما الفعل من هذه المادة فهو إما "اعْتَمَّ" أو "تَعَمَّم" (رايت، ج١، ص ١٢٤)؛ و"طِعْمة" من الفعل "طَعِم"، المشتقة من الاسم "طعام" (أما الكلمة المألوفة للأكل ("أَكَل") فربما لا يأتي منها وزن "فِعلة"، لأسباب تتعلق ببعض القيود الصوتية).

والمصطلح العربي لهذه الفصيلة هو "اسم النوع" (وجَمْعُه: "أسماء الأنواع")، وقد ترجمه رايت بـ nomina speciei، و nouns of manner أو nouns of 'kind' (ج١، ص ١٠٩). والمصطلح الأخير هو الأقرب للمصطلح العربي، لكن ربما لا يَحسُن تفضيله بسبب غموضه من حيث الدلالة، كما يوحي مباشرة بأنه ترجمة للمصطلح "أسماء الجنس". وبشكل مماثل لن نستعمل المصطلح الذي جاء به دي ساسي "اسم التخصيص" nom spécificatif (ج١، ص ٣٠١)، لاحتمال اختلاطه بالمصطلح الآخر "التمييز" (انظر فلايشر في كتابه .Klein. Schrift).

وأورد هنري فليش المصطلح nom de manière "اسم النوع" بوصفه واحدًا من الأنواع السبعة المشتقة من الفعل développement nomino-verbal إلى جانب الأنواع الأخرى المشتقة كـ "المصدر" و"اسم الفاعل" (١٩٦١، ص ٢٦٧). وتوحي معالجة رايت، كذلك، بأن هذه الصيغة تُشتق بشكل مطرد، وهو ما نستخلصه من بعض الصيغ الغامضة مثل "نِيمَة" (طريقة في النوم) و"خِمْرة" (طريقة في الاختمار)، وكذلك من المَثَل الفروسي اللطيف الذي أورده (ج١، ص١٢٤):

"سوءُ الاستمساك خيرٌ من حُسْن الصِّرْعة"

[النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ص٥٦٩]

وربما كان هذا نوعًا من الشعور المعاكِس المتوقَّع من المشارك في المنافسات الرياضية الشريفة التي يمثِّلها القول: "ليس المهم أن تكسَب أو تخسر. . . "

وكنت أحسِب في البداية، لأني كنت أجهل فرضية ستوكس: أن هذا مما يُبرهن على أننا هنا في حضرة أمةٍ تمتاز بدقة الملاحظة حتى إنه لا يمكن لأي حَدَث يَحدُث إلا ويُعبَّر عنه بصيغة ما، إذ يمكن التعبير عن كل عمل مما يمكن أن يكون موضوعًا للملاحظة الصارمة بمقتضى هذه الطريقة بنوع الأسلوب الذي أُحدِث به.

لكن الأمر يخالف هذا الظن.

فهذه المقولة مهذبة well-profiled بمعنى أن اسم النوع "يأتي على وزن "فِعلة" دائمًا" (رايت ج١، ص ١٢٣)، لكن لوزن "فِعلة" من جهة أخرى استعمالات أخرى (ومن ذلك صلاحُها لأن تكون صيغةً لجمع القِلَّة)، يضاف إلى ذلك أنه: إذا جاء المصدرُ على وزن "فِعلة" فلا بد لنا من أن نلجأ إلى الإطناب حتى نستطيع التعبير عن فكرة "اسم النوع" nom. Speciei ، بوصفها "نوعًا مـن" (نحو: "حَمَيْتُه نوعًا من الحِمْيَة"، الخ). ومع هذا فغالبًا ما يَلجأ بعضَ المتكلمين إلى المصدر، بل إن بعض الكتّاب يلجأون دائمًا إلى المصدر في أية حال، أي إلى "جُلُوس" بدلاً من "جِلْسَة"، من غير سبب ظاهر، ذلك أن صيغة المصدر التي تُنتج ليست أقصر أو أقل تحديدًا. قارن بقوله تعالى، سورة الشورى، الآية ٥١):

"وما كان لبشر أن يُكلِّمَه اللهُ إلا وَحْيًا أو من وراء حجاب"

ويلاحظ وات (Watt, Companion, ad loc) أنه يبدو أن "وحيًا" هنا لا تشير إلى "الوحي" بصورة عامة، بل تشير إلى "نوع من الوحي"؛ ويؤيد هذا أن هذه الآية تبين "أنواعًا" أخرى منه.

ولا يُبِين هذا المثالُ عن شيء كبير، ذلك أنه ربما يبدو كأنه حالة من الاندراج الجناسي hyponymy، مثل man (جنس الإنسان) و man (الإنسان المعيَّن) بدلاً من كونه مَزْجًا للطريقة بالحَدَث، لكن حالات أخرى توحي بشكل أوضح أنَّ ما بين أيدينا من قبيل "الإجمال" syncretism. ومن الأمثلة على ذلك أن الغراب في كليلة ودمنة (طبعة بومباي،

ص٢٠٠) أعجِب بالطريقة التي تمشي بها الحمامة فقرر أن يمشي بتلك الطريقة. لكنه حين حاول أن يعود إلى مشيته الأولى وجد أنه أضاعها:

'وصار أقبحَ الطيرِ مَشيًا"

ويتبين من هذا أن الكاتب نفسَه يُمكِن أن يَستعمِل 'اسم النوع' و"المصدر" للتعبير عن فكرة الطريقة التي يُنجَز بها الحدث.

***

ويُصنِّف فيشر، خلافًا لفليش، (W. Fischer (Grammatik, 77 صيغة أسماء النوع على وزن 'فِعلَة" بأنها ببساطة نوع واحد من بين عدد غير محدود من "مجموعات المعنى" Bedeutungsgruppen ، التي تتسم بأنها ليست مُشتَقَّةً من الفعل غالبًا، القريبة من بعض المقولات الأخرى التي تتسم بأنها نظريًا أكثر تحديدا، نحو <فِعَل> 'للأشياء التي تأتي بصورة زوجية'، و<فُعال> 'للأمراض"، و<فُعال> و<فُعالاء> "للطيور"، و<فاعِلاء> 'لمساكن بعض الحيوانات"، وهي الأوزان التي لا تُعدُّ، بالإضافة إلى تعبيرها عن المقولات التي تتسم أساسًا بأنها غير مطردة دلاليًا، الصيغَ الوحيدة أو حتى الغالبة للتعبير عن هذه المجموعات من المعاني: ذلك أن معظم الكلمات الزوجية الطبيعية لا تأتي على وزن "فِعَل"، كما هي الحال مع: 'عِدْل"، (نحو: عين، يد، كتف، رِجل، أذن، حذاء، . . .)، كما لا تأتي أغلب أسماء الطيور على وزن 'فُعال(ـاء)' (فوزن "فُعفُع' وتنوعاته ليست أقل شيوعا)، الخ. ومع أن خطاطة فليش تصور المبدأ بطريقة أفضل، إلا أن خطاطة فيشر تبدو أقرب إلى اللغة كما تُستعمَل بالفعل (إذ تترك الإمكان مفتوحًا دائمًا لاحتمال أن تكون المَقولةُ، في طور أقدم من اللغة، مطردةً بشكل كامل ودائم: لكن يجب الا يغرينا هذا بأن نتوقع أن هذا ما حدث، ذلك أن اللغات بصورة عامة ليست أكثر اطرادًا في تاريخها القديم: وبدلاً من ذلك يمكن الظن بأن بعض الأفكار الصرفية الدلالية تحدُث ثم تصل إلى أوْجها وتترك أثرَها في اللغة بعد أفولها).

***

ويبدو من حيث المبدأ أن "النوع" شيء بارز يمكن ترميزه. وذلك للأسباب التالية:

١ـ فهو مطرد دلاليًا. ذلك أنه يُمكننا، إذا ما أعطينا أيَّ فعل تقريبًا، أن نتحدث عن الطريقة التي أُنجز الحدثُ بها حتى إن كان الحدث لازمًا أو مجردًا إلى درجة ما. لهذا فـ"عيشة" واحدة من أكثر أسماء الأنواع شيوعا. (من الفعل: "عاش").

٢ـ وهو من أبرز الكلمات الوظيفية في عدد من اللغات. فهناك كلمات للاستفهام أحاديّة الصرفيّة للتعبير عن المسند والمسند إليه (الفاعل أو المفعول؛ الذي ينقسم إلى (["حَيّ"]، [غير حَيّ]))، والزمن، والمكان، والنوع؛ (والأمثلة التالية من العربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية):

من/ ما، who/what, wer/was, qui/que, quién/qué, kto/što

(مع صرف النظر عن بعض التفصيلات مثل: whom, wen, qu'est-ce qui)

متى، when, wann, quand, cuándo, kogda

أين، where, wo, où, dónde, gd^{ye}

كيف.، how, wie, comment, cómo, kak

ومن جهة أخرى لا توجد أداة استفهام للتعبير عن الآلة، حيث يُستعمَل في التعبير عنها الإطناب أو النحت: "بماذا"، with what, what. . . with, wherewith (المهجورة)؛ mit was (womit), avec quoi ، الخ. كما لا توجد أداة للسؤال عن المستفيد، ذلك على الرغم من وجود الفصيلة التركيبية التي تدل على المفعولات غير المباشرة بصورة مؤدَّبة:

Close *me* that door, will you?

"اقفِل ذلك البابَ لِي، أيمكن لك ذلك؟"

في مقابل: **whom* did you close that door?

"لِمنْ قفلت الباب؟"

ولا يوجد كذلك أداة للاستفهام عن "الهدف" أو"الغاية" لحدث ما (وهو الذي يُصنَّف مع "المفعول المباشر" الذي يشبهه شبهًا دلاليًا ضعيفًا؛ وتظهر بعض الكلمات للسؤال عن الأهداف تَحمل شيئًا ما في ظاهر الجملة، وبعضها يُسبَق بحرف جر)، في حين تقتصر الأداة whither على التعبير عن غاية الحركة. أما السؤال عن السبب فتستخدم الإنجليزية له الكلمةَ البسيطة why، في حين لا تَستخدِم العربيةُ ومعظم المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي مثل هذه الطريقة البسيطة (لماذا، what. . . for, pourquoi, warum, porqué ((para qué), počemu).

أما الأسماء المشتقة فلا تتماثل مع هذا بصورة دقيقة. فيوجد في العربية مقولات صرفية مشتقة من الفعلِ في فصيلة الإسناد، لكنها تنشطر إلى القائم بالحدث Agent ، ومَنْ وقع عليه الحدث Patient بدلاً من انشطارها إلى (حي، وغير حي)، نحو: "اسم فاعل" (نحو: "كاتِب")، و"اسم مفعول" (نحو: "مكتوب"). وهذه المقولات الصرفية مطردة كاطراد أية اشتقاقات فعلية أخرى في العربية. بل يُمكِن القول إن مصطلحاتٍ مثل: "الفاعلية" و"المفعولية" قد تكون أكثر ملاءمةً لتسمية هذه الفصائل إن لم تكن تُستعمَل بصورة مشوَّشة لتعني أشياء أخرى كثيرة، ذلك أنه ليس ضروريًا أن تكون صيغة "فاعل"، *دلاليًا*، هي الذي قام بالحدث، كما أن "مفعول" ربما تستعمل لمفعول حرف الجر أيضا.

ويقال تقليديًا إن في العربية أسماء مشتقة للزمان ("اسم الزمان"، انظر رايت ج١، ص ١٢٤ وما يليها)، وتماثِل صيغتُها صيغةَ أسماء المكان، أما من حيث الممارسة فهذه الأسماء محدودة تداوليًا باشتقاقها من الأفعال العلاجية التي يُعَد وقتُ حدوث الحدث فيها مُهِمًّا أو موسِميًا - فيمكن أن نصوغ اسم الفاعل "عاطِس" لكن لا يمكن أن نصوغ "مَعْطَس" (زمن العطاس). ومن الأمثلة (التي أوردها رايت) نجد "ميلاد" (وقت الولادة) (ويُظن أنها من الفعل "وَلَد"، والحسن من ذلك أن تكون مشتقة من "وُلِد")؛ و"مَنْهَل" (زمان أو مكان سقي الإبل) مشتقة من "نَهِل"، حيث يحتمل أن تكون زيادةُ تحديدِ الاسم إن كان هناك شيء منها خصيصةً لغوية عامة للمشتقات الفعلية لهذا يجب ألا تُستعمل ضدَّ تصنيف "مَنْهَل" على أنه اسم للزمان؛ "مُنْصَرَف" (وقت العودة). وبعض الأمثلة الأخرى التي تصنف تقليديًا هنا

ليست مماثِلَة تبعًا للخطاطة التي اقترحناها (who did it, when he did it, where he did it ،'من فَعله؟'، 'متى فعله؟'، "أين فعله؟"، الخ). ولا تعني صيغة 'مَوْعِد' أو 'ميعاد' (إلا في بعض الأحيان) "الوقت الذي وَعَد فيه"، بل تعنيان "الوقت المتفق عليه" (وهو تال لوقوع حدث الوعد)، أي: "الوقت الذي يجب أن يُنفَّذ فيه الوعد"، أي "نهاية المُهْلَة" (والاستعمال ليس مطَّردا، لكن النقطة المنطقية واضحة). ويمكن الظن بأن اللغات ليست بحاجة ماسّة إلى أسماءٍ للزمان (بهذا المعنى)، أو يحتمل أن تضعها في غير موضعها إن كانت فيها، وذلك لوجود مُنحَدر زَلِق في دلالة الحيِّز بين وقت الحدث وحقيقته:

John's return was joyous/on Tuesday.

"كانت عودة جون مُفرحة/ في يوم الثلاثاء"

Parting is such sweet sorrow/a time for tears.

"الافتراق نوع من الحزن اللذيذ/ وقت للبكاء"

وأسماء المكان أكثر عددا. وهي لا ترمز للحدث التام "المتقطع" [الذي يأتي على فترات منتظمة] punctual تماما (في الإجابة عن السؤال: Where did/will it happen? ، "أين وقَع/ أين سيقَع'، كما في 'مَصْرَع" (من الفعل 'صَرَع") أي الزمان أو المكان الذي طُرِح فيه شخصٌ ما من على فرسه أو "قُتِل". وغالبًا ما تعني أسماءُ المكان "المكانَ الذي يَحدُث فيه حدثٌ معيَّن في العادة" ومن هنا فإنها في طريقها منذ البداية إلى أن تتخصص دلاليًا، ومن ذلك: 'مَشْرَب" التي كانت تعني في الأساس: 'المكان الذي يُشرَب منه" ثم تحولت إلى: 'المَوْرِد'؛ و"مجرى الماء'؛ و'صنبور الشُّرب"؛ و"الحانة' (حيث نجد تحديدات مختلفة للمعنى في الأزمنة المختلفة)؛ ونحو تحوُّل 'مَكتَب' لتعني 'مدرَسة'. كما أن هناك أسماء للمكان مشتقة من الأسماء وتُصنَّف تقليديًا بأنها 'أسماء للكثرة'، لكن وليم رايت كان مُحِقًا في تصنيفه لها بأنها "لا تزيد عن كونها نوعًا من أسماء المكان وحسْب'، ذلك أنها تماثلها في الشكل والمعنى كليهما، حيث تُستعمَل في جواب سؤال نحو: "أين توجد (الأَسُود)'، مثلا)) في مقابل: "متى سيكون (وقتُ الحصاد)'، كما يتوازى التخصيص في التعبير عن الكثرة، كما في "مَأسَدَة"، مع حالة العادة كما في "مَشْرَب'، كما أنه متوقَّع تداوليًا،

ذلك: إذ أنه لا يمكن أن نتصور أسدًا واحدًا يُجَرجِر وراءه مَأسَدَةً مفرَدَة كظِلِّه وهو يتجوَّل، إلا إذا كان يشبه مخبري الفيلسوف كُوِن الذين يَنحون نحو الترجمة الوجودية المتطرِّفة حيث يتراءى لهم أنهم يسكنون عالمًا مسكونًا بأوصال من لحم الأسد أو "قِطع من الأرانب" rabbit- whiles. فحبةٌ من البطيخ لا تُكوِّن "مَبْطَخة".

وأسماء المكان والزمان، إلى جانب كونها مشوَّشة دلاليًا شيئًا ما، ليست مهذبة well- profiled من حيث الصرف بصورة تقارب التهذيب الذي تتسم به أسماء النوع، ذلك أنها لا تتوافق بعضُها مع بعض وحسب بل تتوافق كذلك مع اسم المفعول في كثير من الحالات. ويمكن أن نسمي جزءًا فرعيًا منها محدَّدًا تحديدًا ضعيفًا ill-defined بأنه أسماء للغاية، وهي التي تُستخدم في الإجابة عن أسئلة نحو: . . Whither do you. 'إلى أين. . . ' (بمعنى مجرَّدٍ لـ whither غير مقصور على الحركة) نحو: "مَرْمَى"؛ و"رأى"؛ و"مَقصِد".

وتُرَمِّز مجموعةٌ صغيرة من الصيغ المهذبة أسماءَ الآلة (نحو: "مِبْرَد"، من الفعل: بَرَدَ)؛ وهي محدودة تداوليًا لكنها كثيرة بعض الشيء. ولا توجد أسماء للسبب، على حد علمي؛ وما يوجد منها لا يزيد عن كونه تخصيصًا شاذًا لمقولات أخرى. بل ربما يَصعُب تصور وجود لغة فيها هذه المقولة بوصفها مقولة صرفية دلالية مطردة اطرادًا تقريبيًا: كأن يكون لدينا كلمات مثل: alarmo* "سبب للانزعاج"، و refuso* "سبب للرفض"، و bello* "سبب للكون في حالة billi"، و"جِلسٌ" "سبب للجلوس"، نحو: "ما جِلسُ إخيل في خيمته؟". لكن قد يكون من الخطل أن نقلل من قوة الخلق في اللغة. ذلك أن تاريخ الفرضيات التي تقول بـ"استحالة" أو بـ"عدم وجود" بعض الأنواع من المفردات المعجمية غير مشجِّع. ومن الأمثلة على ذلك، وهو مثال لم يتعرض له أحد بالنقاش على حد ما أعلم، ما قاله تشومسكي في كتابه Aspects (ص٢٠١): من "عدم وجود كلمات في اللغات الطبيعية لكلمات مثل: LIMB، التي تشبه المعجمية limb "عُضْو" عدا أنها تُسمِّي شيئًا مفردًا من الأرجل الأربع لكلب. . . "، ثم يلاحِظ بحقٍّ أنه لا شيءَ يمنَع منطقيًا من وجود هذه الكلمات. والواقع أن هناك كلمات شبيهة جدًا بها موجودة في بعض اللغات نحو: ,rouage

Gebeine التي صيغت عن طريق بعض اللواحق ويمكن أن تتوسع لتصبح فصيلة شبه مطردة.

***

وقد رأينا بعض الأسباب التي تجعل اسم النوع مرغوبًا فيه وأنه من حيث المقولة التي يصنّف بها فصيلةً صرفية دلالية واقعية. ومع هذا هناك من الأسباب ما يَجعلُنا نشكُّ في أن أسماء النوع كانت كثيرة ومطردة في نثر *العربية*، وإن كان من الصعب أن نعرف ذلك من النصوص التي لا تُكتَب فيها الحركات. ومن أسماء النوع الستة التي أوردها دي ساسي (KK 301) لم تَرِد ثلاثة منها في معجم هافا (وهي: "وِعْدة"، و"عِذْوة"، و"رِمْيَة")، ووردت اثنتان منها بترجمة لا تعني أنها من أسماء النوع، ولم يورد إلا "كِتْبة"، و"قِيمة". ويمكن أن يعني ذلك إما أن هذه الأسماء تُشتَق اشتقاقًا آليًا مطردًا جدًا مما يجعلها لا تُستحق الإيراد، وهو ما يعني كذلك أن جامع المعجم لم يكن مطردًا في عمله ـ وعدم اطراده أمر لا مفر منه ـ ذلك أنه يورد أحيانًا اسمَ نوعٍ معين؛ أو أن الوزن الذي تأتي عليه هذه الأسماء نادر جدًا بحيث لا يستحق الإيراد تحت كل جذر؛ أو أنه تأليف من هذين المتضادّين، فأسماء النوع نادرة لكنها إن وجدت يمكن التنبؤ بمعانيها من صيَغها. لكن لا تمثّل الحال الأخيرة حقيقةَ هذا الأمر، كما سنرى في الأمثلة التي سوف نوردها من معجم إدوارد لين.

وأضاف دي ساسي نفسُه أن الأسماء الرباعية أو المشتقة لا يأتي منها أسماء نوع (وذلك غير صحيح، انظر: "عِمَّة") ، ثم إنه: "لا بد من ملاحظة أن الشعراء يخلطون أحيانا بين صيغتيْ "فَعْلَة" و "فِعْلَة""

"il faut même observer que les poëtes confondent quelquefois les deux formes *fa9la* et *fi9lat*".

ويعني هذا أن للمثل اللطيف الذي أوردناه فيما سبق روايةً نجد فيها "صَرعة" (فليشر).

وسوف تبين بعضُ الأمثلة التي ترد في سياقاتها المعالَجةَ غيرَ المبالية للأسماء من صيغة "فِعلة":

يقول طه حسين في كتاب الأيام (ج٢، ص ٣٨):

"أن يغيّر جلسته فيجلس القرفصاء" (اسم نوع).

وهو ما يدل على استعماله "اسم نوع". ويوحي السياق في الفقرة التالية من هذا الكتاب (ج٢، ص ١٥٥) بـ"اسم النوع" لكن الصيغة التي استعملت هي "مَجلس"، وهي اسمُ مكان صرفيًا:

"لا أعرض عليكم هذا الرأي حتى تجلسوا مني مَجلِس التلميذ من الأستاذ".

ولا يتلاءم أيٌّ من الكلمات المكافئة التي أوردها هانز فير في معجمه مع كلمة "مجلس" هنا. وتستمر الفقرة مع احتفاظ كلمة "مجلس" بمعناها الأكثر أساسية الذي يعني "المكان":

"ولكن واحدا منهم. . . نهض عن مجلسه. . . فجلس على الأرض متربعا"

وربما كان أحد أسباب هذا التنوع أنه يمكن أن يُوجَد نوعان من "النوع" الذي يشار إليه هنا، أيْ "توجُّه" جسْمي posture ، أو توجه عقلي، يَتمظهَر أو يُعبَّر عنه مجازًا بالتوجُّه المادي (ولكلمة attitude "التوجه" نفسها المعنيان كلاهما؛ أما posture "الوضع" فهي المعنى الأقدم)؛ أو أنه يمكن أن يكون الأستاذ نفسُه كان يعني حرفيًا أنه يجب على زملائه أن يجلسوا متربعين على الأرض أمامه. وثنائية التكافؤ عامة، ويمكن مقارنتها بما قلناه عن عدم استقرار أسماء الزمان. وهناك مسار ثنائي الاتجاه بين الحدث واسم النوع: إذ إن nomen actionis "اسم الفعل" يمكن ببساطة أن يؤوَّل تأويلاً نوعيًا في السياق (انظر مناقشتنا أدناه لعبارة John`s driving "قيادة جون")، كما أن من الممكن أن يعاد امتصاصه ليدخل ثانية في اسم الحدث. لهذا نجد في فقرةٍ من ألف ليلة وليلة، ويمكن مقارنتها بالفقرة السابقة، شاعرًا يقول في المجموعة الشعرية التي حررها بينار Birnner ed. Chronicle:

"يمشون تحت ركابه فَرَحَ اللِّقا مَشْيَ القطاة إلى لذيذ المشرب"

ونجِد بالمثل، في كتاب الأيام (ج٢، ص ١٥)، فقرةً تتضمن اسمين للنوع بمحاذاة الاسم العادي:

"كان مستخذيًا في نفسه من اضطراب خطاه، وعجزه من أن يلائم بين مشيته الضالة الحائرة ومشية صاحبه المهتدية العازمة العنيفة".

وختامًا، هناك عدد من الأمثلة التي تخص فكرتين نالتا أكبر قدر من المعالجة بالنظر إليهما على أنهما من أسماء النوع في العربية، وهما فكرة الحياة وفكرة الموت.

يقول طه حسين في كتاب الأيام (ج٢، ص١٦٤):

"عاش معهم عيشة الأديب... وكان أيسر شيء... أن يذهب الطلاب مذهب شيوخهم".

حيث نجده يستعمل اسم النوع "عيشة"، ثم يستعمل المصدر "مذهب" الذي يتوازى دلاليًّا وتركيبيًا مع اسم النوع.

وكثيرًا ما يشار إلى الطريقة التي يموت بها أحد الناس باسم النوع، كما ورد في كليلة ودمنة (ص ١٧٢): "قُتِل أشنع قِتلة". وبالمثل: "ميتة" "الطريقة التي حدث بها الموت" (وليس من الضروري أن تكون طريقة عنيفة). وحتى في العربية النموذجية المعاصرة يترجم هانز فير "ميتة" بأنها "الطريقة التي يحدث بها الموت" فقط، غير أن هذه الكلمة تستعمل أيضًا بوصفها اسم فعل وحسب:

"وما العيش إلا ميتة بعد ميتة" (خوري - الجار، ص ١٣٢).

قارن بـ "رَقدَة" التي ترجمها هانز فير بـ "النوم، طريقة في الاستلقاء، وضع الاستلقاء"؛ ولم يورد "رِقدَة".

***

ويبدو واضحًا أن أسماء النوع على وزن "فِعلة" لم تعُد تُستعمل بشكل مطرد أو قوي في العربية النموذجية المعاصرة أو في التحقيقات المعاصرة للمخطوطات العربية القديمة. ولا يمكن أن نلغي احتمال إهمال المحققين للحركات التي لا تُرسَم في الغالب أو للحركات القصيرة التي تُنطَق نطقًا غامضا (نحو تحوُّل الكسرة إلى فتحة؛ انظر دي ساسي)، خاصة أن

هذه الطريقة ستميل إلى الاستفحال حين تبدأ اللغة في فقْد إحدى فصائلها الصرفية نتيجة هذه العمليات التي تؤثّر في الحركات القصيرة. قارن بتحقيق جوليان C. Guillén لكتاب:
Lazarillo de Tormes (Dell edition,NY: 1966, p. 88):

Pues estando yo en tal estado, pasando la VIDA que digo, quiso mi mala fortuna, que de perseguirme no era satisfecha, que en aquella trabajada y vergonzosa VIVIENDA no durase.

وقد ترجم جوليان في إحدى تعليقاته كلمةَ vivienda بـ"طريقة في الحياة"، ثم أضاف أن المحقّقَ السابق J. de Luna "صحَّح" الكلمةَ إلى vida.

***

وللاطلاع على غزارة أسماء النوع التي رويت في *العربية* القديمة تفحّصتُ ثلاثة مواضع اخترتُها عشوائيًا من معجم إدوارد لين. ولم أذكر فيما يلي جذورَ الأفعال التي يبدو أنها لا تصلح لأن يُشتق منها أسماء للنوع وهي التي لا يظهر في مداخلها وزن "فِعلة". وكانت النتائج كما يلي:

"شَئِمَ"؛ "شِئْمَة" (ميل فطري للشؤم؛ وليس لها معنى الشتيمة).

"شَبِحَ"؛ "شِبْحَة"

"شَبَرَ"؛ "شِبْرَة"

"شَجِنَ"؛ "شِجْنَة"

"شَحَنَ"؛ "شِحْنَة"

"شَدَّ"، و"شَرَّ"؛ "شِدَّة" و "شِرَّة" (وهما مصدران للفعلين).

"شَرِبَ": وهي موضوع مفضل عند الشعراء لكننا لا نجد "شِرْبَة" لتساعد في مناقشة "الشرب بتؤدَة، أو مع إحداث صوت، أو الترشُّف"، الخ. ولا يمكن أن يُتخذ هذا وسيلةً للافتراض أن العرب لا يهتمون بآداب المائدة وهو ما يؤدي إلى عدم مُعْجَمَتِهم للألفاظ الدالة عليها. انظر مثلاً كلمة "جَرْدَبَ" (والجذر البديل لها: "جَرْدَمَ") (وتعني حيازة الأكل

بوضع اليد عليه؛ ذلك أنه يأكل باليمين ويمنع الآخرين بالشمال). وقد استعملت هذه الكلمة في الشعر، كما استعملت في السياقات الأقل.

"جَبا"؛ "جِبوة" (جباية) "وهي طريقة في جمع الخراج"؛ لكنها تستعمل أيضا مرادفًا لـ "جبى".

وبالمثل "جِزْيَة" التي تعني الشيء الذي يُعَدُّ على أنه "جزاء"، لا الطريقة التي يُجمَع بها.

"جِبِلَة": مثل "خِلقَة" التي تعني أن شيئًا خلق (من الجذر: [خ ل ق])، ويمكن أن تعني شيئًا مصطنعًا أو خصيصة، لكن يمكن أن نجد، بهذا المعنى، كلمة "جِبِلَّة" وتنوُّعاتها الأخرى.

"جَثا": وهذا فعل يُحتمل أن يأتي منه اسم نوع، ذلك أن هناك عددًا مختلفًا من أوضاع الركوع وقد تكون هذه مهمة في المجتمع الإسلامي؛ ومع هذا فتأتي "جِثوَة" جنبًا إلى جنب مع "جُثْوة"، وجَثوة" وتعني كومًا من الحجر.

"جَذا" ويَعِد هذا أيضًا، دلاليًا، بمجيء اسم نوع منه (قارن بـ "قَوَام" والكلمة الانجليزية: stance "موقف")، لكننا لا نجد إلا "جِذوة" ـ "جُذْوة".

"جَزَع" بمعنى قَطَع؛ غير أن "جِزْعة" تعني "جزء من" (وبعض المعاني الأخرى القريبة منه، كما في "قطعة من لحم" (وهي "مُؤثَّر فيه")، لا "قطعة" من ثوبه (وهي "نوع"). ومثلها الجذران: (ج ز ل) و(ج ز م).

"طَبَّ" (تَداوى)، الخ؛ "طِبَّة" (قطعة من قماش).

"طَبخ"، "طَبَع"، "طَبَل"، "طَرَّ": وليس لها أسماء نوع!

"طَبَقَة"، وليست اسم نوع.

"طَبِنَ" (فهم)؛ و"طِبْنَة" (فَهْم، ذكاء)، وهي التي يمكن أن تُؤوَّل على أنها نوع من أسماء النو لكن ذلك غير ضروري.

"طَحَل" (مَلأه)؛ (طُحلَة، طِحلَة، طَحلَة").

"طحا" (طُحْيَة، طِحْيَة، طَحْيَة").

"طَرَد"؛ "طِرْدة"

***

فتمثيل هذه المقولة "باختصار" مخيب للآمال بوضوح.

والآن وقد رأينا مقولةً صرفية دلالية للنوع في العربية، نسأل أنفسنا عن الكيفية التي تتعامل بها الإنجليزية واللغات القريبة منها مع هذه الفصيلة الدلالية نفسها صرفيا.

فيمكن أن تُستعمَل كثيرٌ من "المصادر المُذيّلة" gerunds أسماءً للنوع. لهذا فعبارة: John's driving "قيادةُ جون" غامضةٌ بين تأويلها نوعًا أو حقيقة:

١ـ:

John's driving bothers me. I've never seen anyone so reckless.

"تزعجني قيادة جون، لم أر أحدًا بمثل تهوُّره"

٢ـ:

John's driving bothers me. He's a regular A.J. Foyt, but he doesn't have his license yet.

"تزعجني قيادة جون، إنه سائق في مهارة السائق الشهير فويت، لكنه لم يحصل على رخصة قيادة بعدُ"

وحين يكون للمصدر المذيَّل (ما يمكن أن يكون دلاليًّا) مفعول مباشر، يمكن لأيٍّ من التأويلين أن يفضَّلَ أو يكون لازمًا عن طريق وجود الحرف الرابط of أو عدم وجوده:

٣ـ نوع:

John's handling the crisis (is deft in every detail)

"تعامل جون مع الأزمة (رشيق في تفاصيله كلها)".

٤ـ حقيقة:

John's handling the crisis (while his boss is ill should be a big plus for his career).

"تعامل جون مع الأزمة (في غياب رئيسه لا بد أن يكون هذا شيئا موجبا لعمله")

فتتميز حالةُ النوع بأنها اسمية ـ إذ ليس هناك تغيُّر نحو تركيب الماضي التام فيها، كما في: was deft ـ أما الاستعمال الحقيقي، في الإنجليزية الأدبية، فيمكن أن يتصرف: (having handled. . . was) "لمَّا كان تعامله. . . ".

ولما كانت الخَيْرة نفسُها تُظهَر في عدد لا يحصى من الأفعال، فمعنى ذلك أنها حقيقة صرفية - تركيبية بدلاً من كونها حقيقة معجمية. لكن للكلمة handling "تصرُّف، تعامَل" على وجه التحديد معنى على أنها اسمٌ للنوع أيضا، وهو معنى ليس بحاجة لأن يُفرَد تركيبيًا، وهنا، فقط، يمكن أن يكون لها معنى مبني للمجهول:

٥ـ:

The roadster beats the station wagon in mileage and handling.

"تتفوق السيارة من نوع رودماستر على السيارة التي من نوع السيارات العائلية من حيث توفير الوقود ومن حيث الصيانة"

في مقابل:

٦ـ:

Foyt beats out his competitors in acceleration and cornering.

"يتفوق السائق الشهير فويت على منافسيه في السرعة والمناورة في القيادة"

ويتماثل هذا المعنى لـ handling "التعامل" في كونه تعبيرًا مَثَليًّا بدقة مع معنى العبارة: cost of processing "كلفة الإعداد" في الجملة التالية:

"The postage and handling together came to two dollars."

"كلُف إرسال الرسالة والتعامل معها دولارين"

هذا لا يمكن، مثلاً، أن نُحل driving "قيادة السيارة" مكانَ handling "التعامل" في (٥)؛ وقد تكون كلمة steering "المهارة في التحكم بحركة إطار القيادة" صحيحة نحويًا في هذا الموضع لكن استخدامها لن يكون استخدامًا مَثَليًا.

وتشبه الكلمة fingering "الإشارة المبتذلة بأحد الأصابع" أو "استعمال الإصبع في عمل ما" [صَوْبَع] الكلمة handling في معنييها النوعيَّين المبني للمعلوم والمجهول:

٧ـ:

John's bowing and fingering were impeccable.

"كان انحناء جون وإشارته بإصبعه دقيقين"

٨ ـ:

The fingering on this instrument is difficult.

"التعامل بالأصابع مع هذه الآلة صعب"

ولا نجد في بعض الأسماء غير المشتقة إلا معنى المبني للمجهول للنوع، نحو: the build of the athlete "بنية الرياضي" [بناء الرياضي] (قارن بـ "خِلْقَة"؛ حيث الفاعل متضمَّن، أي الخالق) لكن لا نجد هذا المعنى في الكلام عن معماري؛ ويُستعمَل الاسمُ cut "قَطْع" في الكلام عن المَلْبَس، لكنه لا يستعمل عن الخيّاط (في الكلام اليومي؛ وأنا لا أعدل أيَّ شيء بحقائق الكلام Fachsprache)؛ ومثَّل ذلك، جملة وورف:

"old-fashioned grammars, formal and even 'classical' in cut"

"الأنحاء التقليدية، شكلية، بل "كلاسيكية" من حيث النوع"

إذ إن النحو، لا النحويين، هو الذي استُعمِل له الاسم الذي يشبه النوع.

ومع أنه ليس لدينا ما يكفي من الوقت للتوسع في مناقشة هذا الأمر، فأرجو أن قد اتَّضح أن هذه الأسماء للنوع الخاصة المبنيةَ للمجهول، كما هي الحال في المصادر المذيَّلة النوعية المبنية للمعلوم والأكثر اطرادًا، أننا لا نتعامل هنا مع فصيلة صرفية ـ دلالية تحديدًا، بل، بدلاً عن ذلك، مع نتائج توجُّهٍ تركيبي/ دلالي متحرر في الإنجليزية؛ وهو التوجه الذي يُنتِج، في حالة أسماء النوع المبنية للمجهول، أنماطًا نحو:

"the book sells/the car handles well"

"الكتابُ يَبيع بصورة" [يباع].

"السيارة تتعامل بصورة جيدة" [يمكن التعامل معها].

***

فهل أسماء النوع "صنف مُعَمّى" في الإنجليزية، حيث تتصف بعدم وجود أساس صرفي مهذب well-profiled لها بل بآثار تركيبية مطردة وإن كانت عميقة دقيقة؟ انظر قول وورف:

"It may turn out that the simpler a language becomes overtly,"

"وربما وجدنا أنه بقدر ما تصبح لغة ما أبسط ظاهريًا" [ويعني هذا أساسًا: أنها أبسط في صرفها المعجمي (جستس)]

the more it becomes dependent upon cryptotypes and other covert formations, the more it conceals unconscious presuppositions, and the more its lexations become variable and indefinable." (1956:83)

"تصبح أكثر اعتمادًا على التعمية والوسائل الخفية الأخرى للتأليف، وأكثر قصدًا لإخفاء الافتراضات غير الواعية، وصار معجمها أكثر اعتمادًا على التنوع وعدم التحديد".

وقد ناقش [اللسانيان الأمريكيان المعاصران] كاتس وبوستال مكانةَ أسماء النوع المشتقّة من الأفعال في الكتاب الذي حرراه، بعنوان: An Integrated Theory of Linguistic Descriptions (ص ص ١٢٤ ـ ١٤٤)، متناولَيْن في مناقشتهما عددًا من الأفكار المشتقة من الأفعال التي ناقشناها باختصار أعلاه فيما يخص العربية. وإذا ما فهمتُ مناقشتهما المعمَّقة فهمًا دقيقًا فهما ينظران نظرة خاصة لأسماء النوع المشتقة من الأفعال، حيث يشتقانها من تركيب مجرد لجملة الصلة يتضمن فعلاً شبيهًا.

وليس الاسم بحاجة لأن يكون مشتقًا من الفعل من اجل أن يُسمَح بتأويله على أنه اسم نوع، فجملة:

"John's tennis/game is excellent"

"تِنِس جون ممتاز"/ "لَعِبُ جون للتنس ممتاز"

تشبه جملة:

"John's serve is excellent"

"مناولة جون ممتازة"

انظر مناقشتنا لأسماء المكان المشتقة من الأسماء في العربية. ويكون التأويل النوعي في بعض الأحيان ممكنًا لكن له نكهة أدبية، كما في:

"to do all things with a persuasive grace, to sanctify the meanest act by lovely enactment".(J. Freeman, An American Testament. 1936, p.155).

"أن تُنفَّذ الأشياء كلها بطريقة لبقة، يعني أن تُسوِّغ أفظع عمل بطريقة تنفيذية محببة"

و:

"showy in their dress and carriage" (Monroe, p. 4)

"مُتظاهرون في الملبس والعَرَبة"

وتوجد أنواع لا تحصى من الفجوات؛ قارن بالجملة التالية:

"I dislike John's yodeling"

"أكره غناء جون النشاز"

"though I would love to hear him yodel if he did it well"

("مع أنني ربما احب سماعه وهو يغني إذا غنى بطريقة جيدة")، لكن الجملة التالية غير مقبولة:

*"I dislike John's sitting"

"أكره جِلسة جون"

(إذا كان ذلك يعني "جِلْسة" هذا القذر المهمل"). أما قولهما بأن سوء "اشتقاقهما" [كاتس وبوستال] للجُملتيْن:

"John's green driving of the car"

"قيادة جون الخضراء للسيارة"

و:

"John sleeps yellowly"
(Katz - postal. 140)

"ينامُ جون باصفرار"

يأتي من عدم وجود جُمَل مثل:

"John sleeps in a yellow way"

"ينام جون بطريقة صفراء"

فغير مقنِع تماما، ذلك ان العبارات كلها لا بد أن تفيد معنى، ثم إن هذه الاستراتيجية، بغض النظر عن أي شيء، يمكن ان تتنبأ بأكثر مما تدعو إليه الحاجة؛ ذلك أنها يمكن أن تُجيز جملاً كالجملة التالية:

The sun shone redly in the sky"

"أشعّت الشمس باحمرار في السماء"

في مقابل إمكان عدم إجازة الجملة التالية:

? The sun shone in a red way.

"أشعت الشمس بطريقة حمراء"

يضاف إلى ذلك أن الفارق الدلالي الضئيل بين معنى حقيقةٍ ما ومعنى طريقةٍ ما غيرُ ثابت ويمكن الوصْل بينهما كما رأينا آنفا، كما يشبه كذلك ظلال معاني الأسماء الأخرى التي تقوم على أساس منطقيٍّ شبهًا كبيرا (معنى "حقيقة": actio في مقابل معنى "طريقة" actum) وهو ما يمنع القولَ بأن اسم "النوع" ، تحديدا، في الإنجليزية، "نوعٌ معمّى"، بدلاً من كونه مجردَ واحد من ظلال الموشور الدلالي لكل كلمة. قارن بالجملة:

"His voice was full of petition and persuasion". (Freeman, op.cit.)

"كان صوته ممتلئًا بالاعتراض والحضّ"

ويبدو أن كلمة petition "الاعتراض" هنا التي كانت يومًا ما "حقيقة" actio وهي الآن "طريقة" actum أو تجسيدٌ ماديٌّ للشيء نفسه، عادت باتجاه معنى actio ، أو باتجاه معنى "الحضّ العنيف"، في حين لا تزال persuasion "يَحُضّ"، بصورة طبيعية، إما اسمَ حدث أو أنها مرادف لـ "طَبْع" creed : "thing of which one is persuaded" ، "شيءٌ يَحُضُّ المرءُ عليه"، ويبدو أنها تعني هنا persuasiveness "القدرة على الإقناع"، أو من الممكن أن تعني "الحال التي تنشأ حين يَحُضُّ امرأ بخصوص صحة ما يقوله"[1]:

"quality that results when a speaker is persuaded of the rightness of what he is saying".

وتوحي هذه الحقائق وغيرها أن التحليل التوليدي التزامني لن يفيدنا كثيرا. كما لن يفيدنا تأويل الأسماء التي تظهر أحيانًا بمعنى اسم نوع وتتسم بالخصوصية المعجمية الخالصة كما في كلمتي: chair "كرسي، يترأس" و maybe . فهناك أنواع كثيرة من الأنماط القليلة وشبه الاطرادات. أما التحليل الصرفي الدلالي الكافي لهذه الحقائق فربما يكمن من غير شك في التحليل التعاقبي الخالص لها، أي في تاريخ التطور المتقطّع، حيث تُتبع القياسات ثم تُترك، ثم تُدعّم بعضُ نتائج هذا التطور وتكتسب من ثمَّ بعض الارتباطات ثم تتطور في اتجاهات

مختلفة، ثم يُجبَل هذا كلُّه تحت الضغط الهائل للعُرْف ليصبح طبقةً تحتية متحجِّرة تَعمل على صوغ اللغة بصورتها الفعلية، وهي التي يمكن أن نحاول اكتشاف بنيتها بجهد جهيد لكنها تستعصي في الأخير على الترسيس الكامل، أو إعادة توليد ما ولَّده التاريخ. كما يجب علينا ألا يُغيظنا فشلُ الوصف، وألا نحاول التهوين من التنوع غير المطرد للتحييز speciation والانقراض الذي يُمكِن القول بأن عمقه وكثافته يقودان إلى الاحتفال بعَظَمة الخلق بدلاً من التقليل منها.

ونحن نحب أن نفاجئ الشيطان في أكثر صوره الدائمة بقاء، أي في خصيصة التلعُّب. فيقول [الممثل الأمريكي] جروتشو، في شكْره فضلَ جورج كوفمان عليه:

"He gave me the walk and the talk".

"لقد مَنَّ عليَّ بالمشي والكلام"

فتَجذِب كلمةُ walk "المشي" التي خُصِّصت لمعنى النوع (كما في العبارة التي وردت في البرنامج الفكاهي Pythons : "Ministry of Silly Walks" "وزارة "مواعظ" المشي الساذج") معها كلمةَ talk "الكلام" التي لم تُخصَّص بالطريقة نفسها، عن طريق القياس المحلي الضئيل (أما إذا أردنا التعبير عن معنى النوع فنقول في العادة:

(slurred) speech

"كلام (متلعثم)"

(rapid) delivery

"توصيل (سريع)"

(funny) accent

"لُكنة (مضحكة)"

وما شابه ذلك). زيادة على ذلك، لنأخذ المثال التالي: تقول [شخصية المرأة المسماة بـ] بلُوندي لداجوود في رسم فكاهي نُشر في يوم ٢٨/ ٢/ ١٩٨١:

"I found this rumpled ten-dollar bill on our front steps"

"وجدت هذه الورقة النقدية "المغضَّنة" من فئة عشرة دولارات على عتبات بيتنا الأمامية"

فيجيبها داجوود:

"It could be mine"

"ربما كانت لي"

لكن بلوندي أشعرته بالكيفية التي لا تجعلها تظن أن هذه الورقة له قائلة:

"It's got my rumple"

"إن تغضّنها يوحي إلي بأنه من صنف التغضن الذي تظهر به نقودي دائما" [والنكتة في هذا أن المعنى الحرفي لهذه الجملة هو: "أنها تشبه تغضّني"]

غير أن هذه الجملة قوبلت بنظرة استغراب من داجوود والكلب (ويمثلان على التوالي المجموعةَ اللغوية المعاصرة وذلك المواطن الشَّبَحي الذي كان حاضرًا حين كان أجدادنا الأقدمون يمارسون النوع نفسه من الخداع)، حيث تحثُ نظراتُ استغرابهما القارئَ ليشاركهما في نطق الجملة التالية:

refute either "Her language is as curious as her reasoning, but we cannot one"

"إن لُغتها غريبة كغرابة تعليلها، لكننا لا نستطيع أن نثبت خطأ أي واحد منهما".

("ما لا يستطيع المرء الحديث عنه، يجب أن يُحجم عن الخوض فيه"

(Wovon man nicht sprechen kann, darüber muss man schweigen.

***

وإجازة التأويل للأسماء غير المخصَّصة بالنَّوع لا يتوافق تمامًا، بأية حال، مع الصورة المثالية الستوكية لـ"أسماء النوع" فهل يوجد في الإنجليزية أسماء للنوع في حالات قليلة على صورة phenotype ـ أي على صورة كلمات تُرمِز النوع، معجميًا، بالطريقة المخصوصة لـ "جِلْسَة"؟

والجواب نعَم، في حالات قليلة، وفي اللغات القريبة منها كذلك، كما أن هناك عددًا قليلاً من الأسماء التي يمكن أن يُفهَم معناها الحالي بأبسط طريقة على أنها متطوِّرة من معنى للنوع، سواء أكان مبنيًّا للمعلوم أم للمجهول.

ويجب أولاً أن يكون واضحًا لنا ما الهيئة التي يكون عليها اسم النوع حين لا يكون بالضرورة مشتقًا من فِعل. فكلمتا decubitus و"جِلْسَة" اسمان للنوع، أما pilé ، و full

lotus ، و"القرفصاء" فليست أسماء للنوع، وذلك شبيه بكون صيغة 'كاتب'، لا صيغة 'بروست'، هي اسم الفاعل. فاسم النوع كلمة عامة تستطيع تقييد المعنى [النعت]، كما في قول [الروائي] بورجيس:

"Ya sabes, el deúbito dorsal es indispensable"

"يجب أن تكون مُستَلقيًا [لترى الألِف]".

وقد رأينا توًّا بعضَ أسماء الأنواع الدقيقة. ففي عبارة:

"showy in their dress and carriage"

نجد أنّ dress 'لِباس" غامضة بين معنى اسم النوع "طريقة لبسهم" والمعنى الحرفي لـ 'الملابس'، وهو الذي يمكن أن يُستنتَج منه معنى اسم النوع في السياق. (قارن بـ: 'showy in her finery' 'متباهية في لبسها المبَهرَج'). أما المعنى الحسي لكلمة carriage "عَرَبَة" ('أي الراحة التي تمشي على عجلات') فليس له صلة وثيقة بمعنى اسم النوع هنا (أي: "الطريقة التي يَحمِلون أنفسَهم بها')، كما لا يتوافق معنى الحَدَث لكلمة carriage دلاليًا مع المعنى المِثليِّ لـ: "carry oneself" 'يَحمِل نفسَه"، بل لا يحتاج كذلك أن يُنطَق بالطريقة نفسها: فتُنطَق الكلمة على الصورة التالي:

/keriʤj/ إنما يعني فقط معنى الحدث. لهذا فإن carriage اسمُ نوعٍ متخصص على وجه الدقة. أما الكلمة المرادفة لها bearing "حَمْل" فأكثر تعدُّدًا في المعاني polysemous .

قارن أيضًا بقول جيل بلاس:

'لقد تَتَني خاصة حُسْنُ هندامها'

Gil Blas (ed. Garnier, I 109)
"Je fus particulièrement charmé de l'air agréable qu'elle a dans son PORT."

وقد بقي معنى النوع هذا في الإنجليزية في التعبير: port de bras.

ومرادف dress 'لِبسة" بمعنى اسم النوع، هو garb "هندام' الذي يتسم الآن بأنه غامض بالطريقة نفسها مع أنه كان في وقت من الأوقات محصورًا بكونه اسم نوع. فهو إذن المعادِلُ للكلمة العربية 'لِبْسَة"، إلا أنه ليس مشتقًّا من الفعل تزامنيًا. قارن بما كان في الأصل معنى اسم النوع في الكلمة الفرنسية: costume والتوسع الموازي:

"البِزّة: أي طريقة اللباس، وعلى سبيل الإطلاق، كل ما يلبسه شخص من الثياب" (*Trésor de la langue française* "كنوز اللغة الفرنسية").

"costume: manière d'être habillé, et par méton., ensemble des vêtements que porte une personne" (*Trésor de la langue française*).

ويمكن أن يَستعمِل الأسلوبُ اللغوي للمتخصصين في تخصص معين بعضَ الكلمات بمعنى اسم النوع مع أنها لا تُستعمَل استعمالاً حَدَثِيًا. فهناك معنى مادي للكلمة الإنجليزية embouchure "مَصَبّ النهر"، كما أن لها معنى اسم نوع، كما أخبرني أحد العازفين بإحدى الآلات الموسيقى النافخة (الفلوت)، يشبه لـ tongueing "لَسْن"، و lipping "تشفيه"، لكنه ليس له (بخلاف هاتين ربما) أيُّ معنى اسم حدث.

وفي جملة [المغني الأمريكي المعاصر] ديلون Dylan التالية:

"He was ravin' about it, he loved my sound",

"كان مغرَمًا به، لقد كان معجبًا بصوتي"

يمكن أن نؤوِّل كلمةَ sound بمعنى "مُنتَج"، وبهذا تصبح الجملة مكافئةً للجملة: "he loved my music" "أحب نوعَ الموسيقى التي أعزفُها"، لكن sound إذا أضيفت إلى إنسان فليس من السهل أن يكون لها معنى "منتج":

*"John's sound woke the baby"

"أيقظ صوت جون الطفل"

التي تعني:

"the sound of John's (voice, rummaging). . ."

"صوت جون (بمعنى: صوته أو جَلَبَته"

أما المعنى فهو: "the way I sounded" "الطريقة التي أصوِّتُ بها". قارن أيضًا بكلمة chops التي تعني "طريقة موسيقية".

ولـ "كِتْبَة" مُكافِئات فيما يلي، وإحداها ليست مشتقة من فعل:

"J'ai toutes les écritures à volonté"

"كل الأساليب متاحة لي كيفما أشاء".

و(٢): "I can adopt any hand (writing) I choose"

"بإمكاني أن أستعمل أية طريقة في الكتابة"

قارن بـ: "in a fine, clear hand" "بِيَد لطيفة، واضحة"، ومصطلح المُبْرِقين fist الذي يعني touch "لمسة"، 'طريقة لمس أحد مفاتيح البرقية'. وكذلك hándwriting "كتابة باليد" إما بمعنى 'اسم نوع' وإما بمعنى 'اسم منتج' (مثل écriture و'كِتبة')، لكنها ليست بمعنى 'اسم حدث' (قارن بـ:

"his hând-cáncelling/*hándwriting the letter"

'رسمه للحرف/ كتابته للحرف باليد").

وكما تكون كلمة main "القوة البدنية" بالنسبة لكلمة fist، تكون كلمة écriture لـ signature 'توقيع' في الإبراق.

أما 'خِلْقَة' فلها معنى مبنيٌ للمجهول، لهذا يمكن مقارنتها بكلمة bent "يميل" (بمعناها الفلسفي)، في الجانب الأخلاقي وبكلمة a (heavy) build، "ضخم الخِلقة" في الجانب المادي. قارن أيضًا بـ: good looks, the punk look 'جميل الطلعة"، 'ذو طلعة تشبه البَنك" [نوع من قصات الشعر الغريبة] المشتقتيْن من "التصور العكسي السكوني" flip-perception stative (فهي تشبه sound أيضا). ويمكن أن يكون لكلمة make 'يعمل' معنى اسم نوع مبني للمجهول، يشبه الكلمة الفرنسية facture ، أو يمكن أن تعني، مع تطور دلالي ضئيل، شيئًا قريبًا من brand, label ، "ماركة، أو علامة" كما في الجملة":

"The poorest working-girl has a dress of CUT, if not of MAKE, like that of the much richer girl".
(M. Mead, *Male and Female*. p. 281 of the Morrow reprint.)

"تلبس البنت الفقيرة لباسا يشبه ملبس البنت الغنية في الصُّنع إن لم يكن في الماركة"

كذلك تطورت كلمة stance "وقفة"، المشتقة من stand بمثل الكيفية التي اشتُقت بها 'قيمة' من "قام"، وإن كان لا يزال من الممكن استعمالها بمعنى اسم نوع. كما نجد مكافئًا للكلمة

"جِلسَة" في الأسلوب الفرنسي العلمي أو المحافِظ: فيُعرِّف ليتري Littré كلمة assiette على النحو التالي:

"هيئة المثول أو المكوث أو طريقة وضع الشيء. هذا المريض لا يستطيع المكوث طويلا في وضع واحد".

"Manière de se poser, d'être posé. Ce malade ne peut se tenir longtemps dans la même assiette."(1959 ed.)

وهو مصطلح مشتق من الفعل: قارن بـ s'asseoir.

وبما أن هذا المصطلح مكافئٌ دقيقٌ للنموذج الأصلي لاسم النوع، وبما أنه، بصفته كلمةً نادرة، ليس معروفًا عند قراء هذا الكتاب جميعًا، فسوف أستمر في تتبع تقلُّباته فيما يلي.

أورد روبرت قولَ مونتين:

"أصعب الأوضاع وأقساها هو ذلك الذي نضطر فيه إلى البقاء واقفين دون حراك".

"la plus forte et raide assiette est celle en laquelle on se tient planté sans bouger."

ولا تزال هذه الكلمة مستعملة بوصفها مصطلحًا فُروسيًا:

"هيئة امتطاء الحصان".

"l'assiette du cavalier sur sa selle"

قارن بـ "to have a good seat" "أن تحصل على مقعد جيد". ثم يقارن روبرت بها كلمة tenue.

ويصنِّف معجم Trésor de la languge française المصطلحَ بأنه "نادر" حين يشير إلى مأوى حيوان ما، محتجًا بالقول التالي:

"ظل الببغاء حاطًا على مجثمه. . .في وضعه الهادئ المعتاد".

"Le papegai sur son perchoir. . . s'y tenait d'une assiette tranquille et accoutumée."

أما في الإشارة إلى الإنسان فنجد الاستعمال التالي:

"(استعمال قديم) هيئة الجلوس (الجِلسة) أو الوَضْع".

"(Vieux) Façon d'être assis ou placé"

لكن الشاهد الوحيد ذا الصلة الوثيقة هو:

'جعلَه. . . يتخذ موقعه/يتخذ مكانه على جزء خشبيٍّ أكثر متانة يستطيع الصمود تحت ثِقَل جسمه'.

"le fit. . . prendre son assiette sur une portion de bois plus solide, capable de porter son corps"(1863).

وهنا يمكننا ببساطة مماثلة أن نؤول هذه الجملة، لا بأنها تحوي اسم نوع، بل بأنها تتضمن عبارةَ حدثٍ Action phrase ، بصورة تشبه: "make one's stand" "أن يتَّخذ موقفا"، و "take up a position" "أن تتخذ موقفا". وهنا نلحظ مرة أخرى عدم استقرار الفَارِق بين اسم النوع واسم الحدث. وأكثر الاحتمال أنه يمكن أن تستعمل assiette، في الوقت الحاضر، بغض النظر عن الاستعمال الحسي المعروف لها، بمعنى اسم الحدث وكما يقول أحد المعاجم الفرنسية ـ الإنجليزية

:(Harrap's New Std. F-E Dict., 1972)

"action of giving a firm and stable position to something."

"حدثُ إعطاءِ وضعٍ مستقرٍّ ومحدد لشيء ما".

وأنا لا اعرف مثيلاً في الفرنسية أو الإنجليزية لكلمة "خِمْرة" أو كلمة "عِمَّة" ـ وأقول هذا لا لنفي احتمال وجود بعض الكلمات المماثلة، بل لكي يهبَّ القراء المهتمون بالبحث عنها ثم إرسالها إليَّ. ونجد في اللاتينية: كلمة amictus التي تعني الطريقة التي تلبس بها الملابس؛ وبخاصة بطريقة لبس الـ toga:

Nihil est facilius quam *amictum* imitari alicuius aut *statum* aut *motum* (Cicero)
(Cassell's Latin Dict.)

'ليس هناك ما هو أسهل من أن تقلِّد طريقة لِبْس أحدٍ آخر، أو وِقْفَته، أو مِشْيَته'. قارن بكلمة: 'رِضْيَة' في العربية. ولكلمة 'مِشية' مثيلٌ واضح، بل يمكن أن يكون مكافئا تمامًا (إن كان له صلة، تاريخيًا أو ارتباطيًا بالفعل go "يذهب") في كلمة gait "طريقة سريعة في المشي"، ومكافئ غير واضح في كلمة démarche . أما الكلمة الألمانية Gang(< gehen) فهي إما

اسم نوع أو اسم حدث، كما أن كلمة Gangart نحتٌ لافت للنظر لها معنى اسم نوع فقط. وهو حرفيًا، من حيث طبيعته: اسمُ مَشْيٍ.

أما "سار" التي كانت تعني في الأصل "أن تذهب، أن تسافر"، ومن هنا تعني: "تصرَّف بطريقة كفْؤة"، لذلك يمكن، بهذا المعنى وحده، أن نجد "اسم معنى" في كلمة "سيرة"، كما في القول التالي: "طَغَيتَ وبَغَيت . . . وأسَأت السيرة" (كليلة ودمنة، ص ٢٧) (وهناك معنى "سيرة حياة" أيضا).

كذلك تعني كلمة behavior "السلوك" غالبًا:

'the way one behave'

"الطريقة التي يتصرف فيها إنسان ما". وهي تمر بتحوُّل ليكون لها معنى اسم حدث في مثل الجملة:

His behavior was inexcusable

"ليس له عُذر عن الطريقة التي تصرف فيها ["سلوكه غير مُسَوَّغ"]"، التي يمكن أن تعني:

What he did was inexcusable

"لا مسوغ لسلوكه".

وقد بلغ هذا التحول مداه في مصطلحاتِ مدرسة السلوكيين الذين يتكلمون عن a behavior "سلوك". وحدث التطور نفسه في الكلمة الفرنسية conduite "سلوك"، التي جاءت من se conduire . أما كلمة inconduite فليست اسم نوع، بل اسم حدث، حيث تعني loose living "حياة متراخية"، بل يمكن أن تكون حدثًا متقطعًا مثل a behavior "سلوك"، كما في:

"الزوج الذي يثور لاحتراق فرخة محمَّرة مثلا أو لسوء تصرُّفٍ من زوجته" (سيمون دي بو فوار).

"un mari qui s'énerve comme d'un rôti manqué ou d'une inconduite de sa femme"(S. de Beauvoir).

ولا يزال اسم النوع contenance "تَحمُّل" في الفرنسية القديمة، من الفعل se: contenir، حيًّا في الفرنسية المعاصرة، لكن لا علاقة له الآن تزامنيًّا بذلك الفعل، لهذا لا

يأتي دائمًا بمعنى اسم النوع: لذلك تعني prendre contenance الآن "أن يفقد إنسان حلمه". قارن أيضًا بالكلمة اللاتينية: motus التي تعني "الحَرَكة: طريقة الحركة، السلوك".

أما "عيشة" فلها مكافئ جديد غير غامض هو lifesyle "طريقة حياة"[٣] وهي كلمة مهمة في الثقافة الأمريكية. أما الكلمة البارزة المثيرة "مِيتَة" فليس لها مثيل غير غامض. وبهذا الخصوص فسوف نترك الكلمة الأخيرة لريلكه Relke:

> "من الذي لا زال يدفع شيئا مقابل ميتة طيبة يحصل عليها؟ لا أحد. حتى الأغنياء الذين يمكنهم تحمُّل أعباء ذلك بدأوا يتهاونون وتتساوى الأمور لديهم؛ فالرغبة في الحصول على ميتة خاصة أصبحت أكثر ندرة".

"Wer gibt heute noch etwas für einen gut ausgearbiteten Tod? Niemand. Sogar die Reichen, die es sich doch leisten könnten,ausführlich zu sterben. fangen an, nachlässig und gleichgültig zu werden; der Wunsch. einen eigenen Tod zu haben, wird immer seltener."
(Aufzeichnungen des Malte Laurids Brigge, DTV ed., 10).

ويَربَح الوزن المُفردُ "فِعلة" من حيث التهذيب profile ، لكنه يَخسَر من حيث الاكتمال well-roundedness ، ذلك أنه لا يُستعمَل اسمَ نوعٍ للأوزان الفعلية المشتقة. لهذا لا بد إما أن نتخلى عن صياغة أسماءِ النوع من هذه الأوزان، وإما أن نعترف بأن اسم النوع الذي يَنتُج عن هذه الصياغة ربما يكون غامضا، كما هي الحال في صيغ التفضيل elatives. وقد حَلَّ اسمُ الفاعل، وهو المقولة الأكثر أهمية، هذا الغموضَ بوجود شكل مُفرَد غير غامض لاسم النوع من الفعل المجرد، أي صيغة (فاعِل)، ووجود شكلٍ آخر من المشتق (فَعَّل): أي (مُفَعِّل)؛ وهكذا.

ولا يبدو أن وجود صيغة خاصة لاسم النوع nomina speciei في العربية قد نُتِج عن تقليدٍ غني بشكل غير عادي للاحظة الحَركة kinesic (بعكس فكرة وورف)، أو أنه قاد إليها، أو أدى إلى ملء هذه المقولة (بعكس تنبؤ ستوكس). فلماذا وجدت هذه المقولة الصرفية منذ البدء في العربية، إذن؟ ولا أستطيع هنا إلا الافتراض:

١ـ أن الاحتمالات الوزنية للجذور العربية واسعة بما يكفي لوجود مثل هذه المقولة من غير أن تؤدي إلى سَلْب أيةِ مقولة أخرى أيَّ شيء. بل لا يزال هناك أوزان محتمَلة مما لم يُستعمَل بعد؛ كما توضّح كثرةُ أوزان الجمع الغنى المتنوعَ في صرف هذه اللغة.

لكن ليس لوجهة النظر هذه أهمية مؤكَّدة، ذلك أن الوزن 'فِعلة' ليس مستعمَلاً بشكل كامل فيما عدا استعماله في "اسم النوع".

٢ـ وبما أن العربية لا تستعمِل النَّحْت compounding فلا يوجد فيها طريقةٌ تضاميَّة compact بشكل كافٍ (كأن نُلحق الكلمةَ "نوع" بالمصدر، مثلاً، كما هي الحال في الألمانية) لإيجاد هذه المقولة. لذلك يلزم أن نستعمل: 'نوع من الـ . . .'.

ومرة أخرى، سوف يعوِّض عن عدم وجود هذه الطريقة جزئيًا بشمولية المعالَجة التي نحصل عليها في معاملة الأوزان المجرَّدة والمشتقة.

٣ـ وإذا ما وُجدت مقولةٌ ما، وإن لم تُملأ بطريقة مُحكَمة، فسوف تساعد قوة جذب الصيغة غير الغامضة على ثبات المعنى، لهذا يمكن لأسماء النوع القليلة المستعمَلة أن تُستعمَل بطريقة تُبين عن الثقة بفهمها. ومن هنا لم تتعرض هذه المقولة للاختفاء.

ومرة أخرى هناك عدد كاف من الصيغ المتنافِسة وهناك عدد من أنواع الهجْرة الدلالية من هذه المقولة مما يَجعَل ما قلناه هنا لا ينطبق إلا بصورة ضعيفة.

قارن هذا بالوضع البنيوي في بعض اللغات الأوروبية:

١ـ وأقرب شبيه للتنميط الصرفي ـ الدلالي هو الاشتقاق بإدخال الزوائد الصرفية، أي الاشتقاق عن طريق صيغ الروابط الفارغة فيما عدا هذه الوظائف. فيمكن أن يكون لدينا، من حيث المبدأ، عدد لا بأس به منها؛ أما عمليًا فلا يوجد منها إلا عدد قليل. ومهما كانت الحال فإن التوجه في الإنجليزية والفرنسية يميل إلى التراجع، في التصريف والاشتقاق على السواء، أمام التوجه نحو عدم الاشتقاق (الاشتقاق الصُفري) zero marking (قارن الأفعالَ في الفرنسية بالأفعال في اللاتينية، كما أن الاشتقاق في الإنجليزية يكاد يكون معدوما)، أو نحو الإجراءات التحليلية.

٢ـ والنحت المترابط، مع احتمال تحوُّله إلى فصيلة مزيدة suffixoidal تتسم بالقِصَر، ممكن من حيث المبدأ في الإنجليزية والألمانية. فالنمط الذي تمثله كلمة Gangart يمكن أن يتحول إلى نمط مطرد بصورة تشبه النمط Kauf-mann في الألمانية.

٣ـ وبدون الجَذب المحافِظ للتجميع الارتباطي المؤسَّس على الصرف يمكن لأسماء النوع أن تكون عرضةً لفهمها على أنها أسماء للمكان أو الحدث، أو عدم فهمها إطلاقا. فمعظم هذه الأسماء التي كانت موجودة في اللغات الأوروبية إما اختفت أو تحوّل معناها: فكلمة gait مهجورة، أما decubitus فصارت لغزًا عند المتكلم المتوسط، وصار لكلمات: stance, carriage, assiette , démarche استعمالات عامة في غير معنى النوع.

وقد ثبت عدم صحة الافتراض الستوكي في حالة أسماء النوع في العربية، وذلك للأسباب التالية:

١ـ لم يُستَغل الغنى الممكن لأسماء النوع إلا قليلا.

٢ـ وإذا حدث أن استعمَل كاتبٌ ما يمكن أن يكون اسمَ نوعٍ من حيث الدلالة فإنه يمكن أن يَتجنب استعمال هذا الوزن ويَستعمل، بصورة غامضة، المصدرَ بدلاً عنه .

٣ـ ولم ينتج عن وجود صيغة صرفية ـ دلالية إلا قليل من الجذب المحافظ على دلالة الصيغ المفردة.

التعليقات

(١)ـ وكما رأينا في العربية فالخلط بين الأسماء التي للنوع وتلك التي ليست للنوع ظاهرة عامة.
انظر مثلاً، ما قاله: Ben Jonson في كتاب The Alchemist (IV,4) :

Your Spanish gennet is the best horse;
your Spanish stoup [= stooping posture]
is the best garb [= fashion (here, of standing)];
your Spanish beard is the best cut; .
your Spanish ruffs are the best wear;
your Spanish pavin is the best dance. . .
(Quoted from R. Spaulding, *How Spanish Grew*, Berkeley: 1943, p. 174)

(٢)ـ انظر ليبلانك:

Leblanc, *Arsène Lupin*, p.105 of 1907 edition.

وكذلك، من رواية لا أذكر عنوانها:

"لننظر الآن في خطّك. . . " (أو لنر الآن كيف خطك) ثم صاح مستبشراً: "أنا مسرور لخطك الجميل/ لهذا الخط الجميل/ فإن خطك جميل"

"Voyons prèsentement votre écriture. . . . Je suis content de votre main, s'écria-t-il."

(٣)ـ وكذلك الاسم القديم في اللاتينية: victus.

الفصل التاسع
المَظهَر العام للتركيب

وصف وليم رايت وريكندورف التراكيبَ النحوية في *العربية* على أكمل وجه، كما يتضمن كتاب كانتارينو عددًا كبيرًا من الأمثلة من العربية النموذجية المعاصرة. ويمكننا، بعد أن نتعرف هذه التراكيب بصورة جيدة ونراها وهي تُعمَل في النصوص الأدبية، أن نسأل أنفسنا السؤالَ الجمالي التالي الأكثر عمومية: كيف تبدو الجملةُ العربية النَّمَطية في السياق؟ وما الصورة الكُلِّية التي يكون عليها التركيب؟ وهذا هو النوع من الأمثلة التي يمكن أن نخطئ في التعامل معها، لكن "الجهود عظيمة، والمكافأة مُجزية" Kühn ist das Mühen, herrlich der Lohn. وسوف نسعى لاكتشاف روح العربية، مع المخاطرة بالتزوج بـ Nephele [مع المخاطرة باستحالة ما نسعى إليه].

***

ولْنبدأ حديثنا بخصيصة لَحَظها الذين درسوا العربية كلُّهم. وهي أنك لا تحتاج في تكوين جملة الصِّلة في العربية إلا إلى إلحاق المقولة التابعة بالمقولة الرئيسة بطريقة تُشبه نَظْمَك حبات المسبحة في خَيْط، وذلك بغياب أي رابط asyndetically إن كان الاسمُ الرأسُ نكرةً. أما إن كان الاسمُ الرأسُ معرفةً فباستخدام اسم الصلة الذي يأتي مستقلاً بنفسه، أي مستقلاً عن الاسم الذي ينعتُه في العبارة التابعة ـ أي أنه مستقل من حيث الشكل عن أي عمليات تركيبية لاحقة في الجملة التابعة، وبهذا نتفادى حالات التطابق التي نجد أمثلة منها في الإنجليزية، كما في:

the man WHO I know is here

(حيث تشير أداة الصلة who إلى فاعل الجملة التابعة)

و: The man WHOM you are said to be likely to meet (حيث تشير أداة الصلة whom إلى مفعول الجملة التابعة)

وكذلك في الحالات المحيِّرة الناشئة عن تقسيم ولاءات العبارات، في مثل:

I shall dance with WHO(M)EVER is there.

(حيث يمكن أن تشير أداة الصلة who(m) إلى الاسم المجرور في الجملة الرئيسة أو إلى فاعل الجملة التابعة)

لهذا نجد في العربية أمثلة كالتالي:

"رأيتُ رجلاً ø أبوه في القاهرة"

"رأيتُ الرجلَ الذي أبوه في القاهرة".

[حيث يدل الرمز Ø على غياب الاسم الموصول]

فتظهر الجملتان الرئيسة والتابعة، من حيث الشكل، على هيئة جملتين مستقلتين، كما يتبين من ترجمتهما الإنجليزية:

I saw a man. That one. His father is in Cairo.

"رأيت رجلا. ذلك الرجل. أبوه في القاهرة".

ويأتي استقلال الجملة التابعة عن الجملة الرئيسة على صورة أوضح حين يقوم الاسم الرأس بوظيفة ما في الجملة التابعة:

"رأيت رجلا ø أعتقد أن في دارِ أبيه كنزا"

(حيث يقوم الضمير بدور المضاف إليه)

والحالة الوحيدة التي ترتبط فيها العبارتان هي التي يكون فيها الاسم نكرة عامة:

"رأيتُ مَنْ رأيت(ـه) "

(حيث يمكن أن تشير "من" إلى مفعول الجملة الرئيسة والجملة التابعة)

"مَنْ ذهبَ، رجَعَ"

(حيث تكون "من" فاعلاً للجملتين)

ونجد في هذه الحالة أن في العربية "صلة ملتوية" تتسم بولاء مزدوج، كما هي الحال في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي نحو:

whoever, quiconque, felix qui. . . , hureux qui. . . , who steals my purse. . .

"أيُّ مَنْ سَرق محفظتي".

والخروج الطفيف الآخر عن النمط التجميعي الدقيق هو ما نجده حين يُحذف الفاعلُ الضمير من الجملة التابعة (والأمثلة في ريكندورف AS 429)، حيث لا تعود الجملة التابعة جملةً تامة، وهو ما يجعلها شبيهة بما في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي:

'the man who ø is here'

"الرجل الذي ø هنا"

أما حذف الضمير من موضع المفعول المباشر فيَترك نوعًا من الجملة التامة (قارن بـ ريكندورف AS 349، حيث نجد أمثلة من الجمل الرئيسة حيث "حذف العائد إذا كان مفعولاً مباشرًا ليس أمرًا نادرًا" "Unterdrückung des Objekts ist nicht selten"). وبهذا تختلف العربية عن المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي في "نحو الحذف" grammar of ellipsis لا في النحو نفسه). ويمكن الاحتفاظ بالفاعل [المبتدأ] (الضمير) أحيانًا في الجملة التابعة:

"الرجال الذين هم أغنياء"

ونجد مثل هذه الحالة في العامية الأمريكية:

"There's so many people that they're content, and they're satisfied with what they are".

"هناك عدد كبير من الناس الذين هم راضون، والذين هم قانعون بما هم عليه"

[حيث يتكرر إيراد كلمة they] (وقد وردت هذه الجملة في كتاب ستدز تيركيل Studs Terkel: *Division Street : America*,1967, p.336

من الطبعة الشعبية لهذا الكتاب، ١٩٧٠).

وهذه الجملة صحيحة نحويًا في اللهجات ـ فهي ليست خطأ. بل إن لمثل هذا التركيب قيمة، إذ يمكننا، إذا أردنا، كما هي الحال هنا، أن نُلحق بعضَ العبارات من غير أن نأبه بتذكّر مواضع الحذف الضرورية. وهذا أمر جيد للإنتاج والتأويل كليهما، خاصة حين تكون الجمل أكثر تعقيدا:

"I encouraged her to have a housekeeper, which we pay our housekeeper more than any doctor in the country pays his nurses. (id. 341).

"شجعتُها على أن تتخذ خادمة، وهي التي ندفع لخادمتنا أكثر مما يدفع أي طبيب في البلد لممرضاته".

ويمكن أن يكون ردُّ الفعلِ الأول عند بعض المتكلمين أن هذه الجملة تشي فعلاً بأن اللغة في وضع مُزْرٍ؛ لكنْ تمهل قليلاً. فليس في الإنجليزية النموذجية طريقة مختصَرة للإتيان بجملة مكافئة لهذه الجملة. ويمكن التحايل على ذلك بأن تكتب فاصلةً منقوطة بعد كلمة housekeeper ثم تُلحِق بها جملةً مستقلة؛ لكن الناس لا يتكلمون بالفواصل المنقوطة. وبما أن which لا تُستعمَل في بعض الأحيان بمعنى إحاليٍّ بل بمعنى حرفِ عطف استمراريٌّ في الإنجليزية في أية حال، فليس هناك ما يُمكن أن يُفقَد، وليس هناك خطر من الوقوع في الغموض إذا سُمح بجمل مثل هذه. زد على هذا أن هناك تعويضًا كبيرًا من حيث الطواعية. فيَجب إذن أن يُنظَر إلى العربية وإلى هذا الأسلوب المتقطِّع في الإنجليزية لهذا السبب على أنهما متفوقان على ما في الإنجليزية النموذجية المعاصرة. وقد تحركت الفرنسيةُ العامية كذلك باتجاه النمط العربي: انظر: P. Guiraud, *Le français populaire* (Paris: 1965), p. 46f ، بخصوص "الاستخدام غير القياسي لعائد الموصول قبل صلته" "décumul du relatif" (من النمط: "Vous me demandez ce que ça me ferait plaisir" "تسألني ما الذي هو*يسرني/ يسعدني").

وهذه البنى لا غبار عليها وهي طيِّعة؛ فهي لا تفرض على المتكلم أي عبء نحوي خاص. وينبغي ألا يدعو هذا إلى المسارعة إلى الظن بأن جملة الصلة في العربية وفي المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي العامي تنبئ عن أنها ليست إلا نوعًا من الإرداف parataxis البدائي. فقد سمعتُ مؤخرًا الجملتين التاليتين من متكلمين للإنجليزية الأمريكية مثقفين ثقافة عالية جدا[1]:

١- If I like it, which I kind of doubt that I'll like it at all that much, then. . .

٢-[٥]

K is an arbitrary constant of integration which we'll have to decide what it is later

فيمكن في الجملة الأولى أن يكون لازمًا في الإنجليزية النموذجية حذف مركب فعلي [أي حذف like it الثانية]، وهو ما يعطي which قوة مختلفة عن قيمتها الاسمية الخالصة في عبارة مثل: "with which she played". أما الجملة الثانية فليس لها تركيب بديل مختصر صحيح نحويًا. ويمكن إنقاذ هاتين الجملتين باستبدال and بـ which في (١)، واستبدال determine "يصمِّم" بـ decide "يقرر" إضافة إلى الحذف في (٢)، لكن هاتين المحاولتين لا تزيدان عن كونهما عمليّتين إنقاذيتين متأخرتين. أما المتكلم فلا يتوقف ليتأمل، بل يستمر في كلامه بعد أن ينتهي من نطق الجملة التي أنتجها.

والواقع أن ما يُحذف من جملة الصلة يَترك فجوة غريبة غالبًا، بل فراغًا محفوفًا شيئًا ما، وهو ما ينشأ عنه ضغطٌ باتجاه اللجوء إلى النمط النَّسْخي copying type. ومثلُ هذا التوجه نحو الاستقلال البنيوي الذي ربما يعكس - بل ربما يُتوقَّع أن يَعكِس - رغبةً عارمة في المعقولية، بدلاً من كونه رغبة في الكلام المترهِّل أو كلام الأطفال، واضحٌ من ضرورة استقلال جمل الصلة المصدَّرة بعبارة such that في لغة الرياضيات:

"Given a function f such that $f'(x) + 2f(x) = e^{3f(x)}$"

ويصير هذا النوع أكثر غرابة في أسلوب الصلة المفصَّلة، كأن نقول مثلاً:

"Given a function f the sum of whose first derivative at x plus twice its (whose?) own value at x equals the exponent of thrice itself. . ."

وقد حاول أحد الأساليب القديمة في الفرنسية والإنجليزية مثلَ هذا الأسلوب على الرغم من مخالفته للأساليب المتحفِّظة و"قيود [اللساني الأمريكي المعاصر] روس" Ross constraints :

"my master's only daughter, who would have a very handsome fortune, ON ACCOUNT OF WHICH, AND HER BEAUTY, a great many young gentlemen made their addresses to her."
(Smollet, *Roderick Random*, ch. xix).

"We made no scruple of acquanting him with [our situation]$_1$, WHICH$_1$, when he had learned $\emptyset_1$, he enriched us with advices. . ." (id., ch. X)

"[The ladders were now applied, and mounted by several men]$_1$, WHICH1, the monkey$_2$ observing ø $_1$ and ø $_2$ finding himself almost encompassed, ø$_2$ not being able to make speed enough, . . ., ø $_2$ let me drop."
(*Gulliver's Travels.*)

"Voilà un mal universel, DUQUEL si vous êtes exempt, je dirai que vous êtes le seul."(Pascal.)

"ذاك داء عام، سأقول عنه إن لم تكن مصابا به، إنك الوحيد" (باسكال).

وتُشبه هذه الجملُ الدُّمى المصنوعةَ من القطران؛ إذ كلما ضغطتَها زاد التصاقها بك. وفي مقابل ذلك لا تحتاج الجمل التي تقوم على نسخ الضمائر بسبب بساطتها إلى أن تكون قصيرة أو سائغة دلاليًا: إذ يمكن أن يُضاف فيها عنصرٌ معقّد من غير أن يترتب على هذه الإضافة أي تعقيد بنيوي. وقد لخص ريكندورف وَضْعَ جُمَل الصِّلَة غير المسبوقة بالاسم الموصول في العربية في مقابل عدم وجود نقاط حقيقية [تُنْهي الجُمَل] بالكيفية الموجودة في اللاتينية أو الألمانية[1]:

"لا يُنكر أحد أن روابط جمل الصلة تتعلق إلى حد ما بطبيعتها المرنة. لكن بناء الجمل المركبة لم يتحول إلى صنعة؛ إذ نجد الجمع بين أكثر من جملتين فرعيتين واردا، دون أن يصبح إشكالا".

"Den Verbindungen der Relativsätze ist sogar eine gewisse schon mit ihrer Natur zusammenhängende Geschmeidigkeit nicht abzusprechen. Zu einer Kunst ist aber der Periodenbau nicht gedichen; auch bei der Vereinigung von mehr als zwei Nebensätzen machte man nicht viele Umstände." (SV 777).

وتنطبق هذه الملاحظة تمامًا، فيما يبدو، malam partem على جُمل الصلة التي لا تُصدر بالاسم الموصول وتصف (في الغالب) رأسًا نكرة:

"رأيتُ رجلا ø أبوه في دار ø بناها مَلِك ø مات من الجوع"

(ونجد بعض الأمثلة المشابهة المعزولة من هذا النوع في الإنجليزية، كما في قول براوننج:

"I want to know a butcher ø paints/ A baker ø ryhmes for his pursuit."

"أريد أن أرى جزارا يرسم/ خبازا يصوغ الشعر عن صنعته"

التي ناقشها إمبسون في كتابه Seven Types, p. 28).

ويبدو كأن هذه الحال تشتري سهولةَ الإنتاج بصعوبة حَمْل عبءِ التحليل غيرِ المَحلِّي - إذ لا بد للسامع أن يَستنتج الكيفيةَ التي تنتظم بها الأجزاءُ في الكُلّ، سواء أكانت هذه الأجزاء جملَ صلةٍ أم جملاً مستقلة، وذلك بحسب أنواع الكُلّ التي تُؤوَّل تأويلاً تداوليًا - لكنّ غياب الاسم الموصول يُمثِّل، هو نفسُه في أغلب الحالات، علامةً واضحة، ذلك أن الجمل المستقلة في العربية، مثلها مثل الأمراء المستقلين، لا تأتي دائمًا من غير وجود أشياء تُؤذِن بوصولها، نحو: (و) أو (ف) أو (إن).

كما يوجد في العربية رابطٌ يؤدي وظيفةً تقرُب من وظيفة where أوthat such في الإنجليزية؛ وهذا الرابط هو :"مِمّا" (المُكَوَّن من: "مِنْ" و"ما"). ومن الشواهد التي تُبيِّنه ما كتبه النحوي الشربيني الذي عاش في القرن السادس عشر الميلادي (في كتابه الذي حقَّقه كارتر، ١٩٨١: ٤٥٨):

> "ويقال < هذا الثوبُ خزٌّ >. . . بخلاف < ثوبُ زيدٍ >،. . . مما الإضافة فيه، تفيد المُلك، ونحو < حصيرُ المسجدِ >،. . . مما الإضافة فيه، تفيد الاختصاص".

وقد ترجم كارتر عبارات "مما" على أنها جمل فرعية تابعة subsentential subordinates :

"Hence it is possible to say 'this garment is silk'. . . unlike 'the garment of Zayd'. . . in possessive annexation, and unlike 'the mosque carpet', whose annexation conveys specialization."

أما الترجمة التي تقرب من التركيب العربي فربما تشبه:

'where the annexation in it_1 conveys possession', 'where the annexation in it_2 conveys specialization'.

***

وقد حيَّرت الخصيصةُ الغريبةُ لاستقلال (عدم تبعية) جملةِ الصِّلة في العربية (مثلاً) أولئك المهووسين بالسعي إلى استخلاص شيء عن العقل من اللغة. لكن التاريخ أثبت أن الفشل كان مصير محاولات المشغوفين بالعرقية التي تسعى إلى اكتشاف بعض الروابط بين اللغة والأعراق. وكان قصدهم الأول أن يستنتجوا البساطة العقلية من البنية البسيطة، لكن

التعقيدات الصرفية التركيبية الشديدة للغات الأمريكية الأصلية أدت إلى إخفاق هذه الفكرة إخفاقًا مُخجِلا. ونحن نريد هنا أن ننبذ أيّة محاولة يُقصَد منها استخلاصُ أي شيء عن العرب من اللغة العربية، لا سيما أننا لا نملك إلا قدرًا محدودًا من الأدلة اللغوية الموثوق بها التي تعود إلى الفترة التي كانت هذه اللغةُ خلالها مقصورة على عِرق متجانِس تقريبا، وأعني فترة الجاهلية حين كان البدو المنعزلون في جزيرتهم مجرَّدين من أية رسالة تاريخية كبرى. أما العربية التي تمثّلها المادةُ الضخمة التي بين أيدينا فهي لسان التنوع العرقي الإسلامي العظيم الذي كان نتيجة للتوسع الإسلامي، وهي التي تمثل أعظم تجاوز للنَّسَب والمكان الخالِصيْن. وبدلاً من هذا المنحى الذي يقصد إلى الربط بين العرق واللغة نسأل: هل يُمثّل هذا الترابطُ الواهي في جملة الصلة أظهرَ مثال على الترابط غير المُحْكَم الذي تتسم به العربية بمجملها - أي هل يمكن أن تُعبِّر أجزاءُ الجملة بصورة فردية مستقلة من غير أن تتداخل، أيْ من غير أن يكون بعضُ هذه الأجزاء مدينًا للأجزاء الأخرى في الجملة كما هي الحال في اللغة الألمانية مثلا؟

وللإجابة عن هذا السؤال يجب عليَّ أوّلاً أن أكون أكثر دقّة في تحديد ما أسميتُه اختصارًا بـ"الترابط غير المحكم". فأنا لا أعني به الفوضى، بل أعني به فكرة التزايد [أي وضع بعض العناصر بعد العناصر السابقة عليها من غير روابط واضحة]، والاستقلال البنيوي التقريبي لمكونات الجملة (أو الفقرة). لذلك فما يسمى بالترتيب "الحُرّ" بين مكوّنات الجملة في اللاتينية ليس مثيلاً كافيا. إذ لا يعدو الأمر أن يكون سرابًا حين نتخيل أنّ المتكلم يستطيع أن يقذف بكلماته بصورة عشوائية كما يبدو الأمر من مثال يتألف من ثلاث كلمات [في اللاتينية] (puellam puer amat ، وترتيباتها الخمس الممكنة). فالجملة التي تبدأ بـ:

colla diu gravibus frustrâ

ملأى بما ينبئ بما سيأتي، أي:

temptata lacertis

(كما يقول Lucan، كما نقل عنه ذلك إينتويسل Entwhistle ، وترجمَتُها:

'after long trying in vain to catch his neck with his massive biceps'

'بعد طول محاولة للإمساك برقبته بعصاه الضخمة ذات الشعبتين'.

فهذه الجملة مركبة بشكل متداخل بدرجة كبيرة.

وكذلك ما نجده في الإنجليزية:

What
did you bring
that book
I didn't want to be read ø to ø
for ø?
ø up
out of ø

[حيث تقرأ هذه على أنها خمس جمل] (وهو مثال أورده F. Palmer)

أو من الألمانية:

sie kamen — an
mit — Verspätung
einer — ungewöhnlich grossen
infolge des — Sturmes
plötzlich — losgebrochenen
in der — Nacht
vorangegangen

(i.e., "Sie kamen mit einer infolge des plötzlich" etc; cited in L. Weisgerber, Die Sprachliche Gestaltung der Welt, Düsseldort: [3]1962, p.388)

"لقد أتوا
متأخرين
بسبب عاصفة
هبت فجأة
في الليلة الماضية
(أي: أتوا بتأخير من أجل سبب مفاجئ"... إلخ)

وقد علق وايزجربر (في المرجع نفسه) على مثل هذه الحالات قائلا:

"من أجل عرض الأفكار يلزم وجود رؤية كاملة لخطة البناء برمتها منذ البداية..."

"Sloche Gedankenführung setzt. . . voraus eine Uebersicht über den gesamten Bauplan von Beginn an. . ."

ويُعَدُّ تركيبُ الجملة في الألمانية، الذي يُشتكى دائمًا من كونها تُرغِم القارئ على تلمُّس طريقه عبر كَمٍّ كبيرٍ من الكلمات حتى يَصل إلى رأس الجملة، مثالاً على هذا التوتُّر البنيوي. وقد قلَّدت في الجملة السابقة (ونصها الإنجليزي هو:

The oft-complained-of because forcing the reader to wade through quite a lot of material before reaching the head of the construction German (sentence is an example of structural tension

هذا الأسلوب الألماني بجملة ليست من النوع المألوف في الإنجليزية، لكنها لا تزال جملة صحيحة نحويًا؛ أما في العربية فقلما يكون إنتاج هذا التركيب مقبولا[٢]. كذلك فالجمل المُلمِعة cataphoric دلاليًا هي تلك الجمل الألمانية التي تؤخِّر فيها الأداةُ التي تُصحَب الأفعال ويُمكِن فصلُها عنها (نحو -an ، الخ) إلى نهاية العبارة: ولأن معنى الفعل ربما لا يكون حصيلةَ جمع معنى الجِذْع ومعنى السابقة، فإن معنى الجملة ربما لا يُجمَّد حتى نهايتها. ولا أعني بذلك أن المعنى لم يتنه، ببساطة، من حيث التفاصيل، بل أعني أن تظل الأهمية المركزية للجملة معلقةً حتى يصل السامع إلى تلك الأداة.

وربما يبقى نوع من عدم الوثوق حتى حين لا يكون هناك انشطار في معجمية ما. ومن ذلك:

"Ich leide diesen schlanken kechen englischen Kerl mit seinen plusfours und goddams. . . gern/gar nicht"

"أنا لا أتحمل/ لا أطيق رؤية هذا الإنجليزي النحيف بأطرافه الأربعة وحُمقِه الفطري. . . .".

أو كما في الجملة الملتوية التالية التي كتبَها [اللساني الأمريكي] فينرايخ:

"The meaning of grammatical forms is often so abstract or general as to defy definition, some linguists believe. This is quite unlikely.

"كثيرًا ما يكون معنى الأشكال النحوية على درجة عالية من التجريد والعمومية حتى إنها ربما لا تخضع للتعريف، كما يظن بعض اللسانيين. وربما لا تكون هذه هي الحال"

والطرق التي تُعمَل بها لغةٌ ما استباقيًا تتفاوت بدءًا من الحقائق الصرفية التركيبية الرئيسة المبعثرة كالإقحام tmesis في الأفعال ووضع المحدِّدات modifiers قَبْل الاسم في مقابل وضعها بعْدَه وانتهاءً بالعادات التي يَتبَعُها تركيبُ الطبقات المكوِّنة للجملة التي تُحدِّد دلاليًا، ومرة أخرى فإنها يمكن أن تكون بشكل مألوف شيئًا ما، كما في المثالين السابقين، أو بشكل متهور، كما في المثال التالي:

"It's all mine, Jay," the new Mayor was heard to say to her grinning husband, real-estate reporter Jay McCullen, shortly after her inauguration

last April. "What," asked McCullen, whom the Mayor subsequently appointed as her $1-a-year press secretary, "are you going to do with it. babe?"
(New York Times, 9 III 1980. Sort of a poor-man's Periodenbau
(حيث فصل بين أداة الاستفهام what وبقية الجملة بجملة اعتراضية طويلة)

وتنحو العربيةُ، كالفرنسية، إلى عدم استعمال هذه الطريقة، سواء أكان ذلك في مستوى مجموع الكلمات (إذ تتبَع الصفاتُ الموصوفاتِ، دائمًا في العربية، وغالبًا في الفرنسية) أم في مستوى الجملة أم الفقرة. إذ تعني الجملةُ في العربية أثناء عملية تركيبها، غالبًا، بقَدْر العناصر التي رُكِّبت في تلك اللحظة.

وقد نُسِبت الخصيصةُ التي في ذهني إلى الفرنسية، كما يتبين من قول وايزجربر (المرجع نفسه)[٣]:

"ولا يقوم التسوير إلا بدور ضئيل جدا في الفرنسية [مقارنة بالألمانية] بوصفه علامة على أبنية الجمل، بل تشكل الجمل هيئة دوائر متتابعة وغير متداخلة؛ بحيث يمكن فصل مسار كل واحدة منها دون أن يُحدِث ذلك الفصلُ ضررًا في سلسلة الدوائر. ويقوم فَهْم الترابط بينها على التخمين".

So spielt etwa im Französischen die Umklammerung eine viel geringere Rolle [als im Deutschen]; ja als kennzeichnend für die französische Satzbaupläne wird gerade das Gegenteil genannt, das "Abperlen" der Satzglieder, die wie wohlgeformte Kugeln eines nach dem anderen vorbeirollen, nicht ineinander verhakt, und so, dass dieser Lauf jederzeit ohne Schaden unterbrochen werden kann. Aufs Geratewohl herausgegriffen: "les verbes radicaux subsistent/en grand nombre,/et avec de nombreuses particularités/singulières,/ propres à chaque verbe. . ." (Meillet).

وأنا في حيرة بشأن الاسم الذي يمكنني إطلاقه على هذه الخصيصة (أو الخصائص). فبالإضافة إلى الصعوبات المعتادة المتمثلة في استقصاء مصادر واسعة من أجل تسمية شيء لم يُسَمَّ من قبل، فأخشى ما أخشاه أنني ربما أدخلتُ تحت اسمٍ انطباعيٍّ رئيسٍ واحد عددًا من الخصائص المختلفة للغة واستعمالها، وهذا هو السبب وراء النوعية الوهمية لهذه المقولة؛ لكن لا مناص من هذا، ذلك أن ما نبتغيه أن نُجمِع هذه الخصائص بعضها إلى بعض، وهي

التي ينتمي بعضها إلى بعض بمعنى من المعاني، أي أن بعضها يتصل ببعض بعلاقة تكفي لجعلها تتساكن في إطار واحد شامل، كما يمكن لها أيضًا أن تتقابل، وإن كان ذلك بصورة تقريبية، مع الصورة العامة لِلُغةٍ ما كالألمانية أو اللاتينية. والمصطلح الذي يخطر بالبال بداهةً هو "التركيب المترابط ترابطًا واهيا" hang-loose syntax ، وهو الذي يشير إلى ندرة أدوات الربط وإلى نوع من الترابط الذي نحس به في الجملة العربية بغض النظر عن طولها، وهو الذي ينشأ عن الندرة التقريبية لخصيصة التعامُل عن بُعْد (كما هي الحال في القواعد التي تحكُم تتابعَ الأزمنة والمحدِّدات البعيدة في اللاتينية، أو الأقسام التي تنشأ عن انشطار الكلمة الواحدة في الألمانية، مما يجعلها تشبه الحبِيْبَيْن الأفلاطونيين [العذريين] اللذين يشتاق الواحد منهما إلى الآخر). ولا يزال هذا التناقض يطل برأسه من بعيد، ذلك أن الاستعارة المناقضة تُستعمَل دائمًا في وصف أحد مظاهر التركيب، وهي: الترتيب "الصارم" بين مكونات الجملة "rigid" word order. إذ لا يمكن في العربية إطلاقًا أن تُغيِّر الترتيبَ بين "الموصوف + الصفة"، مثلاً، حتى إن كان ذلك من أجل التوكيد، كما يحدث في الفرنسية، مثلا. لكن هذا الترتيب لا يُشعِر بأنه صارم؛ بل هو سهل على السامع، ولا يُوجِب على المتكلم أن يختار بين اختيارات لا حاجة لها.

وسأستعمل المصطلحين: "غير مُحكَم"، و"واهٍ" loose, loosely. قارن بما يقوله وارتبورج von Wartburg الذي يستعمل الاستعارة نفسها (١٩٦٢، ص٩٦):

> "وقد تطور بناء الجمل على هيئة عبارات متتابعة وهو الذي كان سائدا في اللاتينية القديمة وهو النمط ذو الطابع المتراخي إلى بناء ذي طابع متماسك في اللاتينية الكلاسيكية".

"Der *straffe* Aubau des klassischen – lateinischen Satzgefüges folgt auf die *lockere*,mehr parataktische Aufreihung wie sie im ältesten Latein üblich war."

(والتأكيد من عند جستس)[4]. والمصطلح الآخر المفيد هو "المُستقيم" straightforward، الذي يتضمن "التتابع الخطِّيّ المستمر"[5] *séquence progressive* وغياب الاستراتيجيات التركيبية المعقّدة.

وسوف تكون الفكرة الانطباعية عن "الاستقامة" straightforwardness مفيدة أو مضلِّلة تبعًا لكون الخصائص التي سوف نبيِّنها في هذا الفصل مهمة أو غير مهمة - أي هل ما أقدِّمه هنا تفاح وكمثرى وموز، التي تتصف كلُّها بأنها فاكهة، أو أنَّ ما أقدِّمه لن يعدو أن يكون أحذية وسفنًا وغِراء [التي لا رابط بينها]. ومحاولة تمييز مقتضيات بنية اللغة من خلال ممارسة بعض كتابها أو من بعض الأنواع اللغوية فيها مشكلةٌ عويصة في هذا المجال. فنحن نصف "الإقحام المعجمي" النادر lexical tmesis عند هذا الشاعر اللاتيني أو العربي أو ذاك بأنه مما يَخرُج على عبقرية هذه اللغة أو تلك، ذلك في الوقت الذي نعترف فيه بأن الإقحام التركيبي constructional tmesis مما تتميَّز به اللغة اللاتينية. ولا يمكن لنا، من وجه آخر، أن نقتصر على البنى البسيطة أيضا. ذلك أننا إن قصرنا النظر على التتابع المكوَّن من الصفة المتبوعة بالاسم أو العكس، فلن يكون هناك ما يُلزِم بأن نَصِف الترتيب الأول بأنه بِنْية "استباقية، توقعيَّة" anticipatory تترك السامعَ معلَّقًا، كما يمكن [للساني المعاصر] تشارلز بالي أن يقول، أي - it's boonet blanc ، و blanc boonet. فلا يَظهَر مدى قبول اللغة لهذا الإقحام إلا حين يُتلاعب بتوسيع الصفة. انظر مثلا:

"the by that time familiar thought"

(حيث فصل بين أداة التعريف the والاسم الذي تعرِّفه thought)

و:

"one to them insuperable difficulty"

(حيث فصل بين one و difficulty)

(وقد وردت هاتان الجملتان في كتاب:

M. Kline, Mathematics: the Loss of Certainty, New York: 1980

لكن الجملة التالية ليست صحيحة:

*"the by that time familiar to everyone thought

(حيث فصل بين الصفة familiar والموصوف thought)

وتكون هذه الجملة صحيحة إذا صيغت على الشكل التالي:

"the thought, by that time familiar to everyone. . ."

(حيث قدم الاسم the thought)).

وليست هذه الفكرة وَهْمًا بأية حال؛ بل حقيقة اجتماعية في ممارسات اللسانيين (غير المنشورة غالبا). ومن ذلك أن أحد أصدقائي اللسانيين الشباب كان قد درس الصينية وتلقّى دعمًا ماليًا لدراسة تركيبها، اشتكى لي ـ سرًّا!، أنه ليس هناك شيء لافت للنظر يمكن أن يقال عن تركيب اللغة الصينية: فتركيبُها بسيط جدًّا وإذا ما المُسَّ به بصورة أوّلية فلا يبقى شيء مهمّ وراء ذلك. ولا أستطيع هنا الحكمَ على دقة هذه الملحوظة، فمعرفتي بالصينية تكاد تكون صِفْرًا؛ لكن المؤكَّد أنه لن يخطر لأحد أن يقول شيئًا مماثلاً عن الإنجليزية. ذلك أن الالتواءات البنيوية فيها، والتشعبَ غير النهائي للأنواع التركيبية الفرعية، والأنواعَ المتعددة لنزواتها الغريبة فيما تُفصِّله أو لا تفصله من التفجيرات الخلاَّقة العارمة، لا يتوقف عن كونه مصدرًا للإدهاش. كذلك فالرصيد المعجمي الغني في العربية يملؤك بالدهشة، غير أن تركيبها، بالصورة التي أعرفها، لم يتطور إلا تطورًا متواضعا.

دعنا الآن نلتفت إذن، إلى القائمة التي تحوي مظاهر العربية التي تبدو كأنها تتجمع حول الشعور بالاستقامة والترابط غير المُحْكَم والذرّية atomicity.

١ـ بنية جملة الصِّلة:

وهي التي ناقشناها أعلاه. و"تبرئة للذمة" par acquit de conscience يجب أن أذكر هنا أنه ليس كلُّ بنى جملة الصلة غير مترابطة ترابطًا غير محكم على شكل جمل مستقلة. إذ يمكن أن تكون مضمومة ضَمًّا وثيقًا إلى البنية الرئيسة عن طريق حرف جر، كما في الجملة التالية:

"إلى الذي رأيته"

بل يمكن أن تكون هذه الحال شبيهة بالنوع الإردافي إذا ما أعدنا للاسم الموصول قيمتَه الأساس التي تأتي بمعنى اسم الإشارة الاسمي (مثل معنى that في الإنجليزية)، وهي الحال التي تشبه فيها الجملةَ التي تخلو من الرابط:

"إلى امرأة رأيتها"

وأهم من ذلك أن هناك نوعًا من الصلة يتصف بأن الاسم فيه يأخذ الإعراب من الجملة الرئيسة، ويتطابق في العدد والجنس مع العبارة التالية له، وهو النوع المسمى بـ "النعت السببي":

'رأيتُ الرجلَ المقتولَ أبوه' (SV 596).

وينتهك هذا النوعُ الاستقامةَ الذرية انتهاكًا حقيقيًا: فهو ينتهكها من حيث التركيب: ذلك أن كلمة "المقتول" شَطَرَتْ ولاءها (إذ إنها تنظُر من حيث الإعراب والتعريف إلى ما سبقها، وتنظر من حيث الأمور الأخرى إلى ما يلحقها)، وينتهكُها من حيث المعالجة الدلالية كذلك، ذلك أنه لو اتفق أنْ تطابقت الأجناس [من حيث التذكير والتأنيث] فإنه يمكن أن تؤوَّل تأويلاً أوليًا خاطئا (أي أنها يمكن أن تؤول على أنها: 'رأيت الرجلَ المقتول')، وهو ما يمكن مقارنته مع التركيب المعقَّد [الذي يسمى 'تركيب ممشى الحديقة']، في الإنجليزية:

The horse raced past the barn fell

(انظر Wright II 283, Cantarino III 160, Polotsky 1978).

٢ـ توالي الصفات الإسنادية، والتتابع من الأسماء، الخ:

انظر الملحق التخميني للفصل الرابع.

وهذه التراكيب قليلة الأهمية إذا أُخِذتْ مفرَدة، لكنها تتناغم مع الانتظام العام لبنية التركيب في العربية، سواء أكانت من غير رابط نحو (صفة صفة صفة: 'عالِم كريم لبيب') أم كانت الوحدات فيها مربوطة بروابط "ضَحِكَ ورقَص وفرِح فرحًا شديدا"، المكوَّنة من فعل + فعل + مركب فعلي). وهذه التراكيب شبيهة بالإسناد التوازني على المستوى الأسلوبي (وهو التركيب الملائم للإضافة الزائفة [اللفظية]).

٣ـ الصرف:

وهناك شبيه للتتابع التركيبي المستقيم في الاتجاه الآخر، أي على مستوى الصرف. فكثيرًا ما نجد الكلمة العربية إلصاقية أساسا agglutinative ـ وهو تفصيل هندسي، حيث

نجد أنه يجب أن توضع الحركات في مواضعها الملائمة، لا أن تزاد، نحو: < ص١ـَـ ص٢ِـ ص٣ > "اسم الفاعل"، < ص١ِـ ص٢ ص٣ـَة > 'اسم النوع للجذر الصامتي الثلاثي'. (أما تصريف الأفعال فأشبه بما في اللاتينية: cumul de signifiés).

ومن غير أن نبلغ الحد الأقصى في استقصاء هذه الفكرة ربما أمكن لنا أيضًا أن نقول إن العربية مطردة إلى حد بعيد في صرفها الاشتقاقي، وهي في الأقل أكثر اطرادًا من الفرنسية أو الإنجليزية، إذ لا تعتمد الصيغةُ التي يأتي عليها المشتقُّ إلا على شكل الكلمة الأصل التي اشتقت منها، لا على دلالتها أو اللغة التي جاءت منها. أما في الإنجليزية فنجد أن الكلمات التي جاءت من أصل لاتيني تأخذ السابقة -in أداةً للنفي، مع ما يصحب ذلك من الإدغام اللازم بينها وبين الصوت الذي تبدأ به الكلمة، وهو الذي لا تتصف به الإنجليزية: inconsiderate, impossible, illegible (حيث ادغمت الـ n بالـ p فصارت m، وادغمت في الـ l فصارت l) (هذا على الجانب الأصواتي: قارن ذلك بعدم الإدغام في الكلمات الإنجليزية الأصلية: enlist, nonplus). أما الكلمات التي جاءت من أصل إنجليزي فأداة النفي فيها هي: -un: unlikely ، و (unbad*) إذا سُمح بوجودها دلاليا. ولهذه القواعد العامة، مع ذلك، بعض الاستثناءات. أو مرة أخرى، مثل القواعد التي يُشتق بها اسم الفاعل:

write, writer;
act, actor/agent;
depend, dependent

(حيث تختلف اللاحقة التي تدل على الفاعل)

(في مقابل: refer 'يحيل'، حيث يكون 'المحال إليه': referent ، لا referens، بل: the refered – to 'المحال إليه'، وكذلك defendent "المتهَم"، الخ)، و come "يأتي" التي لا يأتي منها comer* "الآتي" (بالمعاني المألوفة لها). أما في العربية فلا يوجد مثل هذا التنافر الصرفي الكبير، لكن يجب أن نعترف بأنه لا يوجد [في العربية] اطراد كلّي تام للتوافق بين الصيغ المشتقة والمعاني المشتقة (حتى إن سمحنا، كما يجب علينا، بالتطور الدلالي الضئيل المتوقَّع نحو: 'كاتب' –> "موظف إداري": لاحِظ التنوعَ في المعاني لصيغ الفعل المشتقة[1]).

٤ـ تقديم أداتي الاستفهام والنفي في الجملة:

ولأن اتجاه vector الجملة يُغيِّر تغييرًا عنيفًا نتيجة للنفي أو الاستفهام فأكثر البنى استقامة هي أن تُضَع هذه الأدوات خارجَ الجملة، وذلك ما يضع القارئ على الطريق الصحيح. لذلك تُظهَر أدواتُ الاستفهام والنفي وأسماؤهما: "هل"، و "آ"، و "ما"، و "لا"، إلخ، كلُّها قبل الكلمات التي يمكن تقديمها، كما تظهر أدوات النفي قبل المقولات التي تنفيها.

وإذا ما وُضِعَت أدوات الاستفهام أو النفي وأسماؤهما في ذلك الموضع، فإنها ترضى بصورة عامة بأن تُسهِم بدلالتها من غير أن تتعمق داخل المكونات الأخرى للجملة لتُحدِث تغييرًا في الكلمات أو العبارات: وهو ما يعني أن في العربية ندرةً نسبية في معجميات المُغايَرة (في الأطوار المبكرة من تاريخها في الأقل) وفي التركيبات المتغايرة. لهذا تعني كلمة "يومًا"، مثلاً، كلاً من: jamais "هذا اليوم"، و un jour "اليوم بصفة عامة". (انظر ريكندورف: AS 93 ، التعليق رقم ١). كما تعني "أيضًا" كلاً من: aussi ، و non plus ، ومن هنا يمكن أن نعطف جملتين الواحدةَ على الأخرى من غير أن توزِّعنا درجةُ النفي لأيٍّ منهما (أي أن هذا يتَّسم بالتزايد additivity).

وسأذكر هنا عددًا قليلاً من الاستثناءات، وذلك بسبب الحَذَر ولكي أوضِّح ما أعنيه بالتزايد عن طريق إيضاح ما لا يَدخُل تحته. فيمكن لنفي صيغة الماضي "فَعَلَ" أنْ يكون: "ما فَعَلَ"، لكنه يمكن أن يكون: "لم يَفْعَل" كذلك، حين تكون "*يَفْعَل" مثبَتة مستقلة. وليست هذه الحال إلا تعقيدات محلِّية يُمكن أن تتشابه مع ما نجده في الإنجليزية، حيث نجد أنَّ نفي الفعل: went هو: didn't go. وهناك أداة اختيارية مُقحَمة هي "بِـ" التي تؤدي معنى الإضافة التبعيضية بصورة غامضة، وهي أكثر استعمالاً في الجمل المنفية منها في الجمل المثبتة ("أنا غني" : "ما أنا بغني"، وهي مثيلةٌ للجملة الفرنسية: Je n'ai pas *de* crayon أو الروسية: ya nye vizhu stola).

٥- العطف التلازمي :Correlatives

إذا ترتَّبتْ قضيةٌ proposition على قضيةٍ أخرى، أو كانت بديلاً لأخرى، أو حدثت بالرغم من قضية أخرى، فيعني هذا أن القضيتين متلازمتان دلاليًا، ويصدق ذلك في اللغات جميعها (وقد قُصِد بهذا أن يكون تحصيل حاصل tautology)؛ لكن اللغات تختلف بعضها عن بعض في الدرجة التي ترتبط بها إحدى القضيتين بالأخرى شكليًا، أو تتفرع عنها، أو تُحوِّلها بدلاً عن ذلك من أجل تبيين العلاقة.

ولا بد لنا هنا أن نكون حريصين فيما يخص التفاعل بين الشكل والتأويل، ذلك أنه يمكن أن تكون كلمة 'الاستقامة' المجازية مضلِّلة. فقد يكون من الاستقامة بمكان دلاليًا أن تُثبِت العلاقاتِ المنطقيةَ البينيَّةَ لأجزاء جملةٍ ما عن طريق أدوات الربط، وأدوات التلازم، والتزايد الخاص للقواعد المحدِّدةِ للزمن وما أشبه ذلك، كما يمكن بالمقابل أن يبدو كأنه نوع من سوء الطوية أن نكتفي بإيراد العبارات المستقلة شكليًا بعضها عن بعض ثم نترك الأمرَ لميول القارئ التداولية لكي يحاول تنسيقها في بنية منطقية شاملة. أما ما أهتمُّ به هنا فهو الخَطِّيَّة التركيبية الشكلية والتتابع في العربية، وكذلك النتيجة التي نحصل عليها من تحليلها بطريقة تشبه ما وصفه وايزجربر في الفرنسية. ويمكن لبعض الأمثلة المتقابلة أن تجعل البُعدين أكثر وضوحا.

فهناك جمل غير موسومة ومستقلة لكنها غير صريحة دلاليًا:

"He ran up the slope and fell down exhausted."

"جرى المنحدَرَ صاعدًا وسقط أرضًا مُتْعَبًا"

أي "أنه وقَع نتيجة (لدرجة) جَرْيه"

وهناك عبارات مستقلة مربوطة ربطًا صريحًا:

"He laughed till (i.e., so hard that) he fell over".

"ضَحِك (أي أنه استغرق في الضحك) حتى وقع"

"I laughed so hard I cried."

"ضحكت ضحكا تجاوز الحدود حتى إني بكيت"

قارن ذلك بـ: "I laughed (and laughed (and laughed))

"ضحكت ((وضحكت (ثم ضحكت))"

في مقابل: (* "I kept.") "I kept laughing"

(* "ظللت") ظللتُ أضحك".

الربط غير الخطّي non-linear:

"... dessen Beziehung SOWOHL auf das Subjekt WIE auf das Verbum WIE AUCH auf beide weisen kann.(H. Gipper.)

فترى هنا تلازمًا حقيقيًا: فبَعْد كلمة sowohl وقبل أن تُكمل أيةَ عبارة تجد نفسك منتظِرًا لنهاية الحديث. ومثل هذا الربط مما تتصف به الألمانية، في حين يمكن أن يقال في الإنجليزية:
"which can refer to the subject/as well as to the verb/ or to both together"
"التي يمكن أن تحيل إلى الفاعل/ والفعل كذلك/ وإليهما معًا"
في الأسلوب المختصَر atomic لكن مع وجود ربط صريح. ثم قارن بالأسلوب الإردافي الخالص:
"It máy relate to subject. It máy relate to verb"

"ربما ترتبط بالفاعل. ربما ترتبط بالفعل"

التي لا يتضح فيها ما إن كانت البدائل غير داخلة أم لا:
"He may be a Hungarian. He may be Czech".

"ربما يكون مَجَريًا. ربما يكون تشيكيًا"

وينشأ عن مثل هذه التلازمات بعضُ التوتُّر عبْر الجملة وهو الذي لا نجده، عمومًا، في العربية. وبالإضافة إلى شبَه هذه التلازمات بالصندوق الصيني [الذي لا يمكن أن تتنبأ بما يمكن أن يخرج في أيدينا حين ندخلها فيه]، فهي ما يعطي الألمانية طابعها الذي تتميز به. وكما هي العادة لا نشعر بهذا الإحساس بأوضح صورة في الجمل البسيطة التي يمكن أن نبتلعها دفعة واحدة، بل في تلك الجمل التي ينشأ عنها ضغط على مدى انتباهنا. وكما يقول جيبر:

"تعودنا في الثقافة الغربية على حد من القناعة مفاده أن تحليل الواقع الذي نتوصل إليه يكون نهائيا، لدرجة أن المرء يعارض الاعتراف بنسبية ذلك التحليل القائمة على استخدام اللغة".

"In der westlichen Kultur hat man sich DERART *daran* gewöhnt, die erreichten Analysen der Wirklichkeit als endgültig an*zu*sehen, DASS man sich **da**gegen sträubt, ihre Sprachbedingtheit. . . **zu** erkennen. (Gipper 1963: 311).

ويقول ريكندورف إنه:

"لا يوجد في اللغة العربية عبارات ربط حقيقية بمفهومنا للمصطلح".

"Ein eigentliches Korrelativum in unserem Sinne hat das Arabische nicht."(SV 635)

ويقول كذلك: "لا توجد في الواقع كلمات ربط حقيقة في الجملة الرئيسة لدرجة أننا نحصل على جمل كالجملة التالية":

"Eigentliche Korrelationswörter im Haupsatze, ("so-dass") gibt es nicht; vgl. Immerhin :

"ليس هذا برأي أن تنطلق" (AS 395).

وتحليل مثل هذه الحالات غير واضح، قارن بـ AS 444f، كما تتفاوت اللغات في تطورها في الدرجة التي تجعل بها أدوات الإشارة والأدوات الأخرى تعمَل على توتير الأجزاء التالية في الجملة. فيبدو أن كلمة Entweder "إما" كانت في الأصل مستقلة، مثل: "De deux choses l'une: . . ." "أحد احتمالين. . . ". ويعكس ذلك فَقَدَت كلمةُ either "إمّا" في الإنجليزية أثَرَها الطاغي في المثال التالي (ومن المؤكد أنه استعمال زائغ، لكنه مما كتبَه كاتبٌ محترَم، وأجازه محررو كِتابه والمصححون في دار نشر MacMillan ، ولم يَفطِن له محررُ الطبعة الثانية لكتابه؛ وهو مأخوذ من ص ١١١ في الطبعة الثانية التي نشرتْها دار Gateway):

"The outcome is EITHER a breakdown of behavior –'when in danger or in doubt, run in circles, scream and shout'. The hierarchy has disintegrated. The ALTERNATIVE possibility is the sudden emergence of new forms of behavior."

(A. Koestler, *The Ghost in the Machine*.)

(حيث المعهود أن either تتلوها or؛ أما في هذه الجملة فلم ترد or بل استعمل جملة جديدة بمعناها تبدأ بـ alternative possibility)

أما في العربية فيمكن أن تعترض جملٌ كثيرة بين الأداتين: "إما . . . وإما" (وهناك مثال يبلغ طولاً يَمنع من الاستشهاد به هنا موجود في الكتاب الذي حققه مايكل كارتر ١٩٨١، وهو القول الذي يبدأ من السطر الأخير في ص ٢٠٨). ويمكن أساسًا في حالات مثل هذه أن نحلل الجمل المترابطة كأنها جمل مستقلة، وهو ما يشبه أن نترجم "إما . . . وإما" بـ:

."It may be (S_2) . Or it may be (S_1)"

"ربما تكون (الجملة٢) ربما تكون (الجملة١)"

وهناك مثال أكثر طولاً تعترض بين الأداتين فيه جملٌ أكثر، ومن المؤكد أن توجد جمل معترضة مستقلة فيه، وهو المثال الذي يوجد في ص ٢٦٦ في كتاب كارتر ١٩٨١. ويمكن أن يقارن هذا المثال من حيث البنية بدقة بالمثال المأخوذ من كوستلر أعلاه.

وقارن أيضًا بـ: SV 677 فيما يخص "لمّا . . . إذا" كمشابِهٍ تقريبي للجملة الألمانية ذات التركيب: als. . . da.

٦ـ التتابع التركيبي للمركبات الاسمية:

وكما رأينا في الفصل الرابع فلا تُعامَل التعبيرات الثنائية معاملةً تركيبية خاصة، ذلك على الرغم من التقلب الدلالي الشديد الذي تتسم به.

٧ـ زيادة عبارة إردافية شكلاً، مع اتصافها بالتبعية ظاهريا:

هناك عدد كبير من العلاقات المنطقية التي تُدمَج في الشكل التركيبي: < ج١ و ج٢ > ، الذي تتميز به العربية:

"مات وأنا في القاهرة"

"سمعتُ الرجلَ وهو يشكوني إليه" (SV 515).

كما نجد أيضًا أن "الواو" تُرمِّز المعانيَ المتضادةَ أو المتابعة، بل إنها تقوم بذلك بشكل غير نهائي. وبهذا أزيح التعقيد من شكل الجملة ورمي في حضن التأويل.

قارن أيضًا بالنمط:

"سَجَد فأطال" (رايت ج٢، ص ٣٣٠).

والأمر المهم هنا هو الوحدة الشكلية لكل واحدة من الجمل المتجاورة. ونرى هذه الوحدة هنا في أقل صورها تعقيدا، وهو الذي وجدناه في النمط الأول في نقاشنا للتلازميات. ويمكن أن توجد الخطوة التالية، التي لا تزال واهية وتتابعية، في حالات العطف الصريح الذي لا ينجُم عنه أي أثر تركيبي، كما في:

"He sang while he danced"

"غنّى في أثناء ما رَقَص"

في مقابل:

"He sang while dancing"

"غنى أثناء ما كان يرقص"

فتقع العربيةُ هنا على الطرف النقيض من اللاتينية، التي يُمكِن أيضًا ألا تكون صريحة دلاليا ـ ونحن لا نتكلم هنا عن الفكر البدائي في مقابل حضارة متقدمة ـ بل نقول إنها في أية حال تميل إلى النمط التَّبعي وحسب:

Eo imperium tenente, eventum, timeo.

"وبما أنه/ ومع أنه/ إذا ما كان/ حين يكون/ في منصب الحاكم، فإنني أخاف العاقبة".

كما تستطيع الفرنسية فعلَ ذلك باستعمالها الأداة que بطريقة تنتهك التركيبَ لكنْ من غير أهمية دلالية؛ لهذا هي أقل عرضةً للتنقيح Abperlen من العربية:

"Il l'affirmerait que je ne le croirais pas"

"لن أصدِّقه مهما أكَّد ذلك/ مهما قال"

"Je ne le quitterai pas que l'affaire ne soit terminée"

'لن أتركه طالما لم تنته القضية'

"Vous n'aviez donc pas entendu, que vous ne disiez rien?" Harrap's.

'مالك لا تقول شيئا وقد سمعت/ بعد ما سمعت؟'

"Nous n'avons de cesse que nous puissions expérimenter si. . ."

'لم نتوان في محاولة إجراء التجارب لمعرفة ما إذا. . . '

"J'aurais à mourir que les forces éternelles de la nature me survivraient." Proust.

'أفضّل الموت على أن تحيا قوى الطبيعة من بعدي'

٧ـ التزايد الدلالي للمركبات Constituent semantic additivity

نجد في الجملة الإنجليزية: "We took to Mary immediately" 'وجهنا اهتمامنا إلى ماري مباشرة'، أن للتركيب take to تأويلاً يَدُلّ على أنه تعبير مَثَليٌّ، غير تزايدي؛ واستوا من ذلك أن هذا التركيب الذي يشبه التركيب الفعلي ليس وحدة تركيبية شبيهة بـ: settle down 'يستقر' أو حتى وحدةً مكوَّنة من: فعل ـ أداة، نحو: do (something) in 'يخدع'.

وتفعل العربية مثل هذا إلى حد ما، وإن بشكل أقل مما في الإنجليزية (وحكمي هذا ليس حكمًا قويًا، ومع هذا أوردتُ هذه النقطة، لأن الغرض من هذا العَرْض ليس تعداد الخصائص العربية وحسب، بل إظهارُ الخصائص التي تُحدد 'الاستقامة' البنيوية).

ومن العبارات المَثَليَّة العربية التي يمكن مقارنتها بـ take to:

'انقطع عن'

'انقطع إلى'

'انقطع لِـ'

٨ ـ الضمائر العائدة Anaphora

يَضع الإلماع Cataphora بعضَ الضغط على السامع؛ إذ ينتج عنه توتير الجملة حتى نهايتها.

تُفضِّل العربية باطراد الضمائرَ العائدةَ على الضمائر الإلماعية، حتى ليصل الأمر في بعض الأحيان إلى عكس الترتيب لتفادي الإلماع. ومن ذلك ترتيب عناصر الجملة [فعل ـ مفعول ـ فاعل] في القرآن الكريم أحيانًا، ومنه [قوله تعالى]:

"وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه"

وربما عاد هذا الترتيبُ إلى هذا السبب أكثرَ من عودته إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات التبئير. ويمكن أن يقال أيضا:

"الرجل في الدار"

لكن:

"في الدار صاحبها"

وهي الجملة التي ترجمها وليم رايت بـ :

"Its₁ owner is in the house₁"

" صاحبها، في الدار، "[٦]

وهناك بعض الأمثلة النادرة التي لا يجيزها إلا بعض النحويين العرب وهي مناقضةٌ للنزعة العامة للعربية، حيث نجد الإلماع يتجاوز ما يمكن أن نجده عادة في الإنجليزية، وقد أورد رايت (ج٢، ص ٣٢٨) الأمثلة التالية منها:

"ضربتُه، وضربني زيد،"

"كنت إياه، وكان زيدٌ مريضا،"

ويجب ألا تُصرِّفنا مثلُ هذه الأمثلة المصنوعة أو الشاذة (لاحظ الجرجرة التي يتعرض لها زيد، الذي يُعَد بمثابة دمية للنحويين) عن تأكيد أن العربية بصفة عامة أقل قبولاً للإلماع من

المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي. (ومن أمثلة ذلك، إذا وازينا مثالاً لافتًا للنظر بمثال آخر لافت للنظر:

"His$_{i}$ Town Hails 100th Birthday Of Will Rogers$_{i}$"

"مدينته احتفلت بالعيد المائة لميلاد ويل روجرز"

ـ وهو أحد العناوين الصحفية في جريدة نيويورك تايمز في سنة ١٩٧٩.

"sufficient to show their$_{i}$ business which$_{i}$ imagine that religion. . ."
Richard Hooker

"I haven't seen 'Doin' It', the eveninglength Broadway-style show of its$_{i}$ own devising that Dance Theatre of Harlem$_{i}$ has been touring"—A. Croce in *The New Yorker*, 1978).

٩ـ بنية الشعر:

توصف أبياتُ القصيدة *العربية* تقليديًا بأن بعضها يترابط ببعض كأنها حبات مسبحة في خيط، إذ إن كل بيت محدَّد، مستقل بنفسه، وكامل. (أما التدوير فتطور فيما بعد).

١٠ـ ندرة الجمل الطويلة المتداخلة بشكل يكاد يكون عاما:

صحيح أننا نجد جملاً طويلة، لكن هذه الجمل غير متداخلة [(٧)].

ولا نستطيع توضيح مثل هذه الخصيصة بشكل مباشر، لذلك سأناقشها بطريقة غير مباشرة، أي بنوع من [الاستلزام] modus tollens. فقد أنهى كانتارينو، مشكورًا، كتابه ذا الأجزاء الثلاثة الذي يتضمن رصدًا لأنواع الجمل في العربية النموذجية المعاصرة بقائمة من الجمل المتنوعة من نوع "النحت التجميعي المُوسَّع"، "التي تحتل منزلةً وسطى بين التركيب والاعتبارات الأسلوبية الخالصة". ويمكن أن يوصف ذلك بأنه شيء رائع. ومن المؤكد أن كانتارينو كان على اطلاع واسع على أنواع الجمل في العربية؛ لكنَّ ما يَلفِت النظر أنَّ أمثلته كلُّها تكاد تكون مألوفة. وللتمثيل على ذلك نأخذ مثالاً واحدًا بصورة اعتباطية (ويتماشى تركيب الترجمة الإنجليزية مع تركيب المثال في العربية):

"Since that day our friend had been a sheikh, although he was no more than nine, for he had memorized the Koran, and whoever memorized the Koran is a sheikh, regardless of his age."

(Cantarino III 386)

"منذ هذا اليوم أصبح صبيًنا شيخًا وإن لم يتجاوز التاسعة؛ لأنه حفظ القرآن، ومن حفظ القرآن فهو شيخ مهما تكن سِنُّه" [(الأيام، ج١، ص٣٧)]

وهذا مثال جيد لظاهرة التنقيح Abperlen : إذ يمكن أن تُبتَر الجملةُ عند أية فاصلة ثم نحصُل على جملة صحيحة نحويًا وهو ما يَصح قولُه عن المعنى أيضًا عند تلك الفاصلة.

والمثال الآخر الذي ترجمه على أنه واضح هو:

"But whenever I had to leave her for a day, I felt some uneasiness on doing so, even if only a little."

والمثال الأصلي هنا ليس قالبيًا تماما، وهو أقل اتصافًا بالخطِّية، وإن كان لا يزال من الممكن ترجمته ترجمة حرفية calqued في الإنجليزية:

"But I, when I left her for a day, felt upon leaving her something – if only a little – of unease."

والحال الوحيدة التي يمكن فيها وضع نقطة [نهاية الجملة] في الأسلوب العالي هي الحال التي تتبين من المثال الأخير عند كانتارينو، وهو مثال طويل لا يمكن نقلُه، ويبدو واضحًا أنه نتيجة للتأثير الأوروبي (مشيرًا إلى "الأدب الملتزم" "littérature engagée"، الخ).

والتركيب الذي يتكون من عبارات متعددة ليس معقدًا. وغاية ما يُمكِن قولُه عنه إنه توسيع لتتابعٍ من البنى المتشابهة يُسهم في الشعور بحالة تشبه حالةَ تدحرجِ الأحجار الصغيرة التي يلعب بها الأطفال. فأي مثال مشابه من اللغات الأوروبية يمكن أن يتضمن ـ لكي لا تبتعد كثيرًا عن جملة الصلة ـ أمثلةً لهذا التقطُّع الصريح، والمتداخل والمتشابك:

". . . and, in the course of his expostulation, dropped some hasty words, of WHICH Crampley taking hold, confined him to his cabin, WHERE, in a few days, for want of air, he was attacked by a fever, which soon put an end to his life, after he had made his will, by which he bequeathed. . . "

(Smollet, *Roderick Random*, ch. 37)

"Si Swann était arrivé alors avant même que je l₁'eusse reprise, cette lettre₁ de la sincérité de laquelle₁ je trouvais qu'il avait été si insensé de ne pas s'être laissé persuader, peut-être aurait-il. . ."

(Proust, *A l'ombre de jeunes filles en fleurs.*)

"... parce qu'il imagine une sorte de composé de tous les beaux livres qu'il a lus, tandis qu'un beau livre est particulier, imprévisible, et n'est pas fait de la somme de tous les chefs-d'œvre précédents, mais de quelque chose$_1$ que$_1$ s'être parfaitement assimilé cette somme ne suffit nullement à faire trouver $ø_1$, car. . ."
(id.)

***

للاطلاع على دراسة استعمال العربية للمُتعلّقات [المتممات] التي تأتي بعد البؤرة انظر أيضًا الفصل الحادي عشر extra-nuclear adjuncts .

وليست العربية بغريبة عن الأسلوب الأوروبي الذي يتسم بالتبعية والربط؛ ويمكن للدراسة التقابلية أن تستغني عن إيراد الأمثلة. وسأقوم الآن بإيراد الحالات القليلة التي تُبين فيها العربية شيئًا من التضام أو عدم الخَطِّية ـ المحدود ـ من النوع غير المعهود في متوسط اللغات الأوروبية المعاصرة.

أ ـ أسماء التفضيل elatives:

يتطلب اسم التفضيل في العربية أن يُتبع مباشرة باسم مجرور، أو ضمير متصل. (بغض النظر عن الاستثناءات القليلة). ومن الواضح أن هذه ظاهرة محلية في داخل الجملة، ولا ينتج عنها أيُّ توتُّر عام، وبغض النظر عن قيمتها، فالإنجليزية وقريباتها أكثر حرية هنا. وليست الصفة التفضيلية بأكثر ارتباطًا بالاسم من أية صفة أخرى:

"He is not the best of men, but he is the richest."

"Why not the best?"

"Of all the low tricks I've seen, this is the lowest."

"من بين الحيل الأضعف التي رأيت، هذه أضعفها"

ولا تستطيع العربية حذفَ المفضول هنا، بل يقال فيها في المثال الأخير: "أضعفها" <lowest-them> . ولا يُوجِب اسمُ التفضيل "عَمَلاً عن بُعد"، لكن يمكن أن نقول هنا إن

العناصر الدنيا للجملة 'غير مترهلة' diatomic. (ويمكن أن يكون هذا صحيحًا بالطبع في الأمثلة الإنجليزية، في مستوى آخر من البنية المجردة أو التأويلية).

ومن البنى المُحْكَمة الأخرى ذات الجزأين في العربية تركيبُ الإضافة أو عبارات الجر. وهي وحدات تركيبية قائمة بنفسها أيضا، وتتماشى مع الصورة المجازية لحبّات السبحة في الخيط. ونجد في العربية الوسيطة والعربية النموذجية المعاصرة، والعبرية المعاصرة كذلك، أن هذه التركيبات توسعت بطريقة تنتج عنها تراكيبُ إلماعية، وكما يقول بلاو (١٩٨١: ص ١٢٨): 'إذ يمكن أن يُتبَع اسمان في تركيب الإضافة يعبران عن فكرة واحدة بالاسم المضاف إليه nomen rectum ، كما في:

"تصديرØ، واستيراد الإنتاج،'

'من وإلى العراق"

(المرجع نفسه، ص ١٢٩)

ومن الأهمية بمكان أنَّ بلاو يُرجع هذه التطورات إلى تأثير المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي.

ب ـ المِلْكِيَّة Possessives

وتفصِل ضمائرُ المِلْكية اللاصقةَ بين أجزاء الوحدات الدلالية. إذ يمكن أن تدخل بينها، كما في:

"أضلاعُها القائمة'

.(Hogendijk 1985)

أو يمكن لها أن تُلحَق بالعنصر الثاني في الإضافة المُثلَّثة:

'ابنُ عمِّه"

وقد تخلصت الإنجليزية من هذه المشكلة منذ زمن طويل، إذ تجنبت التركيب:

the Queen of England's son

'ابن ملكة بريطانيا'

واستبدلت به:

the Queen's son of England.

ج - الإضافة الزائفة [اللفظية]:

وهي من نمط: "المرأةُ الجميلةُ الوجهِ". انظر مناقشة هذا الموضوع في الفصل الحادي عشر، القسم ٧. ويتصف هذا التركيب بأنه ليس جذريًا atomic لأن للصفة ارتباطين اثنين كما في "النعت السببي" (الذي ناقشناه فيما سبق)، كما يمكن ألا تكون الدلالة كبيرة الأهمية(٨).

د - التأويل التلازمي للزمن في تركيب الشرط: Correlative tense interpretation in implications:

ويُشبه الربطُ بين فعل الشرط وجوابه في العربية ما في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي إلى حد بعيد، لكنَّ في العربية زيادةً غير تزايدية تتمثل في أنه يمكن أن يَظهَر فيها جوابُ الشرط كأنه جملة مستقلة يكون فيها الفعل في صيغة الماضي، ومع هذا يؤول تأويلاً مستقبليًا، وهي طريقة غير متاحة في العادة:

"إن راح قُتِل".

هـ - الإقحام التركيبي syntactic tmesis:

ويمثل ذلك [قوله تعالى]:

"أُكُلُها دائمٌ وظِلُّها"

(سورة الرعد: الآية ٣٥).

قارن ذلك بقول بروست:

L'obscurité grandissait, et le vent,

"خيَّم الظلام، والريح. . . "

(Proust, *A la rcherche*, Pléiade edition II 760)

ويأخذ المبتدأ المفردُ الأولُ في مثل هذه الجمل خبرًا مفردًا، يتلوه مبتدأ مفرد آخر، وكأنه زيادة إلحاقية afterthought "بدل"؛ والجملةُ مكتملةٌ بنيويًا قبل هذا الإلحاق، وقد سُمِح لهذا المُلحَق بالمشاركة في الخبر المفرد. لهذا فالفجوة الضمنية الملحقة بالمبتدأ الملحَق تشير إلى أمر سبق إيراده، كما يُشعِر المعنى العام للجملة بكاملها أنها لا تزال قريبة من الاستعارة المثالية "لعِقد اللؤلؤ" [أي أنها مترابطة ترابطًا واهيًا].

ويُبين المثالُ التالي المأخوذُ من لوثر عن تعقيد بسيط، بوصفه بنية تُشبه بِنيةَ الأمثلة التي سقناها من قبل شَبهًا كاملاً ثم يُتبَع بفعل جديد، فاعلُه ضميرٌ مستتر لكن يبدو كأنه جمع:

"Petrus$_1$ aber antwortete$_{1\ (-2)}$ und die Apostel$_2$ und $ø_{1+2}$ sprachen$_{1+2}$. . ."

ويسمى هذا التركيب أيضًا بـ"التركيب المشطور" sandwich syntax وتركيب "apò koinoû" (بمعنى معين). والمدى الذي تشمله هذه المصطلحات كلها أمر غامض؛ لكن يمكن أن نكتفي بتمييزِ نمطٍ واحد في الأقل، وهو الذي يمكن أن يَظهر فيه العنصرُ الأخير من عنصرين متشابهين تركيبيًا أ$_1$ و أ$_2$ (اسمين مثلا)، أو أكثر من عنصرين أحيانا، بعد عبارات معترِضة، أي: "ملفوظ/ مردود" en rejet، ويمكن أن يحذف عموما، وهو تركيب يمكن أن يمثَّل له بـ: (أ$_1$ س (أ$_2$))؛ من نمط آخر نجد فيه تركيبين مكوَّنين من كلمات تنتمي عمومًا إلى فصائل مختلفة من فصائل الكلمات، مفصولين فصلاً واضحًا عن طريق عبارات معترِضة، لكنهما يمكن أن يُكوِّنا، على جانبي هذه العبارات المعترِضة، جملةً متصرفة، ويحتاجان إلى الاتحاد من أجل الصحة النحوية أو من أجل صحة المعنى الأساس. والنمط الأول هو الأكثر شيوعًا في العربية نوعًا ما؛ أما النمط الثاني فيمثلُه بشكل واضح نمطُ phrases gigognes "العبارات المبتورة" في الألمانية، وهو لا يُستعمَل، في تنوعاته المختلفة، إلا نادرًا في العربية، حيث يميل الإقحام Einschub إلى أن يكون نوعًا محدودًا جدًا بنيويًا ودلاليًا (إذ لا

نجد فيها شيئًا شبيهًا بالتكرارية التي نجدها في الألمانية، كما في الأمثلة التي نقلناها من وايزجربر Weisgerber ، وإنما تشبه عبارة y`know "كما تعرف" في الإنجليزية:

She's my, y`know, girlfriend an all

"ليس كلُّ الركوعِ فاعلمْ صلاةً"

(ابن حزم : طوق الحمامة، ص ٢٨٨).

"وإنّه لقسَمٌ لو تعلمون عظيم"

(سورة الواقعة: الآية ٧٦)

"لا ذات خَلْقٍ إن تأملتَ جأنبِ"

(امرؤ القيس، في ريكندورف SV 763).

انظر أيضًا AS 321 التعليق رقم ٢ (ـ أعني ـ . . . إلخ). والنوع الآخر من الإقحام هو ذلك النوع الذي يُمكن أن يَدخل في أي موضع في العبارات الدينية وما أشبهها، ويمكن أن نقلده في أحد أساليب الإنجليزية بالطريقة التالية:

If your grandfather God rest his soul should ever God forbid find out in Paradise what his nephew curs hi, did to his niece bless her. . .

فيمكننا في هذه الحال أن نُقحِم بعض التعبيرات كما في:

"أدام اللهُ تعالى أيامَه"

وليس لهذه التعبيرات قيمة كبيرة ؛ إذ لا يكاد يكون لعبارة "تعالى" التي تُترجم أحيانًا بـ:

may He be exalted

أهمية تركيبية، أو انتماءات فعلية، لذلك يمكن أن تُترجم العبارة بكاملها بـ:

may God *almighty* prolong his days

(وهو ما نجد له شبيهًا في الانجليزية، حيث لا "يكلِّف" تأخيرُ الصفة كثيرًا كما هو المعهود).

وحين يظهر الإقحام في مفاصل طبيعيةٍ من الجملة يُعكِّر الشعورَ بمرور التيار الخطي الواضح أو أنه لن يَنتج عنه ذلك، ويمكن عندئذ أن يسمى اعتراضيًا، كما في:

If he should come, which isn't likely, I'll talk to him

في مقابل:

If, which isn't likely come,. . .

و:

If he should – which isn't likely –come,. . .

وفي كتاب كانتارينو فصل مفيد عن هذه المسائل (ج٣ ص ٣٧٥ وما بعدها) [٩].

و - النَّقْل: Enallage (displacement):

(انظر فيما يخص هذا المصطلح Havers *Handbuch* 81).

واقصد هنا عددًا من الحالات التي تتوفر لِلُغة فيها طريقةٌ سهلة أو خطِّية للتعبير عن شيء ما لكنها تختار طريقًا آخر في التعبير يتسم بالمعاضلة أو بدرجة أقل من المنطقية. لهذا ينضوي هذا الإجراء تحت "الكلام" parole إن رغبتَ في ذلك، لكنْ هذا هو ما نعالجه فعلاً عند دراستنا لِلُغة ما؛ ثم إن اللغات تختلف في مدى تكرار مثل هذه المعاضَلات أو في نمطها. ويورد ريكندورف AS 232 قائمةً بعدد قليل من الجمل التي تتسم بعدم الخطية، واغلبُها من الشِّعر، تحت عنوان "التداخل الشديد" "Kühnere Verrenkungen"، نحو:

"قد كان لي في اسمه، عنه، وكنيته، لو كنتُ مُعْتَبِرًا ــ ناهٍ"،

فيتضمن هذا التتابعُ المحيِّرُ من الكلمات إجراءين غير خطيين مما رأيناه من قبل - أي: "الإقحام" tmesis والاعتراض interpolation - ثم يضيف نوعًا آخر، وهو نقل عبارة الجر، ومرة أخرى (مع التضمين) بطريقة لا يبدو أنها تتبع نمطَ المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي والعربية كذلك:

"ضربتُ في من رغبتَ"

بدلاً من:

"ضربتُ من رغبتَ فيه"

وهذا المثال مصنوع لم يقبله إلا نحوي واحد [وهو ابن مالك] (قارن بـ: De Goeje, in Wright II 324). أما القبول الأكثر للمثال:

"لم يَجِد يومًا على من يَتَّكِل"

(بدلا من "... على من يتكل عليه")

حيث قُدِّمت "على" فيما يبدو، فسببُه من غير شك القياسُ على تركيب السؤال غير المباشر.

وربما احتوى النقل، في مستوى الشكل المنطقي، أشياءَ مثل "التقديم والتأخير" hysteron proteron (بالإضافة إلى الأمثلة التي أوردها هافير من "نقل الصفة" enallege adjectivi، إذ ربما لا تكون البنية الناتجة شاذةً تركيبيًا). ويُمكن عدّ هذه على أنها أكثر اتصافًا بكونها من "الكلام" parole-ish ، حيث لا تحمل أية سمات بنيوية فارقة: ومنها أشياء مثل:

"لحق بالتاجر وترك الثورَ"

(كليلة ودمنة، المطبعة الكاثولكية، بيروت، ١٩٥٧، ص ٢١)

إذ يوجِب السياق أنْ يَترُكَ الثورَ أوَّلا؛ أو:

Have a look at the sea and climb up in the crow-nest

"انظر إلى البحر ثم اصعد إلى عش الغراب" (ألف ليلة وليلة).

فهناك متواصِلٌ يُمكِن أن تتسلل الكتابة غير المتأنية عبْره عند الكتّاب إلى الإجراءات المقبولة، والطرق الصياغية في اللغة، بخاصة. ويتضمن كتاب ريكندورف قِسمًا عن التقديم والتأخير (AS 322f)، وهو قسم صارم أكثر مما ينبغي، أو أن الأمثلة التي جاء بها تنتمي إلى نوع لا يمكن أن نُعيره اهتمامًا في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي أيضا: فتمثل الأمثلة هذه إذن ملاحظات قيمة، لكنها لا تميز العربية:

"هُمْ خَيرُ قيسٍ آخِرِيًّا و أوَّلا"

وهو المثال الذي يمكن أن يُشبِه عبارة: back and forth ، وإن لم يكن من الممكن ترجمته بعبارة إنجليزية مثليَّة بدقة.

وبالمثل:

"رَعَدَتِ السماءُ وبَرَقَت" [حيث يأتي البرق طبيعيًا أولاً ثم الرعد]

قارن [١٠]:

thunder and lightning

"الرعد والبرق"

وللاطلاع على أمثلة من تغيير الترتيب للظروف الملحَقة (وإن لم يكن مقبولاً دائما) انظر ابن شنب، تحقيق، ص ٣٤٠.

* * *

ويحوي الجزء الثاني من كتاب كانتارينو، متابعةً لريكندورف As، فصلاً عن "فقدان التتابع" anacoluthon، لكن العنوان ربما يكون مضلِّلا (كما يوحي ريكندورف، As 349, note 1)، إن كان ذلك يعني أن نفهم المصطلح على أنه يعني 'عدم التتابع النحوي" كما يعرِّفه قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية OED. ويمكن أن تُصنَّف الأمثلةُ التي أوردها كانتارينو على أنها من صنف "نقل المركَّب الاسمي إلى اليمين"، مع ترك نسخة من الضمير في المكان المنطقي للمركَّب المنقول:

"هؤلاء الفلاحون، لهم ذقونٌ وذقونٌ جميلةٌ"

فهذه الجملة أقل استقامة من أصلها الذي جاءت منه: 'لهؤلاء الفلاحين. . . '، لكنها لا تتنافى مع صفة 'التنقيح" Abperlen، ذلك أنها لا تتصف بالالتواء أو التفكك بقدر ما هي مقسمة لغرض التعامل الأسهل معها. صحيح أنه لا بد من البحث عن مرجع الضمير، لكنه، من حيث كونه عائدا، ليس أسوأ مما نجده في المثال الإنجليزي:

I went up to John and he said hello

"تقدّمت مِنْ جون وقال لي مرحبا'

فليس هناك أي توتر إلماعي، ولا انتظارٌ لمرجع الضمير كما في النقل إلى اليمين في الإنجليزية:

He's quite a guy, your brother

'إنه رجل جيد جدًا، أخوك"

كما أنه ليس مثالاً لفقدان التتابع الذي يعني أن الأجزاء لا يمكن إعادة تلاؤمها بعضها مع بعض مرة أخرى:

He's quite a guy, your brother is

"إنه رجل جيد جدا، أخوك هو"

وهو تركيب غريب في العربية.

وفي القرآن بعض الأمثلة الحقيقية لفقدان التابع (انظر مثلا، سورة المائدة، الآية ٥٦، وسورة الأنعام ٦، الآية ٣٥، وقارن بنولدكه في Neue Beiträge)، لكن القرآن يَخرج على النمط المتوقع في عدد من الاعتبارات اللغوية (ذلك أن إيقاعه متقطع، بدلاً من كونه إيقاعًا سهلاً منتظما).

ويتمثل الإجراءُ الآخر الذي يتصف بالتغيُّر الشكلي الفجائي - مع أنه يساعد على التحليل، وبسبب ذلك لا ينافي الفوارق الدقيقة التي أثبتناها لمظهر التركيب في العربية - في الاستئناف resumption، كما في:

"خشيتُ **أن** لو عرفني **أن** يَضُرَّني"

(SV 761)

وترجمتها إلى الإنجليزية:

I fear *that*, were he to recognize me, *that* he would harm me

(أي أن ما يمكن أن يعد خطأ في الأداء في الإنجليزية، إنما هو قول له سبب وجيه).

وهذا النوع من الاستئناف شائع جدًا في نشرات الأخبار الشفهية وإن كانت رسمية [من حيث اللغة] التي تتبعها. ويفترض في أسلوب هذه النشرات أن يكون قريبًا من أساليب اللغة العربية النموذجية المعاصرة، لكنْ يغلب عليه قدر كبير من الاضطراب في الإعراب، وإن كان التركيب يساعد على الإيحاء به:

"طالبتْ لجنةُ المبادرات الدرزية في قرية شفا عمرو شمالي فلسطين، طالبتْ سلطات الاحتلال الصهيوني إلغاء قرار التجنيد الإجباري على جميع الشباب الدروز".

(واتسم النص الأصلي بالتسكين، بدلاً من الإعراب)[١١].

ومما له صلة بهذا تلك "الاقتضاءات التعرُّفية" perceptual implications للترتيب (فعل ـ فاعل ـ مفعول) الذي يُثقِل على السامع بمركَّبين اسميين (أو أكثر حين يكون هناك مفعول ثان، كما في الأمثلة السابقة)، وهما اللذان يمكن أن يكونا معقَّدين لاحتوائهما أسماء مُبْدَلَة appositions أو اعتراضات. ويحتمل أن تُشبه الإنجليزيةُ العربيةَ في هذا لو كانت تتبع هذا الترتيب لمكوِّنات الجملة، كما في الجملة التالية:

Criticized – John Taylor, Reagan's choice for secretary of dinnerware – the incumbent secretary of transportation.

لكن الجملة بهذا الترتيب ليست مُرضية بقدر إرضاء الترتيب (فاعل ـ فعل ـ مفعول) الذي يتسم بوجود الفَجَوات بصورة طبيعية، ذلك أن التتابع (فعل ـ مركب اسمي) هنا لن يكون تتابعًا واضحًا مكوَّنًا من (فعل ـ فاعل) ولا (فعل ـ مفعول).

والسؤال هنا، هل هناك اقتضاءات أخرى لكون الترتيب في العربية (فعل ـ فاعل ـ مفعول) ـ ذلك أن هذه خصيصة عامة جدًّا ونحن نسعى لاكتشاف مميِّز عامٍّ جدًّا لها؟

وقد استُخدِم ترتيبُ المكوِّنات (فاعل، مفعول، فعل) في الجمل الخبرية البسيطة مؤخَّرًا بوصفه نقطة الارتكاز العظمى للتركيب كله. (كما في أبحاث جوزف جرينبيرج وزملائه). وربما كانت هذه الخطة صحيحة من حيث الآلية. ومع هذا يبدو أنه ليس للترتيب (فعل ـ فاعل ـ مفعول) في *العربية* (إذا أُعربت إعرابًا كاملاً) إلا أهمية ضئيلة من حيث ما نهتم به هنا من الدلالة والمظاهر البنيوية للغة. ويعني هذا أنني لم أستطع ملاحظة أي شيء من هذه الأهمية، وسوف أبقى مستعدًّا بتعاطف لكي أنظر في مثل هذه التأثيرات التي ربما يراها بعض الباحثين. ويقترح G.. von der Gabelentz عددًا من الأمور الحساسة (حساسية مفرطة؟) عن بلاغة ترتيب الكلمات، ونجد من بين هذه الأمور أن حُكْمه بأن الترتيب (فعل ـ فاعل) أناني 'egoistisch' :

Herabfällt ein Stein lässt sich umschreiben. . .

"سقط حجر يمكن وصفه. . .

'Ich sehe oder höre etwas herabfallen, und [siche!] das Herabgefallene ist ein Stein.]
(*Die Sprachwissenschaft*, 413)

"أنا رأيت أو سمعت شيئا يسقط [انظر]، الشيءُ الساقط حجر"

ويمكن أن تكون هذه هي الحال في بعض اللغات (وهو ما يبينه استعمال الجمل الاسمية التي تخلو من فعل الكون nature morte في التقارير التي تغلب عليها الموضوعية)، لكن لا يمكن أن نجد هذه الحساسية مباشرة في التركيب الأساسي لخطة الجملة[12]. بل يمكن أن يرى المرء بشكل معقول أيضًا، بعكس المتوقَّع، أن الترتيب (فاعل - فعل - مفعول) أكثر اتصافًا بالتمركز الذاتي، ذلك أنه يمكن تكثيف hypostasized الـ Gegen-stand أولاً، من ذلك التيار العاصف غير المجزأ لِلْحَدَث، وجَعْلِه موضوعًا لشعوري (وقد حاوَلَت جمعيةُ "اللغة والجماعة" Sprache und Gemeinschaft دون كلل أن تؤكد أن هذا يمثل التجزيء الإنساني للكون، أي أن الخلق الإلهي العظيم يتساقط إلى حشرات وثدييات، وحشائش وأعشاب ضارة)؛ أما الخطة التي تبدأ بالفعل فتمثل أولاً حَدَث السقوطِ الذي لا يمكن أن يُعزَل عن الشيء الذي سقط - أي، لا يمكن أن يُعزل عن الشيء الذي ليس هو أنا - وذلك بالطريقة نفسها التي تتمثل في أن الحجر لا يمكن عزله عن حدث السقوط.

ويمكن أن يوصف مثل هذا التفسير الملتوي brow-furrowing بأنه غير محدَّد حتى إنه ليؤدي إلى اليأس، وأنه ربما لا يكون مهمًا بشكل متفق عليه في نظر علم النفس اللساني إلا في ذلك الوقت الذي كان الترتيب (فعل - فاعل - مفعول) لا يزال يمر في طور الاختيار بحَيَوية (أو حين يُختار مرة أخرى) ولم يصل إلى حالة الاستقرار[13]. وإذا كان الترتيب (فعل - فاعل - مفعول) في مقابل (فاعل - فعل - مفعول) يؤثر فعلاً على التشكيل اللغوي للعالَم sprachliche Gestaltung der Welt، فسيكون تأثيره غير مباشر، وذلك عبر الاقتصاد التأليفي الذي قد يُفهم من خلال الترتيب الأساس حين يوسِّع المرءُ جملة بسيطة.

***

وربما كان لنا الحقّ في أن نسأل: كيف يمكن للعربية أن تتجنب أنواع التعقيدات التركيبية التي رأيناها في الإنجليزية؟ وليس من شك في أنها لا تتعمد خلطَ الأمور بالطريقة التي نجدها في اللاتينية، ومع ذلك فالكَونُ الذي تصوره اللغتان واحد، أليس كذلك؟

وهذا أمر لا شك فيه؛ لكن يمكن في أثناء الممارسة أن تختلف اللغات في تصويرها للعالم عن طريق الحديث عنه بتفصيلات قد تقل أو تكثر. فيوجب [المسرحيان] جيمس وبروست أن تكون أعمالهما مصوغة صياغة ملتوية تتطلب تقشير الطبقات الملفوفة لنفسية تلك الأعمال؛ أما [الروائيان] توم وولف وجنتر جراس فيتطلبان ذلك لتقشير انطباعاتهما غير المتتابعة. ولم تصبح مثل هذه الإجراءات عُرْفًا في تركيب *العربية* وذلك لسبب تداولي بسيط هو أن الأدب العربي كان يغلب عليه على العموم، السرد، والأخبار anecdotal والأسلوب التاريخي والخطابة.

يضاف إلى ذلك أن هناك بُعْدًا لغويًا أكثر ملاءمة، وهو الذي لا يمكن أن نشير إليه إلا إشارة مستعجلة بمثال، وهو مثال يتعلق مرة أخرى بما يمكن أن يَختار المرءُ تركَه من غير أن يعبِّر عنه.

فقد نشأ أحد مستويات التعقيد في التركيب في الإنجليزية والألمانية من الأدوات الظرفية، الاتجاهية directioan وما يماثلها، التي يغلب أن تكون مماثلة في صيَغها لحروف الجر أو هي متطورة عنها ومتداخلة مع تقلباتها التركيبية، وهو ما ينتج عنه أمثلة محيِّرة من نوع:

What did you bring that book on out from up in there

أو تركيبات الصدى (وليست هذه مفككة أو غير خطية) التي نجدها من نوع:

über die Brück hinüber.

"عبر الجسر إلى الضفة الأخرى"

ولا توجد هذه التركيبات بهذا الشكل في العربية. فما الذي تعمله العربية بدلاً من ذلك؟ أما ما تعمله فهو إما أن تأتي بأدوات مستقلة عن الجملة مثل: "إلى الأمام"، أو أنها لا تقول شيئًا، كما في ألف ليلة وليلة ج٣ ص ٣٩٨. فقد تعرَّضت إحدى الجواري لغضب إحدى الأميرات. فضُربت ضربًا مبرحًا، ومبالغةً في العقوبة حدث التالي:

"وأمرت الجواريَ أن يَجُرُّوها"

ولما قرأتُ هذه الجملة احترت فيما يعنيه الفعل "جَرَّ": أيعني "ادفعوها واحبسوها"؛ لكن الجملة استمرت:

"فجَرُّوها من رِجلَيها إلى آخر القصر"

وكان المقصود: "أخرجوها من هنا، اسحبوها بعيدا".

***

وفي ختام استقصائنا العلمي ربما كان يحسن أن نضيف، كهدية صغيرة، بعض الانطباعات العامة. فهذا [المستشرق] جب H.A.R. Gibb يتكلم عن: "تفكك التركيب السامي التقليدي"، ثم يضيف: "يتسم تقديم الجملة بأنه متقلِّب بشكل فجائي أو "غنائي"؛ والأجزاء المكوِّنة له مستقلة بعضها عن بعض بشكل أساسي، وقلما تترابط بشكل تَبَعيّ كما يَحدث في التركيب الهَرَمي لتركيب اللغات الأوروبية". وإلى هنا فقولُه شبيه بقولِنا. لكنه يكتشف في العربية الأدبية: "خطة للتَّبعية المنطقية، منسجمة بصورة تامة في تطبيقها"، كما يقول إن هناك "بنية دقيقة للزمن في الجمل الرئيسة" (١٩٦٣، ص١). وربما كان هذا الحكم كريمًا بعض الشيء.

وفي الختام دعنا نأتي ببعض التشبيهات الأولية الشبيهة بـ: Thumbnail Sketches "خطاطات الإبهام" [ملحوظات أولية]، في الفصل الثاني [وهي تشبيهات لوصف طبيعة الجمل في اللغات المذكورة]:

النقطةُ period الألمانيةُ عُشٌ من الصناديق [أي الجملة الألمانية].

النقطة الفرنسية، تتابع من الموجات (وإن كانت متقلِّبة بعض الشيء أحيانا ـ وأحيانًا موجات متلاطمة).

والنقطة اللاتينية قطع مبعثرة محيِّرة (وأنا أشير هنا إلى القِطَع المتلائمة التي يمكن ضمها بعضها إلى بعض انطلاقًا من أطرافها ـ وهو ما يشير إلى صرفها التصريفي، والتأثير عن بُعْد ـ وإلى المظهر المعقد للقِطَع المفردة ـ أي الطبقات المتعددة من السوابق والصُّرفات مع تراكماتها الدلالية المختلفة).

النقطة الإنجليزية عبارة عن سيارة لم تجمع أجزاؤها جمعًا كاملا (وهي أجزاء طاغية وإن كانت غير متجانسة، وهي ملائمة لأن تكون لعبة لطفل إن كنت تعرف كيف تسيِّرها، لكن كن حذرًا أن تُمْسِك بإصبعك).

والنقطة العربية لعبةُ قِطار: فهو خَطِّيٌّ على السكة، ومرتب في أجزاء فرعية متشابهة ترتيبًا دقيقا، وهناك شيء من التشابه المطمْئِن حين تسير القاطرات (ولكي تستوي الاستعارة، فربما تكون فارغة، أو ربما تحمل جواهر ثمينة).

ملحقات

انتهينا الآن من تبيين النقاط الرئيسة. وفيما يلي بعض الملحوظات الزائدة للمهتمين.

١ ـ <u>التقديم (التبئير) Topicalization</u> :

تحب العربيةُ التقديمَ ـ وهي بهذا تشبه الفرنسية اليومية ـ ويمكنها بهذه الطريقة أن تجمع ثلاث مركبات اسمية في المقدمة، وهي التي تصاغ فيما بعد على صورة قضية مترابطة:

أـ ' زيدٌ١ [أبو[ـه١]] ٢ [بيتُه٢]٣ [في القاهرة] ' ← ٣

وتتسم هذه البنية بأنها خطِّية حتى هذه النقطة ذلك أنه لا يمكن للمركبات الاسمية في (١) أن تتبادل المواضعَ، ولا تتداخل مجالات مراجع الضمائر إلا بصورة ضعيفة حين المرور من اليمين إلى اليسار، غير أنه لا يزال هناك قدر من إعادة الترتيب الذي يمكن أن يقام به عند التأويل.

(وللاطلاع على بعض الأمثلة وبعض النقاش انظر بيستون ١٩٧٤).

أما الإنجليزية فلا تقبل بمثل البنى الموجودة في (١)، وإن كان يمكن لها أن تقبل تتابع ثلاث مركبات اسمية بوسائل أخرى، كما في الجملة المخيفة التالية:

It is to treat as [freely shuffleable counters]$_1$ [factors]$_2$ [the determinate roles of which$_2$ in the combination$_3$ into which$_3$ they can enter]$_4$ are → $_4$ just what constitute their types.

(Gilbert Ryle, "Categories", in A. Flew, ed., *Logic and Language, Second Series* Oxford, 1953, p.71 of 1979 reprint).

أما في العربية فيمكن أن يَنْتج عن التقديم جملةٌ من جمل ممشى الحديقة حين تتوحَّد مع جَذْب الحالة الإعرابية (أهو اجتذاب اختياري - أو ربما عن طريق الإهمال):

ب - 'لقيتُ خالدًا وزيدًا اشتريت له ثوبا'

(ويبدو أن هذا المثال وأمثلة أخرى شبيهة به من اختراع النحويين، وهو موجود في كتاب سيبويه، ص ١٥٧ من النص العربي الذي اختاره دي سامي في Anthologie). [ج١، ص ٨٨ (هارون)؛ و"ضربت زيدا وعمرا كلمته" (ج١، ص١٠٠)، ومواضع أخرى منه]

أما لو كان "زيد" مرفوعًا فلن تكون الجملة (٢) أسوأ من الجملة في (١)؛ أما بالصورة التي هي عليها، فتخالف مخالفة أكيدة الاستقلال الدلالي - النحوي الذي يُعد الصورةَ المألوفة، وبدلاً من ذلك نُجعَل الوسمَ الصرفي يَنتشر عبر الوحدات الدلالية [أي أن ينصب الفعل المفعولين كليهما].

لكنَّ العربية، من وجه آخر، أكثر تحفُّظًا من الألمانية مثلا، فيما يخص ما يمكنها تقديمه. فيمكن فيها أن يُقدَّم اسمٌ ما، سواء أكان اسمًا أم صفة nomen (substantivum or adjectivum)، أو مركَّبًا جرّيًا، لكن ليس فيها ما يمكن مقارنته بالجملة الألمانية التالية:

Denn erstrebt hat Cellini seinen literarischen Succès d'ingénuité auf keine Weise
(Karl Vossler).

'لم يكن سيليني يطمح إلى إنجاز عمله الأدبي في جميع الأحوال"

(ومع ذلك قارن تقديم اسم الفاعل "الحال" في:

'وظالمًا قُتِل عثمانُ أو مظلوما'
((SV 118)

٢ ـ الحذف واستعمال المركبات الاسمية ظروفا:

يُخالِف الحذفُ في الظاهر وجهةَ النظر التي تقول إن دلالة جملة ما هي مجموع دلالات أجزائها، ذلك أن بعض الأجزاء في هذه الحال غير موجودة. لكن لمّا كان العنصر المحذوف مما يُمكِن اكتشافه بصورة آلية فإن التركيب لا يزال تزايديًا additive بصورة جوهرية من وجهة نظر المحلّل الدلالي. انظر إلى الجمل الإنجليزية التالية:

Mary likes beans and, as nearly as I or anyone else around here in Dullsville can remember (although it's been a long time since [. . . .], and that's a fact), John does too.

وهي جملة يمكن أن تُحلَّل من غير حاجة إلى مساعدةٍ خاصة من السياق: فكلمة does تُنبئ بالمحذوف دلاليًا (وهي هنا من دون فجوة تركيبية)، أما المركب الفعلي الذي تُؤوِّل بموجبه في هذه الحال فغير غامض مع أنه بعيد جدا عنها. وبما أن الأسماء في الإنجليزية لا تظهر عليها علامات الإعراب فسيكون هذا المثال أصعب تأويلاً لو كان هناك فجوة بدلاً من does، لكن يمكن في الجمل الأبسط أن نستغني عما يقوم مقام المركب الفعلي pro-VP:

The President got up and danced, and the Vice President ø too.

وهذه الأمثلة مُحيلَة أيضا anaphoric: ذلك أن لدينا القطعة التي يجب أن ندخلها حين نأتي إلى الموضع الذي يمكن أن تظهر فيه. ومثل ذلك بيت الشِّعر التالي:

Silver we had_1, and ø emeralds, too

أما:

Disguises did_1 and shadows $flow_1$

فهي الماعية بالمقابل، وكذلك:

But colours it $ø_1$, and corners had_1

(والبيتان كلاهما للشاعر الإنجليزي: دون Donne).

ويُثير الحذفُ مشكلةً خاصة للتحليل، ذلك أنه بسبب إمكان تحوُّله إلى شيء عُرْفي في بعض البنى المحددة، نميل إلى أن نرى فيه بنية جديدة قائمة بنفسها، او بدلاً من ذلك بنيةً قديمة تشبهها ويمكن أن تكون أكثر تعقيدًا مما كنا نظن. (ونحصل، في أقصى طرف من الإنتاجية، على تعبير مَثَليّ يستعصي على التحليل التركيبي الآتي، نحو:

trip the light fantastic

التي كانت في الأصل تعبيرًا مُحوَّرًا لكلمة: toe [14]).

لهذا يتحدث رايت بصورة دقيقة عن "الحذف العنيف" (في الشعر أو الأمثال) كما في الحالة التالية:

أ ـ "لا أكلّمه القارضين"

ومعناها بـ "لن أكلمه مدة غيبة القارضين".

ويمكن هنا أن ينظر إلى التعبير "القارضين" الذي لا يدل على ظرف الزمان على أنه يقوم مقام التعبير الظرفي المفهوم منه، أي: "مدة". لكن هذا التعبير غير الظرفي لم يكن في الأصل نتيجة للحذف بقدر ما كان تلويحًا زائدًا على التركيب. والقارضان هما النظير العربي لـ Charlie في فيلم (the Man who Never Returned)، ويظهر في بعض أساليب الأمثال المختصرة، التي تمتلك اللغة منها كمًا كبيرًا، نحو (Lane s.v. في مادة [ق ر ض]):

"لا آتيك أو يؤب القارض".

وهو يماثل في الإنجليزية:

when fowls have no feathers, and fish have no fins

ومما يلفت النظر فيما يلي أننا نحصل على التأويل المعاكس تمامًا للمركب الاسمي المنصوب الذي يستعمل في بنية زمنية:

ب ـ "لا آتيه الفرقدين"

التي يترجمها رايت ويرى أن المفهوم منها هو: "مدة بقاء الفرقدين"، أي طوال زمن بقائهما أو وجودهما بدلاً من مدة غيابهما (إذ إنهما نجمان لا يَغرُبان).

قارن هذا بالجمل التالية من المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي:

I haven't seen him these past five days.

"لم أره طوال الأيام الخمسة الماضية"

He slept two hours.

"نام ساعتين"

I've been a wanderer my whole life.

"ظللتُ طوال حياتي هائما على وجهي"

Er schlief den ganzen Tag.

"نام طوال اليوم"

ونحن هنا لا نتكلم تقليديًا عن الحذف، بل عن "ظرف الزمان المنصوب" accusative of time ، بوصفه مقولة تركيبية، وإن كان يمكن أن نفضّل شيئًا أكثر تحديدًا نحو أن يكون ما حذف هو: "خلال" during (بدلاً من: "منذ"، since أو until "حتى"). فهل نريد القول بأن (١) و(٢) تتميزان بالحذف، المؤكَّد فعلا، أو أن الأمر على العكس من ذلك، أي إن ما لدينا هو ببساطة "ظرف الزمان المنصوب"، لكن المهم هو أن العربية قليلة التحفظ فيما يخص نوع الأسماء التي يمكن أن تظهر فيه؟ والواقع أن الإنجليزية أيضًا تسمح بالكلمات التي لا تعبّر عن الزمن في التراكيب غير المربوطة برابط، إلى حد ما. قارن التناقص الغامض في مدى القبول في التراكيب التالية:

He slept the entire day

"نام كل اليوم"

?the entire movie

"كلَّ الفيلم"

?? The entire Eisenhower administration

"كل فترة رئاسة إيزنهاور"

?? The entire charge of the Light Brigade.

"طوال هجوم "الفرقة الخفيفة""

(حيث تعبر day عن ظرف الزمان، أما التراكيب الأخرى فلا)

وكذلك تعبير جوتفريد بنّ Gottfried Benn الهجومي:

Ledaiten sind einen Kniefall da.

"الليديون في متناول أيدينا"

ويزداد إمكان التأويل الذي يخلو من الحذف لكن يمكن بمقتضاء للبنية نفسها ببساطة أن تكون قابلة لعدد كبير من الأسماء مع ما يتبع ذلك من عبء على تداولية التأويل حين ننظر في تركيب مماثل للتعبير عن الوقت، وهو الذي يعني: "الزمن الذي حدث فيه أو عنده حدثٌ ما" (رايت ج٢ ص ١٥١)، وذلك باستعمال حرف الجر (لِـ):

"لِسنةٍ مضت من مُلْكِه"

ويمكن لحرف الجر "لِـ" أن يعني أيَّ عدد من الأشياء: والمعنى هنا واضح لأن "سنة" تُعيِّن الوقت من غير غموض؛ أما في:

"صُمْنا لِلغُمّاء"

فليس من الواضح إن كان التأويل ظرفيًا بدلاً من كونه (كما يمكن أن يكون هنا أيضًا، مع "لِـ") نفعيًا أو سببيًا أو غائيًا. (وهذه العبارة، كالعبارات الأخرى، تدخل في معمعة التنوع والإلماع؛ وقد أورد إدوارد لين تنوعات أخرى لهذا التعبير، بغض النظر عن قِصَر الحركات في واحدة منها، نحو:

"صُمنا للغُمَّاء"

"صُمْنا للغُمِّيَّة"

"صُمْنا للغُمَّة"

وليس غريبًا أن تتسم الأمثال بالاختصار التركيبي). بل يبدو أن مؤلف كتاب الأيام أو محرِّرَه، وهو كتاب روائي يتسم باستقامة أسلوبه، قد توقَّع معضلةً محتملة في تأويل الجملة التالية (ج١، ٦٣):

"إذا كان العصرَ، اقبل عليه أصحابُه. . . مُنْصَرَفَهم من الكتاب"

لذلك أضاف تعليقًا في الهامش هو: "منصرفهم: وَقْتُ انصرافهم"؛ كما أورد هانز فير "منصرَفهم" في معجمه موحيًا أنها قول مَثَليّ.

ويتحقق الوضعُ نفسه في بعض التعبيرات الخاصة، لذلك ينبغي بشكل واضح تأويل التعبير:

"مَشَيتُ فرسخين"

على أنه يتضمن "ظرفًا منصوبًا للمسافة" accusative of distance ، ذلك أن الاسم المنصوب على وزنٍ مكانيّ؛ ومن المحتمل مرة أخرى أن يكون هناك شيء من الغموض. لكننا نجد أيضًا مَزيدًا من الأسماء تظهر في موضع المنصوب، نحو:

"هو مِنّي مَناطَ الثريا"

"هو مِنّي مَزْجَرَ الكَلْب"

"هو مني مَعْقِدَ الإزار" . . .

والوصف الأقرب لطبيعة هذه الأمثلة، كما أحسب، لا يتمثل في كون التركيب معقَّدًا بصورة استثنائية أو أنه يغلب عليه الحذف، بأي معنى تحويلي مُؤكَّد، لكنه يكمن في أن تداوليات التأويل معقَّدة، بل إن هذا هو السبب الذي يجعل التركيب غير محبوب. (ومن أسباب ذلك، أننا رأينا كيف تدخل هذه الأمثلة في مجال الأمثال، وهي التي تخرج، في بعض الأحيان، على التركيب).

لذا يمكن مقارنة هذا الوضع بالتجميع الاسمي في الإنجليزية. والوصفة تبدو بسيطة:

اسم ⟵ اسم + اسم

حيث تنطبق هذه القاعدة على خَرْجِها. وبهذا يمكننا، أو لا يمكننا أن نؤوِّل تجمعيًا مثل:

hamburger bun sesame seed applicator repair manual compilation committee staff Christmas party scandal investigation committee bribery incident cover-up affair

تبعًا لقدرتنا على أن نحكي لأنفسنا قصة ملائمة تصور ما يعنيه هذا التعبير الطويل في أثناء تحليلنا له ـ وهو ما يُشبه محاولة تأويل رسم هزلي دون أن يكون مصحوبًا بكتابة القصة التي يحكيها. فنحن نؤوِّل العلاقات الأساسية الخفية في تعبيرات مثل:

sheep dip, clam dip, job dip

(والتعبير الأخير من عنوان في جريدة نيويورك تايمز) منطلقين من معرفتنا بتزاوج الحيوانات، والطهي والاقتصاد. وربما كان فَهْم الجملة في العربية صعبا، لكن سبب هذه الصعوبة لا يكمن في وَضْع التركيب بعضَ الحواجز في طريق هذا الفَهْم (كما هي الحال في اللغات الغنية بقواعد النَّقْل)؛ بل لأن العربية لا تبني جسورا [تساعد على الفهم].

٣ـ الصلاحية validity:

وليس من البيِّن، في نهاية الأمر، كيف نقارن، كَمِّيًّا أو حتى بثقة، التعقيدَ التركيبي في لغتين، وذلك لأسباب منها:

أ ـ المشكلة المألوفة في استخدام معيار الإحصاء في مقابل التقييم. انظر مثلاً السؤالَ المشهور عن إن كانت الفرنسية أو الألمانية أغنى من حيث الحَفْز المعجمي الثانوي. فإذا افترضنا أن مقارنة زوج من الكلمات في لغة ما بزوج من لغة أخرى يمكن أن يؤدي إلى قرار عن أيِّهما أكثر اتِّصافًا بأن لوجودها سببا، نحو: الكلمة الألمانية: Eidam "الشكل المثالي"، في مقابل الكلمة الفرنسية: beau-fils "صِهْر (زوج البنت)"، والكلمة الألمانية: Höhepunkt "نقطة القمة"، في مقابل الكلمة الفرنسية: apogée "قمة الشيء/ أَوْج" ـ فإنه يجب على المقارِن، إذن، أن يَزِن فاعلية هذه الكلمةِ في اللغة، ثم يَجمَع في النهاية مرات ورودها بهذه الفاعلية؛ أما إذا لم يكن ذلك ممكنًا فعليه أن يبحث، بدلاً من ذلك، عن طريقة أخرى ليتجنب هذه الممارسة غير المجدية.

ب ـ بل إن مشكلة المقارنة بين العناصر متساوية. فنجد فيما يخص الحَفْز أن من الدقة بمكان أن نسأل عمّا إن كانت الكلمة الألمانية Zimmerman أكثر وجاهة من الكلمة الإنجليزية charpentier "نجار"، والكلمة الألمانية Fernsprecher ، من الكلمة الفرنسية téléphone "هاتف". أما من حيث التعقيد التركيبي فهناك أنواع مختلفة من المقارنة من حيث الكيفية، وهي لا تتفاعل بصورة تتابعية. انظر، مثلاً، نوعَ الاعتماد المتقاطع الموسَّع في مثل الجمل التالية:

١ـ:

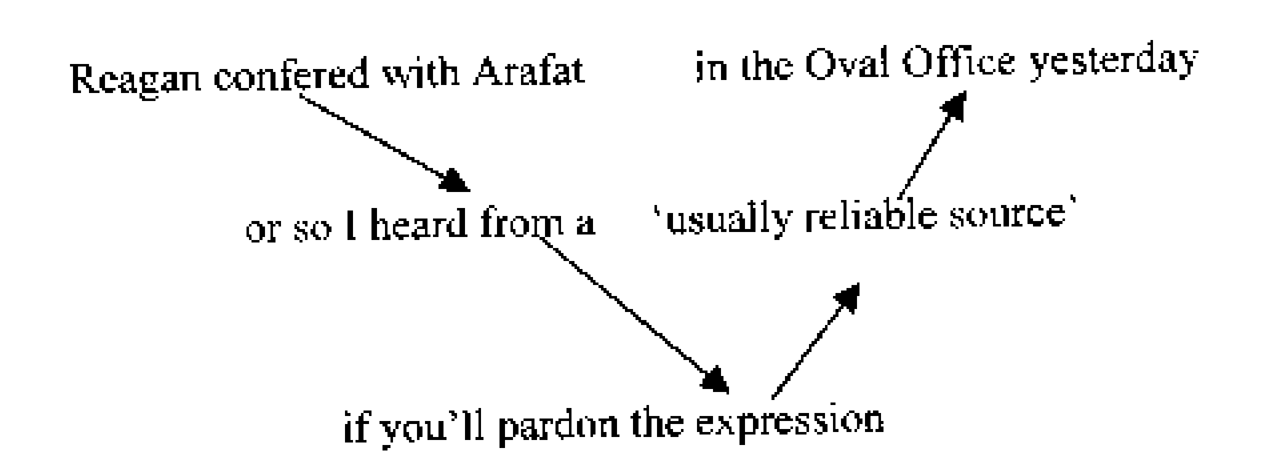
What$_1$ did you bring$_2$ that book$_3$ I$_4$ didn't want to be read to$_4$ out of$_3$ up$_2$ for$_1$?

٢ـ: What$_1$ did you buck$_2$ the man$_3$ I can't put up with$_3$ up$_2$ with$_1$?

٣ ـ: What$_1$ funds did you pay$_2$ the man$_3$ we couldn't put one over on$_3$ off$_2$ out of$_1$?

مع ما تتسم به من فجوات تركيبية وتراكُم من الأدوات، وهو الحطام الذي تُخلِّفه قواعدُ الحذف والنقل وراءها، حيث تبدو نوعيًا أكثرَ تعقيدًا من جملة يَعتَمد فيها أ، على ب، عبْر كلمات تفصل بينهما (بصورة إدماجية دقيقة)، لكن يمكن أن تجعل الكلمات التي تدخل بينهما على مستوى تأويلي مختلف على شكل جمل اعتراضية، وهي نوع من النموذج التام الذي لا يتفاعل كثيرًا مع بقية الجملة:

٤ـ:



(وتشبه (٤) بدلاً من (١)، بهذا الخصوص، الجملةَ الألمانية التي تتسم بالدمج المتكرر التي أوردناها من قبل في هذا الفصل، إلا فيما يخص المستوى الأعلى، حيث تشبه . sie kamen. an . حالة من حالات تأخير الأداة).

وقد استفتيتُ مرةً بشكل غير رسمي طلابي الذين كنت أعطيهم درسًا أوليًا في التركيب عن فهمهم للجملة (١). فأما الطلاب الذين كانت الإنجليزية لغتَهم الأولى، وهم الذين مارسوا تراكم الأدوات منذ أن كانوا صغارا، فلم يجدوا مشكلة فيها، أما الطلاب

الأجانب، الذين كانوا لا يعانون من مشكلة في قراءة الكتب المدرسية، فلم تزد هذه الجملة عن كونها خليطًا من حيث التركيب وحسب. بل إن بعضًا منهم لم يَعرف ما المقصود منها.

وهنا نلحظ أنه ليس في العربية إلا قدر قليل من الاعتماد التقابلي المتعاكس الذي ينتج عن أسلوب الحذف، إن كان فيها شيء منه البتة، لكنها تسمح ببعض التعبيرات المعترضة ـ التي تتكون في الغالب من الأيمان المُقحمة مثل "والله" ـ أن تُدخل عند عدد غير محدود من المفاصل. لهذا فالحكم الدقيق بشكل عام الذي يقضي بأن العربية تتكون من مجموعات من الجمل القصيرة التي لا يمكن فيها انتهاك تتابع الكلمات المتوالي يجب أن تُرفق به ملحوظةٌ عن جواز إدخال عبارة "والله" وما يماثلها في البنية، وهي التي قلّما يلحظها المؤوِّل. وبصورة مماثلة فتتابع الصوتيات في الكلمة لا يُنتهك في الإنجليزية، غالبًا، لكن أحد الأساليب يَسمح بإقحام بعض الجزيئات الصوتية، عند مقطع معين أو عند الحدود بين الصرفيات، مثل إقحام الكلمة القبيحة fucking للتعبير عن شعور قوي، أو bloody في الإنجليزية البريطانية (out-fucking-standing، abso-bloody-lutely). أما درجة التعقيد الزائدة التي تنتج عن هذه الإجراءات فلا يحتمل أن تكون مطردة تطوريًا أو نحويًا: ذلك أن الأساليب اللغوية السِّرِّية كاللهجة الشائعة بين الأمريكيين من أصل إفريقي وتسمى اللاتينية العظمى Pig Latin أو لغة الـ Ong ـ ويمكن أن يمثّل لها بالقول:

Yongo conganong tongalongkong ononggong

ـ تُعتمد على أنه ينتج عن مثل هذه التكوينات المحلية المختلّة سلسلةٌ من الكلمات التي لا يمكن تحليلها في أول الأمر، لكنها تُكتسب في فترة مبكرة من الاكتساب اللغوي.

وربما كان الاعتماد التداخلي (ABAB) أكثر تعقيدًا في الاستقبال من الاعتماد التقابلي المتعاكس (ABBA):

٥ـ Dull$_1$ would he$_2$ be of soul$_1$ who$_2$ could pass by sight so touching
(Wordsworth, "*Sonnet composed upon Westminster Bridge*")

٦ ـ Yes but whóm$_1$ do théy$_2$ serve ø$_1$ who$_2$ only stand and wait? (Anon)

ج - وما يبدو معقّد جدًا بنيويًا حين نرسمه على الصفحة ربما لا يُمثّل مشكلةً مماثلة للمؤوّل. إذ يستطيع المؤوّلُ أحيانًا أن يتجاوز التعقيد المنطقي، أو أنْ "يحذفه" على وجه الدقة، متظاهرًا بتجاهله في مساره عبر الجملة لكنه يواجهه في نهاية تحليله لها. لهذا يمكن القول بدقة إن الجملة المعقدة التي تمثّلها جملةُ the House-that Jack-built ربما يصعب تحليلها، ذلك أنها تتركُك، منطقيًا، ضحيةً للانتظار المتحيّر من حيث إحالات الأسماء فيها. فنحن لا نعرف تحديدًا ما الكلب المشار إليه حتى نعرف ما القطة التي يَطرُدها، كما أننا لا نعرف ذلك حتى نعرف ما الفأر الذي أمسكتْ به القطة، ونحنَ لا نصل إلى هذه المعرفة إلا حين نعرف أنه الفأر آكلُ الدقيق، لا الفأر آكل الجبن، مثلاً، وهكذا. لكن وكما تبين القِطَع النَّغميَّة التالية:

This is the cow with the crumpled horn/that tossed the dog/that worried the cat/that. . .

لا نفهم هذه الجملة بحسب ما يبدو، استدلاليًا، أنه بنيتها المنطقية - أي أنها جملةُ صلةٍ ضخمة معقدة. لكننا، بدلاً من ذلك، نتبع استراتيجية: "Where is Thumbkin" "أين أخو الإبهام؟" (التي تعني الإشارة إلى كل إصبع منفردًا في الإجابة عن كل سؤال منفرد، بدلاً من الشعور باليد كلها وحدة واحدة). فالذي يبدو هو أننا نحكي لأنفسنا حكاية تشبه أسلوب الرسم الهزلي، أي أن نأخذه على هيئة إطار مفرَد في كل مرة:

This is the cow with the crumpled horn. What did she do? She tossed a dog. Which dog is that? *Ecce* the dog; he chased a cat. Which cat is that? etc.

(وربما نميل إلى افتراض أن هذه استراتيجية تحليلية طبيعية أولية، لكن يجدر بالإشارة أننا نكتسب هذه الدروب المتعرجة عن طريق التعليم المتأني، حيث نصل عن طريقه إلى التوافق الإحالي بصورة إلماعية في الجملة نفسها، لكن بطريقة عود الضمائر إلى الأسماء anaphorically من كلمات في مستوى سابق:

This is [the house that Jack built]$_1$ Got it? This is the malt that lay in [the house]$_1$. . .

حيث العبارة المزيدة:"that Jack built" الآن زائدةً إحاليًا، وهو ما يشبه أن تشير إلى شخص بأنه: 'Secretary of Treasury John Jacob Jingleheimer Scmidt' [التي فيها زيادة

حيث إن وزير الخزانة هو جون جاكوب جينجلهايمر]، بشكل متكرر في مواضع متعددة في مقال، من غير اختصار لاسمه. لهذا نحن نتعلم تأويل الجملة الأخيرة بدءًا من الشمال إلى اليمين قطعةً قطعةً، مارّين عبْرها بما يشبه آلةً تمثّل الدلالة. وتبدو هذه الممارسة بمجملها كأنها درس في الاحتفاظ بالإحالة reference *reservatus* .

والبنية الأخرى المعقّدة شكليًا لكنها من حيث التحليل بنية بسيطة هي تلك التي تتتابع فيها المتضايفات، حيث يُقطّع الصرفُ فيها الوحدات الإحالية وحيث يجب على المؤوّل أن يُعدّل مرات عديدة من تأويله الخاص عن من هو المالك الرئيس (أي الاسم الرأس):

[[[John's father]'s best friend]'s boss]'s pet peeve.

والمثال المكافئ لهذا المثال في العربية هو المثال التالي المتفرّع إلى اليمين right-branching [إلى الشمال]:

"بتسميةِ باقي كتّابِ خلفاء بني العباسِ"

(ريكندورف عن الإضافة 'Genitivketten', AS 137).

ومن الأمثلة العربية البسيطة المتفرعة إلى الشمال الجملُ التي تدمج فيها جملة الصلة، وهي التي تشبه جملة: Jack' House

"ليس في الأسماء المعرَبةِ اسمٌ آخرُه واوٌ قبلها ضمةٌ إلا. . . "

(الشربيني، في كتابه الذي حققه كارتر، ص ٥٨).

There is no inflected (or rather "inflectible") noun that ends in a *w* that has a *u* before it] except. . .

وتمثّل الجملةُ العربيةُ مشكلةً محتملة أكثر صعوبة في التأويل مما توحي به ترجمتها الإنجليزية، ذلك أن جمل الصلة فيها تتسم بخلوها من الاسم الموصول وتظهر كأنها جمل مستقلة، لذلك ليس هناك ما يمنع المؤوّل، شكليًا، من أن يُنهي الجملة بعد كلمة (واو) ليحصل على حكم له معنى لكنه غير صحيح: "ليس في الأسماء المعربة اسم آخره واو". فتتسم الجملة العربية ببنية تشبه لعبة التوقّع: "أنا أفكر في اسم. ينتهي هذا الاسم بواو قبلها ضمة. ـ ليس هناك اسم معرب مثل هذا".

هـ ـ كنت مُعتمِدًا، عند الكلام عن الأنواع المختلفة للتعقيد في (ب)، على العلاقات الظاهرية التي يَسهُل اكتشافُها نسبيًا. لكن ربما يعتمد تحديد هذا المعيار بصرامة أكبر على النظرية التركيبية التي ينطلق منها المحلِّل ـ أي ما إن كانت وحدة لغوية ما منقولة إلى مكانها ذاك أم أنها وُلِّدت في الواقع بمعزل عن الوحدات التي تعتمد عليها، وما الثمن المستحق في عبور المُسوِّرات quantifiers وما إن كانت هذه المسوِّرات قد عُبِرَت فعلا، الخ. وليس هناك وصف شكلي متفق عليه للإنجليزية، وسوف يكون أمرًا أسوأ من المجازفة أن نحاول وصف العربية منطلقين من أية واحدة من هذه النظريات الرائدة، في مثل عملنا هذا الذي ينحو نحو الشمول والتعميم. فما أسرع ما تذوي النظريات التي تبدو معقدة ومحكمة سريعًا ويُتخلى عنها (وهو ما يصلح أن يكون موضوعًا للبكاء عليه كالبكاء على الأطلال).

ولا توجد طريقة يَعرف بها الإنسان أثناء مسيره إن كان يسير في الاتجاه الصحيح أم لا. فقد عبَّر [اللساني الأمريكي] جيمس ماكولي، في مراجعة له نُشرت مؤخرا[١٥]، عن دهشته من قدرة بعض اللسانيين الأذكياء على الاستمرار في التمسك بالنظرية الاشتقاقية للتعقيد. ومن المؤكد أن نظامنا المعرفي ليس مبنيًا بناءً غنيًا أو مفصَّلاً تفصيلاً صارمًا لكي يتمكن بصورة مسبقة من اعتراض مثل هذه النظرية التي تبدو متوافقة مع البديهة. ومثال ذلك أنه لو أدت نظرية نيوتن عن الجَرَيان fluxion إلى طريق غير عملي مسدود، فربما أصبحنا نشير بطريقة استعادية إلى [عالِم الكيمياء] بيشوب بيركلي كأننا نعرف من قبل أن عمل نيوتن لن يكون مثمرا.

ومع ذلك فأسئلة عامة مثل: "ما شكل الجملة العربية؟"، و"كيف تبدو الكلمة الألمانية؟" أسئلةٌ تصطبغ بأهمية حدسية مباشرة وتستحق أن يبحث عن إجابة لها وإن بطريقة انطباعية أو ظاهراتية phenomenologically (يقوم بها بعض الباحثين المطلعين). وهذا الأمر صحيح إلى درجة كبيرة لأن فهمنا النهائي يجب أن يكون مصوغًا على شكل ظنيٍّ نسبيًا، إن كان لا بد له أن يكون مُرضيًا إدراكيًا أو أن يكون من الممكن تحليله أصلا. والمثيل الجيد لهذه الحالة هو تاريخ "حدس الألوان الأربعة" Four-Color Conjecture (وهو ما يعني أن ألوانًا أربعة تكفي في رسم أي سطح مستو plane map). والسبب الرئيس الذي جعل كثيرًا من الناس يهتمون به لزمن طويل بالرغم من تكرار الفشل في محاولات البرهنة

عليه أن صياغته وتصوره بسيطان جدا[16]. وقد حاول عدد قليل من الباحثين في جامعة إربانا [الأمريكية] في سنة ١٩٧٦ صياغة برهان طويل مُحْكَم نسبيًا باستخدام الحاسوب لهذا الحدس. وعلى الرغم من هذا، حتى بالنسبة لبرنامج حاسوبي، فقد تطلب جهودًا جبارة، إلا أن النتيجة لم تكن سهلة إجمالا. لذلك قال أندرو جليسون، الأستاذ في جامعة هارفارد، وهو أحد المتحمسين المزمنين لهذا الحدس: "لقد شعرت بقدر كبير من السأم بين علماء الرياضيات في رد فعلهم تجاه هذا البرهان"[17]. ذلك أن علماء الرياضيات في جامعة إربانا ربما كانوا يقولون: "إننا لم نستطع فهم الحل الرياضي لهذا الحدس إلى الآن، لكن حاسوبنا يقول: [إن هذا الحل] "صحيح"". ولسوء الحظ فالطريقة الوحيدة للتأكد من قول الحاسوب أن تسأل حاسوبًا آخر، مع أن الحالة المثالية أن يكون البرهان واضحًا جدًا.

ومع ذلك كله يجب أن نقبل بصلاح الاعتراضات على البحوث غير المنضبطة: ففي غياب الإجراءات الصارمة التي يمكن التأكد منها عند كل خطوة، لن يكون هناك ضمان ضد أن يكون الفهم الذي ننتهي إليه والمقبولُ بصورة حدسية مجردَ حالة من سوء الفهم.

ومن المحتمل أنه يجب أن تأتي الإجابة التي يُطمأن إليها، إن كانت ستأتي، من أحد المناهج الشكلية الصارمة التي تُتبع بكثافة الآن في التطورات السريعة. لكن إن دلت الإشارات الجارية على شيء فربما تكون النتيجة من طبيعة معقدة صعبة. ذلك أنه إذا ما انتهى المحلل من تتبع "الآثار" كلها، أو من زيارة العوالم الممكنة كلها ليصرف أعشاش القصْد، أو ليعيد تكثيف تيارات ما دون الوعي الفردية ثم يلويها كلها عبر المصفاة الكبرى [وهذه مصطلحات نظرية يتداولها المحللون اللسانيون]، فإن تعبيرًا بسيطًا مثل: please pass the salt سيبدو من الصعب فهمه.

وأنا لا أعرف المخرج من هذه المعضلة، كما أظن أن معظم ما يعتقد بصحته حتى الأذكياء والمتعلمون إنما يعتقدونه اعتمادًا على أوهى الأدلة أو من غير أدلة، سواء أكان ذلك أسسَ الأخلاق أم الآثار العامة للتمارين الرياضية أم الادعاء بدوران الأرض حول الشمس. فنظرتنا إلى الكون لا يمسكها إلا أوهى الروابط.

التعليقات

(٠)ـ ويسمي ميلر الضميرَ الـ "الزائد" المتأخِّر الذي يسمى في العربية بـ "الضمير العائد" بـ:
J. Miller,1985, Semantic and Syntax, "الضمير الظّل"، "shadow pronoun
Cambridge L C.U.P.

(١)ـ قارن بالأصل المستقيم في العربية:

"وكنتَ امرأً، إما ائتمنتك خاليًا فَخِفتَ وإما قلتَ قولاً بلا علم"
(SV 483)

(٢)ـ وإذا ما بدا التجميع قبل الاسمي غير صحيح نحويًا فذلك لا يعود إلا لأسباب أدائية، وهو ما يشبه صعوبة تسلق جدار وهي التي تنجم عن أن المتسلق لم يحرص على لياقته. وليس في الإنجليزية من حيث المبدأ أي حد لتوسيع الثُّويّات التي تسبق الاسم كما نجد ذلك في أمثلة مثل:

the always-wind-obeying deep (Shakespeare)

the rolling level underneath him stead air (G. M. Hopkins)

today's quite-unreliable-enough world economy
(*Economist* newsweekly, 5 VII 1980)

from the industry-paid-for but congressionally created Superfund cleanup account (*MacLean's*, 4 IV 1983)

a should-be- soluble-but-is- insoluble problem (M. Masterman, in Lakatos and Mugrave,[3]1974:82).

والأسباب الأدائية حقيقية بالطبع، ويمكن أن تستعمل لأغراض التنكيت، كما عند :Kingsley Amis

the dossier of any other deranged bleeding completely wrapped up in herself female (*Stanley and the Women*, 1984, p.242 of the American edition)
you women's-cultural-lunch-club-organizing Saturday Review of Literature- reading substantial-inheritance-from-soft-drink-corporation-

awaiting old-New-Hampshire-family-invoking Kennedy-loving just-wunnerful-labelling Yank bag (*One Fat Englishman*, P.234 of Penguin reprint).

و"القيود" على مثل هذه التركيبات خليط غامض من الأسلوب والبنية. بل يمكن لعبارة قصيرة أن تبدو غريبة إذا جاءت قبل الاسم:

a highly juicy scheme to benefit an in-the-soup friend in his hour of travail (P.G. Wodehous, *Right Ho, Jeeves*, 1934)

وتبدو هذه أكثر طرافة مما لو كانت:

a friend who is in the soup

للاطلاع على مزيد من الأمثلة المألوفة لكنها مصنّفة من حيث النوع، انظر جسبرسن Jespersen *MEG II*, p.335 ff. ؛ عن "مجموعة المعلقات القَبْلية" group pre-adjuncts.

(٣)ـ ومع ذلك تُعَدُّ الفرنسية أكثر احتمالاً من العربية بعض الشيء للاشتمال (خُلْيَ بدلاً من لألئ) والولاء الثنائي، والبلاغة الصاعدة، عموما.

وقد درس عدد من الباحثين الفرنسية بحسب الخطة التي اتبعتُها في دراسة العربية في هذا الفصل. ومن ذلك ما يقوله فيندريس في الفصل الذي عنوانه: le langage affectif في كتابه (Le Langage الذي كتبه في ١٩١٤، ونشره ١٩٣٢، وأعيد نشره في باريس١٩٥٠، ص ١٧٣):

"لو أقول: "ذلك الرجل الذي تراه هناك جالسا على الشاطئ هو الذي التقيتُه أمس في المحطة"، فأنا أستخدم أساليب اللغة المكتوبة فلا أستعمل سوى جملة واحدة. لكن لو كنت أتكلم، لكنت قلت: "ألا ترى ذلك الرجل هناك، لقد التقيت به أمس، كان في المحطة". فمن الصعب أن نجزم كم صار لدينا من جملة هنا. . . لكنها تبقى، بوجه من الوجوه، جملة واحدة".

Si je dis: "L'homme que vous voyez là -bas assis sur la grève est celui que j'ai rencontré hier à la grace", je me sers des procédés de la langue écrite et je ne fais qu'une seule phrase. Mais en parlant, j'aurais dit: "vous voyez bien cet homme,-là bas,- il est assis sur la grève, - eh bien! Je l'ai rencontré hier, il était à la gare" Combien y a-t-il de phrases ici. C'est très difficile à dire. . . . Mais à certain égard, il n'y a qu'une seule phrase."

وقد تناول C. Hammer في كتابه The French Language Today (London (Hutchinson): 1954) الأنواع غير الخطبة في مثل:

il se vient justifier

(التي يمكن تمثيل بنيتها بالشكل التالي:

(< il_1 vient (pour ceci): il_1 justifie $se_{1>}$)

tout ceci me purrait induire en. . . .

حيث نجد أن مفعولاً دلاليًا قد رُفِع وقُدِّم إلى مقدمة جملة غير متصرفة. وقد سمى دوزات A. Dauzat هذه التركيبات: "archaisme prétentieux"

(Hamer 238) ، لكنها طبيعية في الفرنسية المتكلَّمة والمكتوبة ولا تزال شائعة في اللغة المكتوبة كما يقول هامر.

وختامًا، للاطلاع على مناقشة مفصلة لخصائص الفرنسية، انظر الفصل الذي عنوانه: "Behrrschtheit und Impulsivität in der Wortstellung" "التحكُّم والاندفاع في مواقع الكلمات"، في كتاب ليرش Eugen Lerch السهل جدا: Französische Sprache und Wesenart (Frankfurt:1939)

"اللغة الفرنسية والطَّبع"

(٤)ـ وما تعنيه مثل هذه المصطلحات الذاتية، نحويًا، على وجه الدقة لا يمكن أن ينكر بصورة فورية، أما هذه الصفة فيحسن الاحتفاظ بها علامة للخصائص التي جيء بها لكي تثبتها. ويبدو أنه كان في ذهن وارتبروغ أمر مختلف، في سياق اللغات الغالية ـ الرومانثية Gallo-Romance ، عما كنت أظن أني جرّدته من العربية؛ ذلك أنه استمر في القول إن الفرنسية القديمة كانت مرة أخرى مهلهلة، ثم:

"عاد في الفرنسية المتوسطة من جديد بناءُ الجمل المضاعفة التركيب الذي تحوّل أخيرا إلى الجملة المتماسكة في اللغة الفرنسية الحديثة".

im Mittel-französischen wird von neuem ein Periodenbau ausgeblidet, der schliesslich zum *gestrafften* Satz des Neufranzösischen führt

(والتأكيد من جستس). وفي ضوء الفصل الحاضر يمكن وصف الفرنسية الأدبية المعاصرة، مثل *العربية*، بأنها "معاقِب" 'gestrafft' فقط في أن تعدد التنوعات التركيبية قد نُقِص منه وأن التتابع أصبح مما يمكن توقُّعه، لكنه يمكن وصف الأسلوب المألوف الذي نشأ بالتنقيح "Abperlen" بدلاً من وصفه بـ"التغليف" "Einkapselung".

(٥)- وقد استعرت المصطلح ومعظم الفكرة من بالي (انظر خصوصا Bally,1944: 201ff)، لكنني لا أتفق معه في تحليله التركيب: (فاعل - فعل) بأنه يتصف بطبيعته بالاستمرار في مقابل التركيب: (فعل - فاعل). ذلك أن الفعل يماثل الفاعل في الاتصاف بأنه أساس بنيوي.

وقد عاود المصطلح séquence progressive الظهور في الدراسات التي تعالج "النحو الكلي، تحت أوصاف مثل operator 'عامل'، و operand "معمول" (في دراسات فينامن Venneman).

وللاطلاع على اقتراح مصطلحيّ مما له علاقة بإحدى مظاهر حزمة التوجهات التي تعنيها انظر(Fred Householder in the Third Lacus Forum, 1976 Hornbeam Press): حيث يرى أنه يمكن وصف الجمل بأنها improvisable "مما يمكن ارتجاله" إن كانت نهاياتها لا تعتمد اعتمادًا كبيرًا على بداياتها، وهو ما يعني أنه يمكن أن يقرِّر المتكلمُ ما يريد قوله في أثناء استمراره في إنتاجها ومع ذلك يمكن أن يكون نحوه صحيحًا.

وتوصف الاستراتيجية التقابلية المفروضة على السامع بـ "الكهانة النحوية"، وقد أطلق عليها هذا الوصف أحد الدارسين، الذي نسيت اسمه، ثم يستمر في القول: "إن أي طالب من طلاب الجامعة يحاول أن يحلل النقطة الشيشرونية إنما يقوم في الواقع باستعمالها بصورة مطردة: إذ هو لا يستطيع أن يفهم تركيبًا ما إلا بأن يتجاوز باستمرار ["بطريقة متقطعة"، في الواقع] الأجزاء إلى الكل في الجملة ثم يرجع مرة أخرى إلى أجزائها".

٦- كذلك لما لم يكن في العربية نحت تجميعي اسميّ، فهي لا تمثل غصة للمحلل (وهذه إحدى مصطلحات وايزجربر مرة أخرى). إلا أن الإلحاق يتصف بأنه تركيبي بدلاً من كونه نحتًا تجميعيًا، كما يضاف إلى ذلك أن إنتاج الجمل تكراري بشكل ضعيف جدا.

(أ٦) - وهناك بعض التفصيلات القليلة التي لن نستقصيها. ويجيز الزجاجي (تحقيق ابن شنب، ص ١٣١) مثالاً إلماعيًا cataphoric :

"ضرب غلامَه، زيدٌ"

بل يجيز المثال التالي (مع التبئير)، كذلك:

"غلامَه ضرب زيد"

لكنه لا يجيز جملة مثلا:

"ضرب غلامُه زيدا"

التي تتبع الترتيب المألوف: (فعل ـ فاعل ـ مفعول) لكنها إلماعية.

كما يرى الزجاجي (ص١٣٠) إلماعًا من نوع ما حين يتبع الفاعلُ فعلاً متصرفًا للشخص: ولما كانت العربية من اللغات التي تحذف الضمير pro-drop فإن الفعل يؤخذ على أنه يحتوي ضميرًا مستترا.

(٧) ويكتب بلاو (١٩٨١، ص١٣٥):

"تبين العبرية المعاصرة والعربية المعاصرة كلاهما عن توجه قوي نحو الجمل الطويلة المعقدة أكثر مما يظهر في سلفيهما القديمين".

ثم يُرجع بعض البنى غير المفكّكة، المفضّلة في الوقت الحاضر، إلى الأثر الأوروبي، لكنه يخالف رأي دارس آخر يقول: "إن العبرية المعاصرة، في استعمالها المفرط للنقاط، لم تحافظ على الصبغة السامية". ثم يستمر قائلا:

"إن لدي بعض الشكوك في مساواة بنية الجمل البسيطة بالصبغة السامية وبالنظر إلى بنية الجملة المعقدة على أنها غير سامية. فهل يجوز أن نصف الأسلوب العلمي العربي في العصور الوسطى بأنه غير سامي لكونه استطاع التعامل مع الجمل المعقدة؟!"

ويستمر ليستشهد بمثالين من سيبويه (وهو فارسي الأصل)، وهما مثالان محيران في الواقع إلى أن تتمرس بأسلوب النحويين، لكن يمكنني القول إنهما إلماعيان ومختصران، بدلاً من كونهما معقدين تركيبيًا بسبب الإلماع والربط غير المحلي والإحالة المتداخلة، الخ.

[والمثالان هما:

أ ـ "وإن أخبرتَ في هذا الباب على هذا الحدِّ نصبتَ أيضًا كما نصبتَ الخبرَ الاسمَ الذي أُخذ من الفعل، وذلك كقولك: . . . " (هارون، ج١، ص ٣٤٥)

ب ـ ". . . فلم يَجُزْ حيث أظهر الاسم عندهم إلا الرفع، كما أنه لو أظهر الفعلَ الذي هو بدلٌ منه لم يكن إلا نصبا. فكما لم يَجُزْ في الإضمار أن تُضمِر بعد الرفع ناصبا كذلك لم تُضمِر بعد الإظهار. . . " (هارون، ج١: ص ص ٣٤٧ـ٣٤٨)]

وعلى أية حال يحتلُّ كتاب سيبويه منزلة تماثل منزلة [النحوي الهندي القديم] بانيني في السنسكريتية. وفهمه لا يتيسر إلا عبر الشروح والتفسيرات التي أنجزها النحويون المتأخرون.

ويمكن الإتيان بجمل محيّرة بالدرجة نفسها من ألفية ابن مالك (القرن الثاني عشر)، (وهو كتاب ضخم من الشعر التعليمي). وليس من الموثوق به أن نقول إن أجيال الطلاب الذين حفظوا الألفية عن ظهر قلب يمكن أن يفهموها بصورة مستقلة، أكثر من الزعم بأن الطلاب العرب (وغير العرب) الذين يحفظون القرآن عن ظهر قلب يستطيعون فهمه من غير استعانة بالتفاسير.

(٨)ـ ومن المؤكد أن في الإنجليزية وقريباتها شيئًا مماثلاً تقريبًا من التعدي غير الخطي للتحليل، انظر مثلا:

The kid are great ones for getting food all over the carpet

حيث يمكن أن تُضمّ عبارة for ، التي يمكن عدّها بنيويًا نوعًا من التمييز (انظر الفصل الحادي عشر)، إلى great من أجل التأويل المثلي؛ قابل ذلك بـ great ones بوصفها وحدة دلالية في الجملة التالية:

The great ones met in the Hall of Potentates.

فأن تكون "عبقريًا في الرياضيات" تسهم في مجموع الصفات العبقرية فيك، لهذا فهي خطية من حيث الدلالة الشكلية؛ لكن كونك "a great one for spilling food" "أن تكون عظيما في نثر الطعام [على الفراش] " لا تسهم في مجموع الصفات العظيمة فيك.

أو انظر في الجمل التالية:

"He's an easy baby to please" ⟶ "He's an easy baby"
"It's a tough problem to solve" ⟶ "It's a tough problem"

(وليس هذا الحكم لازمًا حصرًا بل هو إسهام في مجموع الصفات).

ذلك في مقابل:

"He's a hard man to dislike" --/⟶ "He's a hard man"

وهناك شيء غريب بعض الشيء بصورة مستترة فيما يخص الأنواع غير الإضافية، ويمكن لهذه أن تكون سببًا في إثارة النكتة. ومن ذلك ما كتبه Ernest Weekley في مجلة Atlantic Monthly (June 1924):

"He soon realized the truth of the sage maxim that schollmastr-ing is a very good profession—to get out of".

٩ـ وتوجد الأمثلة في المقولة المفزعة التي نجدها في كتاب ريكندورف "Einschiebung des Hauptsatzes in den Nebensatz" (AS 535)، التي تبدو كأنها نوع من: syntactic

Klein bottle، ولا تتضمن في الواقع تضمينًا (اعتراضًا) interpolation ، لكنها مجرد تقديم لاسم الاستفهام أو العنصر المبأر:

"أين تأمروني أن أخرجَ ∅ "

(١٠)ـ Par acquit de conscience ، "إبراء للذمة") فسوف أذكر بعض الأمثلة الهامشية من أنواع الجمل غير الإضافية وغير الخطية:

فتعمل "ما" على مساعدة بعض القطع في الجمل، كما في التضمين، مثلا، لكنها زائدة في شعر عنترة:

"يا شاةَ ما قَنَصٍ".

كما تقطع "إنما" ترتيب الجمل وينتج عنها بعض العمل عن بعد في حالات مثل:

"إنما ضربَ عمرا زيدٌ"

(وانظر SV 118 ؛ حيث توجد بعض الأمثلة للإلماع). وكلا النوعين يمكن أن توجد له مماثلات في الانجليزية.

(١١)ـ للاطلاع على مثال من نثر *العربية*، قارن بـ SV 462:

"خرج آدم من الجنة فخرج منها ومعه عصا"

ويمكن أن نسمي هذه "التركيب التكراري" reprise construction

(١٢)ـ وكما هي العادة، ففي حين نجد أن هناك بعض الممارسين لمثل هذا التحليل في جانب نجد بعض الممارسين الآخرين الذي ينظرون إلى مثل هذا المنهج على أنه غير محكم لدرجة تجعله لا يستحق أن ينظر فيه. أما أنا فأنظر من حيث المبدأ إلى التقدير الانطباعي بجد، وهو الموقف الذي يتخذه كل أولئك الذين يتوسع مجال تفاعلهم إلى ما وراء الإحصاءات الدقيقة ـ أي إلى التاريخ، وإلى الأدب ـ؛ وأكثر من ذلك فإن ما نتذكره أو نعتقده حتى عن موضوع استنتاجي نسبيًا كالفيزياء أو التحليل الصوتي إنما هو مُسقَط بشكل لازم على الشبكة الإنسانية لانطباعاتنا التي تبلغ حدًا بعيدًا من التعقيد، ذلك أن العقل، على الرغم من قدرته في أتون الخلق على إحداث منجزات خارقة، إلا أنه ببساطة لم يُعَدّ على المدى الطويل للاحتفاظ بخاصية صورة العالَم Weltbild فيه بصفتها مرقاة طويلة تصل إلى الوراء حتى مفترَضَات بينو Peano's postulates. فالسؤال إذن عن تلك التقديرات التي تُمكنها أن

توقظ الفهم أو القبول. وفيما يخص الموضوع هنا دعني أحيل القارئ إلى تصور von G. الأكثر نجاحًا عن:

Habemus senatusconsultum in te, Catalina, vehemens et grave, (op.cit 371)

والأمثلة الأخرى في ذلك الفصل نفسه.

(١٣)ـ إن كان هناك مثل هذا الوقت. قارن بـ:

H. Paul, Deutsche Grammatik(1919); repr. Tübingen(1968), Band, p.4: "Die Stellung der Wörter ist ursprünglich nur durch psychologische Momente bedingt."

(١٤)ـ داب وودهوس P.G. Wodehouse على تكرار مثل هذه الأنواع من الحذف من الصيغ الجاهزة:

"I didn't want to have England barred to me for the rest of my natural"
"Absolutely becoming the good old shadow, I give you my honest word"
"my usual nine hours of the dreamless."

ولو حدث أن قلّت نسبة استعمال الصيغ الجاهزة التي تقوم عليها هذه التعبيرات أو اختفت، كما حدث لبيت ميلتون، فستكون النتيجة أن كثيرًا من المتكلمين سيؤوّلون العبارات الناتجة بأنها إما زائغة تركيبيًا، أو أنها تتضمن معاني مختلفة لكلمة natural ـ والحالة الأخيرة هي المسؤولة من غير شك عن بعض حالات تعدد المعاني العتيقة.

(١٥)ـ في مراجعته لكتاب فريدريك نيوماير Grammatical Theory, in *Language* 61(1985), p.672.

(١٦)ـ ومن ناحية أخرى، إذا كانت قضية ما تبدو واضحة جدًا حتى ليمكن عدها تافهة، مثل نظرية القوس عند جوردان، فإن برهانها الصعب سوف يتذوقه المختصون فقط. ويتربص خطر الإجابات غير الواثقة بشكل مماثل بكثير من الأحكام التي تبدو كأنها بديهية في اللسانيات الاجتماعية والتركيب المؤسس على أسس وظيفية.

(١٧)ـ وردت في مجلة هارفرد، مارس ـ أبريل ١٩٧٨.

الفصل العاشر
اللغو (الحشو)

رأينا في الفصل الثاني أن "الزيادة" redundancy كانت إحدى الخصائص التي لفتت انتباه دارسي العربية غير المتمكنين. والقاعدة العامة أن الإنسان يميل إلى المبالغة في الوزن الحقيقي للزيادة في اللغات الأخرى غير لغته، وذلك للأسباب الثلاثة التالية:

أ- الترجمة الحرفية Translationese:

نجد في ترجمات القرآن الكريم أو ألف ليلة وليلة إلى اللغات الأوروبية أحيانًا جملاً تبدو عليها السذاجة، مثل: He shouted with a loud shouting ، وهي ترجمة حرفية للجملة العربية الأصلية. ولا يزال المترجمون الذين لا يحسنون ترجمة جملة عربية تتبع الترتيب (فعل ـ فاعل ـ مفعول) مثل:

Slew Hussein the traitor

"قَتَلَ حسينٌ الخائنَ"

يشعرون بعدم الاطمئنان إلى حذف أجزاء بكاملها من النص العربي الأصلي، أو ربما يظنون أن هذه المتممات الشبيهة بالجُمل تحافظ على مذاق النص الأصلي. لكن النص الأصلي وهذه الترجمة الحرفية لا يختلفان إلا في المذاق على وجه الدقة. ولعدم وجود تصريفٍ مطرد لاشتقاق الظروف في العربية فإن التركيب المتمِّم يشبه من حيث الوظيفة الظروف المشتقة في الإنجليزية، كما في:

He shouted loudly

"صرخ صراخا عاليا"

[حيث loudly ظرف يبين كيفية الفعل]

أو:

He gave a loud shout

"صرخ صرخة عالية"

ب ـ فشل المركزية اللغوية في أن تسمح بوجود الفعاليات المختلفة محليًا. ويعني هذا أن بعض الأشياء تعالَج في العربية بطريقة أكثر إحكامًا من الإنجليزية؛ وهذا ما نأخذه أمرًا مسلَّما حين نقرأ العربية. أما بعض الأشياء الأخرى فتعالَج فيها بطريقة أكثر إسهابا؛ وهذه الأخيرة هي التي ربما تُبْرَز أكثر من غيرها. وينطبق هذا القول أيضًا على المعجميات: فحين نقرأ الفرنسية نجد بعض الإسهاب في تسمية شيء يسمى في الإنجليزية بكلمة واحدة، لذلك يظن المتعوِّد على الإنجليزية أن الفرنسية خرقاء في عملها ذاك؛ لكن الواقع أنه حين يقرأ المرء كلمة فرنسية مفردة لا يتوقف ليتفكر في الكلمة التي تقابلُها في الإنجليزية أو عدم وجود مقابل لها ـ فكلمة gendre تبدو في خفَّتها مماثلة للكلمة oncle.

ج ـ الحشو التجسيمي Iconocity

وحين يقال لنا إنَّ جَمْعَ كلمةِ booga في لغة ما هو booga-booga، لا نملك إلا أن نشعر بأن هذا التركيب ساذج، أي أن هذه اللغة أقرب ما تكون إلى البدائية. لكننا قلما نتوقف لنتفكَّر في الزيادة أو السذاجة لتي تسم الصيغ في الإنجليزية نحو:

Children
plaything (*drink-thing)
Spielzeug
Headgear
foodstuff

[وهي كلمات مؤلفة عن طريق الزيادة فيها]

غير أن ما يبدو حشويًا في مستوى الشكل لا يلزم أن يكون كذلك حين ننظر إليه من حيث الدلالة. فإذا كتب أحدٌ في الإنجليزية جملة مثل:

He ran and ran

"جرى ثم جرى"

فلا يعني هذا أنه يكتب ذلك لأنه يتقاضى أجرًا بعدد الكلمات، أما ما يحاوله فهو أن يعبر عن حدثٍ استمراري بإنجليزية لا توجد فيها طريقة صرفية لتأديته.

ويؤكد لنا هنري بول H. Paul أن: "اللغة تعزف عن كل رفاهية (ترف)"

Die Sprache ist jedem Luxus abhold

وهذا المبدأ ليس صحيحًا إن أخذناه على أنه قول نهائي، لكنه حافز مفيد في الكشف عما يبدو أنه حشو ثم التساؤل عن الغرض الذي يؤديه كل واحد من هذه الأنواع من الحشو، إن كان له من فوائد. أما مظاهر الحشو في العربية فيمكن تصنيفها في المقولات البنيوية التالية:

١ـ حشو العبارات النسقية، الحشو المعجمي: coördinated, lexical

أ ـ الكلمات المتماثلة:

فعبارة: "أكثر فأكثر" تماثل تمامًا العبارةَ الإنجليزية: more and more؛ وعبارة: "يومَ يومَ" تماثل: day by day، حيث لا يكون للأداة by دلالة مستقلة، فهي لا تعدو هنا أن تكون حرف عطف نسقي تُستعمَل في مثل هذه العبارات المُثليَّة، قارن بالعبارة الفرنسية: au jour le jour. ومن العبارات الأقل جودا: "إليكم إليكم"، قارن بـ: "إليك عني".

وتُستعمل هذه التعبيرات كلها لأغراض تسويرية quantificational ، نحو ـ الاستمرارية، والتوزيعية، والتوكيد، الخ. وكما تشير ترجماتنا للكلمات، تُنجَز هذه الوظائف نفسها تقريبًا باستخدام التكرار النسقي في اللغات الأوروبية.

ب ـ حشو المترادفات:

وعلى خلاف النوع الذي في (١أ) لم يصبح هذا النوع خصيصة نحوية grammaticalized في العربية، لذلك يمكن أن يكون من أنواع الزيادة على وجه الدقة. ويتنوع استعماله باختلاف العصور والكتّاب، وهو ما يشبه ما نجده في الإنجليزية وأخواتها اللغات الأوروبية الأخرى، حيث أصبح هذا النوع قليل الاستعمال أو أنه جُمِّد، نحو:

aid and abet

"العونُ والإغراء"

وفي الفرنسية:

Confidence ou confiance

"حفظ السر والأمانة"

la velocité et hastiveté du mouvement.

"عجلة الحركة وسرعتها"

وقد حلّلنا وظيفته في الفصل الذي عالجنا فيه ظاهرة التراكم.

ويتقاطع الحشو وحُبُّ العربية للطباق في النمط الفرعي للطباق الحشوي. ومن ذلك:

"أخطأ الحقُّ وما أصابَ"

(Reck. AS 55 حيث توجد أمثلة أخرى كثيرة).

وربما كان هذا الإجراء الأسلوبي خاصًا بالعربية مقارنة بالمتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي (ومن هنا نجد العُذر لريكندورف لإيراده هذا النمط في كتاب عن التركيب). وربما نجده أحيانًا في الفرنسية أو الإنجليزية في الأسلوب العامّي أو غير المتأنق، نحو:

It's the truth and no-lie

"إنه الصدق لا الكذب"

Il en dit des vertes et des pas mûres.

"يَخلط في كلامه"

٢ـ حشو العبارات النسقية، حشو العبارات الشبيهة بالمعجمية:

وهذا النوع الذي تتوالى فيه كلمتان أو أكثر من الكلمات المستقلة صرفيًا ونبريًا لغرض التوكيد الترادفي غالبًا، لكنْ واحدةً منها فقط كلمةٌ معجمية، له ما يشبهه في الإنجليزية والأسبانية والألمانية (وأقل من ذلك في الفرنسية)، غير أن التركيب المَثَليّ لكل مثال من هذا النوع يجعله معبِّرًا عن مذاق اللغة التي يوجد فيها. فنجد في العربية أن الأسماء الملحَقة الشبيهة بالمترادفات تأتي عمومًا على الوزن نفسه الذي تأتي عليه المعجميات الحقيقية التي تتبعها، وهي متماثلة صوتيًا؛ ويطلق على التركيب في مثل هذه الحالة مصطلح "إتباع". لهذا نجد أن الجذر الشائع "أجْمَع" يمكن أن يتبع بالكلمات النادرة والطفيلية التالية: "أبتع"، و"أبصع"، و/ أو "أكتع"، والكلمات الثلاث الأخيرة ملحقات ولا يمكن التمييز بينها بدقة ولا يمكن أن تأتي منفردة وهو ما يشبه المثال التالي الذي نجده في الإنجليزية:

Flopsy, Mopsy, and Cottontail

[وتدل كلها على الأرنب]

(انظر الفصل الرابع عن الإتباع، القسم (٦)).

وهناك شيء شبيه بهذا في اللغات الأوروبية حين يقتصر وجود كلمة ما على ظهورها في تعبير نسقي ثابت تحتفظ فيه الكلمة الأخرى بفعاليتها وتحدد تأويل ذلك التعبير بوصفه وحدة واحدة؛ ويمكن أن نطلق على هذه الظاهرة المصطلح Anchises binomials "التراكيب النسقية الأنشيازية"[١]. ومن ذلك[٢]:

Kith and kin

vim and vigor

"حيوية ونشاط"

toil and *moil*

"كَدْح واضطراب"

with might and *main*

"بقوة وعزم"

"هنا وهناك"

Kind und *Kegel*

"الجمل بما حمل"

au *fur* et à mesure;

mondo y *lirondo*, fulano, *mengano* y *zutano*

وبما أن العنصر التابع كان أو أصبح مجردًا من الدلالة فقد نتج عن ذلك نمطُ الإتباع بتعريفه الدقيق، حيث لا يمكن الحديث بدقة عن الحشو، ذلك أنه لا يمكن لأيٍّ واحد من العنصرين أن يعني شيئًا بمفرده: قارن بـ super-duper, thingamajig "شيء لا يمكن تصنيفه". وليس هناك حد صارم بين هذا النوع والنوع الآخر الذي يمكن تحليله دلاليًا، أي النمط الذي منه العبارة: long tall Sally "سالي الطويلة"، والسلاسلِ الترادفية الموسَّعة أحيانًا في العربية، لكن هناك تدرُّجا، ذلك أن الأنواعَ المختلفة تتغذى بالنزعة اللغوية اللعوب نفسها. قارن بما يقوله جيرو في كتاب الفرنسية العامية Guiraud, Français populaire 88 عن تعبيرات مثل:

peau de balle et balai de crin

حيث لا تعدو كلمة balai أن تكون تلعُّبًا تعبيريًا بكلمة balle.

٣ـ حشو الأحادية المعجمية، والحشو الصرفي: Monolexemic, Morphological

وليس هذا النوع غريبًا في اللغة الإنجليزية وقريباتها لكنه قليل بالضرورة، كما في:

re-iterate, un-loose, ut-m-ost,

[حيث تزاد الصرفية re للكلمة الأولى، و un للكلمة الثانية، وتتكون الكلمة الثالثة من جزيئات صرفية متعددة]

German: % c hampfle voll "a handful full"

"ملء اليد"

وفي اللاتينية:

cantito,

وفي اللاتينية المتأخرة:

pesimissimus.

وتميل هذه الأمثلة بمرور الوقت لأن تبدو غير حشوية، لكنها تشبه في بنيتها بعض الكلمات التي لا يزال من الممكن تحليلها، نحو: re-iterate ، التي هي نفسها ليست بعيدة عن: repeat بمعنى 'يعيد'. again

ولا تستطيع العربية أن تأتي بمثل هذه الصيغ لأنها ليست إلصاقية من حيث الصرف عموما. فلا تستطيع قاعدة التصغير، لأنها عملية داخلية [تغيُّر الحركات في داخل الكلمة]، مثلاً، أن تنطبق على الصيغة التي نتجت عن هذه العملية التصريفية نفسها [هذا ليس دقيقًا؛ فهناك بعض الأسماء المصغرة التي تُصغَّر في بعض اللهجات العربية في المملكة. ومن هذه الأسماء: مسيجيد، مريزيق، وغيرهما]، في حين يمكن للزوائد في اللغات الأوروبية أن تتراكم في نهاية الكلمة: Ring-el-chen, diabl-ot-in، بل يمكن أن يحدث هذا أيضًا في الفرنسية القديمة: fustelel "قالب صغير"[٣]. ومع هذا يمكن أن تنطبق قاعدة التصغير على

صيغة تعني معجميًا، أو تقتضي، "صغير"، ومن ذلك: "صُغَيِّر" التي تشبه الكلمة اليونانية: mikkýlos < mikkós "صغير"، والروسية: malenkij؛ قارن بالكلمة: extremissimus في اللاتينية المتأخرة. وبما أن هناك عددًا كبيرًا من الأوزان التي يأتي عليها الجمع في العربية، يحدث أحيانًا أن يكون أحد الأوزان المشتقة دَخْلاً لوزن آخر، ومن ذلك "رَهْط"، "أرهُط" (جمع قِلّة)، "أراهِط" (وزن جمع للرباعي، حيث تُعَد "أ" جزءًا من الجذر)؛ "بِزْر"، "بزور" (اسم جمع)، "بزورات" (أنواع من البزر) (وهي كناية تذكّرنا بـ: épicerie "صيدلية"). ويشبه هذا النمط التعبيرين اللاتينيين: bina castra "فريقان"، و bina littrae "رسالتان إنجيليتان"، مع دلالة خاصة، أكثر من كونه مجرد جمع ثنائي زائد مثل: los piesces (رجلان، "اصنع أشياءك بنفسك")؛ و child-r-en, % Jung-en-s. وتتسم العربية، إن كانت تتسم بشيء، بضَعْف الوسم الصرفي أحيانًا حين يمكن أن يكون الوسم زائدًا بمعنى من المعاني في الدلالة المعجمية. هذا ففي حين تقبل الإنجليزيةُ نمطًا مثل scam-str-ess (المعلّم بسمة الأنوثة مرتين، إن اتفقتَ مع جسبرسن)، وفي حين أعادت الأسبانية صياغة الكلمة اللاتينية socrus (أم الزوج(ـة)) لتبدو كأنها صيغة مؤنثة عادية (suegra)، نجد العربية تتجنب تصريف الصفات المؤنثة التي تحيل إلى مؤنث حقيقي، نحو: "حايل" [للمذكر].

٤ـ حشو العبارات غير المعطوفة نسقيًا، الحشو التركيبي: Non-coördinated, syntactic

أ ـ حشو الصيغ غير النظيرة:

وسوف نناقش أحد الأنواع الفرعية التي تتسم بالتحديد الحشوي، نحو (red in color, few in number "احمر لونًا"، "قليلٌ عددا") ، في الفصل الحادي عشر، القسم التاسع.

وليس للحشو الذي يخلو من التجنيس non-paronomastic أهمية أسلوبية محدّدة. ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في برنامج أذيع في سنة ١٩٨٠ في إذاعة صوت الجماهير:

"فهل يَرجع الزمانُ إلى الوراء، وهل يعود التاريخ إلى القهقرى، بدلاً من أن يمضي قُدُمًا إلى الأمام؟"

وهذا النمط ليس نمطًا بنيويًا مألوفًا في العربية لأن الكلمات فيه لا تتضمن تشابهًا في الجذور، وإنما يحوي أثرًا بلاغيًا مفردًا يمكن مقارنته بما نجده عند سبنسر. لهذا نجد في كتاب سبنسر الأول، الفصل الحادي عشر من Farie Queene فقط، الأمثلة التالية، حيث لا تضيف الظروف أكثر من الزيادات الحرفية [التذييل] paragogic المكوَّنة من زيادة حرف e التي كان مغرمًا بها:

"forelifting up aloft his speckled brest"(line128)
"Both horse and man up lightly rose againe" (145)
"th'idle stroke yet backe recoyled in vaine" (147)
"but backe againe the sparckling steele recoyld" (219)
"to retire a little backward"(399)
"he recoyled backward" (403)"and back retyrd"(477)

[حيث زاد e على كلمات:again و back و vain]

ويبدو أن التقليد المألوف في العربية النموذجية المعاصرة لا يقبل مثل هذا الصنيع بأكثر مما تقبله الإنجليزية المألوفة، حيث يثير استعمال ما هو أقل من هذه الزيادات استنكار وليم سافير [كاتب يهتم بتتبع الاستعمالات اللغوية ونقدها في جريدة نيويورك تايمز الأمريكية].

ب ـ حشو النظائر، حشو العبارات التبعيّة:

ويكوِّن هذا النوعُ والنوعُ الآخر الذي سنناقشه في (٤ج) الإجراءَ الذي يُعرَف بالتجنيس paronomasia، وهو من أكثر الخصائص التي تتصف بها العربية. وقد خصص هيرمان ريكندورف كتابًا لدراسة هذا الموضوع، هو: Über Paronomasie in den semitischen Sprachen .

ويمكن أن يُسوَّغ النوعُ (٤ج) بسهولة بالاقتصاد التركيبي. أما النوع (٤ب) فيبدو غريبًا بعض الشيء، فيصاغ التعبير: "لَيْلٌ لائل" الذي يُترجَم بالتعبير الإنجليزي: very dark night "ليل شديد الظلمة"، من الكلمة "لَيْل" متبوعة بصفةٍ لها صيغةُ اسمِ الفاعل من الجذر

نفسه: لهذا يمكن التعبير عنها بالإنجليزية على النحو التالي: nightly night ، أي أنها ليلة تتصف بالصفات الحقيقية التي تجعل الليلَ ليلا (قارن ذلك بالتركيب: N_1 of N_1 ، أدناه [وهو ما يشبه الإضافة في العربية]). ودلالة هذا النوع ـ الذي يبدو أكثر التواءً من أنواع الحشو الشبيه الذي نجده في الفرنسية العامية: C'est la vérité vraie "إنها محض الحقيقة" (في التأكيد على "الحقائق الدقيقة") ـ غريبة جدًا في الإنجليزية وقريباتها، وإن كنا نجد أحيانًا بعض الأشياء المبدعة القريبة منه. ومن ذلك ما نجده عند هنري ميلر:

"There never was a field so fieldishly green as this"
(*Colossus of Maroussi*, 1941; p.96 of the New Directions edition).

فيعبّر الظرفُ fieldishly هنا عن حيمية الانطباع الحسي وقوّته، وعن الوجود الباعث على الانشداه الصارخ لذلك التزاوج بين اللون والجوهر، وعن النوعية الجذرية لعبارة "الحشيش الأخضر" (وهو ما يمثل: زيادة ⟷ تكرار)، والتماثل الشديد بين المزج وتطويل الصرفية نفسها (التجسيم). ولا يزيد الأمر هنا عن أن بعض الكتّاب يُغرمون بالتلعُّب بهذا النوع، لذلك تكون الدلالة مائعة، إذ تجري في مختلف الاتجاهات مبتعدة عن الدلالة المركزية للصيغة. ومن ذلك ما كتبه توم روبنز:

"The toaster, for toasterly reasons, sat with endlessly bowed back."
(*Even Cowgirls get the Blues*, New York: 1976; p. 32 of the Bantam reprint).

[حيث صاغ الظرف toasterly "المحماصي" من الاسم toaster "محمصة الخبز"

ومرة أخرى لا يعني هذا فيما يبدو إلا التعبير عن حقائق الأشياء الصامتة غير القابلة للتزحزح، في هذا الكون. فيقول الكاتب نفسه في الإشارة إلى فتاة (المرجع نفسه، ص ١٧):

"not quite in direct ratio with the rest of her growing-girl self"

حيث يوضح السياق التالي أن ما يفكر المؤلف به هو نوع من نمو الفتاة حين تنمو، لا بصفتها شيئًا، يشبه نمو ألِسْ مع الفِطْر [في قصة ألس في بلاد العجائب]، بل نموها بوصفها انثى، اي انه يقصد أنها ناضجة جنسيا. فيؤكد هذا التركيبُ النوعَ النموذجي والطبيعة الإنسية، كما في قوله:

"Dust doing its dust dance in the morning light"

(حيث يجعل الغبار يرقص رقصا خاصا به dust doing dust dance)

(الكتاب نفسه، ص ٣١٨)[٤].

وكنت قد قلّلت في القسم (أ) أعلاه من الأهمية الدلالية/الأسلوبية للتجنيس في العربية، لأنه صار نحويًا gramaticalized. لكنّ ربما أمكن للتجنيس أن يولّد، من وجهة النظر العامة لدلالة الشكل، أو يُعيد اكتساب أهمية عقلية خاصة. ويبدو أن مثل هذا التجنيس عند روبنز، الحداثيّ غير المستقر، يتوافق مع موقفه الذي يخفي وراء عدم المبالاة ما يشبه الرغبة في الارتداد إلى القرون الوسطى، مع إنقاص الإنسان إلى صورة هزلية أو نوع (كما في تعبيراته التالية: morality plays 'المبادئ الأخلاقية تلعب'، the Art of Memory "فن الذاكرة"، progeny of Theophrastus "تناسل ثيوفراستوس") و"التركيز النفسي عند الحيوانات"، وغير الأحياء، وأعضاءِ البَدن، كما يقول موسبللي:

Darscal denne hant sprehhan, houpit sagen. . . "--Muspilli)

"فإن دارسكال قد قال حين تحدّث. . . ".

أما في النشرات السياسية العربية فإن تكرار المَفْهَم sememe نفسه في جملة معينة لا يعدو أن يكون تجسيمًا للعودة الأسبوعية للعدد المحدود جدًا من المواضيع، والحقيقةَ أنّ أسلوب الحجة في مثل هذه الحالات يمكن أن يدين للإسكندر بأقل مما يدين لسقراط [أي أنه غير منطقي].

وتوجد في العربية صيغ مبالَغة تفضيلية مألوفة مما يشبه التعبيرات الإنجيلية التالية:

holy of holies, king of kings

"قُدس الأقداس، ملك الملوك"

وتظهر هذه التعبيرات في العربية بشكل حر، في مختلف الأنماط الفرعية مثل:

"غسانٌ غسانٌ"، "تيسٌ تيوسٌ"

(SV 147)

"الفتى كل الفتى" (SV153).

ج ـ حشو النظائر، اختراق حدود المكوّنات: Cognate, cross-constituent

ومن ذلك: "قال قائلٌ". وليس من الضروري أن يُعَد مِثلُ هذا المثال زيادةً من حيث الاقتصاد اللغوي، ذلك أنه ليس أطول من الخيارات الأخرى، نحو: "قال أحدٌ". . . أما

استعمال النمط "قال قائل" فينبع جزئيًا من غير شك من حب العربية بصفة عامة لعبارات الصدى عبر الجمل [أي تكرار لفظ سبق ذكره في الجملة، أو ذكر لفظ قريب منه].

وربما تكون نتيجة هذه العملية أيضًا أطول من الحد الأدنى الذي نجده في اللغات الأخرى. فكما يقول ريكندورف:

"إن إلحاق صفة التنكير بالمفهوم المضاف عن طريق تعريف المضاف إليه لأمر يعبر عنه بطريقة ملتوية".

Indetrmination des regierenden Begriffs bei Det. Des regierten lässt sich nur auf Umwegen ausdrücken:

كما في:

"حديثٌ ما حديثُ الرواحلِ"

(SV 185)

"بنت من بنات الملك".

ومع أسماء العَلَم التي تتضمن أداة التعريف "ال":

"الجَعْدُ جعدُ بني أبان"

وتنتج ضرورة مثل هذه التركيبات فيما يبدو من عدم طواعية تركيب الإضافة في العربية. كما تُجعل ندرةُ الظروف الكافية والصيغ البديلة proforms التكرار ضروريا:

"حدثني كما حدثني أول مرة"

(SV216)

He spoke to me the way he did the first time

(حيث تقوم did مقام الفعل spoke)

"ما ترى رأي ما نرى"

(SV 753)

You do not see it the way we do

(حيث تقوم do مقام see)

والمثال التالي من مقطع من النثر العلمي غير المحبوب، من غير استعمال للتجنيس:

"يحتاج إليها حاجةً شديدة"

(Hogendijk 1985).

وتُواجِه أيةُ لغة تتصف بوجود ظاهرة المطابقة التكرارَ في مقابل التجميع الفجّ:

?"Elle et lui sont belles/baux"

?"Paul et moi sommes partis"

ويمكن أن تصاغ الجملتان صياغة ملائمة على الشكل التالي:

"Elle est belle et il est beau."

"Paul t moi nous sommes partis"

وتميل العربية عمومًا إلى التكرار:

"قد عَطِشْنا وعَطِشتْ دوابُّنا"

(SV 490)

ويمثِّل تكرارُ حروف الجر نحو:

"مَعَه ومَعَها"

حالةً فرعية من تماسك الإضافة. وللاطلاع على وظيفة التكرار بقصد إزالة الغموض في جمل الصلة، انظر SV 219، أسفل الصفحة.

وهناك استعمال عجيب غير محايد للتكرار، يَحِلُّ فيه الجزءُ المكرَّرُ، بدلاً من قيامه بالتوضيح البيِّن الذي تستخدم بعضُ اللغات له صيغًا بديلة، في مكان وصفٍ آخر أكثر توصيفًا سياقيًّا، يتسم بحذف التفاصيل ـ وذلك كما في التركيب الإنجليزي: "word to the wise". ومن الأمثلة على ذلك قول الطبري:

"هَلَكَ مَنْ هَلَكَ مِمَّنْ كان على وجه الأرض"

(SV 633)

"أخذَه الذي كان يأخُذُه"

(SV 752)

والأمر الأساس هنا ليس التكرار بل التحفظ الشديد الذي يمكن أن يُنجَز أيضًا بتنكير الاسم وحسب، انظر ما يقوله ريكندورف AS p. 199 تحت عنوان "تنكير الإيجاز أو التفخيم"

"prägnante oder emphatische Indetermination"

وما ورد في معجم هانز فير عن كلمة "أكَمَة" ["وراء الأكَمَة ما وراءها"].

وتستعمل الإنجليزية في حالات قليلة جدًّا شيئًا شبيهًا بهذا. قارن بما يقوله كونجريف: Congreve, *Way of the World I*. vi:

"Gad, I have forgot what I was going to say to you. . . . Prithee excuse me, -- my memory is such a memory."

أي: "such a bad one"

"إنها سيئة جدا"

٥ـ الحشو الإسنادي (التكراريات): Predicational (tautological)

ويعتمد استعمال حالات التكرار الظاهري للتعبير عن معنى غير تكراري على ما يتمتع به المتكلم من حِسِّ الظُّرف. فيستغل هذا التكرار خصائص اللغة لكنه لا يؤسِّسها، بمعنى ما. لهذا يَستغل النمطُ: "قال قائل" اطِّراد الاشتقاق في صيغة اسم الفاعل، ويُؤسِّس بنيةً تركيبية مميزة؛ لكن العبارتين التاليتين في الإنجليزية: "Business is business" أو "Fair's fair" يكوِّنان وحدة واحدة تنطلق من خلفية للافتراضات الثقافية، ولا تؤسس بنية مطردة تمامًا مثل: "X is X" "فلانٌ هو فلانٌ" (وكذلك بعض التنوعات لها مثل: "Boys will be boys" "سيَظل الأولادُ أولادا"[٥]، بدلالاتها المطردة المصاحبة لها. (وهو ما يعني أن العبارة الأولى تحاول إيجاد مسوِّغ لممارسة *المتكلم* التجارية أو لتصرفاته التي تشبه الممارسة التجارية: أما العبارة الثانية فتتطلب من *السامع* إظهارَ شيء من العدل، أما العبارة الثالثة فتنطبق على الأشخاص الغائبين ـ فالطفل الذي يرمي كرة عبر زجاج منزل الجيران فتحطم بعض المقتنيات الثمينة فيه ربما لا يمكن له أن يستعمل هذه العبارة في الدفاع عن نفسه). وربما ساغ لنا القول إن الإنجليزية تحب أن تُبدِل هذه المتغيرات (x's) متى وجدت مسوِّغًا دلاليًا ـ

تداوليًا لفعل ذلك، فيما لا تفضل العربية هذه الصيغة على وجه الخصوص (أو الفرنسية، أيضا). ويتماشى مع الأسلوب العربي بشكل أقرب التكرارُ السطحي الذي يَستَغل المشترَكَ اللفظي polysemy (بدلاً من مجرد التأكيد، كما في العبارة الإنجليزية: "Fair's fair"، أو التلعُّب بالارتباطات الموازِية، كما في: "Boys will be boys") . ونجد في الإنجليزية ثنائيات صغرى minimal pair من النوعين كليهما في الإنجليزية:

"Business is business"

في مقابل:

"That is the controversy of the literal-minded, and is the business of those for whom philosophy is a business"
(Joseph Freeman, *An American Testament*, New York: 1936, p. 194)

فتظهر كلمة business هنا أوّلاً بمعنى "شأن"، و"اشتغال"، ثم بمعنى "الممارسة التجارية"، و"توسع النشاط غير المخطط له"، لهذا تختلف عن معنى العبارة: business is business، التي تشبه عبارة: War is war : أي "إن التجارة تشبه الحرب، فإذا لم يعجبك ذلك، فإنها مشكلتك".

وهناك عدد كبير من خِدَع التجنيس في الشعر العربي، وتسمى "الجناس" [٦]، وله أنواع فرعية بحسب ما إن كانت الصيغ التي تختلف في الشكل لا تختلف من حيث المعاني، أو أنها تختلف في الحركات فقط، أو تختلف في الأوزان من الجذر نفسه: انظر آربري، ص ٢١ وما بعدها، والتعليقات على القصائد في تلك المجموعة. وتتسم هذه كلها أساسًا بأنها ألغاز، وتفسِّر كثرتُها في الشعر العربي جزئيًا الفتورَ الذي يقابل به الشعر العربي في أعين الأوروبيين.

ويمكن للترجمة الحرفية، سواء تلك التي يُنجزها نحويٌّ غربي أو تلك التي ينجزها الشخص نفسه، أن تضللنا هنا مرة أخرى وتجعلنا ننظر إلى تعبير تكراري ما على أنه أكثر تفاهة أو بربرية مما هو عليه في الحقيقة. لذلك يقول ريكندورف في تلخيصه الفائق للتطور الدلالي لجمل الاستثناء Exceptivsätze [٧]:

"يوجد بعد عبارات الحذف وما يماثله في بعض الأحيان إطناب:

"Nach Ausdrücken des Weglassens u. dg. ergeben sich manchmal Tautologen, wie:

نحو:

". . .أن لا يَدَعَ أحَدًا إلا حبَسَه"

'keinen (laufen) zu lassen, ohne ihn gefangen zu setzen'. . .:

". . . لستُ تاركًا شيئًا إلا عملتُ به".

وكما يوضح ريكندورف فقد طوَّر معنى الاستثناء الأصلي للأداة "إلا" عددًا من التخصيصات الدلالية، وهذا المعنى ليس إلا واحدًا منها وحسب. وربما كان من الممكن مقارنتها بتعاطف أكثر مع مثل التعبير الإنجليزي التالي الذي يمكن أن يوصف بأنه تكراري لكنه غير بربري [الذي تظهر فيه أداة الاستثناء but]:

"He did not flinch, but plunged into the fray"

"إنه لم يُحجِم، بل قفز إلى وسط [المعركة]"

أي أنها أداة للاستدراك (قارن بالأداة الإنجليزية but في كلا المعنيين: الاستثناء والاستدراك).

وللاطلاع على بعض الأمثلة من التكرار التي يُقصَد بها التعبير عن الطرفين في حالة المبادلة reciprocal انظر SV 327 ، ومن ذلك:

"خلَتْ له وخلا لَها"

٦ـ التلخيص Recapitulation

أ ـ التلخيص عبر الجملة: intrasentential:

رأينا بعض الأمثلة في الفصل السابق للتلخيصات القصيرة في داخل الجملة التي تهدف إلى تكوين بنية للجملة يمكن فهمها:

"مُدَّتْ الطاولةُ مَدَّتْها أختُه"

وذلك لتجنب إيراد الفاعل بعد الفعل المبني للمجهول؛

و:

"خرج آدمُ من الجنة فخرج منها"

وهو نوع يتشابه مع النوع التالي.

ب ـ السَّرد:

وقد أوردتُ هذا الصنف رغبةً في الاستقصاء وحسب؛ فهو صنف لا يستعمله المتوسط اللغوي الأوروبي النموذجي ولا العربية استعمالاً واسعا. والبنية التي أقصدها هنا هي أسلوب السرد الشفهي (كما في لغة "الشُّرْبَة") وهو الذي تعاد فيه نهاية الجملة السابقة، بتغيير بسيط، في بداية الجملة اللاحقة بصورة متقطعة وهكذا في النص كله. وأنا أسميه "أسلوبًا" لكنه أسلوب يميِّز نوعًا كلاميًّا معينًا في اللغة تقريبا، ولا يميز الكتاب المعينين. ويمكن أن تقدم التلخيصات، التي تتسم بأنها أكثر وجودًا من حالات الحذف النحوي، غاية جمالية (نحو السَّجع) أو غاية تحليلية (كإعطاء السامع وقتًا لتطوير عقدة يتمتع بها). ولا تعمل العربية ذلك إلا في حالات مخصوصة كما في ألف ليلة وليلة، حيث تلخص بداية ليلة معينة نهاية الليلة التي سبقتها.

التعليقات

(١)ـ وللدقة الاصطلاحية يمكن للمرء أن يميّز نوع Anchises حيث لا يزال من الممكن أن يظل شكل قديم (نحو:kith, vim) قويًا وحيويًا ويدين باستمرار وجوده لارتباطاته، عن نوع koala compounds الذي يركّب فيه شكلٌ احدث الأصلَ الذي جاء منه: فالكلمة الأسبانية fulano التي تستعمل بشكل مستقل (fulano de tal, etc.) جاءت من الكلمة العربية "فلان"، في حين ترجع نهاية كلمة zutano ، سواء أكان أصلها من الكلمة الانفعالية !Zut كما يقترح Corominas (Breve Dicc. Etim., s.v. zutano) أم صيغت من القماش نفسه، للارتباط بـ (fualno).

(٢)ـ قارن بما يقوله مالكيل في مقاله:

Y. Malkiel , "Studies in Irreversible Binomials, in (1968).

(٣)ـ وقد أضاف كوهين D. Cohen(1970:44) مثالاً من اللغة التجرية Tigré، حيث يمكن أن تكون اللاحقة (ـات) دالة على المفرد:

'فحَم' ، 'فَحمات'؛

أو دالة على التصغير:

'فَنوس'، "فَنوسات"؛

كما يمكن أن تأتي صيغة تجمع بين الاثنتين: "فَحمايَت' [هكذا].

(٤)ـ وفيما يلي أمثلة إضافية:

"The dailiest day possible"(Arnold Bennett)

مشيرًا إلى الأمور اليومية جدًّا، أي النوعية المبتذلة: quotidian.

(٥)ـ وإن كان من المؤكد أن مثل هذا موجود أيضا. ومن ذلك قول الشاعر الجاهلي عبيد بن الأبرص:

كم فيهمو من سيدٍ أيِّدٍ ذي نفحات قائلٍ فاعلِ

مَن قولُه قولٌ ومن فعلُه فعلٌ ومَنْ نائلُه نائلِ

. . .

ومثل هذه الأبيات مختصرة موحية، بدلا من كونها إسهابا. وتماثل في قيمتها الجمالية القول الإنجليزي:

"when men were men and women were women. . ."

"حين كان الرجال رجالا والنساء نساء"

(٦)ـ أو "تجنيس". قارن بالصيغة التي تُعرف في السياق الأوروبي بـ polyptoton "جناس الاشتقاق"، نحو:

"Death once dead, there is no more dying"

"حين يموت الموت، لن يعود هناك موت"

(٧)ـ انظر SV no. 234، والقول موجود في ص ٧٢٢.

الفصل الحادي عشر

التخصيص

هناك عدد من الطرق المختلفة منطقيًا يمكن بها لكلمة أن تُحدِّد كلمةً أخرى أو قضيةً ما. كما يوجد عدد من المصطلحات التي تُستخدم في الدلالة على ذلك ـ ومنها ـ التقييد restriction، والتخصيص specification ، والاختصاص specialization ، والتضييق narrowing ، والتسوير qualification، والتحديد (de)limitation ـ لكن ليس هناك طريقة متفق عليها لاستعمال هذه المصطلحات. ذلك أن هناك عددًا كبيرًا من التخصيصات التي تبقى من غير تصنيف، ومن ذلك:

musical voice "صوتٌ موسيقي"

في مقابل:

musical correspondent "مراسلٌ موسيقي"

small car "سيارة صغيرة"

في مقابل red car "سيارة حمراء"

(حيث العبارة small car وحدَها يمكن ان توصف بأن لها معنى تناسبيًا [يبين الأحجام]:

for a car "فيما يخص السيارة")،

small antique vase "مزهرية قديمة صغيرة"

في مقابل: little-old-lady "سيدة مُسِنّة ضئيلة الحجم"

Naturally, he acted "بصورة طبيعية، تصرف"

في مقابل: he acted naturally "تصرف بصورة طبيعية"

وعبارات أخرى لا حصر لها ـ ولا اعني أنها غير نهائية، إنما لا نعرف عددها وحسب، ومنها:

highest bidder

"أعلى مُزايد"

spinal dogs

"كلاب فَقَرية"

intellectual dwarf

"قزمٌ فكريًا"

perfect fool

"غبيٌ تام الغباء"

café chantant

place assise

philologue comparé

"فقهُ لغةٍ مقارن"

. . . إلخ.

وقد اقترح الفلاسفة والنحويون عددًا من التفريعات المختلفة المفيدة. ولكي نقدِّر هذه التفريعات تقديرًا حقيقيًّا ربما يحسن أن نتعامل مع المادة اللغوية بصورة عملية ("أن نُغبِّر أيدينا"، وهو ما نقوله نحن الذين لا نغبر أيدينا، عادة). فيُحافِظ التمييزُ البدائي على التمييز بين النعت الدلالي الوصفي، في مقابل النعت الدلالي الإسنادي: pristine semantic Attributive vs Predicative الذي اقترحه جيتش Geach (في كتابه: Good and Evil "الخير والشر"، الذي أعاد نشره وحرره Foot بعنوان: Theories of Ethics "نظريات الأخلاق") تأسيسًا على بعض الأمثلة القليلة الواضحة، نحو: small elephant "فيل صغير" و: red book "كتاب أحمر"، على فائدته في رسم مرتكزات معيارية محدَّدة لكن هذه المرتكزات سريعًا ما تكشف لنا أنها ليست جامعة مانعة حين نحاول معالجةَ حالات مثل: white skin "أبيض البشرة"، والاختبار الذي صاغه على هيئة: 'X is Adj and X is Noun' ("أ" صفةٌ و "أ" اسم)، وهو يشبه اختبار but "لكنّ" أو أي اختبار شكلي آخر مما يبدو كأنه معيار صالح نظريًا لكنه يَفشل عند تطبيقه على بعض الحالات الواقعية، حيث ينحدر من كونه معيارًا ليصير وسيلة اعتباطية. وبالكيفية نفسها، يبدو التفريع:

musical voice/ musical correspondent

'صوت موسيقي'/ 'مراسل موسيقي'

أقل تحديدًا حين نتفحص أمثلة مثل:

"آلة موسيقية"	musical instrument
"فاصل موسيقي"	musical interlude
"عبقرية موسيقية"	musical talent
'كراسٍ موسيقية"	musical chairs
'فاكهة موسيقية"	musical fruit

... إلخ.

وسنحاول في هذا الفصل أن نتعرف عن قرب منظومةً من التعقيدات الصرفية الدلالية في العربية، وهي المعروفة بـ"التمييز"، الذي سوف أترجمه (شكليًا ودلاليًا) بـ: accusative of specification ، 'منصوب التخصيص' و(دلاليًا) بـ specification "التخصيص" متابعًا في ذلك استعمال أغلب المتخصصين في اللغة اللاتينية لمصطلح ablative of specification) "حالة المفعول فيه للتخصيص") ودارسي العربية ابتداء من دي ساسي II 523 (وإن استعمل دي ساسي هذا المصطلح بشيء من العمومية، قارن II 77)، ورايت وهُول[١]. وكم يكون جميلاً لو عثرنا على مصطلح أكثر إيحاء، لكن المصطلح الذي اخترناه سيكفينا الآن.

وربما كان من الممكن تسميته بـ "فصيلة" صرفية - دلالية أو 'نمط'، إلا إنه، على خلاف أسماء النوع في العربية nominal of manner مثلاً، لا يبدو واضحًا في كل الأحوال ما الذي يمكن أن نعده 'تمييزًا' على وجه الدقة، كما أن الوظائف الدلالية التي يُنجزها ما يسمى تقليديًا بـ"التمييز' متنوعة بعض الشيء. ومن هنا فقد أسميته بالمنظومة

complexus. وربما كان من الممكن أن نتحدث عن "تمييز" مركزي أو نمطي، في الأقل، كما في:

"طاب الوردُ لَوْنًا"

فيُجيب التمييزُ "لونًا" عن السؤال: "بأي شيء صار الورد فاتنا؟" فهو لا يقول شيئًا عن درجة طيب الورد كما تعبِّر الكلمة الإنجليزية very "جدا" في عبارة: very lovely "فاتن جدًا"، كما لم يُحدِّد طيبُه بنسبته إلى أي شيء خارجي (كأن نقول: "في رأيي"، أو "في نظر ماري"، أو "في إبّانه")، وهو لا يبين لنا مباشرةً عن نوعية طيبه، كما في: eerily lovely "فاتن بشكل غريب"، أو baroquely lovely "فاتن بشكل غير معهود"، فهذا هو استعماله، وهذا هو المجال الذي يوجد فيه هذا الطِّيب.

ولا يتمثل المميِّزُ الآخر لهذا التركيب في كونه دلاليًا بقدر ما يتمثل في كونه "بلاغيًا". وتتمثل الملاحظة عن طيب لون الورد أساسًا في صياغتها بتعبير يأخذ شكل جملة تامة ـ "طاب الورد" ـ متبوعة بفضلة على شكل اسم منصوب من غير أن يكون نصبُه نتيجة لعمل عامل كما في الحالات المألوفة ـ انظر الأمثلة التي سأوردها فيما بعد حيث يتبين أنَّ عامل هذا النصبِ صفةٌ أو اسم (وهما اللذان يَجرّان ما يتبعهما حين يعملان في أي شيء). ويفسِّر الشربينيُّ التمييزَ (كما ورد في كتابه الذي حققه كارتر: Arab Linguistics, p. 384) كما يلي:

"والباعث على ذلك أن ذِكرَ الشيء مُبهَمًا ثم ذكره مفسَّرًا أوقع في النفس".

أي أنه أكثر وقعًا من تشفير الفكرة الأساسية نفسها في جملة تخلو من التمييز. إذ سيكون هذا التشفير على صيغة:

"طاب لونُ الوردِ"

ويورد الشربيني مثالين آخرين يسميهما "تمييزًا" كذلك، مع أن دلالتهما تبدو مختلفة بعض الشيء:

"تصَبَّبَ زيدٌ عَرَقًا"

وترجمها كارتر بـ: Zaid dripped with sweat ، بدلاً من: Zaid dripped sweat (بل إن الصيغة الفعلية "تفعَّل" التي جاء عليها الفعل: "تصبَّب" تؤخذ بصورة أكثر طبيعية على أنها صيغة غير متعدية)، والجملة الأخرى هي:

"تفقَّأ بَكرٌ شَحْما"

ويقول الشربيني، متابعًا للنحويين السابقين، إن هاتين الجملتين مشتقتان، على التوالي، من:

"تصبَّبَ عَرَقُ زيدٍ"

و:

"تفقَّأ شَحْمُ بَكرٍ"

ويقال إن هاتين الجملتين هما "الأصلان الُمجرَّدان" أو underlying forms للجملتين اللتين يظهر فيهما التمييز.

***

والسؤال الآن هو: لماذا ندرس "التمييز" حصْرًا، بدلاً من أن نعالج مشكل التحديد modification بصورة "مباشرة"؟ والجواب عن هذا أننا رأينا فيما تقدم، وسوف نرى في الفصل القادم، أن مناقشة الدلالة بصورة تجريدية صعبةٌ (وإن كانت توحي بالسهولة الخادعة)، وأن الصرف المهذَّب well-profield يمكن أن يَجعل مهمتنا أسهل شيئًا ما. ذلك أنك لو سُئلتَ، مثلاً، هل في الإنجليزية أسماء للنوع، أو أسماء للتقدير estimative، أو للنزوع conative، فمن المحتمل أنك ستفكِّر طويلاً قَبْل أن تعثر على الجواب. غير أن وجود صيغة صرفية دلالية يمكن أن يوفِّر لنا وسيلة محسوسة لتناول الدلالة. وحين نصل إلى ذلك المجال يمكن لنا أن نستغني عن تلك الوسيلة: فهناك تطورات غامضة لا حصر لها مما تغطِّيه صيغٌ شكلية مثل: < فِعْلَة >، و< فَعْل >، وصيَغ < الأسماء المنصوبة >، لكن يلزمنا أن نشق طريقنا عبر هذه الصيغ لكي نكتشف هذا الواقع بصورة واضحة.

***

من المألوف في الأنحاء الوصفية أنه بعد استكمال وصف الظواهر الأساسية في لغة ما يتناول الوصفُ بعض التراكيب الهامشية فيها كأنه بحث مستقل ثانويّ، وذلك مثل وصفِ تراكيب نحو: "المفعول غير المباشر للقَصْد" dative of interest و ablative absoulte "مفعول عنه مطلق"، والتمييز، والنعت السببي، والتعجب، والإضافة غير الحقيقية. وتصوِّر هذه الطريقة في بعض الأحيان الأمرَ على حقيقته: فبما أنه يُحتَمَل أن تقتصر كلمةٌ ما على الظهور جامدةً في بعض التراكيب المَثَليّة المعزولة بسبب ندرة استعمالها فذلك ما يؤدي إلى فقدها لتاريخها. لكنْ كما أن الكلمات لا تنشأ، عادة، في التعبيرات المَثَليّة، فكذلك لا يحتمل أن تكون التراكيب المعزولة قد نشأت بهذه الكيفية. وبدلاً من ذلك سوف تحاول اللغةُ القيامَ ببعض المهام الدلالية المحدَّدة، ويحتمل أن يكون ذلك بطرق متعدِّدة جدًا، وهي المهام التي يمكن أن تتداخل. وحين ينجح بعض هذه المهام نجاحًا لافتًا يمكن له أن يتقوّى، بل يمكن أن يكون سببًا في إضعاف نُموِّ بعض الجوانب الأخرى للمهام الدلالية نفسها، وهو ما يشبه وضعَ بعض الأشجار القوية الأشجارَ الأخرى الأقلَّ قوةً منها في ظِلِّها؛ أو أن تقوم هذه المهام بتشكيل البنى الدلالية المتنوعة على مثالها، وهو ما يشبه محاولة كثير من المذيعين التشبُّهَ بـ [المذيع السابق في شبكة سي بي إس الأمريكية] وولتر كرونكايت.

وسأبدأ بما يبدو كأنه جوهر متجانس للشكل والدلالة ثم أقوم باستكشاف ارتباطاته المختلفة بالبنى الأخرى الشبيهة وإن لم تكن مماثِلة ـ وهذا أمر ضروري، لا سيما إن أردنا المقارنة بالمتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي، ذلك أن هذه اللغات لا تكاد تستعمل التركيبَ المنصوب للتمييز مطلقًا. ويعني هذا أنه كلما تعمقنا في البحث سنكتشف أن البنى التي تكاد تكون تمييزًا يقل تشابهها بعضها ببعض. وينشأ معظم الاضطراب من طبيعة هذا التركيب. فقد وجدنا فيما يخص "الشكل" في الفصول التي خصصناها للمعجم أن من السهولة بمكان أن نتتبع الأمر بدقة: ذلك أننا نجد، في كل حالة، أن هناك مبدأ جماليًّا مفردًا محسوسًا يَعمَل مَحَلّيًا. أما في التركيب فنجد قدرًا أكبرَ من الأخذ والعطاء من حيث الاقتصاد اللغوي: حيث نجد "أن كل شيء يتآلف" tout se tient ، وإن كان بطريق خفية بعض الشيء.

أخوات التمييز وبنات عمّه

١ـ التعريف وبعض الأمثلة:

ونبدأ النقاش منطلقين من الجوهر المتضام والمطرد نسبيًا في مجال ما يسمى بالتمييز، ثم نحاول اكتشاف الخيوط الدقيقة التي تربط هذا التركيب بالبنى الأخرى في النحو العربي، وفي التراكيب الشبيهة به في اللغات الأخرى كذلك.

ونفترض أن بنى التمييز النموذجية هي تلك البنى التي تحقّق الشروط التالية:

أ ـ من حيث الشكل:

فهو من حيث الشكل اسم مفرد نكرة منصوب[1]، ويظهر كأنه اختياريٌ من حيث التركيب، ويسمى فَضْلَةً ويأتي في نهاية الجملة غالبا، وليس مفعولاً لأيِّ فعل. ويسمى هذا الاسم بـ "المُمَيِّز".

ب ـ من حيث الدلالة:

ويضيف هذا الاسم تحديدًا نوعيًا لكلمة أخرى أو عبارة أخرى في الجملة (وتسبقانه غالبًا)، وتسميان بـ"المميَّز".

ويُسمي فليشر (ج١ ص ٤٧١) المميِّزَ (أي "التمييز" بمعناه الأضيَق) بـ: "عبارة التمييز النكرة المخصِّصة" indeterminierter specificirender Beziehungsausdruck.

ويمكن، في الغالب، فَصْلُه دلاليًا: فنجد في عبارة "الله أكبر" أن قوة الله واحدة من مظاهر عظمته؛ كذلك فالورد بمجموعه جميل، لكننا نُفرِد لونه؛ والمرأة طَيِّبَةُ الرُوح يمكن أن تكون طيبة بمعايير أخرى، أو طيبة بمجمَلِها.

(ويمكن في بعض الأحيان أن تُنتهك بعضُ الظروف الخاصة هذا الاستقلال الجزئي. ففي:

"ولا تَزِد الظالمين إلا تبارا".
(سورة نوح، الآية ٢٨)

يَجعَل إدخالُ "إلا" كلمةَ "تبارا" مما لا يمكن الاستغناء عنه تركيبيا.

كذلك يمكن أحيانًا أن يصبح تركيبٌ تمييزيٌ ما تعبيرًا مَثليًا، وذلك كما في "طاب نَفْسًا" التي صارت تعني "رَضِيَ"، و"طاب نَفْسًا عن"، أي: "رَغِب عن").

بعض التنوعات من التركيبات المُمَيزَة:

ويمكن أن يكون العنصر المُمَيِّز صفة:

"الوردُ طيِّبٌ لَوْنا"

"اللهُ عظيمٌ قُدْرَةً" (De Sacy 1178)

"طيِّبةً نَفْسا" (Socin-Brokelmann 143)

كما يمكن للمُمَيِّز أن يكون فعلا (وغالبًا ما يكون فعلاً سُكونيًا stative):

"طاب الوردُ لونا"

"اختلفوا لُسْنا" (ابن عنين، في: آربري)

"حكى الظبيَ حُسْنا" (Brinner, chronicle 184)

"كفى بالله شهيدا" (سورة النساء: الآية ٨١)

ويمكن أن يأتي المميِّز على صيغة "أفعل" التفضيل بدلاً من كونه صفة موجبة

"أنتَ أعلى منزلةً وأكثرُ مالا" (رايت ٢، ص ١٢٢)

"ما رأيتُ أعرابيًا أشد ضِرْسا" (Blachère/Gaudefroy 328)

"أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفرا" (الكهف: الآية ٣١)

"خيرًا منه زكاةً وأقربَ رُحْما" (الكهف، الآية:٨١)

"إنَّك واللهِ لأكرمُ منهم أبا" (Cantarino 11, 479)

"في أكثرها ماء" (AS 94)

"أحسن مقيلا" [الفرقان، الآية ٢٤] (Socin-Brocelmann134)

"كان. . .أبسطَ ما يكون وجْها" (رايت SV 608)

"وَمَيَّةُ أفضلُ الثقلَين جيدا" (رايت ج٢، ص٩٠)

"السيفُ أفصحُ من زيادٍ خطبةً" (منرو ١٩١)

ومع بعض المكوِّنات التي يمكن حذفها بعد المميِّز:

"لم أكن بأسوأ ذنْبًا إذ أتيتُك من وَرْد" (AS 535)

ونجد هنا أن المُميِّز لا يمكن فصله دلاليًا غالبا، بل لا يمكن حذفه تركيبيًا في غالب الأحيان. (انظر الجملة المشكوك فيها: "؟؟هو أشدُّ". التي لا تستعمل إلا إن كانت صيغةَ للتفضيل المجرد لـ "شَديد"). ولا يُميِّز تمييزُ التفضيل المجرد غالبًا، نعتًا سابقًا عليه بمعنى تحديده أو إظهار المدى الذي يتحقق به، لكن يمكن أن يعطي أولاً معنى حقيقيًا للمُمَيَّز. وهذا واضح حين يُحتمل أن يكون المُمَيَّز غامضًا لولا ذلك، وهو ما يماثل كلمة very [في الإنجليزية]، أو كما في:

Behold the first in virtue as in face
(*Rape of the Lock*, V. 18)

"هو الأول حقًا في القيمة كما في المظهر"

ويصح هذا في صيغ التفضيل المجرد نحو: أسود، وأكثر، وأول.

ويبدو هذا غريبًا شيئًا ما في محاولتنا رسم صورة واضحة لمدى التمييز وأشباهه. فنحن نطمع أن نجد تركيبًا جوهرًا وبعضَ الانحرافات المختلفة عنه ـ بما يُشبه الظِّلَّ وشِبْه الظل. غير أن تمييز التفضيل المجرد، الذي ينحرف دلاليًّا شيئًا ما عن النمط النموذجي الذي افترضناه، هو النمط الأكثر شيوعا. وسوف نلحظ في القسم التالي أن المُخصِّصات التي لا يمكن تصنيفها تحت التمييز، مما يَوَدُّ بروكلمان وريكندورف ضَمَّه للتمييز، تظهر بعد أفعل التفضيل.

وأحد الأسباب التي جعلت تمييزَ التفضيل راسخًا جدًّا هو أنه لا توجد طريق أخرى في التعبير عنه، على العكس من أنواع التمييز الأخرى التي رأيناها. وقد رأى النحويون

العرب أن التمييز المألوف إما منقول عن فاعل لفعل الجملة أو مفعوله (رايت ج٢، ص ١٢٣)؛ لكن بعض الصفات، في *العربية* تحديدا، لا تأتي منها صيغ التفضيل، وذلك لأسباب شكلية. فالصفة "أحمر" تأتي، نفسُها، على وزن أفعل التفضيل، فإذا أردت التفضيل من هذه الصفة يَلزَمك أن تستعمل صيغًا مثل "أشد حُمْرة"، و"أكثر. . . حمرة". وبما أن هناك طريقًا آخر للتفضيل يمكن لك اختياره فإن البنية الناتجة تُشعِر بأنها تمييز أكثر من كونها اتّباعًا للطريقة المعهودة في صياغة أفعل التفضيل يشبه: "كبير > أكبر". وهو وضع يشبه ما نجده في الإنجليزية تقريبا. فأنت لا تستطيع أن تقول: qualifieder*، مع أنه يجوز لك أن تستعمل إما more qualified "أكثر تأهيلا" أو better qualified "أفضل تأهيلا". وستكون صيغةُ التفضيل التي تختارها متأثرة بطبيعة النوعية التي تريد أن تقارنها، مثل: "أنتم أحسن الناس حظًا"، و"أنتم أكثر الناس طمعا" (وكلاهما مأخوذ من كانتارينو ج٢ ص ٤٧٩).

ومن الطبيعي أنه لما كان تمييز التفضيل المجرد يُمثّل أحيانًا ضرورةً بدلاً من كونه اختيارا فإنه لا ينجح في الإبانة عن الوظيفة الدلالية التي يستطيع التمييزُ أداءها بكفاءة. لذلك ستكون أيةُ دلالة تمييزية ربما يؤديها هذا النمط احتمالا نتيجةً للقياس.

ثم ما القيمة الدقيقة للتمييز؟ فيمكن لنا أن نقول: "طاب لون الورد" وكفى. والإجابة عن ذلك هي أن المميِّز، لأنه لا يظهر في موضع غير مربوط بالجملة ربطًا ضروريًا، أكثرُ طواعية. ولا يتضح هذا في الإنجليزية حيث يمكن أن نقول: The scent and color of the rose are lovely "رائحة ولون الورد طيّبان"، أما في العربية، وفي الفصحى خصوصًا، فلا نستطيع أن نقول: "*ريحُ ولونُ الورد طيبٌ" أو "طيّبان"، أما ما يمكن أن نقوله فهو: "الوردُ طيبٌ ريحًا ولونا" (دي ساسي ج ٢، ص ٥٢٤). ومن المؤكد أن هناك طرقًا لقول ذلك بغير استعمال التمييز، لكن هذه الطرق تتطلب نُسَخًا غير ملائمة من الضمائر، أو يمكن أن تُفصل العبارةُ الجَرِّية عن رأسها المنطقي، وتتطلب كلُّها بأية حال بعضَ التأمل، فيما يمكن أن تُعبِّر، باستعمال التمييز أو أية بنية "بدَلِيَّة" (على صورة مكوِّن فضلة في نهاية الجملة)، عن جوهر فكرتك ثم تهتم فيما بعد بمعالجة التسويرات qualifications كما تريد. ومن أمثلة تعدد التمييز:

"وتمت كلمة ربك صدقًا وعدلا" (الأنعام، الآية: ١١٥)

"ساءت مستقرًا ومقاما" (الفرقان، الآية: ٦٦)

"اشرف الأشراف نفسًا وأبا" (مونرو، ص ١٥٩)

"يقلدونه أسلوبًا ومعنى" (كانتارينو، ج٢، ص٢٦)

"أشدّهم عُجْبًا بِغَدْوِه" (AS 95)

"كانت أكثرهن اهتمامًا بالمبارزات" (كانتارينو ج٢، ص٤٧٩)

"She was the most concerned of them all with the duel"

"هي أكثرهم اهتمامًا بالمبارزة الثنائية"

وفي الترجمة الإنجليزية لهذا المثال هناك عبارة جَرِّية مفصولة عما تتعلق به [with the duel]، وهو ما يشي بضآلة الاطراد التركيبي للتمييز في الإنجليزية. ويمكن أن تُترجم حرفيًا على النحو التالي:

She was the greatest of them (in respect of) concern about the dual

ونجد طه حسين (الأيام، ج٢، ص٤٦)، في المثال التالي، يستعمل سلسلة من صيغ التمييز المتوازية، يتكون بعضها من عبارة اسمية تمييزية، وبعضها من أسماء بسيطة، وهي التي اختار مترجمه "وايمنت" أن يفصلها بينهما:

"فهو أسرعُ الناسِ خاطرا، وأظرفهم نكتة، وأطولهم لسانا، وأخفهم دعابة، وأشدهم تتبعًا لعيوب الناس، وأعظمهم إغراقًا في الغيبة"

واسما التفضيل المجردان الأخيران واضحان دلاليًا، وهو ما يسمح بتأويل التمييز المعقّد نِسْبِيا.

ونعدُّه نوعًا من الخروج على الفعالية البنيوية الأساسية للتمييز أن يكون هناك تنوع في ترتيب الكلمات، حيث يمكن أن تُنقل الكلمات إلى موضع المكوّن النهائي أو منه:

"أولُ أهلي بي، لُحوقا Ø، " (AS 229)

[أولُ أهلي لحوقًا بي]

"قومًا أقلَّ به، منّا فخراØ،" (AS 393)

[قومًا أقل فخراً به منا]

***

العدد في التمييز:

لهذا يمكن أن يكون المميِّز ببساطة معقَّدًا أو نحتا ـ لكنه قلما يكون جمْعا:

"هل ننبؤكم بالأخسرين أعمالا" (الكهف، الآية ١٠٤)

وهذا المثال كأنه مخالف للدرجة العالية من التنكير التي يتسم بها التمييز (انظر القسم التالي). وربما صح لنا تخيُّل أن الجمع المنصوب هنا يقوم مقام الفكرة الفعلية التي يقوم عليها التفضيل المجرد، لكن لا يوجد من حيث الدلالة ما يُفسِّر السببَ الذي يوجِب ألا يكون التمييزُ جمعا، لا سيما في مثل هذه الحالة، كما في الإنجليزية، قارن كلمة: works بوصفها اسمًا مبنيًا للجمع Pluralira Tantum، نحو:

"ألأمُ نارٍ مُصطَلِين ومُوقدِين"

وهي نوع غير نمطي. قارن هذا بـ: "يومًا كان أكثرَ باكيا" (AS 94)

ويوحي هول (ص٢٩١) بأنه يبدو أن النحويين العرب القدماء يجيزون أن تكون المميِّزات مثنى أو جمعا:

"طاب زيدٌ أبا/ أبوَين/ آباءً/ أبوةً"

لكن النحويين العرب القدماء، شأنهم شأن محللي الإنجليزية الكبار في عصرنا الحاضر، مغرَمين بقدر كبير من الاختراعات القياسية، ويبدو أن هذه الحال واحدة منها، على العموم. أما :

"رُبّه فتيةً دعوتُ. . . فأجابوا"

فيقول عنها كارتر (١٩٨١، ص: ٤٥٢): إن "فتيةً" عنصر مُمَيِّز، وهي جمع بسبب الضرورة الشعرية". وليس للعدد أهمية في مثل هذا التركيب، لأن "رُبَّ" تؤدي فكرة العَدد؛ وذلك ما نجده على وجه الدقة في الإنجليزية التي يمكن أن يترجم بها المثال بصيغة:

How many youths have I called. ..

How many a youth. .

أو:

***

تمييز التعبيرات التركيبية المَثَليَّة:

ومع أن المنصوب النكرة في عبارة "رُبَّ" التي ناقشناها توًا يسمى في الغالب "تمييزا"، إلا أنه لا يبدو مُلحقًا يمكن الاستغناء عنه بعد سلسلة لها شكل جملة تامة. فلا يمكن لـ"رُبَّه" أن تأتي بمفردها بصفتها جملة، بل هي نوع من "رُبَّ" يليها ضمير الشأن، بعد حذف الجملة، شأنها شأن "إنّه" من "إنَّ"؛ ثم إن الطريقة الغالبة لقول: "رُبَّه رَجُلاً" هي "ربَّ رَجُلٍ". حيث يكون ما بعدها مجرورا.

وهناك بعض التعبيرات الانفعالية الأخرى التي لا يبدو انتسابها لأي قسم من أقسام الكلام واضحا، وهي التي يمكن أن تأخذ نكرةً منصوبة تبدو كأنها ملحَقة أكثر من كونها مفعولاً مباشرًا، مثلا (وهو الذي ليس عليه قيود من حيث التعريف أو العدد)، لكنها لا تزال أقل استقلالاً من التمييز النموذجي. لهذا نجد بالإضافة إلى:

"نِعْمَ الرجلُ زيدا"

أمثلةً مثل:

"نعم زيدٌ رجلٌ"

ومن الأمثلة الأخرى:

"ما أحْسَنَه غِناءً وما أغْرَبَه" (كانترينو٢١٢)

(وهنا يمكن لـ"ما أحسنه" أن تأتي بمفردها بمعنى:

How beautiful it is!

"كم هو جميل"

"أكْرِمْ بِهِ أصْفَرَ راقَتْ صُفْرَتُه"

(Fleischer 1 659 قارن بـ De Sacy 11 219)

"إنَّ غَيْرَها إبِلاً وَشَاءً"

(والمثال من سيبويه نقلاً عن إيريل بلوخ [هارون، ج ٢، ص ١٤١]).

٢ـ تنكير التمييز:

يعرِّف رايت (ج٢، ص ١٢٣) التمييز بقوله: "هو اسم نكرة يأتي مباشرة بعد قضية يُخصِّصها أو يُعيِّنها". ويقول سوسين وبروكلمان (ص١٤٣):

"تبعًا لنموذج المبني للمجهول. . . يأتي المفعول به بعد الأفعال الناصبة لمفعولين، غير معرَّف في الغالب. كما تحتاج الأفعال اللازمة أيضا إلى تخصيص [اسم منصوب] هو التمييز. . " Nach dem Muster der Passiva der

. . doppelt transitiven Verba tritt der Akkusativ, enbenfalls meist indeterminiert, auch zu intransitiven Verben, um eine Spezifikation, *tamyīs*. . . .

كما يقول ريكندورف في AS 96 :

"الاسم المنصوب الذي يقوم بدور التخصيص هو في الغالب نكرة. لكنه يأتي معرفة أحيانا، كما في:

Der Akk. Der Spezialisierung ist meistens indeterminiert.
Determiniert: (Rein)

"الغُلْبُ الرِّقابا"".

ويرى نولدكه (fn. to p. 39 of *Zur Grammatik*)، أن بعض الحالات النادرة التي نجد فيها اسمًا منصوبًا معرفةً بمعنى تمييزيّ، نحو:

"صَدَدْتَ وَطِبْتَ النَّفْسَ يا قَيسُ عن عمروٍ"

جاءت بسبب الوزن. ويقول كانتارينو (ج٢ ص ١٨٤) جازمًا، فيما يخص العربية المعاصرة: "إن التمييز يأتي اسمًا نكرةً، دائما".

ويورد بعض النحويين العرب بعض الأمثلة من التمييز المعرفة، نحو:

"غَبِنَ رَأيَه"

في حين يحاول آخرون تحليل هذه الأمثلة بشكل مغاير (هول، ج١، ص ص ٢٨٣_٢٨٤).

أما البيت الذي يتضمن الشطر:

"فأنت أبيضهم سربال طباخ"

(حيث تبدو "سربال" شبيهة معرفة بالإضافة) فيشك بأنه مصنوع لغرض البرهنة على مسألة نحوية مختلفة ـ وهي استعمال كلمة "أبيض" صيغة تفضيل مجرد. ومهما كان نصيب هذا من الصحة فإن العبارة تستعمل بصورة بارعة الوسائل البلاغية للتمييز، ذلك أنه فيما تتمتع كلمة "أبيض" بصورة عامة ببعض الارتباطات المفضلة، إلا أن البيت بصورة عامة يتسم بالسخرية، إذ يقتضي أن سيد الطباخ بخيل، فيما يكون طباخو الآخرين متسخي الثياب بسبب الخدمة. (ومن هنا فالعبارة مكثفة لكنها لا تزال ذات وجهين وهي شبيهة ببطاقات التهنئة التي يقصد بها النكتة، حيث تعكس العبارات الداخلية فيها العبارات التي توجد على غلافها الخارجي).

ولن نشغل أنفسنا هنا بالحدود غير البينة لهذه التصنيفات، لكننا سوف ننصرف إلى تفحص الكيفية التي يقوم بها تنكير التمييز بوظيفته.

ويمكن أن يتبين النزوع إلى التنكير في التمييز من بعض الأمثلة التي ربما نتوقع، معجميًا، أن نجد فيها صيغة المعرفة. فالكلمة التي تدل على الكرَم هي "الكرَم"، ومع هذا فالمستعمَل هو: "أبرحتَ كرَمًا" (رايت، ج٢، ص ١٢٢)، لا: "أبرحت الكرمَ". فبدلاً من ظهور "المميَّز" مضافًا إليه، كما يحدث لـ"المصدر" غالبًا حين يُتبع بمفعوله المنطقي [في تركيب الإضافة] (ويتماثل المصدر من حيث القيمة مع ما يسمى في الإنجليزية بـ "المصدر المذيَّل" gerund of infinitive)، نجد المميِّز يعمل فيه النصب، ذلك أن ظهوره في موقع الاسم الأول في تركيب الإضافة يُكسبه شيئًا من التعريف. لهذا نجد أمثلة كالتالي:

"آخرُ أهلِ النارِ دُخولاً الجنةَ" (AS 172).

وبالمثل (أو بالصدفة؟) نجد التنكيرَ في التعابير التي تتضمن أفعالاً تنصب مفعولين، التي سنناقشها في القسم السادس، حتى حين يوحي كونُ المفعول الذي وقع عليه الفعل

اسمًا للنوع باستخدام أداة "التعريف" العهدية (<ال> لتعريف الجنس) (وهي التي يمكن أن تقارن بالأداة the في الإنجليزية في مثل:

The unicorn is said to be terrestrial equivalent of the narwhal, but I've never seen One.

"يقال إن وحيد القرن هو الشبيه الفضائي للكركدن، لكن لم يسبق لي أن رأيت واحدًا منها"

وذلك كما في:

"لقد بَدَّلْتَ رَبِيعَنا شتاءً"

you turned our spring to winter

"يُحَوِّلُ النحاسَ ذهبا"

"transforms copper into gold", 'change *le* cuivre en ø or' (Cf. "L'or/Or est un métal précieux")

"إنَّ الدموع لتجعل الرجلَ أنثى"

'Tears make *a* man into a woman.'

(حيث تُستخدم أداة التعريف لاستغراق الجنس).

ولا توضِّح الترجمةُ الإنجليزية هنا التنكيرَ الفارق الذي نجده في العربية والفرنسية بين الشيء المؤثِّر فيه والحال التي صار إليها. فيمكن للاسم المؤثِّر، لا المفعول المؤثِّر فيه، أن يُضَمَّن في الفعل: feminizes a man ، "يؤنِّث الرجلَ". وهو ما يماثل الصفة: makes it cold "تبرِّده"، chills it "تثلِّجه"، في الإنجليزية، "جَعَلَه حَسَنا > حَسَّنه". (وسنناقش هذه الأفعال المتعدِّية في الفصل التالي). وليس في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي ولا في العربية طريقة تبلغ حدًّا معقولاً من العموم لتضمين التمييز في الفعل، ومع هذا يمكن أن نشعر بأن هذا مما يمكن لِلُّغة أن تنجزه ببساطة، بل إننا نجد في المتوسط اللغوي الأوروبي النموذجي بعض الأمثلة القليلة منه:

imitates him in speech - > echoes him

"قلَّده من حيث الكلام"

imitates him in gesture ->mimics him

"قلده من حيث التأشير"

(وربما جاز القولُ بأن هذه الأفعال يمكن أن تتخصص من حيث المبدأ بهذه الطريقة).

imitate s. o. in style of writing -> jdm. Nachscheiben,

"قلّد شخصًا ما في أسلوب كتابته"

nachdichten.
surpassess him in singing -> outsing him

"بزّه في الغناء"

resembles him in tone/appearance/odor/. . . ->
sounds/looks/smells. . . like him

"أشبهَه في نغمة كلامه/ في مظهره/ في رائحته. . . " أي: "يتكلم بصوت/ يتمظهر بمظهر/ وله رائحة . . . مثله"

this land is rich in oil -> . . . is oil-rich

"هذه الأرض غنية بالبترول"

(ومثلُها تعبيراتٌ مثل:

rich in experience –experienced, deficient in tact -> tactless, etc.

'غني في التجربة ـ مجرِّب، فقير الذوق')

وعدد من هذه الأنماط مطّردة إلى حد كبير.

وليس من الممكن أن نقارن مباشرة بين اطراد تضمين التمييز واطراد تضمين المتأثر، ذلك أن هناك عددًا من الأنماط التي يوجد فيها المسنَد إلى يسار السهم في حالات التمييز؛ وبصورة عامة فإن الفعل العام make وأشباهه هو الذي يمكن أن يُضمَّن المتأثر (سواء أكان ذلك حالة أم شيئا) من أجل أن يُنتِج تعبيرًا متعدِّيا (فالتعبير flattened it "يسوِّيه على شكل مُسطَّح"، لا يميِّز بيْن عمليات التسوية التي تتم بالطُّرُق التي يعبر عنها بالعبارات: pounded it flat, rolled it flat, 'sat it flat', etc.). وإذا لم يُوحِ الصرفُ بحقيقةٍ مشتقة للنمط المضمَّن ـ فهل توحي populous "كثيرة السكان" باشتقاقها من rich in people 'غنية بالسكان'، وwise "حكيم" من rich in wisdom "غني من حيث الحكمة"؟ـ فسوف نبقى في وضع غامض. فهذه الحال شبيهة بمجال المشكلة القديمة لقضية إن كان الفعل kill "يقتل" مشتقًا من: cause-to die 'يتسبب في الموت'. وللاطلاع على مناقشة مثل هذه الحال، انظر بداية الفصل التالي.

وربما كان جديرًا بالاهتمام أن نقارن الكيفية التي تُضمَّن بها اللغاتُ المختلفة التمييزَ ـ فيوجد في الإنجليزية والألمانية بعض القواعد المطّردة إلى حد بعيد لإنتاج مثل هذه التراكيب، وتقصُر الفرنسيةُ عنهما إلى حد بعيد كما هي العادة، أما العربية فتفتقر، على غير العادة فيها، إلى أية وسيلة لإنتاجها ـ لكنَّ المسألة التي نحن مهتمون بتوضيحها هنا هي أنَّ المميِّز بطبيعته نكرة من نمطٍ مخصوص للنكرة. (ويمكن أن نلاحظ أيضًا أنه حين يكون المميِّز محتًا أو معقّدا، يصبح التضمين مستحيلاً بصورة عامة:

surpasses him in singing arias -/-> *outsing arias him,
*outariasing him;

"يتفوق عليه من حيث غناء الألحان"

وربما كان من اللازم أن يُترك arias في مكانه بصفته مميِّزا:

outsings him in the area of arias.

وبالمثل مع المؤثَّر فيه:

made him rich in oil -/-> *oil-enriched him

"جعله غنيا بالبترول"

made it flatter than a pancake -/-> ?*flattened it more than a pancake).

"جعله أكثر استواء من استواء القرص"

ولا بد لنا من الاعتراف بوجود درجات متعددة من التنكير في أية لغة. ولا يُسهم الاندماج الظاهري في تسهيل تحليلنا لهذه المسألة؛ لاحظ المثال التالي:

I'm looking for an honest man.

"أبحث عن رجل أمين"

إذ يمكن أن نجد المعاني المحتملة التالية التي تتدرج من أكثرها معرفة إلى أقلها:

أ ـ فيمكن أن يكون المقصود به فلانا (وفي هذه الحال فإن للتعبير: an honest man مرجعًا مفرَدًا محدَّدا، لكنه لا يزال أقل معرفة من:

the honest man I told you about

"الرجل الأمين الذي حدثتك عنه")

ب ـ ويمكن أن يكون المقصود به أيُّ رجل يدفع ثمنَ ما اشتراه حين كنتَ خارج المتجَر لكنه ترك محفظةَ نقوده في أثناء ذلك (فهي عبارة مُحيلة، وتشير إلى مفرد احتمالا، لكنها لا تشير إليه إلا عبر صفة)

ج ـ ومن الممكن أن يكون أي واحد ملائمًا ليرأس اللجنة (وهي في هذه الحال وصفية خالصة، حيث لا يكون للعدد صلة، ذلك مع أن واحدًا فقط هو الذي أُشيرَ إليه، فهي شبيهة بـ each "كل" في مقابل every "أية")

د ـ إن كان من المحتمل أن يكون هناك من يتصف بالأمانة؛ أي كنت تبحث لتجد إن كان هناك أمينٌ من بين أفراد جنس البشر.

ومن المحير بصورة مماثلة أنه حين يمتد التنكير إلى مدى أبعد بحيث يمكن أن ينطبق كلامُنا على أي فرد من أفراد الجنس، يمكن أن ننتقل من غير أن نشعر إلى الكلام عن الجنس كما نتكلم عن الفرد، لذلك يمكن لنا أن نستعمل أداة التعريف:

A horse will usually keep working if you feed it.
The horse is among the most patient of animals.

وهو ما يشبه الجملة العربية:

"الفَرَسُ مِنْ أصْبَرِ الحيوان"

أما في التمييز، فما يظهر هو درجة كبرى نسبيًا من التنكير، ذلك على الرغم من قُرْبه من تخصيص الجنس، الذي يأخذ في الغالب الأداة <ال> (وإن كان هذا لا يحدث في: "أفضلُ رجلٍ")، وذلك كما في:

"خُلِقَ الإنسانُ ضعيفا"

لاحظ:

١ـ "ما أغْرَبَها امرأةً"

وهنا نجد أن التنكير، بالإضافة إلى نوع الاستدراك أو التوسيع، يظهر بصورة وافية في الترجمة الفرنسية ـ وهذا مهم على وجه الخصوص لأن الفرنسية تستعمل أداة التعريف لاستغراق الجنس، على وجه العموم:

٢ـ

Qu'elle est bizarre, comme ø femme!

"ما أغرب أطوارها/ ما أغربها من امرأة"

لاحظ هنا غياب أداة التعريف. وتمثل هذه التعابير درجة من العمومية أكبر من تلك التي يمثلها اسم محدَّد عن طريق أداة التنكير [في الفرنسية] . فنحن نتكلم في (١) و (٢)، من وجه أول، عن elle "هي"، أي: الفاعل؛ ومن وجه ثان، نتكلم عن امرأة، أو عن (ـها) عبْر امرأة. وبالمقابل، ففي أمثلة مثل:

A woman came to see me
Une femme est venue me voir

"جاءت امرأة لتراني"

نعني ببساطة امرأة معينة، وإن كان شخصها غير محدد، ولا تعرَّف عبر اي شيء آخر ـ ويمكن أن تُنجَز الإحالة إليها عن طريق وصف آخر؛ وكذلك في:

je cherche une femme qui puisse m'aider

"أبحث عن امرأة تساعدني"

فَمَع أنها يمكن أن تعني تقريبًا المعنى المحيرَ نفسه الذي في: honest man "رجل أمين"، إلا أن المحال إليه المتخيَّل لا يزال مفردًا بدلاً من كونه عامًا.

وتأتي الأسماء المسنَد إليها في الفرنسية على نمط الأسماء الأخرى حين تكون مصحوبة بأداة التنكير (أو التعريف)، لكنها تأتي على نمط الصفات حين لا تكون مصحوبة بأداة ـ حتى إن كانت محدَّدة عن طريق صفة أو عبارة جَرِّيَّة (قارن بالمميِّزات المعقَّدة):

C'est mon frère.(definite)
C'est un ami.(indef.)
*C'est intelligent. (refering to Pierre)
*C'est professeur.

(مع مسند إليه "بعيد عن أن يكون معرفة"، كما في الترجمة الفرنسية للتمييز. وقد يكون المصطلح "عام" أحسن من "نكرة" هنا لكن هذا يمكن أن يأخذنا بعيدًا عما نحن فيه هنا).

Il est mon frère.

"هو أخي"

Il est un ami.

"هو صديق"

(وهاتان الجملتان أدبيتان أساسا).

Il est intelligent.

"هو ذكي"

Il est professeur.

"هو مدرِّس"

(و:

Il est professeur de français.

"هو مدرس اللغة الفرنسية"

Il est honnête homme.

"هو رجل أمين")

ويمثل هذا دليلاً على الدرجة العالية من العمومية أو الجنسية genericness للاسم المجرد من أداة التعريف في الفرنسية (قارن برأي جسبرسن في كتابه Philosophy of Grammer ومفاده أن الصفات أكثر 'عمومية' من الأسماء بطبيعتها).

وفيما يلي مزيد من الأمثلة:

Elle est très (*Une) snob.
Ça fait très(*du) peuple.
"ce duc si (*la)'Restauration' et cette cocotte tellement 'Second Empire' (Proust: *A la Recherche*, Pléiade dc. III 1019)

وقد صاغت الفرنسية العامية بِنيةً جديدة لإبعاد الاسم عن مُحدِّده (الأداة)، وهو ما يتصف بعمومية للملحق تشبه عمومية التمييز:

T'en fais une, de tête!
Dis-m'en une, de fable!
Je te passerai le mien, de couteau.
(A. Thomas, *Dict. des difficultés de la langue française*, p. 116).

قارن بالمثال التالي من العربية:

"ما أحْسَنَها مُقْلَةً"

وأشباهه. حيث يأتي الملحقُ في النهاية ويمكن الاستغناء عنه تركيبيًا؛ أما من حيث الدلالة فيبدو هذا التعبير شبيهًا بالتعبير الإنجليزي:

as eyes/faces go; while we're on the subject of tall tales. . . ;

"من حيث العيون/ الوجوه؛ ما دمنا في موضوع الحكايات الطويلة. . . "

Knife? You want a knife? Well . . .

'سكين؟ هل تريد سكينا؟ حسنًا. . . "

وقد ميّز النحويون العرب بين درجات مختلفة من التنكير (قارن بـ ريكندورف AS p.193، و H. Gätje 1970). وأكثر الأشكال تنكيرًا في التمييز - أي المنصوب المنوّن - أكثرها قبولا:

Tunlichst wird die Nunation gewahrt,vgl.

"كان أكثرَ الأنصارِ مالاً من نخْلٍ (= مالَ نخلٍ) " (AS 97).

ويبين المقدارَ الأكبرَ من التنكير في التمييز نوعٌ من الثنائيات الصغرى (تبعًا لفليشر، ج ١، ص ٧٣٢) لتركيب التفضيل. فتشير عبارة 'شرُّ قبيلةٍ'، بالرغم من تنكير المضاف إليه وعدم وَسْم المضاف، إلى قبيلة محددة يمكن أن تُختار كأسوأ قبيلة من بين مجموع القبائل كلها (لهذا تظل نكرة من هذا الوجه، في مقابل "شرُّ القبائل"). أما التمييز "شرٌّ قبيلةً" فيحدد القبيلةَ المقصودة فقط، فيما يُشبه الصفةَ، أي: 'في القبائل هي الأسوأ" schlechter an Satamm .

ويقول فليشر (ج ١، ص٦٨٠) عن 'أفضل رجلٍ' إنها: "دلاليًا . . . وكذلك تحديدًا مثل 'أفضل الرجال'"

begrifflich. . . ebenso determinirt wie *afdalu l-rijāli*

وإن كانت تقوم بوظيفتها نحويًا كأنها نكرة (حيث تأخذ جملةَ صلة من غير رابط). ويمكن مقارنتها بـ:

He is *the* best of men ~a most-excellent man

'هو الأفضل في الرجال'

أما فيما يخص الاختلاف الدلالي بين التمييز وأنماط الإضافة فيقول فليشر (ج١، ص ٦٨٢، على العكس من دي ساسي الذي يقول إنهما متكافئتان):

"كلمة 'رجلا' في عبارة 'أفضلُ رجلا' لا تساوي "رجل" في عبارة "أفضلُ رجلٍ" في تحديد الجوهر الذي يؤديه اسم التفضيل؛ بل تنحصر وظيفتها في تحديد وجهة

النظر التي جرت على أساسها عملية المقارنة، أو حتى في "أفضل الناس رجلاً" التي بناء عليها اعترف ببلوغ الغاية فيها. وكذلك عند مقارنة الشخص مع نفسه في علاقات مختلفة: "هو خير راجلاً منه فارساً، . . . يمكن أن يقابلها، حسب التعبير المعتاد في لغتنا: "هو أفضل في المسير منه في الركوب"".

Rajulan in *afdalu rajulan* dient nicht, wie *rajulin* in *afdalu rajulin*, zur Wesensbezeichnung des durch den Elativ allgeminhin Qualificierten, sondern zur Bezeichnung des Gesichtspunktes, unter welchem ihm die beziehungswise grösser oder, wie in *afdalu l-nâs rajulan*, grösste Trefflichkeit zuerkannt wird. Ebenso bei der Vergleichung eines Individuums mit sich selbst in verschiedenen Beziehungen: *huwa xairun rājilan min-hu fārisan*, . . . , nacht unserer Ausdruckweise: er ist ein besserer Fussgänger, als Reiter 888.

وفي حين أنه يجب أن يكون التمييز نكرة، يمكن للمميِّز أن يكون اسمًا معرَّفًا بالإضافة أو بأداة التعريف، كما يمكن أن يكون اسمًا نكرة:

"قومٌ كانوا ملائكةً حُسْنًا" (Brinner Chronicle P.V)

"أنت الرجلُ عِلْمًا" (Carter 266)

"يا الأسدُ شِدَّةً" (رايت ج ٢، ص ٩٠).

حيث يكون المميِّز عامًا:

"أنْ تكونَ أكْفاءَه شرَفًا" (منرو ١٨٣).

حيث يكون نوعًا من الصفة على شكل اسم:

"عبدُ اللهِ حاتمٌ جُودًا وزهيرٌ شِعْرًا" (الزجاجي ٥١)

"كانت الناسُ كالزلال صَفاءً" (Brinner: Chronicle 170)

وتُحدِّد (الكافُ) هنا، بوضوح، المقارنةَ؛ بل يمكن أن ننظر إليها على أنها مُميِّزة، وهذا النمط الذي يُعَد وسطًا بين المميِّز الفعلي ("يُشْبِه"، و"حاكى"، الخ) والمميِّز الاسمي خالصُ الاسمية.

يضاف إلى هذه الأسماء التي لم تبلغ حدَّ الأسماء المعرَّفة تمامًا، فربما يكون المميِّز على درجة كبيرة من التعريف، كأن يكون عَلَمًا أو اسمًا موصوفًا بطريقة دقيقة.

وتصعب ترجمة هذه الأنماط إلى اللغات الأوروبية والاحتفاظ في الوقت نفسه بتركيب يشبه تركيب التمييز. ويعني هذا أنه فيما تظل الدلالة كلية، تتصرف اللغات المختلفة بدرجات مختلفة في تحديد الاحتمالات التركيبية [٢]. ومن ذلك مثلا:

أن ريكندورف وجد ترجمةً تشبه أن تكون تمييزًا لعبارة "قسٌ حِلْمًا" ein Quss an Milde (و"قِسٌ" اسمُ عَلَمٍ، لذلك فهو من حيث النحو معرفةٌ بدرجة كاملة على الرغم من وجود التنوين). أما التعبيرات الإنجليزية المُثْلِيَّة فتغيِّر من هذا شيئًا ما، مثل: a regular Quss for mildness "إنه قس من حيث الحلم"، حيث تؤدي أداة التنكير والصفة الهامشية إلى "غموض" التعريف. (لاحظ أيضًا أداة التنكير في الترجمة الألمانية). أما فيما يخص المثال:

"لَوْ أنَّ أُحُدًا ذاكُم عندي ذَهَبًا"

(وهو من تمييز العدد، انظر القسم ٥ فيما يلي) فقد ترجَمَه بطريقة لا تشبه التمييز:

wenn Gold von der Grösse diesses Uhuds bei mir wäre

(وأُحُد اسمُ جبلٍ؛ لذلك فمن المشكوك فيه أن يترجم بتعبير مثل: ?ein Uhud an Gold?).

أما الإنجليزية فربما تلجأ إلى تعبير مثل: Uhud`s-worth of gold "مثل أحد في القيمة ذهبا"، مع أن المقصود هو حجم الجبل لا قيمته تلك التي نتحدث عنها، وإلا سنُرغَم على التخلي عن أية محاولة للتعبير عن ذلك بالذهب:

gold piled as high as Mt. Uhud

"ذهب مُكوَّمٌ يبلغ ارتفاعه ارتفاع جبل أحد"

"كان رجلَ قيسٍ رَأْيا" (من تعليق في كتاب نولدكه Zur Gr. 39).

"لو كان لي عددُ شَجَرِ تهامة نَعَمًا"

(حيث يمكن أن تكون الترجمة الإنجليزية:

Would that I had as many camels as there are trees in Tihama

وهي لا تتضمن أيةَ مماثلة مع التمييز: قارن هذا بالتعبيرات القليلة التي تأتي برأسٍ غير علَمٍ مُسَوَّر، كما في: a hundred camels "مائة جمل"، حيث يظهر فيها، إن كان من الممكن تحليلها، رأسٌ اسمًا وتخصيص تركيبي مستقل [مائة] (يمكن حذفه): ومثل ذلك: dozen,

?a score of camels: ألف"، "درزن"؛ لكنْ ربما لا يكون من الممكن أن نقول" thousand
"عدد من الجمال".

وبما يشبه المثال الأخير لكن مع رأسٍ مُحَدِّدٍ إشاريا:

"عَدَدُ هذه العِظامِ نَعَمًا" (AS 95)

(ويمكن أن نقارن هذه، مع نصب المعدود، لكن لا يمكن أن نماثلها، بالتمييز).

قارن أيضا بـ:

"يُعْجِبُني طيبُه عِلْما" (هول ج١، ص ٢٧٩)[٣].

٣ـ التمييز حين لا يكون المميِّز اسما:

يمكن أن يُنظر إلى هذا القِسْم والذي يليه على انهما هامشيان، لذلك يمكن أن يتجاوزهما القارئ من غير أن يفقد شيئا من دلالة التمييز الأساسية.

ويرى بروكلمان (ج٢، ص ٦١٢) تمييزًا في حالات مثل [المصدر المؤول]:

"ذاك أحْرى [أنْ [تُحَدِّث عنه]ج] م س"

وهي تشبه:

"ذاك أحْرى [حديثا] س"

وهذه مقارنة معقولة في العربية، ذلك أن المصادر المؤوَّلة تتصف غالبًا بـ"الاسمية". لذلك يمكن أن يغيِّر ترتيب الكلمات في الجملة، كما في:

"خيرٌ لَكُم أنْ تناموا"

(في مقابل: "؟أن تناموا خيرٌ لكم"؛ قارن بـ"النوم خير لكم").

لكنْ الواضح أنّ [أنْ تناموا] لا تزال هي الفاعل [المبتدأ]؛ كذلك يمكن للمصادر المؤولة في العربية أن تتبع حروف الجر من غير تغيير إضافي ("على"، "أنْ"، الخ)، وهو ما يختلف عن الإنجليزية:

I argued my proposal / that wine is a sin
I argued against your proposal /*that wine is a sin.

"دافعت عن اقتراحي / أن الخمر معصية"

"جادلت ضد مقترحك/ أن الخمر معصية"

وختامًا، يمكن أن توجد بوصفها الجزء الثاني في تركيب الإضافة (رايت ج٢، ص ٢٠٠).

ويقول ريكندورف كذلك (SV 514m, AS 385):

"وهنا حالة غير اعتيادية، توجد فيها جملة صفة تقوم بوظيفة مفعول التخصيص:

Ein ausergewöhnlicher Fall, in dem ein asynd. Satz als Akk. der Spezialisirung steht:

"أحقُّهم إنْ كان عِتْقٌ يُعتَقُ".

فيمكن للفعل المحوَّل إلى اسم بطريقة ضمنية وغير مسبوق بأداة هنا أن يُبْدَل به:

"أنْ يُعتَقَ" وكذلك "عِتْقًا"

وليس هناك ما يدعو لأن نناقش ما إن كان هذا تمييزًا أم لا. فهناك بعض التشابهات والاختلافات الشكلية، وسوف نكتفي هنا بإيرادها.

من حيث الشكل:

تظهر الجملة في موضع التمييز. ومن جانب آخر فليست الجملة اسما، فهي لا تظهر في موضع النَّصْب أو النكرة أو المفرد. ولا يمكن للجملة أن تظهر ـ وهذه أكثر إقناعا ـ في أكثر المواضع التي يظهر فيها التمييز؛ كما أن هذه الأنواع من تمييز التفضيل المجرد ليست من الأنواع النموذجية للتمييز.

من حيث الدلالة:

وبما أن الجملة ليست اسما، فلا يمكن قياسها بمقياس التنكير، ولا يمكن قياسها بطريقة مألوفة في الأقل. أما في المستوى التجريدي، فليس هناك من سبب دلالي أو صرفي يمنع من أن تكون الجملة تمييزا. قارن:

John resembles Bill in speech/ in that they both like cars.

"يشبه جون بلْ في الكلام/ في كونهما يحبان السيارات"

بل ربما رغبنا في أن نضع المميِّز الاسمي في شكل جملة بأية حال:

John resembles Bill in that they talk in a similar way.

"يشبه جون بل في كونهما يتكلمان بطريقة متماثلة"

فإذا كانت الجملة:

The rose is lovely in color

تختلف عن الجملة:

The color of the rose is lovely

فسيكون هذا الاختلاف في اتجاه الجملة:

The rose is lovely in that its color is lovely.

ويقترح فليشر (ج١، ص ٤٧١) أيضا، بالمقارنة بـ"نِعْمَ صاحبًا زيدٌ" أنَّ "ما" في: "نِعْمَ ما هي":

"عبارة تخصيص نكرة (تمييز)، في موضع نصب بمعنى: شيئا"

indeterminierter specifirender Beziehungsausdruck (Tamyis), virtuell im Accusative = šay'an.

ويعني هذا أنه يَفترِض مميِّزًا ضميرًا نكرة. وليس لدينا إلا قليل من المعلومات التركيبية عن هذه البنية المُقلِبَّة التي تجعلنا نقرر الترجيح بين اقتراح فليشر واقتراح سيبويه؛ بل يمكننا أن نحتج ببساطة أن "ما" تشير إلى محذوف مرفوع، وذلك استدلالاً بأمثلة مثل: "نعم الصاحبُ زيدٌ". ولا تسعفنا المقارنة مع الإنجليزية أيضا:

This rose is lovely in color, and that tulip is lovely ?? in it / one, too.

ويمكن كذلك أن نعد اقتراح الزمخشري والبيضاوي (فليشر ج ١، ص ٥٧٣) أن "ما" والمركَّبَ الفعلي معها تمييز في الآية التالية:

"بئس ما اشتروا به أنفسَهم أن يكفُروا. . ."

مع أخذ "أن يكفروا" على أنها في محل رفع. كما نجد تمييزًا ضميرًا معرفةً في:

Ptolemaios is one of the first exemplars of the men of action
writing down his own recollections, the fore-runner *in this* of Ceasar.
(G.Sarton, Hist. Sci. II 73)

"بطليموس أول الأمثلة للرجال العاملين وذلك بتدوينه لذكرياته، فهو السابق في هذا على قيصر"

٤ـ التمييز والحال:

يَجمَع النحوُ العربي تحت مسمى "الحال" متمِّماتٍ حاليَّةً على درجات متنوعة من التعقيد. والشكل ذو الصلة بما نحن فيه هنا ما نجده في الجملة التالية:

"جاء زيدٌ راكبًا"

ومثال آخر مع اسم غير مُشتَقٍّ من فِعلٍ (كما هي الحال في النوع الأساس للتمييز):

"هذا بَعْلي شَيْخًا"

"هذا عِنَبًا أطيبُ منه زَبيبًا"

***

ويورد الحريري (كما في كتاب دي ساسي Anthologie grammaticale 348) الحالَ والتمييزَ معًا، حيث يذكر ما يتشابهان فيه:

الحالُ والتمـيزُ منصوبـان   على اختلاف الوضعِ والمباني

ثمَّ كِلا النوعين جاء فضلةً   مُـنكَّـرًا بَـعْـد تمام الجملة

(ونميل نحن المعاصرين إلى نسيان المهمات المختلفة التي كان يقوم بها الشعر. ويمكن للطلاب العرب أن يحفظوا الشعر الرديء الذي صيغت به الألفية بالكيفية التي يمكننا بها أن نحفظ أشعار كبلنج ـ أو ربما مثلما نحفظ "الأشعار التي ليس لها معنى" [كالأشعار التي نجدها في مغامرات أليس في بلاد العجائب]. ومن المؤكد أن هناك بعض المساوئ لهذه الطريقة، ومع هذا فربما لن يكون الأسلوب القديم ـ المصحوب بالشرح نثرًا ـ أقل احترامًا بكل المقاييس من تقليعات المصطلحات المعاصرة مثل: Conditions on Transformations "شروط

على التحويلات"، [وهو عنوان أحد كتب تشومسكي]، أو Negation in English "النفي في الإنجليزية"، [وهو عنوان أحد الأبحاث اللسانية]).

والفارق الرئيس، كما يقول، أنّ الحال مشتق من الفعل. وهو ليس كذلك دائمًا، كما رأينا؛ وللاطلاع على الأمثلة القليلة للحال المعرفة (انظر رايت ج٢، ص ١١٦).

ويتوسع بعض النحويين العرب في مسألة الاختلافات (انظر هول ج١ ص ٢٨٠ وما بعدها). ومن هذه الاختلافات [بين الحال والتمييز]:

١ـ أن الحال ربما لا يُستغنى عن ذكره دلاليًا. والواقع أنه ليس وظيفةً رئيسة للحال أو للتمييز أن يقيما مثل هذا الفارق الكبير بينهما، لكن يمكن للحال أن يذهب أبعد قليلاً في تغيير معنى الجملة؛ ومن أمثلة التمييز ما ورد في سورة غافر، الآية ٣٥: "كَبُر مَقْتًا عند الله".

وأكثر لفتًا للنظر أن الحال لا يكون ملحَقا في الغالب، بل يظهر في المواضع التي لا يمكن أن يَترك الحذفُ فيها أيةَ بنية نحوية ممكِنة، مثل بعد "أما"، و"إلا". أما التمييز فيمكن أن يظهر أحيانًا في مثل هذه المواضع لكنْ ليس فيها كلها.

٢ـ ويمكن للحال أن يتعدد، أما التمييز فلا.

والفارق الوحيد هو أنه يمكن للأحوال المتعددة الا يكون بعضها معطوفًا على بعض، أما التمييز فيعطف بالواو.

٣ـ ويمكن للحال أن يتقدم بسهولة؛ أما التمييز فلا، فمن الواضح أن تقديم التمييز في: "إذا المرء عَيْنًا قَرّ" ضرورة شعرية.

***

يتحدث هنري فليش (L'Arabe classique 180) عن الحال والتمييز كأنهما متماثلان من حيث الوظيفة ومتشابهان من حيث الشكل كذلك:

"فهما فضلتان لا ترتبطان بالفعل، أو خاصة بالفعل وبمقولة نحوية أخرى من المقولات النحوية".

"compléments non rattachés au verbe, ou communs au verbe et à) une autre catégorie"

- وذلك على النقيض من المفعولات الحقيقية أو الظروف) إلا أن الحال يشير إلى الفواعل والمفعولات، في حين يشير التمييز إلى الصفات والأفعال. ويعني هذا أن البنيتين كلتيهما في الواقع "في علاقة تركيبية تكاملية توزيعية" syntactical complementary distribution.

وبما أن التوزيع التكاملي في الصواتة لا يُسهم في توضيح الهوية الصوتية إلا إن كان "المحتوى" (الصوتي، هنا) للوحدتين متماثلاً تقريبا (كما في الأصوات المتشابهة الوقفية المنفوثة stop aspirated وغير المنفوثة، من مخرج واحد)، فإن ملاحظة فليش لا تصح إلا إن كان هناك تشابه واضح في المحتوى [أي في الدلالة] بين التمييز والحال وهو مالا يوجد هنا، وإن كان من المحتمل وجود شيء من التداخل بينهما في بعض الأحيان. فمعنى الحال يكون مُزامِنا temporal في الغالب كما يضيف إلى الجملة في أبسط الحالات معنى مستقلاً بدلاً من اقتصاره على تحديد شيء آخر. وهو ما يعني أن هذا هو الفرق بين:

The rose is lovely, standing in that vase.

"الوردة جميلة لونا، وهي في تلك المزهرية"

و: The rose is lovely in color.

"الوردة جميلة لونا"

ويُقال إن الحال والتمييز كليهما يأتيان جوابًا عن السؤال: "كيف؟"، لكن هذا الحكم عامٌّ حتى إنه لا يقول شيئًا مهمًا. ذلك أن التمييز وحده هو الذي يُميِّز مُسنَدًا إليه مُعطىً عن طريق الإجابة عن السؤال: "ماذا تعني "أ" على وجه الدقة؟ أهو مختلف؟: "بأية طريقة؟ - في لغته؟"، "أم في التميُّز؟" "أهو كذلك؟" و"بأية كيفية؟ - في "كونه رجُلا"؟"، "كيف يكون الاستعداد ممتازا؟ - لكونه المؤنة، وحسب". (ولمناقشة النوع الأخير انظر القسم التاسع أدناه تحت عنوان: "التمييز الزائد". لكن لا توجد حال زائدة).

ورأي فليش ليس ممكنًا بأية حال؛ ذلك أن الحال والتمييز ليسا في علاقة تكاملية توزيعية. إذ يمكن أن يُخصِّص التمييزُ اسمًا، كما رأينا، أما الحال فيمكن أن يتصل بفعلٍ بالقدر نفسه الذي يتصل به بالاسم. زيادة على ذلك تظهر أنواع مختلفة من الكلمات على

وجه العموم بصفتها أحوالاً اسمية (أو كما يعبر عنها ريكندورف بالمصطلح: Prädikativum) ومميِّزات.

ولا يتحدث نولدكه (Zur Grammatik 39) لا عن التوزيع البسيط للوظائف بين الحال والتمييز كما يفعل فليش، ولا عن تلُّون بعض حالات التمييز بشيء من صفات الحال، كما يمكن أن نظن؛ لكنّه، وهو ما يتوافق مع رأي النحويين العرب الذين يرون أن المقولات التي يقترحونها مُتعازِلَة ومُستغرِقَة disjoint and exhaustive، يَرغب في أن يُصنِّف كلُّ تعبير مما يمكن الاستغناء عنه إما إلى هذه المقولة أو إلى تلك. ثم يخالف الرأي الأساسَ للنحويين العربِ (وبعض النحويين الغربيين مثل ريكندورف) في تصنيفه الأمثلة التالية على أنها أحوال:

"هو أشجع الناس فارسا"

"حَسْبُكَ به ناصرا"

"كَبُرَتْ كلمةً" (الكهف، الآية ٥).

ويقوم هذا التصنيف على اعتبارات دلالية تتمثل في أن الأسماء المنصوبة هنا تشير إلى الفاعل، كما هو الأمر مع الأحوال، ذلك في مقابل ما نراه في جملة مثل:

"هو أفضل الناس رأيا"

ويَهتم كلُّ واحد من الرأيين بحالة مختلفة عن الحالة التي يهتم بها الآخر ثم إنهما يذهبان في اتجاهين مختلفين. أما ما يجري حقيقةً فهو أن هناك بُعْدين نَظَرِيَّين مستقلين للتقويم. فالأول أن هناك تفريقًا معقَّدا، وهو ما عرضنا له باختصار فيما سبق، بين التمييز والعلاقة الحالية. ويتعلق الثاني بالكيفية التي يمكن بها أن يظهر فيها تعبير معين في أية واحدة من هذه الوظائف متَّصِلاً من حيث التركيب والتحديد برأسه. انظر المثال التالي:

"طاب زيدٌ أبا"

وهو تمييز من غير شك. ويمكن أن يؤوَّل بشكل يشبه:

"طاب زيد رَجُلا / صاحِبا"

أو يمكن تأويلها على أنها تشبه:

"طاب زيد دارا"

فيشبه النوع الأول أن يكون حالا، لكنه ليس حالا. أما الثاني الذي لا يشبه الحال، فهو تمييزٌ بشكل لا لبس فيه، لذلك فهو يشبه النمط الأساس الذي أوردناه سابقا:

The rose was lovely in color.

"طاب الورد لونا"

والحقيقة الدلالية الأخرى عن النوع التالي:

"هو أشجع الناس فارسا"، الخ

أنَّ الإسناد هنا دائم (كالتمييز) بدلاً من كونه مؤقتا (كالحال)، وهو ما اكتشفه نولدكه لكنه لم يُعطِه وزنًا كبيرا. وكان هذا الاعتبار عند ابن عقيل (قارن بفليشر ج١، ص ٤١٣) فاصلا. ففي الجملة:

"لله دَرُّه فارسا"

وهي التي يرى نولدكه أنها حال، يمكن أن نلحظ أن الفاعل فيها كان موضع الإعجاب بالفروسية، وليس بوصفه بذلك حين يكون راكبًا فقط (واسم الفاعل: "راكب" غامض فيما يخص هذه النقطة؛ إذ إن "فارس" اسميٌّ على وجه الدقة). ومثل هذا الخلاف، إذا ما اتفق الجميع على صحة المادة اللغوية، إنما يُوضِّح نَفْعَ الاعتبارات الدلالية في مسألة تعيين الحاليَّة وما يشبهها، لكنها لا تنفع في رسم حدود المقولات تحديدًا صارما. أما فيما يخص رسم حدود المقولات فلا مفر من اللجوء إلى الاعتبارات الشكلية، ذلك إذا ما وجدنا حاجة للاهتمام بالمقولات الشكلية بعد اكتشاف الوظائف التي شكَّلتها. ويورد ابن هشام (فليشر، المرجع نفسه) مثالاً لهذه الاعتبارات الشكلية عند نقاشه قولَ الشاعر:

"ما أنت من سَيِّدٍ!"

لتعني ما تعنيه الجملة:

"ما أنتَ سيدا!"

لكنْ لمّا كان التتابعُ المكوَّن من: "من + الاسم المجرور" يتناوب مع التمييز (انظر القسم الثامن) لا مع الحال، فإن: "ما أنت سيدا!" لا بد أن تكون تمييزا. يضاف إلى ذلك أن أرييل

بلوخ يلاحظ (في اتصال شخصي معه) أن التعبيرات موضع الاختلاف تتبع التمييز، لا الحال، في عدم إظهارها للمطابقة في الجنس أو العدد. (ويعزّز هذه الملاحظة تعزيزًا ضئيلاً الفارقُ الذي رأيناه في ملاحظتنا الخاصة بالتمييز الجمْع في نهاية القسم الأول. قارن بنولدكه Neue Beiträge 218:

"يمكن عند البناء مع المنصوب فقط أن تكون تلك الحالات مقبولة مثل: نعم رجلين، نعموا رجالا. . . لكن مثل هذه الأمثلة لا ترد إلا نادرا. . . "

"Nur in der Konstruktion mit dem Akk. des *Tamyis* wären Fälle wie *nicma rajulayni, niemuu rijālan* denkbar. . . aber solche kamen doch schwerlich vor."

وأخيرًا فقد أورد نولدكه نفسه اعتبارًا شبْه شكليٍّ مضادًّا لتحليله، وهو أنه إن كانت "هالكا" و"فارسا" حالين في الجملتين التاليتين فإن هذا يمثل تركيبًا يعمل فيه عامل في معمولين zeugma:

"أعزُّهُم فَقْدًا عَلَيَّ وهالِكا"

". . . ومَجْدًا وفارسًا مُعِدًا" (Zur Grammatik 40).

والظاهر أنه لمّا كان نولدكه غير مطمئن إلى المزيج الدلالي الذي يمثّله التمييزُ فقد سعى إلى افتراض مقولات فرعية. وهو أمر يمكن أن يُلجأ إليه في الواقع، لكن ينبغي ألا يكون ذلك على حساب إضافة طبقات أخرى إلى الحال.

وستكون هذه الأمثلة من الشعر القديم ملتبسة حين تظهَر في سياقِ تركيبٍ معقّدٍ أو نادر، لكن هناك شكوكًا مماثلة تتلبس بتحليل بعض الأمثلة المأخوذة من النثر المعاصر. فقد أورد كانتارينو (ج٢، ص١٨٥) المثال التالي على أنه تمييز:

"تَقْبِضُ الثَّمَنَ ذَهَبًا والمُشْتَري يَقْبِض السمكةَ هواءً".

لكن هذا المثال يشبه الحال في المثال "هذا عنبًا أطيب منه زبيبا")، الذي رأيناه في بداية هذا القسم؛ إذ يمكن للمنصوب في الحالين كليهما أن يُترجَم بـ: in the form of (sous ø forme de) . فالتمييز في المثال الذي أورده كانتارينو، إن كان تمييزًا، بعيد عن النمط

النموذجي، ويجب ألاّ يجيب عن السؤال متعدّدِ الغموض: "كيف؟"، بل يجيب كذلك عن السؤال الأدق: "بأي اعتبار؟"

***

وهناك نقطة عَرَضية أخرى. يقول فليشر (ج٢، ص٢٣) عن الأسماء البدليّة التي تتفق في الإعراب مثل: "خاتمٌ حديدٌ" (قارن بـ oak door, wood bracelet ،"بابٌ خشبٌ"، "سوار خشبٌ"؛ في مقابل: bracelet oaken door, wooden "بابٌ خشبيٌّ"، "سوارٌ خشبيٌّ") أنَّ مثل:

"هذا المفهوم يتفق مع الاستئناف التفسيري الذي تُستخدم فيه عبارات مثل: وهو، وهي. . . إلخ"

"begrifflich einer nachträglichen Erklärung mit *wa-huwa, wa-hiya* u.s.w.. 'und das ist', gleich kommt".

ويظهر مثل هذا التوسع على هيئة حال:

"دَخَلَ مُبْتَسِمًا~ دخل وهو مبتسمٌ"

لهذا يمكننا أن نقترح المقارنة بـ:

"جُبَّتُك خزًّا"

أو كما يقول تشومسر:

a gisper all of silk

التي تظهر كأنها عبارة تفسيرية كما في "خاتمٌ حديدٌ"، لكنها الآن أكثر شبهًا بالحال من شبهها بالتمييز لكونها متصوبة دائما. وهذه المقارنة ضعيفة ـ ذلك أن التفسير لا يشبه الحال أو التمييز ـ لكنها لا تخلو من فائدة، ذلك أن تميز المكاييل والموازين (انظر القسم التالي) بعيد بعدًا كافيًا عن التمييز النموذجي لدينا إلى درجة تجعلنا نتساءل كثيرًا عن الأصل الذي جاء منه. ولا ينبغي لنا أن نتظاهر بالعمق في إجابتنا، ذلك أنه ليس هناك اختيارات صرفية كثيرة متاحة للاسم المستقل في العربية بأية حال. فبعض التراكيب ربما لم تأت من أصل خاص بها بل لا يعدو الأمر أنها جاءت نتيجة للمحاكاة.

٥ـ تمييز المقادير وتعبيراته (تمييز المكاييل والموازين):

يمكن أن يظهر المقدار أو المقدَّر كلاهما في صيغة مفرد نكرة منصوب.

أ ـ تمييز المقدَّر وتعبيراته:

(يسمي ريكندورف هذا النوع بـ: "تمييز معطيات المادة المقدَّرة" Tamyis des gemessenen /de Stoffangabe. ولم يُناقَش هذا التركيب تحت عنوان التمييز عند سوسن وبروكلمان. أما وليم رايت فيناقش التمييز في فقرة فرعية خاصة به بعنوان "تمييز الوزن والكيل": (al-kayl) specification of weight (al-wazn) and measure (ج٢، ص ص ١٢٤ـ١٢٥) ولا يبدو أن كانتارينو يناقش هذه المقولة بشكل مستقل؛ لكنه يذكر التعيين حين يتكلم عند كلامه عن "كَمْ"، ج١، ص١٥٧).

١ ـ الأمثلة التي يظهر فيها المقدَّر رأسا:

"قفيزٌ بُرًا"

"راقودٌ خلاً"

"ذَنوبٌ ماءً"

"ذِراعان جُوخًا"

٢ ـ مع نوع المقدَّر رأسا:

"ثِقَلُ خَرْدَلَةٍ ذهبًا"

"مِلْءُ الأرضِ ذهبًا"

"مَوْضِعُ كَفٍّ سَحابًا"

"مِثقالُ ذَرَّةٍ خيرًا"

"عددُ شَجَراتِ تُهامةَ نَعَمًا"

(Brockelmann II 267)

قارن بالتعبير الإنجليزي:

A forest of forms to fill out

"غابة من النماذج التي يجب تعبئتها"

٣ ـ مع اسم عادي رأسًا غير مصحوب بكلمةٍ تدل على المقدار:

"كَفٌ سحابًا" (قارن بـ(ب)).

وتتسم الكلمات المقدرة إلى هنا بأنها أسماء غير معدودة mass nouns لهذا تستحيل المقارنة بالتمييز هنا. ومن الأمثلة على تمييز العدد المفرد:

"أسبوعٌ يومًا"

٤ ـ ومع الاسم العلَم رأسا:

"أحُدٌ ذهبًا" (قارن بـ: an Everest of ice cream)

٥ ـ مع المسوَّر النكرة (الكناية) رأسا:

(قارن بما يقوله ساسي ج٢ ص ٦٦:

"ومن حيث إدراكنا لها، تُعد الكنايات من قبيل الأسماء ذات الدلالة الغامضة غير المحددة، فهي مبهمة، لأن دلالتها تبقى غامضة إلى أن يرد اسم يحدِّد المقصودَ منها: لذلك يُعرف ذلك الاسم بأنه مميِّز [الكناية]، أي محدِّدها").

On les comprend aussi [les *kinâyât*]. . . parmi les noms d'une signification vague et indéterminée, *mubhamat*, parce que leur signification demeure vague, jusqu'à ce qu'elle soit déterminée par le nom qui indique de quelle espéce de chose il s'agit: aussi ce nom s'appelle-t-il alors *mumayyiz*, déterminatif.

"كَمْ وَلَدًا لَكَ"

"كَمْ جاوَزْتَ بَحْرًا"

"بِكَم دِرهمًا تَصَدَّقتَ"

"عندي كذا درهما"

"كذا وكذا بيتًا"

"له عليَّ كذا كذا درهما"

(مع افتراض وجود فارق بينها وبين "كذا وكذا" ـ رايت ج٢، ص ١٢٨).

قارن أيضا بـ: "رُبَّه رجُلاً"، وهي التي تشبه المثال الإنجليزي: many *a* man حيث نجد المعنى جمعًا والشكل والمطابقة مفردا (. . . many a man has tried). ويسمي رايت هذا النوع تمييزا (ج٢، ص ٢١٤)، لكن المميِّز لا يمكن حذفه، وهو لا يأتي بصيغة المفرد دائما (مثل: "رُبَّهم رجالا" بغض النظر عن أية حاجة للتوضيح هنا)، ولا هو منصوب دائمًا كذلك ("رُبَّ رجُلٍ"، "رُبَّ ما الرجلُ") كما أن تحليلها الدلالي غامض. وهذا كله ليس مفاجئا: ذلك أن اللغات كثيرًا ما تخالف قواعدها في تراكيب التسوير.

وهناك استعمالات استفهامية نادرة لـ"كأيِّن" مع حذف التمييز:

"كأيِّن ø تَقْرأ سورةَ الأحزاب؟" (رايت ج٢ ص ١٢٧)

ب ـ نصبُ المميِّز نفسِه:

ويسميه ريكندورف: Akk. Des Masses "منصوب المقادير غير المعدودة"، ولم يصنفه تحت التمييز.

"صَنَع قُفْلاً وَزْنَ أربعِ حَبات". قارن بالمثال الإنجليزي المكافئ:

He made a lock, the weight of four grains

"صنع قفلا، وزنُه أربع حبات قمح"

"ما عَدا عيسى ما قلتَ هذا العُودَ" (ريكندورف AS 94)

ومن غير رأسٍ اسمي، أي على صورة مخصِّص فِعلي (كانتارينو ج٢، ص ١٨٣، تحت عنوان Accusative of measure "تمييز المقادير"):

"ضَحِك مِلْءَ شِدْقَيْه"

قارن:

il a rit tout son soûl, 'ate his fill'

"لَمَا نَقصَ حُبُّها إيَّايَ ذرةً واحدةً"

"السَّبعةُ تُعجِز عن الثمانية واحدةً"

(فيشر Gram. 164)

بل يمكن أن تدمج (١) و(٢) أيضا:

"كذا وكذا صاعًا تمرًا" (AS 96).

***

والاسمُ المُلحَق (١) يماثل النمط النموذجي للتمييز لدينا من حيث الشكل: لكنْ يمكن أن يقال الشيء نفسه عن "المفعول له" (accusative of cause: قارن بـ Latin ablative of specification and ablative of cause) وعدد آخر من التراكيب. أما من حيث الدلالة فمختلفان: فنحن لا نتكلم عن "قفيز من حيث الوزن"، أو "دلو (من حيث امتلاؤه بالماء)، فيما يخص الماء"، أو "حجم اليد، فيما يخص السحاب". ولا شك أن بإمكاننا أن نأتي بتحليل تجريدي لِتوَحُّد المقولتين، ذلك مثلما يمكن أن نكتشف هنا أو هناك، أو على مستوى تجريدي ما، بعضَ التشابهات بين دلالة بعض الأنماط من التمييز والحال، أو المفعول المطلق (cognate accusative)، وهو ما يعني: أنه يجب أن يتمثّل الطّيبُ المجرَّدُ للورد في شكلٍ مادي ما، كاللون مثلا؛ وأن الوزن التجريدي للقفيز يجب أن يشتمل على القمح مثلا.

أما في حالة تمييز المقادير فمهمتنا أسهل، ذلك أننا نجد هنا مرة أخرى بعض الاختلافات الدلالية المحدَّدة عن نمط التمييز النموذجي (أما إن كان أقل أو أكثر من الحالة في (١)، فأمر يصعب الحكم فيه، ذلك أنه لا يمكن الكشف عن كمية الدلالة بصورة عامة). يضاف إلى ذلك أن بينهما فارقًا شكليًا واضحا. فَمَع أن لدينا ملحقًا فضلةً مفردًا منصوبًا متأخرًا إلا أن العبارات المجرورة والإشارية (هذا العُود) في العبارات التي تصلح أن تكون تمييزًا تخالف التنكير في نمط التمييز النموذجي.

وبالمناسبة فإنه لا يمكن أن نقرر الأمر ببساطة عن طريق إمكان التفسير بـ" < من > التمييزية" (انظر القسم الثامن فيما يلي)، ذلك أن هذا التركيب الأخير ليس تمييزًا بل هو ببساطة واحد من عدة تراكيب قريبة منه، زيادة على ذلك لا يمكن أن تفسَّر جميع أنواع التمييز من النمط النموذجي بـ "مِن".

***

والاسم المنصوب الدال على الشيء المقدَّر في الجملة رقم (أ):

أ ـ "كَمْ وَلَدًا لَكَ؟"

مستقلٌ من حيث التركيب، بغض النظر عن تماثله مع المجرور في (ب):

ب ـ "كَمْ وَلَدٍ لك!"

(والمجرور في العربية لا يمكن فصلُه غالبا) ذلك أن بإمكاننا أن نقول:

ج ـ "كَمْ لَكَ وَلَدًا؟"

ويرى أربيل بلوخ أن الجملة في (ج) هي الأساس، أما الجملة في (أ) فنتيجة للتطور ـ ومن المؤكد أنها موضوع لإعادة التحليل. والواقع أن أغلب أنواع التمييز الحقيقية تأتي في نهاية الجمل. أما من حيث المكوِّنات فقارن بالفرنسية:

Vous avez pris beaucoup/trop de précautions

حيث يبدو كأن أداة السوير + الاسم وحدة واحدة، ومع هذا يمكن أن نقول:

Vous avez beaucoup /trop pris – de précautions.

وهنا نجد أن الشيء المقدَّر مفصول لكنْ لا يمكن حذفه:

Vous en avez trop pris.

وبغض النظر عن الطريقة الدقيقة للتطور التعاقبي الفعلي يمكننا القول إن الجملة في (ج) توضح بشكل أكبر ميزةَ التمييز الذي يأتي من نمط بنية التخصيص: أي أنه يسمح لنا بشكل أكبر أن نأتي بأقرب مخصِّص عن طريق الاستئناف (البدل) afterthought .

ويرى رايت (ج٢، ص ١٢٥) أن تمييز "كم" في الجملة (أ) ليس ملحقًا بقدر ما هو متصل اتصالاً قويًا (وهذا ما يجعلنا أقل اطمئنانًا لتصنيفه بأنه تمييز) في جملة مثل (ج) ـ أو، إذا أخذنا المثال الذي جاء به: "كم لك غلمانا" ـ وهي جملة محذوف منها وأصلها هو:

د ـ "كم نفسًا لك غلمانا؟"

حيث "نفسا" تمييز، و"غلمانا" حال في رأي رايت، كما في:

هـ ـ "كَرَّ زيدٌ أسدا"

ولتدعيم رأيه يورد (ج٢، ص ١٢٧) جملاً محتملة فيها حذف ويكون فيها الشيء المقدُر مرفوعا:

و ـ "كم غلمانُك؟"

وهي التي يفترض أنها جاءت من:

"كم نفسًا غلمانُك؟"

ومثلها: "كم مالُك؟" = "كم دينارًا مالُك؟"؛ قارن بفليشر (ج١، ص ٥٦٥): "كم درهمُك؟"

ويمكن أن نورد ما يلي في معارضة هذا الرأي:

١ ـ أنه لا يمكن تحديد ماهية المحذوف: فقد يكون: "شخصا"، أو: "نفسا"؛ أو "درهما"، أو "دينارا".

فهناك شيء من السطحية في القول بأن الجملة محذوف منها بالطريقة الآلية نفسها التي تنتج بها الجملة التالية في الإنجليزية:

John ate bagels and Mary rice.

"أكل جون باقلز ومريم أرزا"

٢ ـ ولسنا مضطرين أن ننظر إلى (و) على أنها محذوف منها أيضا. بل حتى مع غض النظر عن عدم تحديد العناصر المجردة الأصلية underlying. فإذا كانت "كم" قد جاءت أصلاً من "كَ ـ ما"، كما يقترح رايت في مكان آخر من كتابه، فربما تكون (و) جملة خبرية جامدة.

٣ ـ والجملتان (أ) و(ج) مترادفتان، ولا تختلفان من حيث الشكل إلا قليلا، لذلك يبدو من الصعب أن نسمي واحدة منهما تمييزًا والأخرى حالا.

***

والأمور الأساسية فيما يخص أمثلة تمييز المقادير في العربية، وكذلك في التمييز، هي الاطراد وطواعية التركيب المصاحبة له، وعدم إحكام الترابط التركيبي، والخلفيات المتعددة للفروق المتعددة. فكيف تبدو الإنجليزية فيما يتعلق بهذه الخصائص؟

والأمثلة في (١ـ هـ) قريبة الشبه بما في الإنجليزية، انظر الجملة:

How many seas have they crossed?

"كم بحورًا عبروا ؟"

حيث يمكن أن يُحذف الاسم:

How many have they crossed (by the way of seas)?

"كم عبروا (من البحور) "

والفرق بين العربية والإنجليزية أن لدينا هنا جمعًا بدلاً من المفرد الحايد (الذي يشبه الجنس) - وهذا ليس مفاجئًا حيث تستعمل الإنجليزية كذلك حيادية الجمع في أسماء الجنس: Horses like grass "تحب الخيول الحشيش"، في حين يمكن أن تستعمل العربية اسمًا مفردا: 'الفرس'. كما نحصل على مفرد نكرة في التعبير الانفعالي:

"كأيّن قد جاءني رجلاً! "

وهي التي يمكن أن تتماثل تمامًا مع ما في المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي:

الإنجليزية:

How many men have come to me!
A man has

'كم من الرجال جاؤوني

كم رجلا جاءني'

الألمانية:

Gar mancher Mann / manch ein guter Mann ist. . .

الفرنسية:

Maint homme est venu. . .

ومثل each /jeder/chaque، و'كُلّ + اسم الجنس المفرد النكرة'، تسمح هذه البنى بأن نتكلم عن الجمع فيما نحن نركّز على عضو واحد ـ على الرغم من عدم تحديده بدقة.

How many a man has risked his life for the woman he loved, reciting her name as the tempest tossed his ship and beat his brow.

'كم من الرجال ضحى بحياته من أجل المرأة التي أحب، حيث كان يردد اسمها أثناء ما كانت العاصفة تطوح بسفينته وتلطم حواجبه'

حاول تكرار هذه الجملة مع جمع الأسماء كلها فيها (reciting their names, etc.) وسوف تجد أن الأثر مضحك، إذ سيشبه رقصَ جنود من ثلك.

قارن ذلك الآن بالتمييز. فالعبارة: The rose's color 'لونُ الوردِ' مصوغة في قالب يتصف بشبهه الكبير بتركيب الملكية النموذجي مثل: the parson's hat 'قبعة الكاهن'، حيث توحي من حيث البنية بأنها مفعول، أي: أنها محسوس مادي. أما في:

The rose was lovely in color

فتبدو color كأنها بُعدٌ مستقل للتقويم (قابل ذلك بالجملة التالية غير المقبولة:

*The parson was handsome in hat

"كان الكاهن جميل الطلعة لابسا القبعة")

ثم تترك الأمور غامضة بعض الشيء، فهي غامضة مثلاً بخصوص ما إن كانت الوردة أحادية اللون أم لا. فهذا التمييز ليس مفردًا ولا جمعا، بل محايدا، فهو يشبه coloration 'التلوين'.

والإنجليزية مؤهلة تأهيلاً جيدًا لإنجاز ذلك في الكلمات التي تتصف بأنها مجردة على أية حال، مثل girth "مقاس محيط الجسم"؛ في حين لا نستطيع أن نقول:

*John is magnificent as ø friend / man. . .

"جون رائع من حيث كونه صديقا/ رجلا. . . "

أما في الفرنسية فنجد، بالمقابل: en tant qu'homme، وهو ما يشبه التمييز "رجلا". وتتلعثم الإنجليزية بالمطابقة في العدد في كلمة مثل troop(s) 'جيش/ جيوش'، والألمانية بـ Mannschaft (في مقابل Männerchor)، و weibsen التي تعني 'الأقارب من النساء' (لكن wîbes 'اسم')، و frauenzimmer .

أما الأمثلة العربية في (١ ـ أ ـ ب) فليس لها نظائر مطردة في الإنجليزية، حيث تستعمل الأداة of:

an ocean of beer

'بحر من البيرة"

a mountain of gold

'جبل من الذهب'

an infinity of camels

'عدد لا يحصى من الجمال'

ويَسِم حرفُ الجر هذا في العادة الوظائفَ ذات الصلة بالمضاف إليه أو بحرف الجر 'مِنْ' في العربية، لا بالمنصوب. أما بعض الاستثناءات القليلة مثل: a dozen ø/* of eggs 'دوزن بيض' (حيث تتصف dozen في مواضع أخرى بكل ما تتصف به الأسماء العادية، كما في:

an even dozen, a baker's dozen, cheaper by the dozen / twelve/sixpack /six)، فيمكن أن تُظهر شيئًا من عدم الاطراد:

three dozen ø of eggs, but dozens *ø/ OK of eggs.

(ونجد في أنشودة 'هنري مارتن':

"For three long hours they merrily fought,/ For hours they fought full three."

"حاربوا لمدة ثلاث ساعات/ لمدة ساعات حاربوا طوال ثلاث كاملات"

وتقترب الألمانية [من العربية] بدرجة أكبر:

ein Glas Bier

'كأس من الجعة'

drei Stück Obst

"ثلاث قطع من الفاكهة"

لكن: ein Glas guter (*guten) Wein(nom.), ein Paar Tage (pl.) (وفي "كأسا جيدا من النبيذ، عدة أيام"

وفي الإنجليزية: a couple of days, coloq. A couple days).

'زوج من الأيام [أيام قليلة'، وفي العامية، من دون حرف الجر of].

ويظهر في الإنجليزية مماثلات مُعجَمَة فقط للأمثلة التي في (ب):

Jesus doesn't surpass what you say one bit

one whit

*a drop, **this stick,

*my little finger

"لا يزيد المسيح عن ما قلته شيئا

ذرة

*نقطة، **هذه العصا

*مقدار خنصري"

[وتدل النجمة المفردة على عدم جواز التعبير، أما النجمتان فتدلان على بُعد التعبير عن الجواز بعدًا كبيرا]

ونحتاج عمومًا إلى حرف جَرٍّ هنا، بل إن هذا لا يجعل الجملة مستقيمة دائما:

He doesn't surpass what you say ?one ounce
by one ounce
*by this stick
by the width of my little finger

وعلى هذه الدرجة من الدقة كذلك ترجمة الجملة العربية:

"قد جَعَلَتْنِي من جذيمة إصبعا" (AS 94):

She brought me a hair's breadth closer to J.
? a fingr's breadth
einen Finger breit (Reck. ; noteacc.)
a hair (Familiar)
*a finger, *a pinky, *a worm, *a noodle
*a strand of hair, ?the width of a hair

ومن الأمثلة الشاذة الأخرى للتراكيب الخالية من أداة الوصل:

"a bit/a mite taller" vs. "not one bit/*one mite taller"
"a foot/a head/(a hand) taller" vs. "*a chair higher" (of someone standing on a chair).

وتبدو تعابير المقادير في العربية مطردة إلى درجة كبيرة كما أنها مكتملة well-rounded ، وربما يعود ذلك إلى كثرة المنصوبات التي ليس لها وظائف محددة. والمميِّزات وتمييزات المقادير في العربية إردافية أساسا، لكن الصيغ "المفردة المنصوبة" يمكن أن تُحِلَّها مكانًا واضحًا يجعلها صالحة لأن توضع واحدة منها في المكان المحدد الصالح للتأويل. أما الإنجليزية الفقيرة في صرفها التصريفي فلا تستطيع بمثل هذا الشكل البسيط أن تترك

الكلمات خارج بنية تركيبية ما ثم تجعلها تبحث عن وظيفة لها. لهذا يمكن في مثل هذه الحالات أن نستعمل العبارات المتعارف عليها مثل a hair's breadth, heart and soul (حيث يمكنها أن تستغني عن حرف الجر؛ قارن: "with all my heart" "من كل قلبي")، fair and square "ملائم وعادل" (من أمثلة الظروف المجردة من اللاحقة ly -)، hand and foot "يد وقدم" (حيث يسمح بتعبير نحويها مثل: ". . . We bound them" "أوثقناهم يدًا ورجلاً" من غير أن نأبه بالجمع [في feet, hands]).

***

أما ترجمة كانتارينو للمثال التالي:

١ـ "بعتُها بخمسمائة دينارٍ ذهبا" (ج٢، ص١٨٥)

I sold it for 500 golden dinars

فترجمة دقيقة ولا يمكن الاختلاف معها، لكنها تؤدي إلى غموض استقلال التمييز "ذهبا" in gold، وتتماثل مع أمثلة نحو:

٢ـ "يساوي عشرة دنانيرَ ذهبٍ" (ألف ليلة ج١، ص ٢٣).

أما الترجمة البديلة التي يظهر فيها التمييز gold غير مربوط بأداة: for 500 dinars gold فليست دقيقة جدا (قارن بـ: "for $10 pennies" "*بعشرة دولارات بنسات"، لكن قارن بالمثال التالي الدقيق مع غموضه التركيبي فيما عدا ذلك:

٣ـ I sold/bought it for $500 cash.

"بعتُه/ اشتريتُه بخمسمائة دولار نقدا"

حيث لا ترتبط cash "نقدا" هنا ارتباطًا دقيقًا بـ $500 كما هي الحال في ارتباط التمييز المجرور في تركيب الإضافة، نحو: "خاتمُ ذهبٍ"، وهي ليست بدلاً على وجه الدقة، مثل: "خاتمٌ ذهبٌ"، لكنها نوع من الظروف غير المربوطة؛ قارن بالتعبير الإنجليزي الموسَّع: cash on the

barrel-head ، "نقدا حاضرا"، والموازي لـ: $500 down/in advance "خمسمائة دولار مقدَّما". ومثلها التعبير الألماني غير المربوط بأداة: bar kaufen "باع نقدا"، في مقابل gegen bar kaufen "اشتراه نقدا". وتميل المميِّزات، في خارج البنية النواة ومن غير واسمات ظاهرة مثل حروف الجر، إلى الخروج من فصيلة الكلمات التي تنتمي إليها. أما من حيث الأسلوب فتذكِّر المميِّزات العبارية phrasal غير المربوطة بأداة بالمتمِّمات الجاهزة الزائدة عن النواة مثل: no questions asked "من غير إثارة أي سؤال".

***

وقد احتججنا لعدم ضم تمييز المقادير إلى التمييز في مقولة صرفية دلالية واحدة، لكنْ يمكن أن يقارن بينهما من حيث طواعية الأجزاء الدلالية وتراصُفها في جملة. فتكشف البنيتان كلتاهما عن الانقطاع المفاجئ غير المربوط بأداة الذي تتصف به العربية بشكل كبير، وكذلك الأسلوب اللاذع في الإنجليزية والفرنسية، وهو ما ينشأ عنه جمل جيدة السبك يمكن أن يكون لتأويلها درجة إضافية من السعة بسبب عدم وجود روابط صريحة. فالعبارة:

without asking any questions

"من غير إثارة أي سؤال"

مثلاً، تشير من غير لبس إلى الفاعل في جملة:

He bought it from John without asking any questions

"اشتراه من جون من غير أن يثير أي سؤال"

و:

You can turn it in to the police dept

"يمكن أن تذهب به إلى قسم الشرطة"

في حين يمكن أن تؤوَّل العبارة التالية:

no questions asked

"من غير إثارة أي سؤال"

تداوليًا في الموضع نفسه بأنها تشير أحيانًا إلى الفاعل وأحيانًا إلى مفعول حرف الجر. ومثل ذلك في الفرنسية: ni vu ni connu "دون علم من أحد".

وتتصف بنية المنحوتات الاسمية المتماسكة في الإنجليزية نحويًا بأنها غير موصولة بأداة وغير محدّدة دلاليًا، لكنها مطردة. أما في مواضع أخرى حيث يتسم التركيب بأنه على درجة أقل من الحرية وأقل سهولة فيمكن للغة المعينة أن تُجبَر على أن تجد طرائقَ بارعة للوصل والتفسير. وبهذا تتصف المكافئات الإنجليزية.

تمييز الأداة for :

لاحظ الدور الذي يقوم به Subject of discussion 'موضوع المناقشة". فحين يكون له موضع مألوف لا يكون هناك مشكل:

"John was discussing chemistry and physics with us." (١)

'كان جون يناقش الكيمياء والفيزياء معنا'

"John was chatting with us about chemistry and physics" (٢)

"كان جون يتحدث إلينا عن الكيمياء والفيزياء"

قارن بـ "a book *about* botany" "كتاب عن علم النبات" إذ يأتي حرف الجر بصورة طبيعية تشبه في طبيعتها مجيء حرف الجر by في الجملة المبنية للمجهول. أما حين نريد أن نعبر عن الموضوع التالي، مع عكس الاعتمادات:

"John was discussing the style and content of Mailer's new book." (٣)

'كان جون يناقش أسلوب كتاب ميلر الجديد ومحتواه"

فلا نجد أي تعبير يأتي بصورة آلية آخذًا book مفعولاً له. أما العربية فتلحق التمييز ببساطة كما هي العادة:

(٤) 'ويَشْرَحونه ويُقلّدونه أسلوبًا ومعنى'

Commenting on it and imitating it with regard to style and content

(كاتاربنو، ج٢، ص ١٨٤).

ويمكن لحرف الجر in أن يدخل بصفته رابطًا لفعل imitate "يقلد"، لكنه لا يصلح رابطًا لـ comment on "يشرح"، أو discuss "يناقش". لذلك يجب على الإنجليزية التي تفتقر إلى التمييز أن تصل العبارات بطرق بدائية:

. . . Mailer's new book style-and content-wise (Fam.)
as regards its style and (its) content
in terms/respect of style and content
with an eye to its style and content
as far as style and content (Fam.)

وتتصل العبارة الأخيرة بـ "as far as. . . . is concerned" "من حيث"، التي يمكن أن نجدها في المكافئ لنمط التمييز النموذجي:

"The rose is lovely, as far as its color is concerned."

"الورد طيب، من حيث اللون"

والمثال الآخر:

"ما أذكُرُ أنّي سَمِعْتُ قطُّ شيئًا يُقاربُه عُذوبَةً وسِحْرًا" (كاتاربنو، ج٢، ص ١٨٥).

ومن أمثلة المكافئ الشبيه بالتمييز، من غير وجود أداة وصل معهودة:

"I can't recall having heard anything comparable for/in sweetness and charm."

"لا أستطيع أن أتذكر شيئا شبيها به في الحلاوة والعذوبة"

وفي أسلوب تام:

". . . anything as sweet and charming as this."

". . . أي شيء يماثل في الحلاوة والعذوبة مثل هذا"

قارن بـ:

"anyone like him for/?in treating you right."

"أحد شبيه به في معاملته لك بشكل صحيح"

تمييز for للمقادير:

والواسمات markers "أدوات الربط" في التعابير المنقولة التالية طبيعية كلها، ولم يدخلها الاضطراب نتيجة لوجود العبارات المعترضة:

"I paid $50 for the book.

"دفعت خمسين دولارا للكتاب"

I paid John for the book.

"دفعت لجون للكتاب"

I paid John $50.

"دفعت لجون خمسين دولارا"

I paid for the book.

"دفعت للكتاب"

I paid John $50 for the book.

"دفعت لجون خمسين دولارا للكتاب"

Yes, I already paid."

"نعم، لقد دفعت توا"

"The book cost (me) $50. (Fam.)

"كلفني الكتاب خمسين دولار"

You can buy it, but it will cost you.

"تستطيع أن تشتريه، لكنه سيكلّفك"

I bought/sold the book for $50/a song/ a gold earring.

"اشتريت/ بعت الكتاب بخمسين دولارا/ بأغنية/ بحَلَق الأذن"

I bought the book eagerly from John, God bless him, last week in Paris for $50.

"اشتريت الكتاب بشغف من جون، حفظه الله، الأسبوع الماضي في باريس بخمسين دولارا"

ويمكن لهذه القطع التركيبية، شأنَ التمييز والحال والمفعول المطلق، الخ، أن تُدخل وتنزع وتُقرَن بعضُها ببعض بسهولة كبيرة. فهي مثال للتركيب جاهزِ الصُّنع. أما في العربية فيظل الوضع على حاله مهما كان المسنَد، بغض النظر عن إن عبِّر عن التمييز على صورة

فعل أم صفة أم اسم (طاب، طيّب، طيب)، وباستقلال عن المعترضات. لكنْ حين نحاول أنواع المسند الأخرى الخاصة بتبادل النقود نجد أن الإنجليزية لا تعود تشي بذلك الاطراد الذي نجده في التبادل التجاري.

"John borrowed $50 from me. From me, John borrowed $50."

'اقترض جون خمسين دولارا مني. مني، اقترض جون خمسين دولارا'

% "John borrowed $50off me. *Off me, J. borrowed $50."

"اقترض جون خمسين دولارا مني (باستعمال off، بدلا من from). 'مني، اقترض جون خمسين دولار"

"J. swindled/tricked me out of $50
*of $50 [in today's speech]
ø

'سلبني/ خدعني جون عن خمسين دولارا"
'من خمسين دولارا" (في اللهجة المعاصرة)
Ø

"J. robbed me *out of $50 "
of $50
ø

'سلبني جون من خمسين دولارا'
من خمسين دولارا'
Ø

"J. relieved me *out of $50
of $50
ø

"خلّصني جون من خمسين دولارا'
من خمسين دولارا'
Ø*

"J. bribed me ?with, *for $ 50."(Better: with a $50 bill)

"رشاني جون بخمسين دولارا"

"J. 'took me for a ride' ?for $50." Slangy paraphrase:

"أخذني جون في مشوار بخمسين دولارا" [أي: سلبني] (ومن الأحسن أن يقال مجيًا:

"J. took me for a $50 ride."

"أخذني في مشوار بخمسين دولارا"

وهذا سيئ بما يكفي، لكن دعنا نضف الآن شيئاً من المعلومات إلى الجملة، وسوف نجد أنها تخفق أحيانا:

"John tricked /*relieved me shamelessly, really shamelessly, in Reno last week, ?out of/of $50."

"خدعني جون/ *أنقذني بكل وقاحة، بكل وقاحة حقًا، في مدينة رينو الأسبوع الماضي، عن خمسين دولارا"

ونحن نحتاج إلى مكوِّن غير متغيِّر يقع بعد بؤرة الجملة يستطيع ان يظل في ذلك المكان، غير متأثر بأي شيء آخر مما يحدث في الجملة. ولا نستطيع ان نفعل ذلك فيما يخص التعبير relieve . . . of 'خلَّص. . . من' [سلبني]، الذي يتصف بأنه عبارة مَثليّة تشبه عبارة dream. . . up "حلِم. . . بـ" المثليّة، لكن عبارة "to the tune of $50" 'على نغمة خمسين دولارا" [على وقْع] سوف تقوم بهذه المهمة. ذلك أنها مثل التعبير no questions asked أو المميِّز في: 'طاب زيدٌ أبًا'، لا تهتم بعدم التحديد فيما يخص العلاقة المنطقية الدقيقة، وما يخص المكان الذي يمكن أن تدخل فيه المعلومات في الجملة. يضاف إلى ما تقدم من الأمثلة أنه يمكننا أن نقول جملاً مثل الجمل التالية:

"John rewarded me handsomely last week, to the tune of $50."

"J. blew his nest egg at the track, to the tune of $50."

"J. swindled me shamelessly/diddled me skillfully/took me to the cleaners/ripped me off(but good), to the tune of $50."

"The D.A. offered me a handsome bribe if I would 'sing', <<to the tune of $50..."

(فهل يعني هذا أننا عثرنا على الكهف الذي ولد فيه هذا التعبير المثلي؟ وهو غير موجود في مُعجمَيْ Partridge, Wentworth-Flexer، ولم يُتتبع أصله في معجم Farmer-Henley).

***

وطلبًا للشمول نعرض الآن لعدد من البنى ذات الصلة بتمييز المقادير. ويمكن للقراء الذين ليس لهم اهتمام المتخصصين أن يتجاوزوا هذا القسم إلى القسم التاسع.

تمييز المقادير المادية:

وقد صنّف رايت (ج٢، ص١٢٤) وريكندورف (AS 95) بعض التعابير مثل "خاتمٌ حديدًا"، و"جُبّتك خزًا" تحت تمييز الأشياء المقدَّرة، على الرغم من أن الاسم المميَّز ليس مقدارًا أو قصد به أن يكون واحدا. لكن هناك بعض التشابه في الواقع، وبخاصة مع النوع (١ـ ج).

تمييز الكثرة:

ويشير هذا المصطلح لحالات مثل:

"تصبّب زيدٌ عرَقا" (Wright 11 122)

"غرستُ الأرض شجرا"

"انفجرت الأرض دخانا"

"فوهبها هذه الأرضَ. . . وحكّرت وبَنيت أدؤرا وبيوتا"

"وفجّرْنا الأرضَ عيونا" (القمر، الآية ١٢)

"جرة . . . مملوءةٌ خمرا" (cantarino 11 416)

"حشَوْتُ سلّتَك تِبْنا" (De Sacy, Chrest. 11 90)

وربما كانت هذه وسطًا بين التمييز النموذجي والجملة التي تشتمل على مفعولين، وبخاصة تلك التي تحوي مفعولاً وقع عليه الفعل. بل لقد أورد بروكلمان (ج٢، ص ٣٠٩) المثال التالي:

'فَغَرَسَها جَوْزًا وَلَوْزًا'

لكنه لم يصنفه تحت التمييز بل تحت عنوان "doppeltes Objeket" "الأفعال الناصبة لمفعولين".

***

ويمكن أن نعالج هذه المسألة من زوايا أخرى. فتتعامل الإنجليزية مع هذه الخصيصة بصورة صريحة جدا، مستعملة حروف الجر:

(A) I palnted the land with trees. ~ (B) I planted trees throughout the land.

'زرعت الأرض شجرا' 'ملأتُ الأرض بالأشجار'

(A) I loaded the truck with hay. ~ (B) I loaded hay into the truck..

"ملأت الشاحنة تبنا" 'حمّلت التبن في الشاحنة'

أما العربية فتتعامل مع الاسمين المنصوبين في الجمل الفعلية بصورة أقلّ صراحة. وإذا ما كنا نميل إلى عد أحد المفعولين زائد شيئًا ما يأتي بعد البؤرة (مثل: with hay) وأنه يوحي بمعلومات سابقة backgrounded وأنه يشبه التمييز، فيعود ذلك إلى أن أحدهما معرفة ويأتي مباشرة بعد الفعل، أما المفعول النكرة الثاني فيتشابه بطريقة طبيعية مع التمييز. ومع هذا تختلف العلاقة الدلالية هنا عن التمييز النموذجي، وربما كان المنصوب المعمول للفعل جمعا.

وسوف نرى في القسم التالي أن بعض النحويين يقترحون اشتقاقَ التمييز من مفعولات الفعل. لكن الأمور ربما تأتي بالشكل المعاكس أيضا. فحين لا يكون هناك حروف جر لتعيين دور الكلمة فربما يميل التحليل إلى اتجاه آخر في أثناء تطور اللغة. ويُنظَر الآن إلى بعض الأفعال التي تنتمي إلى صيغة 'تفعّل' على أنها أفعال متعدية؛ لهذا يمكن أن يترجم المثال الأول الذي جئنا به [تصبب زيد عرقا] بـ: Zaid dripped sweat.

تمييز العدد:

يسمى الاسم المفرد النكرة المنصوب الذي يأتي بعد الأعداد من أحد عشر فأكثر (مع بعض الاستثناءات مثل "مائة")، نحو:

"أحد عشر رجلا"

تمييزَ العدد (رايت، ج٢، ص ١٢٤ب). قارن بـ:

Hundert Mann "مائة رجل"

a 10-foot pole "عمود طوله عشرة أقدام"

ومن الواضح أنه يشبه "تمييز المقادير"، ويمكن أن يقارن أيضًا بتمييز الكثرة، ذلك أنه ينطبق على الأعداد من أحد عشر فأكثر، ومن المعروف أن العربية القديمة كانت تميز، كما يقال، بين جمع الكثرة وجمع القلة.

لكن التعبيرات العددية، فيما يخص المطابقة في جنس المعدود وعدده وإعرابه، تتسم بكثير من الاضطراب. وتشبه الأعدادُ من حيث الصرف والتركيب غابةً من التنوع، داخل النحو، لذلك ليس مفيدًا جدًّا الإصرارُ على مقارنتها بشيء من الوظائف الحية المطردة كالتمييز.

التمييز والتعجب:

ويمكن أن نقارن تمييز المقادير في:

١ـ "كم ولدًا لك؟"

بالتعبير التعجبي:

٢ـ "كم ولدٍ لك!"

وحين لا يتبع الاسمُ المعمولُ "كم" مباشرة لا يمكن أن يكون الاسم مجرورا (إلا في حالات نادرة في الشعر)، لذلك فالتمييز والتعجب متشابهان.

"كم نالني منهمو فضلا"

"Many a bounty have I received from them!"

(رايت، ج٢، ص ١٢٦).

وتوضح الترجمة الغموضَ نفسَه في الإنجليزية، وإن كان تَحجُّر هذه البنى يجعلها مستقلة بعضها عن بعض جزئيا: لهذا لا يوجد تعبيرات مماثلة للتعبير: 'What a face he has!' "ما أغرب وجهه!" بصفتها جملة استفهام؛ لهذا يلزم إضافة اسم صريح لا تكون هويته آلية (بعكس do):

"What sort of/kind of face does he have?"

"ما نوع وجهه/ أيُّ وجه له؟"

وتبين الفرنسية والألمانية واللاتينية عن توافق صُدْفي مماثل. قارن بالمثال الأسباني، حيث الشكل مماثل بالفعل:

¿Cuántos hijos tiene?"
!Cuántos hijos tient!"

٦- التمييز والجمل ذات المفعولين:

حاول ريكندورف اشتقاق تمييز المقادير (راقودٌ خلاً) من جمل تتضمن فعلاً متعديًا لمفعولين، ومن ذلك الأمثلة التالية (SV 116 ، وقد أضفت الألقاب من عندي):

Er füllte [das Gefäss] $_{Acc}$ [mit-Etwas] $_{Acc}$

---> [Das Gefäss] $_{Nom}$ wurde [mit-Etwas] $_{Acc}$ gefüllt
--->. . .[gefüllt] $_{Past\ Ptcp}$ [mit-Etwas] $_{Acc}$
----> [voll] $_{Adj}$ [von-Etwas] $_{Acc}$ =Tamyîs.

ملأ [الإناء] مفعول [بشيء] مفعول

← [الإناء] مسند إليه [أصبح مملوءا بشيء] مفعول

← . . . [مملوء] اسم مفعول [بشيء] مفعول

← [مليء] صفة [بشيء] مفعول =تمييز

وبالمثل فنمط المفعول المعمول، الذي سوف نناقشه فيما بعد، الذي يتصف بأنه نوع فرعي نكرة لمادة خام ("I made the canoe out of a log" 'صنعتُ المركَب من خشب') ربما يكون سببًا في نشوء تمييز الأشياء المادية:

Er machte [deine Jacke]$_{Akk}${(auso-Seide]$_{Akk}$

حيث يجب، كما سنرى قريبًا، أن نؤول aus بدلاً من zu للمنصوب الثاني ليس نحويًا بل تداوليا،

صنع [جُبّتك] مفعول [من حرير] مفعول

← [جبتك] مسند إليه صُنعت [(من) حرير] مفعول

← جبتك المصنوعة [(من) حرير] مفعول،

أي: [جبتك] مسند إليه [من ـ حرير] مفعول

← [جبتك خزًّا]

---> [d-e Jacke] $_{Nom}$ wurde[(aus)-Seide] $_{Acc}$ gemacht
----> deine [(aus)-Seide]$_{Acc}$ gemachte Jacke, i.e.[deine Jacke]$_{Nom}$[au-Seide]$_{Akk}$
=jubbat-ka xazz-an. [SV 117]

ويوجد تحليل ريكندورف النظري الآخر المقترَح الذي يقوم على الاستعمال الوصفي لاسم المفعول في الأفعال المتعدية في SV 115 : فمن "مَضْروبٌ الوجْهَ": "حيث يكون هذا الاسم المنصوب معزولا تماما إذا قارناه بالمفعول المنصوب"

"wobei dieser Akk. Gegenüber dem Objekts-akk.schon stark isoliert war"

يُفْتَرض أن نشتق: 'حسنٌ الوجهَ'.

ويؤيد بروكلمان (ج١، ص٣٤٨) ذلك قائلا:

> "وكان ريكندورف محقًا تمامًا في نظرته تلك، حين أرجع هذا الاستخدام للاسم المنصوب إلى المبني للمجهول. . . في الأفعال التي تنصب مفعولين. وقياسا على عبارة: "ضُرِب زيدٌ الوجهَ". . . يمكن أن تبنى أيضا عبارة:
> "حَسُن زيدٌ الوجهَ"

"Reckendorf hat wohl richting geschn, wenn er diesen Gebrauch des Akkusativs auf die Passive der. . . dopplet transitiven Verba zurückführt. Nach darab zaydun il-wagha. . .konnte man auch sagen hasuna Z. il wagha."

ويوافق كانتارينو (ج٢، ص١٨٤) قائلاً: "يتصل المنصوب المحدِّد restrictive accusative (أي التمييز)، في الجمل الفعلية بتركيب بعض الأفعال المتعدية التي تنصب مفعولين، وهي التي يكون فيها ما يسمى بالمفعول الثاني، في الواقع، بدلاً محدِّدا restrictive apposition أصبح مستقلاً على شكل مميِّز محدِّدٍ ظرفي. لذلك يمكن استعماله مع أي تركيب فعلي" بل الواقع أنه "أصبح مستقلاً عن الفعل وذلك ما مكَّن من استعماله مع الأشكال الاسمية، وهو ما نجده دائما".

ومهما كانت فائدة هذا الاقتراح فلا يعدو كونه حالة خاصة من الزعم (بروكلمان، ج ٢، ص ٢٦٦) بأن التمييز جاء أساسا بوصفه:

"حالة لتخصيص أحد أوضاع الفعل"

"der Kasus der näheren Bestimmung des Verbs"

ثم توسع ليؤدي وظائف أخرى.

وربما وددنا لو كان هذا الاشتقاق صحيحا، لكن هناك بعض المشكلات. ذلك أنه يمكن أن نتوقع شكليًّا، بسبب احتمال كون المفعول الثاني معرفة، أن نجد بعض الأمثلة القليلة جدًّا للتمييز المعرفة مثل: "الغُلْبُ الرِّقابا" (ريكندورف، AS 96)، و"سَفِهَ نفسَه" (بروكلمان، ج٢ ص ٣٤٨). كما أن هناك حجة ضعيفة تستند إلى الظهور المتزامن: فتبعًا لما يقوله ريكندورف (SV)، يكون التمييز أكثر ظهورًا بعد الصفة كما في: "طيِّبةٌ نفسًا"، ومع ذلك لا نزال نجده بعد الأفعال: "طِبْنَ نفسًا": ذلك أن ظهوره بعد الفعل أقرب إلى الأصل الذي اشتُق منه، بل يمكن أن نتوقع أن تكون هذه الأمثلة هي الأكثر (لكن هذه حجة ضعيفة، كما قدمت: ذلك أن اللغة إذا ما شغلت بشيء فإنها لا تتخلى عنه بسرعة).

ولا يفسر هذا الاقتراحُ من حيث الدلالة الكيفيةَ التي ربما تطوَّر بها المعنى التمييزي: ذلك أن هذا المعنى لا بد أن يكون موجودًا طوال التتابع الافتراضي الذي اقترحه ريكندورف. ولأن التمييز، لمّا كان مستقلاً تركيبا، von Hause aus يُحدِّد القضية بمجملها،

فالحاقه الدلالي الخاص متروك للتأويل. ويعني هذا أن معنى in respect of 'فيما يخص" لا يعتمد على ما إن كان "ملحقًا" بمميِّز فعلي أم وصفي أم اسمي. فيضيف الوصفُ "لون" المعنى نفسَه لـ "طاب لونا" الذي يضيفه إلى "طيِّبٌ لونا"، أو (افتراضا) إلى: "هي وردةٌ لونا / كلون الورد لونا"، قارن:

John is brilliant where botany is concerned.
is a genius (or even: at botany for all three)
exels

'جون عبقري حين يتعلق الأمر بعلم النبات'

"جون عبقري" (أو: فيما يخص علم البنات في الحالات الثلاث كلها)

'يمهَر جون"

أما "مضروبُ الوجْهَ" فنوع غريب ويمكن أن يذكِّرنا بالتمييز، لكنه إن كان تمييزًا هنا فقد كان تمييزًا في: "ضربَ زيدًا الوجهَ": وهو لا يبدو مفعولاً ثانيًا إلا في الظاهر، لكنه يبدو كما لو كان نوعًا من البدل المحدِّد لزيد. (وهي مشكلة. قارن بـ:

schlug ihm/ihnins Gesicht

ضربه على وجهه)

وأنا لست متأكدًا مما يمكن استنتاجه، وبخاصة حين نتأمل في مثل الملحوظات والأمثلة المثيرة للمشكلات التي تبدو فيما يلي:

أ ـ أورد كانتارينو (ج٢، ص١٦٧) المثال:

"مَلأتْ قلبَهُ حياءً" (قارن بالخطوة الأولى في اشتقاق ريكندورف)، بالإضافة إلى أمثلة مثل: 'دخل المدينةَ'؛ لكن من الصعب أن نميز هذه من تمييز الكثرة كما في "فجَّرنا الأرض عيونا". ومثل ذلك: "فغرسها جوزا ولوزا"، التي سبق أن أوردها بروكلمان (بروكلمان، ج٢، ص ٣٠٩).

ب ـ 'كم اشتريتَ عبدا'

يمكن أن تكون تمييزًا للمقادير أو كما يقول فليشر (ج١، ص ٥٦٥):

"وحيث أن كلمة 'عبدا' يمكن أن تكون أيضًا مفعولاً منصوبًا بعد 'كم' الخبرية: 'حتى إنك غالبًا تشتري عبدا'"

da abdan auch Objectsaccusativ nach dem aussagende kam sein kann: 'gar oft hast du e-n Sklaven gekauft.' "

ج ـ ويبدو أحيانًا أن هناك بعض الحالات التي بدأتْ تمييزًا ثم أُعيد تحليلُها عن طرق القياس على أنها مفعول:

("الانتقال إلى استخدامها مفعولا"، نولدكه، هامش صفحة ٤٠ في كتابه:

"übrgang in den Objektsgebrauch" - Noldeke, fn. To p. 40, Zur. (Gr.

وهو عكس للتطور الذي اقترحه ريكندورف:

"ثلاثمائةِ رجلٍ يزيدون قليلاً' أو يَنقُصونه"

(ويورد نولدكه بعض الأمثلة المشابهة مما حُوِّل فيه ظرف الزمان إلى مفعول مباشر، ص ٣٦، (Zur Gr.

د ـ والنقطة الرابعة للالتقاء بين التمييز والمفعول المباشر المألوف ـ وهو أمر غير مهم، لكنني أذكره من أجل الاستقصاء ـ تتمثل في التقليد الذي يمثله تروبتسكوي، مثلا، وهو الذي يعد المفاعيل المباشرة محدِّدة لأفعالها، أي "تميِّزها" على وجه الدقة، فينظر إلى الجملة:

John kissed Mary

"قبّل جون ماري"

على أنها:

John did a kissing -- specifically of Mary

"قام جون بالتقبيل ـ وعلى وجه الخصوص لماري"

قارن ذلك بـ:

"يساوي زيدٌ مريمَ حكمةً"

حيث تبدو كلتا الجملتين غريبتين من غير "التمييز" الذي يظهر في نهايتهما.

ويعمل بروكلمان شيئًا شبيهًا بهذا حين يستعمل المصطلح "التحديد" Beschränkung نفسه لكل من التمييز و"التحديد الزمني والعددي" zeitliche oder numerischeBeschränkung كما في:

"قدِم عليهما قَدْمةً"

حيث يَحْسُن أن يُحلَّل المنصوب على أنه "ظرف" بدلاً من عده "حالا".

ويعبر G. von der Gabelentz (١٩٠١، ص ٤٦١) عن رأي مماثل في قوله:

"يُعد المفعول أيضا، منطقيًا نوعًا من النعت الظرفي. فعندما أدق بالمطرقة مسمارًا في الجدار فإن كلا من المسمار والمطرقة والجدار من محدِّدات الدق".

"Nach der Logik ist auch das Objekt eine Art des adverbialen Attributes. Wenn ich einen Nagel mit dem Hammer in die Wand schlage, so sind Nagel, Hammer und Wand gleichermassen nähere Betimmungen meines Schlagens."

وكذلك جاملشيق E. Gamillscheg (١٩٥١: ١٩) في كلامه عن اللغات الرومانثية:

"فيعبر المفعول المباشر أيضا في الأصل فقط عن طريقة عامة لإتمام تصوُّر الفعل؛ بمعنى أنه ظاهرة مصاحبة للحدث: "ارتدى سترة" أو "عانى ألما فوق الموت". لكن المفعول المباشر في اللغات الرومانثية أصبح يأخذ وظيفة خاصة موحدة؛ فهو رمز لقوة دفع كبيرة مصدرها الحَدَث. . .".

"Das Akkusativobjekt drückt ursprünglich auch nur eine allgemeine Ergänzung der Verbalvorstellung, eing Begleiterscheinung des Geschehens aus: vestire tunica 'sich mit einer Tunika bekleiden' dolere mortem 'Schmerz empfinden über den Tod.' Im Romanischen bekommt aber das Akkusativ-objekt eine einheitliche besondere Funktion. Es ist das Symbol für eine starke Subjekt ausgehende Stosskraft. . ."

ومن الملاحظ أن هذا التطور يكاد يكون عكس ما يفترضه ريكندورف لتجريد عنصر ما يقع بعد البؤرة من وظيفته مفعولاً للفعل. وقد وُجد النوعان من التطور كلاهما تاريخيًا، لذلك لا توجد طريقة مبدئية للجزْم بأن التمييز (والبنى المشابهة) ليست إلا

تطورات خاصة تالية فحسب او انها تمثّل التركيب في صورته البدائية. لكنْ يبدو لي أن تطوّر شكل ما من حالة الفوضى هو العمليةُ الأكثر عمقا، غير أن هذا الشعور ربما لا يزيد عن كونه نتيجة للانحياز إلى وجهة نظر سِفْر التكوين [التي تقول بأن عملية التطور منضبطة وفجائية].

وربما كانت هناك علاقة عميقة بين التمييز وبعض التراكيب الأخرى التي تسمى في العادة مفعولات، بدلاً من كونها نتيجة لعدد من أوجه التشابه المشكوك فيها أو الشاذة كما ناقشناه أعلاه. ذلك أنه حتى إن كانت البنى النحْوية خَلقت هذا التشابه من فخذ فينوس، فإنها جاءت في الأقل من مكان ما، فإذا لم تكن جاءت من فخذ فينوس فهي إذن من حاجب Jove، إلا أنها لا يمكن أن تأتي من العدم. ولكي نبحث عن الرَّحِم الذي جاءت منه ينبغي لنا أن ننظر أولاً، لا في الأفعال التي تتعدى إلى مفعولين أو صيغ المبني للمجهول منها، بل في نمطٍ فرعيٍّ منها يتسم بأنه يفضّل المنصوبات المفردة النكرة في الموضع الأخير من الجملة: كأفعال القلوب التي تنصب مفعولين. وهناك بنى منصوبة مفردة أخرى تقع في نهاية الجملة في العربية، تستحق أن تكون الأصل (مثل: "المفعول لأجله")؛ وربما كان فحص واحد منها يغني عن فحصها كلها.

المفعول المؤثَّر فيه (مفعول أفعال التحويل):

انظر بعض الجمل التي يتحول فيها المفعول إلى شيء آخر، عبْر الحَدَث الذي يصفه الفعل:

"فَسَحَرَت ذلك الولدَ عِجْلاً وتلك الجاريةَ بقرةً" (ألف ليلة وليلة ١٣)

أو بعد الفعل المبني للمجهول:

"قُسِمَ الأرضُ أثلاثا" (ريكندورف SV).

أو حيث يصير الفاعل الصريح مفعولا:

"صار الطينُ إبْريقا" (رايت)

فالمفعول المتحوِّل ليس إحاليًا بالطريقة نفسها التي يكون بها المتأثر، ومن هنا أتى تنكيره، وإن كان الجمع ممكنا.

ويفضّل التمييزُ والمفعول المتحول كلاهما أن يكونا نكرتين إلى درجة بعيدة، وأن يكونا شبيهين بالصفة. وربما كان سبب عدم إمكان القول:

I made a log into the canoe

"صيرتُ الخشبة قاربا"

أنَّ التعبير make. . . into a canoe يُفهَم على أنه "رُقّي الخشبُ إلى مرتبة القاربيّة".

وتَسِم الإنجليزية بطريقة صريحة الدورَ الدلالي عن طريق حرفي الجر : into و out of. وبما أن واحدًا منهما فقط هو الذي يمكن أن يُستخدَم في جملة معينة فيمكن للكلمة غير الموسومة أن تكون إما متحوِّلة أو مادة خام، لكنها ستكون غير غامضة في أي من الحالتين بسبب الوسم الصريح في الأداة الأخرى:

I made the jello into a dome/from a mix.

"صيَّرتُ "الجيلو" قبة/ من خليط"

أما حين يكون هناك مفعول واحد فقط فيمكن أن يكون إما المتحول أو المادة الخام، ويتوقف ذلك في العموم على المسنَد:

I turned the bowl into a jack-o'-lantern/on a lathe.
He shaped the clay into a man.
He shaped this program.
He remodeled the house.
The transformed the program.

وبما أن هذه المفعولات الغامضة بنيويًا/ دلاليًا ملحقةٌ إلحاقًا حميمًا بالفعل كما يمكن أن تكون معرفة أو محدَّدةً تأشيريًا، فهي لا تشبه التمييز. وتترك العربيةُ، التي يوجد فيها عدد أقل من الأنماط الشكلية، التأويلَ الدلالي للتداولية، أي إلى معرفتنا بالمتحدَّث عنه وينطبق هذا ـ على حد علمنا ـ حتى على الحالات التي يكون فيها مفعولان. لهذا نجد متحوِّلاً نكرة مؤخرًا، في الوقت نفسه:

"صيَّرت الطينَ إبريقا"

"حَناه قوْسًا" (بروكلمان، ج٢، ص ٣١٣)

وكذلك الشيء نفسه مع المادة الخام:

"لِمَنْ خَلَقْتَ طينا" (الإسراء، الآية ٦١. بروكلمان، المرجع نفسه)

"شَادَهَا مَرْمَرا" (بروكلمان، نفسه).

(وتستطيع الإنجليزية كذلك أن تحذف أيَّ حرفِ جر مع الفعل make، وهو ما ينتج عنه نوع من الغموض لكنه غموض من نوع خاص، كالنوع المشهور في النكتة التالية:

make me a milkshake. –Shazam! You're a milkshake.

"اعملني ميلك شيك. حاضر. فأنت ميلك شيك"

وربما صح لنا التساؤل في مثل هذه الحالات عن إن كان "المفعول" النكرة ليس إلا نوعًا من التمييز، حيث تترك العلاقة المنطقية غامضة. قارن بملاحظة نولدكه Zur (Grammatik 40):

"يمكن أن يكون الربط الدلالي للتمييز المنصوب بطرق متعددة مع اسم التفضيل".

wie verschiedenartig die Sinnesverknüpfung des Tamyîz-Acc. mit dem Elativ sein kann.

ومما يمكن أن يكون مخالفًا لهذا التفسير بعضُ الجمل النادرة، مثل:

١ـ "حَذَوَ جِلْدَها أسفافهن" (بروكلمان، نفسه)

حيث يوحي المركبان الاسميان المسندان المعرفتان كلاهما بأنهما مفعولان حقيقيان وأن التوجه ليكون أحدهما نكرة إنما يعود لسبب تداولي. وفي مقابل هذا الرأي يمكن لنا أن نورد ملاحظة مفادها أنه حتى ما يمكن افتراضُ كونِه نوعًا من التمييزات يمكن أن يكون معرفة أحيانا ("سَفِهَ رَأيَه")، وهو في الواقع تنكير التمييز، وهو وإن كان له سبب دلالي ويستعمل أيضًا في تكوين مقولة مهذبة well-profiled إلا أنه غير ضروري منطقيًا: قارن بـ:

John surpasses Mary in ø/his singing

"تفوق جون على ماري في ø / غنائه"

أما في حالة الجمل ذات المفعولين فيمكن أن يذهب الاطراد الوجهةَ الأخرى، وذلك بالقياس على:

"أعطاه الكتابَ"

زيادة على ذلك فوجود المثال (١) في اللغة يمكن أن يوحي به السياق الذي يتبين فيه أن الأمثلة التي ذكرها بروكلمان كلها وهي التي يظهر فيها ضمير الفصل بين المفعولين (وبذلك تفصل بين جزئي التركيب) يظهر فيها مفعول معرفة محوّل، وذلك مثل:

'وجعلنا ذرّيّته هم الباقين'

(الصافات، الآية ٧٧) (وهناك أمثلة أخرى في بروكلمان، ج٢، ص ٣١٥).

٧ـ التمييز والإضافة الوصفية:

تستعمل العربيةُ بنيةً تسمى "الإضافة" لعدد من العلاقات الدلالية المتنوعة، وهو ما يمكن مقارنته بالبنية المكونة من: N_1 of N_2 في الإنجليزية. وتُستعمل هذه البنية، مثلاً، للملْكية: "كتابُ الرجل". وينفرد هذا التركيب بأن الاسم الأول فيه ليس موسومًا بأنه معرفة أو نكرة.

والتركيب الآخر ذو الصلة بهذا التركيب هو ما يسمى بـ"الإضافة غير الحقيقية" ويختلف عنه من حيث الشكل في كون الاسم الأول صفة مشبَّهة ويمكن أن تتطابق مع المضاف إليه في التعريف، وهي من حيث الدلالة مثل المجرور الوصفي في اللاتينية، إلا أنه بدلاً من بنية مثل:

أ ـ vir parvae sapientiae = 'a man of small wisdom'

"رجل ذو حكمة قليلة"

نجد بنية كالتالي:

ب ـ vir parvus sapientiae 'a small of wisdom'

"قليلُ حكمةٍ"

ج ـ 'هي حَسَنَةُ الوجهِ'

ومن الواضح أن هذه شبيهة بالتمييز من حيث الدلالة:

د ـ "هي حسنةٌ وجْهًا"

ومن اللافت للنظر بصفة خاصة أن الاسم المضاف إليه، وهو المجال المقصود بالوصف، كالتمييز، يأتي على هيئة مفرد محايد دلاليًا من حيث العدد:

هـ ـ "الرجالُ الحَسَنو الوجهِ"

قارن ذلك بـ: red-faced, rosy-fingered "أحمرُ وَجْهًا"، 'ورديٌّ إصبَعا"، التي تتسم بعدم ذكر العدد في المفعول المادي؛ و:

sescentas eius generis naves "600 ships of that type"

'ستمائة سفينة من ذلك النوع'

التي تتسم بمفرد مجرد؛ في مقابل الجمع المادي في:

"belua multorum es capitum 'You are a many-headed beast'"

'أنت وحش متعدد الرؤوس'

ويشير رايت (ج٢، ص١٩٩) إلى علاقة تبادلية بين التمييز والإضافة غير الحقيقية؛ ويقر فليشر (ج١، ص٧٨٢، السطر ٣ وما يليه) بهذه المعادلة لكنه يحذّر من أنه، بالإضافة إلى هذه الإضافة غير الحقيقية uneigentliche Annexion فهناك إضافة حقيقية تتميز بأن لها معنى تبعيضيًا partitive أو تفسيريًا (بَدَل):

'the beautiful part of the face'

"الجزء الجميل من الوجه"

'that beautiful thing which is (her)face'

'ذلك الشيء الجميل الذي هو وجهـ(ها) "

ويوحّد فيشر (ص ١٧٥، ص١٧٨) النوعين من حيث الدلالة بصوغه مصطلح 'مفعول مخصص أو مضاف إليه":

spezifizierender Akkusativ bzw. Genitiv.

وكذلك ريكندورف (AS 94): Akk. Bzw.Gen. der Spezialisierung 'مفعول أو مضاف إليه للتخصيص' (وكذلك في AS 127). ويتابع هؤلاء جميعًا في تحليلاتهم النحويين العرب. وختامًا قارن بـ H. Gätje:

"Probleme semantischer Identiäte"(ZAL III 22)

حيث يرى أن نمط 'حسن الوجه" غير الصريح يمكن أن يكون أكثر صراحة بمقارنته بنمط التمييز "حسنٌ وجها':

'حسنٌ فيما يخص الوجه'.

ويشير هذا البناء بشكل مباشر إلى أن الصفة لا تعود بالدرجة الأولى إلى الوجه، بل إلى صاحب الوجه. . . وأنها لم تخصص إلا في موضع لاحق بشكل تقريبي".

"'eine schön(er) hisichtlich des Gesichtes'. Diese Konstruktion zeigt unmittelbar, dass das Adjektiv sprachlich nicht primär auf das Gesicht, sondern auf den Träger. . . bezogen ist und dass gewissermassen erst im nachhinein spezifiziert wird."

وبهذا يمكن ألا تشارك الإضافةُ غير الحقيقية التمييزَ في الدلالة الأساسية فقط بل يمكن أن تشاركه في شيء من معنى الاستئناف [البدل]، الذي أشرنا إليه من قبل وسوف نعرض له فيما بعد، ويُعد هذا واحدًا من الحسنات المميِّزة لنمط تراكيب الفضلة.

والفارق الرئيس بينهما تركيبيٌ. فبدلاً من بنية الفضلة التي تعد نموذجًا للارتباط الواهي نجد صورة زائفة لترابطٍ يبدو متماسكا ـ أي الإضافة (وإن كان رايت يسمي الإضافة "واهية" و"التمييز أكثر تحديدا"). فنجد بدلاً من التمييز المفرد النكرة معرفةً من حيث الشكل (وهي التي يسميها فيشر: "general determiniert"، أي بألِفٍ ولام تعريف الجنس) وهي التي يمكن أن تكون مثنى أو جمعًا كذلك. ويمكن إذا ما قدّرنا هذه الحقيقة الشكلية من حيث الدلالة أن نفترض أن ورود إحداهما قد يكون أكثر احتمالاً من ورود الأخرى:

و- "قَزَمٌ كبيرٌ أنفا"	nanus magnus nasi
ز- "قزمٌ كبيرُ الأنفِ'	nanus nasutus

(وتزيدُ الترجمةُ الفرقَ بالاتجاه الذي يوحي به التركيب). ويُفترض في المميِّز النموذجيِّ أن يكون صحيحًا أساسا، لذلك يُعيِّن التمييزُ الطريقةَ الخاصة التي كان بها المميَّزُ صحيحا. فتقف المرأة في المثال (د) في وسط محيط من الجمال لكن الجزء الذي تُظهره منه هو وجهها. أما القزم، بالمقابل، فلا يتحلى بأي قدر من كِبر الحجم لكنْ يقع بما يَتّصف به من الصِّغر في محيط يقوم كِبر الحجم ضدًّا لذلك الصغر[٤].

وربما أمكن أن نتخيل أيضًا أنه يحتمل أن تتضمن (د) قدرًا من المدح أكثر مما تتضمنه (ج) ذلك أنك في (د) تستردّ جزئيًا عن طريق التمييز ما أعطيتَه عن طريق المميَّز؛ فأنت تَحُدُّ من التعميم الذي ربما يُحصَل عليه لو أنهيت الجملة عند 'حسنةٌ'. وبالمقابل، تظهر "حسنةُ الوجهِ" في (ج) على شكل محدَّد مفرد موجِب (ولا يزال من الممكن أن يكون توقُّع Gätje صحيحا؛ ذلك أننا إنما نتحدث الآن عن دلالة الشكل فقط)؛ أما "*هي حسنةٌ" فربما لا تكون إسنادًا نحويًّا صحيحا.

وما يمكن أن يكون مضافًا في الإضافة غير الحقيقية أكثرُ تخصُّصًا من حيث الدلالة من كونه تمييزا (فهو على وجه التقريب: شيء لازم لا يمكن فصله inalienable possession ، أو أنه ارتباط عُرفيّ آخر)، كما أن المضاف إليه محدَّدٌ بأنه من فصيلة الصفات، أما المميِّز فيمكن أن يكون صفة أو فعلاً أو اسما. وخلاصة القول أن شكليْ هذين التركيبين وأنماطهما مختلفان جدا؛ ولا يزيد الأمر عن أنهما يتقاطعان في الحيز الدلالي عن طريق الصدفة.

وهناك منافس ثالث في هذا المجال الدلالي، وله مدى مختلف أيضا، لكنا سنركز اهتمامنا على منطقة تلاقي هذه التركيبات الثلاث. وهذا التركيب الثالث هو "النعت السببي"، الذي يبدو في جانب منه كأنه لَقَب، وفي جانب آخر كأنه عبارةُ صلةٍ مقلوبة. فهو يشبه: "un homme beau de visage" (إضافة غير حقيقية) في مقابل "un homme(,) beau son visage"

وسوف نورد الأنماط الثلاثة من غير تعليق:

نعت سببي	إضافة غير حقيقية	تمييز
الرجلُ الحسنُ وجهُه	الرجل الحسنُ الوجهِ	الرجل الحسنُ وجها
رجلٌ حسنٌ وجهُه	رجل حسنُ الوجهِ	رجلٌ حسنٌ وجها

وفي الحالات الثلاث كلها، يتطابق الاسمان الأولان في الإعراب، في حين يكون إعراب الاسم الثالث "التمييز"، دائمًا، إما: مرفوعًا أو مجرورًا أو منصوبًا [١٤].

٨ـ بعض التنوعات المصحوبة بحروف جر:

يمكن أن تستعمل اللاتينيةُ المفعولَ عنه ablative والمجرور والمفعول الثاني dative، وفي بعض الأحيان المنصوب أيضا، من غير رابط في وظيفة تمييزية. أما المتوسط اللغوي النموذجي الأوروبي فقلما يستطيع ترجمةَ التمييز من غير أن يستعمل حرف جر أو رابط مماثل آخر. وليس هذا فرقًا كبيرًا كما يبدو للنظر الأول، ذلك أنه كلما كثرت الحالات زادت إمكانية إدخالها بشكل مؤكد في البنية الرئيسة. فالعبارة: pareo homini illi ليست أكثر أو أقل اتصالًا بكونها جملة مستقلة من: J'obéis à cet homme . أما العربية، بسبب اقتصارها على ثلاث حركات إعرابية، فتحتل موقعًا وسطًا شيئًا ما حيث يمكن أن نجد التمييز الذي لا تسبقه أداة رابطة يختلف باختلاف التوسّعات الجرّية.

***

وفيما يلي بعض الأمثلة:

فيتبادل المنصوب مع حرف الجر "من + المجرور" في التركيبات التعجبية:

"أكرم بها شعارا" ~ "أكرم بها من شعار"

والمنصوب في الجملة الأولى: "يمكن فهمه بكل تأكيد بوصفه اسمًا منصوبًا يقوم بوظيفة التخصيص".

"wohl als Akk. Der Spezialierung zu fassen"

(ريكندورف AS 117)

"لله دره فارسا/ من فارس" (رايت، ج٢، ص ١٢٣)

"يالكَ من شوقٍ ويالكِ عبرةً" (AS 254)

لاحظ في المثال التالي كيف تتنوع الأساليب حتى في داخل الجملة الواحدة:

"كأيّن رجالاً قُتلوا!" "/ كأيّن من نبي! " (آل عمران، الآية ١٤٦)

(فليشر ، ج١، ص ٥٦٣)

وتسمى هذه الاستعمالات لحرف الجر "من" بـ "من المُبيِّنة". وقارن بالملاحظة التي سبق أن أوردها فليشر عن الإضافة التفسيرية (= رايت، ج٢، ص٢٢٢). واعتمادًا على رايت (ج٢، ص ١٢٣) لا يُسمَح بهذا البديل إلا حين يكون التمييز منقولاً من المفعول (وإن كان من غير الضروري أن يكون مفعولاً به تماما) في بنية مستقلة مماثلة:

"غَرَسْتُ الأرضَ شجرا/ من شجر"

(وربما أمكن مقارنتها بالجملة الإنجليزية:

I planted the fields in beans/with beans

"غرست الحقل فولا/ بالفول")

والمصطلح العربي لهذا هو: "منقول من المفعول"؛ وفي هذا الحالة يمكن أن يسمى المنصوب في النحو العربي التقليدي "تمييز الكثرة". وعلى الضد من ذلك فإن الجملة المستقلة:

"طاب نفسُ زيدٍ"

لا يمكن أن تعاد صياغتها لتكون على النمط التالي:

"*طاب زيدٌ من نفس"

ويبدو أن فليشر (ج١، ص٧٨١) يقترح أن التمييز يمكن أن يستبدل بالتركيب المكون من "من + المجرور" فقط في "جمل النداء والتعجب" "Ausruf-und Verwunderungssätzen" ، لكن رأينا للتو أن الشيء نفسه ينطبق على "تمييز" الكثرة. قارن، مع التنوع في الجملة نفسها:

"وإذا نحن بقاعة ملآنة دقيقا ومن الحبوب والمأكول"

(ألف ليلة وليلة) (تحقيق لين).

وربما لا يكون صدفةً أن يَظهَر المنصوبُ هنا نكرةً فيما يَظهَر المجروران ـ اللذان تحررا من الظهور على هيئة مشابهة للتمييز ـ معرفة. وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن تنكير التمييز، وإن كان خصيصة لازمة له، فأمر شكلي جزئيًا بدلاً من كونه أمرًا من أمور الدلالة بصورة دقيقة. ومن الطبيعي أن يكون سبب اختيار التنكير بدلاً من التعريف من أجل المظهر المتكامل أمرًا من أمور التغليب الدلالي.

***

ومن اللافت للنظر أن حرف الجر "مِن" يشبه في وظيفته أحيانًا أداةَ التبعيض/ النفي de في الفرنسية في التعبيرات الكلية (وهي التي تعني from "من"، of "لـ"، في الاستعمالات المستقلة)، وهي الأداة de نفسها التي تظهر أحيانًا في التراكيب الفرنسية التي تشبه التمييز والتراكيب المكافئة للتراكيب ذات الصلة بالتمييز كمنصوب المقادير وتمييز الأشياء المادية (robe de soie "فستان من حرير"، "يبهر بجماله verre de vin ، "كأس من الشراب" (surprenant de beauté):

"شربت من الماء"

"ما جاءني من رجل"

مقابل: "جاءني رجل" (*من رجل).

ويجب ألا نبالغ في إضفاء الأهمية على هذه الحقيقة؛ إذ إن de و à أداتا الجر الفرنسيتان الوحيدتان اللتان تُستعمَلان في كثير من السياقات، لهذا فلكل واحدة منهما وظائف كثيرة. ومع هذا أقدّم هذه الحقيقة تبعًا لروح ما يراه ماتيسوف Matisoff عن تخيُّلاتِ دلالةِ أعضاء البدن عبر اللغات، حيث يمكن أن ترتبط الأعضاء المتباعدة بطرق غير متوقعة.

***

وتتضمن ملاحظة دي جويه، في رايت (ج٢، ص ١٣٨)، عددًا من المتممات التي تشبه ظاهريًا أن تكون تمييزًا مصحوبًا بـ "من"، وبعضها تقرُب من "الحال" كثيرا (وهو الأمر الذي يؤدي، بسبب التشابه المباشر بين الحال والتمييز، إلى ربط العمليتين ربطًا أكثر إحكاما):

"وهو مُسترضَعٌ فينا من غلام يتيم ليس له أب"

ولا يبدو هذا كأنه يبلغ أن يكون تمييزًا بمعنى "ما الطريقة التي ينطبق بها هذا المسند" (وهو هنا "مسترضع") بقدر ما يكون عن السبب وراء هذه القضية التي يظهر فيها المسند. لكن يجب الاعتراف بأن هناك أفكارًا عديدة يمتزج بعضها ببعض بطرق خفية تحت غطاء شكل واحد:

"ناهيك من رجل"

(ولا يبدو أنها تعني: "بسبب كونه رجلا")

"لله دره من فارس"

(ويمكن أن يشبه التمييز: "فيما يخص الفروسية"؛ لكنّ فيها معنى: "لكونه فارسا بهذه الصفة")

"جزاك الله من أخ خيرا"

(وتقرُب أن تكون سببا).

(والأمثلة الثلاثة من رايت، ج٢، ص١٣٨).

قارن أيضًا بما ورد عند الحريري، في كتاب دي ساسي Anth. Gram 352 حيث ترد "من" فيما يشبه التمييز.

***

وهناك نوع آخر، وهو أقل شيوعًا ويتوزع توزيعًا مختلفا، وهو التركيب الذي يظهر فيه حرف الجر "على":

"حسبي على الصُّنع الذي أولاه أن أسعى بجِدٍّ أو أموت"
(مونرو ١٩١).

وليس هناك شيء شبيه بهذا في الإنجليزية أو الفرنسية أو الأسبانية؛ ومن ناحية أخرى تُستعمل الألمانية حرف الجر an غالبا (وإن كانت لا تستعمل الأداة auf) قبل المميَّز: reich an. . . 'غني بـ. . . ' (مما يشبه تمييز الكثرة)؛ و . . . gleich an. 'مساوٍ في . . . ' (وهو النمط النموذجي).

والأداة الأكثر شيوعًا هي حرف الجر "في"، باستعمالها المكاني، وهي تشبه ما في الإنجليزية والأسبانية (تعاقبيا) والفرنسية (تزامنيًا)، (وقد حلَّت dans مكان en، في الاستعمال المكاني).

"العبير في أرَجٍ، والحُسْنُ في ملبَسٍ" (مونرو ٢٢١)

"شكْلُ الغدائر في سَدْلٍ وتضفيرٍ" (مونرو٢٩٥)

'فؤادي مثْلُ الخزِّ في اللين' (SV 669)

والمثالان الأخيران أكثر صراحة، لا في إعطاء حرف جر للمميَّز، وإنما في توفيره أداةً أو اسمًا للمقارنة (شَكْل، مِثْل).

***

٩- التمييز الزائد (الشكلي، الذي لا عمل له):

رأينا في الفصل السابق بعض الطرق التي يعمل بها الحشو في العربية. وربما كان من أنواع اللغو الأخرى ما يبدو أنه تمييزٌ زائد[٥]. وقد رأينا فيما سبق عددًا من الجمل التي تظهر فيها كلمة 'رجل" تمييزا؛ وقد ترجمتُ هذه الكلمة متعاطفًا بالكلمة الألمانية: Mensch، لكنْ 'رجل' ليست الكلمة الرئيسة التي تُعيِّن أفكارًا مثل "الرجولة' وما يماثلها، خارجَ التمييز. فكثيرًا ما تُستعمَل جذور أخرى، مثل "مروءة"، و'فروسية"، الخ. أما 'رجل" فمعناها 'رجل" [كجنس] فقط.

والأمثلة التالية أكثر لفتا للنظر:

نِعْمَ الفتاةُ فتاةُ هندُ لو بذلتْ ردَّ التحيةِ نطقًا أو بإيماء

(هول، ج١، ص٢٨٢).

وقد عبَّر وليم سافير عن امتعاضه من تلك التوسعات الحشوية التي يبدو ألا حاجة لها قائلا:

"تجنَّبِ الطريقةَ الجديدة لتتابع الصفات. فمتى سمعتَ قائلاً يقول:

The moves were nonbelligerent in nature

"كانت الحركات غير عدائية من حيث طبيعتها"

أو:

My attempt was peaceful in character

"كانت محاولتي سِلْميَّة من حيث طابعها"

فيجب عليك أن تسأل نفسك: لماذا تزاد عبارة: in nature ؟ ولماذا تزاد عبارة: in character ؟

ومن المحتمل أن المتكلم كان يحاول أن يقول: essentially "أساسا"، وهي التي تُعَدُّ نفسُها ظرفًا يُستعمَل في الإيماء بمعنى "بغض النظر عن اي شيء آخر". أو ربما كان يريد تزيين العبارة المحدَّدة التي يستعملها بطريقة تبدو كأنها من أساليب المثقفين. . . .

وفي أثناء مراقبتك لنفسك حاولْ أن تنظر بحذر إلى التركيبات التي توصف بأنها dribble-off "تأتي من غير قصد" [تتساقط، من غير مقابل]، مثل:

'emergency situation'

"وضع طوارئ"

. . . 'precautionary measure'

"إجراء وقائي"

'thunderstorm activity'

"نشاط عاصفة رعدية""

ونحن نتفق مع النظرة الأسلوبية التقويمية عند سافير للأمثلة التي أوردها، وإن كنا لا نتفق معه في القول بحداثة مثل هذه التركيبات. فالتركيب few in number 'قليلٌ عددًا' موجود منذ زمن بعيد، كما نجد مثله في العربية أيضا:

'لم يكن يَحفِل به إلا الأقلُّون عددا" (الأيام، ج١ ، ص٨٤).

ومثل ذلك: export rose 13% in volume "زاد التصدير ١٣% في الحجم" (مجلة الإيكونومست، ٢ أغسطس، ١٩٨٠)، حيث يبدو التمييز مضلِّلا؛ ذلك أن من شبه المؤكد أن قيمة النقد هي المقصودة لا قياس المكان؛ وكذلك:

"new techniques of therapy that are shorter in duration, less costly. . ."

'التقنيات الجديدة في العلاج الأقصر في المدّة، والأقل كُلْفة'

(مجلة نيويورك تايمز، ٢٦ أكتوبر). ولنجد مثل هذه التركيبات في كل زمان ومكان، فهي توجد في الفرنسية القديمة hardi de curage (Rohlfes 102) ؛ وعند فرويد: "فالمدارس التحليلية قليلة في عددها، حديثة في عمرها".

Die analytischen Lehrinstitute sind gering an Zahl, jung an Jahren (1926).

والتحليل الأسلوبي لمثل هذه الأشكال، خارج السياق، غير ممكن، فأنا لا أعرف ما الشعور الذي كان يخالج المتكلمين حين يقولون: hardi de curage أو: "شيبتُ رأسًا" (مونرو ١٩٧). ومع ذلك فإحدى الحقائق الشكلية موحية جدًّا: فالأجزاء التي 'تتساقط' dribble-off في الإنجليزية ليست نظائر للكلمات التي لا تضيف شيئًا مفيدًا من المعلومات، لذلك فهي لا تعلن عن نفسها بشكل مباشر على أنها حشو. فمع أن تعبيرًا مثل emergency situation 'وضعٌ طوارئ'، مثلا، يبدو لي كأنه من الأساليب المستعملة في لغة التلفزيون أو أنه من مصطلحات البيروقراطيين للدلالة على "الطوارئ"، فلا يبدو التعبير: precautionary measure "إجراء وقائي" سيئا، ذلك أن measure "إجراء" ليس فضلة، وهو لا يمكن حذفه ببساطة؛ فأنت في حاجة إلى رأس لتُعلّق به الصفة (وهذا أيضًا هو التفسير، كما رأينا، لكثير من أنواع الحشو في العربية). وكما هو واضح فلدينا الآن اسم هو precaution "الحيطة" الذي يمكن أن يُنجِز العملَ المطلوب بمفرده؛ لكن هذه الحالة لا تتوفر

في كل صفة تُحدِّد كلمة measure ، كما يمكن أن تُدخَل measure في الجملة عن طريق القياس الظاهري. وربما كان هذا هو الأصل أو التسويغ في الأقل للتعبير: emergency situation الذي يعد متطفلاً على مثل هذه الاستعمالات التركيبية الجاهزة للوضع situation، كما في hostage situation "وضع رهائن" (وهي تختلف عن hostage "رهينة").

وتشيع في العربية المميِّزاتُ المماثلة، ومنها: "أكثرُ كثرةً". ولا يبدو هنا أي داع بنيوي - ذلك أن التمييز بطبيعته ليس مِشْجَبًا تُعلق الأشياءُ به ـ لكن العملية لا بد أن تكون شعورية. فالذي يقول: few in number "قليلٌ عددًا" ربما لا يتنبه إلى أنه كان يقول شيئًا زائدا؛ أما التعبير: more numerous in number "أكثر كثرة في العدد" فربما يُرغِم قائلَه على الانتباه إلى هذه الحقيقة.

ومن الواضح أن هناك قيمة أسلوبية للتمييز الزائد في العربية تُبْعِده عن الشَّبَه بِجَدَع البنتاجون اللغوية أو الحديث الفارغ الذي يتبادله الناس في التلفاز. ونحن نحس بهذه القيمة فيما أوردناه من الشواهد الشعرية؛ فليست كلمة "فتاة" زائدة فقط، بل إن عبارة "نطقًا أو بإيماء" تبدو كأنها طريقة سياقية لا حاجة لها من أجل تأكيد الصَّدّ. لكن أي قارئ يقدِّر كتابة بروست يعرف أن هناك بعض الأشياء التي ينبغي ألا يُعبَّر عنها بكلمات كثيرة، حتى حين يكون ذلك ممكنا:

ومن الأمثلة الأخرى:

"فنعم الزاد زاد أبيك زادا" (رايت، ج٢، ص ١٢٢).

"سُحْقًا ليومِكُمو يوما" (مونرو ص ٢٣٧)

وكما هو الأمر في الحالات الأخرى من الحشو التقليدي في العربية تبدو ترجمة هذه الأمثلة في الإنجليزية غير جذابة.

ومن أمثلة التمييز الحشو التي ترد على شكل تمييز مجرور:

"نمو الأرافون في الرافة" (AS 224).

وربما تكون مختلفة من حيث المعنى عن:

gets your clothes whiter than white

"اجعل ملابسك أكثر بياضا من البياض" ["بالغ في تنظيفها"].

أما الشعور بأن التمييز غير النظير يبدو كأنه زائد فيختلف تبعًا لاختلاف التطور الدلالي. فالتعبير القرآني: "أفصح مني لسانا" (القصص، الآية ٣٤) يبدو كأنه نوع من الزيادة إن كنا نقرأه بالقيمة السائدة في العربية النموذجية المعاصرة لكلمة "أفصح"؛ لكن هذا الجذر يمكن أن يشير أساسًا إلى أنواع مختلفة من الخُلوص والوضوح (كما في اللَّبن مثلا)، لذلك يمكن أن يعود إلى تضييق المعنى بحيث لا ينطبق إلا على مثل هذه المتلازمات فقط.

***

والمقابل العكسي للمميِّز الموجود لكنه زائد هو المميِّز الغائب الذي نحتاج إليه، أي ذلك المميِّز الضمني. ومن أمثلته:

"in spite of his fame, Vitruvius is practically unknown. We do not even know where and when he was born and died."
(G. Sarton Hist. Sci. II 350)

"على الرغم من شهرته الواسعة لم يكن فيتروفيوس معروفا جدا. فنحن لا نعرف حتى أين ولد وأين مات ومتى"

والمعنى: شهرته *مؤلفا*؛ غير معروف بصفته *شخصا*، "رجلا".

١٠ـ التحديد في اللغات الأوروبية:

أوضحت الترجماتُ والمقارنات بالأمثلة العربية في الأقسام السابقة الطريقةَ التي تؤدي بها اللغاتُ الأوروبية الغرضَ الدلالي للتمييز. وسوف نعطي الآن بعض الأمثلة الحية من أجل التمثيل.

أـ التمييز الخالي من حرف الجر:

تَسِم اللاتينية واليونانية وحدهما، من بين اللغات التي سنذكرها، التمييزَ عن طريق الإعراب فقط.

ولا نستطيع أن نقارن بسهولة بين أنظمة الإعراب في لغات تختلف بقدر اختلاف العربية عن اللاتينية. لكنْ ربما أمكن لنا أن نقارن في الأقل بطريقة تقريبية حالات الإعراب المسماة بـ'النَّصْب' في اللغتين، بأنها حالة إعراب "من وقع عليه الفعل" [المفعول به] في السياق النمطي النموذجي للجملة: John hits Bill 'ضرب عمرو زيداً'. فإذا افترضنا هذا، وافترضنا أن اللاتينية لا تميز بين المعرفة والنكرة، فإن اللاتينية تبدو أقرب ما تكون للتمييز في تركيب Accusativus Graecus:

flava comâs
'fair as to her hair'

"شقراء الشَّعْر"، المأخوذ من الكلمة الهومرية:

kára: xanθós (Ernout-Thomas)
hoc concussa metu mentem
'smitten in mind by this fear'

"مبتلى في عقله بهذا الخوف"

(والأمثلة من كتاب: E. C. Woodcock, A New Latin Syntax, 13).

وقد رأينا في القسم السادس أن ريكندورف يريد أن يشتق التمييز من مفعول منصوب للفعل، وأن Gamillscheg رأى الأمر بالاتجاه المعاكس في التطور من اللاتينية إلى اللغات الرومانثية. أما إيرنست وتوماس، في كتابهما (Syntaxe Latine 17) فيَرَيان أنَّ المسارَ هو: التمييز -> المفعول المباشر، في داخل اللاتينية:

> 'في جملة مثل urbem statuo فإن ضمير [المفعول به] il [هو] لم يكن في الأصل مفعولاً للفعل؛ فقد كان هذا الفعل يدل على فعل البناء، وكان الفعل urbem مقترنا به على سبيل توضيح ما هو مبنيّ (أي المدينة) '.

A l'origine, dans une phrase comme urbem statuo, il [l'accusatif] n'était pas 'régi' par le verbe; ceuli-ci indiquait l'acte de construire, et. . . urbem lui était 'apposée' comme précisant en vue de quoi la construction était fait (= quant à une ville).

ويقول وودكوك الشيءَ نفسَه أساسًا mutatis mutandis فيما يخص المصدر infinitive ، وهو اسمٌ في الأصل (وهو منصوب في السنسكريتية، وظرف مكان ـ مفعول ثان locative-dative في اللاتينية):

'وعبارة: Possum currere لا بد أنها كانت تعني في الأصل شيئًا شبيهًا بـ: 'I have power in the sphere of running' 'إن لدي قوة في مجال الجَرْي'، وتعني: volo currere 'I exercise my will in running' "أنا أمارس قدرتي في الجري"' (المصدر نفسه، ص ١٥).

وتتصف المقارنات بأنها سرابية وعَرَضية، لكنَ اللافت للنظر هو كيف أنها تظل تعاود الظهور بصورة تشبه الصُدَف في روايات المغامرات الملغزة. وقد رأينا التشابهات بين التمييز والحال (القسم الرابع)، ورأينا المنصوب في اللاتينية كأنه تمييز؛ وفي اللاتينية المتأخرة هناك "منصوب تام" absolute accusative يستعمل مثل الحال (وإن لم يكن حالاً بطعم التمييز):

regina. . . neminem scientem subterfugit
"The Queen fled, no-one the wiser"

"هربت الملكة، لم يكن هناك أحكم منها"

(وربما استعملت العربية هنا جملة فعلية حالية: "ولا يدري أحد"، أو مركبًا جريًا).

وكنا قارنا بتركيب "الإضافة الوصفية" genitive of description في اللاتينية في القسم السابع.

وأكثر الحالات شيوعًا لدلالة التمييز في اللاتينية هي حالة المفعول فيه (عنه) ablative. وتميز التقاليد النحوية بين المفعول فيه للمدح Ablative of Respect والتمييز:

non totā re sed temporibus errasti
'You weren't mistaken with respect to the whole business, but with respect to the dates.'
Homo litterīs Graecīs doctus

"لم تكن مخطئًا فيما يخص التجارة كلها، لكن فيما يخص التواريخ فقط"

(قارن بـ: "طَيِبٌ عِلْمًا")

hī omnē linguā, institutīs, legibus inter se differunt

(قارن بـ: "اختلفوا لُسْنا")

uber usû et ornatus speciê
'rich in usefulness and beautiful in appearance'

"غنيٌّ من حيث الفائدة والجمال في المظهر". (قارن بتمييز الكثرة).

Antecellit ubertate
"excells in richness

"يتميز في الغنى". (قارن بالتمييز التفضيلي).

وكذلك بالمفعول عنه للوصف Ablative of Description:

capite candidô

(قارن بـ: "شيبتُ رأسا")

Britanni capillô sunt promissô
"the Britons are long-haired"

"البريطانيون ذوو شعور طويلة"

وكما هي الحال في الإضافة الوصفية في اللاتينية، لا تشبه هذه البنية تمامًا ما في الإنجليزية والعربية، حيث نجد فيها <long-of hair> "طويل من حيث الشَّعر" [طويل شعرًا]، في حين نجد في اللاتينية النعتَ والمحدَّدَ الاسمَ يظهران كلاهما في حال المفعول معه.

(و"ليس للمفعول معه للمقارنة" في اللاتينية صلة دلاليًا بتمييز المفعول معه، ذلك أن الكلمة الثانية في تركيب المقارنة هي التي تظهر في حالة المفعول معه، لا النوعية أو المجال الخاص الذي تقارن فيه الكلمتان. فنمط تمييز المفعول معه يقع تحت المفعول معه للتحديد).

ونلتفت الآن لبعض تلك الصُّدف الغريبة: فالمفعول معه التام ablative absolute المشهور جدًا وله ترجَمة حرفية مشابهة في عدد من اللغات الأوروبية المعاصرة، هو الطريقة المألوفة لتشفير دلالة الحال. كما أن هناك مفعولاً للجَعْل يماثل "المفعول لأجله" مماثلة تامة، وهو الذي يشبه، من حيث الشكل، التمييز:

fugit timore = "هرب خوفا".

***

ويسعدني هنا أن أضُمَّ إلى هذه الرُّفقة المتميزة ذلك التركيب الإنجليزي المُحتقَر الذي ينتهي باللاحقة wise- . فالحَجَر الذي رَفَضَه البنَّاء سوف يكون حجرَ الأساس لدينا.

فلا تسمح الإنجليزية، كما قلنا، بالمخصَّصات غير المحبوبة التي لا يَسبقها رابط. (ويمكن بصورة استثنائية أن نحصل على بعض الجمل، مثل:

"He's really well set up. Job, house, brains -- you name it."

"إنه مُتوفِّر له كل شيء. العملُ والمسكن والعقل ـ سَمِّ ما تشاء"

حيث يمكن أن تظهَر المخصَّصات أيضًا في تراكيب الحَذْف الفعلية:

"he has. . ."

"عنده عمل، ويملك مسكنا، ولديه عقل ")

وليس في الإنجليزية كذلك تمييزٌ جرْيٌ مهذَّب مكتمل well-profiled well-rounded. والرابط الأكثر شيوعًا هو in ، لكنَّ استعماله غير مطرد ولا يمكن التنبؤ به. وقد رأينا من قبل كيف جاءت الإنجليزية العامية الحيوية بتعبير مثل: to the tune of "على نغمة" [ملائم] لكي تزيل الركاكة عن بعض تعابير القياس. ومرة أخرى نسمع ذلك الصوت البدائي العجيب الذي يشبه عنترة الرضيع:

Coolidge was an Amherst boy and. . . a typical product wit-wise of that school."

"كان كولدج صبيا من مدرسة أمهرست. . . وهو نتاج نمطي من حيث النكتة لتلك المدرسة" (جريدة واشنطن بوست، فبراير ١٩٨٠).

و: "Déja Vu, C.I.A. 'wise'"

"من الواضح أنه. . . من صنف ما يوجد في وكالة المخابرات الأمريكية" (عنوان رئيسي في جريدة نيويورك تايمز، ١٢مارس ١٩٨١).

وفي الألمانية تعبير قريب موسَّع في "من الممكن"، "من المحتمل" möglicherweise. wahrscheinlicherweise التي لا يمكن مقارنتها في غير هذه الحالة. كما أن فيها لاحقة تخصيصية، وهي 'حسب' gemäss:

"فهو ليس مرتاحا في السكن"

Wohnungsgemäss geht es ihm schlect.

Er hat eine schlechle "لديه منزل سيء" :unitary التي يمكن أن تظهر في أسلوب تام Wohnung. ويقول هوجو موزر (Deutsche Sprachgeschichte, [2]1969) إن أهمية هذا التركيب هي "تقديم المهم" Vorausnahme des wichtigen، لكن قيمة التمييز على العموم وبخاصة wise- في معمار الكلام أنها تسمح بالاستدراك [البدل] afterthought.

ومن هذا القبيل قول ديفيد ستوكمان في مقابلة تلفزيونية في ٢٢ مارس ١٩٨١:

It has been growing, uh, costwise, at an explosive rate.

"لقد ظلّتْ تنمو، نعم، من حيث الكُلْفة، بسرعة متفجِّرة [عنيفة] " أو (وهو مثال مصنوع):

George is a good catch for Mary -- moneywise, anyhow, even if not in the brains department.

"إن جورج صيدٌ جيد لماري - من حيث المال، وهو كذلك على أية حال وإن لم يكن من حيث العقل"

ومن أكثر الاستعمالات شيوعًا بصفتها "تقديم" Vorausnahme، أو أنها تُدخل في وسط الجملة فيما عدا ذلك، تلك الظروفُ المخصِّصة من النوع الذي أسماه كورك وزملاؤه "الملحقات التي تعبر عن وجهة النظر" viewpoint adjunct (Quirk et al. (1972:429f)):

"Geographically, ethnically, and linguistically, these islands are close to the mainland than to their neighboring islands."

" من حيث الجغرافيا، والعِرْق، واللغة فإن تلك الجُزُر أقرب إلى القسم البَرّي من الجزر المجاورة لها"

ويمكن أن تستعمل العربية هنا تركيب "المفاضلة" "التمييز". (أما "الملحقات المخصِّصة" عند كورك وزملائه فليست مخصِّصة على الرغم من اسمها، لكنها ظروف تشبه: precisely "بدقة"

Exclusively "تحديدًا"

Just "فقط"

و:

Notably "على وجه الخصوص"

especially "بخاصة").

ونجد الشيء نفسه في الألمانية واللغات الرومانسية. ويتمثل الاختلاف البنيوي بينها وبين التمييز في أنها يمكن أن تدمج في مكان عميق في تركيب معين، على الرغم من كونها ملحقات بمعنى أنه يمكن فصلها:

"على الأقاليم الفارسية الأهم بكثير فيما يخص الضرائب"

"auf die *steuerlich* sehr viel wichtigeren Provinzen Persiens"

(يوهان فوك: العربية ص ٦٣) 'from the standpoint of taxes' "من الزاوية الخاصة بالضرائب". ولا يُمكن أحيانًا فصل الظروف (ذلك مثلما أن التمييز لا يمكن أن يكون مكافئًا للتعبير الإنجليزي: "economically a giant but politically a dwarf" "قويةٌ اقتصادًا لكنها قزم سياسيا" (نيويورك تايمز، في الإشارة إلى ألمانيا).

***

وقد عرضنا باختصار فيما سبق إلى النمط oil-rich "غنيٌّ نفطيًا"، حيث يمكن أن يكون لكلمة oil معنى تخصيصي، كما في oil-rich lands "أرض غنية نفطا" (وهو تمييز للكثرة)، لكنه في سياقات أخرى يمكن أن يكون سببيًا:

an oil-rich widow (who sold her interest in the oil)

"امرأة جاء غناها من النفط ("وهي التي باعت نصيبها من النفط")" والألمانية غنية بالمنحوتات التخصيصية، مثل: "متساوية في الجذر، لكنها مختلفة في الأصل" "wurzelgleich aber stammverschieden" (ريكندورف).

ويتسم التركيب النحتي الإنجليزي: "اسم + صفة" بأكثر التنوعات الدلالية ومن هنا لا يستطيع إعطاءُ التخصيص بنيةً مهذبة well-profiled. قارن بالأنماط الثلاثة المختلفة للعلاقة المنطقية في: dirt-poor, car-poor, iron-poor ؛ "فقير إلى درجة الإدقاع"، "فقير من حيث السيارة"، "فقير من حيث عنصر الحديد"، حيث نجد أن التركيب الأخير فقط يمكن أن يكون مخصِّصا. (وتعني car-poor "إنه فقير بسبب ارتفاع كلفة صيانة السيارة"). وقد

وُصف برنامجُ تمويلٍ معين بأنه يُعطى للأسر التي توصف بأنها: "property rich but cash poor" "غنية في الممتلكات فقيرة في النقد" (نيويورك تايمز، نوفمبر ١٩٨٠)؛ وهذا ما يعنيه، وإن بصورة مضطربة، تعبير مثل: land-poor "فقير أرضا"، أو house-poor "فقير بيتا" (أي أنه جمّد ثروته بصرفها على بناء بيت أو شراء أرض).

ومن التعابير النحتية المخصَّصة ما يلي: thread-bare, color-blind, tone-deaf، "نحيف كَخَيط"، "مصاب بعمى الألوان"، "أصم لا يستطيع سماع النغمة الموسيقية"، وربما: blood-thirsty, trigger-happy "متعطش للدماء"، "محب لإطلاق النار". قارن بالتعبير اليوناني: sarko-pagé:s "متضام لَحْما".

ب ـ مع حرف جر:

على الرغم من غنى اللاتينية بالمخصَّصات الموسومة بالإعراب إلا أن فيها أيضًا النمط الجري:

Palus paululem aquae IN ALTITUDINEM et palam latius diffusae. (Varro, De Lingua Latina V. 25)

"A palus 'swamp' is a small amount of water AS TO DEPTH but spread quite widely. . ."

"المستنقع يحوي قليلا من الماء من حيث العمق لكنه ممتد من حيث المساحة"

***

استعمال اللغة النورسية القديمة لحروف جر مختلفة:

Hann er langt umfram aðra menn at kurteisi (Volsunga Saga, ch.23)

"He is far above other men in courtly manners"

"هو متفوق على الرجال الآخرين من حيث تقاليد البلاط"

قارن بـ:

"der höchste Mensch an Rang"

"أعظم الناس نصيبا".

Báru θau b orn af ðrum konunga b rnum *um* alla atgrvi(id. Ch.26)
"The children outdid other kings' children in all attainments", cf. Illî virtute omnibus praestabant,

"بزّ الأطفالُ أطفالَ الملوك الآخرين في أنواع الإنجازات"

"أحلامنا تزن الجبال رزانة"

"our grave minds surpass the mountains in firmness"(Wright II 122)

Um atferð ok v xt war engi hans maki (Volsunga saga)
"In energy and stature none was his peer [preposed]

"لم يكن له قرين من حيث النشاط" (وفيها تقديم)

varð honum gott bæði *til* fjár ok mannvirðingar (in Gordon [2]intro. to Old Norse, 41)
'He was rich both in possessions and honor'

"هو غنيّ من حيث الممتلكات والشرف"

***

الفرنسية القديمة:

une dame qui *de* belté ressemble fee (Marie de France, in Rohlfs 102.
ويساوي رولف بين هذه الـ de - وهي بكل تأكيد أداة من نمط التمييز - والـ de المختلفة دلاليًا عنها في: 'Elle me pria de venir' "توسلتْ لي بأن أحضر"، وغير ذلك).
وهناك أمثلة مع en أيضا.

***

الأسبانية القديمة:

A todos los otros sobra *en* fermosura e bondat (Libro de buen amor v. 727)

De las bozes aguda e *de* los punto arisca (id 1228).

وقد ترجمها S. Daly بـ:

"High-pitched as to its range, as to its tone both harsh and bold".

"جهوري الصوت من حيث المدى، أما من حيث النغمة فخشن وجريء"

***

وما يجري في اللغات المعاصرة مألوف جدًا حتى إنه لا يتطلب مثل هذه التفسيرات: وسأكتفي بإيراد أمثلة منها متميزة أسلوبًا فقط:

المقارنة المتوازنة:

"A noble duke, in nature as in name." (Twelfth Night I. ii)

"أمير شريف، في الطبيعة كما في الاسم"

"She was like a bird for speed, an arrow for directness."(To the Lighthouse, p.76 of Mod. Library ed.)

"هي تشبه الطير في السرعة، والسهم في التوجُّه"

"Rome was great in her land, and great in her sons." (R. H. Barrow, The Romans 130).

"روما عظيمة بأرضها، وعظيمة بأبنائها"

لاحظ المخصِّص المعرفة. والمثال الأخير الذي يبدو غريبًا في الإنجليزية يشبه المعنى غير الحاليّ لـ "طاب زيدٌ أبا".

"Small in size and young in independence, Belgium clung more fiercely to independence for that reason."
(B. Tuchman, The Guns of August, 102)

"صغيرة من حيث المساحة شابة من حيث الاستقلال، تسعى بلجيكا للتشبث دون هوادة باستقلالها من أجل ذلك السبب"

المخصّص المؤخّر (لذلك فهو تمييز بدلاً من كونه إضافة وصفية):

"Dull must he have been of *soul* who did not catch fire from some of the flying sparks of that mental commerce." (J. Atkins, quoted in Arberry Orient. Essays 173)

"لا بد أنه كان ثقيلا من حيث الروح ذلك الذي لم يمسك بالنار من بعض الشرارت المحلّقة لتلك التجارة العقلية"

وهناك مثال لتمييز لا يُعزل عن راسه، لكنه على العكس من ذلك يَعْزل صيغةً أخرى مستقلة عن الرأس نفسه:

"The island is far ahead *in* wealth and sophisticaion *of* Thailand, Indonesia,. . ."
(29 Dec. 1979 Economist)

"الجزيرة متفوقة جدا في الثروة والتقدم على تايلاندا وإندونيسيا، وغيرهما"

استعمال for بدلا من in ، مع النتيجة نفسها:

. . . psychoanalysis was the province of an intellectual elite that out-Freuded Freud for zeal." (Newsweek 29 Oct. 1979)

"التحليل النفسي هو الميدان الذي تفوق فيه صفوة المثقفين على فرويد نفسه من حيث الحماس".

استعمال يُشعر بالغرابة لكنه يخلو من الخطأ منطقيا:

"The crew were beginning to fail in provisions."
(*Voyage of Beagle*) I.e. 'become poor/lacking in provisions.'

'بدأ عمال السفينة في الفشل من حيث الزاد'

الهيكليات:

كتب أحد مراجعي الكتب في جريدة مانشيستر جارديان:

"... Strauss's Salome... which in its sumptuous splendour delights me more each time I hear it."

"معزوفة سالومي لستراوس... التي تشدني من حيث عذوبتها الفخمة كلما سمعتُها"

حيث نجد هنا أنه يمكن أن يوضع الاسم الموصول whose بدلا من: which + in بسهولة من أجل تكوين جملةِ صلةٍ مألوفة. قارن هذا بمثال صحفي آخر:

"a basic, Four-way entente which oughtn't, any link of it, be broken"

"حِلف أساسي، مكوَّن من أربعة فرقاء الذي لا ينبغي، لأي مفصل فيه، أن يُخالَف"

ويشي هذا التعبير بمعنى مُخْلِص؛ أما البديل الذي يصاغ على نمط جملة الصلة:

"no link of which ought"

"أي مفصل من مفاصله ينبغي أن"

فسيبدو غريبا.

٢ـ طبيعة التخصيص:

أ ـ التخصيص والاستدراك:

التركيب التجَسُّمي، والهيكليات iconic syntax, architectonics

يقول شتيرن: "من المألوف جدًا أن يعبَّر عن المعاني العلائقية التركيبية باستعمال أية كلمة أو جزء من كلمة، إذ يبدو أن اللغات لا تأبه إلا قليلاً بالعلاقات وتُستعمل في الغالب بعضَ التعبيرات التي لا تكون دقيقة بالضرورة لكنها أكثر تأثيرًا واختصارًا ومباشرة، كما في الجملة التالية:

"How charming she is, with her dark curls"

أ ـ "كم هي فاتنة، بخصلات شعرها السوداء"

أما التعبير التام منطقيًا فقد يتسبب في فقدها لهذا التأثير" (Stern 1931:80).

وهذه ملاحظة جيدة، وإن كنا لا ندري ما الكيفية التي سيكون عليها التعبير 'التام منطقيا'. وربما عنى شتيرن جملةً متضامّة بشكل تام لا تتضمن أية مكونات متأخِّرة مما يمكن فصله، كما في:

How charming her dark curls make her seem!

ب - 'كم هي فاتنة تجعلها خصلات شعرها السوداء تبدو'

وليس هناك خطأ إيقاعيّ في هذه الجملة، لهذا فإذا قُضي على شيء من تأثيرها فيعود ذلك إلى أنه عَبّر عن شيء من الإدراك بطريقة أكثر وفاء في الجملة الأولى، على الرغم من ترهُّلها التأليفي. أما من حيث الاختصار فالجملة الأولى أقصر من الجملة الثانية، وهي أطول من الجملة التالية التامة التي تختلف عنها اختلافًا ضئيلاً من حيث المعجم.

How charming her dark curls are.

ج - "كم هي فاتنة خصلات شعرها"

ونحن نعرف جميعًا الشعورَ الذي ينتابنا حين نعجب بحلاوة شخص ما أو جماله، لكنه ربما يبدو غريبًا أن يكون هذا الشعور نتيجة للإدراك البارد للتفاصيل. ويستنتج الفيلم Genou de Claire أنك إن ركَّزتَ على خصيصة فمعنى الفتنة عندك منحرف أو أنه غبي. والحالة الأخرى تأتي من الفيلم Come September (١٩٦١): فهناك بعض الفتيات الأمريكيات يقضين عطلتهن في إيطاليا يلتقين صدفة ببعض الطلاب الأمريكيين الجامعيين الجدد ثم يتجاوزْنهم متبخترات. ولما غابوا عن أعينهن حدث الحوار التالي:

Girl no. 1: Which one did you like?

الفتاة الأولى: "أيهم تحبين؟"

Girl no.2: (with as much primness as she can muster): I didn't notice.

الفتاة الثانية: (بقدر ما تستطيع من التظاهر بعدم الاهتمام): "أنا لم ألحظ شيئا"

Girl no. 1: I liked the driver. He had nice blue eyes.

الفتاة رقم واحد: "أنا أحببت السائق. إن له عينين زرقاوين"

Girl no. 2: The're brown and keep away from him.

الفتاة الثانية: "لا، إنهما كحليتان ثم ابتعدي عنه [فهو لي] "

ـ فبأي معنى صارت البنت فاتنة؟ ومن الذي يحصي الطرق التي صارت بها فاتنة؟ فأنت لا تستطيع أن تحدد هذه الفتنة: وإذا ما طلب منك التحديد فسوف تنظر مستغرقًا بلذة لا تقاوَم، ثم تجد أن شَعْرها جذاب، ثم تكتشف كونه مجعدا. فخصلاتها ليست هي ما جَعل إصدار الجملة الأولى ممكنا (وذلك بالقراءة الانطباعية التي يهتم بها شتيرن)؛ فإذا كان هناك سبب لهذا التعلق فهو لا يزيد عن كونه ذريعة، أي طريقة للتعبير عن شيء لا يمكن التعبير عنه: أي الطريقة التي يشعر بها المرء بحب شيء معين، 'كيف أحب السمراء'، أو حب ذلك الشيء، 'ما أجمل الشقراوات!" فأنت تقول إن لزوجتك عينين جميلتين ـ لكنك سوف تسأل بسرعة، "لكن ما لونهما؟".

أما الجملة (ج) التي يَبرز فيها المميِّزُ، مثل: The rose's color is lovely "لون الورد طيب"، فبُعْدُها من الجملة الأولى أكبر من بعدها من الثانية، في الدقة النفسية. أما الملحَق المقدَّم، كما في Given/with her dark curls, she is very charming "بالنظر إلى/ مع خصلات شعرها السوداء، هي فاتنة" (وظهوره أقل احتمالاً في مثل هذه البنية، نحو: how charming she is. . . 'كم هي فاتنة") فيشي بعدم الاهتمام أوالتذمر أو التردد.

ويتصف أسلوب التمييز بنوع ما من البساطة، وذلك بسبب ملحقاته المؤخَّرة التي يمكن توسيعها بصورة لا نهائية، وذلك نوع من التواضع أمام ما لا يوصف. وهو يذكِّر بـ "الغ" التي يريد دارسو الدلالة العامة أن يستعملوها للتنفير من التفاخر التواصلي hubris .

ومن اللافت للنظر أن تحليل شتيرن يشبه قول الرضي (الذي أورده هاول ص ٢٩٥) عن الفرق بين بنية التمييز "طاب زيدٌ نفْسا" والجملة الأكثر قُربًا من الجملة الأساس: "طابت نفسُ زيدٍ" أو "لزيد نفسٌ طابت": فالغرض من بناء التمييز على هذه الصورة هو 'جَعْلُ الشيء غامضا، حتى يمكن ان يكون أكثر لفتًا للنظر لأن العقل مولَعٌ بالبحث عن معرفة وجه غموضه'. لهذا فليس من قبيل الصدفة أن يختار شتيرن نوعَ المثال الذي اختاره، ذلك أن أكثر فتنة الأنثى تنبع من 'هذا الذي يجعلها غامضة"، أي خمارها، وإبهامها وسرابيَّتها. فمقولة: 'يحيا الاختلاف" Vive la différence إنما تعني في الواقع: "يحيا الغموض' Vive le mystère.[1]

وفي الحالة التي ذكرناها هنا يصوِّر تركيبُ الملحقِ المؤخَّر السياقَ النفسي بصورة أقرب ما تكون للواقع. ولست أرغب في الادعاء بأن الأمر على هذه الشاكلة دائما؛ ذلك أن أنواع الإسناد المسبوق بـ with سهلة الاستعمال جدًّا إذ يمكن إدخالها في أي موضع حتى في الحالات التي يمكن فيها صياغة المعنى الذي نريده بطريقة أكثر إحكاما، وذلك ببساطة لإنقاص توتر التشفير. ويمكن لأنواع الإسناد هذه أن تضيف حالاً يقرب من التمييز :

"How charming she is, with her laughter")

"كم هي فاتنة، بضحكاتها")

أو جملة حال فعلية:

"How charming she is, with the lamb eating out of her hand!")

"كم هي فاتنة والشاة تأكل من يدها"). وهي تسمح بالاستدراك [البدل] كذلك. افرض مثلاً أنك تقوم بالتعاقد مع أعضاء هيئة تدريس شباب. وليس لديك أي انطباع عامّ يمكن التعبير عنه عن المرشح "أ"، وهو الذي لم تقابله بعد، ولا يزيد عن كونه، بالنسبة لك، سيرةَ حياة وحسب من بين مئات من المتقدمين، لهذا فحكمك بصلاحه للوظيفة لا يزيد عن كونه قائمة محدودة من المؤهلات. لذلك يمكن أن تقول: "إن تجربة المرشح "أ" التدريسية لخمس سنوات وأبحاثه العلمية الكثيرة تجعله ملائمًا لهذه الوظيفة"، وهذا كله مجرد حدس. أما التركيب الملحق فيسمح لك أن تعبر عن الأسباب كما ظهرتْ لك: "المرشح "أ" ملائم جدًّا للوظيفة: انظر إلى: خبرته التدريسية لخمس سنوات، وأبحاثه العلمية الكثيرة. . . ووسائل عيشه المستقلة".

وتأخير المخصِّص إلى نهاية الجملة أو إلى مكان آخر، وحده، لا يعني تقديم معلومات جديدة أو معلومات معروفة من قبل foregrounding nor backgrounding. وفي الحالتين اللتين ناقشناهما توًّا نجد المخصِّصات تكاد تكون تقديمًا لمعلومات معروفة، حيث الحكم الذي تتضمنه الجملة الرئيسة هو الشيء الرئيس. لكن التركيبات التي تأتي بعد البؤرة مطواعةٌ دائمًا وذلك لسماحها بالمقارنة والتضاد.

ب ـ التخصيص و"الاختصاص" Specification and "specialization":

سوف نحاول تمييز مميِّزات من نوع آخر من الملحقات الدلالية، وهو الاختصاص بالمعنى التزامني عند جسبرسن (وليس لهذا المصطلح صلة بالتضييق التعاقبي لما تدل عليه المعجميات، أو لاستعمال ريكندورف لهذا المصطلح في الدلالة على "التمييز").

يقول جسبرسن (Philosophy of Grammar 108):

> تشبه طريقةُ الحصول على أعلى درجة من الاختصاص طريقةَ الوصول إلى سقف عمارة باستخدام سُلَّم: فإذا كان سُلَّمٌ واحد لا يكفي فإنك تستعين أولاً بأطول سلم في حوزتك ثم تربط بنهايته العليا سلمًا أقصر منه، وإذا لم يكن ذلك كافيًا فإنك تربط سلمًا آخر يلي هذا في الطول بالطريقة نفسها وهكذا. وبالطريقة نفسها، فإذا كانت الصفة widow 'أرملة' لا تبلغ حدًّا كافيًا من الاختصاص فإنك تضيف الصفة poor "فقيرة" إليها وهي أقل اختصاصًا من widow، ومع ذلك فإنها إذن ستمكّنك من الوصول إلى حدٍّ أبعد من الاختصاص، وإذا لم يكن ذلك كافيًا فإنك تضيف الأداة very "جدًا. . ."

ولا شك أن عملية الاختصاص هذه يجب أن تُجزَّأ إلى أجزاء أصغر: ذلك أنها توحي بأن poor وwidow مستقلتان بطريقة مختلفة عن poor ، و very ، وأن هذه الأخيرة وحدها يمكن أن تسمى، بثقة، اختصاصا. يضاف إلى ذلك يمكن أن تكون الاستعارة الأكثر دقة لعبةَ الجولف: فأنت أولاً تضرب الكرة لتقع على الحشيش، ثم تصوِّب نحو الحُفْرة ـ ذلك أن very و poor تختلفان في النوع بقدر الاختلاف بين الضربة القوية للكرة والضربة الضعيفة لها؛ فهما لا يشبهان سلَّمَين. لكن لسنا بحاجة إلى التوسع في هذا الموضوع الواسع المهم أبعد مما فعلنا، فما يهمنا هنا التمييز بينه وبين *التخصيص* فقط. ولا يمكن أن نضع هذا التمييز من خلال الإطار النظري عند جسبرسن، ذلك أنه يستعمل المصطلحين كليهما من غير تمييز: (Analytic Syntax no. 33.6). لهذا فمناقشتهما في وضع يشتمل عليهما معًا تمثل أحسن طريقة لتبيين هويتيهما المنفصلتين.

افترض أنك قلت لي:

"France is clearly somewhat superior to Germany"

"من الواضح أن فرنسا تتفوق على ألمانيا شيئا ما".

وكلمتا clearly، و somewhat نوعان مختلفان من الاختصاص. وإذا ما عارضتك سائلا: "بأي شيء [تتفوق فرنسا على ألمانيا]؟ " فإنك تجيب: "انظر إلى تنوع طعامها، وخمرها، وفنونها، ورواياتها". ويعني هذا أن الأشياء المخصّصة بقيت كما هي في السابق لكنك الآن تورد مخصِّصًا، أو ينبغي أن يكون ضمنيًا في حكمك الأصلي.

لكنني أعترض عليك قائلا:

"consider German sports, beer, music, and scholarship."

"لكن انظر إلى الرياضة والبيرة والموسيقى والتقدم العلمي في ألمانيا".

ثم تسلّم لي بذلك. ثم يصبح الحكم الآن: "من الواضح أن فرنسا تتفوق شيئًا ما على ألمانيا في (أمر) الطعام، . . . " الخ. وهذا التحديد الأخير، أي *الاختصاص*، يَحُدُّ بشكل ما من حكم التفوق، لكنه يقوم بذلك بطريقة تختلف عن الطريقة التي تؤديها somewhat. فـ clearly و somewhat تحدّدان تحديدًا دقيقًا حكمَ التفوق superior، باتجاهات عمودية؛ أما عبارة "*في تنوع طعامها*" الخ، فتبيّن الكيفيةَ التي ينطبق بها الحكم، عند درجة معينة من القوة.

قارن: What a fine rose! "نِعْم الوردا! "

"كيف كانت "نِعْم"؟ ـ "في اللون" [لونا] "صحيح أنها صغيرة الحجم".

فالاختصاص هو المعجون؛ أما التخصيص فالسطح الذي تصبغه بالطلاء. أما الاختصاص من نمط: poor, merry فيشبه إضافةَ ألوانٍ أخرى.

وليس الفارق بهذا الوضوح في كل حال. انظر إلى:

Sissy Spacek is not conventionally beautiful.

"ليست سيسي سباسيك جميلة بطريقة معهودة"

ولا يمكن أن يؤثر فينا التفسير paraphrase:

"in the conventional way"

"بالطريقة المعهودة"، من غير داع. ذلك أن conventionally "تقليديًا" يمكن أن تكون إدراكًا كُليًا مثل baroquely "بغرابة"، أي أنها نوع من الاختصاص. لكنْ إن كان هناك قائمة نهائية بالصفات التي يمكن أن تُعَد من الصفات الجَمالية المتعارف عليها ـ مثل: "الأسنان المتراصة بشكل صحيح، والشعر المُموَّج، الخ ـ فربما تبدو conventionally كأنها تخصيص، أي أنها "وجهة نظر ملحَقَة"، مثل: legally blind "أعمى في حكم القانون". ذلك أن السؤال هو: لماذا تكون المميِّزات تكرات بشكل مطرد، في حين أنه لا ضرورة منطقية لكي تكون كذلك؟ ويبدو أن سبب ذلك هو الظهور profile ، جزئيًا، لكنْ ربما يعود ذلك، جزئيًا، لاحتمال أنها تمثّل الأبعَاد المعهودة لتقويم القضايا التي تأتي للتعبير عنها. فأنت تقول:

The rose is pleasing in scent

"الوردة ذكية من حيث الرائحة"

أو: lovely in color, pleasing in scent, perfect in size. . .

"طيبة من حيث اللون، مُرْضية من حيث الرائحة، وملائمة من حيث الحجم" لكن يبدو غريبًا أن تقول شيئًا شبيهًا بـ:

Marry is pleasing in scent

"ماري ذكية من حيث الرائحة"

إذ يَحتمِل أن تقول:

Marry must be wearing a new perfume

"لابد أن ماري تطيبت بعطر جديد"

أو: has such a pleasant scent about her

"لها رائحة ذكية"

فهي تشبه شبهًا قريبًا الجملةَ الفرنسية:

Je l'ai écrasé avec la voiture/?? l'éléphant.

(حيث تكون La voiture أقل تحديدًا من *ma* voiture). وربما تستعمل التعبير الأخير إن كنت أنت سائق الفيل.

ج - الاختصاص والتدقيق:

ومن التعارض المنطقي في الاصطلاحات التقليدية، وإن لم يكن تناقضًا منطقيًّا حقيقيًّا، أن الاسم "يخصَّص" بواسطة قسم من أقسام الكلام يكون هو نفسه أقل "اختصاصا"، أي الصفة. (قارن يجسبرسن، المصدر نفسه، ص ٧٥؛ وذلك مثلُ كَوْنِ 'كاتب'، وهي اسم فاعل، تعني أي شخصٍ 'يكتب'؛ أما بصفتها 'اسمًا' فلا تعني إلا نوعًا من الموظفين والكتّاب écrivains؛ أو poor "فقير" في مقابل the poor 'الفقير'). كما يُخصَّص 'المميِّز' باسم نكرة، غالبًا ما يكون غير محدَّد، ويأتي على صيغة مفرد لا يخضع للمطابقة من حيث العدد: أي أنه تمييز 'غير مخصَّص'. ويكمن حَلُّ التعارض الظاهري في الاعتراف بالتحديد المتبادل. فحين نقول: poor widow "أرملة فقيرة"، لا نأخذ ببساطة معنى 'التعريف' في poor ثم نضيفه إلى widow؛ بل تساعدنا widow نفسها في اختيار المعنى المحدد لكلمة poor الذي سنضيفه (أي المعنى الذي سنختاره منها ليكون: 'of bad quality' "ذا نوعية سيئة'). لذلك فحين نقول: The rose is lovely in its color فإننا نعني 'في *لونها*'.

وهناك نوع من الاختصاص/التخصيص يبدو كأنه معاكس، وهو الذي يكون فيه الشيءُ الملحَقُ أضيقَ بشكل واضح من ذلك الذي يقوم هو بتحديده. وغالبًا ما تظهر أمثالُ هذا التركيب في هيئة بدل apposition من الشيء الذي يُحدِّده الأكبر. والعربية أكثر حرية في استخدام هذا النوع تركيبيًّا من الإنجليزية؛ ويناقش ريكندورف أمثلة هذا البدل تحت مسمى "المفسِّرة" erklärende Anfüng (مثل: 'جاء أخوك زيدٌ'. فربما كان لك أكثر من أخ)؛ و: 'النعت السببي' erläutendes Attribut (مثل: 'لأهل باديتهم مَنْ بَرَّ مِنْهم'، وهي التي قد لا يكون لها مكافئ في الإنجليزية من غير إضافة شيء جديد أو وقف تقسيمي caesura:

'to their Beduins – [or rather]. those of them [viz. Of those Bedouins] (who are pious', '. . . those that are pious, that is'

ويورد بروكلمان (ج٢، ص ٣١٢) عددًا من الحالات المماثلة:

"ضَرَبَه ـ مِقطَ شراسيفِه"

"شَجَّه قُصاصَ شَعْرِه"

ويُصنِّف تحت العنوان نفسه بعضَ الحالات مثل:

"واختار موسى قومَه سبعين رَجُلا" (الأعراف، الآية ١٥٥)

ويجيء الفصيلة المشتمَل عليها في الموضع الثاني:

"تخيَّرتُه ـ أهْلَ المدينة"

لكن هذه تقترب من الشبه بالأفعال الناصبة لفعلين factitive التي ناقشناها في القسم السادس، وليس لها علاقة بالضرورة بتضييق المعنى؛ قارن:

"تخيَّرَ كاتِبَه كافِرا"

ويعيدنا كلُّ هذا إلى التمييز لأن بروكلمان يريد، متابعًا ريكندورف، أن يرى المثال التالي:

"ضُرِب زيدٌ الوجهَ"

على أنه يؤدي إلى التمييز:

"حَسُنَ زيدٌ الوَجْهَ"

والمشكلة هنا، بالطبع، أن المميِّز معرفة، لكن هذا يمكن أن يكون، تاريخيًا، هو الأصل ثم صُيِّر نكرةً لغرض الظهور التركيبي الأدق.

انظر مثلاً جملة: John kicked Bill in the shins

"ضرب جون بِلّ في قصبة الساقين"

فهي ليست تمييزا ـ فليس المعنى المقصود: "فيما يتعلق بالساقين" بل "فيما يَخص مُخُّهما".

ومع هذا فهناك توازٍ بينها وبين التمييز المُضيَّق.

John kicked Bill – Where? – In the shins.

"ضرب جون بل ـ أين؟ ـ في الساقين"

John surpassed Bill. - 'Where?'(In what categories) – In the broad jump and the 100-meter dash.

"فاق جون بل. ـ أين؟ (في أي شيء) ـ في القفز العالي وجري المائة متر"

ويمكن أن نتخيل أنواعًا كثيرة من المقارنات. فالقول بأن هناك علاقة "في اللغة"، أي أن هذه العلاقة تظهر لمتكلم بَعْد متكلم، يقتضي أن يكون بإمكاننا أن نرى صُدفًا صرفية ـ تركيبية أكثر لفتًا للنظر. ـ وأنا أعرف أنني غير مطرد في نزوعي إلى البحث عما يؤيد وجهة نظري ظاهريا. ففي تفسيري للشعر الجعْد الفاتن لم أستقص الأمر في خمسين لغة، أو أسأل الناس عن طريق استخدام الاستبانات. ومع هذا أشعر أن بعض الأشياء تبدو على جانب كبير من الصحة. Man can no more "فهذه حدود إمكانياتي" ـ وبغض النظر عن أي أمر آخر. فإليك مثالاً آخر من التشابه: فإذا قبل أحدٌ الجملة "غَبن رأيَه" على أنها تمييز فسوف يميل إلى قبول الجملة: "أَلِمَ رأسَه" على أن لها صلة وثيقة بالجملة الأولى (هاول ٢٨٤).

ومن الصُّدَف التي نجدها في لغات أخرى ما يلي:

١ـ تنزلق الفكرة الحِسِّية: at a place "في مكان ما"، لتتداخل مع الفكرة الأكثر تجريدًا والأقل تحديدا: with respect to "فيما يخص". أما مع الضَّرب فليست هذه الصلة واضحة جدًا، لكن قارن بـ :

sick at heart

"مريض في قلبه" [متألم]

wounded in his pride

"جُرِح في شرفه"

٢ـ وتقع ضربةٌ ما على رأس فرد ما، لا "فيه"، ومع هذا يمكن أن يقال: hit him in the head "ضربه في رأسه". وربما كان ذلك بتأثير التمييز.

٣ـ وقد لاحظ N. Ruwet (Théory syntaxique et syntaxe du français, 243) المثالين التاليين:

Je l'ai touché à la jambe (J'ai touché sa jambe)

"أصبتُه في رجله/ أصبت رجله"

*Je l'ai cassé à la jambe

"كسرتُه في رجله"

ولو كانت هذه الحالة تشبه التمييز النمطيّ لكان الواجب أن نتوقع نقل المكوّن الجرّيّ. وربما أمكن أن يُفسِّر هذا الجملتين ٥ و ٦ ، ذلك أن من الممكن أن نقول:

Je l'ai touché à la jambe-> Je l'ai touché

"أصبته في رجله" ⟵ "أصبتُه"

لكن الجملة التالية غير ممكنة (حيث تشير le إلى Jean)

but '*Je l'ai cassé (le= Jean)

"كسرتُه" (حين يعود الضمير le على Jean)

***

والطريقة الأخرى التي يشبه بها التدقيقُ zeroing- in التمييزَ تلك التي تتمثل في اشتراكه في بنى الاستدراك، التي تسمى في العربية بـ "البدل". ويقسم النحويون العرب بنى البدل إلى أربعة أنواع (رايت، ج٢، ص ٢٨٤ وما يليها):

١ـ بدل الكُلّ من الكل (وهو النوع الأبسط: "عُمَرُ أخوك")

٢ـ بدل البعض من الكل: "أكلتُ الرغيفَ ثُلثَه"

(وتسمح الإنجليزية بمثل هذه البنية فقط حين يكون التابع لها مؤكِّدا، لا مقيِّدا: I ate it - all of it "أكلته ـ كُلَّه". لهذا ينتمي هذا النوع في الإنجليزية إلى النمط (٤). أما:

I ate it – (well), a third of it (anyway)

"أكلتُه ـ (حسنًا)، ثلثه (على أية حال)"

فربما كانت عبارة عن تصحيح القائل لما قاله، أي أنها من نمط الجملة ٤).

٣ـ بدل الاشتمال، وهي التي تشبه من حيث الدلالة التمييز:

"أعجبني زيدٌ علمُه"

وهو نوع تُفرد فيه خصيصةٌ معينة من: "علمُ زيدٍ أعجبني". وهي قريبة من أن تكون مميِّزة < زيد أعجبني// في (فيما يخص) العلم>.

٤ ـ وهي بدل محض، لكنها تضيف شيئًا آخر

I ate bread – oh, and meat) "أكلت خبزا ـ حسنًا، ولحما") أو نفي شيء (I ate bread – I mean, meat "أكلت خبزا ـ أعني ـ لحما").

ويربط برافمان في كتابه Studies 100 f البدلَ بالإضافة غير الحقيقية.

التعليقات

(١)ـ ويسمي ريكندورف هذه البنية "الاسم المنصوب الخاص بالعلاقة" Akkusative <<der Beziehung>> (SV 115) ثم يضيف:

"ويسمى عند العرب تمييزا"

Von den Arabern tamyis 'Spezialisirung' genannt.

(٢)ـ يتحدث فليشر عن "المنصوب المفرد" Singularaccusativ ، وهو مصطلح يبدو لأول وهلة مماثلاً في عشوائيته لـ Singularfemininum، "مفرد مؤنث" مثلاً، لكن فائدته تظهر في السياق الكلي للتمييز.

(٣)ـ لاحظ الوظيفة الدلالية للمقارنة، مثلا. فتعبِّر الألمانية عن هذه إلى الحد الأقصى من الاطراد (إذا استثنينا بعض الاستثناءات القليلة جدًا مثل gut-besser): فإذا أردت أن تقارن أية صفة أو أي ظرف فما عليك إلا أن تُلحق بهما الأداة er–. أما الإنجليزية فأقل اطرادا: ذلك أن بعض الاعتبارات الصواتية تتطلب أحيانًا بعض الإطناب، مثل: more intelligent 'أكثر ذكاء'، وهو استغلال للبنية نفسها التي نجدها في more rice "مزيدًا من الأرز" لغرض آخر. أما العربية فأقل اطرادًا بدرجة أكبر: إذ لا يُسمح باشتقاق المفاضلة إلا من عدد محدود وحسب من الصفات، في حين تلجأ بعض الصفات الأخرى إلى أنواع أخرى من البنى المختلفة، كالتمييز، كما في "أشدُّ بياضا". ولهذه الطرق الجانبية خصائص خاصةٌ بها: إذ يجب أن نختار من بين "أعظم"، و"أشد"، الخ. وبالمثل تتصف الطرقُ الجانبية التي يلجأ إليها المتوسطُ اللغوي الأوروبي النموذجي لإنجاز التمييز بأنها خاصة، إذا ما قارناها بالتمييز المطرد.

(٤)ـ وتستخدم الإنجليزية أحيانًا بعضَ التعابير التي تقرب من تعبير "قسٌ حِلْمًا"، و"حاتم جودا"، لكن هذه التعابير تُصحَب بأداة التنكير، كما أنها لا تصبح تعابير مثليّة إذا ظهرت بصحبة أسماء الأعلام، أو الأسماء المحدَّدة إشاريا. ومثل ذلك: a glutton for punishment التي تعني:

"النَّهِم حين يتعلق الأمر بالعقوبة" (قارن، بصحبة رأسٍ وصفي: 'طيِّبٌ نفسًا')؛

"a fiend for work",

'شيطان فيما يخص العمل'

"a fool for love",

"غبي فيما يخص الحب"

"a pushover in business",

"جريء فيما يخص التجارة"

"a sucker for tearjerkers"

"مجنون فيما يخص المتباكين"

فيمكن في هذه التعبيرات أن يأخذ الاسمُ معنى مختلفًا شيئًا ما عن معناه الأصلي. ولكي نؤول "قسٌ حِلما" نقول: "فكِّر في قس؛ والآن، كيف يبدو، فيما يخص الحلم؟" لكنا لا نقول:

Think of a fiend; what is one like, as regard work?

"فكِّر في شيطان: وهو ما يشبهه إنسان مهين، من حيث العمل"

بل:

"he works fiendishly hard"

"يشتغل بشدة كالشيطان"

و :

"he works like -a-fiend".

"يشتغل كالشيطان"

وبالمقابل فالتعبيرات التالية ليست مثلية على الرغم من كونها صحيحة نحويا:

?an Einstein for/in brilliance

"هو إنشتاين من حيث الذكاء"

(والأفضل: as brilliant as Einstein "كإنشتاين ذكاء"، أو مجرد: "an Einstein" "هو إنشتاين"

"no Einstein" "لا يشبه إنشتاين").

?a Beethoven for/in thematic profundity

"هو بيتهوفن من حيث عمق الموضوعي" (والأفضل:

"a Beethoven where symphonic profundity is concerned."

"هو بيتهوفن من حيث العمق السيمفوني")

وهذه لا تزال تمييزية من حيث الدلالة، لكن يجب ان نلجأ إلى تركيب أقل تحدُدا وظهورًا وصرامة ـ ولا يشبه التمييز، للتعبير عن المميِّز الذي يتضمن فعلا).

?un Beethoven pour/en profondité thématique

(والأفضل: pour/en ce qui concrne la profondité thématique . . .").

وحين لا يكون الاسم مرتبطًا بطريقة مُقَوْلَبة ببعض الخصائص المعيَّنة، سيكون التركيب أكثر سوءا:

?*a John Smith for fatness

"هو جون سميث من حيث السُمنة"

*a John for fatness(where John is a fellow we know)

"هو جون من حيث السمنة" (حين يكون جون شخصا معروفا)

*He's my grandfather for/in generosity.

"هو جدي من حيث الكرم/ أو في الكرم"

وكذلك في العربية، فتميل الأسماء التي تُستعمَل في مثل هذه البنى إلى أن تكون اصطلاحية في استعمالها المجازي، لذلك تنحدر لتكون وصفية من حيث الدلالة (حاتم= رجل كريم) وإن لم تكن كذلك من حيث البنية:

??a generous-man for generosity

"رجل كريم كرما"

a genius for brilliance

"عبقريٌ ذكاء"

a stingy as a miser

"بخيل بخلا".

(لاحظ هنا: أنه لا شك أن عبارة: for love ليست تمييزًا في الأصل من حيث الدلالة، لكنها "مفعول لأجله"، أي متمم سببيٌ، كما في jumping for joy (vor Freude) "يقفز فَرَحا". لكن بعض المتكلمين أعاد تحليلها، وربما كان ذلك بتأثير العبارة المثلية an X-ing fool التي تعني "شخص يحب أ" (fiddling fools, flying fools "الأغبياء الطيارون"، "الأغبياء العابثون"). لهذا صارت هذه العبارة التي كانت تعني: made foolish because of being

"صار غبيًا لوقوعه في الحب"، تعني (إن كان ظني صحيحا): "foolishly in love enthusiastic when it comes to love" 'مبالغ في الحماس حين يتعلق الأمر بالحب').

(٥)ـ وتعطي الجملة (٦) قراءةً تتسم بالمفارَقة إن "أنهيتها" بعد الكلمة 'كبيرا'، وهو ما يعطي المعنى 'قَزَم كبير'. ولا يمكن أن تجزأ الجملة (٧) بهذه الطريقة لأن 'كبير' ليست تامة من حيث الصرف.

وقد كتب [الروائي الفرنسي] بلزاك في *Eugénie Grandet*:

"une femme homme d'énergie et de taille,"

'امرأة مترجِّلة بطاقتها وقامتها'

وهي عبارة تعطي قراءة تتسم بالمفارقة إن قُطعت بعد homme ، وهي هنا مسند محدد بمركب جري بصورة أساسية.

(أ٥) ـ وقد أورد الزجاجي (تحقيق ابن شنب، ص ١٠٧ـ ١١١) خمس طرق في الأقل تختلف بعضها عن بعض اختلافًا يسيرًا عن قول ترجَمته الإنجليزية هي:

I passed by a handsome-face man

'مررت برجل حسنٍ وجهُهُ'

'مررت برجل حسنِ الوجهِ'

'مررت برجل حسنِ الوجهَ'

"مررت برجل حسنٍ وجهًا"

"مررت برجل حسنِ وجهٍ"

والجملة الأولى "نعت سببي"، والثانية "إضافة غير حقيقية"، والثالثة نوع من التمييز غير الطبيعي، والرابعة تمييز مألوف، والخامسة نوع غير مألوف من الإضافة غير الحقيقية. ويفسر الزجاجي الاسم المنصوبَ في الجملة الثالثة بأنه 'على التشبيه بالمفعول به' ويقول إنه لا يمكن أن يكون تمييزا؛ ذلك أن التمييز (أي 'المميِّز'): 'لا يكون إلا نكرة". والأسلوب السادس هو:

"مررت برجل حسنٍ وجهِهِ"

ويروي أن سيبويه يجيزها لكن النحويين الآخرين 'البصريين والكوفيين" جميعهم يرفضونها.

(٦)ـ والمظاهر قد تكون خادعة. فتبدو العبارة: "أصغر حجما" (التي وردت في الإذاعة العراقية "صوت الجماهير" في أكتوبر ١٩٨١) كأنها حشو إن تُرجمت بـ: smaller in size "صغير حجما"، لكنه يجوز أيضًا أن يكون شخص ما "أصغر سِنًا": فالصفة الأصل "صغير" يمكن أن تشير إلى أيٍّ من البُعدَين.

وحين يكتب ماكس مولر

:(Max Müller, *Autobiography*, p. 156 of the 1976 New Delhi reprint)

He was a giant in size

"هو ضخم من حيث الحجم"

و:

a giant in stature

"ضخم الهيئة"

فإن التمييز هنا يقوم بتجريد كلمة giant من أية علاقات أسطورية أو ارتباطات أخلاقية.

(٧)ـ وتُقدِّم مقالة ليو سبيتزر Leo Spitzer, "Français populaire question de, comme" في مجلة (1940) *Français moderne* VIII، عددًا من الاستشهادات المأخوذة من سيلين Céline نجد فيها بنية يمكن أن تكون تامة مثل:

"Cet effort était piteux"

" (كان) هذا الجهد يرثى له/ يدعو للرثاء"

أو:

"L'atmosphère collait"

"كان الجو ثقيلا"

وربما تأتي على صورة شطرين:

"C'était piteux comme effort,", "Ça collait comme, "atmosphère."

"أما عن الجو فكان ثقيلا"

وتُذكِّر هذه البنية بالتمييز، إلا أن هناك عددًا من الاختلافات الشكلية: فما يمكن أن يكون "مميِّزًا" هنا يُنقَص إلى مجرد ضمير (وغالبًا ما يكون ça، وأحيانًا ils)؛ وربما يكون الشبيه بالمميِّز جمعًا وربما يمكن تقديمه:

"Comme allusions, c'était infect"

"أما التلميحات فكانت كريهة"

ويؤدي إمكانُ التقديم إلى نشوء بعض المشكلات في تحليل سبيتزر لبعض الحالات الأكثر غطية مثل :

"C'était tassé comme procession devant la porte Saint-Denis"

"لقد كان المكان مزدحما وكأنك تشاهد استعراضا أمام بوابة سان دينيس"

ومع هذا، وبغض النظر عن قيمة تحليله نورد فيما يلي تحليله للخطة البلاغية:

On émet d'abord un jugement embrassant globalement la situation entière, donc probablement prématuré et sommaire, comme le peuple a accoutumé: *c'était tassé*; puis on remédie à l'outrance du jugement global en introduisant – par feinte ou par mauvaise conscience- un point de vue particulier ou relativiste, par lequel ce jugement pourrait à la rigueur être justifé: 'si on pense à une procession' [à d'autres points de vue peut-être ce jugement *tassé* ne vaut plus] bien que ce jugement ne puisse en réalité être sujet à des considérations particlles (une procession est tassée, oui ou non). Nous reconnaissons donc ici en rythme <<en deux mesures>>, d'avance et de recul, de synthèse outrancière et de correction prudente, ou de <<deux temps>>, si caractéristique en français, par lequel une énonciation *une* est scindée en deux parties, l'une provisoire et impulsive, l'autre complétive et ayant égard au prochaine (*il est idiot/ce garçon*; *c'en est une/d'idee*; *c'est une triste chose/que d'aimer sans être aminé*).

يُرسل [المتكلم] حكمًا عامًّا يشمل الوضع كاملا، وهو حكم ربما يكون مستعجَلا وبالغ التعميم، على نحو ما تعوَّد عامة الناس سماعَه من أحكام، نحو: 'لقد كان المكان مزدحما'؛ ثم يحاول تعديل درجة التعميم في ذلك الحكم ـ إما في الظاهر أو بسوء نية ـ بإدراج وجهة نظر خاصة أو نسبيَّة قد تبرر هذا الحكم في النهاية: 'ماذا لو فكرنا في مشهد استعراض' [بحيث يصبح الحكم على المكان بأنه "مزدحم" لاغيًا تمامًا حسب وجهات نظر أخرى] مع أن هذا الحكم الأخير لا يمكن أن يخضع لاعتبارات جزئية [أو نسبية] (فمشهد الاستعراض إما أن يكون مزدحما أو لا يكون). نحن هنا إذن أمام إيقاع [في التفكير] يسير "على وتيرتين"، واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الوراء، إيقاع في التفكير يبدأ بحكم مبالغ فيه تعقُبه محاولة حذرة لتصحيحه، أو نحن بالأخرى أمام

[حكم] يرسله المتكلم "على مرحلتين"، وتلك سمة مميزة للغة الفرنسية، فيُقسِّم بموجبه الكلامَ الواحد إلى قسمين: أولهما وقتيّ (مؤقت) وانفعالي، ويُتبعه بقسم آخر مكمل يراعي فيه ما سيلحق من كلامي: (غبيّ / هذا الولد؛ بالها من/ فكرة؛ إنه لأمر محزن/ أن تحب من لا يحبها)

كما أورد سبيتزار بعض الأمثلة من مستوى من الفرنسية أقل عامية، مثل:

"Comme histoire écrite en prose, Villehardouin est le premier par la date et le mérite."

"يُعدّ فيلوهاردوان أول من بدأ كتابة القصة (أو ربما يقصد التاريخ؟) نثرا، وأعلاهم كفاءة في ذلك" حيث دُمِجت في ثلاثة مستويات، وهي لا تعني أساسًا إلا: إن نثر فلهاردوين التاريخي هو الأقدم والأحسن".

الفصل الثاني عشر

السببيات والعَزْويّات

هناك توجهان اثنان من حيث المبدأ في الدينامية الوورفية: فواحد يذهب من اللغة إلى الحياة (وهو التوجه الذي يؤكده وورف نفسه) والثاني من الحياة إلى اللغة. ويبين تأثير التوجه الثاني، كما يقول لنا مارسيل كوهين (*Pour une sociologie du langage*, p.14) في افتراض كوبلمان التالي، في كتابه: (Koppelmann: *Die Sprachee als Symptom der Kultursufe*):

"où l'on apprend par exemple que les sémites ont dans leurs verbes des causatifs parce qu'ils ont l'occasion de <<faire faire>> des ouvrages par des animaux et des esclaves,"

'حيث يفيدنا مثلاً أن الساميين يستعملون صيغًا للتعدية في الأفعال، ذلك أنهم دأبوا في حياتهم على استخدام الحيوانات والعبيد في تنفيذ بعض الأشغال، فهم لذلك "يجعلون الحيوانات والعبيد ينفذونها لهم". اما صيَغ التبادل، بالمقابل، فتعبِّر عن التنظيم الديموقراطي'.

والملاحَظ أن اللغات جميعها تعبِّر عن السببية بطريقة أو بأخرى؛ والسبب الذي يجعل السببية تلفت أنظارنا في اللغات السامية أن هذه اللغات تعبر عنها بقوة مما قد يؤدي بنا إلى الظن بأن لها تفسيرًا اجتماعيًا هو أن في هذه اللغات وزنًا مشتقًا يقرب من الاطراد للتعبير عن السببية في الفعل المجرد. وتُفجَأنا هذه الطريقة للتعبير عن السببية لأسباب ستوكية Stokesian: ذلك أنها لا تتبع نمط الأفعال المتضام وإن لم يأت عليه إلا قليل منها في اللغة الإنجليزية، مثل: fall-fell, rise-raise 'سقط ـ يسقط'، 'قام ـ يقيم'، ولا تشبه التركيب المطرد وإن كان مطوَّلاً فيها، مثل: make/have/cause- to + verb 'جعل/ تسبب/ طلب ـ الفعل'.

وسنناقش الاعتبارات الستوكية في مواضع متعددة في هذا الفصل من غير أن نصل إلى نتيجة نهائية بشأنها. ويمكن إثبات خطأ الافتراض الوورفي الذي أوردناه آنفًا من غير

عناء. فالمقولة المهذبة well-profiled التي ربما نتوقع أنها تصوّر مجتمعًا مكونًا من عبيد وخدم ليست على وجه الدقة سببية فيما يخص النتيجة ـ ذلك أن الجملة التالية:

John boiled the beans

"غلى جون الفول"

لا تبين أن جون يقوم بعمل خاص به ـ بل يمكن أن نسمي هذه المقولة بـ "السببية بالنيابة" deputized causative . أما لو كانت الإنجليزية تتطلب منظومة خاصة من صيغ الفعل المشتق كما في الجملة التالية:

The judge pro-executed the prisoner

"أسند القاضي [عدام السجين [إلى غيره] "

بمعنى:

The judge caused (the appropriate deputies) to execute he prisoner

"جعل القاضي (المعاونين المعيّنين) يُعدمون السجين"

فيمكن لنا أن نستنتج أن العمل الذي ينوب المعاونون في تنفيذه عملٌ محدَّد ومقولة مهمة في الحياة الإنجليزية. أما في الواقع فإننا نقول:

I grow soybeans on my farm

"أنا أزرع الفول في مزرعتي"

مع اهتمام ضئيل بمسألة إن كنا نحن أنفسنا الذين حرثنا الأرض أم أننا ببساطة نملك الحقل وندع العمال يقومون بذلك العمل. (وفيما يتعلق بمثل هذه الجملة فمع قبولها لكلا التأويلين، إلا أنها لا تبدو ملبسة بل هي غامضة وحسب، وإلى هذا الحد يتلاءم السياق مع الاستدراك الإدراكي للفرضية الستوكية). والأفعال السببية المشتقة في العربية عمومًا سببية للأحداث التي لا يُناب في القيام بها: فالجملة: "اقرأته القرآن" تعني: I made him read the Koran

"جعلته يقرأ القرآن"

لا: I made (someone) read the Koran to him

"جعلتُ (شخصًا ما) يقرأ القرآن له" [1].

وكما في الإنجليزية يمكن للتسبيب بالإنابة أن يعبَّر عنه أحيانًا بفعل متعدٍّ مجرَّد:

"كان عُمَرُ قد جَلَدَهُ مائة"

Omar gave him 100 lashes

أي أنه جعل إنسانًا آخر يضرب [شخصًا آخر] مائةَ جلدة [أي أن عمر لم يباشر ذلك بنفسه]

"كَتَبَ رسـولُ الله إلى بني عمرو وكَتَبَ خالدٌ"

"أوْمَأتْ إلى خادمِها فَدَعتْه"

(والذي دعا هو الخادمُ [والضمير في "فَدَعتْه" يعود إلى شخص غير الخادم])

(والأمثلة من ريكندورف AS 77).

ونجد في مثال آخر شبيهٍ بالمثال الأخير أن عبارةً مفسِّرة أُضيفت إلى الفعل المتعدي المجرد لإيضاح الإمكان بالفعل الذي يُناب في القيام به، لكنه ليس فعلاً سببيًا مشتقًا، بل صيغة للفعل نفسه مبنية للمجهول غير مسندة لشخص معين: "دعاه أو دُعِيَ له" (AS 358).

ومن جهة أخرى ففي العربية وزنٌ فعليٌ مشتقٌ للمبادَلة [المفاعلة] reciprocal "كَتَبَ"، "تَكاتَبوا". وهذا ما يُسقط فرضية كوبلمان، فيما يخص العربية في الأقل.

***

وسنقصر حديثنا في أكثر هذا الفصل على الصرف. وسنأخذ الفعل السببي، من أجل أغراضنا هنا، على أنه ذلك الذي يكون معناه سببيًا بشكل مقنِع في واحد من المعاني المختلفة لفكرة السببية، وتوضِّح بنيتُه الصرفيةُ التركيبيةُ وضوحًا كافيًا العلاقةَ الاشتقاقية (ويشمل ذلك الاشتقاق الصِّفْر) بالكلمة غير السببية (أو الأقلِّ سببية). أما إذا لم نقم بهذا التحديد فإن هذا المجال واسع وهو ما سيؤدي إلى أن نضل طريقنا وسط التخرصات الدلالية الصعبة والغامضة إلى حد بعيد. وكمثال على ذلك فقد كان الفعل الأول الذي أورده ماكولي (١٩٧٩) مثالاً على الفعل السببي في مقال بعنوان: Remarks on What can Cause What 'بعض الملحوظات عن السببية" الفعلَ shot "رمى" في جملة: "John shot Mary"! "رمى جون ماري [أطلق جون النار على ماري] ". وربما خطر لبعض المنظِّرين أن

معنى الفعل يمكن أن يكون: "أن تُجعَل رصاصةٌ تدخُل [في رأس شخص ما]، عن طريق إطلاق الرصاصة" (حيث تكون الكلمة shoot في تفسير الجملة الإنجليزية ـ أهي سببية أيضا؟ ـ معنى آخر من معاني الفعل shoot)، أو ما إلى ذلك، لكن إن سمحنا بقبول معنى هذه الكلمة هنا على أنها فعل سببي فإننا نكون قد ابتعدنا كثيرًا عن البنية السطحية التي يفقد الإنسان طريقه فيها إذا أراد، مثلاً، المقارنةَ بين الإنجليزية والعربية في هذا الشأن. لكن سنأخذ shoot من أجل غرضنا هنا، على أنها سببية في الجملة التالية:

John shot the package past the guard

"رمى جون المظروفَ متجاوزًا الحارس"

وذلك بسبب علاقتها السطحية بالجملة:

The package shot past the guard

"انحذف المظروفُ متجاوزًا الحارس"

حيث زاد الفعل اللازم في التكافؤ valence، أي أنه حافظ على معناه الجوهري وزاد عليه إعمال السببية. لكننا ربما لا نستطيع أن نتكلم بشكل أوضح عن الجملة: John shot the gun "أطلق جون البندقية" ذلك أننا لا نقول في العادة: The gun shot "أطلقت البندقيةُ"، بل: The gun went off "انطلقت البندقية" (مع احتمال وجود علاقة بينهما بسبب بعض الاستعمالات مثل: If the gun is dirty, it won't shoot "إذا كانت البندقية متسخة، فإنها لا ترمي". أما الفعل shot بالمعنى الذي أورده ماكولي فلا يبدو سببيًا إلا بالمعنى الذي يمكن به لأي فعل متعد أن يتضمن قدرًا من السببية، أي إذا ما أثر في الأشياء بأية طريقة. لهذا ربما لا يكون لفعلٍ إحساسيٍ لازم أيُ معنى سببي في أكثر الظواهر، لكنه ربما يكون له في بعضٍ آخر:

The tree falling in the wilderness made no sound until John heard it

"لم يُحدث سقوط الشجرة في الغابة صوتًا إلا بعد أن سمعه جون"

(أي أن سماع الصوت يجعل سقوط الشجرة موجودا). أو في الميكانيكة الكوانتية:

We measured the spin-orientation of the particle

(فلم يكن لها سرعة دوران محددة إلا عند حدوث قياسها).

ويرى تشومسكي (١٩٧٠)[٢] أن "من الممكن جدًّا أن تكون الجملةُ: The stories amused him "أثارت القصصُ استغرابه"، "أن تكون مشتقّةً من:
<The stories CAUSE: he was amused at the stories>
< تُجعل القصصُ: أن يكون مستغربًا من القصص>

ويمكن أن يقترح هذا التحليلَ فيلسوفٌ نَذَر نفْسَه لتحليل amusing story "قصة مثيرة للاستغراب"، و comedy "قصة فكاهية" إلى مكوناتها ضمن إطار الميول نحو مجموعة الانطباعات الحسية، أما فيما يخص شكل اللغة فيجب أن تكون be amused at "أن يكون مستغربًا من" نوعًا فرعيًّا للفعل المتعدي amuse . وقد فتح [اللساني الأمريكي المعاصر] لاتجيكر البابَ أوسع من ذلك[٣] : فقد افترض شكلاً مجرّدًا: CAUSE حتى للجملة : Martin runs "يجري مارتن".

وأنا لا أجادل ضد التحليل إلى المكوِّنات المعجمية decomposition المدفوعة ببعض الأغراض الخاصة. ذلك أنه يمكن في الحالة الأخيرة أن نعارض افتراض وجود السببية في Martin runs ـ فربما لا يزيد الأمر عن أن مارتن لم يَجْعَل رِجْلَيه تتحركا، وإنما هو [يجري] تحت التأثير الكُلّي لمارلين [أيعني أنه يهرب من امرأة تسمى مارلين؟]، بل حتى إن كان يجري بالطريقة المألوفة يمكن لشخص ما أن يقول Martin is running "يجري مارتن الآن" لكي يروي إحساسًا أوليًّا يُشبه: The sun is shining "الشمس مشرقةٌ الآن"، وهو نشاط إدراكي أساسي يشبه كونَ مفهوم "الأمّ" يبدأ بصفته نشاطًا إدراكيًّا أساسيًّا لكنه ربما لا يعاد تحليلُه إلى<والدٍ أنثى> إلا في وقت تالٍ. لكن ربما نميل إلى الاتفاق مع ما يقوله جورج لاكوف في رؤيته قدرًا من السببية في دلالة dissuade "يَمْنَع، يُثْنِي"، وهي التي يجزِّئها إلى المكونات التالية: <cause. . . to not intend>، < يسبب. . .أنْ لا يَقصِد > (وربما كان الوجه الأفضل أن نقول: to intend not "أن يقصد لا")[٤]. والسؤال هو ما الذي يمكن أن نستخلصه من هذه الحالة تركيبيًا. يرى لاكوف أن عدم الصحة النحوية للجملة: John dissuaded anyone from seeing Harry "ثنى جون الناس جميعا عن رؤية هاري" نتيجةٌ طبيعية للتحليل إلى المكوِّنات المعجمية وإلى الآلية التحويلية. لكن بغض النظر عن أنه

يمكن ببساطة لبعض المتكلمين أن يفهموا الجملة على أنها تعني ذلك مع dissuade "يثني"، فإن التحليل نفسه يمكن أن يُستعمل في تحليل prevent 'يمنع' على أنها <cause. . . to not do> "يسبِّب. . . ألا يعمل" ثم التنبؤ بعدم الصحة النحوية لجملة John prevented anyone from seeing Harry "منع جون الناس جميعا من رؤية هاري"، وهي التي تبدو صحيحة نحويًا عند كثير من المتكلمين. ولاشك أنه يمكن تجاوُز هذه المشكلة عن طريق التلعُّب بشيء آخر في مكان آخر من النحو الشكلي، وهو الأمر الذي حدث في كثير من الحالات المشابهة (ولنقل عن طريق الزعم بان dissuade تأخذ شخصًا فضلةً في المستوى التحتي، فيما تأخذ prevent قضيةً ـ فَضْلَةً)، والواقع أن تاريخ النظريات النحوية المتنافسة في ربع القرن الماضي يحوي عددًا من المهارب العجيبة من المعضلات الشائكة، وهو ما يعني سلسلة من المغامرات الهروبية. لكنه يَنشأ عن هذه المنفعة المتبادلة بين عناصر النحو الشكلي حدوثُ مشكلة أيضا. فالنحو الشكلي في الواقع ـ وهو ما لا ينطبق على اللغة، كما أظن ـ نظامٌ يكون فيه tout se tient "كل شيء فيه متلازم". لذلك نجد، حين نحاول أن نجد تفسيرًا لأية ظاهرة، أن هذه الظاهرة نفسها مركز يدور حوله النحو بمُجْمله. والآن، فأحد الأمور التي أود أن أصل إلى قرار بشأنها في هذا الفصل هو ما إن كانت الصُّدْفَةُ الصرفيةُ للأفعال السببية والتقديرية estimative في العربية هي صدفةً في الحقيقة ـ ذلك أن هناك بعض الصيغ من المشترك اللفظي التي لا يمكن أن يكون لها صلة بالصيغ السببية تزامنيًا) ـ أو أنها لا يمكن أن تكون مطردة من حيث الدلالة. وسوف أحاول تبيين أنها مطردة، ليس اعتمادًا على أي تحليل للمكوِّنات المعجمية أو على الاشتقاقات الشكلية لمعنى ما من معنى آخر أو على العلاقات الشكلية بين المعاني، بل تأسيسًا على الأدلة السياقية لوجود المشترك اللفظي نفسه في اللغات الأخرى، ومن الأدلة الإدراكية الداخلية في اللغة كذلك. وربما لا يكون لهذه النتيجة صلة بالاختلافات الأخيرة بين النظرية المعيار الموسَّعة [في النحو التحويلي] والنظرية المنافسة التي بُعثت فيها الحياة من جديد، لكنها ستوضح لنا في الأقل بعض التفاصيل لركن من أركان الحيِّز الدلالي.

***

وكما هو معروف تحوي العربية عددًا كبيرًا من الجذور الثلاثية التي تصاغ على عدد من "الأوزان" المختلفة. والقاعدة أن الأوزان المختلفة لجذر ما تختلف في معانيها؛ والغالبية العظمى لهذه الاختلافات مطردة شيئًا ما، ذلك مع لزوم أن نتذكر أن اللغة في حال من عدم الاستقرار، وأنه إذا ما صيغ وزنٌ مشتق ما فإنه يصير حرًا في تطور مساره الدلالي: ذلك أن الاختلاف الدلالي بين الأوزان ربما يصل أحيانًا إلى حدّ الغموض، وهو ما يُضلل التتبع التأثيلي. ويسمى وزن الفعل الأساس بـ"المجرد": إذ لا يتضمن صوتًا صامتًا زائدًا بعد الجذر الثالث (باستثناء التصريفات)، ويميل إلى أن تكون دلالته أكثرَ "أساسيةً" من دلالة الأوزان المشتقة حين يمكننا المقارنة بينها. وتُحدُّ العبارةُ الأخيرة من حيرتنا في مسألة أيٍّ المعاني أكثر أساسية. فمَع اننا لا نستطيع أن نقول باطمئنان انَّ kill "يقتل" أو eat "يأكل" أكثر أساسية، ويمكن أن نتردد في القول بان kill ليست إلا <CAUSE to die> "يَجْعَل أن يموت"، مضافًا إليها، ربما، تأثيرات التجاور الظاهر، إلا انه لا يزال من الممكن أن نقول إن فهْم kill يفترِضُ فَهْم die (في عالَم رَعَويّ) والعكس ليس صحيحًا بالضرورة[٥]، وأن strive to sing "يَجْهَد أن يُغنّي" مثلاً، أو cause to sing "يَجعل أن يُغني" فكرةٌ أكثر تعقيدًا من sing.

(وسوف أورد الأوزان في صيغتَي الماضي والمضارع المسنَدتَيْن إلى المفرد الغائب):

١ـ فَعَل ـ يَفْعُل (وهناك صيغ أخرى ممكنة مع اختلاف في الحركات، في الوزن المجرد فقط. وتميل هذه الحقيقة أيضًا إلى وَسْم الوزن المُجرَّد على انه أساس: أما ثبات التناظر [بين حركتي عين الفعل ولامه في الماضي والمضارع] فنجده في الصيغ المشتقة "الموسومة")

٢ـ فَعّل ـ يُفَعِّل

٣ـ فاعَل ـ يُفاعِل

٤ـ أَفْعَل ـ يُفْعِل

٥ـ تَفَعّل ـ يَتَفَعَّل

٦ـ تَفاعَل ـ يَتَفاعَل

٧ـ انْفَعَل ـ يَنْفَعِل

٨ـ افْتَعَل ـ يَفْتَعِل

٩ ـ (والوزن التاسع صيغة خاصة، مقصورة على التعبير عن الألوان والأدواء والعِلَل [افعَلَّ ـ يَفعَلُّ)

١٠ـ استَفعَلَ ـ يَستَفعِل

ويسمى الوزن المجرد أيضًا "الجذع G" من (-Grund) "المجرد"، والوزن الثاني "الجذع D " من (doubled) "فعّل"، والوزن الرابع "الجذع H " (إشارة إلى السابقة في اللغات السامية) "أفعَل".

الطرق التي يعبّر بها عن السببية في العربية:

تستعمل الطرق التالية للتعبير عن السببية في العربية، بالمعنى الصرفي المحدَّد الذي يتطلب وجود صيغة مماثلة غير سببية (أما بالمعنى الدلالي غير المحدد فكل شيء جائز):

أولا ـ التَّشارُح "التفسير" [التعبير المفصَّل] Periphrastic :

وغالبًا ما يكون باستخدام صيغة "جَعَل":

"قد جَعَلـ[ـ]ـنا أبو معروف نُحِبُّ قَرْيَتَنا نُحِبُّ تُرْبَتَها"

(كانتارينو ، ج١١، ص ٤٩٧).

وفي العربية الأندلسية:

"لَوْ جَعَلَكَ اللهُ تراني"

(ابن قزمان، القصيدة السابعة: البيت ١٣، والقصيدة الحادية عشرة: البيت الرابع)

(لاحظ هنا أنه لو تُلِيَ الفِعْلُ "جَعَل"، مباشرةً، بفعلٍ آخر بدلاً من المفعول، فسيكون بمعنى "الشروع": "جَعَل يَضرِبُه").

ثانيا ـ الصيغة التأليفية:

١ـ الاشتقاق الفِعْلي الصِّفْر:

أ ـ من غير علامة زائدة:

"نَمَا بِهِ وَنَماهُ الخَيْرُ والخَيْرَ"

(مونرو ٣٢٦؛ لشاعر عاش في القرن الثالث عشر الميلادي. والفعل المجرد "نما" يستدعيه الوزن. أما في الأدب العربي المعاصر فستكون السببية من وزن "نمّى"، أو وزن: "أنمى").

"شَخَبَ اللَّبَنُ" [لازم] (من إدوارد لين) "شَخَبَ اللَّبَنَ": "جَعَلَ اللَّبَنَ يَشْخُبُ"

ومن وزن "أفعل":

"أزْهَرَ" ((وفي اللاتينية: lûceo) "جَعَلَهُ يُضيءُ") (وهو في اللاتينية القديمة: lûceo).

ومن وزن "فعَّل":

"حَمَمَ" ("صار أسْوَدَ"، "سَوَّدَ" ("جَعَلَه أسود")). (قارن باللاتينية: nigrare).

يضاف إلى ذلك: "نَبَرَ"؛ "وَقَفَ" (جَعَلَهُ يَقِفُ)؛ "جَعْجَعَ" (جَعَل الجَمَلَ يَبْرُكُ)، وفي العربية المتأخرة: "خَسَفَ" (مُتعدٍّ وغير متعد).

ب ـ مع حرف جَرٍّ يؤدي إلى التَّعدِّي دلاليًّا [المتعدي بحرف الجر]:

في القرآن الكريم: "لَخَسَفَ بِنا" (القصص، الآية:٨٢)؛ قارن بـ: "عَدَلْتُ بِهِم عن الطريقِ" (ريكندورف SV 243). قارن بالإنجليزية: do away with "تخلص من".

ويمكن بالتحليل النظري والدَّمج amalgamation، أن تنضم هذه البنية إلى الفصيلة (٣ب) أدناه، مثل: "جاء بـ" -> "جاب" في اللهجات. قارن بريكندورف (AS 238f) من أجل الاطلاع على أمثلة أخرى.

٢ـ من غير تغيير في الوزن لكن مع تغيير في الحركات القصيرة (في الفعل المجرد):

"خَبِلَ"، "خَبَلَ"

"رَهِفَ" ، "رَهَفَ"

٣ـ الزيادات غير المطردة:

أ ـ بقايا من السوابق القديمة التي لها وظيفة الهمزة في صيغة "أفعل" في *العربية*:

"سَنْبَقَى" (قارن بـ "بَقِيَ")

"سَلْقَى"

(قارن بـ: "أَلْقَى" و"اسْتَلْقَى"؛ وللاطلاع على التطور الدلالي قارن باللاتينية: jacere, jacêre).

"هَرَاقَ" (في وزن غير مطرد، إن أخذت "الهاء" على أنها جذر)، وهناك أمثلة أخرى في رايت (ج١، ص٣٦).

ب ـ نادرة، وتعبيرية:

"زَحْوَلَ"، وهي اشتقاق يقرب من الاطراد من "زَحَلَ" (فعل لازم)، وهو ما يسميه إدوارد لين بـ: Q.Q.1 "الرباعي المجرد المضعف". ولكن أيضًا "زَحْلَفَ"، مع زيادة صوت صامت، وهي الصيغة التي يقال إنها مشتقة من الأصل نفسه. (لهذا فإن "زَحْلَفَ" و"زَحْلَقَ" كليهما يمكن أن يَعْنيا to roll (something) down "أن تُدَحْرِج (شيئًا) إلى أسفل". ويجب أن نَعُد هذا، تزامنيًا، نوعًا من الارتباط الثانوي، قارن "شَرِسَ"، "شَرْشَفَةٌ" [سيئ الخُلُق]).

٤ـ الأوزان الفعلية المشتقة:

من وزن "فَعَّلَ":

"شَرُفَ"، "شَرَّفَ"

"عَلِقَ"، "عَلَّقَ"

"وكأنَّ الريح. . . طَيَّرَتْ في الجو. . .عَقْعَقًا" (مونرو ١٥٦؛ قارن بـ: "طار")

مع فِعْلٍ إحداثي متعدٍ إلى مفعولين resultant ditransitive:

"يُشَهِّي الموتَ كلَّ جبانٍ" (المتنبي)

من الوزن "أَفعل":

"صَمَّ"، "أَصَمَّ" (وتوجد صيغة من الوزن "فَعَّلَ" لكن لها معاني مختلفة).

"جَلَسَ"، "أَجْلَسَ".

مع فعل إحداثي متعدٍّ إلى مفعولين:

"أَرَيْتَني هذا وأَفْهَمْتَنيه" (كاتتارينو، ج٢، ص ١٦٨).

العلاقات بين الأوزان الأخرى:

يُنظَر إلى وزن "تَفَعَّلَ" على أنه مطاوعٌ مُشتَقٌّ أو "وَسَطِي" [شِبْه المبني للمجهول]؛ لهذا لن نَعُد "كَسَرَ"، و"كَسَّرَ" سببيين مشتقَّين من "تَكَسَّرَ"، وبالمثل فيما يخص: "فَرَقَ" و"فَرَّقَ"، و"تَفَرَّقَ"، وأفعالاً أخرى كثيرة.

قارن أيضًا الفعل الرباعي المجرد "شَلْشَلْتُ الماءَ"، و"تشلشل" الرباعي المضعف المزيد.

وبالمثل مع صيغة "افتعل" اللازمة المشتقَّة:

"غَبَقَهُ"

"اغْتَبَقَ"

تحليل مفصل لبعض الأوزان الفعلية المشتقة:

هناك وزنان مشتقان يمثّلان المعنى السببي دائمًا، وهما "فَعَّلَ" و"أَفْعَلَ". لكنْ لا تُعَدُّ هذه الخصيصة الدلالية، في الحالتين كلتيهما، الخصيصةَ الوحيدةَ لهما، بغض النظر عن بعض الأفعال المشتقة القليلة التي لا تَنِمُّ عن أية علاقة مطردة أو ربما واضحة بأيٍّ من معاني أوزانها الأخرى إن كان هناك شيء من ذلك. (والفعل "المشتق" بالمعنى الصَّرف هو أيُّ وزن غير وزن الفعل المجرد). وبدلاً من ذلك نجد تعقيدًا كبيرًا في كل حالة، وهي التي تستحق أن نحاول تحليلها.

يَصف سوسن وبروكلمان في Arabisch Grammatik خصائصَ الأوزان بصورة مختصرة جيدة كما يلي:

"يعبِّر الوزن الثاني من أبنية الفعل العربي (فعَّل) (وهو ما يقابل وزن pi^{cc}el في العبرية) عن النشاط المعبِّر عنه بواسطة الوزن الأساسي (فعَل) بشكل أكثر قوة أو أكثر تكرارا؛ ويمكن لهذه العوامل الإضافية أن تكون مرتبطة بالفاعل أو المفعول أو أي ظروف أخرى مصاحبة، فعلى سبيل المثال: "قتَّل" تكون مرتبطة بالفاعل مقارنة بصيغة "برَك الجمل" وكذلك "ضرَّب"".

"Der II Stamm *faεεala* (dem Pieεel des Hebr. entsprechend) kennzeichnet die im Grundstamm [measureI] ausgedrückte Tätigkeit als intensiver, extensiver oder wiederholt; diese Intensität kann sich auf das Subjekt, Objekt oder auf begleitende Nebenumstände beziehen, z.B. *qattala* 'mehrere töten' (mit Beziehung auf das Objekt)[cf. *Qatala*' kill'], *barraka l-naεamu* (mit Beziehung auf das Subjekt, zu *baraka l-jamalu* 'das Kamel kniete nieder') , *darraba* 'prügeln' [cf. *darab* 'hiat]."

ويقال إن هذا المعنى المؤكِّد - الموسَّع لوزن "فعَّل" هو الأصل. وللاطلاع على تفسير مخالف دقيق للأدلة، قارن بليمهويز Leemhuis , *D and H Stems*, p. 5f 'جذرا 'فعَّل' و"أفعل"؛ وقد خلص ليمهويز إلى أن المعنى الأصلي ربما كان حَدَثِيًّا factitive [فعل ينصب مفعولين]. ومن اللافت للنظر أن شيوع الرأي القائل بأن الوزن "فعَّل" كان توكيديًّا يعود جزئيًّا، فيما يقال، إلى التأويل التجسيمي iconic : إذ إن تضعيف الجذر الثاني يدل على تضعيف الحدث (المرجع نفسه، ص ٨).

ويستمر بروكلمان قائلا:

"غالبا ما يكون الوزن الثاني متعديا، خاصة إذا كان الوزن الأساسي محايدا، مثل: علِم ⟵ علَّم (جعله يَعلَم)".

"Oft, namentlich von neutrischen Grundstamm, ist die zweite Form kausativ,z.B. *εalima* 'wissen' *εllama* 'wissen machen, lehren',"

والواقع أن معنى "علَّم" لم يكن مقصورًا أبدًا على مجرد التوكيد، بمعنى "أعلَم بطريقة جيدة" 'know real well'.

وختامًا، نعثر بمقولة دلالية جديدة هامة جدا. وهي أن وزن D [فعَّل] "المضعف" يقوم بوظيفة الإعلان والتصنيف، مثل:

"كذّب' ← "كذّب' (جعله كذابا)
"auch deklarativ, z.B. *kaðaba* 'lügen', *kaððaba*' für einen Lügner kalten, erklären".
وأحد أهدافي من إيراد أقوال هؤلاء العلماء باللغات الأصلية التي كتبوا بها أن أضع المصطلحات المختلفة التي يستعملونها أمامنا؛ وسوف نحاول بعد قليل أن نستعمل المصطلحات المتداولة. ويذكر بروكلمان أيضًا استعمالاً denominativ "مشتق اسمي" لهذا الوزن، كما في "كبّر"، (أن تقول: الله أكبر)، وهو الذي يجب أن يطلق عليه، اتباعًا لبنفينيست، delocutive "مشتق من القول".

ومن الأمثلة الأخرى للوزن "فعّل" الإخباري declarative :

"بَخِلَ"؛ "بخّله"

وهذا الاشتقاق غير مألوف، وليس آليًا؛ ولم يورد إدوارد لين أية صيغة إخبارية تماثل "شَحّ" و"ضَنّ" المرادفتين لـ"بَخِل".

"ظَلَم"؛ "ظَلّمَه' [اتهمه بالظلم].

والمشتقات السببية مألوفة في لغات كثيرة. فتحتفظ الإنجليزية ببقايا من الصيغ المشتقة بواسطة العملية التي تضيف -jan في اللغات الجرمانية القديمة؛ وتكوّن اللغة التركية صيغ السببية بصيغة مطردة مألوفة فيها. أما الصيغ التحليلية العَزْوِيّة أو التقديرية ascriptives ، estimatives (قارن الفرنسية estimer "يَحسَب") فأقل وجودا. فليس في اللغات الأوروبية المعروفة أية طريقة مطردة لصياغتها. وربما لُجيء إلى استخدام طريقة مُطَوّلة تُظهر فيها النوعية أو العمل الذي يُعزى إلى المفعول في شكل المسند الأصلي له:

I consider him a saint.

"عدَدْته راهبًا"

Consider yourself lucky.

"عدّ نفسك محظوظًا"

We hold these truths to be self-evident.

"نَعدُّ هذه الحقائق صحيحة بذاتها"

The D. A's reconstruction has Liddy entering at around midnite.

"عـدّت الشـرطة في افتراضـها للطـريقة الـتي وقعـت بها الجريمة أن دخول ليدي كان حوالي نصف الليل"

He was thought to like sailing.

"ظُنَّ بأنه يُحب رياضة الإبحار"

Ich halte ihn für meinen Freund.

"أحسبه صديقي"

Un interlocuteur ne saurait estimer inexistant l'être qui constitue le thème d'une conversation. (Ducrot 1972)

"لا يمكن لمتحدث أن يتجاهل وجود شخص يمثل/ هو ذاته موضوع الحديث"

J'estime être aussi renseigné que vous.

"أقدّر أن لدي من المعلومات ما لديك"

والمفعول المباشر في الأمثلة السابقة كلها هو الوحدة التي تُعزى إليها نوعية أو حدث ما؛ ويمكن أن يُلحَق المعزوُ بطرق مختلفة، مع حرف جر أو من دون حرف جر (أو مع comme في الفرنسية، أو as و to be في الإنجليزية). كما يمكن أن تلحق مختلفَ الخصائص والظلال الدلالية، التي لسنا معنيين بها هنا، بالأشكال المختلفة للسلسلة.

وهناك على حد ما أعلم طريقة عزوية واحدة غير مطولة وغير سببية في الإنجليزية، وهي الكلمة الثمينة: to macarize "يُسْعِد" التي تعني to account or call happy or blessed (OED) "أن تعدَّ أو تدعو [شخصًا معينا] سعيدًا أو محظوظا" . كما في:

A man is admired for what he is, macarized for what he has, praised for what he does.

"يُقدَّر الرجل بما يتحلى به، ويُسعد بما يملكه، ويُمدح بما يَعمله" (واستُعملت هذه الجملة أول مرة في سنة ١٨٦٥). لكنها لا تزال غير مكافئة للعربية، ذلك أنها مشتقة من غير أن يكون لها صيغة أصلية.

أما Beatify "يُسْعِد" وهي مرادف عزوي لـ macarize فتعبِّر بالإضافة إلى ذلك عن معنى حدثي أقدم:

"to make supremely happy or blessed"(OED).

"أن تجعل [شخصا ما سعيدا جدا أو محظوظا]".

أما المعنى الإخباري الذي يعرّفه قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية OED فهو "to pronounce or declare supremely blessed" "أن يَحكُم، أو يُعلِن أنه مُسْعَد بصورة عالية جدا"، ثم يعطي مثالاً لها يعود إلى سنة ١٦٧٧:

"the common conceits and phrases which so beatify wealth."

"الخصائص والعبارات المألوفة التي تعلن بسعادة عن الثروة". ويُعرّف المعنى الأخير الموجود في الجملة التالية:

"R.C.Ch. To pronounce (a person) to be in enjoyment of heavenly bliss"

"أن تعلن أن شخصا يتمتع ببَركة السماء"

بأنه إخباري، لكن يمكن أن يكون كثير من المتكلمين قد أوّلوه بأنه نوع من الفعل الحَدَثي، ووظيفته أن يعترف بمنزلة معيَّنة للشخص الـ beatified "المُسْعَد" بدلاً من كونه إعلانًا عن راي، يمكن أن يكون قد قام على أساس موثوق، أي على ما يحصل عليه ذلك الشخص من الثواب في الآخرة. ومن هذا الوجه فـ beatify أدائية performative ، أي أنها إخبارية مع قوة تُشبه قوةَ الفعل الحدثي، مثل canonize "يَعترف بـ . . . قانونيا".

وختامًا نلحظ من بين المجموعة القليلة من الكلمات الإنجليزية التي اكتسبَت معجميًّا معنىً حدثيًّا وإخباريًّا الكلمةَ: stultify "يُسفِّه". وكان معناها الأقدم في الإنجليزية يدل على "to declare a person *stultus* "أن تصف شخصًا ما بأنه سفيه" أي معتوه ومن ثم فهو غير مسؤول قانونا. أما الاستعمال الحاليّ فنوع من الحدثي، مع بعض التحول في المعنى في الحالة التي يستعمل فيها.

وبما أن لدينا وفرة من المصطلحات التي تطلق على "العَزْوية"، يمكن أن نسمي الحالة التي يُعلِن المتكلم فيها أن شيئًا ما هو "أ" (من غير اعتقاد صدق ذلك بالضرورة) *إخبارية* (أي بمعنى: "صنّفه بوصفه كاذبا" 'für einen Lügner erklären')، وأن الحالة التي يَعتقِد المتكلم أن شيئًا ما هو "أ" (من غير أن يقول ذلك بالضرورة) *تقديرية* (أي بمعنى: "أعلن

بوصفه كذابا"für einen Lügner halten")، فيما يمكن أن تنطبق *العزوية* من غير اختلاف على أي من الحالتين.

وتوجد في هذه اللغات وفي العربية كذلك صيغ مطولة أقل إحكامًا لا تكون فيها الكلمة المتحدَث عنها ومحتوى ذلك الحديث مفعولات نحوية، بل تظهر في جملة ملحقة يكون لها نفسها شكلُ حُكْم:

I believe/say/opine/hold that he is happy;

"أعتقد/ أقول/ أرى/ أظن أنه سعيد"

Je crois qu'il est heureux;

"أظن أنه سعيد"

Ich glaube, dass er glücklich ist;

"أظُنُّ أنه مسعود"

وهذه التركيبات لا لَوْن لها دلاليًا وتركيبيًا، ولا تتميز بذلك الارتباط الوثيق بين الشكل والوظيفة الذي يمكن أن نتوقعه في عملية صرفية، وإلى حد أقل، في عملية تركيبية يمكن أن يصفها أحد دارسي النحو التحويلي بأنها قد رُفِعَت فاعلَ الجملة التابعة إلى موضع المفعول [نقلته من كونه فاعلاً للجملة التابعة ليكون مفعولاً للفعل في الجملة الرئيسة]، وهو ما أدى إلى نشوء وحدة أكثر تضامًا أدت فيما بعد إلى نشوء ارتباطات دلالية وإثراءٍ متبادَلا (قارن بـ hold dear, hold responsible "يعتقد اعتقادا جازما"، "يُلزِمه بالمسؤولية") وكذلك إلى طُرقٍ أكثر إحكامًا للتعبير[٦]. وبالمثل، يمكن للسببية أن تكون على درجات متعددة من التضام:

"We brought Chomsky to Berkeley.

"أحضرنا [دعونا] تشومسكي إلى بيركلي"

We made Chomsky come to Berkeley.

"جعلنا تشومسكي يأتي إلى بيركلي"

We cause Chomsky to come to Berkeley.

"تسببنا في أن يأتي تشومسكي إلى بيركلي"

We brought it about that Chomsky came to Berkeley."

"جعلنا من الممكن ان يأتي تشومسكي إلى بيركلي"

وتناقش رسالة الدكتوراة التي انجزها [اللساني] شيباتاني مثلَ هذه الأمثلة معطيةً عددًا من الحالات لمعنى أضيق أو لارتباطٍ أكثر غنى للسببيات المكوّنة من عبارة مفردة[٧].

وإذا ما حاولنا أن نتثبت من كون هذا الوضع ستوكيًا أم لا فإننا نصطدم بتعارض منطقي. ذلك أنا وجدنا في مناقشتنا للأمثلة في الفصل الثالث أن القِصَر والاطراد كانا متلازمين. اما هنا فالأشكال الأطول هي المطردة: أي أنها مهذبة well-profiled في المستوى النحوي لكنها غير مهذبة تهذيبًا جيدًا في المستوى المعجمي. ونحدْس ان الأمور على الوضع الذي ينبغي أن تكون عليه: أي أن الصياغات غير المطردة أشبه ما تكون بالكلمات، حتى إن كان من الممكن تحليلها؛ كما تميل الكلمات إلى أن تكتسب ظلالاً إيحائية أكثر من اكتسابها بنى نحوية (قارن بغموض الدلالة في تركيب المفعول المباشر، والمفاعيل المُطْلَقة ablative absolutes ، إلخ).

***

ونستأنف الآن استقصاءنا للصيغ الفعلية المشتقة في العربية. يقول سوسن وبروكلمان عن وزن الفعل الجذع H "أفعل":

"الوزن الرابع (أفعل) (يوافق Hifʿil في العبرية) له وظيفتان؛ إحداهما للتعدية، والأخرى للإعلان، مثلا:

صَلَح ⟵ [صلُح] اصلح (جعله في وضع جيد)،

حَمِد ⟵ أحمدَ (يعدُّه صالحا للحمد) ".

"Der IV. Stamm (afʿala) (Hifʿiil des Hebräischen) hat kausativ oder deklarative Bedeutung, z.B. *salaha* 'in einem gutem Zustande sein', *aslaha* 'in guten Zustand versetzen'; *ahmada* 'für preiswürdig halten'."

قارن بصيغة: "حَمِد"، وصيغة التكثير intensive "حَمَّد" (Wehr).

ومن الأمثلة الأخرى لوزن "أفعل" "العزوي"

'ظَرُفَ'، "أظرَفَ بالرجل".

ووزن "فَعَّلَ" أكثرُ شيوعًا في المعنى العزوي، بصفة عامة، لكنَّ ما يستحق الذكر أن ورود المعنى السببي والعزوي لوزن 'فعّل' يظهر مرة أخرى في صيغة "أفْعَلَ". وختامًا فإضافة إلى عدد محدود من النُّسَب التي لا تظهر في صيغة "فَعَّلَ"، وهي التي لن نناقشها، نجد في وزن 'أفعل':

> "تعبر الأفعال المتعدية المشتقة من أسماء عن أحداث تتسبب في وجود المفاعيل، وتناسب الأفعال اللازمة في الألمانية، مثل: أحسن (عمل شيئا حسنا)؛ أمطر (أنزل مطرا)؛ أورق (أنتج ورقا)".

"Von Nomina abgeleitete Kausativa bezeichnen Tätigkeiten, die ihr Objekt erst hervorrufen, entsprechen daher deutschen Intransitiven wie *ahsana* 'Gutes (hasanun) tun'; *amtara* 'regnen' (von *matarun* 'Regen'); *awraga* 'Blätter (waragun) treiben'.".

والظاهر أن مصطلح 'Kausautiva' "السببي" هنا ليس مصطلحًا دلاليًا، بل وصفًا لصيغة "أفْعَلَ"، وكفى. وعلى أية حال فربما نرغب بكل تأكيد أن نميِّز نمط 'أصْلَحَ' من نمط "أحْسَنَ"، ذلك أن النمط الأول، وحدَه، سببي (أو حدثي). وبعد ذلك كله، يمكن لـ "أصلح" أن تعني من حيث المبدأ: 'Gutes (sâlihun) tun' "أن يكون صالحا" بدلاً من repair, overhaul, make amends 'يُصلح، يرفو، يعدِّل'؛ وبالمثل فربما كانت "أحْسَنَ" تعني ما أمكن تشفيره على وجه الدقة في صيغة "حَسُنَ". ويبدو أن هناك نوعين فرعيين لنمط "أحسن" الأساسية غير السببية. فالنوعُ المتعدي ظرفيٌّ : 'do well, master'، "تمكّن من"، 'أحسنَ العملَ'، قارن بـ 'أطالَ' (أطالَ الكلامَ)، وهو يساعد في التعويض عن عدم وجود فصيلة مطردة للظروف في العربية. وربما اقترح كانتارينو في كتابه Syntax of Modern Arabic(II 165) وضعَ 'السببية' بين مزدوجات بهذا الاستعمال، كما يتضح ذلك في:

"لَعَلّني أسيءُ الظنَّ إليك"

'قد كان يُكْثِرُ من الرِّحلات إليها'

(قارن بـ: "كثّر")

والواقع أنه يمكن أن ننظر إلى هذه الجمل على أنها سببية أصلاً بمعنى ما: فالمثال الأخير يشبه تمامًا الجملة الإنجليزية:

"He multiplied his visits to her'

"كَرَّر من زيارته إليها"

حيث تطور الفعل الحدثي فيها ليصير ظَرْفيًا. أي أنه يُفْهَم على أنه ببساطة طريقةٌ متخيَّلة لقول إنه زارها مرة تلو مرة، بدلاً من أن يكون موازيًا لـ double one's money

"ضاعَف دراهمَه" الحدثي. وهذا التطور في استعمال الفعل طبيعيٌ وخَفِيٌ، فجملة:

"He redoubled his efforts"

"زاد من مضاعفة جهوده"

غامضة بين وجهة النظر الحدثية المشتملة على أَلْسَنَةِ hypostasis الجهودِ على هيئة تَكْمِيم الطاقة quantum of energy ، وبين وجهة النظر المتمثلة في العملية الظرفية، وهي تتماثل مع :

"He tried twice as hard"

"حاول مرتين بالمستوى نفسه من الجهد"

وثانيًا، فالنمط الفرعي اللازم حدثيٌ بطريقة ما، لكنه (لكونه لازما) بالضرورة نوع من الحدثي الداخلي، نرى فيه الاسم المقارب وهو يتكوَّن، كما في:

"The bush budded/bloomed/flowered" (brought forth buds, blooms, flowers).

"أزهرت الوردة/ تفتحت، تورَّدت".

ومرة أخرى، هناك تحول طبيعيٌ وخفيٌ بين التوجهين، فـ:

"It's raining"

"إنها تُمطر"

يمكن أن ينظر إليها إما على أنها امتداد للطقس، وإما على أنها نتاج للمطر بواسطة السماء.

وغالبًا ما تكون صيغة "فاعَل" نزوعية conative أو غير سببية تغيِّر من عدد الأسماء المتأثرة بها valence - rearranger ("كَتَبَ: كاتَبَ" مما يشبه تقريبا: rob: steal

"سرق: نهب" - "كَتَبَ رسالةً"، "كاتَبَ اخاه")؛ كما أنها أيضًا نوع سببي ثانوي. ويواصل بروكلمان قائلا:

> "يؤدي الوزن الثالث "فاعَل" في بعض الحالات وظيفةَ السببية إلى حد كبير للوزن السادس "تفاعَل" من الجذر نفسه، مثل: "تابَع"، في الأصل باستخدام الأداة "بيْن"، ثم أصبحت ترِد غالبًا بمفعول مباشر، كذلك "قارَب"".

"Manchmal ist der III. Stamm gewissermassen das Kausativ zum VI, wie *tâbaʿa* 'einander folgen lassen' ursprünglich mit *bayna* [introducing the object], dann auch mit Akk.; *qâraba* 'nahebringen',"

بصفتها مشتقة من "تقارَب" بدلاً من "قرُب". ويورد نولدكه في .Zur Gram عددًا من الأمثلة من هذا النمط (ص٢٦ وما بعدها). وهنا ليس لوزن "فَاعَل" معنى عزوي، لكن لا يبدو أيضًا أنه صيغة سببية مألوفة أو غير محدودة كما هو الأمر مع الوزن "فعّل" أو الوزن "أفْعَل"؛ لهذا ليس عبثًا أن يدعو نولدكه هذا النوع من صيغة "فاعَل" بأنها: "لم يعتن بها بعد بشكل جيد"

"noch nicht recht beachtet"

ويمكن أن يُصاغ الفعلُ من وزن "فَعَّل" أو وزن "أفْعَل" من أي شيء تقريبا؛ أما الصيغة السببية لـ"فاعَل" فمحدودة جدا:

> "تحوّلت بعض صيغ الأفعال إلى صيغ سببية بشكل واضح، لكن هذا المعنى مختلف عنه في الوزن الرابع "أفعل". ويبقى الفرق البسيط قائمًا في دلالة هذا الوزن الوظيفية. فصيغة "ساقَط" يمكن أن تنوب عن "أسقط"، لكنها في الواقع تدل على أن الفاعل جعل الأشياء تسقط تباعا (مما يعني أنها صيغة سببية للوزن السادس "تفاعَل")."

"Einige dieser Verben sind so schon ziemlich zu einfachen Causativen geworden, aber der Ursprung dieser Bedeutung ist anders als bei IV, und ein kleiner Unterschied der Bedeutung bleibt meist bestehn. *Sâqata* kann oft durch *asqat* erserzt werden, aber eingentlich ist es 'über einander herfallen machen' (so also doch wie ein Causative von VI)." (id)

وهناك دائمًا ما يُذكَر صوتيًا بالصلة بين الشكلين المتشابهين لوزن "فاعَلَ" ووزن "تفاعَلَ"، فيما لا يوجد إلا علاقات بعيدة ومتنوعة لـ "فعّلَ" و"أفعل" بالشكل الصوتي لصيغتهيما الأصليتين (الأصل المجرد). وبما أنه ليس لصيغة "تفاعَلَ" نفسها إلا مدى دلالي محدود فإن الصيغة "فاعَلَ" السببية تشبهها بعض الشيء في كونها معزولة نسبيا.

ولدينا إلى الآن صيغتان للفعل المشتق هما "فعّلَ" و"أفْعَلَ"، مع اتساع كبير في معناهما السببي، كما أن للوزنين أيضًا معنى عزويًا (ولا يظهر دائمًا في كلّ فعل).

وقد لخص فيشر (١٩٧٢، ص٨٧) هذين الوزنين كما يلي:

"*Fa*^{cc}*al* bildet Intensiva wie *qatta*^{c}*a* 'zerstückeln' zu *qata*^{c}*a* 'abschneiden', Transitiva wie *thabbata* 'befestigen' . . .IV. . . bildet Kausativa wie *aðhaba* 'verschinden lassen' zu *ðahaba* 'weggehen'. . . Manchmal dekarativ: *ankara* 'für verwerflich halten, missbilligen'."

وكنا لاحظنا من قبل أنّ جَمْع بروكلمان للسببيات (الدلالية) والحدثية الداخلية / الشبيهة بالظرفية على أنها "سببية" Kausativa يجب أن يُفْهَم بشكل خالص على أنه أمر يتعلق بالتسمية الصرفية؛ كما ينبغي أن نحذر بالقدر نفسه كذلك فيما يخص المصطلح "متعدٍّ" Transitiva. فإذا نظرنا إلى هذا المصطلح من وجهة نظر دلالية فالغالب أن نصل إلى نتيجة مفادها أن هذا المصطلح بهذه الصورة إنما هو خطأ مطبعي وقع في كتابة المصطلح Translativa "تحويلي" كما في الأفعال الحدثية في اللغة الفنلندية، كما أن من الواضح جدًا أن المعنى التركيبي له عام جدًا حتى إنه لا يصلح للاستعمال هنا. وعلى كل فلا أرى أي اختلاف دلالي أساسي بين "ثبت" = جَعَلَ: "يَثْبت" و"أذهَبَ" = جعل: "يذهب". فيمكن ترجمة الفعل الثلاثي المجرد بأنه محمول تكافؤيّ equational predicate (مثل: be firm -> make firm)، أما الفعل المزيد فهو فعلي (مثل: go away -> take/send away)، لكن "ثبت" و"ذهب" في العربية فعلان لازمان عاديّان، وأن الفعل المجرد "فَعَلَ" يمكن أن يترجم بـ 'seat tight' -> sit tight ، "اجلس ثابتا" (كما في seat a screw). وبما أن فيشر لا يستعمل في غير هذه المصطلحَ transitive "متعدٍ" لصيغة "فعّل" فيمكن أن ينظر إلى

استعماله مصطلح transitive على أنه محاولة لتوفير اسم لصيغة 'فعّل' السببية التي لا تنتهك فكرة "السببية" التي احتكَرتها تقليديًا صيغة 'أفعل'.

ولتوفر أوصاف لصيغتي "فعّل" و"أفعَل" ـ أي الوزن الثاني والرابع أو D and H ـ وبما أنه ليس لأي من الصيغتين إلا خصيصة دلالية واحدة، فيجب الا تُستعمَل أية أوصاف تستعملها وتوحي بأنها أوصاف دلالية، كما يبدو، بوصفها مرادفات لوصف الوزن الثاني أو الرابع، كما يجب الا تُستعمل أوصافًا لنقطة التداخل بين صيغة دلالية لها علاقة بالوزنين الثاني "فعّل" والرابع "أفعل"، بل يجب أن تُستعمَل لفكرة دلالية محدَّدة، وهي التي سوف تُستعمل من ثم لمجموعات فرعية من الأوزان الفعلية المختلفة. ويجب أن نعترف أننا لوَّثنا فكرتنا الدلالية للسببية بمعيار صرفي عن طريق إيجابنا وجودَ صيغة مجردة نظيرة cognate، لكن هذا الشرط يمكن أن ينطبق أيضًا على لغات اخرى كذلك، في حين لا يمكن للفروقات التي رفضناها أن تؤوَّل تأويلاً ممكنًا إلا في العربية.

لهذا يَضَع كانتارينو، الذي يكتب عن العربية الأدبية المعاصرة، بحق، علامات مزدوجة حول الأسماء التقليدية لكنها مضلِّلة (Syntax II 167):

> 'تأخذ صيغة "فعّل" "التوكيدية" وصيغة "أفْعَل" "السببية" للأفعال، التي تتصف بأنها متعدية في صيغة المجرد لها، مفعولين أيضا:
>
> أنْ يُعَلِّم تلاميذَه الغِناءَ
>
> لكنَّ هذه الوظيفةَ لم تكن لِتُنسيه ذلك النداء".

ففي الجملة الأولى صيغة 'فعّل'، من الفعل 'عَلِم'. أما في الثانية فصيغة "أفعل" من الفعل المجرد 'نسي'. وكلتا الحالتين سببيتان لحالة ذهنيّة. وصحيح أنّ 'علّم' أقل سببية: "جَعَلَ يَعْلَم" من السببية في 'أنسى': 'جَعَلَ يَنْسى'، لكنهما لا تختلفان في أيّ بُعْدٍ عامٍّ، كالتوكيد والدوام، وتعاون المفعول الإنسان، الخ.

ولا يميِّز رايت (ج١، ص٣١) بين نمط "فعّل" السببي ونمط "أفعل" لكنه يقول:

"إن المعنى السببي أوالحدثي مشترك بين صيغتي "فعّل" و"أفعل"، أما الاختلاف الظاهري فيكمن في أن هذا المعنى أصلي في صيغة "أفعل"، لكنه مشتق في صيغة "فعّل"".

وإذا كانت الحال كما يراها فيمكن أن نتوقع، بشكل يُشْبِه أن نجد بقايا من طريقة النطق الحلية [في كلام أحد من الناس]، أن الأصول التي جاءت منها صيغة "فعّل" تُلوّن استعمالاتها السببية بين الحين والآخر. أما عن الاشتقاق الدلالي فيقول:

"إن صيغة "فعّل" كانت تقتضي في الأصل أن العمل قد أُنجز بعنف كبير (أي أنه: تكثير، تضعيف، تشديد)، أو على مدى طويل (متطاول زمنيًا) أو قام به عدد من الأفراد، أو وجِّه نحو عدد من الأفراد (كثيرٌ عددًا)، أو تكرارا (مُعاوِد، أو تكراري). . . ومن هذا الأصل التكثيري ظهر المعنى السببي أو الحدثي الأكثر شيوعا. أما الأفعال اللازمة في أصلها المجرد فتصبح متعدية إذا ظهرت في صيغة "فعّل"، كما في "فرِح"، "فرّح". . . . أما الأفعال المتعدية في أصلها المجرد فتصبح متعدية إلى مفعولين أو سببية في صيغة "فعّل"، كما في "كتَب"، "كتّب"".

ـ ولهذا النوع الأخير معنى "مشتق اسمي" أو "حدثي" أيضا، مثل: "كتائب".

ويمكن أن نضيف إلى التمييز البارع الذي وضعه رايت تمييزًا آخر للمقولة "كثيرٌ عَددا"، اتباعًا لفكرة "تعدد الفواعل"، كما في "مَوّتَ المالُ" [وتعني المال: "الإبل"، أي أنها ماتت بأعداد كثيرة (وهو معنى التكثير) أو ماتت بسرعة (وهو معنى "الشِّدّة")] (قارن بـ"مات" ولاحظ أن الصيغة "فعّل" منها لا تدل على "قتل")، أو "تعدد المفعولات"، كما في "قتّل"، أو "فرّق" (في مقابل: "فرَق")، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "تعدد المفعولات". ويمكن لمثل هذا التمييز أن ينطبق على اللغات الأخرى أيضا، كما في:

massacre vs. gang-bang, disperse (tr.) vs. disperse (intr.)

ومن وجه آخر لا نرغب في استعمال "السببية" مرادفًا أو اسمًا عامًا hyponym للأفعال المتعدية إلى مفعولين، لكننا سنخصِّصه، كما هو المتفق عليه، ليدل على فكرة دلالية/ شكلية يمكن أن تكون على وزن "فعّل" و"فاعَل" و"أفعل" و"استفعل"، بل على وزن "فعَل" أيضًا.

بشرط أن يكون هناك صيغة أصلية مشابهة، كما في 'خَزَى' [متعد] في مقابل "خَزِيَ" [لازم] (وكلاهما فعلان مجرَّدان)، أو 'خَسَفَ" (لازم) مقابل 'خَسَفَ' (متعدٍّ)، كما في:

لو يَخْسِف اللهُ أرضًا أهلُها كَذَبوا   كانت دمشقُ بنا من كَذْبِنا خَسَفَت

(Brinner, ed., Chronicle 32)

ويقول رايت أيضا:

> 'وصيغة 'فعَّل' في أغلب الأحوال 'إخبارية" أو 'تقويمية' estimative بدلاً من كونها حدثية بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح؛ وذلك كما في . . .: "صَدَقَ'، 'صَدَّقَ'".

ولا يمكن لهذا السبب أن توصف صيغة "صَدَّقَ' بأنها تقويمية إلا بمعنى أقل تحديدًا، لكنا نظن، كما هي الحال مع 'علَّمَ'، أن من المفيد أن نأخذ ما بين أيدينا على أنه معنى تقويمي أصلي تحوَّل إلى معنى سببي يمكن أن يكتسب بعضَ الارتباطات الدلالية الأخرى، كما تفعل اللغات دائما. وأقل من ذلك نفعًا الاقتضاءُ بأن أي فعل تقويمي هو فعل حدثي حتى إن كان بمعنى غير محدد؛ وقد يكون الأمر كذلك، لكن ليس لدينا دليل على الكيفية التي حدث بها هذا الانتقال الكبير، أكثرَ إقناعًا من الدليل الذي نراه في حالة الانتقال من الفعل التكثيري إلى الحدثي. وسوف نحاول تتبُّع هذا التطور من الفعل الحدثي إلى التقويمي فيما يلي، ذلك بعد أن نتثبت مما إن كان هناك في الواقع أيُّ تطور من هذا النوع يمكن أن نتتبعه: ذلك أن هناك عددًا من المعاني الفرعية للصيغة 'فعَّل' أو صيغة "أفعل" التي لا يمكن أن تُشتَق بصورة طبيعية من أي واحد من المعاني المتعددة الأخرى، إلا بقدر إمكان تطور الإنسان من الشمبانزي المعاصر. فقد يكون لها سَلَفٌ مشترك، أو ربما يكون الأمر نتيجة للتشاكُل اللفظي الصُّدْفي (homology). ومن أمثلة هذه المعاني الفريدة sui generis صيغ الـ delocative "المشتقة من القول" للصيغة "فعَّل"، مثل: "جَدَّعَه" (قال: "جدعًا لك")(رايت)؛ أو أنها معنى 'الإجابة عن صيغة المجرد القريب" لصيغة "أفعل"، وإن كان نولدكه يرى هذه كأنها نوع من السببية (ZG 28):

"لن أورد هنا إلا عددًا قليلاً من أفعال هذه الفئة [أفعل]، يتميز التعبير عن السببية فيها بالأصالة؛ حتى إن المعنى فيها يعود على ما يعبِّر عنه الفعل الثلاثي المجرد؛ فمثلا: "أعتَبَ" المستخدمة غالبًا تعود على "عَتَب" (كالَ له اللوم)، فتعني الأولى "هدَّأ من غضبه""

"... eine kleine Zahl von Verben dieser [IV] Classe..., bei denen sich die Causalität in der eigenthümlichen Weise äussert, dass sie das Eingehen auf das bedeutete, was I aussagt. So das häufige *aᶜtaba* 'auf den Tadel (*ᶜataba*) eingehn, begütigen'."

ولا يوضِّح رايت تطور صيغة المبالغة إلى الصيغة السببية، كما تقصُر محاولةُ ريكندورف (SV 44f) إعطاءَ وصف دلالي موحَّد للصيغة "فعَّل" بصفة غير متوقعة عن الهدف:

"وتعني صيغة "فعَّل": بذْل جهدًا في الحدث المعبَّر عنه بصيغة الفعل المجرد؛ وقد يكون منطلق الحدث من الفاعل نفسه (تقوية) أو من أحد آخر (تسبُّب) ".

"Die Zweite Konjug... bedeutet: sich um die von der ersten Konjug. Bezeichnete Handlung bemühen, mag die Handlung vom Subj. selbst ausgehen (intensive) oder von einem Andern (kausativ)."

وهذه الملحوظة إما غامضة جدًا مما يجعلها غير مفيدة حقًا أو توحي بدلاً من ذلك بوظيفة نزوعية conative (مشفَّرة في صيغة "فاعَل")، وإما تمييز حدثي داخلي/ خارجي يماثل ما لاحظناه أعلاه بشأن صيغة "أفْعَل". ويُعطي ريكندورف هذه الصياغةَ لأنه، بخلاف رايت، يتشكك في الانتقال من المبالغة إلى السببية:

"إن كان المعنى في الأصل يؤدي إلى التعبير عن الحدث مع توكيده أو ما شابه ذلك، فذلك لا يُنتج دلالةً وظيفية سببية، مثل:

أرِق ⟵ "أرَّق العينَ" (الوزن الثاني) (فعَّل)) ".

"Wäre die Bedeutung ursprünglich <<eine Handlung mit Nachdruck ausüben>>oder dgl.,so liesse sich von da aus nicht zu der kausat. Bedeutung gelangen, wie *ariqa* (intrans.)<<schlafen>>, II: *arraqa l-ᶜayna* << das Auge in Schlaf versetzen>>."

وليس هذا طريقًا جيدًا لنَسْلُكه، ذلك أنه إن كان هناك معنيان هما، من حيث المبدأ، مَظهَران للشيء نفسه، فيمكن *بالأحرى* *a fortiori* أن يكون هناك انتقال من واحد

إلى آخر. ويبدو ريكندورف كأنه يؤكّد فرضيةً قوية ويحتمل الا تكون ممكِنة، وأنه يَجحد فرضيةً أضعفَ ذات صلة بالفرضية الأولى. وربما كان سبب ذلك، فيما يخص الحالة الأولى، أنه ركّز على مثال ملموس معيّن ثم لم يكتشف انتقالاً ممكِنًا بين الشكلين. أما الواقع فهو أن ما نحتاجه، بل إن ما يَلزم أن نتوقعه، هو أن بعض الأفعال المحدَّدة التي تتصف بمعنى المبالغة انتقلت إلى معنى سببي، وبهذا فقد أوجَدَتْ معنىً فرعيًا جديدًا لصيغة 'فَعّل" يمكن لبعض الأفعال الأخرى أن تصاغ بموجبه، عن طريق القياس المألوف بدلاً من التطورات التفصيلية المنفردة. ولكي نحدد هذه الأفعال المعيَّنة ربما نحتاج إلى أن يكون لدينا وسيلة للوصول إلى طور أقدم لِلُغة تفوق ما نَعْرِفه الآن في الحقيقة.

كما لا يمكنني أن أقول شيئًا، اعتمادًا على ما نعرفه عن التطورات التي مرت بها اللغات الأوروبية أو الاعتبارات العامة، عن الكيفية الدقيقة التي أثرتْ على الانتقال. أما وقد فشلتُ في متابعة ريكندورف، فسأقدِّم بعض الفرضيات، التي سوف تُوفِّر له الفرصة في الأقل ليبتسم في قبره من محاولاتي المتعثّرة.

فليست السببية والمبالغة، كما يبدو لي، مظهَرين للشيء نفسه، كما أن السببي ليس أكثر مبالغةً على وجه العموم من أصله المجرد. ومع هذا نجد التسبيب والمبالغة يشتركان في اللاحقة الاشتقاقية الجرمانية jan- التي تُشتَق الأسماء من الأفعال(Kienle 1969:261)[٨]:

"لها إحدى دلالتين؛ إما إعادة التقوية أو السببية. فالصيغة الجوتية الأساسية *kiusan* (اختبر): kausjan (ذاق)؛ والجوتية *ga-wigan* (تحرّك): *wagjan* (تحرك بقوة هنا وهناك، نفض)؛ أما الأبنية السببية فمنها الصيغة الجوتية الأساسية *fra-wairθ*-an (تلاشى)؛ *fra-wadjan* (عمل على أن يتلاشى) ".

"Sie haben entweder iterativ-intensiven oder kausativen Sinn. . . Got. Primär *kiusan* 'prüfen': kausjan 'kosten'; got. *ga-wigan* 'bewegen': *wagjan* 'intensiv hin und her bewegen, schütteln'; als kausativ Bildungen vgl. got. Primär *fra-wairθ*-an 'zugrunde gehen'; *fra-wadjan* 'machen, dass zugrunde geht'".

زيادة على ذلك، فحين نجد، في الإنجليزية المعاصرة، اختلافًا في المبالغة تكون السببية الأقوى أو الأكمل. قارن:

"Timmy grew three inches last year"

"نما تيمي ثلاث بوصات في السنة الماضية"

في مقابل:

"John grew tomatoes last year"

"نمّى جون طماطًا في السنة الماضية"

أي أنه أنْبَته حتى درجة الاكتمال.

"John was glad Harry had finally found an apartment"

"فرح جون ان هاري وجد شقة أخيرا"

ويمكن أن تعني هذه أنه أكثر فقط في مقدار السعادة، في حين يجب أن يَترُك الشيءُ الذي يجعَل الإنسانَ سعيدًا آثارَه على روح الشخص السعيد.

"The barometer fell an inch, then rose."

"انخفض مقياس الضغط بوصة واحدة، ثم ارتفع"

في مقابل:

.*"felled the tree (to) 45 degrees."

"أسقط الشجرة إلى الأرض ٤٥ درجة".

"His spirits sank";

"غاصت روحه ['يئس'، 'تعاظم يأسه']

فقد نما اليأسُ في نفسه، لكنه يمكن أن يكون عاد إلى حال التفاؤل.

??"The news sank his spirits"

بل:

"sank his hopes"

وهي التي يمكن أن تعني "حطّمتْها".

هذا يبدو الارتباط حقيقيًا. لكن ماذا عن الانتقال؟ ويمكن أن يتأثر هذا بالحقيقتين التاليتين:

١ـ أن الحَدَث المادي المسَفَّر لزومًا يَحدُث في الغالب بصورة "فَوْريّة"، تبعًا لقوانين المادة، من دون استهلاك أية طاقة حيّة؛ أما إن أحدث شخصٌ نفسَه الحدثَ فلا بد له من مغالبة الصراع مع قوة القصور الذاتي inertia . فالبالون *يرتفع* من غير جهد؛ ونحن *نرفع* الأشياء ضد الجاذبية. ويسقط الجسم في أحضان الجاذبية، و*نُسقِط* الشجرةَ أو الفيل ضد مقاومتهما.

٢ـ ويُنظَر إلى الأعمال التي تقوم بها الأشياء الحية والعواطف بطريقة مشابهة: فقد يصحو الإنسان من النوم وهو يشعر بالسعادة، ويمشي الكلب من غير أن يفكر بذلك، لكن إسعاد شخص آخر أو تمشية الكلب تشتملان على بذل القوة أو الحض، وما إلى ذلك.

كما يمكن أن تكون المبالغة عاملاً مساعدًا بدلاً من كونها عاملاً دافعا، ذلك أن التسبيب يتضمن التعدية، وتميل التركيبات المتعدية سواء أكانت سببية أم لا إلى أن يكون لها بعض الارتباطات الموصولة بآثار التجاور السطحي ـ وهي أساسًا حقيقة تجسيمية ـ مثل: المباشَرة، والتمام، والتحكم، نحو:

found Mary intelligent vs. found that Caesar was intelligent

"وجد ماري ذكية" في مقابل: "وجد أن قيصر كان ذكيا"

swam in the Channel vs. swam the Channel, etc.

"سبح في القنال" في مقابل "سبَح القنال"

دعنا هنا نختتم مراجعتنا بما يقوله رايت عن السببية (ج١، ص٣٣):

> "حين تعني "فَعَل" خصيصةً أو حالةً فإن "فاعَل" تُبين أنَّ شخصًا ما يَستعمل تلك الخصيصة تجاه شخص آخر ثم يؤثر عليه بتلك الخصيصة، أو *يجعله في تلك الحالة*. فمثلا "خَشُنَ" "أن تكون خشِنا، أو قاسيا"، أما "خاشَن" فتعني "أن تُعامِله بخشونة" ـ لاحظ أنها لا تعني: "أن تجعله خشِنا".

فمع أن العبارة الثانية في وصفه لصيغة "فاعَل"، وهي التي تقتضي معنى حدثيًا أوسع من المعنى الخاص الذي ناقشناه أعلاه الذي يُشتَق بطريقة كُلّية من صيغة "تَفاعَل"، إلا أنه يوجد من بين الأمثلة التي أوردها مثال واحد يمثِّل المعنى الحدثي حقيقة. ويمكن لنا أن نتخيل انتقالاً بين المعاني، ذلك أن لأقرب الأمثلة الإنجليزية المماثِلة لـ "خَشُنَ"، أي brutalize معنى حدثيًا وآخر ظرفيًا. ولا بد أنها كانت في الأصل حدثية (قارن بـ :

formalize and finalize 'to render formal/final 'not *'to treat in a formal (/peremptory fashion

"أن تجعل شيئا يكون رسميا"/ "أن تنهي"؛ لا "أن تعامِل شيئًا بطريقة رسمية أو شكلية" أو "بطريقة قاطعة". أما brutalize فتعني، منذ القرن التاسع عشر (OED "قاموس أكسفورد

للغة الإنجليزية") ومنذ استعمالها الشائع في الستينيات، "treat brutally" "أن تعامل بصورة خشنة".

ويورد دي جويه في تعليق له على (رايت، ج١، ص٣٤) بعض الأمثلة القليلة غير الظرفية لـ 'صيغة "فاعَل". . . تُستعمَل في معنى صيغة "أفعل"': وإحداها "ساقَط"، وهي التي رأينا نولدكه فيما سبق يَصِفُها بأنها مشتقة من 'تَساقَط'. أما 'داخَل' بمعنى "أدْخَل"، و"بالَغ" بمعنى 'أبلغ'، فلا يمكن أن تكون محتفِظة احتفاظًا تامًّا بمعنى التسبُّب المتبادَل لشيء ما أو أن تأتي منه، لكن الأمثلة تمثّل عددًا ليس قليلا.

وصيغةُ 'أفعلَ' 'حدثيةً أو سببية (للتعدية)' حيث تعني الترجمة على وجه أكثر عمومية "التعدية"، و"هي أحيانًا إخبارية أو تقييمية، مثل صيغة "فعّل"؛ كما في "أبْخَلَه" ('ظن أنه بخيل'، أو وَجَدَه بخيلا'). . . "أحيا الأرضَ" ("ملأ الأرض بالزرع")، بالإضافة إلى 'أحيا' السببية ('إحياء الكائن الحي')، قارن بـ: "حَيّ"'. (ج١، ص٣٤).

"وتُحوِّل صيغةُ 'استفعل" المعنى الحدثيَّ لصيغة "أفعل" إلى معنى المطاوَعَة أو شبه المبني للمجهول middle . . . "أوْحَش"، استوْحَش" ' (ج١، ص ٤٤).

وهذا في الواقع إجراءُ "سَلْبِ السببية' de-causativization، لكن بعض السببيات الحقيقية موجودة في هذا الوزن، كما في:

"استزَلَّهم الشيطانُ" (القرآن ٣: ١٥٥)، قارن بـ: 'زَلّ'.

كما أن هناك بعض الأمثلة التقييمية من وزن 'استَفْعَل'، ولبعضها شيء من طَعْم معنى المطاوعة بدرجات متفاوتة، مثل: "استَحَلّ" (رايت، نفسه)، وقارن بـ"حَلّ"؛ و"استخَفّ".

ومن الأمثلة الأخرى لصيغة "استفعل" التقويمية ما يلي:

"يستَقْرِبُ البُعْدَ"

(قارن بـ : "قَرب') (كما عند المتنبي؛ ولا تزال موجودة في العربية الأدبية المعاصرة، انظر معجم هانز فير).

وصياغة رايت (ج١، ص ٤٥) للأفعال المشتقة من الأسماء لصيغ "استفعل": "توحُّدُ المعنى الحدثيِّ والمطاوعَ وشبهَ المبني للمجهول middle' وذلك بصفة تدرُّجية أيضا: 'استخْلَفَ' (من 'خليفة') التي يمكن أن تكون <جعل - يصير. . .>؛ "استحْجَرَ" ("صار مثل الحَجَر") التي لا تعني إلا < صار. . .>.

أما صيغة الفعل من وزن 'افعولى' فنادرة وهي لازمةٌ غالبا. وقد أورد رايت مثالاً واحدًا وهو شبه تقييمي: 'احْلَوْلاه' ('وَجَدَه حُلوًا'). وإذا لم يكن هناك معنى حدثي للصيغة الفعلية "افعولى" فستكون المرة الأولى التي نجد فيها فعلاً تقييميًا من غير أن يكون له صيغة حدثية، لكن المجموعة الفرعية المتعدية لهذا الوزن هامشية جدًا وهو ما يجعلها قليلة الأهمية.

وختامًا، ولكي نكمل استقصاءنا لمعاني الصُّدَف السببية والعزوية للوزن نفسه، نلاحظ أن النوع المُشارِح الأصلي [المفصّل] periphrastic مع "فَعَل" يَقْبَل استعمالاً إخباريًا مألوفا:

"الذين جعلوا القرآن عضين' (الحِجر، الآية ٩١)

وللاطلاع على أمثلة أكثر من هذا النوع انظر إدوارد لين فيما يخص "جَعَل".

***

وقبل الاستمرار في أي نقاش نظري اكثر اود أن أقدِّم للقارئ بعض الأمثلة الجديدة من الأوزان السببية الرئيسة:

صيغة فَعَّل: 'فَهَّمْته إيَّاه" ("مسألة حسابية، مثلا"، وهي لا تشبه 'علَّمتُه"، ذلك أن التلميذ هنا هو الذي يحاول إفهام المعلِّم، لا العكس) (ابن سينا: السيرة ٢٤)

'لهف نفسي عليك يا معدنَ الخيـــر لهفًا يُمِضُّني إيهامي'

(ابن الرومي، في آربري، ص ٦٣).

<u>وزن 'فَعَل' موازيًا لوزن "افعل":</u>

'وعليَّ أن أقرِئهم القرآنَ وأحَفِّظهم إياه' (الأيام، ج١، ص ٤٩).

وكما يبدو فهي مشتقة من صيغة 'تفعَّل': 'يُسهِّل المتعسِّر'. والمبني للمجهول: "نُوِّموا من طُول ما سَهروا" (AS 251) (من 'نام').

وزن 'أفعل': سببية فعلٍ متعدٍّ:

'أزْناك أمُّك' (ريكندورف SV 294)

من *العربية*: "أسْمِعْهُموها" (ريكندورف As 284)

ومن العربية الأدبية المعاصرة:

"أمَّا الآن فَيَسُرُّنا أنْ نُسْمِعكم هذه المقابلة الهاتفة. . . مع بيير الجميل"

(إذاعة صوت لبنان، سان فرانسيسكو، ١٩٧٩).

'ثم إن عنتر أرْكَض (أفعل) جوادَه وشَدَّ (فَعَل) اجتهادَه" (سيرة عنترة، ص ٦٤).

سببية الفعل اللازم، مع المعنى غير السببي في الوقت نفسه:

'إن ظَفِرْتم (فَعَل) فالله أظْفَرَكم (أفعل)' (SV 687)

'احْتَرَقَتْ دارُ حارثةَ، أحْرَقَها بعضُ أعدائه' (AS 253).

"كَم وقعةٍ لِيَ . . . تُفْني (أفعل) الليالي وما يَفْنى لها الخَبَرُ"

(شاعر عربي أندلسي، مونرو ١٩٨).

وبالمثل مع فعل أساسي متعدٍّ:

'متى قَدِمْتَ هذه البلاد؟ وما أقْدَمَكَها؟' (كليلة ودمنة، ص ١٠٨).

ومثال آخر مع مفعولين ضميرين:

'ما أنسانيه إلا الشيطان' (SV 573)

ومع الفعل نفسه بصيغة اسم الفاعل:

"لا أرى مرورَ الليالي مُنْسِياتي (أفعل) ابنةَ نادرٍ" (AS 167)

والتركيب نفسه في العربية الأندلسية:

"مُمْرِضي (أفعل) هو الطبيب" (الششتري، مونرو ص ٣١٦)

وبصورة مختلفة تتكون من الفعل المجرد + حرف جر (في مقابل الحالات التي أوردناها أعلاه، التي يكون للصيغ غير السببية الحاضرة معها معنى مختلف):

"قال مالٌ خرَجْتُ به معي، قال وما لَكَ تُخْرِج المالَ معك؟" (AS 239)

صيغة "أفعل" مُوازَنة بالصيغة المجردة في سياق يتألف من زوج من صيغة "فعّل"، والمفعولات محذوفة:

"فَسَلَّى بما أبْكى، وسَرَّ بما شَجَى" (مونرو ص ٢٤٤)

(قارن بـ"سَلا"، و"بَكي" و"شَجِي")

وزن "استفعل": "ءأستَنْطِقُ الصَّخْر عن ناحيَتِهِ، وأستنهِضُ المَيْتَ من رَمْسِه؟" (خوري والجار ١٩٧٤، ص١٥٨). ونجد هنا أن حروف الجر هي نفسها التي يُحتمل أن تظهر مع الفعل المجرد؛ قارن بـ:

"The smoke rose into the loft", "I raised the bell into the belfry."

"ارتفع الدخان إلى الشُّرفة"، "رفعتُ الجرس إلى قمة الكنيسة"

***

وهناك عدد كبير من الأنماط المختلفة الممكنة منطقيًا للسببية. ولمّا لم يكن من غرضنا تطوير فلسفة أرسطو بل تفسير العربية والاستفادة من نتائج هذه الدراسة لتوضيح لسانيات السببية في الإنجليزية واللغات القريبة منها، فسنكتفي بذكر العدد الكبير من المتَّهَمين في حالة كسر زجاج نافذة، وهم: كرة البيسبول، والعصا المستخدمة فيها، وجون، وضَرْبُ جونٍ كرةَ البيسبول، وكَوْن جون قد ضرب الكرة في النافذة، وفَشَلُ شركة الزجاج في صنع زجاجٍ مقاوم للضربات كما يقول إعلانها، وقوانين الانطلاق، ورغبة جون الشريرة في اختبار قُدْرَته على ضرب الكرة إلى تلك المسافة ("وهو السبب النهائي")، وسوء التربية التي أنتجت الأخلاق الشريرة لجون، وعدم قدرة والدَيْ جون على تربيته وكذلك والديهم، وعدم تحرُّك بيل الذي كان باستطاعته أن يعترض الكرة بسهولة، وعادةُ الأولاد أن يكونوا أولادا، ثم

السبب الأول، وهو الله نفسه، الذي لا يزال في مفهوم المسلمين، بمعنى ما، السببَ في إحداث أي نوع من أي حدث: إذ يمكن أن تقف التفاحة في أثناء سقوطها على بعد قدَم من الأرض، إن أراد الله عند تلك اللحظة أن توقِف إرادتُه استمرارَ سقوطها[٩]. زيادة على ذلك فإذا حافظنا على نهايات الحدث السببي فهناك أنواع أخرى من التسبيب ـ أي: تسبيب المؤلِّف، وتسبيب الفاعل، والتسبيب الحدثي، وتسبيب الإقدار، الخ، كما أوضح ذلك تالمي في مقاله: "L. Talmy, "Semantic Causative Types "سبعة أنواع من السببية". والآن، ومع هذا الغنى السببي الذي ربما تؤدي كثرتُه إلى الخجل منها، ومع وجود وزنين مختلفين لهما صياغة تسببية وظيفةً أولى، فهل هناك جمع للأنواع التسببية، أو ربما تفريق لها، لا على أساس الخطوات المختلفة التي تقود إلى نتيجة ما، بل على أساس نمط النتيجة؟ ولقد رأينا توًّا أن التسبيب بالنيابة debutized لا يصنَّف بصفة نمطية في أيٍّ من الوزنين، وأن أنماط التسبيب التي تَسِم وزنيْ التسبيب الثانويين، اي "فاعَل" و"استَفْعَل"، ليست من النوع المألوف في الاستراتيجيات السببية في اللغات الأخرى ـ فيَدين الوزنُ "فاعَل" للدلالة الخاصة للوزن "تفاعَل" بأكثر مما يُدين للسمات العامة للتسبيب، كما يبدو أن للوزن "استفعل" ارتباطات تاريخية (اشتقاقية تاريخية) بالأوزان الأخرى (مثل: مطاوَعة الفعل القديم *"سفْعَل" (رايت، ج١، ص ٤٦). ولا يُميِّز رايت فعليًّا بين وزن "فعَّل" ووزن "أفعل"، إذ يقول:

> "حين يكون وزن "فَعَّل" ووزن "أَفعل" الفعليان كلاهما سببيَّين، فإن لهما في بعض الحالات معاني مختلفة، أما في بعض الحالات الأخرى فهما متماثلان. وذلك مثل: "عَلِم"، "عَلَّم"، "أعلَم"؛ و"نجا"، و"نَجَّى" و"أنجى"" (ج١، ص ٣٤).

ونحن نحتاج إلى شرط معاني السببية في كلا الوزنين، ذلك أن واحدًا منهما فقط سوف يكون، في بعض الأحيان، سببيًّا ثم لن يكون للمقارنة أية صلة مباشرة بالمسألة التي بين أيدينا. فإذا شعرنا مثلاً أنَّ "عَلَّم" بعيدة جدًّا عن معنى "جَعَله يَعْلَم" لكي تكون سببيةً حقًّا، فسنقوم بإبعاد هذا المثال والبحث عن آخر. أما كونُ "فلَّس" تعني "يُعْلِن الإفلاس" و"أن أفلس" تعني "يُفْلِس" فلا يساعدنا فيما يخص التمييزات الدقيقة في الأفعال السببية، ذلك مع أن هذا التمييز في المعنى يدلنا، حقيقةً، على شيء عن الوزن "فعَّل" في مقابل "أفْعَل" بصفة

عامة (ويحتكر الوزن 'فَعَلَ' الأفعالَ المشتقّةَ من القول delocutive والأفعال الرباعية مضعَّفة العين التي تشبه هذا الوزن من حيث الشكل، كما يبدو أن وزن 'فعّل" أيضًا يستأثر بنصيب الأسد في الصيغ الإخبارية، التي تشبه المشتقة من القول في كونها تُستعمَل متعدية، في حين يحتمل أن تأتي الأفعال التقييمية الخاصة من الوزن 'أفعل").

وعلى عكس ذلك يرى ماكدونالد في مقاله J. MacDonald, "Arabic Derived Verbs Themes" 'معاني الأفعال المشتقة في العربية' فرقًا كبيرا. فيقول إن الجذع "فعّل' يتسم بأنه توسُّعي extensive أصلاً، فيما يكون الجذع "أفعل' سببي. "فهناك عدد من الأمثلة التي توحي بأنها تنتمي إلى الجذر "فعّل" السببي، لكن هناك، في الغالبية العظمى من مثل هذه الحالات، اختلافًا في المعنى بين الجذع 'فعّل" والجذع "أفعل"'. ولسوء الحظ لا يورد أية أمثلة، لذلك لا يستطيع القارئ أن يتبع بسهولة نصيحته بأن "يتفحص أي شكل من الجذع 'فعّل" من دون اهتمام بالأشكال الأخرى' وأن يقارنه بالجذع "أفعل'، ذلك أن الطريقة الآلية الوحيدة للقيام بذلك هي أن نبحث عنهما في المعجم، وذلك المكان هو المكان الوحيد، بدقة، الذي لا تستطيع أن تبحث فيه عن التمييزات الدقيقة. بل حتى عند إيراد المعجم مثالاً لكل شكل، لا نجد السياق الذي يظهر فيه الشكل المعطى، وقد يكون القاموسيُّ مُتعجِّلاً فيما يخص التمييزات التي يضعها.

وأكثر المحاولات جدية للتمييز بين 'فَعّل" و"أفعل" هي دراسة ليمهويز: J. Leemhuis, The D and H Stems in Koranic Arabic ('فعّل' و'أفعل' في عربية القرآن) الذي حاول فيها أن يطبِّق التمييزات التي لاحظها جني Jenni على صيغتيْ Piᶜel و hiphil في العبرية. والتمييز العريض الذي وضعه هو أن الوزن 'فعّل' في العربية القديمة كان حدثيًا وأن الوزن "أفعل' كان سببيًا، حيث "يُبيِّن الحدثيُّ حدثَ الحالةِ أو السياقِ، وأن السببي هو الذي يتسبب في إنجاز حدث ما أو حالة' (ص١٦)؛ ويتماشى هذا مع وصف جني لصيغتي Piᶜel و hiphil بأنهما "تحويلان للعبارات الاسمية والعبارات الفعلية على الترتيب'. ومع عدم الحُكم على التمييز بين الصيغتين "فعّل" و'أفعل"، دعنا نوافق على هذا التمييز بين الحدثي والسببي، وإن كان ذلك مع تحفظين:

١ـ أن هذا سوف يكون "سببيًا" بمعنى دقيق[؟] sensu strictiore ، أما "السببي" الـ sensu lato فقد دخل بمعنى عام ليشتمل على الحدثي والسببية الدقيقة narrow-causatives ، بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة (جدًا).

٢ـ ويمكن أن تعني الأفعال الحدثية تاريخيًا ونمطيًا صُنْعَ شيء ما، وغالبًا ما يكون ماديًا: "خَلَق اللهُ آدمَ". وغالبًا ما يكون المُحْدَث مصنوعًا من شيء ما: "خلق اللهُ آدمَ من طين". ومن هذا يمكن أن نحصل على معنى تحويلي translative، وهو الذي يمكن أن ينظر إليه من الجهة المقابلة: "حَوّلْتُ الخَشَبةَ قاربًا".

"The witch turned the pumpkin into a coach"

"قلبت الساحرةُ الدباءَ عربة"

ويتعدى هذا الانتقال إلى إيجاد الحالات:

"She made him what he is today"

"جعلته يكون على ما هو عليه اليوم"

"They elected him chairman"

"انتخبوه رئيسا"

"They chose him to be chairman"

"اختاروه ليكون رئيسا"

لذا نجد في النهاية:

"They made him responsible for the activities of the committee"

"جعلوه مسؤولا عن نشاطات اللجنة"

"That made him happy"

"ذلك الذي جعله سعيدا"

"That gladdened his heart"

"ذلك الذي أسعد قلبه"

وربما يكون هذا هو التطور التعاقبي؛ بل إن المعنى الحسي للحدثي يبدو، إلى اليوم، أكثر أساسية:

"What did you make in school today?"

"ماذا عملت اليوم في المدرسة؟"

"A potholder./*Betsy cry."

ويعترف ليمهيوز بوجود بعض الحالات المشكوك فيها وربما المعارضة؛ وهذا بنفسه لا يدحض فرضيته. إذ ليس هناك لاحقة [في الإنجليزية] أكثر إنتاجيةً من اللاحقة able، مثلاً، (doable, Vietnamizable, unthinkabl, get-at-able)، ويمكن أن نزعم بأنها مشتقة من الفعل وأنها مبنية للمجهول في المعنى: ومع هذا نجد أمثلة مثل: knowledgeable, clubbable, agreeable "على معرفة بـ"، "اجتماعي"، "محبوب". وهذا مثال من ثورة اللغة. ومع ذلك فهناك مشكلتان هامتان في هذا الكتاب [كتاب ليمهيوز]:

١ـ ليست الارتباطات الأربعة التي يفترض أنها تنبع من الفرق بين السببي والحدثي محتملة بصفة عامة. وهذه هي:

أ ـ "إن فاعِلَ الفعلِ الحدثي يُحَوِّل المفعول، من غير أية مساعدة من ذلك المفعول، إلى حالة جديدة أو سياق جديد، أما فاعل الفعل السببي فيَحمِل المفعولَ على أن يكون الفاعلَ (المنطقي) لعملية ما أو لِحَدث". ولتفحُّص هذا يمكن أن نجد مُشارِحات اسمية أو فعلية، مثل:

"Smith made John his heir"

"جَعَل سميث جون وريثًا له"

و:

"Smith bequeathed his fortune to John"

"أوصى سميث بثروته لجون"

ب ـ "ويُعبَّر في الفعل الحدثي عن نمطٍ غير مستمر (أو لَحْظِيٌّ في الأقل) للحدث، أما في السببي فالذي يعبَّر عنه هو نمط مستمر للحدث". وهذا ربما يكون عكس ما يمكن أن نتوقَّعه، ذلك أن الحالات، في الغالب، سكونية stative.

ج ـ "ويَحمِل فاعلُ الحدثي على صورة عادة، أما فاعل السببي فيعمل أحيانًا". وليس هناك دليل على هذا اعتمادًا على تعريف الحدثي أو فيما يخص صيغة "أفعل": "فالحدثُ باتجاه

المفعول في الفعل الحدثي صُدْفي، أما في السببي فالحدث باتجاه المفعول أساسي". (ص ص ٢٠-٢١)

لهذا حتى إن استطاع ليمهويز النجاحَ في البرهنة على هذه التمييزات في صيغتيْ "فعّل" و"أفعل" في القرآن فهي لا تُبيّن أنّ "فعّل" و"أفعل" كانا حدثيّين أساسًا قَبْل السببية، ثم إنه لا وجه لقوله (ص١٨) إنه: "لا يوجد تمييز عام واضح بين الجذع "فعّل" والجذع "أفعل" المتشابهين عند سيبويه؛ فقد اكتفى ببعض الاختلافات الشاذة. ويبدو أن هذه الاختلافات الشاذة ليست أكثر من وجوه مختلفة للاختلاف بين الحدثي والسببي".

٢- ولم يستطع ليمهويز أن يؤسس في النهاية حقيقةً للتمييزات الأربعة للوزن "فعّل" والوزن "أفعل". وقد أورد عددًا كبيرًا من الأدلة، وكان تحليله الدلالي عميقا (مع بعض الأخطاء)، وحقق قدرًا من النجاح، لكن كتابه يعاني من قصور يذكّر بالاحتجاج التركيبي الذي عانت منه تحليلات [اللسانيّ الأمريكي] بوستال و[اللساني الأمريكي] بولنجر في أيام إجازته [عندما لا يكون حريصا]، وبعض المنظّرين في الستينيات والسبعينيات: ذلك أنّ كثيرًا من الأمثلة ذات أهمية هامشية، ويمكن أن تُحلل ببساطة بطريقة معاكسة. ويبين القرآن نفسُه تضمُّنَه بعضًا من الآيات المتشابهة؛ وهؤلاء العلمانيون الذين يحاولون أن يفرضوا بعض الاطرادات عن طريق عملية الطّرْد يمكن أن يحلّ بهم العقاب المذكور في سورة الإسراء (الآيتان ٤٥-٤٦):

"وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا" إلخ.

ويُبينُ ليمهويز عن حاسّةٍ دلالية كبيرة. وكان أجدى لو وجّه هذه الحاسة إلى نصوص لا تقود بالضرورة إلى تثبيط جهوده. وكانت الفكرة التي ينطلق منها جيدة: وتعني أنه لا يمكن أن نفهم التمييزات الدلالية العميقة بدقة إلا من خلال سياق غني؛ لكن من غير الواضح إلى أي مدى يمكن أن ننظر إلى القرآن على أنه سياق مترابط، مع استثناء عدد قليل من حالات السّرد كما في سورة يوسف. ولا يعني هذا أبدًا التقليل من القيمة الروحية للنص المُوحى لكن المقصود أن نقترح فقط أن القرآن الكريم، فيما يخص الأهداف المألوفة لدارسي الدلالة، ليس الاختيارَ الأمثل.

ومع هذا فقد يكون هو الاختيار الأفضل الوحيد لدراسة مثل هذه المسألة، ذلك، كما يعترف ليمهويز، أن أي تمييز سببي مطرد يمكن أن يكون قد وُجد لـ'فعّل' / 'أفعل' في التاريخ القديم للغة العربية ربما يكون قد صار ضحية للغموض.

وبما أنه قد يكون الوهنُ داخَل اهتمام غير المتخصصين في العربية عند هذه النقطة فسوف أرجئ النقد الموسع لهذا الكتاب إلى التعليقات[١١].

وإذا ما أردنا تمييز 'فعّل' من 'أفعل' فيمكن أن نختار، كما فعل ليمهويز، نصًا واحدًا لدراسته، وأن يكون من إنتاج مؤلِّفٍ قديم، ويحسُن أن يكون نائرًا. وقد ركزنا في هذا الكتاب على بعض المصادر التي تمثّل مصادر التعبير في العربية بصفة عامة، ويقرب هذا التناول من الطريقة التي يمكن أن ينظر بها المرء إلى الروايات الساخرة في الأدب الإنجليزي من تشوسر إلى توم وولف، ولم نركز على الفترة التي كانت فيه كناية ما أو تركيب معيَّن شائعين. ويبقى هذا التوجه مقبولاً فيما يخص السببية: فإذا ما كنا مهتمين بالسببيات المشتقّة عمومًا، فلا يعود مهمًّا أن نسأل عن السرعة التي يمكن أن تتراجع بها إحداها، وتنقل صيغةَ "أفعل"، عبر العصور. أما إن كنا نحاول البحث عن بعض التمييزات الدقيقة في نصٍّ ما، فيجب علينا أن نصرف انتباهنا إلى الزمن الذي كُتب فيه هذا النص ومكانه والتأثيرات التحتية التي أثرت فيه. ذلك أن:

> "أدى ضعف الصوت الحنجري [الهمزة] في أغلب اللهجات إلى فقدان الوزن الرابع (أفعل). فقد اختفى في المغرب تماما؛ حيث أصبح يعبَّر عن دلالات هذا الوزن أحيانًا بأوزان الأفعال الأساسية، وأحيانًا بأفعال الوزن الثاني [فعّل] ".

« Die. . . Schwäche des ʾ[glottal stop] hat in den meisten Dialekten zum Verlust des IV. Stamms ʾ*afʿala* geführt. Im Maghrib fehlt er völlig. Die Verben des IV. Stamms wurden dabei teils in den I. Stamm, teils in den II . Stamm überführt".

(فيشر ـ جاسترو ١٩٨١: ٤٦).

يضاف إلى ذلك أنه يُستبدَل بـ 'فعّل' و'أفعل' كليهما أيضًا بصورة متزايدة في العربية الأدبية المعاصرة التركيباتُ المطوّلة المصحوبة بالفعل "جَعَل"، وذلك بالطريقة نفسها التي صارت بها

صيغ "فاعَل" و"تفاعَل" و"استفعل" موضوعًا لإعادة التحليل ("يرى بعضُهم بعضًا" بدلاً من "تراءى") (Kropfitsch 1980:128).

ونتناول الآن مسألة صُدَف التلاقي بين معنيي السببي والعزوي في أوزان "فعَّل" و"أفعل" و"استفعل".

فهل هذا التلاقي صُدفةٌ محض، أم هو تعبيرٌ عن العلاقة الدلالية العميقة أو التصاحُب؟ ويعتقد ريكندورف، أثناء وصفه لخصائص "فعَّل" الذي أشرنا إليه توًّا، أن المعنى الإخباري يتْبع بصورة منضبطة من الدلالة الأصلية لـ"فعَّل"، لأنها في الواقع فرع لمعنيي التكثير والسببية:

"ويمكن في استخدام واسع للتصريف الأول "فعَل" أن يعبِّر عن حدث يكون الواقع الذي أنتجه مطابقًا لما تحقق. ويتضح من ذلك استخدام ذلك التصريف في وظيفة إعلانية، مثل: "كَذَب"، والبناء الثاني "كذَّب" (وصفَه بالكذب) ".

"In weiterem Sinne kann die Bemühung [um die von der ersten Konjug. bezeichnete Handlung] auch darin bestehen, dass eine Situazion herbeigeführt wird, die der verwirklichten Handlung entspricht; so erklärt sich die deklarative Verwendung, *kaḏaba* << lügen>>, II:<<einen für einen Lügner erklären>> (SV I 44f).

ولم يعط أيَّ تفصيل، لكن حُكمًا بهذه العمومية لا يمكن أن يكون مقنعًا تمامًا، بكل أسف.

كما أن ليمهويز مقتنع بوجود علاقة (ص١٧). ذلك أن المعنيين الإخباري والتقييمي "حالة خاصة من العلاقة بين الفاعل والمفعول كما ذكرنا في الفرق الفرعي رقم (١) [من الفروق الأربعة التي ذكرناها أعلاه]، وليست هذه الخاصية إلا فرقًا في الطريقة التي تصبح فيها الحالة المعينة أو الوضع صحيحين".

ويلاحظ جني E. Jenni العلاقة الصُّدْفية نفسها للمعنيين في صيغة Piʿel العبرية التي تزيد من وثوقنا بأن وجود المعنيين معًا ليس صدفة، لكن هذا التفسير، مرة أخرى، ليس قويًا إلى درجة تجعله يُقنِع من لم يكن مقتنعًا من قبل.

"يقدِّم الفرقُ الذي نشعر بوجوده بين الوظيفة الإحداثية والإعلانية ـ التقديرية بالدرجة الأولى على تباين في مجال صلاحية ما وصل إليه الوضع المعبَّر عن صفته. فإن كانت نتيجة الموقف من الظاهرة المعبرة عن الوضع القائم قد صوِّرت بشكل مفهوم، فإنه يوافق وزن Piᶜel في وظيفته الإحداثية؛ أما إن كان وضع النتيجة من موقف شخص (لأن الحكم العام المفهوم على الشيء غير ممكن إطلاقا) فإنه يوافق وزن Piᶜel في الوظيفة الإعلانية ـ التقديرية".

"Der von uns empfundene Unterschied zwischen faktitiv und deklarativ-ästimativ beruht letzlich nur auf einem Unterschied in der Geltungswise des erreichten adjektivisch ausgesgaten Zustandes. Ist der als Ergebnis der Stellungname zu einem Phänomen ausgesagte Zustand als allgemein einsichtig vorgestellt, so entspricht ihm das Piᶜel in faktitiver Bedeutung; ist der Zustand des Ergbnis einer subjektiven Stellungnahme (weil ein allgemein einsichtige Beurteiling der Sache gar nicht möglich ist), so entspricht ihm das Piᶜel in deklarativ-ästimativer Bedeutung."

(كما أورد ذلك ليمهويز، المرجع نفسه).

ويَردِم ماكدونالد، في الختام، الهوةَ بين المعنيين بنَفْيه وجودَ أيِّ فرق بينهما: "فالمعاني الإخبارية والتقييمية واللَّونية في الصيغة 'فعَّل' ليست سببية، وإنما هي توسُّعيَّة بسيطة". ولم يعضِّد هذه المساواة بينها بأي دليل[11].

***

وهناك، من الناحية المنطقية، فرق واضح بين السببية والتقييمية. فإذا جَعَلتُ شخصًا ما يَعْمَل "أ" أو يكونُ في حالة "أ" فسيكون الوضع شكليًّا على الصورة التالية: هو ليس "أ"؛ قُمْتُ أنا بعملٍ ما؛ ونتيجة لهذا العمل، صار هو "أ". أما حين أعزو "أ" إليه، فسيكون الوضع: هو "أ" (احتمالاً)؛ لم أقُم أنا بأي عمل، لكني لاحظت ببساطة أو تخيَّلتُ أنه "أ"، ونتيجة لهذا لَم يَحْدث أيُّ شيء، إذ إنه ظل على حاله "أ" أو غير "أ" كما كان من قبل. فإذا كان هناك أي رابط فالأحرى به ألا يكون منطقيًّا، بل يمكن أن يكون نفسيًا.

وسوف أحاول أن أوضّح أنّ مثل هذا الرابط موجود؛ وسوف نجد التّعدّي السببي والعزوي نفسه في اللغات الأوروبية. فإذا كان الرابط شائعًا حقيقةً وإدراكيًا فسيجد بعض القراء، من دون شك، أن هذه البرهنة واضحة، كما رآها المؤلفون الذين أوردنا آراءهم فيما مضى واضحةً جدًا بحيث لا تحتاج لأية برهنة. ويمكن لهؤلاء السعداء أن يتجاوزوا الصفحات القليلة التالية فلا يقراونها، أو يقرأونها للتسلية ونحن نشق طريقنا عبر باب مفتوح. أما المغرمون منّا بالبحث عن الفروق ورسْم الحدود بينها فسيبدو كأن تعيين المقولتين يمثّل في البداية نوعًا من التشويش العقلي، وهو ما يشبه ذلك التشويش الذي يحدث هنا وهناك في الأوضاع العلاجية، لكنه التشويش الذي لا نتوقع أن يَتَمَعْجَم في اللغة، ناهيك عن الكُلّيات اللغوية.

وربما كان من الأوفق لنا أن نلحظ هذا الغموض وهو يَعْمل في سياق معاصر يمكن تأويلُه حقيقةً. وقد ورد النص الإخباري التالي من وكالة الأخبار الأمريكية يونايتدبرس في صحيفة سان فرانسيسكو إكزامنر:

"Vatican City. – Pope John Paul II accused pioneer psychoanalyst Sigmund Freud of condemning man to be a slave of lust and called on Catholics not to be trapped by their sexual desires.
'Certainly mankind is marked by lust, and if one was guided solely by the forces of nature one could not avoid its influence' the pope said [. . .]
'But the main difference between the vision of Freud (and that of the church) is that Christ did not leave us entrapped by this influence. Man is not a being continually at the mercy of lust, as the Freudian 'libido' would have it."

لكن فرويد [في هذه الفقرة] لم "يَحكُم" بالطبع على أحد (والفعل condemn "يحكم" من عند الصحفي ولم يستخدمْه البابا) بالطريقة التي يحكم بها القاضي على شخص ما (وهو المعنى السببي)، أن يكون عبدًا للشهوة (قارن بـ "أن يُنقَل إلى المستعمرات")؛ لكنه لاحظ مكامنَ الشهوة المُخفاة، أو ظن أنه لاحظَها؛ وإذا كان هناك من نتيجة للفت انتباهنا إلى وجودها فيمكن أن تؤدي إلى تحررنا من استعبادها. وقد صوَّر الخبرُ البابا كأنه يَشْجُب حاملَ الأخبار السيئة (وهي الأخبار السيئة التي يمكن أن تكون غير صحيحة، لكن هذا ليس

موضوعنا هنا)، عن طريق تصوير تقويم ما على أنه نوع من السببية المقنّعة. وهناك غموض مماثل في السطر الأخير، فإذا فككْنا عبارة 'the Freudian 'libido إلى:

Freud, in connection with his concept of the 'libio'

"فرويد من حيث علاقته بمفهوم "الليبيدو" الذي اقترحه".

فستكون أكثر القراءات طبيعيةً لـ have هنا تقييمية، لكن تأثير الجملة الأولى التي تتضمن condemn واحتمال أن تكون Freudian libido ، بمحاولتها المستمرة لممارسة أثرها، الفاعلَ الحقيقي سوف يُميل المعنى بشكل خفي نحو السببية، كما في:

I'll have him detained for questioning

"سوف آمر بإيقافه للتحقيق معه"

ومن اللافت للنظر حقيقةُ أن تَظهَر have في عدد كبير من التراكيب شبه المثلية، بالمعنى السببي أحيانًا وأحيانًا أخرى بالمعنى العزوي. وقد مُعْجِم الانتقالَ بين المعنيين في الواقع، قارن:

"The thrusters MINIMIZED the yaw"

"قلّل المتبارزون بالسيوف من زاوية اعوجاجها"

في مقابل:

"The commentator MINMIZED the importance of money in the election"

"قلل المعلّق من أهمية المال في الانتخابات"

مع أن maximize "بالَغ في الكثرة" في العادة حدثية فقط.

وفيما يلي مثال معجمي آخر. فلا يبدو لأول وهلة أن بين support في المثالين التاليين أي جناس:

Chou En-Lai supported the Cultural Revolution

"أيّد [الزعيم الصيني] شو إن لاي الثورة الثقافية"

في مقابل:

Charli McAllister supported the Cultural Revolution

"أيدت تشارلي ماك أليستر الثورة الثقافية"

ذلك مع أننا نشير في الجملة الأولى إلى تصرفات علنيّة فيما نحن نخفي، ربما، عواطفَ معاكسة، أما في الجملة الثانية فكلُّ ما نعنيه هو أن ماك اليستر شَعَرتْ، بعد أن قرأتْ كلَّ تلك الضجة في صحيفة Peoria Times-Spectator [عن الثورة الثقافية [وهذه صحيفة محلية في مدينة صغيرة في ولاية إلينوي الأمريكية]] باقتناعها المُؤيِّد. ويتصف التحوُّل في وجهة النظر بأنه فوْريٌّ جدًا مما يجعل الإنسان يتساءل عما إن كان لهذا التحول أية علاقة حقيقية بالمعجميات المعينة، كما أنه ربما لا يكون أمرًا من أمور الزيادة العامة مثل تحوُّل فعل الشُّروع إلى فعل علاجيّ Inchoative -> Action (و if John began to X, then, in general, he X'd؛ "إذا ما بدأ جون يكون "أ" فإنه على العموم قد بدأ الاتصافَ بـ"أ""؛ بالإضافة إلى نوع مختلف بعض الشيء من الاقتضاء في الاتجاه المعاكس). لكن قد يكون أكثر صعوبة أن نحصل على معنى إخباري لفعل doubt "يشك" (إذ ربما كان من الممكن أن يقال: publically doubted "مشكوك فيه علانية"، أو doubted aloud "شك بصوت عالٍ) أو معنى حدثي (مثل: cast doubt on, put into doubt "يلقي ظلا من الشك"، وهو ما قد يمنع من الحصول على معنى تقييمي لـ refuted "ينفي". بل قد لا يكون من الممكن إطلاقًا في بعض الحالات إنجاز الانتقال. فالجملة:

The D. A. murdered Harry

"قتل د. أ. هاري"

لا يمكن أن تعني إما أن D.A وصفَ موت هاري بأنه نتيجة للقتل، أو أنه قد يرغب في أن يقتله لو سنحت له الفرصة (وهو ما يماثل حُلْم ماك السِتر بالفرح في الصين).

وقد رأينا إلى الآن أن الأفعال العقلية أساسًا هي التي تقبل بوجود الغموض، لكننا نجد الغموض كذلك مع الأفعال التي لها معنى مادي أساسا، مثل:

"Erasistratus of Chios. . . traced the course of the veins. . .He did the same for the nervous system, which he centered upon the brain. "S. Mason, A History of the Sciences, ²1962, p.56)

وعلى وجه الدقة [في هذه الجملة]: فالخالق هو الذي وضع "النظام العصبي" موضعًا مركزيًا، ثم إن إيراسيسترتوس أعلن أنه يقع في ذلك المركز. وبالمثل يمكن أن يكون فعل locate "يعيِّن مكانًا" سببيا:

They plan to locate the new factory in Brooklyn

"خططوا لوضع المصنع الجديد في بروكلين"

وأن يكون تقييميا:

Nietsche locates the mainspring of Man's actions in the will to power

"حدَّد نيتشه منبع الأعمال التي يقوم بها الإنسان في الرغبة في القوة"

أو غيرهما:

locate a stolen automobile

"حدد مكان السيارة المسروقة"

ومن الأمثلة الأخرى:

"Forecasters offer relief from heat."

"قدم مذيعو النشرة الجوية خلاصًا من الحرارة"

وهو عنوان رئيس في صحيفة بيركلي جازيت، ٢١/٦/١٩٨١)، وهو ما يعني إعلانهم أن موجة الحَرِّ في طريقها إلى الانحسار. قارن ذلك بـ:

"Air-conditioners offer relief from heat"

(التي تعني: "يتسبب في جعل الإنسان يتخلص من الحرارة").

"He apparently replaced the seat of intelligence in the brain, instead of putting it in the heart as Aristotle did." (G.Sarton, Host. Sci. I 550)

"I see it as being basically positive"

"أنظر إليه على أنه موجب أساسا" (وهو معنى تقييمي)

"I'll see him hanged" = "I'll se to it that he's hanged"

((وهو فعل سببي بالنيابة)، وإن كان مع معنى زائد).

وربما كان هناك بعض الاطرادات الدلالية للانتقال بين العمل والقول، مثل أنه لا يبدو أن الأفعال الحِسِّية تنتقل بسهولة تماثل السهولة التي تنتقل بها الأفعال المجرَّدة بعض الشيء أو الأفعال غير العلاجية مثل: divide see, limit, "نظر"، "حدَّد"، "قَسَم". لكن من ناحية تزامنية تتصف الأفعال الحدثية/ الإخبارية المجانسة بسمات خاصة معجميًا، وأحيانًا مع تخصيصات تركيبية.

He who fathers X is X's procreator; but he who fathers X on Y, in one use of this idiom, declares Y to be X's father.

'مَن يَلِد 'أ' فهو موجِد 'أ'؛ لكن مَن ينسب أبوّة 'أ' لـ 'ب'، في واحد من معاني هذا المثل، فهو من يعلن ان 'ب' والدُ 'أ'"

واحد الجسور التي يعبُر عليها الغموض، فيما يخص الخالق، هي الفكرة التي تتمثل في: "انْ تقول" يعني أن تتسبب في "انْ يَكُون". قارن ما يقوله المؤرخ بليني عن هيبارشوس (ترجمة ريكام إلى الإنجليزية، في كتاب سارتون، ج٢، ص ٣٠١):

"He did a bold thing, that would be reprehensible even for God-- he dared to SCHEDULE the star for posterity, and tick off the heavenly bodies by name in a list."

وهو إعمال الفعل ليتعدى إلى معمولين zeugma بين المعنى الإخباري المحض لكلمة schedule "يخطِّط"، والأمر الإلهي الحَدَثي. وبالمثل فإنه يُروى أنه حين اكتشف كبلر أن مدارات النجوم بيضاوية، صاح بانزعاج:

"Who am I, Johannes Kepler, to destroy the divine symmetry of the circular orbits!" (Recounted in Koestler, Ghost in the Machine, 1971 reprint, p. 179)

"مَن أكون أنا، يوهانس كبلر، حتى أحطِّم الانتظامَ الإلهي للمدارات الدائرية"

وتميل هذه الحالات إلى تأكيد شكّنا الأول بأن هناك شيئًا غريبًا فيما يخص المعادلة السببية ـ العزوية حتى إن كان لا بد لها من أن تكون كُلِّيةً إدراكيًا. فهذا الأمر ممزوج بشيء من التفكير السحري.

وفي الفقرة التالية المثيرة من كتاب روجر براون (Words and Things) "الكلمات والأشياء" (١٩٥٨، ص١٥٥)، يبدو التوتر بين المعنى العزوي والسببي دقيقًا جدًا: (ونحن نتكلم هنا عن العلاقات الإدراكية بين المعاني أو التأويلات لأي فعل معيَّن، من غير أية إشارة إلى الصَّرْف. إذ لا نستطيع في هذا السياق أن نقصر أنفسنا على "السببيات" بالمعنى الأصلي المحدد صرفيًا الذي ارتأيناه في 'العزوي'، وهو المصطلح الذي يتصف عندنا بأنه دلالي صرف).

" I GRANT a mind to every human being, to each a full stock of feelings, thought, motives and meanings. I hope they GRANT a much to

me. How much of this mentality that we ALLOW one another, ought we to ALLOW the monkey, the sparrow, the goldfish, the ant? Hadn't we better RESERVE something for ourselves alone, perhaps consciousness of self-consciousness, possibly linguistic reference?

Most people are determined to hold the line against animals. GRANT them the ability to make linguistic reference and they will be PUTTING IN A CLAIM for minds and souls. The whole phyletic scale will come trooping into Heaven demanding immortality for every tadpole and hippopotamus. Better to be firm now and make it clear that man alone CAN use language to make reference."

فنحن نؤوّل، في السطر الأول، مُستخدمين معنىً تقييميًا، مكافئًا لـ:

"I allow as how every human being has a full stock. . ."

(لاحِظ هذا الاستعمال التقييمي للفعل allow في مقابل: "give (cause to have) permission" "يعطي (يمكّن من الحصول على إذن"). ذلك، كما نحسب، أن المؤلف لا يزعم لنفسه أنه الخالق. لكن الفعل grant "يخوّل" يُستعمل عادة بصفته فعلاً تقييميًا، فهو في الأقل نوع من الفعل الإنجازي القضَوي propositional performative "I grant (your point" "أسلِّم لك بأن وجهة نظرك صحيحة"). لذلك فهناك نوع من التوتر الساخر، وهو الذي يتّضح جليًا في الجملة الثانية [في النص السابق]. لكننا حين نصل إلى الفعل reserve "يَحجِز، يدّخر" نجد أن المعنى التقييمي قد حُدِّد بشكل صارم، أما في الفقرة الثانية فيصبح من الواضح أن القراءة الحَدَثية المُخفاة ملفوفة فيها منذ البداية. ويرفع براون الآن الغطاء، وهو ما ينتج عنه تأثير ساخر. وتحتل فكرة المؤلف الآن، حقيقةً، موقعًا رفيعًا، في الوقت الذي تكرر فيه ثورة لوسيفر Lucifer بوصفها نكتة (أو على وجه الدقة، فإن ثورة لوسيفر كانت أسطورة أرستقراطية، فيما كانت ثورة براون أسطورة ديموقراطية شعبية). لاحظ في الختام أن الانشطار المعرفي/الإيجابي epistemic/deontic لمعنى الفعل can "يستطيع" يتوازى مع الانشطار التقييمي/ الحدثي في المعنى في الأفعال الأخرى.

وهناك سبب مطرد للتعامل مع الدليل المأخوذ من الإنجليزية بحذر هنا. افرض أنك تريد أن تكوّن فعلاً يعني:

"to deem to VERB/be-ADJ/be-a-NOUN"

"ينحو نحو أن يفعل/ أن يكون صفة/ أن يكون اسما"

ولأنه لا توجد لاحقة خاصة تعبر عن هذا التركيب فأكثر الاحتمال أنك ستعمل ما تعمله الإنجليزية بشأن كثيرٍ من الأشياء في الوقت الحاضر - أي أن تشتق صيغةً عن طريق الاشتقاق الصِّفْري، أو ان تشتق لها صيغة باستعمال اللاحقة الفعلية التي تُستعمل بشكل متزايد الآن، وهي: ize-: to VERB, To ADJ./ NOUN-ize. ونلاحظ هنا أن الإجراءين كليهما يُستعملان أيضًا لصياغةِ الأفعال الحَدْثية؛ لهذا يمكن للأفعال التقييمية أن تصبح أخوات للحدثية، لا بنات لها.

والأفعال المكتوبة بالحروف الكبيرة في المجموعة التي أوردناها أعلاه، تخضع، لكونها افعالاً قَلْبية، ببساطة لمثل هذا التلعب بالكلمات. فنحن نستطيع أن نفهم الفعل الحدثي ظاهريًا كأنه فعل تقييمي حين لا يسمح السياق بالقراءة الحدثية، كما في:

"Brooding, she CHANGED the pool into the sea, and MADE the minnows into sharks and whales."
(V. Woolfe, *To the Lighthouse*, I. xiv.).

وهذا في الواقع تهجين zwitterling ، أي أنه نوع من الحلقة المفقودة. وهو أساسًا تقييمي مُتظاهر: "she played at imagining X to be Y" 'تلعبت بتخيل "أ" على أنه 'ب"'، لكنه يمتزج بمذاق الحدثي لأنه، بخلاف أكثر حالات الإحساس، كان عليها أن تختلق المادة الحسية الخاصة بها. قارن بـ:

"I see John as being more sinned against than sinning"

'إني أرى جون على أنه مذنب بحقه بدلا من كونه مُذنبا'

وهو بديل فوري غير علاجي لـ: "I consider John to be . . ."

'أعدُّ جون أن يكون. . . . '

في مقابل:

"I finally managed to see the rabbit as a duck"

"تمكنت أخيرا من رؤية الأرنب بطة"

(في التجربة الجشتالتية المشهورة). وبالمثل:

"إن الله لا يغفر أن يشرك به" (النساء، الآية٤٨)

ذلك أن الإنسان لا يمكن في الواقع أن يجعل اللهَ يتخذ شريكًا، فالمعنى هو: "يعتقد أن لله شريكًا" deem to have ، أو "يتخيل أن لله شريكا" imagine that He has.

ويمكن أن نؤوّل استعمال make و change أعلاه على أنهما ضرورتان في استعمال الروائي، لكن هناك استعمالات عقلية أخرى من هذه الأفعال الحديثة بامتياز لا تبدو غريبة جدًا أو مجازيّة. ومن ذلك:

"What do you make of it?"

"ماذا تستنتج منه"

"You must make a dullard of the world"(Shakespeare)

أي تعتقد أن الرجال جميعًا أغبياء؛ ثم بمعنى إخباري بدلاً من المعنى التقييمي:

"Story made him stay as Hasdrubal's guest"
(R.H. Barrow, *The Romans*, p. 61)

"جعلَته القصةُ يظل ضيفًا لهاسدروبل"

أي أن الأسطورة تقول إنه ظَلّ، الخ.؛

ومثل ذلك أيضًا ما يقوله ويلز في:

H.G. Wells, *Outline of History* (1961 ed., Garden City, p. 362)

"Ferrero, it is true, makes Caesar familiar with the Politics of Aristotle, and ascribes to him the dream of making 'Peirclean Rome'.".

"صحيح أن فيريرو جعل قيصر يتعرَّف كتابَ السياسة الذي ألفه أرسطو، ونسَب إليه الحلم بجعل روما مثل مدينة بيرسلين [في كتاب أرسطو] "

(وفيريرو مؤرخ معاصر). ويمكن في المثال الأخير أن نلحظ فرقًا بين الأسلوب ذي الفعل الواحد المحمّل بالارتباطات في مقابل تركيب مكوّن من عبارتين. فيمكن أن تكون . . Make. familiar في العادة سببية، لكنها حرة بقدر كافٍ من الاقتضاء الذي يمكن أن يَظهر هنا على صورة عزوية، فيما يمكن لـ familiarize "يجعل الشيء مألوفا"[يتآلف مع] و acquaint "يُطْلِع" ألا يستعملا بهذه الصورة.

وبالمثل في العربية المعاصرة:

"جَعَلَك والكمنجةَ كيانًا واحدا" (كانتارينو، ج٢، ص ١٦٦)؛

وفي العربية الفصحى:

"جعلوا الملائكةَ. . . إناثا"

(رايت ، ج٢، ص، ٤٩؛ وقارن ببعض الأمثلة الأخرى هناك، ص ص ٤٨ ـ٤٩، عن التزاوج بين الأفعال التي تعني: make, appoint, call, name, deem) وفي الأسبانية القديمة:

"A los nesçios fazedes las mentiras verdades"

"أنت تجعل الأكاذيب [تبدو] للأغبياء صحيحة"

(Libro de buen amor, no. 784 of Zahareas edition, Penn state 1978). والمثال الأخير سببي للتقييمي ـ <You CAUSE: fools DEEM: lie be truths> <تجعل: الأغبياء يبدون: الأكاذيب تكون صحيحة> ونجد الشيءَ نفسه من التكرار الدلالي في معنى الوزن "فعّل":

"وكيف تُحِبُّ فِراخ الزُّناء وقد بغّضوك إلى العالَم"

(مونرو٢٠٨).

ولا تعني هذه ببساطة "they have deemed you loathsome" "جعلوك بغيضا". ويتبين في الإنجليزية المعنى التقييمي نفسه في:

"made you loathsome to the world"

كما تبيِّن الفنلندية أيضًا جناسًا تركيبيًا حدثيًا/ تقييميا: فتستعمل الحالة التحويلية translative لكل من المؤثر effectum (كما في: "قارب من الخشب") والمفعول الثاني للتقويم evaluation (كما في fool في العبارة: I consider him a fool).

والفعل: construe "يَفْهم" الذي يؤخذ هنا على أنه تقييمي بصفة خالصة إلا في العبارة النحوية المثلَّثة construe with (حرف جر، الخ.) مقارِبٌ للفعل construct، الذي يتسم بكونه حدثيًا حقيقة. فمع أنه يَستعمل فعلاً تقييميًا في الجملة التالية إلا أنه يأخذ حرفَ الجر الحدثي into :

"He so passionately affects the reputation of understanding raillery that he will construe an affront into a jest, and call downright rudeness and ill language, satire and fire." (Congreve, Way of the World, I.5.)

(لاحظ هنا أيضًا أن call بما أنها إخبارية، يمكن أن تُستعمل في الكلام الذي لا يتجاوز الشفتين [الكذب]، لهذا فهي تقييمية. قارن:

"That's what I call a good meal!"

أي: "هذا ما أسَميه وجبة جيدة"

ويظهر التفاعل نفسه بين التفسير (العزوي) والـ eisegesis (الحدثي) في المثال التالي:

"ونحن نترجم الجمل المحتوية صيغة "جاء يعوده" بشكل لا يتواءم مع معناها في العربية (ريكندورف) "

"Final übersetzen wir Sätze der Form *jâ'a yaʿûdu-hu*, was dem Sinne des arab. Ausdrucks nicht ganz gemäss ist."(Reck.)

والواقع أن ما نقوم به هو أننا نلاحظ في العادة وجود سمة مثل النهائية (الغرض) في انزلاقنا Vorlage ، ثم نعزو هذه السمة في الواقع إلى النص عن طريق ترجمتنا له. فما يقوله ريكندورف هو أن المترجمين لم يحذفوا شيئًا ما بل أضافوا شيئا. ويُستعمل الفعل übersetzen نفسه للتعبير عن هذه الحالة الحدثية أساسا.

ويأخذ قاموس أكسفورد التأثيلي للإنجليزية The Oxford Dictionary of English Etymology (1966) طبيعيةَ التطورِ من الحدثي إلى الإخباري أمرًا مسلَّما، أي -be "يكون ـ"، المعنى الخامس:

"With substantives and adjectives, 'so as to make what is expressed by them', as *becalm* (XVI), *bedim* (XVI), *befoul* (XVI); hence 'call by the name of', a *beblockhead, bersucal*."

والأمثلة الأخيرة غريبة جدًّا حتى لتجعلنا نتساءل عن إن كان فعل الكوْن be الإخباري قد وَجَد له مكانًا في اللغة حقيقةً في أي زمان، لكن قارن بالفعل "يلعن" beshrew الذي ما يزال مستعملا، والفعل الآخر belittle "يقلّل من شأن"، مع تحوُّل دلالي إضافي. ولك أن تلاحظ بالمناسبة أن هذه الأفعال الإخبارية كلها مشتقّةٌ من أسماء denominal ، وهو ما يتماشى مع التطور المقترح (قارن بليمهويز) من الفعل الحدثي (بالمعنى الضيق) إلى الإخباري. أما المشتق من الفعل belie فلا يعني "كَذَّبَ" (وهذه العبارة المثليّة، بالمناسبة، سببيّةٌ من حيث الشكل، إخباريةٌ من حيث المعنى)، لكنه يعني أشياء متعددة مقاربة للمعنى: lie about "كَذَبَ عن"ـ أي أنه صيغة بسيطة مُعدّاة للفعل lie "كَذَبَ" مجردةً

من المعنى السببي، وذلك بشكل مواز لـ bemoan "يَتحَسَّر"، فهي إذن أقرب ما تكون إلى "كائنة"، و"خاشئه" على وزن "فاعَل".

ورأينا فيما مضى أن سبب الالتباس بين السببي والعزوي هو الغموض العقلي الدائم، لهذا يمكن أن نجد هذا الغموض العقلي خارج الأفعال المتعدية. فالحالة التي تمثلها الجملة التالية:

"Carter is responsible for the rescue debacle in the Iranian desert"

"الرئيس كارتر مسؤول عن فشل محاولة الإنقاذ في الصحراء الإيرانية"

ليست موازية بنيويًا للحالات الفعلية التي أوردناها، لكننا نجد فيها غموضًا مماثلا. ففي قراءة معينة موازية لـ:

"The carelessness of the campers was responsible for [= caused] the fire,"

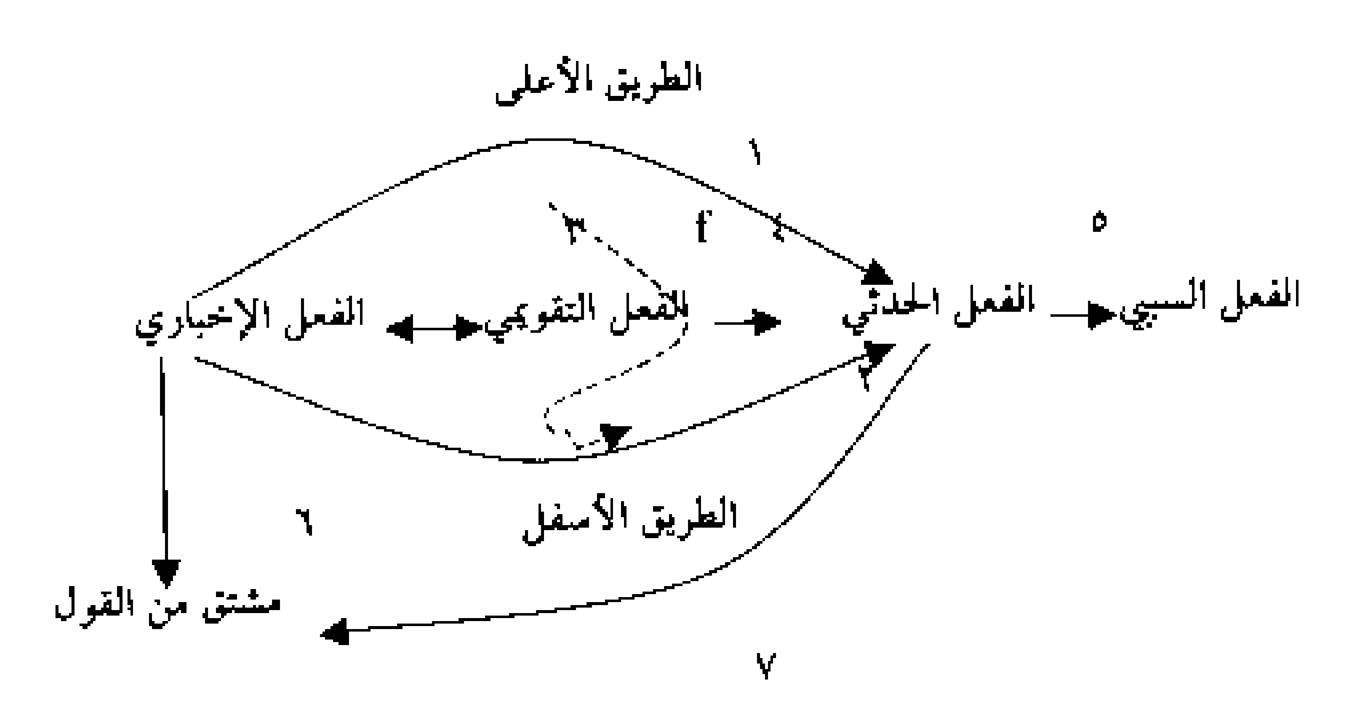
"أن إهمال المتنزهين مسؤول "= تسبب في" عن الحريق"، نجد المتكلمَ يَزعم أن كارتر لم يتقن عمله. أما في قراءة أخرى موازية لـ:

"In the event of an accident, the captain [whoever he may be] is responsible for the safety of the passengers,"

فإن المتكلم يقول إن كارتر بصفته الرئيسَ والقائدَ العام كان مسؤولاً في نهاية الأمر ومن حيث المعهود وهو ما يوجب محاسبَته، وإن كان سبب الفشل لا يعود إلى خطئه الشخصي أو إلى عمل قام به هو نفسه.

***

ونختتم المناقشة برسم خارطة لطريق سريع لهذه المنطقة من المجال الدلالي:



فالطريق رقم ١ للاستعمال الإلهي وحده "Fiat lux."

الطريق رقم ٢ للاستعمال الإنساني، عبر الأفعال الأدائية performatives:

"I declare this meeting adjourned"

وهو ما يعني تأجيل الاجتماع.

"I hereby appoint you a my deputy" ->"She appointed him as her deputy"

أما الطريق رقم f فقد قُصِد به أن يمثّل الإجراءَ الإنساني الخاص بوصفه صورة تخييلية للخط الأعلى. إذ يَنْجحُ أداءُ شخصٍ ما بسبب السلطة التي أوكلت إليه، سواء أكان ذلك من قِبل المجتمع أم من الله."absolvo te".

"I now pronounce you man and wife"

"أعلِنكما الآن زوجين"

والطريق رقم ٣ شارع تداوليٌّ ذو اتجاهين. فهو أن يعني الإنسان عادةً ما يقول ويقول ما يعنيه.

والطريق رقم ٤ وهو انتقال غريب كنّا قَضينا الصفحات الكثيرة الماضية في تفسيره.

والطريق رقم ٥ بالتَّدَرُّج:

خلق الله الطين.

جعل الله الطينَ يتحول إلى آدم.

جعلتْ حواءُ آدمَ سعيدا.

أسعدتْ حواءُ آدمَ.

طرد اللهُ آدمَ وحواء من الجنة "أخرجهما من الجنة".

والطريق رقم ٦: "كبَّرَه" ("جعله كبيرا") -> "كَبَّرَ" (قال: "الله أكبر")

ولا تستطيع الإنجليزية عملَ هذا الشيء. إذ يمكن أن نعبِّر عنها بالترجمة المصطنعة، كما في:

"King Arthur *sirred young Lancelot"

"سيَّد الملكُ آرثر لانسلوتَ الصغير"، اي خلَع عليه لقب "السيد لانسلوت" في مقابل:

"Don't 'sir' me!" "لا تقل لي: يا سيد!" [لا تسيِّدني!]

والطريق رقم ٧ هو النوع الذي يمثله الفعل الفرنسي faire "اعمل" (أي: "قُل")، الذي ناقشه سبيتزر في: LEo Spitzer, *Archivum Romanicum* 8 (1924) pp. 24ff

***

وختامًا دعنا نناقش العلاقة بين الشكل والمعنى.

والحالة التي ناقشناها في مكان متقدِّم من هذا الفصل، أي التلازم بين التضام compactness، والاطراد، والكثافة الإيجائية لا تتوافق بوضوح مع الافتراض الـتوكي أو قد تنفيه. فقد أوردنا ثلاث حالات إضافية، اثنتين منهما تميلان إلى نفيه، وواحدة تميل إلى تأييده بطريقة ضعيفة. ويجب ألا يزعجنا هذا الاختلاط في هذه النتيجة. فهذا الافتراض وسيلة، وليس مرشحًا لا بد من انتخابه أو رفضه. فإذا ما سأل أحد:

"هل اللغة تجسيمية؟"، أو هل يعمل التغير في اللغة عن طريق التدخل الإنساني المقصود؟ أو هل يمكن التنبؤ بالبنية السطحية من الدلالة؟

فيمكن الإجابة في كل حالة من هذه الحالات بـ: نعم ولا.

***

١ـ إغفال الاكتمال: neglect of well-roundedness

ونحن لا نعرف الصورة التي يمكن أن كانت عليها السببية في العربية قبل الفترة السابقة على الفترة التي جاءتنا منها أمثلة مباشرة؛ ولم تأت العربية، على أية حال بطريقة عامة واحدة لتكوين السببيات، مما يمكن أن يقارن بالصيغة sase- في اليابانية أو الصيغة -dir في التركية، ذلك مع وجود الوسائل الصرفية الصارمة جدا فيها. وبدلاً من ذلك نجد فيها بقايا أو بعضًا من السببيات الخاصة في وزني: "فاعَل"، و"استفعل"، وبقايا من السببيات غير المخصَّصة في الفعل المجرد والسببيات شبه المطردة في وزني "فعّل" و"أفعل"، على أن هذين الوزنين غير متمايزين بشكل واضح.

ويوجد في اللغات الجرمانية فصيلة صرفية مهذبة well-profiled للسببيات، وتتمثل في الاشتقاقات من الاسم والفعل عن طريق اللاحقة jan- (والصورة مشوَّشة بعض الشيء لوجود عدد قليل من الأفعال غير السببية التي تُنتج الأصولُ التي جاءت منها الشكلَ نفسه، مثل الكلمة القوطية θaúrsjan "يظمأ")، لكن الإنجليزية والألمانية تخلّتا عن هذه الصيغ إلا في عددٍ قليلٍ منها مما يبدو الآن كأنه بقايا بعيدة، مثل الكلمات الألمانية:

biegen: beugen, blind:blenden, brinnen: brennen, fahren: führen. hess: heizen, sinken : senken, springen: sprengen, trinken: tränken, wach: wecken, sitzen: setzen

ومثل الكلمات الانجليزية:

sit: set, liegen: legen = lie: lay.

وفعل الكون الذي يَسبق الفعلَ ويستعمل في الوعد بشيء:

benumb (وهي الآن numb 'خدَّر'فقط)، أو befriend 'يصادق" حين ننظر إليها من زاوية معينة، كما سُمح للإنجليزية أيضًا أن تتخلى عن بعض الصيغ[١٤].

وأخطر من ذلك أن هناك هجرة دلالية ضخمة للسببيات القديمة: drink "يشرب" في مقابل drench "يبلّل"، و load "يحمل" في مقابل lead "يُرشد"، و deep "عميق" في مقابل dip "يغطس"، و tief في مقابل taufen، وbite "يعض" في مقابل bait "يضايق"، و beissen في مقابل beizen ، و kann في مقابل kennen ، وdünken في مقابل denken، وessen في مقابل ätzen، و(cf. blitzen) blecken ، وgenesen في مقابل

nächren ، وgar في مقابل gerben ، وrinnen في مقابل rennen ، (وهي مثيلة دلاليًا لكنها ليست سببية من حيث الأصل)، reißen في مقابل reizen ، و verschwinden في مقابل verschwenden، وwinden في مقابل wenden وzwingen في مقابل zwängen (وهي كذلك مماثلة لكنها ليست متعدية).

ومثل هذه الحالات مما أسميتُه في مكان آخر بـ "وضع الحدود القياسية [إقامة الفوارق] " (وهو عكس التسوية القياسية [إزالة الفوارق]) تعاكس الجزءَ الرئيس من فرضية ستوكس، وإن كانت تتماشى مع المبدأ التجريبي الذي أضفناه إلى التعليق رقم (٢) على الفصل الثالث، ذلك أن الجزء الصَّرفي أصبح غامضًا نتيجة للتغير الصوتي؛ وربما كان مطردًا، في الأقل، لو كان هناك هجرة دلالية أوسع إلى خارج السببيات التي تُشتق بواسطة اللاحقة jan- أكثر من الهجرة من الوزنين "فعّل" و"أفعل" في العربية. ولا يمكن أن نقارن هنا عدديًا، ذلك أنه لم يبق إلا عدد من الصيغ المتحدرة من الصيغ المشتقة بواسطة jan–؛ أما من حيث النوع فيبدو أن الحال على هذا الوجه، ذلك أن تلك المشتقات بواسطة اللاحقة- jan التي توقفت تزامنيًا عن أن تكون سببية تشتتت بشكل كبير على مساحة واسعة من الخريطة الدلالية: فـ"cause to lie" "جعل يجلس" [أجلَس] لا يزال من الممكن اكتشافُها في lay "يطرح أرضا"، لكن لا يمكن لأحد أن يسمع drink من خلال drench؛ فيما يمكن إلى حد كبير جدًا أن تُبين صيغةُ "فعّل" الزائغة، نحو: "علّم" عن علاقتها الواضحة بصيغة الفعل المجرد. وهذه هي الحال كما يبدو لي، في الأقل؛ وهناك عدد كبير من صيغ "فعّل" التي يحتاج فحصها إلى وقت طويل.

***

وتوحي اعتبارات أخرى لعدم التقيد بمبدأ الاكتمال well-roundedness أن اللغة لا تخفق أحيانًا، بطريقة بطيئة دائما، في اتباع فرضية ستوكس وحسب، بل قد تميل إلى مبدأ مناقض لها بدلاً من ذلك.

ولقد استثنيتُ الأفعالَ السببيةَ من وزن "فاعَل" من التفسير بعض الشيء، ويعود ذلك جزئيًا إلى ندرتها ولكونها أيضًا لا تختلط بغيرها في الحيِّز الدلالي، مع بعض الارتباطات

الخاصة بها، وهي لا تتفاعل، مثلاً، مع التكثيرية أو العزوية. وليس تقليلاً من حيويتها الممكنة، أن يكون لإجراءٍ اشتقاقيٍ ما حدودٌ دلالية ضيقة نوعًا ما، والواقع أنه يمكن أن يزيد هذا التضييق من تفرده. فـ: "يتركها يتساقط بعضها فوق بعض" "Uebreinander herfallen lassen" شيء رائع لـ "سَاقَط" أن تعني شيئًا أكثر وضوحًا من "drop" . فللفعل "to drop" سَلَفٌ غريب مشتقٌ من الاسم، وهو ما يمكن أن يجعل منه كلمة غنية في إيحاءاتها؛ لكن لما كان الاشتقاق الصِّفر غير متحفِّظ دلاليًا في الإنجليزية فإن انتباهنا لا يوجَّه نحو الاسم drop "السائل المكوَّر" (وقد فجأني أن أعرف أن هذا هو معناها الأصلي)، لهذا فقد تضاءل الفعلُ ليصير شبيهًا باهتًا بالمرادف للفعل fall، ويختلف عنه بصورة أساسية في أنه بخلاف fall يمكن أن يستعمل بصورة متعدية أيضا.

انظر إلى حالة أخرى من الثَّمن الذي يُدفع في مقابل الاكتمال well-roundedness: وهي تَصرُّفُ الفعلِ الماضي في الإنجليزية. فهو ينطبق على كل فعل تقريبا، بانتظام دلالي عظيم (وذلك على عكس الحال في بعض اللغات الغنية بصيغ المضارع الماضوي preterite-presents وصيغ الماضي العام الناقص suppletive aorists والتصريفات الناقصة، الخ.) وهي تثير الإعجاب بصورة تماثل تصريف المياه غير اللافت للنظر في الوقت الحاضر. فقد اختفى منها التأكيد والتظاهر وهما الظاهرتان اللتان كانتا تشيعان في الأفعال الماضية المضعَّفة في أسرة اللغات الهندية الأوروبية ـ مثل momordi, fefelli [١٢]. وقد تعودنا بصورة دائمة على أن ننظر إلى التصريف على أنه ينطبق بصورة مطردة، بحيث صار الذين يتساءلون عن سبب كون الأمر على هذه الشاكلة يَبْدون غرباء بشكل يماثل أولئك الذين يمكن أن يتساءلوا عن استطاعتنا الرؤية عبر الهواء أو الزجاج. ومع هذا فهناك شيء من الحكمة في التحفظات التي عبر عنها هافيرز (Havers, Handbouch 16f)، كما في قوله:

"وقد بين فاكرناكل أيضا في دراساته عن صيغة perfektum اليونانية كم هو مضلل الاعتقاد بأن كل فعل يمكن أن تبنى منه جميع التصريفات الممكنة".

"Wackernagel hat auch in seinen Studien zum griech. Perfektum gezeigt, wie irreführend es ist zu meinen, jedes Verbum könne 'durchkonjugiert' werden." (id.17)

فالإسكان الجيد للمواطنين جميعًا في المعجم هدف يثير الإعجاب، لكن في أثناء ذلك لا بد أن يوطِّن المرء نفسه على رؤية أن الخيار بين القلعة أو الكوخ حل محله المنظر المتوسط للبيوت العادية.

ونلاحظ مقدار الاندفاع نحو الكلمات التي ظلت بشكل عنيد خارج النمط، مثل brethren "إخوة".

دعنا نجعل الفعل dare "يجرؤ" يتفادى التصريف في المضارع ـ هل يستطيع، وهو ما يجعله يتحلى بشيء من التحلي بالجرأة. ومن هنا ستعني الجملة: he dare not say "منع الكلمات من الخروج من بين شفتيه؛ وهو ما يحمل على الظن بأنه جبان" [ويستعمل المؤلف هذا الفعل في التراكيب ليدلل على ما يريده من تحليل].

"Let dare somehow evade inflection in the present – dáre it do so, and it has somehow the dash of the days of daring. "He dare not say" forbids the words to pass his lip; on one would think him merely faint-hearted."

ومن هنا نقترح مبدأ معاكسًا للتيار لفرع الاكتمال well-roundedness في فرضية ستوكيس، وهو: إن عدم الاطراد يخدم وظيفة تعبيرية.

٢ـ الإنتاجية ضعيفةُ التهذيب Ill-profiled productivity

ذكرنا في القسم الأخير أن الإنجليزية تخلَّت عن طُرُقها القديمة لصياغة السببية، ومن غير تعويض مماثل في بعض الأحيان. لكن هذا الفَقْد صار بصورة كلية أكثرَ من عامٍ بسبب التطور الكاسح للأفعال السببية المشتقة بطرق الاشتقاق الصِّفري من أصول فعلية واسمية وصفات، مثل:

"heat/warm/boil the soup"

"حَمِّ/ ادفئ/ اغلِ الحساء"

ومع أن هذا الاطراد كاسح فهو يأتي بصورة متقطِّعة، فتشعُر الكلمات التي تدخل اللغات بصفة خاصة بعدم الراحة من الاشتقاقات الإنجليزية الخشنة مثل:

"Its ears wiggled/The rabbit wiggled its ears"

"تحرَّكت أذناها/ حرَّكت الأرنب أذنيها"

"The pendulum oscillated /?John oscillated the pendulum"

"تذبذب البَنْدول/ ؟ذبذب جون البندول"

(وهي صحيحة نحويًا لكنها لا تبدو عبارات مَثَلِيَّة)

"The prices rose /The grocer raised his prices"

"ارتفعت الأسعار"/ " رفع البقال أسعاره"

"Th balloon ascended /*The helium ascended the balloon"

(أما:

*The path ascended / They ascended the path"

"*صَعِد الطريق"/ صعدوا الطريق"

فليست سببية مناسبة).

وبالمثل: shrink "انكَمَش"

في مقابل: contract "يتقلص"

(وإن كانت blow up "ينفجر" تتصرف مثل: explode "ينفجر"، و inflate "ينتفخ")

و: twist "يلوي"

في مقابل: spiral "لولبي"

(وإن كانت: turn "ينحرف" توازي: rotate "يدور بالتناوب").

وتكمن المشكلة في أن للاشتقاق الصُفري المطرد للأفعال قيمًا دلالية أخرى كثيرة؛ ومن هنا فليست هذه العملية مهذبة well profiled. كذلك فالسببية في العربية ليست مهذبة، ذلك أن لـ "فعّل" و"أفعل"، هذا إن لم نذكر "فاعَل" و"استفعل"، نسبًا دلالية أخرى شبه مطردة؛ لكن الغموض من حيث النوعية أقل بشكل ظاهر.

ويمكن أن يردَّ المعتَق لفرضية ستوكس المماحِكُ قائلا: إنني أتفق معك في أن الإنجليزية قد اختارت نظامًا للاغتناء السريع فيما يخص السببيات مما أنتج فيها تراكيب من نوع jerry-built "بناء جيري"، بدلاً من احتفاظها بالأفعال المشتقة عن طريق اللاحقة -jan، أو أنها طورت سابقةً تتكون من فعل الكون be- أو اللاحقة en- بنسبة واحدة مطردة، لكن ربما تكون السببيات في الإنجليزية أقل غنى مما في العربية؟ لكن في العربية عددًا

كبيرًا من المحمولات التي يمكن أن تكوّن منها أفعالاً سببية مشابهة فيما لا تستطيع الإنجليزية ذلك، من مثل:

enter, eat, sleep, weep. . .

"دخل"، "أكل"، "نام"، "بكى". . .

ومصادر الغنى هائلة في الجانبين كليهما، إلى حد أننا لا نطمئن إلى الكيفية التي يمكن أن نختبرها بها. فهي تشبه محادثات نزع السلاح: فيمتلك الروس عددًا أكبر من الصواريخ، لكننا نملك عددًا أكبر من الرؤوس النووية؛ وهم يملكون عددًا أكبر من الدبابات، لكننا نملك أسلحة مضادة للدبابات بعدد أكبر وأفضل؛ ولديهم جيش أكثر من حيث الجنود، لكننا نملك قدرًا أكبر من الجنود إذا عددنا جنود حلف شمال الأطلسي؛ وقنابلهم أكبر، لكن قنابلنا أكثر دقة؛ وهكذا وهكذا. لكن دعنا نركز هنا على مكوّن واحد فقط.

فتتوفر في الإنجليزية سلسلة من الأفعال التحويلية translative النشطة "التي تجعل الشيء يتحول من حالة إلى حالة أخرى أو يتحول من مكان إلى آخر"، ('cause a thing to pass from one state or location to another') تقوم بتضمين طريقة تنفيذ الفعل في الفعل. وهذه الفصيلة بالطبع محدودة دلاليًا بعض الشيء. لكن الاحتمالات الخلاقة المستمرة في داخل هذه الفصيلة التحويلية ـ النوعية Manner تعني أنها مثال جيد على ما أعنيه بالمقولة النحوية الغنية.

ولنقل إن الوضع هو التالي:

He rubbed, the locus of his rubbing was his eyes, and as a result of this rubbing his eyes became red.

"حك عينيه، وكانت عيناه مركز الحك، ونتيجة لحكه عينيه صارت عيناه حمراوين"

ويمكن في العادة أن نعبر عن هذا الحدث بطريقتين:

أ ـ "He reddened his eye, by rubbing them"

< He [CAUSE(λx) (x be red)](eyes). –by-rubbing>

وهذا هو الأسلوب العربي ("حمَّر")

ب ـ "He rubbed his eyes red."

<He CAUSE-by-rubbing(eyes be red)>

ومن الواضح أن هذه الطريقة مما يميز الإنجليزية بشكل خاص[١٤]؛ إذ ينتج عنها بنية حيوية تتكون من عبارة مفردة. ثم إن هذا النمط ليس متاحًا للعربية عموما. فتشبه العربيةُ الأسبانيةَ في تحفُّظها فيما يخص ترك النوع manner يصير معلاقًا للتركيب السببي. إذ قد تميل العربية بصورة عامة إلى وضع النوع في هيئة "حال"، كما تميل الأسبانية إلى استعمال اسم الفاعل.

ويمكن بصورة استثنائية أن يُدمَج هذا كلُّه في فعل واحد، وربما في صيغة مثل: "Jan defenestrated Karel" "ألقت جان كاريل من النافذة"، أيْ جَعلَتْه يمر من خلال النافذة، برميها له؛ لكن بما أننا لا نتعامل هنا مع سببيات مشابهة، فالدلالة مشوشة لهذا لا لحتاج إلى تحليلها إلى العناصر المكوِّنة لها. فكل ما يتطلبه الصَّرف منا أن نعتقد من العبارة: "جان أغرق هاري" أن جان جَعلَ هاري يغرق. ولحن لا نستطيع أن نقول باطمئنان إن هذه حالة من التحوُّل في الانتقال النوعي، مع أن هذا ما تعنيه (وهو ما يماثل أنَّ kill تعني "جعل يموت"): ومعناها أن جان جعل هاري يموت عن طريق غَمْره بالماء.

وليس الفرق الرئيس بين النمط (أ) والنمط (ب) أن (أ) تتضمن فعلين وأن (ب) تتضمن فعلاً واحدا؛ فهذا لا يزيد عن كونه صدفة في المثال. قارن (من النمط "ب"):

"He hammered the metal flat"

"جعل الصفيحة المعدنية مستوية عن طريق ضربها بالمطرقة"

و (من النمط "أ"): "He flattened the metal with a hammer"

"سوَّى الصفيحة المعدنية بالمطرقة"

والفرق الرئيس هو أن (النمط "أ") يحوي مُلحقًا يُمكِن حَذْفُه، ومن هنا فهو لا يكوِّن بنية موحَّدة (في الإنجليزية)، فيما لا يمكن حذف التابع المؤثِّر فيه في (النمط "ب") بصفة عامة من غير أن يؤثر ذلك في ارتباطات بقية الجملة أو حتى نَحْويَّتها:

"He whittled the stick"

"برى العصا"

في مقابل: "He whittled the stick into an arrow"

"حوّل العصا إلى سهم عن طريق بريها"

(حالة المضي")

*"They sewed themselves"

"خاطوا أنفسهم"

في مقابل:

"They sewed themselves blind"
(Manchester Guardian, 1980)

"جعلوا أنفسهم عميًا عن طريق خياطة [أعينهم] "

فلهذا كان (النمط "ب") مُتضامًا.

والسؤال هنا: ما درجة حيوية هذا الاشتقاق في الإنجليزية، وهو الذي يظهر في العربية بشكل ضعيف؟ (والمثال من العربية الذي يمكن مقارنته شيئًا ما هو: "سَمَّر "أ" على "ب""، وهو الذي يُمكِن تحليلُه على أنه <"جعل "أ" يكون "ب" بمسمار">.

ولن يكون بإمكاننا كشف حقيقة الأمر بمجرد إيراد بعض الأفعال المأخوذة مباشرة من المعجم. فالـ energia ليست الـ ergon ، كما أن الاطراد ليس مجموع الاطرادات السابقة. أما الإجراء الذي نُحبِّذه، وهو الذي مِلنا إلى وصفه في الفصول السابقة بـ"الجمالي"، ذلك أنه ليس شكليًّا، أو بنيويًّا، أو إحصائيًّا، فهو الذي أوصى به هافيرز، وهو محلِّلٌ دلاليٌّ بارع:

"يمكن التحقق من هذه الشروط المرتبطة بتاريخ التطور بأبسط طريقة عندما نستطيع متابعة تغيراتها التركيبية في وضع status nascendi".

"Die Feststellung dieser Bed [ingungen der Entwicklungsgeschichte], gelingt am leichesten, wo wir synt. Veränderungen in status nascendi beobachten können."(Handbuch p. 11)

لهذا سنورد بعض الأمثلة التي تتسم بأنها هامشية أو مغايرة، وهو عكس ما يمكن توقُّعه، مع التحليلات الأخرى التي تفضِّل في الوصف التزامني. إذ يمكن لنا هنا أن نتفحص مسار حيويتها وهي تنساب عبر السطح.

مع المكوّن الجزْي بوصفه تابعًا متأثرًا:

"The press had demonstrated that this malpractice was only part of a huge operation by the Government to spend itself into favour."
(Manchester Guardian, 1981.)

"Kill yourself into a hole, and the chances are a time comes when you have to kill yourself out."
(D. Hammt, The Dain Curse, NY: 1928.)

(وهذه نصيحة لقاتل، لا لمنتحر).

". . . that you are not hearing a squish into the data"
(John Robert Ross. Based on lexicalized *reads* into).

"Each time the economy had stalled since the first Opec oil crisis, Italy had been able to export its way out of trouble with a style and panache that left critics gasping. . . "
(The Economist, 23/5/1981; via exports.)

"Let us see what Reagan can do. Maybe he can tax-cut us all to prosperity."
(New Republic, 24/1/1981.)

"their efforts to fan Saunders- Young back to life"
(id. 183/1981, ref. To congressional bill)

"He hammered his fool self to death."
(Song, "John Henry".)

"an old, toothless, wheezing dam, whose breath would stink you into a consumption in less than three months."
(Smollet, Roderick Random, ch. XLIV.)

"The fixation of policy makers on bribing the North-South problem out of existence has obscured the extent to which third world underdevelopment has become a function of the South-South relationship."
(New Republic, 6/9/1980)

مع متممات ظرفية أو وصفية متأثرة:

"Every time Willie falls down I have to kiss him better."
(Comic strip, "Albert Herbert Hawkins", 1980)

"She nicked the catch of her paint-box to, more firmly than was necessary, and the nick [here: act of 'nicking'] seemed to surround in a circle forever the paint-box, the lawn, Mr Bakes. . ."
(To the Lighthouse I. ix)

وتبدو هذه الأمثلة كلها عيّانًا نشيطة (قوية) في الشكل والمضمون كليهما. فأن يكون في الإنجليزية فصيلة للنوع ـ التحويل تتسم بالغنى على الرغم من عدم وجود بعض الوسائل الصرفية الواضحة بدرجة كافية إنما هو دليل معاكس للفرضية الستوكية، لكن كون النوع "ب" المتضامّ هو الذي اغتنى إنما هو دليل على التماشي مع تلك الفرضية.

***

٣ـ الحذف النسقي لمقولات صرفية غير متميِّزة:

ويتابع المدافعُ المحاصَرُ عن فرضية ستوكيس قائلا:

حتى إن اتفقنا على أن في الإنجليزية أفعالاً سببية حيوية ضعيفة التهذيب ill-profiled من بعض الجوانب فلا يزال هناك عدد كبير من الأفكار التي لا يمكن أن يعبَّر عنها بطريقة تأليفية على هيئة أفعال سببية: فهل يستعمل المتكلمون في هذه الحالات، حين يتجنبون التعبيرات المطولة غير الأنيقة، فعلاً بسيطًا بدلاً من ذلك، أو طريقة أخرى أكثر كفاءة؟

ولا ينطبق هذا المعيار بالطريقة التي صيغ بها هنا. وذلك لما يأتي: (أ) تكمن المشكلة في الطريقة التركيبية التي يغلّف بها المتكلمُ المعنى الذي يقصده؛ فالكلمة التي تكون سببية دلاليًا وإن لم تكن كذلك صرفيًا ستكفي، لهذا يوسِّع هذا مجالَ الأفعال التي يجب أن ننظر فيها. فلا يمكن أن يكون في الإنجليزية جملةً مُنجَزَة تبدأ بالصورة التالية:

<John Past Cause Harry die >

بمعنى سببي مشابه كما تفعل العربية ("أمات")، لكنها يمكن، بتنازل مرغوب، أن تستعمل الفعل Kill .

(ب) والطرق المطولة التي نعالجها هنا مطردة، على خلاف الطرق ذات الصلة بالأفعال الشروعية، لهذا فمع أنها لا تُنتج بنية تركيبية متضامّة فهي تتطلب، إن تطلبت شيئًا، مجهودًا أقل لكي تنتج.

(ج) وليست هذه من الحالات التي يمكن أن يُتسامح معها باستعمال تركيب أبسط وأقل تحديدا، وذلك لأسباب جبرية algebraic بسيطة. ففي البنية:

<John Cause: Mary drop the plate>

تجد لديك فاعلين يجب أن يُذكرا، لهذا فأنت بحاجة إلى فعلين إن لم يكن لديك فعلٌ سببي: فليس هناك شيء يمكن حذفه من الجملة. وأقرب شيء إلى الشكل المُنقِذ هو حين يُحذف مفعولٌ به فاعِليٌّ agentive يمكن التنبؤ به تداوليًا وهو ما ينتج عنه الحصولُ على فعل سببي بالإنابة، كما في:

"Hitler butchered millions"

"جَزّر هتلر ملايين [من البشر]"

وكما يحدث دائمًا يؤخذ الشكل المُنجَز بقدر أقل من الجدية في الأقل، كما لا يمثل هذا الإجراء اندماجًا بل يمثل بنية مستقلةً بنفسها، وهي حركة مقصودة وإن كانت مؤذية منطقيًا. قارن بالعناوين الصحفية التي ظهرت مؤخرًا في الصحف المعادية لبريطانيا أو المتعاطفة مع الجيش الجمهوري الآيرلندي:

"Thatcher murders Sands!"

"قتلت ثاتشر [رئيسة وزراء بريطانيا السابقة] [الثائر الإيرلندي] ساندز"

(أما الوضع مصوَّرًا بموضوعية فهو:

Thatcher failed to cause or deliberately refrained from causing her deputies to prevent Sands from allowing himself to die")

"أخفقت ثاتشر أو تعمدت الا تجعل أعوانها يحولون بين ساندز والسامح لنفسه بأن يموت"

والحالات التي يمكن أن يُنتِج فيها اختبارُ الإنقاذ بعضَ النتائج هي تلك التي يمكن أن يكون ما تقوله فيها بدلاً من الشيء الأكثرَ تعقيدًا صحيحًا أيضا، بدرجة ما. فليس صحيحًا، في المثال السابق وفي الحالة العامة، أن:"John dropped the plate" "أسقط جون الطَّبَق" ـ

اي أننا قد لا نوافق على هذه الرواية لما حدث بالفعل، إلا إن كان جون عُرْفًا وسببًا مسؤولاً عن الأعمال التي تقوم بها ماري (قارن بنقاشنا السابق عن غموض كلمة "مسؤول"). وبالمقابل يمكن أن يقال في الانجليزية التي ليس فيها أفعال شروعية مكتملة well-rounded :

"John entered the room and sat on the sofe"

"دخل جون الغرفة ثم جلس على الأريكة"

حيث المقصود في الواقع هو: "sat down on the sofe . . ."، ذلك أنه إن جلس عليها فإنه في الحالة المألوفة (إن لم تكن هذه الأريكة من نوع الأرائك المزيفة) سوف ينتهي به الأمر جالسًا عليها، لذلك فالتعبير قريب جدا. أما أن يُسمح لك بهذا التقريب أم لا فأمر يعتمد على السمات الخاصة التي تسم الفعل والسياق:

"John went [*was as replacement form] and fell asleep [OK: slept.] Suddenly there came [OK: was] a knock on the door and he awoke [*was awake] with a start"

"ذهب جون (ولا يمكن استبدالها بفعل الكون was) واستغرقه النوم (واستعمال الفعل "نام" ممكن). فجأة حدثت طرقة على الباب (واستعمال: "كان هناك" ممكن) ثم صحا (ولا يمكن استعمال "كان صحا" (و: was awake قريبة من الجواز إن حذفت عبارة with a start)."

وينبغي أن أؤكد أن هذه الاعتبارات لا تمثل نتيجة مضادة للفرضية الستوكية بوصفها اختبارا، وإنما هي فقط نتائج محايدة لا يمكن أن ينطبق عليها هذا الاختبار هنا.

وهناك مجموعة أخرى من التعبيرات التي يمكن أن ينتج عنها دليل توافقي للنتائج الإدراكية لفرضية ستوكيس. فالمعاني الرئيسة التي نعنيها هنا قد تهرب إن دققنا النظر إليها مباشرة، بشكل يشبه بقايا من الخيال على هوامش شبكية العين؛ لكن يمكن أن نُغافِلها بالتجربة التالية. اقرأ الكلمات التالية بسرعة ثم انظر إن كان هناك شيء خاطئ:

heart-rending, mind-boggling, eye-catching, soul-stirring, mouth-watering, breath - taking, hair-raising, ear- splitting, gut-wrenching, back – breaking

لكن اقرأها الآن بطريقة بطيئة ثم اكتشف الكلمة الغريبة من بينها.

وهذه الأفعال كلها متعدية إلا واحدًا منها، فهو فعل لازم متخفٍّ على شكل فعلٍ سببي مشتق صِفْريا (وهذا النوع غير موجود في الواقع). فالمشهد يهز القلب، ويحير العقل (وهو فعل سببي مشتق صفريًا أو هو في الأقل مماثل لفعل مسلوب التعدية مشتق صفريًا: ('the mind boggles'

"يلفت النظر" catches the eye

لكن: it makes the mouth water (*waters the mouth)

"أسال اللعاب"

(كما أن: hair - raising أيضًا نوع بارع لسبب آخر. فالدلالةُ دلالةُ فعلٍ متعدٍّ مألوف < raises the hair> مثل: "raises the obelisk" لكن هناك عدم تفضيل سياقي لمثل هذا الترابط السطحي؛ إذ يمكن لنا أن نقول: 'makes the hair stand up on end' "جعل الشَّعْر يقف على رؤوسه"). وربما جرؤتُ على أن أقترح أن العبارة المتخفية، في القراءة الأولى، لم تقفز من القائمة بشكل فوري، إلا في حالة تجوال عينيك عبر الصفحة أو حين يكون عقلك مستعدًا للبحث عن الأفعال السببية مما يجعلك متحفِّزًا. وهذا ما يمكن أن نتوقعه من فرضية ستوكس: فعدم وجود المقولات المركبة الصحيحة تركيبًا well-formed للسببية في مقابل الفعلية هو الذي يقلل من أحساسنا بالحذف النسقي حين لا تُعامَل المقولتان اشتقاقيًا بشكل مماثل.

قارن المقولات الدلالية للأفعال المبنية للمعلوم بتلك المبنية للمجهول في الإنجليزية. فمن المؤكد أن هناك أنماطًا "توافقية" ergative قليلة يمكن للاسم فيها أن يظهر مع فعل ما مفعولاً مباشرًا له أو فاعلاً لازما، لكن هذه الأسماء نادرة وهي في الغالب محدودة دلاليًا باستعمالها للتمايز:

John smelled the egg/ The egg smelled (viz. bad)
John scares easily (?with a fright-mask)
The book sells well (*Barnes +Noble sold the book well)

ويكون التصريف أو التركيب أو الفعل مختلفةً غالبا:

John defeated Bill / Bill was defeated by John/ met defeat (at the hands of John);

Max likes beans, Beans are a favorite with Max; Max liked the book, The book pleased/entertained Max;

People liked the candidate, The candidate was well-liked /appealed to everyone/found favor with one and all.

والاشتقاق عن طريق اللاحقة ee - - ، التي جاءت من اسم الفاعل في الفرنسية ترث النمط التوافقي:

un raté, il a raté; un évadé (escapee', il s'est évadé; l'inculpé, on l'a inculpé

لكن المعادلة الناتجة للأنماط المتمايزة المتعدية واللازمة ليست مستقرة في الإنجليزية. فقد سمعت أكثر من مرة بعض المدافعين عن اللغة غير المتخصصين يشنعون على التكوينات التوافقية مثل standee, secapee: ويبدو أننا نشعر أنه إن كانت ee – سوف تنطبق على المفعولات المتعدية فيجب أن تقتصر عليها.

وبالجملة: يمكن للأفعال المحوَّلة إلى اسماء nominalizations أن تُحيِّد بصفة بسيطة الفرقَ بين الأفعال السببية وغير السببية، وهي التي ليست موسومة صرفيًا ابتداء، أكثر من قدرتها على تحييد الفرق بين الأفعال المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول، وهو ما تتميز به[١٥]. واعتراضنا الدلالي غير الواعي لتراكم المقولات (حيث تُخلط 'الأسماء المبنية للمجهول فعلا' نحو: sting-ee بـ: escapee) يقوم غالبًا على التركيب الصرفي: فالذي يهرب، من حيث المنطق، لا يحتاج أن يكون نحويًا أكثرَ عملاً من الذي يَضرب، حتى إن كان لنا أن نتوقع أن أغلب اللغات قد تعمل على إقامة ذلك الاختيار؛ قارن: Ill s'et évadé في مقابل اللاتينية vapulo (مبني للمعلوم: 'I am beaten') والمكافئ الفرنسي لها trinquer .

وهناك عدد كبير من الاعتراضات التي يمكن أن تثار ضد تجربتنا الصغيرة، وهي التي لم نقدمها بوصفها نوعًا من العلامة الفارقة في تاريخ تأييد الفرضية الستوكية، وإنما بوصفها نوعًا من الفضول الموحي وحسب[١٦] .

التعليقات

(١)ـ قارن بفيشر في Grammatik 88:

"فالسببية لا تُستخدم عادة عندما يكون الحدث قد وقع بفعل شخص أوكل إليه ذلك العمل، فمثلا: "قتَلَه" (تستخدم للتعبير عن تنفيذ المسند إليه عملية القتل أو عندما يوكل التنفيذ إلى غيره (أي جعله يقتل) ".

"Das Kausativ wird gewöhnlich nicht verwendet, wenn eine Handlung durch Beauftragte ausgeführt wird: *qatala-hu* 'er tötete oder 'er liess ihn töten'"

(وهو ما يعني استعمال صيغة الفعل المجرد للعمل بالنيابة، بدلاً من صيغة "فعّل" أو صيغة "أفعل").

قارن هذا بما في الفرنسية:

"Il a fait manger les poules"

حيث البنية السببية الظاهرة يمكن أن تؤخذ بطريقين، وبالغموض نفسه الذي نجده في:

"The chickens are ready to eat"

وللاطلاع على الغموض المستَشْعَر في صيغة اسم الفاعل "مُوقِد" بين الفاعل المباشر والفاعل بالنيابة، انظر ابن شنب، تحقيق، ص ٢٢٠ التعليق.

(٢)ـ "Remarks on Nominalization" في كتاب جاكوبز وروزمباوم:

Jacobs and Rosenbaum, *Readings in Transformational Grammar*, p. 192,=p.24 of *Studies on Semantics in Generative Grammar*.

(٣)ـ Chicago Linguistic Society. *Functionalism* volume, 1975, p.369.

(٤)ـ *Irregularity in Syntax*, p. 96f.

(٥)ـ وأقول هذا لدليل سياقيٍّ من اللغات التي تعبّر بطريقة تحليلية عن kill على أنها "جَعَل يموت"، ولأن الشك المتآكل للتحليل للمكوِّنات يجب، عند نقطة معينة، أن يتوقف. لكن إن تحداني أحدٌ فربما أتخلى حتى عن حكمه الذي يشبه أن يكون تحذيرا. فمن الممكن أن بعض المتكلمين حين كانوا أطفالاً لم يتعرضوا لتجربة موت أحد أو أنهم لم يفهموا غوامض الموت، لكنهم اكتسبوا المعرفة السلوكية في استعمال kill من قضائهم أوقاتا مع النمل والضفادع والتفرُّج على التلفاز؛ وقد تعلموا في نهاية الأمر أن die هو الشيء الذي يحدث للضفادع حين تُقتل. زيادة على ذلك، ربما يكون الدليل السياقي مضلِّلا، كما في vapulo/sequor.

(٦)ـ ويضيف أريل بلوخ، فيما يخص العربية قائلا: "وربما جرؤت على القول بأن التركيب ذا المفعولين أقدم".

(٧)ـ *A Linguistic Study of Causative Constructions* (1970), ch. 4

وتعريف شيباتاني لما يمكن أن يُعد سببيًا مؤسَّسٌ على اعتبارات دلالية ومن غير تحديد صرفي، لكن الصرفيات عندنا مجموعة فرعية من السببيات عنده، لذلك فملاحظاته تنطبق هنا أيضا.

(٨) ـ ويبدو أن الأفعال المحوَّلة المشتقة عن طريق اللاحقة jan استمرارٌ لما في اللغات الهندية الأوروبية eyo-* وهي التي تكوِّن من جهتها السببيات، نحو الفعل phobéo "أنا اخيف"، والتكراريات/ الموسِّعات ، phoréo "أنا أحمل عادة" في اليونانية. انظر ماييه:

Meillt, *Introduction à l'étude comparative de langues* i.-*e* [8]1937,211f.

(٩)ـ ليس الفلاسفة وحدهم هم الذين تثير إعجابَهم الأسبابُ التي تنشأ عنها الأفعال. قارن الأشعار العامة المتداولة عن موضوع من تسبب في جعل كوك روبن يصبح غير حي. وبالمثل انظر أغنية بوب ديلون: "Who Killed Davey Moore"

(١٠)ـ (وفما يتعلق بهذه يبدو أن ليس هناك عالِم أو وقت كاف. وقد يكفي بعض الملاحظات الذَّرِّية:

ص ١٢: أوردت الصيغتان: "فعَّل" و"أفعل" من "ك ث ر" كأنها بالمعنى نفسه.

ص١٣: كان لها معنى مختلفًا، مع ملاحظة تشير إلى سيبويه، وهو الذي لا يبدو أن القول المنسوب إليه يؤيد الترجمة.

ص٢٦: يورد ليمهويز بشجاعة ترجمة آربري للآيتين ١١ و ٤١ من سورة الأنفال، ثم يستمر ليعطيها معنى الدقة بطريقة معاكسة لما اختاره آربري. فإما أن يكون رأيٌ واحدٌ منهما فقط صحيحا، أو أن يكون الأمر غير قابل للتحديد.

ص٢٧: يورد مثالاً من التلازم "اللحظي" لصيغة من صيغ "فعَّل" في سياق الزمن المستقبل (النساء، الآية ١٥٣ "يسألك أهل الكتاب أن تُنزِّل عليهم كتابا" وهو الذي إن فضَّل أيَّ شيء فسوف يفضِّل المعنى المضاد (لهذا فيمكن أن يُستعمل المضارع، كما هو هنا، بمعنى المستقبل).

ص٣٣: ومرة أخرى فترجمة آربري لكلمة "نزّل" في مقابل "أنزَلَ" في القرآن (النساء، الآية ١٣٦) مضادةٌ في المقتضى فيما يتعلق بتمييز ليمهويز الذي يقيمه انطلاقًا من الآية نفسها (يوحي الماضي في الإنجليزية بالصلة المستمرة لا الخاصية الصدفية).

ويمكن أن نضاعف الأمثلة من هذا النوع.

(١١)ـ المصدر نفسه ص ١٠٩. ويشتق ماكدونالد بالمِثل المعاني الإخبارية / التقييمية لصيغة "أفعل"، التي يسميها "ج" من المعنى البدائي للسببية في "ج" :

"فالفاعل في "افعل" يُحدِث من منظوره أو منظور الجماعة من حوله حالة المعنى الأساسي أو نوعه في عقل شخص آخر. "

(١٢)ـ ولم تكن اللاحقة الإنجليزية يومًا تتصف بأنها مهذبة well-profiled كأداة مسبِّبة، لكنها، مهما كانت قيمتها، أصبحت جامدة.

(١٣)ـ ويمكن أن يكون المثال الذي يُستعمَل في العامية: He done quit "انتهى"، "توقّف"، محاولة لإصلاح هذا الشحوب في صيغة الماضي.

(١٤)ـ للاطلاع على هذا النوع في الألمانية، انظر:

H. Paul, *Prinzipien* 153-154 (re Füsse wund laufen.)

(١٥)ـ ومرة أخرى فما ننظر فيه ليس الصرف المعجمي بل الصرف التركيبي. فيمكن أن تظهر walk وraise السببيتان وغير السببيتين، مثلاً، في الإطار نفسه:

"walk the dog/the line".

"raise the roof five inches/the dealer five dollars."

ويميّز بين الأفعال المبنية للمعلوم والمبنية للمجهول في أي إطار حين تكون الأشكال للفعل الرئيس متجانسة:

"John hit Bill", "Bill was hit by John."

(١٦)ـ وأحد هذه الاعتراضات أن mouth-watering وإن كانت كلمة جديدة منحرفة إلا أنها الآن مُمَعْجَمة [مستعملة] ومقبولة، كما أن الكلمة الجامدة مثل knowledgable التي لا تتميز بأية حياة في أسلوب تأليفها لا يمكن الآن تحليلها. وفي مقابل هذا ظهور بعض الصياغات الجديدة في مستوى mouth-watering:

"Gossips in America's car industry are getting over a jaw-aching week." (The Economist (London), 18/5/1981)

'Makes the jaw ache', not *'ache the jaw'.